

كتاب الرضتين

في

أَخِيَّةِ الدُّوَلَتَيْنِ

النُّورِيَّةِ وَالصَّلَاحِيَّةِ

تأليف

شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الشافعي

المعروف بأبي شامة

(٥٩٩ - ٨٦٥ هـ)

حقيقه وعقل عليه

إبراهيم بن أبي شامة

الجزء الأول

الرسالة العامة

كتاب الرّؤسيتين
في

أَخْبِلِ الدَّوْلَتَيْنِ
النُّورِيَّةَ وَاصْلَاحِيَّةَ

تأليف
شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الدمشقي
المعروف بأبي شامة
(٥٩٩ - ٦٦٥ هـ)

مفتّحه وعلّقه عليه
أَبُورَاهِيمَ النَّزَّازِي

الْجُزْءُ الثَّالِثُ

مؤسسة الرسالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

کتاب الرضتین
ج ۲

اَخْبَارُ الدَّوْلَتَيْنِ
الثَّوْرِيَّةِ وَاصْلَاحِيَّةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جَمِيعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ لِلنَّاشِرِ

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م



للطباعة والنشر والتوزيع

وطني المصيطبة

شارع حبيب أبي شهلا

بنيان المسكن

تلفاكس: (٩٦١١)

١٠٢٢٢٢ - ٢١٩٠٣٩ - ٨١٥١١٢

ص.ب. ١١٧٤٦٠

برقياً: بيوشران

بيروت - لبنان

Al-Resalah
PUBLISHERS

BEIRUT

LEBANON

Telefax: (9611)

815112-319039-603243

P.O. Box: 117460

E-mail:

Resalah@cyberia.net.lb

Web Location:

[Http://www.resalah.com](http://www.resalah.com)

حقوق الطبع محفوظة © ١٩٩٧ م. لا يُسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يُسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةً أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ وَخَمْسٍ مِئَةٍ

قال العماد: وكان شمس الدين بن المُقَدَّم من أكابر الأمراء، وهو السابق إلى مكاتبه السلطان في تصويب رأيه في الوصول إلى الشام، وتدارك أمر الإسلام^(١). وكان السلطان عند تسلُّم بَعْلَبَك أنعمَ بها عليه، وردَّ أمورَها إليه، فأقام بها مستقراً، ولأخلاف^(٢) أعمالها مستندراً. ولما وصل السلطان في هذه التَّوْبَةِ إلى الشام لم يَحْضُرْ — كما جَرَتِ العادةُ — للخدمةِ والسَّلامِ، فإنه كان نَمَى إليه أن الملك المُعْظَمَ فخر الدين شمس الدولة تورانشاه بن أيوب طلبها من أخيه، وأنه لا يمكنه الرَّدُّ، فخاف من الحضور أن تتمَّ الأمور، ورُوجِعَ في ذلك مراراً سِرّاً وجِهَاراً، والتزم له أن يُعوِّضَ عنها ما هو أوفى منها، فأبى إلا الإباء، وشارف السلطان منه ومن أخيه الحياء. وشمس الدولة لا يَقْبَلُ عُذْراً ولا يرى عما طلبه صبراً. ثم استأذن أخاه في التوجُّه إليها، فأذن له، وتوجَّه عزُّ الدين فرُّخشاه إلى حوران لحفظ الثُّغُور، وسار السلطان إلى حمص، ونزل على العاصي عازماً على الجهاد^(٣).

• ووردت من الفاضل كتبٌ، من بعض فصولها: وأما سور القاهرة فعلى

(١) انظر ص ٣٤٢ وما بعدها من الجزء الثاني.

(٢) مفرداً خُلف: وهو ضرع الناقة، وكل ذات خف وظلف. انظر «معجم متن اللغة»:

٣٢٢/٢.

(٣) انظر «البرق الشامي»: ٩٢/٣ — ٩٤، و«سناه»: ٢٩٢/١ — ٢٩٤.

ما أمر به المولى شُرِعَ فيه، وظهر العمل وطلع البناء، وسلكت به الطريق المؤدية إلى الساحل بالمقسم*، والله يُعَمِّرُ المولى إلى أن يراه نطاقاً مستديراً على البلدين، وسوراً بل سَوَّاراً يكونُ به الإسلام مُحَلَّى اليدين، مُحَلَّاً الضَّدين. والأمير بهاء الدين قَرَّاقوش ملازمُ الاستحثاثِ بنفسه ورجاله، لازم لما يعنيه بخلاف أمثاله، قليل التثقل مع حمله لأعباء التدبير وأثقاله^(١).

ومنها في حَقِّ نقل القضاء من شرف الدين بن أبي عَصْرُون لما ذهب بصره إلى ولده^(٢): لن يخلو الأمر من قسمين - والله يختار للمولى خيرة الأقسام، ولا ينسئ [له]^(٣) هذا التحرُّج الذي لا يبلغه ملك من ملوك الإسلام - إما إبقاء الأمر باسم الوالد بحيث يبقى رأيه ومشاورته، وفتياه وبركته، ويتولَّى ولده النيابة ويشترط عليهما المجازاة لأوَّل زلَّة، وترك الإقالة لأوَّل عثرة، فطالما بعث حبُّ المنافسة الراجعة على اكتساب الأخلاق الصَّالحة. وإما أن يُفَوِّض الأمر إلى الإمام قُطْب الدين^(٤)، فهو بقية المشايخ، وصدرُ الأصحاب، ولا يجوز أن يتقدَّم عليه في بلد إلا مَنْ هو أرفع طبقة في العِلْم منه^(٥).

ومنها في إقامة عذر التأخر عن الجهاد: وأما تأشُّف المولى على

(١) «البرق الشامي»: ٩٧/٣ - ٩٨، و«سناه» ١/٢٩٦ - ٢٩٧.

(٢) انظر ص ٤٣٠ من الجزء الثاني.

(٣) ما بين حاصرتين ليست في الأصل، وثمة إشارة إلى استدراكها في الهامش، لكنه ذهب بالخرم الذي أصاب بعض كلمات السطرين الأخيرين، وما أثبتناه من «البرق الشامي»: ٩٨/٣.

(٤) هو النيسابوري، انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٣ من الجزء الأول.

(٥) انظر «البرق الشامي»: ٩٨/٣ مع اختلاف في بعض الألفاظ، و«سنا البرق الشامي»: ٢٩٧/١ - ٢٩٨.

أوقات تنقضي عاطلة من الفريضة التي خرج من بيته لأجلها، وتجدد العوائق التي لا يوصل إلى آخر حبلها، فللمولى نية رُشده، وأليس الله العالم بعبده، وهو سبحانه لا يسأل الفاعل عن تمام فعله، لأنه غير مقدور له، ولكن عن النية لأنها محل تكليف الطاعة، وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة. وإذا كان المولى [آخذاً]^(١) في أسباب الجهاد، وتنظيف الطُرق إلى المُرَاد، فهو في طاعة قد امتنَّ الله عليه بطول أمدها، وهو منه على أمل في نُجْح موعدها، والثواب على قدر مشقته، وإنما عَظُمَ الْحُجُّ لأجل جهده وبعْدِ شُقَّتِهِ، ولو أنَّ المولى فتح الفتوح العظام في أقلَّ الأيام، وفَصَلَ القضية بين أهل الإسلام وأعداء الإسلام، لكانت تكاليفُ الجهاد قد قضيت، وصحائفُ البرِّ المكتسبة بالمرابطة والانتظار طويت^(٢).

ومنها في ذكر أولاد السُلطان: وقبل الإجابة عن الفصول فنبشِّر بما جرت العادة به، لا قطع الله تلك العادة، من سلامة وصحة وعافية شَمَلَتْ موالينا أولاده السَّادة، أطاب الله الخبر إليهم عن المولى وإلى المولى عنهم، وعَجَّلَ لقاءهم لهم ولقاءهم له، فإنهم من يلق منهم [بل]^(٣) كلُّ منهم ملكٌ دَسْتُهُ برُّه، وفارسٌ مهده سَرُّه، فهم — بحمد الله — بهجة الدنيا وزينتها، وريحان الحياة وزهرتها، وإنَّ فؤاداً وسعَ فراقهم لواسع، وإن قلباً قنع بأخبارهم لقانع، وإنَّ طَرْفاً نام على البُعْد عنهم لهاجع، وإن ملكاً مَلَكَ تصبُّره عنهم لحازم، وإن نعمة الله فيهم لنعمة بها العيشُ ناعم، أما يشتاقُ

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من طبعة وادي النيل: ٣/٢، وفي «البرق الشامي»: ٩٩/٣: «يسبب الأسباب».

(٢) انظر «البرق الشامي»: ٩٩/٣ — ١٠٠ مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من طبعة وادي النيل: ٣/٢.

جَيْدُ المولى أن يتطَوَّق بِدُرَرِهِمْ؟ أما تَظْمَأُ عينه إلى أن تَتَرَوَى بنظرهم؟
أما يحنُّ قلبه على قلبه؟ أما يلتقط هذا الطائر بتقبيلهم ما خرج من حبه؟
وللمولى — أبقاه الله تعالى — أن يقول:

وما مثْلُ هذا الشوق تحمل مُضْغَةً ولكنَّ قلبي في الهوى بقلوبٍ
وفي أخرى: والملوك الأولاد في كَفَالَةِ العافية لا رَفَعَتْ عنهم كفالتها،
وعليهم جلالَةُ السلطنة لا فارقَتْهم جَلالَتُها، وكلُّ من الموالي السَّادة الأمراء
الأولاد، والقِلادة كُلُّها جوهر، وكلُّهم المقدَّم، وليس فيهم — بحمد الله —
من يؤخِّر، على ما عوَّد الله من صَحَّةٍ وسلامةٍ وكفايةٍ ووقايةٍ، ولزوم المستقلِّ
منهم لمشهد الكُتَّاب ولموقف الأماج^(١)، ومخايل الخَفَرِ فيهم من تحت ليل
الصِّبَا أنورُ دلالةٍ من ضوء السُّراج، والله تعالى يمدُّ في عُمر المولى إلى أن
يرى من ظهورهم ما رأى جدُّهم — رحمه الله — في أهل بيته من البطن
الرَّابِع، فوارس الحرب الرائعة، وملوك الإسلام التي منهم للإسلام أكاسرةٌ
وتبابعة.

ما فيهم^(٢) عِنْدَ العلاءِ صغيرٌ وصِغارُ أبناءِ الكِبارِ كِبارُ
نجومِ الأرض، وذُرِّيَّةٌ بعضُها من بعض، والخلف الصَّالح المحض^(٣)،
وهم في الدُّنيا والآخرة فُرْسانُ القوَّةِ والثَّقَى يوم^(٤) الحرب ويوم العَرَض.

(١) الأماج: الدريئة، وهي كلمة فارسية. انظر «تكملة المعاجم لدوزي» [الترجمة العربية]
١٨٥/١ حاشية رقم (٣٩٧)، و«قاموس الفارسية»: ٥٢. قلت: وفي هذه العبارة
إشارة إلى ملازمة البالغين منهم للدرس وتعلم الرمي.

(٢) في الأصل: وما فيهم، وبه لا يستقيم الوزن.
(٣) في «البرق الشامي»: ١٠١/٣ «والخلف الصالح المحض من الخلف الصالح
المحض».

(٤) في الأصل: ويوم، والمثبت من «البرق»: ١٠١/٣.

ومنها في ذمّ ماء دمشق ووخمها: عرف المملوك من الكتب الواصلة
التيّاث جسم المولى الأمير عثمان^(١)، والحقير مما ينال ذلك الجسم الكريم،
يوقد في قلوب الأولياء الأثر العظيم. و

قليلُ قَدَاةِ العَيْنِ غَيْرُ قليلٍ

وماذا يقول في بلدٍ لو صَحَّتِ الحِمِيَّةُ من مائه لكانت من أكبر أسباب
صِحَّةِ المحتمي وشفائه، فإنه ماءٌ يؤكل، وبقِيَّةُ المياه تُشْرَب، ويجدُ وخامته
من ينصف ولا يتعصّب^(٢).

ومنها: وأما المأمور به في معنى المنكرات الظاهرة، وإزالة أسبابها،
وإغلاق أبوابها، وتحصين كل مبتوتة^(٣) من عصمة، وتطهير كل موسومة
بوصمة، فالله يثيب المولى ثوابَ من غَضِبَ لِرُضِيَّهِ بغضبه، وَحَمَلَ الخَلْقَ
على مِنْهاجِ شَرْعِهِ وأدبه^(٤).

ثم أورد العماد فصولاً كثيرة، وقال: إنما أوردتُ الفصول الفاضلية،
لأنّ في كل فصلٍ منها ذكر سيرة، وفوائد كثيرة^(٥).

فَصْلٌ^(٦)

قال العماد: ومن جُملة ما أغفلته ذِكر ما أسقطه السلطان من مَكْس

(١) هو العزيز، وكان له من العمر هنا سبع سنين، انظر ص ٤٧٥ من الجزء الثاني.

(٢) انظر «البرق»: ١٠١/٣، و«سناه»: ٢٩٩/١.

(٣) المبتوتة: هي المرأة المطلقة طلاقاً بائناً. انظر «اللسان» (بت).

(٤) «البرق»: ١٠٣/٣، و«سناه»: ٣٠١/١.

(٥) «البرق»: ١٠٥/٣، و«سناه»: ٣٠٣/١.

(٦) من هنا تبدأ نسخة برلين، ورمزت لها بحرف (ب).

مكة — شَرَّفها الله تعالى — عن الحاجِّ، وتعويض أميرها بجلاب* غَلَّة تُحْمَل إليه في كُلِّ سَنَةٍ، وتعيين ضياع موقوفة عليها بالأعمال المصرية.

كان الرسم بمكة أن يؤخذ من حاج المغرب على عدد الرؤوس ما ينسب إلى الضرائب والمكوس، فإذا دخل حاجٌ حُبَسَ حتى يُؤدِّي مَكْسَه، وَيَقُكَّ بما يطلبونه منه نَفْسَه، وإذا كان فقيراً لا يملك، فهو يحبس ولا يُترك، وتفوته الوقفة بعَرَفَة ولا تُدْرَك. فقال السُّلطان: نريد أن نُعوِّضَ أميرَ مَكَّة عن هذا المكس بمالٍ، ونغنيه عنه بنوال، وإن أعطيناه ضياعاً استوعبها ارتفاعاً وانتفاعاً، فلا يكونُ لأهل مَكَّة فيها نصيب. فقرَّر معه أن يحمل إليه في كل سنة مبلغ ثمانية آلاف إِرْدَب^(١) قمح إلى ساحل جُدَّة، فإن الأمير بها يحتاج إلى بيعها للانتفاع بأثمانها، ويثق أهل الحرمين من الدَّولة بدوام إحسانها. وقرَّر أيضاً حمل الغلات إلى المجاورين بالحرمين والفقراء، وَمَنْ هناك من الشرفاء، ووقف لها وقوفاً، وخلَّدَ بها إلى قيام السَّاعة معروفاً، فسقطت المكوس، واغتبطت النفوس، وزاد البُشْرُ وزال العُيُوس، واستمرت التَّعْمى ومرَّ^(٢) البوس، وذلك في سنة اثنتين وسبعين^(٣).

ومن كلام الفاضل في ذلك في بعض كتبه: من البشائر التي لا عهد لحاج ديار مصر بمثلها، ولا عَهْدَ لملكٍ من ملوك الدِّيار المِصرِية بالحُصول على فخرها وأجرها، انقطاع المَكَّاسين عن جُدَّة وعن بقية السَّواحل، ويكفي

(١) الإردب: كيل لأهل مصر يسع أربعة وعشرين صاعاً بصاع النبي ﷺ، يزن اليوم ٣٩,٥٨٨ كيلاً. انظر «معجم متن اللغة»: ٥٦٩/٢.

(٢) في الأصل: وزال، والمثبت من (ب)، وهو يوافق ما ورد في «البرق» و«سنه».

(٣) «البرق»: ١٠٥/٣، و«سنه»: ٣٠٣/١ — ٣٠٤.

أن تمام هذه المثوبة موجب الاستطاعة^(١)، مقيم لِحُجَّة^(٢) الله في الحج؛ فقد كانت الفتيا على سقوطه مع وجود الحامل، وما أكثر ما أجرى الله للخلائق على يد المولى من الأرزاق، التي تفضل عن الاستحقاق، وما أولاه أن يتوَحَّى بالمعروف مكانه من هذين الحرمين الشريفين المهجورين من إسعاف أهل الاقتدار، والمحروم من قَدَرٍ فيهما^(٣) على خيرٍ فأضاع قُرْصَتَهُ بترك البدار. وغير خافٍ عن مولانا هَمَّةَ الفرنج بالقدس بَرًّا وبحراً، ومركباً وظهراً، وسِلْماً وحَرْباً، وبُعْداً وقُرْباً، وتوافيهم على حمايته وهو أنفٌ في وجه الإسلام، ومسارعتهم إلى نُصْرَةِ أهليه بالأرواح والأموال على مَرِّ الأيام. ومعاذ الله أن يستبصروا في الضلال، ونصرف نحن عن الحق وتضييق بنا في التوسعة على أهله سَعَةَ المجال^(٤).

المملوك في مستهل رجبٍ بمشيئة الله تعالى يُعَوَّل على السَّفر إلى الحجاز لقضاء الفريضة قولاً وفعلاً، والسَّائرون في هذه السنة بطمعة وقفة الجمعة وبفُسْحَةٍ وضع المكس خَلَقٌ لا يحصى، والمولى شريكٌ في أجرهم، فليَئِنَّهُ أن الملوكة عمرت بيوتها فخربت، وأنَّ المولى عَمَرَ بيت الله، فمن كرمه — سبحانه — أن يَعْمُرَ بيت المولى، وما أَشدَّ خجل الملوكة^(٥) من النبي ﷺ في التقصير في قوت جيرانه في هذه السنة، وما هكذا وصَّى ابن

(١) في (ب) للاستطاعة، ومثله في «البرق».

(٢) في (ب) بحجة، ومثله في «البرق».

(٣) في الأصل: منهما، وفي (ب) فيها، ومثله في «البرق»، والمثبت من طبعة وادي النيل: ٤/٢.

(٤) انظر «البرق الشامي»: ١٠٦/٣، و«سناه»: ٣٠٤/١ — ٣٠٥.

(٥) في «البرق» المملوك.

اللَّمْطِي، ولكن للغائب حُجَّتُهُ^(١).

قلت: وفي هذه المكرمة التي فعلها صلاح الدين رحمه الله بالحاج يقول الشيخ الفاضل أبو الحسين محمد بن أحمد بن جُبَيْر الأندلسي^(٢) من قصيدة له يمدح بها صلاح الدين - وستأتي فيما بَعْدُ^(٣) - أخبرني بها ثقة نقلها من خطه:

رَفَعْتَ مَغَارِمَ مَكْسِ الْحِجَازِ بِإِنْعَامِكَ الشَّامِلِ الْغَامِرِ
وَأَمَّنْتَ أَكْنَافَ تِلْكَ الْبِلَادِ فَهَانَ السَّيْلُ عَلَى الْعَابِرِ

(١) في الأصل: محجته، والمثبت من «البرق»: ١٠٧/٣.

(٢) هو صاحب الرحلة المشهورة، كان مولعاً بالترحل والتنقل، ولد سنة (٥٤٠ هـ) في بلنسية، وزار المشرق ثلاث مرات، الأولى (٥٧٨ - ٥٨١ هـ) وهي التي ألف فيها رحلته، وقد طبعت غير مرة، بتحقيق الدكتور حسن نصار، والرحلة الثانية كانت في شهر ربيع الأول سنة (٥٨٥ - ٥٨٧ هـ) وكان فتح بيت المقدس سنة (٥٨٣ هـ) من أقوى أسبابها، إذ أراد أن يجمع زيارة المساجد الثلاثة: المسجد الأقصى، والمسجد النبوي، والمسجد الحرام. والرحلة الثالثة كانت سنة (٦٠١ هـ) وذلك بعد وفاة زوجه بأيام، ووصل مكة أثناء سنة (٦٠٢ هـ)، فجاور فيها طويلاً، ثم جاور بالقدس، ثم تحول إلى مصر والإسكندرية، فأقام بها حتى وفاته سنة (٦١٤ هـ).

كان شاعراً رقيقاً، له ديوان شعر، منه جزء سماه «نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح» أودعه قطعاً وقصائد في مرثي زوجه، والتوجع لها أيام حياتها، وكانت زمانة قد طاولتها مدة. ومنه جزء أيضاً سماه «نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان»، يشتمل على أزيد من مئتي بيت.

انظر ترجمته في «التكملة» للمندري: ٤٠٧/٢، و«التكملة» لابن الأبار: ٥٩٨/٢ - ٥٩٩، و«المغرب في حلى المغرب»: ٣٨٤/٢ - ٣٨٥، و«الذيل والتكملة» للمراكشي: ٥/٢ - ٥٩٥/٢، ٦٢١، و«سير أعلام النبلاء»: ٤٥/٢٢ - ٤٧، و«غاية النهاية»: ٦٠/٢، و«نفح الطيب»: ٣٨١/٢ - ٣٨٨.

(٣) انظر ص ٣٧٢ - ٣٧٣ من هذا الجزء.

وَسُخِبُ أَيَادِيكَ فَيَاضَةً
فَكَمْ لَكَ بِالْشَّرْقِ مِنْ حَامِدٍ
وَكَمْ بِالدُّعَاءِ لَكُمْ كُلِّ عامٍ
وَقَدْ بَقِيَتْ حِسْبَةٌ فِي فَلَانٍ

يُعْنَفُ حُجَّاجَ بَيْتِ الْإِلَهِ
وَيُكْشِفُ عَمَّا بِأَيْدِيهِمْ
وَقَدْ وَقَفُوا بَعْدَمَا كُشِفُوا
وَيُلْزِمُهُمْ حَلْفًا بَاطِلًا
وَإِنْ عَرَضَتْ بَيْنَهُمْ حُرْمَةٌ
أَلَيْسَ يَخَافُ غَدًا عَرَضَهُ

أَلَيْسَ عَلَى حُرْمِ الْمُسْلِمِينَ
أَلَا حَاضِرٌ نَافِعٌ زَجْرُهُ
أَلَا نَاصِحٌ مُبْلِغٌ نَصَحَهُ
ظُلُومٌ تَضَمَّنَ مَالَ الزَّكَاةِ
يُسِرُّ الْخِيَانَةَ فِي بَاطِنٍ
فَأَوْقَعَ بِهِ حَادِثًا إِنَّهُ

فَمَا لِلْمَنَاكِيرِ مِنْ زَاجِرٍ
وَحَاشَاكَ إِنْ لَمْ تُزَلْ رَسْمُهَا
وَرَفَعُكَ أَمْثَالُهَا مُوسِعُ
وَأَثَارُكَ الْغُرْتُ تَبْقَى بِهَا
نَذَرْتُ النَّصِيحَةَ فِي حَقِّكُمْ
وَحُبُّكَ أَنْطَقَنِي بِالْقَرِيضِ

عَلَى وَارِدٍ وَعَلَى صَادِرٍ
وَكَمْ لَكَ بِالْغَرْبِ مِنْ شَاكِرٍ
بِمَكَّةَ مِنْ مُغْلِنِ جَاهِرٍ
وَتِلْكَ الذَّخِيرَةُ لِلذَّائِرِ

وَيَسْطُو بِهِمْ سَطْوَةَ الْجَائِرِ
وَنَاهِيكَ مِنْ مَوْقِفِ صَاغِرٍ
كَأَنَّهُمْ فِي يَدِ الْآسِرِ
وَعُقْبَى الْيَمِينِ عَلَى الْفَاجِرِ
فَلَيْسَ لَهَا عَنْهُ مِنْ سَاتِرٍ
عَلَى الْمَلِكِ الْقَادِرِ الْقَاهِرِ

بِتِلْكَ الْمَشَاهِدِ مِنْ غَائِرٍ
فِيَا ذِلَّةَ الشَّاهِدِ الْحَاضِرِ
إِلَى الْمَلِكِ النَّاصِرِ الظَّافِرِ
لَقَدْ تَعَسَتْ صَفَقَةُ الْخَاسِرِ
وَيُنِيدِي النَّصِيحَةَ فِي الظَّاهِرِ
يُقَبِّحُ أَحْدُوثَةَ الذَّاكِرِ

سِوَاكَ وَبِالْعُرْفِ مِنْ أَمْرِ
فَمَا لَكَ فِي النَّاسِ مِنْ عَازِرٍ
رَدَاءَ فَخَارِكَ لِلنَّاشِرِ
وَتِلْكَ الْمَآثِرُ لِلْآثِرِ
وَحُقُّ الْوَفَاءِ عَلَى النَّادِرِ
وَمَا أَبْتَغِي صَلَاةَ الشَّاعِرِ

ولا كان فيما مضى مكسبي
إذا الشَّعْرُ صارَ شِعَارَ الفتى
وإن كان نَظْمِي له نادراً
ولكنَّما خَطَرَاتُ الهوى
أما وقد زَانَ تلكَ العلا
وإن كان منك قَبُولٌ له
ويكفيه سَمْعُكَ من سامع
وَيُزْهِى عَلَى الرُّوضِ غِبَّ الحيا
وَبُنْسَ البِضَاعَةِ لِلتَّاجِرِ
فَنَاهِيكَ مِنْ لَقَبِ شَاهِرِ
فقد قيل لا حُكْمَ لِلنَّادِرِ
تَعِنُ فتلْعَبُ بالخاطرِ
فقد فازَ بالشَّرَفِ البَاهِرِ
فتلك الكَرَامَةُ للزَّائِرِ
ويكفيه لَحْظُكَ من ناظِرِ
بما حازَ مِنْ ذِكْرِكَ العاطِرِ^(١)

قال العماد: وفي المحرَّم من هذه السنة توفي الحكيم مهذب الدين أبو الحسن علي بن عيسى المعروف بابن النَّقَّاش البغدادي بدمشق^(٢)، وكان

(١) انظر القصيدة مع اختلاف في بعض ألفاظها في «الذيل والتكملة» للمراكشي: ٥/ق ٥٩٨/٢ - ٦٠١، ومنها أربعة أبيات في «نفع الطيب»: ٣٨٣/٢.

(٢) كان والده عيسى من ظرفاء بغداد وأعيانها، صاحب نوادر وملح، وله شعر رقيق، عمل نقاشاً للحلي ثم صار بزازاً. ولد سنة (٤٥٧ هـ)، وتوفي سنة (٥٤٤ هـ). انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: مج ١/ج ٣/٤٨ - ٥١، و«المنتظم»: ١٤١/١٠، و«فوات الوفيات»: ١٦٥/٣ - ١٦٦.

أما مهذب الدين هذا فقد ولد ونشأ ببغداد، واشتغل بصناعة الطب على رئيس أطباء بغداد أمين الدولة هبة الله بن صاعد بن التلميذ المتوفى سنة (٥٦٠ هـ)، وحين هاجر مهذب الدين إلى دمشق كان أوحده زمانه في صناعة الطب، وأقام بدمشق زمناً، كان له فيها مجلس عام للمشتغلين عليه، ثم توجه إلى الديار المصرية، وأقام بالقاهرة مدة، ثم رجع إلى دمشق، فأقام بها إلى حين وفاته في هذه السنة. وقد خدم بصناعة الطب الملك العادل نور الدين، ومن بعده صلاح الدين، وقام على بیمارستان النوري عدة سنين.

وكان يتكلم الفارسية، وله يد في صناعة الإنشاء، وكتب كثيراً لنور الدين المراسلات والكتب إلى سائر النواحي. ولم يتخذ امرأة ولا خَلْفَ ولداً، ودفن في جبل قاسيون. انظر «البرق الشامي»: ١٢٦/٣ - ١٢٧، و«سناه»: ٣٠٥/١، و«عيون

كنعته مهذباً، ومن الملوك لتفرّده بفضله مُقَرَّباً، وهو مُبَرِّزٌ في فنّه حتى إن من شدا شيئاً من الطبّ تبجّح بأنه قرأ عليه، وتردّد لاستفادته إليه، وقد راضته العلومُ الرّياضية، وأحكمت أخلاقه المعارفُ الحكميّة.

وفي الثّاني عشر من جمادى الأولى توفي الأمير نجم الدين بن مصل بمصر^(١)، وجاءنا نعيه ونحن بحمص، فجاوز اغتمامُ السُّلطان برُزته حدّه، وجلس في بيت الخشب مستوحشاً وحده، وقال: لا يخلفُ الذّهرُ لي صديقاً مثله بعده. وأجرى ما كان له جميعه لولده، وحفظ عهدّه، وكان لجماعةٍ من الأعيان والشُّعراء والأماثل والأدباء بعنايته ووساطته من السُّلطان رزقٌ بقّاه عليهم، كأنه عليه مستحق^(٢).

وفي العشر الأوّل من ربيع الآخر أغارت طائفةٌ من الفرنج على بلد حماة، فخرج إليها متولي عسكر حماة الأمير ناصر الدين منكورس بن خُمَارَتِكِين صاحب حصن بو قُبَيْس^(٣)، فأسر المقدّمين، وسفك بسيفه دم الباقيين، وجاء إلى الخدمة السُّلطانية بظاهر حمص، وساق معه الأسارى، فأمر السُّلطان بضرب أعناقهم، وأن يتولّى ذلك أهلُ الثّقَى والدّين من الحاضرين. فتقدّم إمامه الضّيّاء الطّبري وضرب عنق بعضهم، وتلاه الشيخ سليمان المغربي^(٤)، ثم الأمير ايّطغان^(٥) بن ياروق، واستدعي العماذ وأمر

= الأنباء لابن أبي أصيبعة: ٦٣٥ - ٦٣٧، ٣٤٩ - ٣٧١. وانظر ٢/٢٧٥ من هذا الكتاب.

(١) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٦ من الجزء الثاني.

(٢) «البرق الشامي»: ١٢٧/٣ - ١٢٨، و«سناه»: ١/٣٠٥ - ٣٠٦.

(٣) كان والده خمارتكنين ممن قتله الإسماعيلية في محاولتهم اغتيال صلاح الدين، وهو على حصار حلب، وذلك سنة (٥٧٠ هـ). انظر ص ٣٥٠، ٣٥٤ من الجزء الثاني.

(٤) في «البرق الشامي» ١٣١/٣ أنه كان صاحب الأمير جرديك النوري.

(٥) في «البرق» و«سناه»: أقطفان، وقد مرت وفاة ياروق سنة (٥٦٤ هـ)، انظر حاشيتنا =

بذلك، فلم يفعل، وطلب أن يملكه السلطان منهم صغيراً، فعوَّض عنه^(١).

ثم رحل السلطان على طريق الزراعة إلى بعلبك، فنازلها محاصراً من غير قتال، فطال أمرها، ولم يسمح بها صاحبها، ودخل فصل الشتاء، فرحل السلطان عنها إلى دمشق، ووكل بها من يحصرها بالمنع من الخروج والدخول من غير قتال، وهم جماعة مع طغرل الجاندار*، ودخل إلى دمشق في العشر الأواخر من رجب، وتمادى الأمر إلى أن رضي ابن المقدّم بحصن بعين* وأعماله، وبيد كفرطاب* وأعيان نواح وقرى من بلد المعرة، وسلم بتسليم بعلبك من المصرة والمرة. وكان الذي أخذه أكثر وأنفع من الذي خلاه، وما خطر بباله ما حصل له ولا ترجاه ولا تمناه^(٢).

فصل

كالذي قبله في حوادث متفرقة

قال العماد: وكتب النواب بدمشق إلى السلطان أن الأموال ضائعة، وأن الأطماع فيها راتعة، وأن في أرباب الصدقات أغنياء لا يستحقونها، وما لهم رتبة من الله يتقونها، وأن أرباب العنايات استوعبوها وما استوجبوها، وأن المصلحة تقتضي إفراد جهات لما يسح من مهمات. وكانت الصدقات مبلغ أحد عشر ألف دينار، فقال لي: اكتب عليها جميعها بالإمضاء، ولا تكدر على ذوي الآمال موارد العطاء. فقلت: أما^(٣) أتلو عليك الأسماء؟ فقال: لا، بل نزهني عن هذه الأشياء. فبقيت تلك الرسوم

= رقم ١ ص ٥١، وص ١٣٨ من الجزء الثاني.

(١) «البرق»: ١٢٨/٣ - ١٣١، و«سنه»: ٣٠٦/١ - ٣٠٩.

(٢) «البرق»: ١٣٤/٣ - ١٤٠، و«سنه»: ٣٠٩/١ - ٣١٢.

(٣) في الأصل: أنا، والمثبت من «البرق».

دائرة، والآمال بها سائرة^(١).

قال: وفي شعبان من هذه السنة توفي متولّي المقياس بمصر، ففوّض السلطان منصبه إلى أخيه.

قال: وهذا المقياس موضع مبنيّ من عهد خلفاء بني العباس لتعرف زيادة الماء ونقصانه بالمقياس، وهناك عمود^(٢) في الماء مقسوم بالأذرع، والأذرع مقسومة بالأصابع، في مسجد ينوب في الجزيرة عن الجامع، تُصلّى فيه الجماعات والجُمع، ويتولّاه من العهد القديم متولّ من بني أبي الرّداد ممن هو معروف بالتزاهة والعلم والسداد، وله راتبٌ دارٌّ، ورسمٌ وقرار^(٣).

قلت: بلغني أن أبا الرّداد هذا كان معلماً من أهل الصّدق والصّلاح، ربّه جعفر المتوكل على الله في ولاية المقياس، وبقي من بعده على ولده، وقرأت في «تاريخ الغرباء الذين قدموا مصر»^(٤) لأبي سعيد بن يونس^(٥) قال: عبد الله بن عبد السلام بن الرّداد العمّي^(٦)، بصريّ قدّم مصر، وحدث بها،

(١) «البرق»: ١٣٧/٣ - ١٣٨، و«سناه»: ٣١١/٣ - ٣١٢.

(٢) في الأصل: عود، والمثبت من «البرق»، ومثله في (ب).

(٣) «البرق»: ١٤٤/٣، و«سناه»: ٣٠٣/١.

(٤) في الأصل: تاريخ الغرباء لأبي سعيد بن يونس الذين قدموا مصر، والمثبت من طبعة وادي النيل: ٥/٢.

(٥) لأبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصدفي كتابان: «كتاب مصر»، و«كتاب الغرباء»، وكلاهما في التاريخ، ولم يصلنا بعد. وكان أبو سعيد مؤرخاً محدثاً، توفي سنة (٣٤٧ هـ). انظر ترجمته في «طبقات علماء الحديث» لابن عبد الهادي: ٩٢/٣ - ٩٣، و«سير أعلام النبلاء»: ٥٧٨/١٥ - ٥٧٩ بتحقيقي، و«تاريخ التراث العربي» لسزكين مج ١/ج ٢/٢٣٨.

(٦) انظر ترجمته في «الولاء والقضاء» للكندي: ٥٠٧ - ٥٠٨، وفيه وفاته سنة (٢٨٠ هـ)، و«وفيات الأعيان»: ١١٢/٣، و«رفع الإصر»: ١٤٤، و«خطط =

وكان قد جعل على قياسية النيل، توفي بمصر لسبع بقين من رجب سنة ست وستين وميتين^(١). وذكره أبو سعيد في أهل مصر أيضاً، وقال فيه: وُلِدَ هو وأبوه بمصر.

قال ابن الأثير: وفي سنة أربع وسبعين وخمس مئة اشتدَّ الغلاء، وعمَّ أكثر البلاد: العراق ومصر وديار بكر وديار الجزيرة والشَّام، وغير ذلك من البلاد، ودام إلى أن انقضى [أكثر] سنة خمس وسبعين، وخرج النَّاس في البلاد يستسقون، فلم يُسْقَوْا، ثم إن الله تعالى رَحِمَ عباده، وَلَطَفَ بهم، وأنزل عليهم الغيثَ، وأرخَصَ الأسعار. ومن عجيب ما رأيت تلك السنة ٦/٢ أنني كنت في الجزيرة، فأقبل إنسانٌ تركماني قد أثر فيه الجوع، وكأنه قد أُخرج من قبر، فبكى وشكا الجوع، فأرسلتُ من اشترى له خُبْزاً، فتأخَّر إحضاره لعدمه، وهو يبكي ويتمرَّغ على الأرض، فتغيمت السماء، وجاءت نقط مطرٍ متفرقة، وضجَّ الناس، ثم جاء الخبزُ، فأكل التركماني، وأخذ الباقي معه ومشى، واشتدَّ المطر، ودام من تلك السَّاعة، فَرَخُصَتِ الأسعار، وَوُجِدَتِ الأقوات بعد أن كانت معدومةً. ثم تعقَّب الغلاء وباءً شديد كثير، وكان مرضُ النَّاس شيئاً واحداً هو سِرْسَام^(٢)، فمات فيه من كلِّ بلدٍ أُمَّمٌ لا يُحصون كثرةً، ولقي النَّاس منه ما أعجزهم حمله، ثم إن الله تعالى رَفَعَهُ

= المقريزي: ٩٣/١، و«النجوم الزاهرة»: ٣١١/٢، و«حسن المحاضرة»: ٢٢١/٢. (١) في «وفيات الأعيان»: ١١٢/٣ توفي سنة تسع وسبعين وميتين، وقيل: سنة ست وستين وميتين.

(٢) السرسام: ورم في حجاب الدماغ تحدث عنه حُمى دائمة، مركب من سَرٍّ أي رأس. ومن سام: أي ورم. انظر «الألفاظ الفارسية المعربة»: ٩٠.

في سنة ست وسبعين وخمس مئة، وقد ضَغَضَ العالم^(١).

فصل

في عمارة حصن بيت الأحزان ووقعة الهنفرى

قال العماد: وفي مُدَّة مقام السلطان على بعلبك، واشتغاله به، انتهز الفرنجُ الفرصة، فبنوا حصناً على مخاضة بيت الأحزان، وبينه وبين دمشق مسافة يوم، وبينه وبين صفد وطبرية نصف يوم، وقيل للسلطان: متى أُحْكَم هذا الحصن تحكَّم من الثَّغر الإسلامي الوهن، وغَلِقَ الرَّهْن^(٢). فيقول: إذا أتموه نزلنا عليه، وهدمناه إلى الأساس، وجعلناه من الرؤوم الأدراس. فكان الأمر بعد سنة، على ما جرى على لفظه من عِدَّة حسنة.

فلما انقضى أمر بعلبك، وصل السلطان دمشق، فأقام بها، وأمرُ الحصن من همَّه، وقصَّدُ حصاره من عَزَمه، وكان العام مجدياً، والجذبُ عاماً، وقيل للسلطان: ليس هذه سنة جهادٍ، فإن استمنحوك السَّلامة فامنح، وإن جَنَحُوا لِلسَّلم فاجنَح^(٣). فقال السلطان: إن الله أمرَ بالجهاد، وكفَّلَ بالرزق، فأمره واجب الامتثال، ووعدُه ضامن الصدق، فنأتي بما كلَّفنا لنفوز بما كفَّلَه، ومن أغفل أمره أغفلَه^(٤).

(١) «الباهر»: ١٧٨ — ١٧٩، وما بين حاصرتين منه، و«الكامل»: ٤٥١/١١ — ٤٥٢.

(٢) غلق الرهن: أي بقي في يد المرتهن، ولم يقدر راهنه على تخليصه. انظر «اللسان» (غلق).

(٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وإن جنحوا للسَّلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾ سورة الأنفال، الآية: ٦١.

(٤) «البرق»: ١٤٤/٣ — ١٤٦، و«سنه»: ٣١٣/١ — ٣١٥.

قال: ووصل في هذه السنة رسولُ دار الخلافة، وهو الخادمُ فاضل، وكان من أفضل الخدم، نُدبَ بأفضل الخدم. وفرح السلطان به، واستصحبه معه إلى الغزاة، ووقف به على الحصن الذي استجدّه الفرنج بالمشهد اليعقوبي، وتخطَّفَ من حوله من الفرنج جماعةً، وأقام على أهل المعصية بجهاذه الطاعة، وعاد وقد عرف ما يعزمُ عليه من أمر فتحه^(١).

قال: وفي مستهل ذي القعدة كانت وقعة هنفري^(٢) ومقتله؛ وذلك أن الأخبار تواترت بأن الفرنج قد تجمَّعوا في جمع عظيم، وأنهم عازمون على الخروج إلى المسلمين على غيرة. فقدم السلطان ابن أخيه فرخشاه على عساكر دمشق، وأمره أن يخرج إلى الثغر، ففعل، وأمره إن علم بخروجهم أن ينفذ إلى السلطان يعلمه بذلك، ولا يلقاهم بل يتركهم حتى يتوسَّطوا البلاد. فلم تشعر طلائع فرخشاه إلا وقد خالطوهم على غيرة، فوقعت الوقعة، فقتل صاحبُ الناصرة وجماعة من مقدَّميهم، وطلب الملك، فطرح حصانه وجرح فرسانه، وجاء الهنفري ليحميه، فوقعت فيه جراحات؛ أحدها نصابة وقعت في مارنه^(٣) فجذعته، ونفذت إلى فيه، ومرت بضره فقلعته، وخرجت من تحت فكه، ووقعت أخرى في مشط رجله، فنفذت إلى أخمصه، وأخرى في ركبته، وضرب بِلَت^(٤) في جنبه، فكسر له ضلعين. وقُتِلَت عِدَّةٌ من الرِّجَالِ والخيالة، ورجعت الفرنج بخزي عظيم، ليس فيهم

(١) «البرق»: ١٤٧/٣ - ١٤٨، و«سناه»: ٣١٥/١ - ٣١٦.

(٢) هو Humphry II سيد تبين. انظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان (الترجمة العربية): ٦٧٦/٢.

(٣) المارن: الأنف، وقيل: طرفه، وقيل: المارن مالان من الأنف. «اللسان» (مرن).

(٤) اللت: الفأس العظيمة، وهي كلمة فارسية معربة، انظر «الألفاظ الفارسية المعربة»: ١٤١، وانظر ص ٤١٢ من الجزء الأول.

إلا مجروح، وكل يوم تَرِدُ بُشْرَى بموت مُقَدِّمٍ من جراحةٍ أصابته. ووردت بطاقة الطير في ذلك اليوم إلى دمشق، فخرج السُّلْطَان، فما وصل إلى الكُسنوة* إلا ورؤوسهم وأسرأؤهم قد جيء بها، فرجع مظفراً منصوراً، وذلت الفرنج بعدها، وانكسرت لموت الهنغري.

ثم سار السلطان إلى الحصن الذي بنوه، فأزعجهم وذعَرَهُمْ، وعاد على عَزَمِ العَوْدِ إليه^(١).

قال: ثم وَجَّهَ السُّلْطَانُ أخاه الأمير تورانشاه من الشام إلى مصر بمن ضَعُفَ من الأجناد لأجل مَحَلِّ البلاد. فرتَّبَ في بعلبك نَوَّابه، وودَّعه السلطان من مرج الصُّفَر*، وذلك في أواخر ذي القعدة، ومَرَّ على بُصْرَى، ومنها إلى الأزرق^(٢)، ومنه إلى الجُفَر^(٣) إلى أَيْلَة* إلى صَدْر*، ووصل معه خَلْقٌ كثير من التجار والرجال والنساء والأطفال^(٤).

فصل

قال العماد: وسافر الفاضل إلى الحَجِّ في هذه السَّنة، وركب البحر، فكتبتُ إليه كتاباً فيه: طوبى للحِجْر والحِجُون^(٥) من ذي الحِجْر والحِجَا،

(١) «البرق»: ١٤٩/٣ - ١٥٢ و«سناه»: ٣١٧/١ - ٣١٩.

(٢) هو الماء المعروف في الأردن في الشرق منه، كانت تمر بقربه القوافل، ويعده المقدسي النهر الوحيد في البادية، لأن مياهه تجري طوال السنة. انظر «أحسن التقاسيم» للمقدسي: ٢٤٨، و«معجم البلدان»: ١/١٦٨.

(٣) مكان معروف في جنوبي الأردن، وهو مجمع عدة أودية، وبه مياه جوفية. انظر «البرق الشامي» ١٥٥/٣ حاشية رقم (٣).

(٤) «البرق الشامي»: ١٥٣/٣ - ١٥٥ و«سناه»: ٣١٩/١ - ٣٢١.

(٥) جبل بأعلى مكة. «معجم البلدان»: ٢/٢٢٥.

منيل الجدَا^(١)، ومنير الدُّجى، ولنديّ الكعبة من كَعْب التَّدَى، وللهدايا
 المُشْعَرَات من مَشْعَر الهُدَى، وللمقام الكريم من مقام الكريم، ومن حاطم
 فِقَار الفَقْر للحطيم، ومتى رُئي هَرَم في الحَرَم، وحاتم ماتح زمزم؟ ومتى
 ركب البحرَ البحرُ، وسلك البرَّ البرُّ؟ لقد عاد قُسٌّ إلى عُكَاطِه، وعاد قيس
 لحِفاظِه، ويا عجباً لكعبةٍ تقصدها كعبةُ الفضلِ والإفضال، ولقبة تستقبلها
 قِبْلَةُ القَبُول والإقبال.

قلت: ومدحه أبو الحسن بن الذَّرَوِي^(٢) عند عوده من الحج بقصيدة
 حسنة، منها:

<p>ه فأمسى حشاه يخفق رُغبا إذ رأى الدَّرَّ منك يُنْشِئُ سُخْبا رُ لأضحى أجاؤه الملح عذبا هَوْنُ اللّٰه منه ما كان صغبا ح هُبُوبٌ وحيث أُرْسِيتَ هَبّا عادَ جَذْبُ الحجازِ منهنَّ خُصبّا دِرُّ غَيْثٍ يخفي عن الأرض سكبّا جِئْتَهَا حَاتِمًا وَإِنْ شِئْتَ كَعْبًا^(٣)</p>	<p>عَلِمَ الْبَحْرُ أَنَّكَ الْخَلْقُ وَا فَا وَغَدَا دُرُّهُ لَدَيْهِ حَقِيرًا وَلَوْ احْتَازَ قَطْرَةً مِنْكَ يَا بَحْرُ هَائِجٌ لَمْ يَزَلْ دَعَاؤُكَ حَتَّى وَلَقَدْ نَامَ إِذْ رَكِبْتَ وَلِلرَّيِّ حَبَّذَا مَا صَنَعْتَهُ مِنْ أَيَادٍ رُمْتَ كَيْثَمَانَهَا فَذَاعَتْ وَهَلْ يَفْ قَدْ رَأَتْ مِنْكَ كَعْبَةُ اللَّهِ لَمَّا</p>	<p>٧/٢</p>
--	---	------------

(١) الجدا: المطر العام، ومنه أخذ الجدا بمعنى العطية: «اللسان» (جدا).

(٢) سترد ترجمته ص ١٠١ من هذا الجزء.

(٣) هو كعب بن مامة الأيادي، أحد أجواد العرب، وكان حسن الجوار، وبه كان
 يضرب المثل: أجود من كعب بن مامة، وذلك أنه آثر بنصيبه من الماء رفيقه

النمري - وكانا بمفازة - فمات عطشاً، والقصة مشهورة، انظرها في «مجمع
 الأمثال» للميداني: ١/١٢٣ - ١٢٤ و«الكامل» للمبرد: ١/٣٠٠ - ٣٠١.

بل رأى منك بيته بيت مجد
ورأى الركن من يمينك زكناً
وزَهَتْ زَمْزَمٌ بِشْرِبِكَ مِنْهَا
وَتَوَجَّهَتْ لِلْمَدِينَةِ عَنْ مَكَّةَ (م)
وَأَتَيْتَ الشَّامَ تَلَوْتُ فُتُوحَ
إِنْ تُكُنْ غِبْتَ عَنْهُ وَاللَّهُ يُبَيِّنُ
سِرَّتِ وَالرَّأْيُ فِيهِ مِنْكَ مُقِيمٌ

وقد وقفتُ على الرُّقعة التي كتبها القاضي الفاضل - رحمه الله - بخطه
إلى السُّلطان يلتمس منه الإِذْنَ له في سفر الحج، فأحببتُ نقلها هنا،
وما كتب السُّلطان - رحمه الله - عليها، وما كتب بسببها إلى بعض نوابه.
نقلتُ من خطِّ الفاضل رحمه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم، كتب المملوك هذه الرُّقعة بعد أن استخار الله
سبحانه من مستهل رجب في أكثر لياليه وإلى آخر هذه السَّاعة، وهو ينهي أنه
قد شارف الأربعين، وما يدري لعلها عقبة اللِّقاء، وفَرَضُ اللَّهِ في الحَجِّ قد
تَعَيَّنَ، وَوَعْدُ المولى به قد سبق عند أَيْلَةٍ*، ومُدَّةُ الغيبة قصيرة، والنائب يُنْقِذُ
ما يحتاج إليه في السَّفَرِ والحَضَرِ، والثِّقَّةُ به حاصلة في المرادين من الكاتب؛
وهما الكِثْمان والمعرفة، وحَظُّ المولى في حَجِّهِ والله أضعافُ حَظِّهِ في
مقامه، لأنه إن كان ينفع هنا في الدُّنيا، فهو ينفع هناك في الآخرة، وإن لم
يكن أهلاً لأن يستجاب منه، فالله أهلٌ لأن يجيب في المولى، والمملوك
فما ثقل قطُّ في سؤالٍ، وليس لأن المولى لا يقضيها، ولكن لأنه يغنيه عن
السؤال فيها، وهذه حاجةُ الدُّنيا والآخرة، وبعدها ينشد:

(١) رطباً: أي ناعماً. «اللسان» (رطب).

متى يأتِ هذا الموتُ لا يُلْفِ حاجةٌ لِنَفْسِي إِلَّا قد قَضَيْتُ قَضَاءَهَا^(١)

وما أراد المملوك أن يستشفع بمن يشارك المولى في الأجر، وما يريد إلا دستوراً عن نفس طيبة، ورضى ظاهر وباطن، ولا يريد خلاف الفرض، فما يفي له بقضاء المفترض، والله المعين برحمته، الحمد لله وحده، وصلاته على سيدنا محمد وآله وسلامه.

وعلى رأس الرُّقعة في سطر البسملة بخط السلطان رحمه الله ما صورته: على خيرة الله تعالى، يا ليتني كنتُ معكم فأفوز فوزاً عظيماً^(٢). نقلته من خطّه.

ونقلتُ من خطِّ بعض الكتّاب ما نقله من خطِّ السلطان رحمه الله إلى بعض النّوّاب.

فصل

من كتاب كريم بالخطِّ العالي النّاصري أعلاه الله، ورد بتاريخ السّابع والعشرين من جمادى الأولى سنة أربع وسبعين وخمس مئة.

وصلني كتاب القاضي الفاضل، وهو يذكر أنه مصمّم على الحجّ، اللّهُ يجعله مباركاً ميموناً، ولكن لا أفسح له فيه إلا بعد ثنتين؛ واحدة: أنه لا يركب بحر، يسير من العسكر إلى أيلة*، ومنها يتوجّه، ويقيم العسكر على أيلة ليلة، وعلى إرم ليلة، ودون إرم ليلة، وقاطع إرم ليلة، فيكون هو

(١) هذا البيت من قصيدة لقيس بن الخطيم الأوسي، اختارها أبو تمام في «حماسه» ١٨٣/١ (شرح المرزوقي)، وانظرها في «ديوانه» ص ٤١ - ٥١.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَالَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ سورة النساء، الآية: ٧٣.

قد بُعد، وما يبقى عليه خوف إن شاء الله تعالى. وثانية: تأخذ يده، وتحلفه برأسي أنه لا يجاور. وثالثة: تعطيه من مال الجوالي* ثلاثة آلاف دينار، وتقول له: لا بُدَّ ما تُخرج هذا عني لا عنك في المجاورين بمكة والمدينة، وفي أهلها، هذا أمرٌ لا بُدَّ منه، فإنَّ النَّاسَ لا بُدَّ لهم من الطَّلب، ولا بُدَّ لك من العطاء، وإن قال: إن الشيء قليل. فأنت تقرضني هذا المبلغ من مالك، وتعطيه إياه، فلا بُدَّ، وإلا فلا إذن له في الرِّوَّاح إلى الحجِّ إلا على هذه الشروط التي قد شرَّطتها، وأما مجيئه فيجيء إلى الشَّام، فأنا ما بقي لي دار إلا هي حتى يقضي الله بيننا وبين الفرنج ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾^(١).

٨/٢

وكتب الفاضل إلى بعض مشايخ مكة بعد رجوعه: سقى الله الحجاز وحيًا كعبته، ويا طولَ ما ترشقتني سهامُ الشَّوق الذي أصبح الذِّكْرُ جَعْبَةً، آهًا على تلك المواقف، وتبَّاً لمن رَضِيَ أن يكون مع الخوالم، فرغياً ونُعْمى، وحسنةً وحُسنَى، لمجاوري ذاك الحرم، ولعامري أيامه التي هي الأيام لا أيام ذي سَلَمٍ. فيالْهَفَ الصُّدُورِ وطولَ غَلِيلِها إلى وُرُودِ ماءٍ زَمَزَمَةٍ، وطُوبَى لمن استضاء في مَضَالِّ الظُّلَمِ بِعَلَمِهِ، ومهما نسيْتُ فلا أنسى بَرْدَ الكَبِدِ بحرَّ صَيْفِها، وموسمَ الأُنسِ بثلاثِ مِنّاها وخَيْفِها.

آهًا عليها ليالٍ ما تَرَكْنَ لنا إلا الأسى وعُلالاتٍ من الحُلُمِ عسى الرِّياحُ إذا سارت مبلَّغةً توفي فقد غَدَرَ الأَحْبَابُ بالدَّمَمِ ثم قال: فأما الطريقُ المباركة فقد جرى فيها خطوبٌ وشؤون، وأحاديثُ كلّها شجون، وكانت العُقْبَى إلى سلامة، ولما قاربنا الكَرْكَ* نهض العدو، فلم تمكن الرجعة ولا التعرّيج جانباً، ثم مَنَّ الله تعالى بانجلاء

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٧.

الثَّوْبَةُ، ووصلنا إلى بلاد السُّلْطَان، ولقينا ذلك الوجه، فلا عَدِمْنَا بِشْرَهُ،
وذلك الفضل، فلا فارقت أَعْيُنُنَا فَجْرَهُ، ووجدناه في الغَزَاة جَاهِدًا، وللعُدو
مُجَاهِدًا، أوقاته مستغرقة، وعزماته محققة.

فصل

فيما فعل مع الفرنج في باقي هذه السَّنة، وأول الأُخرى
ووقعة مرج عيون

قال ابنُ أبي طي: كانت الفرنجُ قد عَمَرَتْ بيت الأحزان، وكان على
المسلمين منه ضررٌ عظيمٌ، فراسل السلطانُ الفرنجَ في هَذْمِهِ، فأجابوا أنه
لا سبيل إلى هَذْمِهِ إلا أن يعطينا ما غَرَمْنَا عليه. فبذل لهم السلطان ستين ألف
دينار، فامتنعوا، فزادهم إلى أن بلغ مئة ألف دينار — وكان هذا الحصن
للدَّاوية*، وكانوا يقوون مَنْ فيه بالأموال والثَّقَفَات لقطع الطُّرُقَات على قوافل
المسلمين — فأشار تقي الدين على السلطان ببذل هذا المال لأجناد المسلمين
ونخرج بهم إلى الحِصْن ونهدمه. ففعل ذلك كما سنذكره^(١).

قال العماد: ولما ودَّع السُّلْطَان أخاه ورجع، أغار في طريقه على بلاد
الفرنج، وقصد الحصن الذي بنوه، ورجع بالأسرى والغنائم، وخيَّم السُّلْطَان
بمروج الشَّعْرَاء^(٢)، ثم انتقل إلى بانياس، وبلغت الخيم إلى حدودِ بلاد
الكُفْرَة^(٣)، وأضرَم عليهم لهب النَّيران المُسْتَعْرَة، وكان كل يوم يركب بِحُجَّة
الصَّيْد، ويتزل على النهر، ويجرُّدُ فرسان الجِلَادِ والقَهْر، ويُسيِّرُ قبائل العرب

(١) انظر ص ٣٦ من هذا الجزء.

(٢) الشعراء: الأرض الكثيرة الشجر. انظر «اللسان» (شعر).

(٣) في الأصل: الكفر، والمثبت من (ب).

إلى بلد صيدا وبيروت حتى يحصدوا غَلَّاتِ العَدُو، ولا يبرُحُ [مكانه] ^(١) حتى يعودوا بجمالهم وأعمالها موثقة بأثقالها، حتى خَفَّ زَرْعُ الكُفَّار ^(٢).

قال: وفي هذه السنة اقتضى رأي الفرنج أن يُرعبوا المسلمين في كل ناحية خوفاً من اجتماعهم على جهةٍ واحدة، فغدر إبرنسُ أنطاكية، وأغار على شَيْزَرَ*، وغدر القومص بطرابلس بجماعةٍ من التركمان بعد الأمان. فرتبَ السُّلطانُ ابن أخيه تقي الدين عمر في ثغر حماة ومعه شمس الدين بن المقدَّم، وسيف الدين علي المشطوب. ورتبَ ابن عمه ناصر الدين في ثغر حمص في مقابلة القومص ^(٣)، وكتب السُّلطانُ إلى أخيه العادل — وهو نائبه بمصر — أن ينتخب له من عسكر مصر ألفاً وخمسة مئة فارس يتقوَّى بهم مع عسكر الشَّام على العدو ^(٤).

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ [وخمس مئة] ^(٥)

والسلطان نازلٌ على تل القاضي ببانياس*، فأجمع رأيه مع بقية المسلمين على أن يقتحموا على الكُفَّار ديارهم، ويستوعبوا ما بقي في أيديهم من الغَلَّاتِ في يومٍ واحد، ثم يرجعوا فيرحلوا صوبَ البقاع. فنهضوا تلك الليلة — وهي ليلة الأحد ثاني مُحَرَّم — فلما أصبح السُّلطان جاءه الخبر

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ب).

(٢) «البرق الشامي»: ١٥٧/٣ — ١٥٨، و«سناه»: ٣٢٤/١.

(٣) «البرق الشامي»: ١٥٥/٣ — ١٥٦، و«سناه»: ٣٢٢/١ — ٣٢٣.

(٤) «البرق الشامي»: ١٥٤/٣، و«سناه»: ٣٢١/١.

(٥) ما بين حاصرتين من (ب).

بأن الفرنج قد خرجت، فالتقاهم، وأنزل الله نصره على المسلمين، وأسَرَ
فُرسانهم وشجعانهم، وانهزمت رجّالتهم في أول اللقاء؛ فكان من جُملة
الأسرى مُقَدِّم الدَّاوية^(١)، ومُقدِّم الإِسْتارية*، وصاحب طبرية، وأخو
صاحب جُبَيْل^(٢)، وابن القومصية^(٣)، وابن بارزان^(٤) صاحب الرَّمْلة،
وصاحب جِئِينَ*، وقَسْطِلان^(٥) يافا، وابن صاحب مَرْقِيَّة^(٦)، وعِدَّة كثيرة من
خيالة القدس وعكا من البارونية وغيرهم من المُقدِّمين الأكابر ما زاد على
مئتين ونيف وسبعين، سوى غيرهم. ثم قُدِّمَت الأسارى وهم يتهاذون كأنَّهم
سُكَّارى.

قال العماد: وأنا جالسٌ بقرب السلطان استعرضهم بقلمي، ومن
الطاف الله تعالى أناً وخواصُّه الحاضرين لم نزد على عشرين، والأسرى قد
أنافوا على سبعين، وقد أنزل الله علينا السَّكينة، وخصَّهم بالدِّلة المستكنة
وطلع الصُّباح، ورُفِع المِصْبَاحُ، وقمنا وصلينا بالوضوء الذي صلينا به
العِشاء، ثم عُرِضَ الباكون من الأسرى، ثم نقلوا إلى دمشق، فأما ابن بارزان
فإنه بعد سنة بذل في نفسه مئة وخمسين ألف دينار صورية^(٧)، وإطلاق ألف
أسير من المسلمين، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى من نوبة الرَّمْلة^(٨) عندهم

(١) هو Odoof Saint - Amand. انظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيما (الترجمة العربية) ٦٧٨/٢.

(٢) هو Hngue II de Gbelet.

(٣) هو ابن كونتيسة طرابلس Hugh of Gablee.

(٤) هو Baldwin of Ibelen.

(٥) قسطلان، معرب اللفظ اللاتيني castellanus، ومعناه: مستحفظ القلعة.

(٦) قلعة حصينة على الساحل تجاه حمص. انظر «معجم البلدان»: ١٠٩/٥.

(٧) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٣٢٨ من الجزء الأول.

(٨) انظر ص ٤٦٤ من الجزء الثاني.

من المأسورين، فالتزم إدراكه، وأن يؤدي من قطعة المذكور^(١) القطيعة التي قرّر بها فكاكه. وأما ابن القومصية فإنه استفكته أمه بخمسة وخمسين ألفاً من الدنانير الصورية. وأما أود مقدّم الداوية فإنه انتقل من سجنه إلى سجين^(٢)، ٩/٢ فطلبت جيفته، فأخذوها بإطلاق أسير من مقدّمي المؤمنين، وطال أسر الباقيين، فمنهم من هلك وهو عانٍ، ومنهم من خرج بقطيعة وأمان^(٣).

وهذه هي وقعة مرج عيون، وكان العدو في عشرة آلاف مقاتل^(٤)، وانهزم ملكهم مجروحاً. وكان لعز الدين فرخشاه في هذه الواقعة بلاءً حسنٌ.

حكى حسام الدين تيمرك بن يونس^(٥) — وكان مع عز الدين — قال: كُنّا في أقل من ثلاثين فارساً، قد تقدّمنا العسكر، فشهدنا خيل الفرنج في ستّ مئة فارس واقفين على جبلٍ، وبيننا وبينهم الماء، فأشار عز الدين أن نعبّر النهر إليهم، ففعلنا، ولحقنا عسكر السلطان، فهزمناهم^(٦).

ومن أحسن ما اتّفق أنّ اليوم الذي كُسِرَتْ فيه الفرنج بمرج عيون ظفّر الأسطول المِصْري ببطسة* كبيرة، فاستولى عليها وعلى أخرى، وعاد إلى الشجر مستصحباً ألف رأس من السّبي. فما أقرب ما بين النصرين في المِصْرين، وما أعذب عذاب الفئتين، وتجريعهما الأمرين الأمرين، لقد عمّ النصر، وتساوى فيه البرّ والبحر^(٧).

(١) في «البرق»: ١٦٦/٣ قطيعته المذكورة.

(٢) سجين: واد في جهنم. «اللسان» (سجن).

(٣) «البرق الشامى»: ١٦١/٣ — ١٦٦، و«سناه»: ٣٢٥/١ — ٣٢٩.

(٤) انظر «مضمار الحقائق»: ١٦ — ١٧.

(٥) انظر عن قصة خروجه من بغداد ص ٣٩٠ — ٣٩١ من الجزء الثاني.

(٦) «البرق الشامى»: ١٧١/٣ — ١٧٢، و«سناه»: ٣٣٠/١ — ٣٣١.

(٧) «البرق»: ١٧١/٣، و«سنا البرق»: ٣٣٠/١.

ومما مُدَحَ به السلطان في هذا الفتح مِدْحَةُ سَيَرِّهَا من مصر إليه فخر
الكَتَّاب أبو علي الحسن بن علي العراقي الجَوْنِي^(١)، أولها:

لَكَ رَبُّ السَّمَاءِ خَيْرٌ مُعِينٍ وَكَفِيلٌ بِمَا تُحِبُّ ضَمِينٍ
فَلَهُ الْحَمْدُ أَيُّ نَصْرِ عَزِيزٍ قَدْ حَبَانَا بِهِ وَفَتْحَ مُبِينٍ
أَذْرَكَ الثَّارَ حِينَ نَازَلَهُ الْمَغْدُ سَوَارِ حَتَفِ الْكُفَّارِ لَيْثُ الْعَرِينِ
الْهَمَامُ الْغَضَنْفَرُ الْمَلِكُ الثَّا صِرُّ مَوْلَى الْوَرَى صِلَاحُ الدِّينِ
يَا مَلِيكاً أَضْحَى الزَّمَانُ يَنَاجِيهِ هـ بِلَفْظِ الْمُذَلِّلِ الْمُسْتَكِينِ
قَذَفَتْ أَهْلَهَا الْحَصُونُ إِلَى بَأٍ سِكَ حَتَّى عَوَّضَتْهُمْ بِالسُّجُونِ
وَأَرَاهُمْ رَبُّ السَّمَاءِ بِأَسْيَا فَكْ مَا لَمْ يَجُلْ لَهُمْ فِي ظُنُونِ
لَكَ قَلْبٌ عِنْدَ اللَّقَاءِ مَكِينٌ وَلَهُ مِنْ ثِقَاةِ أَلْفِ كَمِينِ
يَا مَلِيكاً يَلْقَى الْحُرُوبَ بِحَوْلِ الْـ لَهُ مُسْتَعَصِمَاً وَصِدْقَ الْيَقِينِ
إِنْ هَذَا الْفَتْحُ الْمَبِينُ شِفَاءٌ لِصُدُورٍ وَقُرَّةٍ لِعَيُونِ
هُوَ يَوْمٌ أَضْحَى كِيَوْمِ حُنَيْنٍ سَهَّلَ اللَّهُ نَصْرَهُ فِي الْحُزُونِ^(٢)

(١) كان من ندماء عماد الدين زنكي، وبعد وفاته أقام عند نور الدين، ثم سافر إلى مصر أيام ابن رزّيك، وأقام بها حتى وفاته سنة (٥٨٦ هـ) على الصحيح، وكان مشهوراً بجودة الخط، لم يكتب أحد بعد ابن البواب أجود خطأ منه.

انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ج ٣ مجلد ٥٨/٢ - ٦٣، «معجم الأدباء»: ٤٣/٩ - ٤٦، «التكملة» للمنذري: ٧٩/١، و«وفيات الأعيان»: ١٣١/٢ - ١٣٢، «معجم الألقاب» لابن الفوطي: ج ٤/ق ١٤٣/٣، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/٢٣٣ - ٢٣٤، و«الوافي بالوفيات»: ١٢٧/١٢ - ١٢٨.

(٢) الحزون جمع، مفردها الحَزْنُ: وهو ما غلظ من الأرض وخشن. «معجم متن اللغة»: ٨١/٢.

وانظر مختارات من القصيدة في «البرق الشامي»: ١٧٢/٣ - ١٧٣.

قال العماد: وكان تقي الدين غائباً عن هذه الواقعة، واشتغل عنها بغيرها، وذلك أن سُلطانَ الرُّوم قليج أرسلان طلب حِصن رَعْبَانَ*، وادَّعى أنه من بلاده، وإنما أخذه منه نور الدين — رحمه الله — على خلافٍ مراده، وأن الملك الصَّالح ولده قد أنعم به عليه، ورضي بعوده إليه. فلم يفعل^(١) السلطان. وكان هذا الحصن مع ابن المقدَّم، فأرسل قليج أرسلان عسكرياً مجتمعاً في عشرين ألفاً لحصار الحِصن، فلقبهم تقي الدين ومعه سيف الدين علي المشطوب في ألف مقاتلٍ، فهزهم.

قال: ولم يزل تقي الدين يدُلُّ بهذه الثُّصرة، فإنه هَزَمَ بِأَحَادٍ أَلُوفاً، وأرغم بأعدادٍ من الأعداء أنوفاً^(٢).

وقال ابنُ أبي طي: واتَّصل بالسلطان أن قليج أرسلان قد طَمَعَ في أخذ رَعْبَانَ* وكيسون^(٣)، فلما دخل دمشق وصله رسوله يطلبهما منه، ويدَّعي أن نور الدين بن زَنُكي اغتصبهما منه، وأنَّ الملك الصَّالح قد أنعمَ عليه بهما. فاغتاظ السلطانُ، وزَبَرَ^(٤) الرسول، وتوعَّد صاحبه، فعاد الرسول، وأخبر قليج أرسلان، فغضب، وسيرَ عسكرياً إلى رَعْبَانَ* فحاصرها، وسمِعَ السلطان، فندب تقي الدين عمر في ثمان مئة فارسٍ، فسار، فلما قارب رَعْبَانَ أخذ معه جماعةً من أصحابه مقدار مئتي فارس، وتقدَّم عسكرياً، وسار حتى أشرف على عسكري قليج أرسلان ليلاً، فرآهم قد سدُّوا الفضاء، وهم

(١) في (ب) فلم يقبل.

(٢) «البرق الشامي»: ١٧٣/٣ — ١٧٤، و«سناه»: ٣٣١/١ — ٣٣٢.

(٣) كذا في الأصل و(ب)، ورسمها ياقوت في «معجم البلدان»: ٤٩٧/٤ كيسوم، وسيرد التعريف بها في ملحق كشف الأماكن.

(٤) زيره: انتهره، وأغلظ له في القول والرد. «اللسان» (زبر).

قَارُونُ آمَنُونَ وادعون، فقال تقي الدين لأصحابه: هؤلاء على ما تَرَوْنَ من الطَّمَانِينَةِ وَالْأَمَنِ وَالْغَفْلَةِ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ نَحْمِلَ فِيهِمْ بَعْدَ أَنْ نَتَفَرَّقَ فِي جَوَانِبِ عَسْكَرِهِمْ، وَنُصِيحَ فِيهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَا يَشْتَبُونَ لَنَا. فَأَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ، فَأَنْفَذَ وَاحِدًا مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى بَاقِي عَسْكَرِهِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَتَفَرَّقُوا أَطْلَابًا*، وَأَنْ يُجْعَلَ فِي كُلِّ طَلَبٍ* قِطْعَةٌ مِنَ الْكُوسَاتِ* وَالْبُوقَاتِ*، فَإِذَا سَمِعُوا الضَّجَّةَ ضَرَبُوا بِكُوسَاتِهِمْ وَبُوقَاتِهِمْ، وَجَدُّوا فِي السَّيْرِ حَتَّى يَلْحَقُوا بِهِ. ففعلوا ما أمرهم.

ثم إنه حمل في عسكر قليج أرسلان، وصرخ أصحابه في جوانبه، وَكَانَ عِدَّةُ عَسْكَرِ قَلِيْجِ ارْسَلَانَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ فَارِسٍ. فلما سمعوا الضَّجَّةَ، وَحَسَّ الْكُوسَاتِ وَالْبُوقَاتِ، وَشِدَّةَ وَقَعِ حَوَافِرِ الْخَيْلِ، وَجَلْبَةَ الرِّجَالِ، وَاصْطِكَكَ أَجْرَامِ الْحَدِيدِ، هَالَهُمْ ذَلِكَ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ فُوجِئُوا بِعَالِمٍ عَظِيمٍ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِلَّا أَنْ جَالُوا فِي كَوَائِبِ^(١) خِيُولِهِمْ غُرِيًّا^(٢)، وَطَلَبُوا النَّجَاةَ، وَأَخَذَتْهُمْ السُّيُوفُ، فَتَرَكُوا خِيَامَهُمْ وَأَثْقَالَهُمْ بِحَالِهَا، وَأَكْثَرَ تَقِي الدِّينِ فِيهِمْ الْقَتْلَ وَالْأَسْرَ، وَحَصَلَ عَلَى جَمِيعِ مَا تَرَكَوهُ. فلما أَصْبَحَ جَمَعَ الْمَأسُورِينَ وَمَنْ عَلَيْهِمْ بِأَمْوَالِهِمْ وَكُرَاعِهِمْ*، وَسَرَّحَهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ.

١٠/٢

قال: وَقِيلَ إِنَّ الْخَبَرَ بِهَذِهِ الْكُسْرَةِ وَصَلَ إِلَى السُّلْطَانِ فِي الْيَوْمِ الَّذِي كَسَرَ فِيهِ السُّلْطَانُ الْفَرَنْجَ عَلَى مَرَجِ عَيُونٍ، فَتَوَافَتِ الْبِشَارَتَانِ إِلَى الْبِلَادِ.

قال: وَقَدْ مَدَحَ ابْنُ التَّعَاوَيْذِيِّ^(٣) السُّلْطَانَ الْمَلِكَ النَّاصِرَ بِقَصِيدَةٍ أَنْفَذَهَا إِلَيْهِ مِنْ بَغْدَادَ، يَذْكُرُ فِيهَا وَقْعَةَ مَرَجِ عَيُونٍ، يَقُولُ فِيهَا:

(١) الْكَوَائِبُ مِنَ الْفَرَسِ، مَجْتَمِعُ كَتْفَيْهِ قَدَامَ السَّرِجِ. «اللسان» (كثب).

(٢) أَي لَا سَرِجَ عَلَيْهَا. «اللسان» (عرا).

(٣) سَتَرَدُ تَرْجَمَتُهُ ص ٤٢٦ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ.

كَادَ الْأَعَادِي أَنْ يُصِيبَكَ كِيدُهَا لَوْ لَمْ تَكْذُكْ بِرَأْيِهَا الْمَافُونَ
تُخْفِي عَدَاوَتَهَا وَرَاءَ بَشَاشَةٍ فَتَشْفُ عَنْ نَظَرٍ لَهَا مَشْفُونٍ^(١)
دَفَنْتَ حَبَائِلَ مَكْرِهَا فَرَدَدْتَهَا تَدْوَى^(٢) بَغِيظِ صُدُورِهَا الْحَدْفُونَ
وَعَلِمْتَ مَا أَخْفَوْا كَأَنَّ قُلُوبَهُمْ أَفْضَتْ إِلَيْكَ بِسِرِّهَا الْمَخْزُونِ
كَمَنْتُوا وَكَمْ لَكَ مِنْ كَمِينٍ سَعَادَةٍ فِي الْغَيْبِ يَظْهَرُ مِنْ وَرَاءِ كَمِينٍ
فَهَوَتْ نُجُومُ سُعُودِهِمْ وَقَضَى لَهُمْ بِالنَّخْسِ طَائِرُهُمْ بِمَرْجِ عُيُونِ

قلت: هكذا أنشده^(٣)، وهو حسنٌ، وقد كَشَفْتُهُ من نسخة من «ديوان ابن التَّعاويذي» فوجدتُ آخر هذا البيت:

طَائِرُ جَدِّكَ الْمَيِّمُونَ

وأول هذه القصيدة:

إِنْ كَانَ دِيْنُكَ فِي الصَّبَابَةِ دِيْنِي فَفَقِ الْمَطِيَّ بِرَمَلَتِي يَبْرِينِ^(٤)

ثم قال بعد تمام الغزل:

لَيْتَ الضَّئِينَ عَلَى الْمُحِبِّ بَوْضِلِهِ لَقِنَ السَّمَاحَةَ مِنْ صِلَاحِ الدَّيْنِ
مَلِكٌ إِذَا عَلِقَتْ يَدُ بَذِمَامِهِ عَلِقَتْ بِحَبْلِ فِي الْحِفَاطِ مَتْنِ
قَادَ الْجِيَادَ مَعَاقِلًا وَإِنْ اكْتَفَى بِمَعَاقِلِ مَنْ رَأَيْهِ وَحُصُونِ

(١) من الشفن: أن يرفع الإنسان طرفه ناظراً إلى الشيء كالكاره له أو المبغض. انظر «اللسان» (شفن).

(٢) دَوَى يَدْوَى دَوًى، فهو دَوٍ: إذا هلك بمرض باطن، وقال الليث: الدَّوى: داء باطن في الصدر. وقال ابن سيده: الدَّوى: المرض والسيل. «اللسان» (دوا).

(٣) يعني ابن أبي طي.

(٤) يبرين من أصقاع البحرين. انظر «معجم البلدان»: ٧١/١ - ٧٢، ٤٢٧/٥.

سَهَرَتْ جُفُونُ عِدَاهُ خِيفَةً مَاجِدٍ خَلَقَتْ صَوَارِمُهُ بَغِيرَ جُفُونٍ
لَوْ أَنَّ لِلْيَتِّ الْهَزْبِ سَطَاهُ لَمْ يَلْجَأْ إِلَى غَابٍ لَهُ وَعَرَيْنِ
أَضَحَتْ دَمَشْقُ وَقَدْ حَلَلَتْ بِجَوْهَا (١) مَاوَى الطَّرِيدِ وَمَوْتِلَ الْمُسْكِينِ
لَكَ عِفَّةٌ فِي قُدْرَةٍ وَتَوَاضَعُ فِي عِزَّةٍ وَشِرَاسَةٍ فِي لَيْنِ
وَأَرَيْتَنَا بِجَمِيلِ صُنْعِكَ مَا رَوَى الرَّأوونَ عَنْ أُمِّ خَلَتْ وَقُرُونِ
وَضَمِنْتَ أَنْ تُحْيِيَ لَنَا أَيَّامَهُمْ بِالْمَكْرُمَاتِ فَكُنْتَ خَيْرَ ضَمِينِ (٢)

قال ابن أبي طي: نزل السلطان على تل القاضي ببنياس على المَرَج الذي يُعرف بمرج عُيون، وأنفذ في ثاني المحرم قطعة من عسكره مع عز الدين فرُّخشاه لشن الغارة على بلاد الفرنج. فلما أصبح ركب يستوكف (٣) أخبار فرُّخشاه، فما هو إلا أن خرج من الخيم حتى رأى أغنام بنياس قد أقبلت من المراعي هاجئة على وجوهها من الغياض والأودية. فقال: هذه غارة. فأمر بلبس السلاح والاستعداد للحرب، فوصل بعض الرعاة، فأخبر أن الفرنج قد عبروا وصاروا قريباً منه على هيئة المتغفلة، فسار حتى أشرف على الفرنج، فإذا هم في ألف رُمح، فأخذتهم السيوف والدبابيس حتى فرشت الأرض منهم، وألقى جماعة منهم سلاحهم، وسلّموا أنفسهم أسارى، ونجا ملك الفرنج هنفري (٤) هارباً. ويقال: إنه وقف به فرسه،

(١) الجو: ما انخفض من الأرض. «القاموس المحيط» (جوا).

(٢) القصيدة بتمامها في «ديوانه» ٤٢٠ - ٤٢٤ مع اختلاف في بعض ألفاظها.

(٣) أي ينتظرها ويسأل عنها. «اللسان» (وكف).

(٤) هذا من أوهام ابن أبي طي، فقد مرَّ أن الهنفري قتل سنة (٥٧٤ هـ)، انظر ص ٢٠ من هذا الجزء، والذي هرب من هذه الواقعة هو الملك المجذوم بلدوين الرابع ملك بيت المقدس. انظر «البرق»: ١٦٤/٣ - ١٦٥.

فحملة أحد خيَّالته على ظهره، ثم رجع السلطان إلى معسكره، وسيفه يقطر دماً، وجلس لاستعراض الأسارى. فذكر نحو ما سبق.

وفي كتاب الفاضل إلى صاحب له بمكة، وقد سبق بعضه^(١)، قال: وجَرَتْ نُوبٌ، منها نوبة قتل الهنغري - لعنه الله - وتمام سبعين فارساً من كبار الخيَّالة، وطرح ملك الفرنج من على ظهر دابته، وتحامله بآخر رمق مع بَقِيَّة من نجا من خيَّالته.

ومنها: نوبة وادي الحريق، وقد جمع الله العدوَّ فارسه وراجله.

ومنها: نصر الله الذي ما كان قبله لملك من ملوك الأرض قتل ابن بارزان، ومقدَّم الدَّاوية، وابن صاحب طبرية، وأخو أسقف صُور، وصاحب جُبيل، وأصحاب الحصون والقلاع، ومقطعو الأقاليم والضِّياع، وحصل تحت اليد النَّاصرية - أعلاها الله - مئة وستون كلُّهم تُثْنَى عليهم الخناصر^(٢)، وتُقطَّر^(٣) بهم العساكر^(٤).

ومنها: دخول العساكر إلى عمل بيروت وصور، وغارتها على غِرَّة من أهلها، وقَطَعَ كلُّ شجرة مُثمرة من أصلها.

١١/٢

قال: وكانت الأساطيل المنصورة قد تضاغت عِدَّتُها إلى أن بلغت ستين شينياً*، وعشرين طريدة*، فسارت الشَّواني خاصَّةً، فدخلت البلاد الرُّومية، ودَوَّخَت السَّواحل الفرنجية، وأسرت ألف عِلْجٍ أحضرتهم أسرى

(١) انظر ص ٢٥ - ٢٦ من هذا الجزء.

(٢) أي يبدأ بذكرهم. «اللسان» (ثني).

(٣) أي أن تُشَدَّ الأسرى على نسقٍ واحداً خلف واحد، ثم يساقون. انظر «اللسان» (قطر).

(٤) انظر ص ٢٨ من هذا الجزء.

في قيد الأسار، وقتلت الرفاق الكبار، وغَنِمَت من هذه الغزوة أقوامٌ كانت أعينهم لا تعرفُ عين الدّزهم، ولا وَجْه الدّينار.

فصل

في تخريب حصن بيت الأحزان، وذلك في شهر ربيع الأول

قال العماد: جمع السُّلطان جموعاً كثيرة من الخيالة والرجالة، وسار، فوصل إلى المخاضة يوم السبت تاسع عشر الشهر، والحصن مبنيٌّ دونها من الغرب، فخيمَ منها بالقرب، وضاق ذلك المَرَجُ عن العسكر، واحتاج إلى نصب ستائر لأجل المنجنيقات، فركب السلطان بُكرة الأحد إلى ضياع صَفَد، وكانت قلعة صفد يومئذٍ للدَّاوية، وهو عُشُّ البلية. وأمر بقطع كُرومها، وحَمَلَ أخشابها، فأخذ كل ما احتاج إليه، ورجع بعد الظهر، وزحفوا إلى الحصن بعد العَصْرِ، فما أمسى المساء إلا وهم قد استولوا على الباشورة*، وانتقلوا بكلّيتهم إليها، وباتوا طول الليل يحرسون، وخافوا أن تفتح الفرنجُ الأبواب، ويُغيروا عليهم على غِرّة، وإذا الفرنج قد أوقدوا خَلْفَ كل بابٍ ناراً؛ ليأمنوا من المسلمين اغتراراً. فاطمأن المسلمون، وقالوا: ما بقي إلا نَقْبُ البُرْج. فقرّقه السلطان على الأمراء، فأخذ فرُخْشاه الجانب القبلي، وأخذ السُّلطان الجانب الشمالي، وقصد ناصر الدين بن شيركوه بِقُرْبِهِ نَقْباً، وكذلك تقي الدين، وكل كبير في الدولة جَعَلَ له قِسْماً، وكان البُرْجُ مُحْكَمَ البناء، فَصَعُبَ نَقْبُهُ، لكن ما انقضى يوم الأحد إلا وقد تَمَّ نَقْبُ السُّلطان وعُلِّقَ، وحُشي بالْحَطَبِ ليلة الاثنين وحُرِّقَ، وكان النقب في طول ثلاثين ذراعاً في عرض ثلاث أذرع، وكان عرض السور تسع أذرع، فما تأثر

بذلك، فاحتاج السلطان صبيحة يوم الاثنين إلى إطفاء النيران ليتِمَّ نَقْبُهُ، وقال: من جاء بِقُرْبَةِ ماءٍ فله دينار.

قال العماد: فرأيتُ النَّاسَ لِلْقَرَبِ حاملين، ولأَوْعِيَةِ الماءِ ناقلين، حتى أغرقوا تلك الثُّقُوبَ فَخَمَدَتْ، فعاد نَقَّابُهَا وقد بَرَدَتْ، فخرَّقوه وعمَّقوه، وفتحوه وفتحوه، وشَقُّوا حَجَرَهُ وفلقوه، ثم حشوه وعلَّقوه، واستظهروا فيه يومي الثلاثاء والأربعاء ثم أحرقوه. واشتدَّ الحرُّصُ عليه لأنَّ الخبرَ أَنَاهُمْ بَأَنِ الفرنج قد اجتمعوا بطبرية في جمعٍ كثير، فلما أصبح يوم الخميس الرابع والعشرين من ربيعِ الأول، وتعالى النهار، انقضَّ الجدار، وتباشرتِ الأبرار.

وكان الفرنج قد جمعوا وراء ذلك الواقع خطباً، فلما وقع الجدارُ دخلتِ الرِّياحُ، فردَّتِ النَّارَ عليهم، وأحرقت بيوتهم وطائفةً منهم، فاجتمعوا إلى الجانب البعيد من النار، وطلبوا الأمان. فلما خمدت النيرانُ دخل الناسُ، وقتلوا وأسروا، وغَنِمُوا مئة ألف قطعةٍ من الحديد من جميع أنواع الأسلحة، وشيئاً كثيراً من الأقوات وغيرها، وجيء بالأسارى إلى السلطان، فمن كان مُرْتَدّاً أو رامياً ضُرِبَتْ عنقه، وأكثرُ من أُسِرَ قَتَلَهُ في الطريق الغزاة المطَّوعة، وكان عِدَّةُ الأسارى نحو سبع مئة، وخَلَّصَ من الأسر أكثر من مئة مُسلم، وسير باقي الأسارى إلى دمشق.

وأقام السلطان بمنزلته حتى هدَّوا الحصن إلى الأساس، وطَمَّ جُبَّ ماءٍ مَعِينٍ كانوا حفروه في وسطه، ورمى فيه القَتْلَى. وكان عند السلطان رسول القومص معافى وهو يشاهد بلية أهلِ مِلَّتِهِ.

وقد كان السلطان بذل لهم في هدمه ستين ألف دينار، فلم يفعلوا، فزادهم حتى بلغ مئة ألف، فأبَوْا. وكان مُدَّةُ المقام على الحِصْنِ في أيام فتحه وبعدها أربعة عشر يوماً.

وبعد ذلك سار السُلطان إلى أعمال طبرية وصور وبيروت وغيرها، فأغار عليها، وأزجَفَ قلوبهم بوصوله إليها، ورجع السُلطان إلى دمشق يوم الأربعاء، ومَرَضَ جماعةٌ من ذلك الوباء؛ لأن الحرَّ كان شديداً، وأننت جِيْفُ القتلى. وطوَّل السُلطان المقامَ عليه بعد فتحه لأجل تميم هذمه، فتوفي أكثر من عشرة أمراء، وعاد المشهد يعقوبي كما كان مزوراً، وبتكبير المسلمين وصلاتهم معموراً^(١).

وهناً الشعراءُ السُلطان بفتح هذا الحصن، فمن ذلك ما أنشده نشو الدولة أحمد بن نفاذه^(٢) الدَّمَشقي من جُملة مدائحه:

هلاكُ الفرنجِ أتى عاجلاً وقد آن تكسِيرُ صُلْبَانِهَا
ولو لم يكن قد دَنَا حَتْفُهَا لما عَمَّرت بَيْتَ أَحْزَانِهَا^(٣)
ولأبي الحسن علي بن محمد بن رُسُوم السَّاعاتي الخراساني، ثم الدَّمَشقي^(٤) من قصيدة، أولها:

(١) «البرق»: ١٧٥/٣ - ١٨١، و«سناه»: ٣٣٣/١ - ٣٣٧. وانظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٥٦ من الجزء الثاني.

(٢) هو أحمد بن عبد الرحمن بن علي، بدر الدين السَّلَمي الدمشقي، ولد بدمشق سنة (٥٤١ هـ)، كان عند صلاح الدين في عداد رؤساء الأجناد الذين يسمونهم بالأمراء، وكان شاعراً، له مدائح في صلاح الدين وأولاد أخيه وغيرهم من رجال الدولة، وكان ديوانه موجوداً في زمانه، مضموناً به، توفي سنة (٦٠١ هـ).

انظر ترجمته ومقتطفات من شعره في «خريدة القصر». قسم شعراء الشام: ٣٢٩/١ - ٣٣٤، و«الغصون اليبانة»: ٢٦ - ٢٨، و«بغية الطلب»: ٩٧٨/٢ - ٩٨١، و«فوات الوفيات»: ٨٤/١ - ٨٦، و«الوافي بالوفيات»: ٣٩/٧ - ٤٤.

(٣) البيتان في «سنا البرق» ٣٣٨/١ و«الكامل» لابن الأثير: ٤٥٧/١١.

(٤) كان أبوه محمد من خراسان، ثم انتقل إلى دمشق، وأقام بها إلى حين وفاته، =

بجَدِّكَ أَعْطَافُ الْقَنَا تَتَعَطَّفُ
شَهَابٌ هَدَى فِي ظُلْمَةِ الشَّكِّ ثَاقِبٌ
وَقَفْتَ عَلَى حِصْنِ الْمَخَاضِ وَإِنَّهُ
فَلَمْ يَبْدُ وَجْهُ الْأَرْضِ بَلْ حَالَ دُونَهُ
وَجَزْدَاءُ سَلْهَوْبٍ ^(١) وَدِرْعٌ مُضَاعَفٌ ^(٢)
وَمَا رَجَعْتَ أَعْلَامُكَ الصُّفْرُ سَاعَةً
كَبَا مِنْ أَعَالِيهِ صَلِيبٌ وَبَيْعَةٌ
صَلِيبُ عُبَّادِ الصَّلِيبِ وَمَنْزِلُ الْـ
أَيْسَكُنْ أَوْطَانَ النَّيَّسِنِ عُصْبَةٌ
ومنها:

نَصَحْتَكُمْ وَالنُّصْحُ فِي الدِّينِ وَاجِبٌ ^(٣) دَرُّوا بَيْتَ يَعْقُوبٍ فَقَدْ جَاءَ يَوْسُفُ ^(٤)

= وكان أُوحد عصره في معرفة الساعات وعلم النجوم، وهو الذي عمل الساعات عند باب الجامع بدمشق، صنعها في أيام الملك العادل نور الدين.

وأما ابنه علي هذا، فهو شاعر مبرز، ولد بدمشق، وتوفي بالقاهرة سنة (٦٠٤ هـ)، وله إحدى وخمسون سنة. وديوان شعره مطبوع في جزأين في المطبعة الأمريكية ببيروت سنة ١٩٣١ م، بتحقيق أنيس المقدسي.

انظر ترجمته في «التكملة» للمنذري ١٤٢/٢ - ١٤٣ - وفيه: وهو ابن ثمان وأربعين سنة وسبعة أشهر واثني عشر يوماً - و«وفيات الأعيان»: ٣٩٥/٣ - ٣٩٧، و«طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة: ٦٦١ - ٦٦٢، و«سير أعلام النبلاء» ٤٧١/٢١ - ٤٧٢، و«الوافي بالوفيات» ٧/٢٢ - ٢٩ وانظر مقدمة محقق ديوانه.

(١) جرداء سلهوب: الفرس السَّابَّاقَةُ الماضية. «اللسان» (جرّد، سلهب).

(٢) هي الدرّ التي ضوعف حلقلها، ونسجت حلقتين حلقتين. «اللسان» (ضعف).

(٣) في الأصل: نصحتكم والدين في النصّح واجب، والمثبت من «سنا البرق»: ٣٣٨/١.

(٤) ليست القصيدة في «ديوانه» المطبوع، وقد استدرّكها محققه من كتابنا هذا، انظر =

ومن قصيدة لسعادة الضَّرِير الحِمْصِي (١)

حَلَلْتَ فَكُنْتَ الْأَلَمِعيَّ الْمُسَدِّدا
وَقُمْتَ بِأَغْبَاءِ الْمَمَالِكِ نَاهِضاً
تَعَوَّدْتَ ضَرْبَ السَّيْفِ وَالطَّعْنَ بِالْقَنَا
نَصَرْتَ الْهُدَى لَمَّا تَخَاذَلَ حِزْبُهُ
غَضِبْتَ لِإِدِينِ أَنْتَ حَقّاً صَلَاحُهُ
فِيَا يُوسُفَ الْخَيْرِ الَّذِي فِي يَمِينِهِ
وَصَلْتَ لَدَى سِلْمٍ وَصَلْتَ لَدَى وَغَى
وَقُدْتَ إِلَى الْأَعْدَاءِ جَيْشاً عَرَمَراً
فَلَمْ تُبَقِّ لِلطُّغْيَانِ شَمَلاً مَجْمَعاً
فَنَاهَيْكَ مِنْ جَيْشٍ نَهَضَتْ بَعِيْثُهُ
حَمَلَتْ ذُبَالاً (٣) فِي ذَوَابِلِ سُمْرِهِ (٤)
وَزُرْتَ بِهِ الْحِضْنَ الَّذِي لَوْ تَحَصَّنَتْ
قَصَمَتْ بِهِ صُلْبَ الصَّلِيبِ وَرُغْتَهُ

وَسِرْتَ فَكُنْتَ الشَّمْرِيَّ (٢) الْمُؤَيَّدَا
فَأَقْعَدْتَ أَعْدَاءَ وَلَمْ تَخْشَ مُقْعِدَا
وَكُلُّ أَمْرِيٍّ مُغْرَى بِمَا قَدْ تَعَوَّدَا
فَنَادَاكَ حِزْبُ اللَّهِ يَا نَاصِرَ الْهُدَى
فَأَرْضَيْتَ - لَمَّا أَنْ غَضِبْتَ - مُحَمَّدَا
مِنْ الْخَيْرِ مَا قَدْ غَارَ فِينَا وَأُنْجِدَا
فَفَقُتَ جَمِيعَ النَّاسِ بِالْبَأْسِ وَالتَّنْذَى
إِذَا أَبْرَقَتْ فِيهِ الصَّوَارِمُ أَرْعَدَا
وَلَمْ تُبَقِّ لِلإِيْمَانِ شَمَلاً مَبْدَا
فَأَقْعَدْتَ لَمَّا أَنْ نَهَضَتْ بِهِ الْعِدَى
فَلَمَّا دَجَا لَيْلُ الْعَجَاجِ تَوَقَّدَا
فَوَارِسُهُ بِالنَّجْمِ أَوْرَدَتْهُ الرَّدَى
وَسَهَّدَتْهُ لَمَّا غَفَا فَتَسَهَّدَا

= «الديوان»: ٤٠٩/٢، و«سنا البرق»: ٣٣٨/١.

(١) مرت قصيدة له ص ٣٩٢ - ٣٩٣ من الجزء الثاني. وانظر ترجمته ومختارات من شعره في «خريدة القصر». قسم شعراء الشام: ٤٠٦/١ - ٤٣٢ و«بغية الطلب»: ٤٢٣٠/٩ - ٤٢٣٢، وذكر أن وفاته سنة (٥٩١ هـ) وكان له من العمر اثنان وستون سنة.

(٢) الشمري: الرجل الماضي في الأمور والحوائج، مجرب. «اللسان» (شمر).

(٣) الذبال جمع، مفردا الذبالة: وهي الفتيلة التي تسرج. «اللسان» (ذبل).

(٤) الذابل من القنا: الرقيق اللاصق باللبيط، أي القشر، جمعها ذوابل وذُبل، وذُبل.

«معجم متن اللغة»: ٤٨٩/٢ والسُمرة في ألوان الرماح محمودة. انظر «اللسان» (شمر).

وَفَضَّ بِمَا قَدْ فَضَّه مِنْ سِهَامِهِ نَوَاجِذَ ثَغْرِ الْهَنْفَرِيِّ وَقَدَّأَ
هَبَبَتْ إِلَيْهِ هَبَّةٌ يُوسُفِيَّةٌ تَعِيدُ هَبَاءَ كُلِّ مَا كَانَ جَلَمَدًا^(١)

قال: ومنهم الأمير نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان العراقي^(٢)
من أهل الحلة المزبديّة، كان حاضراً في نوبة ابن بارزان، له من قصيدة
أولها:

هَنِيئًا صَلاَحَ الدِّينِ بِالْفَتْحِ وَالنَّصْرِ وَتَبَلَّ الْأَمَانِي الْغُرَّ وَالْفَتَكَ الْبَكْرِ
وَمَا حُزَّتْ فِيهَا مِنْ فَخَارٍ وَمِنْ عُلَا وَحُسْنٍ ثَنًا يَبْقَى إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ
سَمَوَتْ لَهَا بِالْمَشْرِفِيَّةِ وَالْفَنَّا سُمُوَ أَبِي لَا يَنَامُ عَلَى وَثَرٍ
وَصَلَّتْ بِهَا حَبْلَ الْمَفَاخِرِ مِثْلَمَا قَطَعْتَ بِهَا يَوْمَ الْوَعَى دَابِرَ الْكُفْرِ
سَلَلَتْ بِيَاضَ الصُّبْحِ وَهُوَ صَوَارِمٌ وَخُضَّتْ سَوَادَ اللَّيْلِ وَهُوَ دَمٌ يَجْرِي
وَقَدْ عَرَفَ الْإِفْرَنْجُ بِأَسْكَ فِي الْوَعَى وَجَرَّعَتْهُمْ مِنْهُ أَمْرٌ مِنَ الصَّبْرِ^(٣)
وَوَظَنُوا بِنَاءَ الْحِصْنِ صَوْنًا لِمُلْكِهِمْ فَأَصْبَحَ بِالشَّعْرَاءِ مُنْهَتِكَ السَّتْرِ
فَمَا قَبِضَتْ مِنْهُمْ يَدُ الْغَدْرِ - قَطَعْتَ أَنَامِلُهَا - إِلَّا عَلَى صَفْقَةِ الْخُسْرِ
هِيَ الْفَتَكَةُ الْغُرَّاءُ لَا زِلْتَ قَائِمًا بِأَمْثَالِهَا لِلدِّينِ فِي السَّرِّ وَالْجَهْرِ
وَأَصْبَحَ فِي أَقْصَى خُرَاسَانَ ذِكْرُهَا وَفِي كُلِّ قَلْبٍ مِنْهُ جَيْشٌ مِنَ الدُّعْرِ
فَلَا تَرْضَ مِنْهُمْ بَعْدَهَا بَذَلُ طَاعَةٍ فَمَا خُلِقُوا إِلَّا عَلَى شِيْمَةِ الْغَدْرِ
وَسِرَ وَامْلِكِ الْأَرْضَ الَّتِي لَوْ تَرَكْتَهَا لَأَغَضَتْ عَيُونَ الْمَجْدِ مِنْهَا عَلَى أَمْرِ

(١) في «سنا البرق» ٣٣٨/١ - ٣٣٩ بعض أبياتها.

(٢) لم أهتم إلى ترجمته في المصادر التي بين يدي.

(٣) الصبر - بكسر الباء - عصارة شجر مُرٍّ، ولا يسكن إلا في ضرورة الشعر.

«القاموس المحيط» (صبر).

فيا آل أيوب حَوَيْتُمْ مَنَاقِباً بأخمصها تعلو على الأنجم الزُّهرِ
إذا عُدَّ أربابُ الفَخَارِ فأنتم ذوو الفَعَلاتِ الغرُّ والنائلِ الغمرِ
وأنتَ الذي أَصْبَحْتَ بالبأسِ والتُّقى وبذلِ اللّهي^(١) عالي السَّنا عَطَرَ الذِّكْرِ^(٢)

ومن كتابِ فاضلي إلى بغداد في وَصْفِ الحِصْنِ: وقد عُرِّضَ حَائِطُهُ
إلى أن زاد على عَشْرَةِ أذرعَ، وَقُطِعَتْ لَهُ عِظَامُ الحِجَارَةِ؛ كل فَصٌّ منها من
سبع أذرعَ إلى ما فوقها وما دونها، وَعِدَّتْهَا تَزِيدُ على عشرين ألفَ حجرَ،
لا يَسْتَقِرُّ الحِجْرُ في مكانه، ولا يَسْتَقِلُّ في بُنيانه إلا بأربعةِ دنانيرَ فما فوقها،
وفيما بين الحائطين حَشْوٌ من الحِجَارَةِ الصُّمِّ، المُرْغَمُ بها أنوفُ الجبالِ
الشُّمِّ، وقد جُعِلَتْ تَسْقِيَّتُهُ بِالْكِلْسِ الذي إذا أَحَاطَتْ قَبْضَتُهُ بالحِجْرِ مَارَجَهُ
بمثلِ جِسْمِهِ، وصاحبه بأوثقِ وأصلبِ من جِرْمِهِ، وأوعَزَ إلى خَصْمِهِ من
الحديدِ بآلا يتعرَّضُ لِهَدْمِهِ.

ومنه في وصف النَّارِ، قال: وبَاتَ النَّاسُ في ليلةِ الجُمُعَةِ مُطِيفِينَ
بالحِصْنِ والنَّارِ به مُطِيفَةً، وعليه مُشْتَمِلَةٌ، وَعَذَبَاتُ^(٣) أَلْسِنَتِهَا على تاجِهِ
مُنْسَدَلَةٌ، وعلى خَلْفِهِ مُسْبَلَةٌ، ونارهم قد أَطْفَأَهَا اللهُ بتلكِ النَّارِ الواقعةِ،
وَمَنَعَتْهُمْ قَدِ أَذْهَبَهَا اللهُ بتلكِ الأبرجةِ السَّاجِدَةِ، وَبَنَفَسَجُ الظُّلَمَاءِ قَدِ اسْتَحَالَ
جُلْنَاراً، وَالشَّفَقُ قَدِ عَمَّ اللَّيْلَةَ فلم يَخْتَصَّ أَصَالاً ولا أَسْحَاراً. ونفحاتها
حَمِيمَةٌ وَقَوْدُهَا النَّاسُ والحِجَارَةُ، والبلاءُ ينادي بلسانِ مُصَابِهَا: إِيَّاكَ أَعْنِي

(١) العطية. «اللسان» (لها).

(٢) في «سنا البرق»: ٣٣٩/١ أربعة أبيات من القصيدة.

(٣) عذبات جمع، مفردُها عَذْبَةٌ، وهي ما يسدل من العمامة بين الكتفين، وهما طرفاها. «معجم متن اللغة»: ٥٣/٤.

واسمعي يا جارة. فولجت النَّارُ موالجَ تضيق منها الفِكرُ، وتعجزُ عنها الإبرُ، ونَقَلَتِ النَّبأَ من العين إلى الأثر، وقال الكُفْرُ: إنها لإحدى الكُبر. وخولف المَثَلُ: إِنَّ السَّعَادَةَ لتلحظُ الحجر. وأغنى ضوؤها لسانَ كلِّ إمعة أن يسأل هذا وهذا: ما الخبر، وَقَذَفَتْ بِشَرِّ كَالْجِمَالَاتِ^(١) الصُّفْرُ، وزَفَرَتْ بغيظِ تعَفَّرَ له حدودُ الجبال الصُّغَرُ، وتلحقها بالكُثْبِ العُفْرُ. وبات الليل والنَّهار يَشُلُّهُ^(٢)، وكلما أغمده الخمودُ جعل الوقود يَسْلُهُ، إلى أن بدا الصَّبَاحُ كأنه منها امتار الأنوار، وانشقَّ الشَّرْقُ ومن عَصْفُهَا صَبَغَ الإزار، فحيثنَّه تقدَّم الخادم، فاقتلع شدُّه الأحجارَ من أُسْهَا، ومحا حروفَ البُنيان من طَرِسْهَا، وتَبَعَهُ الجيشُ ورفاقه، وكافَّةً من اشتمل عليه نطاقه.

وفي كتابٍ آخر: وكان مبنياً على تلٍّ، وفيه صِهْرِيح^(٣)، لما فتح المسلمون الحِصْنَ رموا فيه ما يناهز ألف قتيل، ودابةٌ محرقة بالنَّار، فما سَدَّتْ عَرْصَتَهُ ولا ملأت حُفْرَتَهُ، وكان فيه نحو ألف زَرَدِيَّةٍ*، والمقاتلة ثمانون فارساً بغلمانهم، وخمسة عشر مقدِّماً للرِّجال، مع كل مقدِّم خمسون رجلاً، هذا إلى الصُّنَّاع ما بين بَنَاءٍ ومعمار وحدَّادٍ ونجار وصَيْقَلٍ وسيوفي، وصُنَّاعُ أنواع الأسلحة. وكان به من أسرى المسلمين ما يزيد على مئة رجل، نُزِعَتِ القيود من أرجلهم وجُعِلَتْ في أرجل الفرنج. وكانت فيه أقواتٌ لِعِدَّةِ سنين، وأنواع اللحوم الطيبة والخبيثة فيها بلاغٌ ومَتَاعٌ إلى حين. ولما قوتل

(١) الجمالات جمع جمال، «اللسان» (جمل).

قلت: وهذا التشبيه مقتبس من الآية الكريمة ﴿إِنهَا ترمي بشرراً كالقصر، كأنه جمالةٌ صفر﴾ [المرسلات: ٣٢ - ٣٣].

(٢) الشل والشلل: الطرد. شله يشله شلاً فانشل، وكذلك شل العيرُ أُنْتَه والسائقُ إيلَهُ. ومَرَّ فلان يشلهم بالسيف: أي يطردهم. «اللسان» (شلل).

(٣) الصهريج: حوض يجتمع فيه الماء. «القاموس المحيط» (صهريج).

أول يوم هُجِمَ حَوْشُهُ وفيه جماعةٌ من المقاتلة، فَضْرِبَتْ رِقَابُهُمْ، وأُخذت دوابُّهم، وفي الحال عُلقت النُقُوبُ على خمس جهات، وَحُشِيَتْ بالنَّيران، وتأخَّرَ وقوع الجدران لفرط عَرَضِ البُنْيَان، ولم تزل النَّارُ توقَدُ، ثم تخرج، ثم تُشعل، ثم تُخمد إلى أن تَمَكَّنَتِ النُقُوبُ، وَحُشِيَتْ بالأحطاب، وأُطلقت فيها النَّيرانُ في يوم الخميس، فيومئذٍ وَقَعَتِ الواقعة، وانشَقَّتْ الأبرجة فهي يومئذٍ واهية، وملك المسلمون الحِصْنَ بما فيه وَمَنْ فيه، واشتعلت النَّيرانُ في أرجائه ونواحيه.

وكان الطاغية مُقَدِّمَ الحصن يشاهد ما حَلَّ بِبُنْيَانِهِ، وما نَزَلَ من البلاء بأصحابه وأعدائه. ولما وصلت النَّارُ إلى جهته ألقى نَفْسَهُ في خندقِ نارٍ صابراً على حَرِّها، ففي الحال نقلته هذه النَّارُ إلى تلك النَّارِ. ولما أخذ أسارى الإفرنج، وهم عِدَّةٌ تزيد على سبع مئة بعد المقتولين، وما تقصر عِدَّتُهُمْ عن مثلها، توفَّرتِ الهِمَّةُ على هَدمِ هذا الحصن، وتعفية أثره، وإزالة ضرره، فألحقت أعالیه بقواعده، وصار أثراً بعد عَيْنٍ في عَيْنِ مُشَاهِدِهِ، هذا، والفرنج مجتمعون في طَبَرِيَّةٍ يشاهدون الأمر عياناً، وينظرون إلى الحِصْنِ قد مُلِيَءَ نيراناً، وارتفع دُخَاناً^(١). وسارت العساكر إلى أعمال صيدا وبيروت وصور، فاثنت مُغِيرَةً، فاستثارت كُلَّ غامضة، ووصلت إلى كل ذخيرة، وصارت بلاد الفرنج لا يسكن منها إلا كل قلعة أو مدينة، ولا يقيم فيها إلا مَنْ نَفْسُهُ لشدَّةِ الخوفِ معتقلة في نَفْسِهِ أو مشحونة.

ومن كتاب آخر فاضلي عن السُّلطان إلى وزير بغداد: تأخَّرَ فلانٌ

(١) هكذا ضبط في الأصل، وهي لغة فيه. انظر «تاج العروس» (دخن).

لضروراتٍ، منها أمراضٌ كانت قد عمَّت بها البلوى، وكثُرَتْ بها الشكوى، وكان أكثرها خاصاً بالعائدين من العساكر من نوبة فتح الحصن. وكان خادماً المجلس السَّامي ابن أخيه تقي الدين، وابن عمه ناصر الدين قد جهداً وأُثخنا، وبلغا حدَّ اليأس وامْتَحنا، وكادا يَنْقُطان من ضمير المَنَى^(١)، فَمَنَّ الله تعالى بالشفاء، وهذه البُشرى بفتح الحِصْن، وإن كانت شريفةً موافقُها^(٢)، عامَّةً منافِعُها، فقد تجدَّدت بعدها بشارَةٌ طلعت بِشَارَةٍ رائقةً، وجاءت في مكان الرَّدِيف لأُخرى، لا فَرْقَ بينهما إلا أنَّ تلك سابقة وهذه لاحقة؛ وذلك أن الأسطول المِصري غزا غزوةً أُخرى غير الأولى، وتوجَّه عن السَّواحل الإسلامية مرةً أُخرى، مَنَّ الله فيها مِنَّةً أُخرى. وكانت عِدَّتُهُ في هذه السَّنَةِ قد أضعفت وقُوِّيت، واستفرغت^(٣) فيها عزائم الجهاد واستقصيت، واحتلت به^(٤) الرجال الذين يعملون في البحر، ويفتكون في البر، ومن هو معروفٌ من المغاربة لغزو بلاد الكُفْر، فسارت على سوارٍ هي كنانن، إلا أنها تمزق مروق السَّهام، ورواكذ هي مدائن إلا أنها تمرُّ مرَّ السحابِ غيرِ الجَهَام^(٥)، فلا أعجب منها تسمَّى غُرَباناً، وتنشُرُ من ضُلوعها أجنحة الحَمَام، وتُسمَّى جوارى وكم مُبَشِّرٌ مُجربها من النَّصْر بِغُلام. وطوقت^(٦) في الأحد حادي عشر جُمادى الأولى ميناء عَكَّا، وهي قُسطنطينية الفرنج، ودار كُفْرهم، أبدلها الله من الكُفْر إسلاماً، وخلَعَ عنها الشُّرك البالي، وخلَعَ عليها من التوحيد أعلاماً. وكانت مفروسة فأصبحت مفترسة،

(١) المنى: القَدَر. «اللسان» (منى).

(٢) في طبعة وادي النيل ١٣/٢ مواقعها، وهي الأشبه.

(٣) من هنا يبدأ اضطراب في ترتيب أوراق الأصل، أعدتها إلى حاقٍ موضعها.

(٤) أي نزلت به. «معجم متن اللغة» ١٥١/٢.

(٥) الجهام: بالفتح: السحاب الذي لا ماء فيه. «اللسان» (جهم).

(٦) في طبعة وادي النيل: ١٤/٢ طرقت.

وبات جميع الفرنج محترسة وغدت مترسة، فما هي إلا أن حُذفت والجة على المينا، وفيه المراكب والبضائع، فاستولت على عِدَّة من المراكب تحطيماً وتكسيراً، ونطاحاً يَقلِّقُ ولو كان ثَبِيراً^(١)، وأخلت ساحل الفرنج بقتالها، وبأشرت مثل الماء بنزولها ونزالها، وهذا مما لم يُعهد من الأسطول الإسلامي مثله في سالف الدَّهر، لا في حالة قوَّة إسلام ولا ضُعْفِ كُفْرٍ، ومما سبيله أن تُطرَزَ السَّيرُ الكريمة بفخره، كما طرَزَ الله الصحيفة الشريفة بأجره. وقُتل على قلعة عكا ثلاثة نفرٍ بأليم السَّهام، أبعد ما كانوا وقفوا عنها، وآمن ما كانوا منها، فصرعتهم الأيدي والأفواه، وخرُّوا سُجَّداً على الجباه، سجوداً لا يرفعون منه الرُّؤوس، ولا ينتقلون منه إلى حالة الجلوس، ولا يرفع فيما يرفع لهم من عمل، ولا لهم فيه من قبلة ولا لهم به من قِبَل. وأقامت المراكب يومين تقابلها وتقاتلها وتناضلها.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

منها حجة الفاضل الثَّانية، ووفاة الخليفة المستضيء بالله وغير ذلك. قال العماد: وفي العَشر الأخير من شَوَّال خرج الفاضل من دمشق إلى الحج، ثم عاد إلى مصر من مكَّة^(٢).

قلت: وقفت على نسخة كتاب الفاضل إلى الصَّفي بن القابض^(٣)

(١) ثبير: من أعظم جبال مكة المكرمة. «معجم البلدان»: ٧٣/٢.

(٢) انظر «سنا البرق»: ٣٤٢/١.

(٣) كان متولي الخزانة والديوان والأعمال بدمشق، وهو كالنائب عن السلطان فيها.

سترد ترجمته ٢٩٢/٤ من هذا الكتاب.

يصفُ له مألقي في طريقه إلى مصر وركوب^(١) البحر، وكانت جماله ذهبت بمكة في خامس عشر ذي الحجة، فقال: خرجنا من مكة - شرفها الله - يوم الخامس والعشرين من ذي الحجة، وفي هذه الأيام [زاد]^(٢) تبسّطُ المفسدين، وإسراف المُسرفين، وظَهَرَ من هَوَان أمير الحاج العراقي ومن ضَعَف نفسه وانخفاض جناحه ما أطمع المفسد وأخاف المصلح. ووصلنا إلى جذّة يوم الأحد السابع والعشرين من ذي الحجة، وركبنا البحر يوم الثلاثاء التاسع والعشرين منه، وبتنا فيه ليلتي الأربعاء والخميس، ورمتنا الرّيحُ إلى جزيرةٍ بالقرب من بلاد اليمن تُسمّى دبادب. وكانت إحدى الليلتين في البحر من ليالي البلاء، وبالله أقسم لقد شاب بعض رؤوس أصحابنا في تلك الليلة، وأيسوا من الأنفس، وتمنّوا معاجلة الأمر وتقصير العذاب، وظنّوا أنهم أحيط بهم، وعاتبوا أنفسهم، ثم احتجوا عليها بالأقدار التي لا حيلة فيها. وصبرنا إلى أن فرّج الله سبحانه، ونزلنا البرية بحيث لا ماء يُشرب ولا جمل يُركب، ونُقِّذ إلى البُجاة النَّازلين على ساحل البحر، فأحضروا جمالاً ضعيفاً، أجزرتها أكثر من ثمنها وثن ما تحمله، فركبنا ووصلنا إلى عِيذاب* بعد عشرة أيام، وقد هلكنا ضعفاً وتعباً وجوعاً وعطشاً، لأنّ الخلق كانوا كثيراً، والزّاد يسيراً. وركبنا البرية من عِيذاب إلى أسوان، فكانت أشق من كلّ طريقٍ سلكنّاها، ومن كلّ مسافةٍ قطعناها لأنّا وردنا الماء في إحدى عشرة ليلةً مرّتين، وكانت الهمة قاصرة في المزداد، وكانت البلوى عظيمةً في العطش. فأما الحزون والوعرُ فهي تزيدُ على ما في

(١) في الأصل: وركب، والمثبت من طبعة وادي النيل: ١٤/٢.

(٢) ما بين حاصرتين مثبت من طبعة وادي النيل: ١٤/٢.

بريّة الشّام بكونها طريقاً بين جبلين كالذّرب المتضايق، والرّفاق المتقارب،
وحرّ الشمس شديد، وقريب الوعد بينهما بعيد، ولطّف الله إلى أن وصلنا
مِصر في السّابع عشر من صفر.

قلت: وللوجيه ابن الذّروي^(١) في الفاضل:

لك الله إمّا حجّة أو وفادةً فمن مشهد يُرضي الإله وموسم
تُرى تارة بين الصّوارم والقنا وطوراً تُرى بين الحطيم وزمزم
وكم لك يا عبد الرّحيم مائرٌ لها في سماء الفخر إشراق أنجم
كأنك لم تُخلق لغير عبادةٍ وإظهار فضل في الوري وتكرّم

قال العماد: وفي هذه السّنة طهر الملك العزيز أبو الفتح عثمان
عماد الدين بن السّلطان، وكان أحبّ أولاده إليه، وهو الذي قام بتدبير
الملك بعده، وولد بمصر ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين وخمس مئة
كما سبق ذكره^(٢).

وكان السّلطان لما قدم الشّام زاد شوقه إليه، فاستقدمه، فقدم عليه
عاشر رجب سنة إحدى وسبعين، وأنشد العماد السّلطان عند قدومه قصيدة،
منها:

يا أسداً يحمي عرين العُلا هُتيتَ جمع الشّمل بالشّبل
عثمانَ ذي النورين بين الوري من سُودد سام ومن فضل
يحكيك إقداماً وبأساً فما أشبه هذا الفرع بالأضل

١٥/٢

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٢ من هذا الجزء.

(٢) انظر ص ٤٧٥ من الجزء الثاني، و«سنا البرق»: ٣٣٩/١.

مَخَايِلُ الرُّشْدِ عَلَى بَشَرِهِ شَاهِدَةٌ بِالْفَضْلِ وَالتُّبْلِ
مَلِكٌ قَضَى اللَّهُ لَهُ أَنَّهُ عَلَى مُلُوكِ الْأَرْضِ يَسْتَعْلِي
بِالْمَلِكِ النَّاصِرِ سُلْطَانِنَا طَالَتْ يَدُ الْإِحْسَانِ وَالْعَدْلِ

ثم لم يفارقه، واستصحبه إلى مِصر في سنة اثنتين وسبعين، ثم عاد به معه إلى الشام في شَوَّال سنة ثلاث وسبعين، واتخذ له معلماً من مصر، وهو نجم الدين يوسف بن الحسين المجاور^(١)، فحصل من صحبتته رِزْقاً واسعاً لا سيما في عام الطهور، فإنه عَمَّ فيه السُّرور والحبور، وكان متولي الانفاق في الطهور صفى الدين بن القابض^(٢)؛ لأنه كان متولي الخزانة والديوان والأعمال بدمشق^(٣).

قال: وحجَّ — يعني ابن القابض — سنة أربع وسبعين، وفيها حجَّ

(١) المجاور لقب أبيه لأنه جاور بمكة، وقد توفي فيها سنة (٥٨٦ هـ) انظر «التكملة» للمنذري: ١٤١/١.

وأما نجم الدين هذا فقد ولد سنة (٥٤٩ هـ)، وكان قد اتخذ مكتباً على باب جامع دمشق يعلم فيه الصبيان، وقد أنس به العزيز بن صلاح الدين، حتى إنه استوزره في نيابته عن أبيه بمصر، ثم لما مات صلاح الدين فوض إليه العزيز جميع أمور دولته، وكان أهلاً لذلك لما جمع من الفضائل والآداب ومكارم الأخلاق، وتوفي بالقاهرة سنة (٦٠٠ هـ).

انظر ترجمته في «التكملة» للمنذري: ٣٠/٢ — ٣١، و«الغصون الياصرة»: ١٩ — ٢٥، وفيه وفاته سنة (٦٠١ هـ).

وفهم من سياق الخبر أن نجم الدين كان بمصر حين اتخذه صلاح الدين معلماً لولده، والصحيح أنه كان في دمشق، وطلب منه صلاح الدين أن يصحب ابنه إلى مصر. قال العماد: وقال لي السلطان عند قرب رحيله إلى مصر: اطلب لولدي هذا معلماً يصحبه، ويتسنى به تأديبه وتهذيبه. انظر «سنا البرق»: ١/٣٤٠.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٤٦ من هذا الجزء.

(٣) «سنا البرق»: ١/٣٤٠.

الفاضل من مِصر - يعني حجته الأولى - وعاد إلى الشَّام، ومعه ابن القابض.

قلت: فلما رجعا معاً في حجة الفاضل الأولى إلى الشَّام، ثم انفرد الفاضل بالحج ثانياً من العام المقبل، وهو سنة خمس وسبعين، وتَمَّ له في رجوعه ما تَمَّ كاتبه بالكتاب الذي سبق ذكره^(١)، يصف له ما لقي في رجوعه. وكانت حجة الفاضل الأولى من مصر ورجع إلى الشَّام^(٢)، وكانت الثانية من الشَّام ورجع إلى مِصر.

وفى هذه السنة توفي الملك المنصور حسن بن السُّلطان صلاح الدين^(٣)، وقبره القبر القِبْلِي من القُبور الأربعة بالقُبَّة التي فيها شاهنشاه بن أيوب بالمقبرة النَّجمية* بالعوينة* ظاهر دمشق.

قال العماد: وفيها خرجوا إلى بَغْلَبَك لتسليمها إلى عز الدين فَرُّخشاه، فسلكوا طريق الرُّواديْف؛ وهي طريقُ شاقَّة^(٤).

وفيها أغار عز الدين على صَفَد ثامن عشر ذي القعدة، وكان قد جمع لهم من رجال بانياس وما حولها، ورجع غانماً سالماً^(٥).

قال: وفي مستهل ذي القعدة أو ثانيه توفي ببغداد الخليفة الإمام المستضيء بالله أمير المؤمنين، واستُخْلِفَ ولده النَّاصر لدين الله أبو العباس أحمد. وكان رسول السلطان ضياء الدين بن الشَّهْرُزُوري^(٦) حاضراً، فحضر

(١) انظر ص ٤٦ - ٤٨ من هذا الجزء.

(٢) انظر ص ٢١ وما بعدها من هذا الجزء.

(٣) انظر ص ٤٧٨ من الجزء الثاني.

(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ٣٤١/١.

(٥) المصدر السابق.

(٦) سلفت أخباره في أثناء هذا الكتاب، وسيترجم له أبو شامة في «المذيل على =

وبايع، وأخبر بجلية الحال، فبادر السلطان إلى الخطبة له في جميع البلاد، ومضى صَدْرُ الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن إسماعيل^(١) من بغداد رسولاً إلى بهلوان^(٢)، وألزمه حتى خَطَبَ بهمَذان وأصفهان، وعمَّت الدعوة الهادية في جميع بلاد خُراسان. ثم لما رجع شيخ الشيوخ جاء إلينا رسولاً في سنة ست وسبعين، وأخذهُ السلطان معه إلى مصر، وحجَّ منها وركب البحر كما سيأتي ذِكرُهُ^(٣).

وللعماد في مدح الإمام النَّاصر قصائد، منها قصيدةٌ بائية مدحه بها سنة فتح القدس، وسيأتي منها أبياتٌ عند ذكر فتحه^(٤)، ومنها:

الدَّهْرُ يَنْصُرُنِي مَا دَامَ يَنْسُبُنِي لِيَخْدَمَةَ النَّاصِرِ الْمَنْصُورِ نَسَابُ
بطاعةِ النَّاصرِ بنِ المستضيءِ أَبِي الـ عَبَّاسِ أَحْمَدَ لِلْأَيَّامِ إِصْحَابُ^(٥)

وقال محمد بن القادسي^(٦) في تذييل تاريخ أبي الفَرَجِ بن الجَوَزي:

= الروضتين» في وفيات سنة (٥٩٩ هـ)، وانظر ص ٤٢٦ — ٤٢٧ من الجزء الثاني.

(١) وردت أخباره في أثناء هذا الكتاب، وسترد ترجمته ص ٢١٠ من هذا الجزء، وقد سلفت ترجمة أبيه في الحاشية رقم ٢ ص ١٧٨ من الجزء الثاني.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٦٨ من هذا الجزء.

(٣) انظر ص ٦٥ — ٦٦، ٦٩ من هذا الجزء.

(٤) انظر ص ٣٦٤ من هذا الجزء.

(٥) الإصحاب: الانقياد. «اللسان» (صحب).

(٦) هو محمد بن أحمد بن محمد بن علي، أبو عبد الله القادسي، نسبة إلى القادسية،

وهي قرية بين سامراء وبغداد، لاقادسية الكوفة التي كانت فيها الواقعة المشهورة.

كان له اعتناء بالتواريخ والحوادث، وصنَّف كتابين: «ذيل المتتظم» وصل فيه

إلى سنة (٦١٦ هـ) و«أخبار الوزراء» وكلا الكتابين لما يصلنا، توفي سنة

(٦٣٢ هـ) ببغداد.

انظر ترجمته في «التكملة» للمنذري: ٣/١٣١، و«وفيات الأعيان»؛ ١/٣٢٩

وفي الحاشية أن وفاته سنة (٦٢١ هـ) وهي خطأ، إذ هي سنة وفاة والده — =

مولد المستضيء ثالث عشري شعبان من سنة ست وثلاثين، وكانت خلافته تسع سنين وستة أشهر وواحداً وعشرين يوماً. بويغ تاسع ربيع الآخر سنة ست وستين، وكان كريماً رحوماً، باراً بالرعية، يعفو عن الجرائم الكبار، عادلاً. ظهر يوم مبايعته من ردّ المظالم والأملاك المقبوضة، والإفراج عن المسجونين، وإسقاط الضرائب والمكوس ما شاع واشتهر.

قال: وتقدم إلى شيخ الشيوخ عبد الرحيم، وإلى عبد الرحمن بن الجوزي فصلًا عليه. ثم بايع الناصر أخوه الأمير أبو منصور هاشم، ثم بنو أعمامه وخواصه، ثم الولاة وأرباب المناصب والأعيان، والوافدون للحج من بلاد خراسان وغيرهم. وكان والده المستضيء قد عهد إليه قبل وفاته بيوم واحد.

قلت: كذا نقلته من خطه، ولعله أراد بأسبوع واحد، فسبق به قلمه، فإن ابن الدبشي^(١) ذكر أنه خطب للناصر بولاية العهد يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال^(٢).

ثم قال ابن القادسي: وفي سابع ذي القعدة قبض على صاحب المخزن ظهير الدين أبي بكر بن العطار^(٣)، ووكل به، وتتبع أصحابه ومن يتعلّق به.

= «الوافي بالوفيات»: ١١٧/٢، و«تاريخ الحكماء» للقفطي ط ليسك: ص ١١١. وترجم أبو شامة لوالده أحمد بن محمد في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٢١ هـ).

(١) انظر «المختصر المحتاج إليه»: ١٨٠/١.

(٢) في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٥٩٨ هـ) أن بنفش بنت عبد الله، جارية المستضيء هي التي أشارت عليه بولاية الإمام الناصر، وكان في عزمه أن يولي ابنه أبا منصور.

(٣) انظر ص ٤٨٢ من الجزء الثاني، وانظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٨٤/٢١ - ٨٥.

وَقُتِلَ النَّقِيبُ مَسْعُودُ الَّذِي كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَكَانَ أَحَدُ الْأَعْوَانِ بَبَابِ النَّوْبِيِّ^(١)،
قَدْ نَزَعَتْ الرَّحْمَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَقَطَّعَ قِطْعاً، وَرَبِطَ فِي رِجْلِهِ حَبْلٌ، وَسَجَبَتْهُ
الْعَامَّةُ فِي الدَّرُوبِ، ثُمَّ أُحْرِقَ بَعْدَ ذَلِكَ.

قال: وفي حادي عشره حُمِلَ ابْنُ الْعَطَّارِ مَيِّتاً، وَعَلِمَ بِهِ الْعَامَّةُ، فَرَجَمُوا
تَابُوتَهُ بِالْأَجُرِّ، فَأَلْقَاهُ الْحَمَّالُونَ وَهَرَبُوا، فَأَخَذَهُ الْعَامَّةُ، وَشَدُّوا فِي رِجْلِهِ
شَرِيطاً، وَسَحَبَ فِي جَمِيعِ بَغْدَادَ وَمَنَافِذَهَا وَدُرُوبَهَا وَمَحَالِّهَا، وَقُطِّعَ لَحْمُهُ
قِطْعاً.

قال: وَتَوَجَّهَ شَيْخُ الشُّيُوخِ أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدِ الرَّحِيمِ إِلَى الْبَهْلَوَانِ بْنِ
إِبِلْدِكِزِ^(٢) شِخْنَةَ هَمْدَانَ لِأَجْلِ الْخُطْبَةِ، فَتَوَقَّفَ عَنْ ذَلِكَ، فَهَاجَتْ الْعَامَّةُ
عَلَيْهِ، وَوُثِبَ أَهْلُ الْمَذْكُورِ وَخُطِبُوا. وَجَاءَ كِتَابُ شَيْخِ الشُّيُوخِ إِلَى الدِّيَّانِ
سَطَرُهَا فَلَانٌ: وَالْحَالُ فِي الْجَنُوحِ كَقِصَّةِ نُوحٍ، مِنْ قَرَأَ السُّورَةَ عَرَفَ
الصُّورَةَ.

قال: وفي هذه السَّنَةِ اشْتَدَّ الْغَلَاءُ، وَكَثُرَ الْوَبَاءُ بِبَغْدَادَ وَغَيْرِهَا مِنْ
الْبِلَادِ، وَذُكِرَ أَنَّ رَجُلًا بِوَسْطِ ذَبْحٍ بَتْنًا لَهُ وَأَكَلَهَا، وَآخِرَ بَقَرٍ بَطْنٌ صَبِيٌّ،
وَأَخَذَ كَبِدَهُ وَشَوَاهَا وَأَكَلَهَا.

قال: وفي رابع عشر ربيع الآخر زلزلت الأرض بعد العَتَمَةِ فوق بلاد

(١) باب النوبي كان يقع في سور دار الخلافة ببغداد إلى الشرق من باب بدر، وهو
باب كبير لدار الخلافة، ويسمى أيضاً باب العتبة، فقد كانت فيه العتبة التي يقبلها
الرسول والأمراء والملوك ورؤساء الحجاج إذا قدموا ببغداد، وكان هذا الباب في
بعض الأدوار باباً رئيساً لقصور الخلفاء. انظر «دليل خارطة بغداد»:
١٥٨ - ١٥٩.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٦٨ من هذا الجزء.

إِزْبِلْ*، فلما أصبح النَّاسُ عادت الزلزلةُ في الجبال، فتصادمت، ووقع منها الحجارة، وسقطت قِلاَعٌ كثيرة، وهلكت قُرَىٌ بمن فيها، وكان يكون بين الجمل والجمل عشرون ذراعاً، فتقذفهما الزلزلة فيتصادمان ويعودان إلى مكانهما.

قال ابن أبي طي: وفيها أحرقت الإسماعيلية أسواقَ حلب، وافتقر أهلها بذلك، وكانت إحدى الجوائح التي أصابت حلب وأهلها.

قال: وفيها خرج قَرَأقُوشُ التَّقْوِي^(١) إلى طَرَابُلسَ المغرب، ففتح بلاداً، وصَلَّى حروباً مع إبراهيم السلاح دار* الذي دخل بلاد المغرب أيضاً من أصحاب تقي الدين؛ لأن نَفْسَه أطمعته أن يفعل فِعْلَ قَرَأقُوشِ في تَمْلُكِ البلاد، ثم أصلح بينهما.

ثم دخلت سنة ستِّ وسبعين [وخمسة مئة]^(٢)

وفيها توفي الحافظُ أبو طاهر السِّلَفِي^(٣) رحمه الله بالإسكندرية، وقد زُرْتُ قَبْرَه^(٤) بها داخل الباب الأخضر.

قال العماد: وفيها هادن السلطانُ صلاحُ الدين الفرنج، وتوجَّه إلى بلد

(١) انظر ما سلف من خبره ص ٤١٨ - ٤١٩ من الجزء الثاني.

(٢) ما بين حاصرتين من (ب).

(٣) انظر ترجمته ومطابقها في «طبقات علماء الحديث» لابن عبد الهادي: ٧٢/٤ - ٧٧ بتحقيقي، وقد مرَّ أن السلطان صلاح الدين سمع منه الحديث. انظر ص ٤٤٨ من الجزء الثاني.

(٤) كان أبو شامة قد زار مصر سنة (٦٢٨ هـ)، انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ١٩٢ من الجزء الثاني.

الرُّوم، فأصلح بين^(١) نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن أرْتُق صاحب حصن كيفا*، وبين زوج ابنته^(٢) السُّلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان، واجتمعوا على نهر يُقال له كوك سُو^(٣)، وكَثُرَتْ ثَمَّ الهدايا والدَّعوات والأفراح والهِبَات^(٤).

وفيها دخل السُّلطان بلاد الأرمن لقلع^(٥) ملكهم ابن لاون، لأنه كان استمال قومًا من التركمان حتى يرعوا في مراعي بلاده بالأمان، ثم صَبَّحَهُمْ بَغْدَرُهُ، وَحَصَلُوا بِأَسْرِهِمْ فِي أَسْرِهِ. فدخل السُّلطان بلاده، وأَذَلَّ أَعْوَانَهُ وَأَجْنَادَهُ، ونصر الله المسلمين بالرُّعْب، فأحرق^(٦) من الخوف قلعة شامخة تُعرف بالمانقير، وبادر المسلمون إلى إخراج ما فيها من الآلات والغَلَّات، فتَقَوَّوْا بها، وتمموا هَدْمَهَا إِلَى الْأَسَاسِ^(٧).

(١) إلى هنا ينتهي خلل ترتيب الأوراق في الأصل، انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٤٥ من هذا الجزء.

(٢) وهم أبو شامة في النقل، إذ إنَّ السلطان عز الدين هو الذي زَوَّج ابنته لنور الدين محمد بن قرا أرسلان. وسبب الخلاف هو اطراح نور الدين لابنة عز الدين، وتقديم مغنية عليها، إضافة إلى أن عز الدين كان يطمع ببعض أراضي السلطان صلاح الدين. انظر ص ٣١، وما بعدها من هذا الجزء. وقد توفي نور الدين سنة (٥٨١ هـ) وتوفي عز الدين سنة (٥٨٨ هـ). انظر «سنا البرق الشامي»: ٣٤٤/١ وما بعدها، و«الكامل» لابن الأثير: ٤٦٤/١١ - ٤٦٦، ٥١٤ - ٥١٥، ٨٧/١٢ وما بعدها، وانظر ص ٢٣٣ من هذا الجزء.

(٣) هو النهر الأزرق، من فروع الفرات، بين بهسنى وحصن منصور، في طرف بلاد الروم من جهة حلب. «معجم البلدان»: ٣١٧/٥، وانظر ص ٥٩ من هذا الجزء.

(٤) «سنا البرق الشامي»: ٣٤٤/١ - ٣٤٧.

(٥) في (ب) لقمع.

(٦) أي الأرمني.

(٧) انظر «سنا البرق الشامي»: ٣٤٧/١ - ٣٤٨.

قال ابنُ أبي طي: ووجد المسلمون في أرضها صهريجاً مملوءاً آلات نحاس وفِضة ودَّهَب لها زمنٌ طويل.

قال: وبَدَلَ للسلطان جُمْلَةً من المال، وأَنَّهُ يُطلق من عنده من الأسارى. فلم يَرَضَ السلطان بما بذله، فزاد في المال، وأَنَّهُ يشتري خمس مئة أسير من بلاد الفرنج ويعتقهم، فأجاب السلطان، وأخذ منهم رهينةً على ذلك.

قال العماد: وأذعن الأرمني ودَّلَّ، وأطلق ما بيده من الأسارى، ورجع السلطان مؤيداً منصوراً، ووصل إلى حماة في أواخر جُمادى الآخرة^(١). وكان الجمال الواسطي أبو غالب محمد بن سلطان بن الخطاب المُقرئ^(٢) شاهداً هذه الغزاة، فنظم قصيدةً في السلطان، منها:

لقد جَمَّلَ اللَّهُ منك الوري	بأَوْفَى مليكٍ وفي هِجَانِ ^(٣)
تَهَشُّ إلى نَغَمَاتِ الشُّيُو	فِ في الهامِ لا نَغَمَاتِ القِيَانِ
أَزْرَتْ ابْنِ لاونَ لأَوَاءَه	فأَضْحَى به خَبَرًا عن عِيَانِ
ودانٍ مِنَ الدُّلِّ لا يَرْعَوِي	حِذاراً من الرَّاعِفَاتِ اللَّدَانِ
فلا قَدَمٌ عِنْدَه للثَّبَاتِ	وليس له بِسُطَاكُم يَدَانِ

(١) في «سنا البرق»: ٣٤٨/١ «في العشر الأوسط من جمادى الآخرة».

(٢) من أهل النيل — بليدة في سواد الكوفة، قرب حلة بني مزيد — قدم بغداد، وقرأ بها الأدب على ابن الخشاب وأبي البركات الأنباري، وأبي محمد الجوالقي وسكن دمشق، وأقرأ الأدب، لم يذكر الصفدي والسيوطي سنة ولادته ووفاته. انظر «الوافي بالوفيات»: ١١٨/٣، و«بغية الوعاة»: ١١٥/١ و«معجم البلدان»: ٣٣٤/٥.

(٣) رجل هجان: كريم الحسب نقيته. «اللسان» (هجن).

وأخلى لهيتك المانقير
وأرسل بالأسراء العنا
رتقت بعزمك والمكرمات
ورعت ابن سلجق في ملكه
وغادر للهزم تلك المباني
ة يسأل إطلاقه فهو عاني
فتوقاً من الأرتقي الهجان
فقعق من رغبه بالشنان^(١)

قال: ولما وصل السلطان إلى حمص، وخيم بالعاصي أتاه الفقيه
مذهب الدين عبد الله^(٢) بن أسعد الموصلي، وأشده، وله في السلطان
مدائح منها قصيدة غراء^(٣)، مطلعها:

أما وجفونك المرضى الصّاح
لقد أصبخت في العشاق فرداً
يهرز الغصن فوق نقي ويرنو
وقد غرس القضيّب على كئيب
ومال مع الوشاة ولا عجيب
قطعنا اللّيل في عتب وشكوى
ولاح الصّبوح يحكي في سنّاه
ولما ضاق حدّ عن مداه
وسكرة مقلتيك وأنت صاحي
كما أصبخت فرداً في الملاح ١٧/٢
بحدّ ظبي ويسم عن أقاح
فأتمر بالظلام وبالصّباح
لغصن أن يميل مع الرّياح
إلى أن قيل حيّ على الفلاح
صلاح الدّين يؤسف ذا الصّلاح
لقيناه بآمال فساح

(١) الشنان جمع، مفردا الشن: القرية الخلق، المصنوعة من جلد، وفي المثل:
لا يقعق له بالشنان، يضرب للرجل الشرس الصعب: أي لا يهدد ولا يفزع. انظر
«المستقصى في أمثال العرب»: ٢/٢٧٤، و«اللسان» (شن).

(٢) في الأصل: ابن عبد الله بن أسعد الموصلي، وهو وهم، وقد سلف ذكره
ص ٤٠٢ - ٤٠٣ من الجزء الأول، وص ٣٥٥ من الجزء الثاني، وسيرد ص ١١١
و ٢٤٧ من هذا الجزء.

(٣) هذه القصيدة أنشدها لصلاح الدين حين نزل حمص سنة (٥٧٨ هـ)، انظر حاشيتنا
رقم ٣ ص ١١٣ من هذا الجزء.

فَمَنْ هَرَمٌ وَكَعْبٌ وَابْنُ سُعْدَى^(١)
جَوَادٌ بِالْبِلَادِ وَمَا حَوْنُهُ
لِيَقْدَحِيَاءَ وَجْهَكَ كُلُّ وَجْهِ
مَلُوكُ جُلْهُم مُنْغَرَى بِظُلْمِ
إِذَا مَا جَالَتْ الْأَبْطَالُ وَلَّى
وَبَوْنُ بَيْنَ مَالِكِ بَيْتِ مَالٍ
هُمْ جَمَعُوا وَقَدْ فَرَّقْتَ لَكِنْ
وَمَا خَضَعَ الْفَرَنْجَ لَدَيْكَ حَتَّى
وَمَا سَأَلُوكَ عَقْدَ الصُّلْحِ وَدَا
مَلَأَتْ بِلَادَهُمْ سَهْلًا وَحَزْنًا
رِعَاءُ الشَّاءِ وَالنَّعَمِ الْمِرَاحِ
إِذَا جَادُوا بِأَلْبَانِ اللَّقَاحِ
إِذَا سُئِلَ التَّدَى جَهْمَ وَقَاحِ
وَمَشْغُولٌ بِلَهْوٍ أَوْ مُزَاحِ
وَيَقْدُمُ نَحْوَ حَائِلَةِ الْوِشَاحِ
وَمَالِكِ رِقِّ أَمْلَاكِ النَّوَاحِ
جَمَعْتَ بِهِ الرُّجَالَ مَعَ السَّلَاحِ
رَأَوْا مَا لَا يُطَاقُ مِنَ الْكِفَاحِ
وَلَكِنْ خَوْفَ مُعْلِمَةٍ رَدَاحِ^(٢)
أُسُودًا تَحْتَ غَابَاتِ الرَّمَاكِ^(٣)

(١) هرم بن سنان، ممدوح زهير بن أبي سلمى، من أجواد العرب المشهورين في الجاهلية. وأما ابن سعدى فهو أوس بن حارثة بن لأم الطائي، كان سيداً مقدماً، وكان من أجواد العرب أيضاً، وفيه قال حاتم: إنما ذكرتُ بأوس، ولأخذ ولده أفضل مني. وقد مدحه بشر بن أبي خازم بقوله:

إلى أوس بن حارثة بن لأم ليَقْضِي حاجتي فيمن قضاها
وما وطىء الثرى مثلاً ابن سعدى ولا لبس الثعال ولا احتذاها
وقال جرير يمدح عمر بن عبد العزيز:

وما كعب بن مامة وابن سعدى بأجود منك يا عمرُ الجوادا
انظر «الكامل» للمبرد: ٣٠١/١ - ٣٠٣، وقد سلفت ترجمة كعب بن مامة في حاشيتنا رقم ٣ ص ٢٢ من هذا الجزء.

(٢) المُعْلَم: الذي يجعل لنفسه علامة في الحرب يعرف بها مكانه، وهي علامة الشجعان. والرِّدَاح: الكتبية الكثيرة الفرسان، ثقيلة السير لكثرتها. انظر «اللسان» (علم، رده).

(٣) انظر القصيدة بتمامها في «ديوانه»: ٥٩ - ٦٩ مع اختلاف في بعض ألفاظها، وانظر أبياتاً منها في «سنا البرق الشامي»: ٣٤٨/١ - ٣٤٩.

وقال ابن شداد: لما عاد السلطان بعد الكسرة - يعني كسرة الرملة^(١) - إلى الديار المصرية، وأقام فيها ريثما لَمَّ النَّاسُ شَعَثَهُمْ، وَعَلِمَ تَخَبُّطُ الشَّامِ، عَزَمَ على العَوْدِ إليه، وكان عَوْدُهُ لِلغَزَاةِ، فوصله رُسُلٌ قليج أرسلان^(٢) يَلْتَمِسُونَ منه الموافقة، ويستغيث إليه من الأَرَمَنِ. فاشتمل نحو بلاد ابن لاون لِنُصْرَةِ قليج أرسلان عليه، ونزل بقراحصار، وأخذ عسكر حلب في خدمته، لأنه كان قد اشترط في الصُّلْحِ ذلك، واجتمعوا على نهر الأزرق بين بَهَسْنَى* وَحِصْنِ منصور^(٣)، وعبر منه إلى النَّهْرِ الأسود^(٤) طَرَفَ بلاد ابن لاون، فأخذ منهم حِصْناً وأخربه، وبذلوا له أسارى، والتمسوا منه الصُّلْحَ، وعاد عنهم. ثم راسله قليج أرسلان في صُلْحِ الشَّرْقِيِّينَ بأسرهم، واستقرَّ الصُّلْحُ في عاشر جُمَادَى الأولى سنة ستٍّ وسبعين، ودخل في الصُّلْحِ قليج أرسلان والمواصلة وأهل ديار بكر، وكان ذلك على نهر سَنَجَةِ^(٥)؛

(١) انظر ص ٤٦٢ وما بعدها من الجزء الثاني.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٢٠ من الجزء الأول.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٥٥ من هذا الجزء، وحصن منصور غربي الفرات قرب سميساط، وكان مدينة عليها سور وخنديق وثلاثة أبواب، وفي وسطها حصن، وهو منسوب إلى منصور القيسي الذي بناه، وكان مقيماً به أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية. انظر «معجم البلدان»: ٢/٢٦٥ - ٢٦٦.

(٤) النهر الأسود نهر قريب من نهر الأزرق في طرف بلاد المصيصة وطرسوس. «معجم البلدان»: ٣١٧/٥.

(٥) في «النوادر السلطانية» ص ٥٤ سنجة، وفي طبعة وادي النيل ١٧/٢ شيخة، ومثله في «مفرج الكروب»: ٢/١٠٠ وعلق محققه الدكتور جمال الدين الشيال بقوله: ولم أجد لهذا النهر ذكراً عند ياقوت لضبط اسمه.

قلت: هو سنجة: نهر عظيم يجري بين حصن منصور وكيسوم، ويروى سنجة - بالصاد - ذكره ياقوت في «معجم البلدان»: ٣/٢٦٤ - ٢٦٥.

وهو نهر يرمي إلى الفُرات، وسار السُلطان نحو دمشق^(١).

فصل

في وفاة صاحب الموصل

قال العماد: وفي أوائل هذه السنة توفي صاحب الموصل سيف الدين غازي بن مودود بن زَنكي، والسُلطان مخيم على كوك سو^(٢) من حدود بلاد الرّوم، وجلس مكانه أخوه عزُّ الدين مسعود بن مودود. وجاء رسول مجاهد الدين قايماز^(٣)، وهو الشيخ الفقيه فخر الدين أبو شجاع بن الدّهان البَغْدادي^(٤) إلى السُلطان يطلب منه أن يكون معه كما كان مع أخيه من إبقاء سُرُوج* والرّها* والرّقة وحرّان* والخابور، ونَصِيبين* في يده، فلم يفعل السُلطان^(٥).

وقد كانت له بإطلاق الخليفة، وإنما جعلها في يد سيف الدين غازي بالشفاعة على شرط أن يُقوِّي السُلطان بالعساكر. فلما مات سيف الدين كتب السلطان إلى الخليفة الناصر يعلمه بذلك، وأن هذه البلاد لم يزل يتقوَّى بها ثَغْرُ الشَّام. ففوّضت إليه على ما أراد.

وكان الكتاب إلى صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ^(٦) من إنشاء

(١) «النوادر السلطانية»: ٥٤.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٥٥ من هذا الجزء.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٤٠ من الجزء الثاني.

(٤) هو محمد بن علي بن شعيب بن الدهان، سترد ترجمته في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٥٩٢ هـ).

(٥) انظر «سنا البرق الشامي»: ٣٥٦/١ - ٣٥٧.

(٦) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٥١ من هذا الجزء.

العماد، وفيه: قد عُرِفَ اختصاصنا من الطاعة والعبودية للدار العزيزة النبوية بما لم يختص به أحد، وامتدَّت اليد مِنَّا في إقامة الدَّعوة الهادية بمصر واليمن والمغرب بما لم تمتدَّ إليه يد، وأزلنا من الأقاليم الثلاثة ثلاثة أديا، وخلفناهم للردي، حيث دُعوا بلسان الغواية خُلُفا. ولا خفاء أنَّ مِصرَ إقليمٍ عظيم، وبلد كريم، بقيت مئتين وخمسين سنة مَضِيمة، وعانت كل هَضِيمة، وعانيت كُلَّ عَظِيمة، حتى أنقذها الله عَزَّ وجل بنا من عبيد بني عُبيد، وأطلقها بمطلقات أعنتنا إليها من عَناء كُلِّ قَيْد، وفيها شِعة القوم، وهم غير مأموني الشَّرِّ إلى اليوم. وطوائفُ أقاليم الرُّوم والفرنج من البرِّ والبحر بها مطيفة، فمن حَقَّها أن يتوفَّر عسكرها، فلو حصل - والعياذ بالله - فَتَقُ لَأَغْضَلَ رَتْقَهُ، وَأَتَسَّعَ على الرَّاقِعِ خَرْقَهُ. واحتجنا لحفظ بلاد الشَّام، وثغور الإسلام، إلى استصحاب^(١) العسكر المصري إليها، وله مُدَّة خمس سنين في بيكارها^(٢)، مُنْتَقِماً من كُفَّارها، متحملاً لمشاقها على غلاء أسعارها. وإنما أحوج إلى ذلك أنَّ بلاد هذا الثُّغر قد اقتطعت عنه، وعساكرها أخذت منه، وكانت في تولي نور الدين رحمه الله. ثم ذكرها كما سبق، ففوضت إليه كما سيأتي^(٣).

٨/٢ وقال ابن الأثير: توفي سيف الدين يوم الأحد ثالث صفر سنة ست وسبعين، وكان مَرَضُهُ السَّل، وطال به^(٤).

قال: ومن العجائب أنَّ الناس لما خرجوا يستسقون بالمَوْصِل سنة

(١) في الأصل: واستصحب، والمثبت من (ب) وطبعة وادي النيل: ١٧/٢.

(٢) بيكار: كلمة فارسية معربة، تعني الحرب، الحملة، الوقعة، وتجمع على يياكر.

انظر «تكملة المعاجم» لدوزي (الترجمة العربية): ٥٠٦/١.

(٣) انظر ص ٦٥ من هذا الجزء.

(٤) «الباهر»: ١٨٠، و«الكامل»: ٤٦٢/١١.

خمس وسبعين للغلاء الحادث في البلاد خَرَجَ سيف الدين في موكبه، فثار النَّاسُ وقصدوه مستغيثين به، وطلبوا منه أن يأمر بالمنع من بيع الخمر، فأجابهم إلى ذلك. فدخلوا البلد وقصدوا مساكن الخَمَّارين، وخرَّبوا أبوابها ونهبوها، وأراقوا الخمر، وكسروا الأواني، وعملوا ما لا يحِلُّ. فاستغاث أصحابُ الدُّورِ إلى نُوَّابِ السلطان، وخصُّوا بالشكوى رجلاً من الصَّالِحِينَ يقال له أبو الفرج الدَّقَّاقُ، ولم يكن له في الذي فَعَلَهُ النَّاسُ من النَّهْبِ فِعْلٌ، إنما هو أراق الخمر، ولما رأى فعل العامة نهاهم، فلم يسمعوا منه.

فلما سُكِّيَ أحضر بالقلعة، وضُرِبَ على رأسه، فسقطت عِمَامَتُهُ، فلما أطلق لينزل من القلعة نَزَلَ مكشوف الرأس، فأرادوا تغطيته بعِمَامَتِهِ، فلم يفعل، وقال: والله لا غطيته حتى ينتقمَ الله لي ممن ظلمني. فلم يمضِ غير قليل حتى توفي الدُّزْدَارُ* المباشِر لأذاه، ثم بعقه مَرَضَ سيف الدين، ودام مرضه إلى أن توفي. وكان عمره نحو ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين وشهوراً. وكان من أحسن الناس صورةً، تام القامة، مليح الشَّمال، أبيض اللَّوْن، مُستدير اللحية، متوسط البدن بين السَّمين والدقيق. وكان عاقلاً، وقوراً، قليل الالتفات إذا ركب وإذا جَلَسَ، عفيفاً، لم يُذكر عنه شيءٌ من الأسباب التي تنافي العِفَّةَ. وكان غيوراً شديد الغيرة؛ لم يترك أحداً من الخدم يدخل دور نسائه إذا كبر، إنما يدخل عليهن الخَدَمُ الصَّغار. وكان لا يحبُّ سفك الدماء، ولا أخذ الأموال مع شُحٍّ فيه^(١).

قال: ولما اشتدَّ مَرَضُهُ أراد أن يعهد بالملك لولده معز الدين سنجرشاه^(٢)، فخاف من ذلك، لأنَّ صلاح الدين يوسف بن أيوب كان قد

(١) «الباهر»: ١٨٠، و«الكامل»: ٤٦٢/١١ - ٤٦٣.

(٢) كان عمره حينئذٍ اثنتي عشرة سنة. انظر «الكامل»: ٤٦٣/١١.

تمكّن بالشَّام، وقويت شوكته، وامتنع أخوه عز الدين من الإذعان والإجابة إلى ذلك، فأشار الأمراء الكبار ومجاهد الدين قايماز بأن يجعل المُلك بعده لأخيه؛ لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعقل وقوة النَّفس، وحُسن سياسة الملك، وأن يعطي ابنه بعض البلاد، ويكون مرجعهما إلى عَمَّهما عز الدين، ليبقى لهما ذلك. ففعل ذلك، وحلف النَّاس لأخيه. فلما توفي سيف الدين كان مجاهد الدين هو المُدبّر للدولة، والنائب فيها، والمرجع إلى قوله ورأيه، فركب إلى الخدمة العِزَّة وعَزَّاه، وركَّبه إلى دار المملكة، ومشى في ركابه راجلاً، فدخلها، وجلس للعزاء. وكانت الرعية تخافه قبل أن يملك لإقدامه وجراته وحِدَّة كانت فيه، وكان لا يلتفت إلى أخيه سيف الدين إذا أراد أمراً، فلما تولَّى تَغَيَّرَتْ أخلاقه، وصار رفيقاً بالرَّعية، محسناً إليهم، قريباً منهم^(١).

قال ابنُ شَدَّاد: وفي عاشر المحرم سنة ست وسبعين بَلَغَ الملك الصالح بن نور الدين عصيان غرس الدين قليج بتل خالداً*، فأخرج إليه العسكر، ثم بلغه وفاة ابن عمه صاحب الموصل ثالث صَفَر^(٢).

فَصْلٌ

في وفاة شمس الدولة بن أيوب أخي السلطان الأكبر
وقدوم رُسُل الدِّيوان بالتفويض إلى السلطان ما طلبه

قال ابن أبي طي: كان السُّلطان قد أنفذ أخاه شمس الدَّولة إلى الإسكندرية، وجعل إليه ولايتها، فلما حَصَلَ بها لم توافقه، وكان يعتاده

(١) «الباهر»: ١٨١، و«الكامل»: ٤٦٣/١١.

(٢) «النوادر السلطانية»: ٥٣ — ٥٤.

الْقَوْلُج، فِهْلَكَ بِهِ، وَدَفَنَ بِقَصْرِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ. وَكَانَ أَحَدَ الْأَجْوَادِ، الْكَرْمَاءِ
الْأَفْرَادِ، شُجَاعاً بَاسِلاً، عَظِيمَ الْهَيْبَةِ، كَبِيرَ النَّفْسِ، وَاسِعَ الصَّدْرِ، مُمَدِّحاً،
فِيهِ يَقُولُ ابْنُ سَعْدَانَ الْحَلَبِيِّ^(١) مِنْ قَصِيدَةٍ:

هُوَ الْمَلِكُ إِنْ تَسْمَعُ بِكَسْرِيٍّ وَقَيْصَرٍ فَإِنَّهُمَا فِي الْجُودِ وَالْبَأْسِ عَبْدَاهُ
وَمَا حَاتِمٌ مِمَّنْ يُقَاسُ بِمِثْلِهِ فَخُذْ مَا رَأَيْنَاهُ وَدَعْ مَا رَوَيْنَاهُ
وَلُذْ بِذَرَاهُ^(٢) مُسْتَجِيرًا فَإِنَّهُ يُجِيرُكَ مِنْ جَوْرِ الزَّمَانِ وَعَدَوَاهُ
فَلَا تَحْمَلْ لِلْسَّحَابِ مِئَةً إِذَا هَطَلَتْ جُوداً سَحَابُ جَدَوَاهُ
وَيُرْسِلُ كَفَيْهِ بِمَا اشْتَقَّ مِنْهُمَا فَلِلْيَمَنِ يُمْنَاهُ وَلِلْيُسْرِ يُسْرَاهُ

قَالَ الْعِمَادُ: وَفِيهَا فِي الْمَحَرَّمِ تَوْفِي بَشَرَ الْإِسْكَندَرِيَّةِ تُورَانِشَاهُ أَخُو
صَلَاحِ الدِّينِ، وَوَصَلَ الْخَبَرَ بِذَلِكَ إِلَى السُّلْطَانِ، وَهُوَ نَازِلٌ بِظَاهِرِ حَمَصِ،
فَحَزَنَ عَلَيْهِ حُزْناً شَدِيداً، وَجَعَلَ يَكْثُرُ إِنْشَادَ أَيْيَاتِ الْمِرَاثِيِّ، وَكَانَ كِتَابُ
«الْحِمَاسَةِ» مِنْ حِفْظِهِ، وَكَانَ صَلَاحُ الدِّينِ لَمَّا مَلَكَ مِصْرَ أَرْسَلَهُ إِلَى الْيَمَنِ
فَمَلَكَهَا، ثُمَّ اسْتَنَابَ فِيهَا، وَقَدِمَ الشَّامَ سَنَةَ إِحْدَى وَسَبْعِينَ، فَلَمَّا وَصَلَ
تِيْمَاءَ* جَاءَ مِنْهُ كِتَابٌ، وَفِيهِ أَيْيَاتٌ لَشَاعِرِهِ ابْنِ الْمُنَجِّمِ^(٣)، مِنْهَا:

فَهَلْ لِأَخِي بَلِ مَالِكِي عِلْمٌ أَنِّي إِلَيْهِ وَإِنْ طَالَ التَّرَدُّدُ رَاجِعُ
وَأَنِّي يَوْمَ وَاحِدٍ مِنْ لِقَائِهِ لِمُلْكِي عَلَى عَظَمِ الْمَزِيَّةِ بَائِعُ
وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا دُونَ عَشْرِينَ لَيْلَةً وَتَخْنِي الْمُنَى أَبْصَارُنَا وَالْمَسَامِعُ
لَدَى مَلِكٍ تَغْنُو الْمُلُوكُ إِذَا بَدَأَ^(٤) وَتَخْشَعُ إِعْظَامُهُ لَهُ وَهُوَ خَاشِعُ

١٩/٢

(١) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٨٤ من الجزء الثاني.

(٢) بذراه: أي بكنفه. «معجم متن اللغة»: ٤٩٦/٢.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٢٤ من الجزء الثاني.

(٤) في «الخريدة»: لبأسه.

كَتَبْتُ وَأَشْوَاقِي إِلَيْكَ بِيَعُضْهَا تَعَلَّمَتِ النَّوْحَ الْحَمَامُ السَّوَاجِعُ
وما المُلْكُ إلا راحةٌ أنتَ زَنْدُها تَضُمُّ عَلَى الدُّنْيَا وَنَحْنُ الْأَصَابِعُ^(١)

قلت: وقبر ثورانِشاه الآن بالتربة الحُسامية بالعوية* ظاهر دمشق،
نَقَلْتَهُ إِلَيْهَا أُخْتَهُ سِتُّ الشَّامِ بِنْتُ أَيُّوبَ، وَبِنْتُ الْقُبَّةِ عَلَيْهِ وَعَلَى زَوْجِهَا نَاصِرُ
الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ شِيرْكُوهِ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّهَا^(٢)، وَعَلَى قَبْرِهَا وَقَبْرُ ابْنِهَا حُسَامُ
الدِّينِ عَمْرُ بْنُ لَاجِينَ - وَسَيَأْتِي ذِكْرُهُ -^(٣) وَإِلَيْهِ تَنْسَبُ التُّرْبَةُ، فَهِيَ ثَلَاثَةُ
قُبُورٍ: الْقِبْلِيُّ لِثُورَانِشَاهِ، وَالْأَوْسَطُ لِابْنِ شِيرْكُوهِ، وَالشَّامِيُّ لِسِتِّ الشَّامِ^(٤)
وَابْنِهَا^(٥)، رَحِمَهُمُ اللَّهُ^(٦).

قال العماد: وفيها في رجب وَصَلْتُ رُسُلُ الدِّيَّانِ الْعَزِيزِ النَّاصِرِي
صَدْرُ الدِّينِ شَيْخُ الشُّبُوحِ* أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدِ الرَّحِيمِ^(٧)، وَمَعَهُ شِهَابُ الدِّينِ
بَشِيرُ الْخَاصِ بِالتَّفْوِيزِ وَالتَّقْلِيدِ* وَالتَّشْرِيفِ* الْجَدِيدِ، فَتَلْقَيْنَاهُمْ بِالتَّعْظِيمِ

(١) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/١٦٩، و«سنا البرق الشامي»: ١/٣٥١.

(٢) كانت وفاته سنة (٥٨١ هـ)، انظر ص ٢٤٤ من هذا الجزء.

(٣) انظر ٤/٢٩١. وسماه العماد هناك: محمد بن عمر بن لاجين.

(٤) ترجم لها أبو شامة في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٦١٦ هـ).

(٥) أي أنها دفنت وابنها في قبر واحد.

(٦) انظر ترجمة ثورانِشاه في «وفيات الأعيان»: ١/٣٠٦ - ٣٠٩ و«شفاء القلوب»:

ص ٥٠ - ٥٥.

قلت: عدَّ الدكتور إحسان عباس في حاشيته على «وفيات الأعيان» كتاب
«طبقات الشافعية» للسبكي، من جملة مراجع ترجمة ثورانِشاه، وقد وهم في ذلك،
إذ إن السبكي ترجم في «طبقاته» لثورانِشاه ولد الملك الصالح نجم الدين، آخر ملوك
الأيوبيين في مصر.

(٧) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٥١ من هذا الجزء.

والتمجيد، وركب السلطان للتلقي، وعلى صفحاته بشائرُ التَّرقِي، فلما تراءى له الرُّسلُ الكرام، ووجب له الإجلالُ والإعظام، نزل وترجَّل، وأبدى الخضوع وتوجَّل، ونَزَلَ الرُّسلُ إليه، وسَلَّمُوا عن أمير المؤمنين عليه، فتقبَّل الفَرَض، وقَبَلَ الأرض، ثم ركبوا، ودخلوا المدينة^(١).

قال ابن أبي طي: وكانت هذه أولَ خِلْعَةٍ قَدِمَتْ من الإمام النَّاصر على الملك النَّاصر، وكانت ثوب أطلَس أسود واسع الكُمُّ مُذْهَب، وَبَقْيَار^(٢) أسود مذهب، وَطَيْلَسَان أسود مذهب، ومشدَّة سوداء مذهب، وطوق وتخت، وسَرْفسار^(٣)، وجواد كُمَيْت من مراكب الخليفة عليه سَرْجُ أسود، وسلال أسود، وطوق مجوهر، وقصبة ذهب، وعلم أسود، وعِدَّة خيول، وَبُقَّح^(٤)، وركب السلطان بِالْخِلْعَةِ، وزينت له دمشق، وكان يوماً عظيماً^(٥).

قال العماد: وظَفَرَ السلطان من صدر الدِّين بصديقِ صَدُوق، وكان قد عَزَمَ على قَصْدِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّة، وسلوك طريق أيلة* والبرِّيَّة، فَحَسَّنَ لشيخ الشيوخ مُصَاحِبَتَهُ، ورَغَّبَهُ في زيارة قبر الشَّافعي رضي الله عنه، فقال: قد عَزَمْتُ في هذه السنة على الحج، فَأَصِلْ معكم إلى القاهرة بشرط إقامة يومين ولا أدخلها، وإنما أسكن بالتربة الشَّافعية، وأسير منها إلى بحر عَيْذَاب^(٦)،

(١) انظر «سنا البرق»: ٣٥٢/١ - ٣٥٣.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٢٨١ من الجزء الثاني.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٨ ص ١١٥ من الجزء الثاني.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١١٦ من الجزء الثاني.

(٥) انظر الخلعة التي قدمها الخليفة الفاطمي العاضد للناصر صلاح الدين حين تولى الوزارة بمصر. ١١٥/٢ - ١١٦.

(٦) في هامش الأصل بخط مغاير: بحر عيذاب هو البحر الذي يمتد من أرض العرب إلى جُدَّة حتى اليمن.

قلت: وقد مر التعريف بعيذاب في حاشيتنا رقم ٤ ص ٢٣٥ من الجزء الثاني.

فلعلي أدرك صومَ رمضان بمكّة. فالتزمَ له ذلك، وأعاد أصحابه [إلى بغداد]^(١) ليأتوه من طريقها إلى الحجاز، ورجع شهاب الدين بشير في جواب رسالته، ومعه رسوله ضياء الدين الشهرزوري، وأنشأ العمادُ كتاباً في الجواب إلى الديوان وفيه: وقد توجّه الخادِمُ إلى الدِّيار المصرية لتجديد النَّظر فيها، ثم يستخير الله في الحجِّ وأدائه، ويعود إلى مجاهدة أعدائه^(٢).

فَصْلٌ

في رجوع السُّلطان إلى مِصر مرّة ثانية

قال العماد: ولَمَّا عَزَمَ السُّلطان على الرَّحيل استناب بالشَّام ابن أخيه عزَّ الدين فرُّخشاه، وكان عزيز المِثْلِ، غزير الفضلِ.

وقال فيه العماد عند توديعه قصيدة، منها:

أَسْأَلُ اللَّهَ ذَا الْعُلَا أَنْ تَعِيشَا أَلْفَ عَامٍ لِنَضْرِهِ مُسْتَجِيشَا
ومنها:

مَا أَكْذَى^(٣) شَيْئاً سِوَى فَرَوَةٍ مِنْ كَ وَأَبْغَى لِسْفَرَتِي إِكْدِيشَا^(٤)

(١) ما بين حاصرتين مثبت من (ب).

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ٣٥٣/١ - ٣٥٤.

قلت: ويستدل من هذا النص أن السلطان كان عازماً على الحج، ولكن لم يتهياً له رحمه الله، فقد شغله الجهاد حتى عن الحج! وانظر ص ٦٨ من هذا الجزء.

(٣) كذى بمعنى أكدى: سأل وألح في المسألة. «اللسان» (كدأ).

(٤) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٣٧ من الجزء الثاني.

كيف يخلو من دِفءِ ظَهْر^(١) وظَهْر^(٢) سالكُ طُرُقِ أَيْلَةٍ* والعَرِيشِ^(٣)

ووقفتُ على ثلاثة كتب للفاضل عن الملك العادل إلى الولاية باليمن يُعلمهم أَنَّ ملوك الشَّرْق قد دخلوا في طاعة السُّلطان، وأنه عازِمٌ على القُدوم إلى مِصر، وصَوِّمَ رمضان بها، والحَجُّ إلى بيت الله الحرام منها، ويأمرهم بالاستكثار مما يحمل لأجله إلى مكَّة من المال والأزواد والخِلع مما تشتمل عليه تلك الأعمال.

ووقفت على كتابين آخرين، أحدهما إلى أمير مكة، والآخر إلى أمير يَنْبُع* يعلمهما بذلك ليتأهبَّا لقدومه.

ووقفتُ على كتابٍ سادس للفاضل إلى السُّلطان في ذلك يقول فيه: جعل الله الملوكَ ذِمَّةَ لسيِّفه، وشَرَّدَ منام الأعداء منهم بطيِّفه، وأَمَّنَ أهلَ الإسلام بِعَدْلِهِ من جَوْرِ الدَّهْرِ وَخَيْفِهِ، وأشهَدَه موقف الحجِّ الأكبر، وزان بمحضره مشهدَ خَيْفِهِ^(٤)، وجعل وَفْدَه الأكرم وضيْفَ بيته [منتظمين]^(٥) في هذه السنة في وَفْدِهِ وَضَيْفِهِ.

ثم هَنَأَه بما فتح الله عليه من مَحَبَّةِ الجهاد، وما أَثَّرَه في بلاد الأَرَمَن وغيرها من البلاد، وما تَبَعَ ذلك من نِيَّةِ الحج، بلَغَه الله منه المُراد.

(١) الظهر: الركاب التي تحمل الأثقال في السفر، وقد عني به العماد الإكديش الذي طلبه.

(٢) الظهر: خلاف البطن، وقد عني العماد به الفروة التي طلبها لتدْفِءَ ظهره.

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ٣٥٤ / ١ - ٣٥٥.

(٤) الخيف: ما انحدر من غلظ الجبل، وارتفع عن مسيل الماء، ومنه سمي مسجد الخيف من منى. «معجم البلدان»: ٤١٢ / ٢.

(٥) ما بين حاصرتين من (ب).

ودخول السُّلطان بلادَ الأرمن كان في هذه السنة كما سبق^(١)، فلعلَّه سَنَحَ له الحج مع شيخ الشيوخ، ثم حصل له ما منعه منه^(٢).

قال العماد: ورحل السُّلطان إلى مِصر يوم الاثنين ثامن عشر رجب^(٣)، ومعه صدر الدين شيخ الشيوخ^(٤)، فأقام يومين كما ذَكَرَ^(٥)، وتوجَّه منها إلى مكَّة على البحر، فأدرك الصَّوم.

قال العماد: وَوَصَلْنَا إلى القاهرة على طريق أيلة* ثالث عشر شعبان، واستقبلنا أهلها، وَلَقِينَا الأكابر والأعيان، والملك العادل أخو السُّلطان حينئذٍ بها نائِبُه، وتَلَقَّيْنَا مواكِبه ومَوَاهِبُه، وَخَدَمَتُهُ بقصيدةٍ ذَكَرْتُ فيها المنازل والمناهل من يوم الرَّحيل من دمشق إلى الوصول بالقاهرة^(٦)، منها:

أَسَى فَمَتَى أَلْقَى بوجهكم الفَجْرا	أَحِبَّةَ قلبي طال ليلي بَعْدُكُمْ
فهل لحياتي منكم نِشَاءٌ أُخْرى	فَقَدْتُ حياتي مُذْ فَقَدْتُ لِقَاءَكُمْ
مِنَ الْجَوْرِ حُوزُوا فِي مَشُوقِكُمْ الْأَجْرا	أَجِيرَانِ جَيْرُونَ* الْمُجِيرِينَ جَارَهُمْ
مُحِبًّا سِوَاهُ عَنْكُمْ يُحْسِنُ الصَّبْرَا	مُحِبِّكُمْ قَدْ خَانَهُ الصَّبْرُ فَاطْلُبُوا
سَقَى وَرَعَى رَبِّي مَقَرِّي فِي مَقَرِّي	وَمُذْ غَيْبْتُ عَنْ مَقَرِّي* مَقَرِّي قَدْ نَبَا
لَأَنَّ الْهَوَى الْعَذْرِيَّ مَنِيَّ فِي عَذْرَا	أَحِنُّ إِلَى عَذْرَا* وَعُذْرِي وَاضِحٌ

(١) انظر ص ٥٥ وما بعدها من هذا الجزء.

(٢) انظر ص ٦٧ من هذا الجزء.

(٣) «سنا البرق الشامي»: ٣٥٤/١.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٥١ من هذا الجزء.

(٥) انظر ص ٦٦ من هذا الجزء.

(٦) سلفت قصيدة أخرى للعماد ذكر فيها أسماء المنازل بين دمشق والقاهرة انظر ص ٤٣٨ - ٤٤٠ من الجزء الثاني.

إِنَّ الْقَدْرَ الْمَحْتُومَ مِنْ جِلْقِ* بِنَا
رَحَلْنَا فَمَا بَاحَتْ بِأَسْرَارِنَا سِوَى
تَرَكْنَا دِمَشْقاً وَالْجِنَانَ وَرَاءَنَا
وَجِئْنَا إِلَى الْمَرْجِ*^(٣) الَّذِي طَابَ نَشْرُهُ
رَحَلْنَا بِمَرْجِ الصُّفْرِ* الْعَيْنِ غُدْوَةً
وَقَدْ قَطَعْتَ بُنَى* إِلَى الدَّيْرِ*^(٥) بَعْدَهَا
نَزَلْنَا الدَّنَاحَ* وَالْجَلَاعِبَ بَعْدَهَا
وَرَأَسَ الْحَسَا وَالْقَرِيَتَيْنِ^(٦) وَكُلَّهَا
وَرَدْنَا مِنَ الزَّيْتُونِ* حِسْمَى* وَأَيْلَةَ*
إِلَى قُلْتَةِ الرَّاعِي إِلَى نَابِعٍ إِلَى
إِلَى مَنَزَلٍ فِي رَوْضَةِ الْجَمَلِ اغْتَدَتْ
وَدُونَ حَتَا لَمَّا حَثَّنَا رِكَابَنَا
هَنَّاكَ تَلَقَّانَا الْوَفُودُ بِبِرِّهِمْ

إِلَى مِصْرَ أَسْرَى^(١) فَالْقُلُوبُ بِهَا أَسْرَى^(٢)
عِبَارَةٌ عَيْنِ خَوْفٍ يَوْمَ النَّوَى عَبْرَى
وَقَدَّامَنَا بِالْكُسُوفَةِ* الرَّفْقَةُ السَّفْرَا
فَلَا زَالَ مِنْ أَحْبَابِنَا طَيِّباً نَشْرَا
فَسَارَتْ وَحَطَّتْ فِي مَحَجَّتِهَا^(٤) ظُهِرَا
وَمَا عَرَّسَتْ حَتَّى أَنَاخَتْ عَلَى بُصْرَى*
وَبَعْدَهُمَا غُدَرَ الْبِشَامِيَّةُ الْغُزْرَا
مَوَارِدُ فِيهَا الشُّحْبُ قَدْ غَادَرَتْ غُدْرَا
وَجَزْنَا عُقَاباً^(٧) كَانَ مَسْلُكُهَا وَغَرَا
جِرَاوِلَ فَالْتَّخَلَّى الَّذِي لَمْ يَزَلْ قَفْرَا
بِهِ عَيْنُنَا فِي صَدْرٍ^(٨) شَارِحِهِ صَدْرَا
عِيونٌ لِمَوْسَى لَمْ يَزَلْ مَاؤُهَا مُرَّا
فَسَرُّوا بِنَا نَفْساً وَزَادُوا بِنَا بِشْرَا

(١) أي سار ليلاً. «معجم متن اللغة»: ١٤٦/٣.

(٢) أسرى جمع، مفردا أسير. «معجم متن اللغة»: ١٧٤/١.

(٣) هو مخرج الصُّفْرِ.

(٤) الْمَحَجَّةُ: من قرى حوران. «معجم البلدان»: ٦٠/٥.

(٥) في حوران ديران، هما: دير الباعقى، ودير بُصْرَى. أما دير أيوب فهي قرية كانت تسمى بهذا الاسم، ولعلها هي التي عناها العماد هنا. انظر «معجم البلدان»: ٤٩٩/٢ - ٥٠٠.

(٦) أخطأ محقق «ديوان العماد» وجامعه حين قال: إنها من أعمال حمص! وقد عرفها العماد نفسه في عجز البيت بأنها من المناهل التي وردوها في حوران.

(٧) العقاب جمع، مفردا العقبة: وهي الطريق في الجبل. «اللسان» (عقب).

(٨) صدر: قلعة بين القاهرة وإيلات. انظر «معجم البلدان»: ٣٩٧/٣.

قَطَعْنَا إِلَى بَحْرِ النَّدَى بَحْرَ قَلْزُومٍ ^(١)
عَبَرْنَا إِلَى مَنْ كَاثَرَ الرَّمْلَ جُودُهُ
وَلَمْ يُرَوْنَا مَاءَ الثَّمَادِ ^(٢) بِعَجَرِدٍ
وَجِئْنَا الْبُؤَيْبَ ^(٣) وَالْمَصَانِعَ قَبْلَهُ
إِلَى عَزْمَةٍ فِي الْمَجْدِ غَيْرِ قَصِيرَةٍ
وَلَمَّا نَزَلْنَا مِصْرَ فِي شَهْرِ طُوبَةِ ^(٤)
غَدَا قَاصِرًا عَنْ قَضْرِهِ قَضْرُ قَيْصَرٍ
وَمِنْ قَضْدِهِ بَحْرَ النَّدَى يَفْطَحُ الْبَحْرَا
وَجَزْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الرَّمْلَ وَالْجِسْرَا
وَلَمْ يَقْتَنِعْ بِالْقُلِّ مَنْ يَأْمُلُ الْكُثْرَا
إِلَى بَرْكَةِ الْجُبِّ الَّتِي قَرُبَتْ مِصْرَا
وَكَانَ قُصَارَى أَمْرِنَا أَنْ نَرَى الْقَصْرَا
وَرَدْنَا بِكَفِّ الْعَادِلِ النَّيْلِ فِي مُسْرَى ^(٥)
وَإِيوَانُ كِسْرَى عِنْدَ إِيْوَانِهِ كِسْرَا ^(٦)
قَالَ الْعِمَادُ: وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ بِمِصْرَ عَرَبْتُ كِتَابَ «كَيْمِيَاءِ السَّعَادَةِ»
تَصْنِيفَ الْإِمَامِ أَبِي حَامِدِ الْغَزَالِيِّ فِي مَجْلَدَيْنِ، وَفُزْتُ مِنْ تَعْرِيهِ وَعِلْمُ مَا فِيهِ
بِسَعَادَتَيْنِ، وَذَلِكَ بِأَمْرِ فَاضِلِّي لَزِمَنِي امْتِثَالُهُ، وَشَمِّلَنِي فِي إِتْمَامِهِ إِقْبَالُهُ ^(٧).
قَالَ: وَفِيهَا فِي خَامِسِ عَشَرَ سُؤَالَ تَوْفِيِّ صَاحِبِي الْمَعْتَمَدِ [إِبْرَاهِيمَ] ^(٨)
بِدِمَشْقَ وَأَنَا بِمِصْرَ.

قُلْتُ: وَهَذَا غَيْرُ الْوَالِي دِمَشْقَ الْمَعْرُوفِ بِالْمُبَارِزِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُوسَى،
وَيَلْقَبُ أَيْضًا بِالْمُعْتَمَدِ.

(١) هُوَ الْبَحْرُ الْأَحْمَرُ.

(٢) الثَّمَادُ: الْحَفَرُ يَكُونُ فِيهَا الْمَاءُ الْقَلِيلُ. «اللسان» (ثمد).

(٣) الْبُؤَيْبُ: مَدْخَلُ أَهْلِ الْحِجَازِ إِلَى مِصْرَ. «معجم البلدان»: ٥١٢/١.

(٤) طُوبَةُ: هُوَ خَامِسُ الشُّهُورِ الْقِبْطِيَّةِ، أَوَّلُهُ يَوْافِقُ ٢٦ كَانُونِ الْأَوَّلِ، وَآخِرُهُ يَوْافِقُ ٢٤
كَانُونِ الثَّانِي. «صَبِيحُ الْأَعَشَى» ٣٨٥/٢ وَقَدْ أَخْطَأَ فِي قِرَاءَتِهَا مُحَقِّقُ «دِيَوَانِ الْعِمَادِ»
فَقَالَ: لَعَلَّهَا تَوْبَةُ!.

(٥) هُوَ مِنْ أَشْهُرِ السَّنَةِ الْقِبْطِيَّةِ أَوَّلُهُ يَوْافِقُ ٢٤ تَمُوزَ، وَآخِرُهُ يَوْافِقُ ٢٧ آبَ. انْظُرْ «صَبِيحُ
الْأَعَشَى» ٣٨٩/٢. قُلْتُ: مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنَّ زِيَادَةَ النَّيْلِ تَكُونُ فِي أَشْهُرِ الصَّيْفِ.

(٦) انْظُرْ «سَنَا الْبَرْقِ الشَّامِيِّ»: ٣٥٦/١.

(٧) انْظُرْ «سَنَا الْبَرْقِ الشَّامِيِّ»: ٣٥٨/١.

(٨) مَا بَيْنَ حَاصِرَتَيْنِ مِنْ (ب).

ورثي العمادُ صاحِبَه بقصيدة، منها:

أَرَى الحُزْنَ لَا يُجِدِي عَلَى مَنْ فَقَدْتُهُ وَلَوْ كَانَ فِي حُزْنِي مَزِيدٌ لَزِدْتُهُ
تَغَيَّرَتِ الْأَحْوَالُ بَعْدَكَ كُلُّهَا فَلَسْتُ أَرَى الدُّنْيَا عَلَى مَا عَهْدْتُهُ
عَقَدْتُ بِكَ الْأَمَالَ بِالتُّجَحِّ وَاتِّقَا فَحَلَّتْ يَدُ الْأَقْدَارِ مَا قَدْ عَقَدْتُهُ
وَكَانَ اعْتِقَادِي أَنَّكَ الدَّهْرُ مُسْعِدِي فحَانَتْنِي الْأَيَّامُ فِيمَا اعْتَقَدْتُهُ
أَرَدْتُ لَكَ الْعُمْرَ الطَّوِيلَ فَلَمْ يَكُنْ سِوَى مَا أَرَادَ اللَّهُ لَا مَا أَرَدْتُهُ
وَدَاعَ دَعَانِي بِاسْمِهِ ذَاكِرًا لَهُ فَأَطْرَبَنِي ذِكْرُ اسْمِهِ فَاسْتَعَدْتُهُ
فَقَدْتُ أَحَبَّ النَّاسِ عِنْدِي وَخَيْرَهُمْ فَمَنْ لَائِمِي فِيهِ إِذَا مَا نَشَدْتُهُ^(١)

قال: وَرَبَّيْتُهُ ببيتين، وَذَكَرْتُ العنصرَ الأربعة فِي واحدٍ مِنْهُمَا^(٢):

لَهْفِي عَلَى مَنْ كَانَ صُبْحِي وَجْهَهُ فَعَدِمْتُ حِينَ عَدِمْتُهُ أَنْوَارُهُ
سَكَنَ الثَّرَابَ وَغَاضَ مَاءَ حَيَاتِهِ مُذْ أَطْفَأَتْ رِيحُ الْمَنِيَّةِ نَارَهُ

قال ابن أبي طي: وفي هذه السَّنة سافر قَرَأُوش إلى قابس^(٣). فذكر محاصرته لجملة من القلاع، وقتله جماعة من البربر، ومما ذكره أنه أسر جماعة على حصن، وأمر بقتلهم، وفيهم صبيٌّ أُمُرد، فبذل فيه أهل القلعة عشرة آلاف دينار على أن لا يقتله. فأبى، فزادوه إلى مئة ألف، فأبى وقتله،

(١) انظر «سنا البرق»: ٣٥٨/١ - ٣٥٩.

قلت: وفي هذا الخبر تنتهي إحالتي على طبعة الدكتور رمضان ششن من «سنا البرق»، وسأحيل فيما يأتي على نشرة الدكتورة فتحية النبراوي التي طبعتها مكتبة الخانجي بالقاهرة سنة ١٩٧٩، وهي نشرة سقيمة، فشا فيها التحريف والتصحيح حتى غلبا الصواب فيها، ولم أنه على أخطائها - كعادتي - لكثرتها، وليس ثمة فائدة في تشييت ذهن القارئ بذكر ما تعثر الآخرون بقراءته..

(٢) في الأصل: منها، والمثبت من طبعة وادي النيل ٢١/٢.

(٣) مدينة بين طرابلس وسفاقس على ساحل البحر. انظر «معجم البلدان»: ٢٨٩/٤.

فما استتمَّ قتله حتى نزل شيخٌ من القلعة، ومعه مفاتيحها، وقَدَّمها لقرَّاقوش، فسأله عن الخبر، فقال: هذا الصَّبِي الذي قَتَلْتَه ولدي، ولم يكن لي سواه، ولأجله كنتُ أحفظ هذه القلعة، فلما قَتَلْتَه عَلِمْتُ إن بقيتُ هذه القلعة بيدي ومِتُّ صارت إلى أولاد أخي، وأنا أبغضهم. فردَّه إلى القلعة، وأخذ منه^(١) أموالاً^(٢).

ثم دخلت سنة سبع وسبعين [وخمس مئة]^(٣)

قال العماد: والسلطان مقيمٌ بالقاهرة، وقد عَيَّنَ لسماع الأحاديث النبويَّة — بقراءة الإمام تاج الدين البَنْدَهي المَسْعُودي^(٤) — ميقاتاً، وجمَعَ به

(١) انظر ص ٥٤ من هذا الجزء.

(٢) في هامش الأصل، بخط مغاير متأخر: «انظر قيمة صبي أمرد، لا لأجل ثروته وكثرة ماله، بل بسبب حسبه وجماله، فلعنة الله على من يعمل عمل قوم لوط في كل حال».

قلت: لا وجه لهذا التعليق بعد قول الشيخ: هذا الصبي ولدي.

(٣) ما بين حاصرتين من (ب).

(٤) هو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مسعود، المسعودي، الفقيه الشافعي الصوفي، ولد سنة (٥٢٢ هـ) على الأصح، كان مؤدباً للملك الأفضل بن صلاح الدين، وحصل بسببه على كتب نفيسة استعان بها على شرح مقامات الحريري شرحاً مستوعباً، رآه ابن خلكان في خمس مجلدات كبار، وكان متداولاً في عصره. وكان معروفاً أيضاً بطلب الحديث، سمع من السُّلَفي، وكتب عن ابن عساكر، مؤرخ دمشق الكبير، وكتب عنه ابن عساكر.

ونسبته البندهي هي نسبة مختصرة، أصلها البنجديهي أو الفنجديهي — بالفاء والجيم، أو بالباء الموحدة والجيم — نسبة إلى بَنَج ديه من أعمال مرو رود. توفي رحمه الله بدمشق سنة (٥٨٤ هـ)، ودفن بسفح جبل قاسيون.

انظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ٣٩٠/٤ — ٣٩٢، و«معجم البلدان»: ٤٩٨/١، و«العبر» للذهبي: ٢٥٣/٤، و«الوافي بالوفيات»: ٢٣٣/٣، و«لسان الميزان»: ٢٥٦/٥.

من العلم والعلماء عنده أشتاتاً^(١).

وورد كتاب عز الدين فرخشاه من الشام يذكر ما من الله به على الأنعام من الإنباع بكثرة ولادة التوأم في ذلك العام، وجبر الله به ما كان قبله من الوباء، وتفاءلوا بالخضب بعد الجذب والغلاء^(٢).

قال: ودخلت الحمام الذي بناه زين الدين أبو الحسن علي بن نجا الواعظ^(٣) في داره خارج باب زويلة* بالقاهرة في ذي القعدة، فقلت:

ما مَنَزِلٌ مَنْ يُرَى فِيهِ	هـ غَيْرُ عَارٍ فَعَارٌ
بِهِ تُمَاطُ الْأَذْيَا	وَتُرْحَضُ ^(٤) الْأَوْضَارُ ^(٥)
وَالْعَيْشُ فِيهِ قَرَارٌ	وَالطَّيْشُ فِيهِ وَقَارٌ
وَالسَّبْتُ ^(٦) فِي كُلِّ يَوْمٍ	لِمَنْ يُرَى مُخْتَارٌ
نَارٌ تَطْيِبُ إِلَّا اعْجَبَ	لَجَنَّةٍ هِيَ نَارٌ

وله فيه:

وَمَنْزِلٌ يَدْخُلُهُ	لِشُغْلِهِ كُلُّ أَحَدٍ
يُوجَدُ فِيهِ السَّبْتُ فِي	كُلِّ خَمِيسٍ وَأَحَدٍ

(١) «سنا البرق»: ١٨٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٩١ من الجزء الأول.

(٤) أي تغسل. «اللسان» (رحض).

(٥) الأوضار جمع، مفردا وضر: وهو الوسخ. «المصباح المنير» (وضر).

(٦) السبت أصل معناه: الراحة والسكون. انظر «اللسان» (سبت).

فَصْلٌ^(١)

في ذكر وفاة الملك الصَّالِحِ إسماعيل بن نور الدين
رحمهما الله
وما تَمَّ في بلاده بعده، وذلك بحلب

قال ابنُ شَدَّاد: وكان مرضُه بالقَوْلَج. وكان أول مرضه في تاسع رجب، وفي الثَّالث والعشرين منه أُغلق بابُ قلعة حلب لشِدَّة مرضه، واستدعى الأمراءَ واحداً واحداً، واستحلفوا لعزِّ الدين صاحب المَوْصل. وفي الخامس والعشرين منه توفِّي رحمه الله، وكان لموته وَقْعٌ عظيم في قلوب النَّاس^(٢).

وقال ابنُ أبي طي: كان سببُ موته أن علَّم الدَّين سليمان بن جَنْدَر^(٣) سقاه سُمّاً في عنقود عِنَبٍ، وهو في الصَّيْد. وقيل: الذي سقاه ياقوت الأَسدي في شراب. وقيل: إنه أطعمه خُسْكَنانكة^(٤)، وهو في الصَّيْد.

قال: ودُفِنَ بالمقام الكبير الذي في القلعة، وحَزِنَ النَّاسُ له^(٥) حُزْناً عظيماً، وكان من أحسن النَّاسِ صورةً، وألبقهم أعطافاً.

قلتُ: وبلغني أنَّه كان يقال: إنَّ موتَ الملك الصَّالِحِ صغيراً كان من

(١) من هنا بدأت نسخة كوينهاجن، رمزت لها بحرف (ك).

(٢) «النوادر السلطانية»: ٥٥.

(٣) أخباره ميثوثة في أثناء هذا الكتاب، وسترده ترجمته ٢٩٢/٤.

(٤) في هامش الأصل بخط متأخر: صوابه خُسْكَنانجة. قلت: وانظر التعريف بها في

حاشيتنا رقم ١ ص ١٥٩ من الجزء الأول.

(٥) في (ك) عليه، وكلاهما صحيح.

كرامات نور الدين، رحمه الله؛ فإنه سأل الله تعالى ألا يُعَذَّبَ شيئاً من أجزائه بالنَّار، وولَّده جُزْؤُهُ، فمات قبل أن يطول عُمرُهُ، على أحسنِ سيرةٍ وحالةٍ، رحمهما الله^(١).

قال ابن الأثير: ولم يبلغ عشرين سنة، ولَمَّا اشتدَّ مرضُهُ، وَصَفَ له الأطباء شُرْبَ الخمر تداوياً بها، فقال: لا أفعل حتى استفتي الفقهاء. وكان عنده علاء الدين الكاساني الفقيه الحنفي^(٢) بمنزلة كبيرةٍ يعتقد فيه اعتقاداً حسناً، ويكرمه، فاستفتاه، فأفتاه بجواز شُرْبِها. فقال له: يا علاء الدين، إن كان الله سبحانه وتعالى قد قَرَّبَ أجلي، [هل]^(٣) يؤخِّره شُرْبُ الخمر؟ قال: لا والله. قال: والله لا لَقِيتُ الله تعالى وقد استعملتُ ما حرَّمه علي^(٤).

قلتُ: يحتمل أنه ذكر له أنَّ من العلماء من ذهب إلى جواز ذلك، لا أنه كان يرى ذلك، فإنَّ مذهبه بخلافه، والله أعلم^(٥).

(١) هذا التعليق من أبي شامة ليس في (ك).

(٢) هو أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني، من كبار علماء الحنفية في عصره، صاحب كتاب «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع» في الفقه الحنفي، ذكر فيه أدلة مسائله، ورتبه أحسن ترتيب، وطبع في سبع مجلدات في مصر سنة ١٣٢٨ هـ، وقد شرح فيه كتاب شيخه علاء الدين السمرقندي «تحفة الفقهاء» — وهو مطبوع أيضاً — فجعله شيخه مهراً لابنته فاطمة — وكانت عالمة فقيهة — وزوجه إياها، توفي الكاساني في حلب سنة (٥٨٧ هـ) وكان له وجاهة وشجاعة.

انظر ترجمته في «بغية الطلب»: ٤٣٤٧/١٠ — ٤٣٥٤، و«الجواهر المضية»: ٢٥/٤ — ٢٨، و«تاج التراجم»: ٢٩٤ — ٢٩٦، «الطبقات السنية»: رقم (١٨٤٠)، «الفوائد البهية»: ٥٣، و«إعلام النبلاء»: ٢٨٦/٤ — ٢٨٩.

(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

(٤) انظر «الباهر» ١٨١ — ١٨٢. وفي هامش الأصل بخط متأخر: قال أبو علي بن سينا ما كلامه: وأنا أشرب الخمر تداوياً لا تشفياً!!

(٥) تعقيب أبي شامة وما بعده ساقط من (ك) حتى ص ٧٩.

ثم قال ابن الأثير: فلما أيس من نفسه أحضر الأمراء كلهم وسائر الأجناد، واستحلفهم لابن عمه أتابك عز الدين، وأمرهم بتسليم مملكته جميعها إليه، فقال له بعضهم: إن ابن عمك عز الدين له المؤصل وغيرها من البلاد من همدان إلى الفرات، فلو أوصيت بحلب لابن عمك عماد الدين، لكان أحسن، ثم هو تربية والدك، وزوج أختك، وهو أيضاً عديم المثل في الشجاعة والعقل والتدبير، وشرف الأعراق وطهارة الأخلاق والخلال التي تفرّد بها. فقال: إن هذا لم يغب عني، ولكن قد علمتم تغلب صلاح الدين على عامة بلاد الشام سوى ما بيدي ومعي، فإن سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها من صلاح الدين، وإن ملكها صلاح الدين فلا يبقى لأهلنا معه مقام، وإذا سلمتها إلى عز الدين أمكنه أن يحفظها لكثرة عساكره وبلاده وأمواله. فاستحسن الحاضرون قوله، وعلوموا صحته، وعجبوا من جودة رأيه مع شدة مرضه، ومن أشبه أباه فما ظلم^(١). فلما توفي أرسل دُردار* حلب — وهو شاذبخت^(٢) — وسائر الأمراء إلى أتابك عز الدين يدعونه إلى حلب ليسلموها إليه، فورد الخبر، ومجاهد الدين قايماز^(٣) قد سار إلى ماردين* لمهم عرض، فلقي القاصدين* عندها، فأخبروه الخبر، فسار إلى الفرات، وأرسل إلى أتابك عز الدين [يعرفه الحال]^(٤)، ويشير بتعجيل الحركة، وأقام

(١) فما ظلم: أي لم يضع الشبه في غير موضعه. وهذا من الأمثال المشهورة، وهو من قول كعب بن زهير:

أقول شبهات بما قال عالماً بهن ومن يشبه أباه فما ظلم
انظر «ديوانه»: ٦٥، و«المستقصى في أمثال العرب»: ٣٥٢/٢ — ٣٥٣.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١١٢ من الجزء الثاني.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٤٠ من الجزء الثاني.

(٤) ما بين حاصرتين من (ب).

على الفرات ينتظره، وسار أتابك مُجَدَّأً، فلما وصل إلى المنزلة التي بها مجاهد الدين أقام معه، وأرسل إلى حلب يستحضر الأمراء، فحضرُوا كُلُّهُمْ عنده، وجدَّدوا اليمين له، فسار حينئذٍ إلى حلب ودخلها، وكان يوماً مشهوداً.

ولما عَبَرَ الفرات كان تقيُّ الدين عمر بن أخي صلاح الدين بمدينة مَنِيْج*، فسار عنها هارباً إلى مدينة حماة، وثار أَهْلُ حماة، ونادوا بشعار أتابك. وكان صلاح الدين بمصر، فأشار عَسْكَرُ حلب على عِزِّ الدين بقصد دمشق، وأطعموه فيها وفي غيرها من البلاد الشَّامية، وأعلموه محبة أهلها للبيت الأتابكي، فلم يفعل، وقال: بيننا يمينٌ فلا^(١) نغدر به.

وأقام بحلب عِدَّةَ شهور، ثم سار منها إلى الرِّقَّة، فأقام بها، وجاءته رُسُلُ أخيه عماد الدين يطلب [منه]^(٢) أن يسلم إليه حلب، ويأخذ عَوْضَهَا مدينة سِنْجَار*، فلم يُجِبْهُ إلى ذلك، وَلَجَّ عمادُ الدين وقال: إِنْ سَلَّمْتُمْ إِلَيَّ حلب، وَإِلَّا سَلَّمْتُ أَنَا سِنْجَارَ إلى صلاح الدين، فأشار حينئذٍ الجماعةُ بتسليمها إليه، [و]^(٣) كان أكثرهم في ذلك مجاهد الدين قايمار، فإنه لَجَّ في تسليمها إلى عماد الدين، ولم يمكن أتابك عز الدين مخالفته؛ لتمكُّنه في الدَّوْلَة وكثرة عساكره وبلاده، فوافقوه وهو كاره، فسلم حلب إلى أخيه، وتسلم سِنْجَار*، وعاد إلى المَوْصِل.

وكان صلاحُ الدين بمصر، وقد أيسر من العَوْدِ إلى الشَّام، فلما بلغه ذلك بَرَزَ عن القاهرة إلى الشَّام، فلما سمع أتابك عِزُّ الدين بوصول

(١) في الأصل: فلم، والمثبت من (ب).

(٢) ما بين حاصرتين من (ب).

(٣) ما بين حاصرتين من (ب).

صلاح الدين إلى الشَّام جمع عساكره، وسار عن الموصل خوفاً على حلب من صلاح الدين. فاتفق أنَّ بعض الأمراء الأكابر^(١) مال إلى صلاح الدين، وعبرَ الفُرات إليه، فلما رأى أتابك ذلك لم يثق بعده إلى أحدٍ من أمرائه؛ إذ كان ذلك الأمير أوثقهم في نفسه، فعاد إلى المَوْصِل. وعبر صلاح الدين الفرات، وملك البلاد الجَزَريَّة، ونازل المَوْصِل، فلم يتمكن من التُّزول عليها، وعاد إلى حلب وحَصَرَهَا، فسَلَّمَهَا عمادُ الدين إليه — وسبب ذلك أن عزَّ الدين لما تسلَّم حلب لم يترك في خَزَائِنِهَا من السِّلَاح والأموال شيئاً إلا نقله إلى المَوْصِل، وتسَلَّمَهَا عماد الدين وهي كما يقال بَطْنُ حِمَارٍ، فهو كان السبب في تسليمها لصلاح الدين — وأخذ عِوَضَهَا سِنْجَارٌ* والخابور* ونَصِيبِينَ وسَرُوجٌ* والرَّقَّة، وغير ذلك^(٢).

قال ابن شدَّاد: ولما توفِّي الملك الصَّالح، سارعوا إلى إعلام عز الدين مسعود بن قُطْب الدِّين بذلك، وبما جرى له من الوَصِيَّة إليه، وتحليف النَّاس له، فسارع سائراً إلى حلب، مبادراً خوفاً من السُّلطان، فكان أول قادمٍ من أمرائه إلى حلب مظفَّر الدين بن زين الدين، وصاحب سَرُوج*، ووصل معهما من حَلَفَ [جميع]^(٣) الأمراء له، وكان وصولهم في ثالث شعبان.

(١) هو مظفر الدين كوكبري بن علي كوجك، صاحب حَرَان حِتْنِد. انظر ص ١١٣ وما بعدها من هذا الجزء.

وإلى هنا ينتهي السقط من (ك). انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٧٦ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: وغير ذلك والرقّة، والمثبت من (ك) و(ب).

قلت: وانظر الخبر بطوله في «الباهر» ١٨٢ — ١٨٣ و«الكامل»: ٤٧٣/١١ وما بعدها وص ٤٩٦ — ٤٩٧. وذكر سبب تسليم حلب المذكور بين معترضتين هو من كلام أبي شامة على الأرجح.

(٣) ما بين حاصرتين مثبت من (ك) و(ب).

وفي العشرين منه وصل عز الدين إلى حلب، وصعد القلعة، واستولى على خزانها وذخائرها، وتزوج أم الملك الصالح في خامس شوال من السنة المذكورة.

ثم أقام عز الدين بقلعة حلب إلى سادس عشر شوال، وعلم أنه لا يمكنه حفظ الشام مع الموصل لحاجته إلى ملازمة الشام لأجل السلطان، وألح عليه الأمراء في طلب الزيادات، ورأوا أنفسهم أنهم قد اختاروه، وضاق عطنه^(١). وكان صاحب أمره مجاهد الدين قايماز، وكان ضيق العطن، لم يعتد مقاساة أمراء^(٢) الشام، فرحل من حلب طالب الرقة، وخلفه ولده ومظفر الدين بن زين الدين بها، فأتى الرقة، ولقيه أخوه عماد الدين عن قرار بينهما، واستقر مقايضة حلب بسنجار*، وحلف عز الدين لأخيه عماد الدين على ذلك في حادي عشر شوال، وسار من جانب عماد الدين من تسلم حلب، ومن جانب عز الدين من تسلم سنجار، وفي ثالث عشر المحرم سنة ثمان وسبعين صعد عماد الدين قلعة حلب^(٣).

قلت: ووقفت على كتاب فاضلي عن^(٤) السلطان إلى عز الدين

(١) العطن هو مبرك الإبل حول الحوض، كانت إذا رويت بركت حول الماء أو عند الحياض لتعاد إلى الشرب مرة أخرى، لتشرب عللاً بعد نهل، فإذا استوفت ردت إلى المراعي. «اللسان» (عطن).

قلت: وضيق العطن تعبير مجازي كان فاشياً ويعني أنه نزع، قليل الصبر، وبهذا المعنى ذكر في «المعجم الوسيط» ٦١٥/٢. وقد كتب في هامش (ك): ضيق العطن: أي ضيق الحوصلة.

قلت: وهذا تعبير عامي مستعمل عندنا في الشام، ويعني أنه عجول، متسرع.

(٢) في الأصل: أمر، والمثبت من (ك).

(٣) «النوادر السلطانية»: ٥٥ - ٥٦.

(٤) في الأصل: من، والمثبت من (ك) و(ب).

فَرُخْشَاه، وهو نائبه بدمشق: وَقَفْنَا على كتابه، وَعَلِمْنَا ما تَجَدَّد من الخبر بمرض الملك الصَّالِح، واشتداد حاله، وانقطاع الدَّاخل عليه.

ثم أشار بتنفيذ عسكرٍ إلى جهة أخيه تقي الدين على إظهار قاعدة النظر في القضية بالحادثة بين أهل ديار بكر وابن قرا أرسلان^(١)، والتوجُّه لفصلها، قال: فيكون ظاهر حركة العسكر لهذا السبب المتقدِّم، وباطنها لهذا السبب المتأخِّر. وقد كُتِب الولد تقي الدين أن يتوجَّه إلى مَنبج* على الظَّاهر والباطن المذكورين، وأن يحفظ المغازي^(٢) ويرابط الفرات، ويمنع المعابر، ولنا بالس* وقلعة جَعْبَر* ومَنبج* وتل باشر*، وهي جمهور الطُّرق، بل كلُّها، وقد أَوْعَزْنَا إلى تقي الدين بأن يكون حَمَامُ حماة في حلب، وحمَامُ دمشق في حماة. وإلى الأَجَلُ ناصر الدين^(٣) بأن يكون حَمَامُ دمشق في حمص، وحمَامُ حمص في حلب. وولدنا عز الدين يؤمر بأن يكون حمَامُ بُضْرَى* في دمشق. وقد بعثنا نَجَّابِينَ يكونون منبجيين بِبُضْرَى، فإن تحَقَّقَتِ الوفاة فنحن أسبق إاليكم من الجواب قولاً وفِعْلاً، ووعداً ونُجْحاً، فالعِلَّةُ مُزَاخَة، والعساكر مستريحة، والظَّهْرُ قد استعدَّ، والمصلحة في الحركة ظاهرة، وَحُجَجُ انتقاد المنتقدين في هذه القضية ساقطة.

وقال العماد: كان قَصْدُ السُّلْطَان إصلاح حال الملك الصَّالِح، وأنَّه القائم مقام أبيه، فَصَدَّه عنه مماليكه، فَأُخِذَتْ بلاده بلجاجهم، وَمَرَضَتْ دَوْلَتُهُ لسوءِ علاجهم، فامتنع بحلب إلى أن توفِّي. ووصل ابنُ عمه عزُّ الدين

(١) هو نور الدين محمد بن قرا أرسلان، أخباره مبثوثة في أثناء الكتاب، وانظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٥٥ من هذا الجزء.

(٢) المغازي: مواضع الغزو، ومثلها: المَغْزَى والمَغْزاة. «اللسان» (غزا).

(٣) هو محمد بن شيركوه، انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٦٥ من هذا الجزء.

مسعود صاحب المَوْصل إلى حلب، فجمع ظاهره وباطنه، وأخذَ خزائنه واستخرج دَفَائِنَه، وأخلى كَنَائِنَه، ثم إنه عَرَفَ أَنَّهُ لَا يَسْتَقِرُّ لَه بِهَا أَمْر، فَرَغَّبَ أَخَاهُ عِمَادُ الدِّينِ تَرْكِي صَاحِبَ سِنْجَارٍ* فِي تَعْوِضِهَا لَه بِحَلْب، فَمَالَ إِلَى بَذْلِهِ وَرَغَبَ.

ولما سمع السُّلْطَانُ فِي مِصْرَ بَوفاةَ الْمَلِكِ الصَّالِحِ تَحَرُّكَ عَزْمُهُ، وَنَدِمَ عَلَى التُّرُوحِ مِنَ الشَّامِ مَعَ قُرْبِ هَذَا الْمَرَامِ، فَكَتَبَ إِلَى ابْنِ أَخِيهِ تَقِيٍّ الدِّينِ، وَهُوَ يَتَوَلَّى لَه الْمَعْرَةَ* وَحِمَاةَ، وَأَمَرَهُ بِالتَّأَثُّبِ وَالنُّهُوضِ^(١)، وَكَذَلِكَ شَحَذَ عَزَائِمَ نَوَابِهِ بِالشَّامِ بِتَجْدِيدِ الْمَكَاتِبَاتِ لَهُمْ، وَبَعَثَهُمْ عَلَى الْإِسْتِعْدَادِ وَحَمْلِهِمْ. وَكَانَ نَائِبُهُ بِدِمَشْقِ ابْنِ أَخِيهِ عَزَّ الدِّينِ مَرْخُشَاهُ قَدْ نَهَضَ فِي مُقَابَلَةِ الْفَرَنْجِ بِالْكَرْكِ*، فَإِنَّ الْإِبْرَنْسَ الْكَرْكِيَّ^(٢) كَانَ يَحْدُثُ نَفْسَهُ بِقَصْدِ تِيْمَاءَ* فِي الْبَرِّيَّةِ، فَمَا زَالَ فَرَّخُشَاهُ فِي مُقَابَلَتِهِ حَتَّى نَكَصَ اللَّعِينُ عَلَى عَقِبَيْهِ ذَلِيلًا، وَلَمْ يَجِدْ إِلَى مَا حَدَّثَتْهُ بِهِ نَفْسُهُ سَبِيلًا^(٣)، فَعَرَفَ السُّلْطَانُ اشْتِغَالَهُ بِهَذَا الْمُهِمِّ. فَكَتَبَ كِتَابًا بِشَرْحِ الْحَالِ إِلَى بَغْدَادَ بِاللَّفْظِ الْعِمَادِي، يَقُولُ فِيهِ: وَشَاعَ الْخَبْرُ بِغَارَةِ فَرَنْجِ أَنْطَاكِيَّةَ* عَلَى حَارْمٍ*، وَأَتَوْا مِنَ السَّنِيِّ وَالتَّهَبِ بِالْعِظَائِمِ، وَشَاعَ أَيْضًا أَنَّ عَسْكَرَ حَلْبٍ أَغَارَ عَلَى الرَّأْوَنْدَانِ*، وَهِيَ فِي عَمَلِنَا، وَرَسُولُهُمْ عِنْدَ الْفَرَنْجِ يَسْتَنْجِدُ بِهِمْ وَيُغْرِيهِمْ بِنَا، وَقَدْ رَاسَلُوا الْحَشِيشِيَّةَ، وَالْمَرَادُ مِنَ الرِّسَالَةِ

(١) فِي الْأَصْلِ: بِالنُّهُوضِ، وَالْمُثَبِّتُ مِنَ (ك) وَ(ب).

(٢) هُوَ Reginald de chatillon وَهُوَ الْمَعْرُوفُ عِنْدَ الْمُؤَرِّخِينَ بِأَرْنَاط.

(٣) أَعَادَ أَرْنَاطُ قَصْدَ الْحِجَازِ فِي السَّنَةِ التَّالِيَةِ، وَلَكِنَّهُ هَزَمَ شَرَّ هَزِيمَةٍ، ثُمَّ قَتَلَهُ صَلاَحُ الدِّينِ عَقِبَ مَعْرَكَةِ حَاطِين. انْظُرْ ص ١٣٣، ٢٨٨ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ.

غَيْرُ خَافٍ، والعلم بالمعتاد منه كاف^(١). وابن أخينا غائبٌ في أقصى بلاد الفرنج في أول بَرِّيَّة الحجاز، فإن طاعيةً منهم جَمَعَ خَيْلَهُ وَرَجَلَهُ، وَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ الْخَيْثَةَ بِقَصْدِ تِيْمَاءَ*، وهي دِهْلِيز المدينة على ساكنها السَّلام، واغتنم كون البرِّيَّة مُعْشِبَةٌ مُخْصِبَةٌ في هذا العام. والعَجَبُ أَنَّا نَحَامِي عَنْ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ، مُشْتَغِلِينَ بِمَهْمَّتِهِ، والمذكور - يعني صاحب المَوْصِل - يَنَازِعُ في ولايةٍ هي لنا لِيَأْخُذَهَا بِيَدِ ظُلْمِهِ، وَكَمْ بَيْنَ مَنْ يَحَارِبُ الْكُفْرَ، وَيَحْمِلُ إِلَيْهِمْ قَوَاصِمَ الْآجَالِ، وَبَيْنَ مَنْ يَتَّخِذُهُمْ بَطَانَةً دُونَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَحْمِلُ إِلَيْهِمْ كَرَائِمَ الْأَمْوَالِ.

هذا مع ما نَعُدُّ^(٢) في المِلَّةِ^(٣) الْحَنِيفِيَّةِ، والدَّوْلَةُ الْهَادِيَّةُ الْعَبَّاسِيَّةُ مِنْ أَثَارٍ لَا يُعَدُّ مِثْلُهَا؛ أَوَّلًا لِأَبِي مُسْلِمٍ^(٤) لَأَنَّهُ أَقْدَمَ ثُمَّ خَامٍ^(٥)، وَوَالِيٍّ ثُمَّ وَلِيٍّ، وَلَا آخَرَ لِطُغْرُلْبَكٍ^(٦)؛ فَإِنَّهُ نَصَرَ وَنَصَبَ، ثُمَّ حَجَرَ وَحَجَبَ، وَقَدْ عُرِفَ

(١) في هذا تعريض بمحاولتي الاغتيال التي قام بها الحشيشية ضد صلاح الدين بتواطؤ مع حكام حلب. انظر ص ٣٥٠، ٤٠٩ من الجزء الثاني.

(٢) في الأصل: يعد، والمثبت من (ك) و(ب).

(٣) في الأصل: الدولة، والمثبت من (ك) و(ب).

(٤) هو أبو مسلم الخراساني عبد الرحمن بن مسلم، أحد القادة الكبار الذين مهدوا للدولة العباسية، ثم خامر عليها، فقتله أبو جعفر المنصور سنة (١٣٧ هـ) وأخبره مبنوثة في كتب تاريخ تلك الفترة.

(٥) خام: نكص وجبن. «اللسان» (خيم).

(٦) هو أول ملوك السلاجقة، دخل بغداد سنة (٤٤٧ هـ) منهياً حكم البويهيين الذين شكلوا خطراً على الدولة العباسية بتحالفهم مع خصمها العتيد حكام مصر العبيديين، ومن ثم كان لطغرل بك يد بيضاء على الدولة العباسية، إلا أنه ضايق الخليفة القائم بعض المضايقة، انظر أخباره مفصلة في كتب تاريخ تلك الفترة، وانظر «وفيات الأعيان» ٦٣/٥ - ٦٨، وفيه وفاته سنة (٤٥٥ هـ).

ما فضّلنا الله به عليهما في نصْرِ الدولة، وقَطَعَ من كان يَنازع الخلافة رداءها، وتطهير المنابر من رِجْسِ الأدعياء^(١)، ولم نفعل ما فعلنا لأجل الدُّنيا، غير أن التحدُّثَ بنعمة الله واجب، والتبجُّح^(٢) بالخدمة الشريفة والافتخار بالتوفيق فيها على السَّجِّية غالب. ولا غِنَى عن بُروز الأوامر الشريفة إلى المذكور بأن يَلْزَمَ حَدَّهُ، ولا يتجاوز حَقَّهُ، فإنَّ دُخُولَ الأيدي المختلفة عن الأعداء المتَّفَقَّة شاغل، ويحتاج إلى مَغْرَم يُنْفَق فيه العمر بغير طائل، فإنَّ الأعمال تَمُرُّ مرَّ السَّحاب، والفرصُ تَمِضُ وَفَضُّ السَّرَاب^(٣). ويقاؤنا في هذه الدَّارِ القليل اللَّبَثِ، القصير المُكثِ، نوثر أنت نغتنمه في مجاهدة العدوِّ الكافر، الذي صار به البيتُ المقدَّس محلاً للأزجاس، ومضتْ عليه دَهْوَرٌ وملوك لم يحصلوا مِنْ رجاء تطهيره إلا على الياس، وإن كان القَوْمُ قد بَدَّلُوا للدَّارِ العزيزة بُذُولاً مُعَارَةً، فقد أسلفَ الخادِمُ خدماتٍ ليست بِعَوَارٍ، فإنَّهم لو بذلوا بلادهم كُلَّها ما وَفَّتْ بفتحِ مِضْر التي رَجَّلَ بها أسامي الأدعياء الراكبة أعوادها، وأعادَ إلى عَيْنِها بعد بياض عَمَاقها من نُورِ الشُّعار العَبَّاسي سَوَادَها، فإنَّ اقْتَضَتِ الأوامرُ الشريفة أن يوعز للمذكور في حلب بتقليد، فالأوَّلَى أن يقلِّد الجميع، فلا رغبة فيما لا يؤمن معه شرُّ الشُّريك، ولمالك الأمر الحَكْمُ في ممالك المماليك^(٤).

وكان في الكتاب أيضاً ما معناه: إنَّ حلب من جُملة البلاد التي اشتمل

(١) في الأصل: الأعداء، والمثبت من (ك) و(ب). ويعني العبيدين، وكان صلاح الدين قد قطع خطبة العاضد سنة (٥٦٧ هـ) انظر ص ١٨٩ وما بعدها من الجزء الثاني.

(٢) في الأصل: بالتبجح، والمثبت من (ك).

(٣) في (ك) السحاب.

(٤) انظر: «سنا البرق» ١٨٥ - ١٨٨، و«مضمار الحقائق» ٥٩ - ٦٥.

عليها تقليد أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله^(١) له، وإنما تركها في يد ابن نور الدين لأجل أبيه، والآن فليرجع كل إلى حقه، وليقتنع برزقه.

ومن كتاب [آخر]^(٢) فاضلي: فقد صرف وجهنا في هذا الوقت عن جهاد لو كُنَّا بصدده، وعن فرض لو وصلنا يومه بغده، لكان الإسلام قد أغفني من شركة الشرك، وانفك أهله من ربة أهل الأفك. ولكانت الأسماء الشريفة قد قرعت منابر طالما عزلت الصلْب خطباءها، وكان الدين الخالص قد خلص إلى بلاد صار المشركون متوطنينها، والمسلمون غرباءها.

وفي كتاب آخر له: وقد علم الله [سبحانه]^(٣) أننا لهدنتهم كارهون، وفي مصلحة أهل الإسلام وفي مصالحهم راغبون، ولكننا قد بُلينا بقوم كالفرّاش أو أخف عقولاً^(٤)، وكالأنعام أو أضل سبيلاً، إن بُني معهم فعلى غير أساس، وإن عُدّ الغدر منهم فهو أكثر من الأنفاس.

وفي كتاب آخر: والخادم — والحمد لله — يُعَدُّ سوابق في الإسلام والدولة العباسية لا تعدّها أوليّة أبي مُسلم، لأنه والى ثم وارى، ولا أخريّة طغرلبيك لأنه نصر ثم حَجَر. والخادم — بحمد الله — خلع من كان ينازع الخلافة رداءها، وأساع الغصة التي ذخر الله للإساعة. في سيقه ماءها، فرجل الأسماء الكاذبة، الرّاكبة على المنابر، وأعزّ بتأييد إبراهيمي، فكسّر الأصنام

(١) سلف خبر وفاته ص ٥٠ — ٥٢ من هذا الجزء.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

(٤) في المثل: أطيش من فراشة، لأنها لا تزال واقعة وطائرة لا تستقر في مكان، وهي

تتهافت في النار. ومنه قيل للرجل الخفيف الطياش الفراش. «اللسان» (فرش)

و«المستقصى» في أمثال العرب: ٢٣٠/١.

الباطنة بسيفه الظاهر لا السَّاتر، وفعل وما فعل للدُّنيا، ولا معنى للاعتداد بما هو متوقع الجزاء عنه في اليوم الآخر.

ومن كتاب آخر عند دُخُول صاحب المؤَصل حلب، واستيلائه عليها، وكانت داخلةً في تقليد السُّلطان السَّابق، فقال: دَخَلَ حَلَبَ مستولياً، وَحَصَلَ بها مُعتدياً، وعقود الخُلَفَاء لا تُحَلُّ، والسُّيُوف في أَوْجِه أُولِيائِهِمْ لا تُسَلُّ، وإنه إِنْ فُتِحَ بابُ المُنازعة، أَذِنِي من ندامَةٍ، وَأُبْعِدَ من سلامة، وَخُرِقَ ما يُعْطَى على الرَّاقع، وَجُذِبَ الرَّداء فلم تُغْنِ فيه إلا حيلةُ الخالِع. وليس الاستيلاء بِحُجَّةٍ في الولايات لطالِبِها، ولا الدُّخُول إلى الدَّار بِموجبِ مُلكٍ غاصِبِها، إلا أَنْ تكون البلاد كالذِّيار المِضْرية حين فتَحها الخادم وأهلُه، حيث الجمعة مُستَريبة، والخلافة في غير أهلِها غريبة، والعقائد لغير الحَقِّ مُستَجيبة، فتلك الولاية أُولَى [بِها] ^(١) مِمَّنْ ^(٢) مُنِحَها مَنْ فَتَحَها، وكان سُلْطانُها مَنْ أَدْخَلَ في [خبر] ^(٣) كان شَيْطانُها. وأما حَلَبُ التي الكلمة فيها عالية، والمنابر فيها بالاسم الشريف حالية، فإنما تكون لمن قُلِّدَها، لا لمن تَوَرَّدَها، ولمن بالحق تسَلَّمُها، لا لمن بالباطل تَسَنَّمُها، ولو كانت حلب كما كانت مصر لدخلها الخادم ولم يُشاوِر، وَلَوَلَجَها ولم يَناظر، ولكنه أتى البيوتَ من أبوابِها، واستمطر القِطار ^(٤) من سحابِها.

ثم ذكر أَنَّ المواصلة راسلوا الملاحدة الحَشِيشية، واتخذوهم بِطانَةً من دون المؤمنين، وواسطَةً بينهم وبين الفرنج الكافرين، ووعدوهم بَقِلاعٍ من يَدِ

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) في الأصل: من، والمثبت من (ك).

(٣) ما بين حاصرتين من (ك) وكتب إلى جانبها كلمة «صح».

(٤) القطار جمع، مفردا قطر، وهو المطر. «اللسان» (قطر).

الإسلام تُقْلَع، وبضباع^(١) من فيء المسلمين تُؤْضَع، وبيدارِ دعوة بحلب يُنْصَبُ فيها عِلْمُ الصَّلَاةِ وَيُرْفَع^(٢)، وباللَعَجَبِ مِنَ الْخُصْمِ يَهْدِمُ دَوْلَةً حَقٌّ وهي تَبْنِيهِ، وَمِنْ الْعَبْدِ يَبْنِي مُلْكُهَا بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ وَذَوِيهِ، وهي تَرَاقِبُ أَعْدَاءَهُ فِيهِ، وَدَعَوَاهُ فِي رِسَائِلِهِمْ وَغَوَائِلِهِمْ لَيْسَتْ بِدَعْوَى لَا يَقُومُ شَاهِدُهَا، وَلَا هِيَ بِشِنَاعَةٍ لَا يَهْتَدِي قَائِدُهَا، بَلْ هَذَا رَسُولُهُمْ عِنْدَ سِنَانِ^(٣) صَاحِبِ الْمَلَاخِدَةِ، وَرَسُولُهُمْ عِنْدَ الْقَوْمِصْ * مَلِكِ الْفَرَنْجِ، وَهَذِهِ الْكُتُبُ الْوَاصِلَةُ بِذَلِكَ قَدْ سِيرَتْ، وَلَا اسْتِنْجَابَ الْوَلَايَةِ طُرُقُ، أَمَّا السَّبْقُ إِلَى التَّقْلِيدِ، فَلِلْخَادِمِ السَّبْقُ. وَأَمَّا الْعَدَالَةُ وَالْعَدْلُ، فَلَوْ وَقَعَ الْفَرْقُ لَوَقَعَ الْحَقُّ. وَأَمَّا بِالْآثَارِ بِالطَّاعَةِ فَلَهُ فِيهَا مَا لَوْلَا مَعُونَةُ الْخَالِقِ فِيهِ لَقَصَرَتْ عَنْهُ أَيْدِي الْخَلْقِ، وَمَتَى اسْتَمَرَّتِ الْمُشَارَكَةُ فِي الشَّامِ، أَفْضَتْ إِلَى ضَعْفِ التَّوْحِيدِ، وَقُوَّةِ الْإِشْرَاكِ، وَتَرَامَتْ إِلَى أَخْطَارٍ تَعْجِزُ عَنْهَا خَوَاطِرُ الْإِسْتِدْرَاكِ، وَأَخْوَجَتْ قَابِضُ الْأَعْتَةِ إِلَى أَنْ يُعْلِيَهَا الْجَدَدَ^(٤) وَيُرْسِلَهَا الْعِرَاكَ^(٥). وَطَرِيقُ الصَّلَاحِ وَالْمُصَالِحَاتِ الْإِيمَانِ، وَالْمِشَارِ إِلَيْهِمْ لَا يَلْتَزِمُونَ رِبْقَتَهَا، وَلَا يَوْجِبُونَ صَفَقَتَهَا، فَكَفَى بِالتَّجْرِبِ نَاهِيًا عَنِ الْغِرَّةِ^(٦)، وَلَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ إِلَّا مَرَّةً^(٧)، وَإِذَا اجْتَمَعَتْ فِي الشَّامِ أَيْدٍ ثَلَاثٌ: يَدٌ عَادِلَةٌ، وَيَدٌ مُلْحَدَةٌ، وَيَدٌ كَافِرَةٌ، نَهَضَ الْكُفْرُ بِثَلَاثِهِ، وَقَصَرَتْ عَنْ

(١) فِي الْأَصْلِ: وَضِياع، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (ك).

(٢) فِي الْأَصْلِ: فِيرْفَع، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (ك).

(٣) انْظُرْ حَاشِيَتَنَا رَقْمَ ٣ ص ٢٨٨ مِنَ الْجُزْءِ الثَّانِي.

(٤) الْجَدَدُ: الْأَرْضُ الصَّلْبَةُ الْمُسْتَوِيَّةُ. «اللسان» (جَدَد).

(٥) الْعِرَاكُ: اَزْدَحَامُ الْإِبِلِ عَلَى الْمَاءِ، وَقَالُوا: أَرْسَلَهَا الْعِرَاكُ أَيَّ أَوْرَدَهَا جَمِيعاً الْمَاءِ.

«اللسان» (عَرَك).

(٦) الْغِرَّةُ: الْغَفْلَةُ. «اللسان» (غَرَر).

(٧) إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ ﷺ «لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُبُرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ

(٦١٣٣) وَمُسْلِمٌ (٢٩٩٨) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٥٩٦٤) مِنْ

حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ.

الإسلام يَدُ مُغِيثِهِ، ولم ينفع الخادم حيثُ تصحيح حسابه وتصديق حديثه^(١)، وما يريدُ الخادم إلا مَنْ تكونُ يَدُ الله عليه، وهي الجماعة، ولا يُؤْثِرُ إلا ما يتقَرَّبُ به إليه، وهو الطَّاعة، ولا يتوَخَّى إلا ما تقومُ به الحُجَّةُ اليوم ويوم تقومُ السَّاعة.

ومن كتابٍ آخر: قد أحاطَ العِلْمُ بما طالع به أولاً عند وفاة وَلَدِ نور الدِّين، رحمه الله^(٢)، أنَّ التقليد الشَّرِيف المستضيء لما وصله بالبلاد، وكان قد فتح أكثرها: قلاعاً وأمصاراً وحُصُوناً ودياراً، ولم يبق إلا قَصَبَةُ حلب، وهو على أخذها، عَدَلَ وَلَدُ نور الدِّين عن القتال إلى النَّوَال، وعن التَّوَال إلى الاستنزال، وقَصَدَ القَصْدَ الذي ما أَوْجَبَت المحافظة أن يُتَلَقَّى بالرَّدِّ، فأقرَّه على الولاية فَرَعاً لا أصلاً، ونائباً لا مُستقلاً، وسَلَّمَ إليه البلاد ويده الغالبة لا المغلوبة، وسيوفه السَّالِبَةُ لا المَسْلُوبَةُ، ومشى الأمر معه مستقيماً ومائلاً، وجائراً وعادلاً، إلى أن قضى نَحْبَهُ، ولقي رَبَّهُ، فبدا من المواصلَةِ نَقْضُ الأَيْمَانِ، والابتداءُ بالعُدْوَانِ، والتعرُّضُ للبلاد، والتصرفُ [فيها]^(٣) بغير حُجَّة يكون عليها الاعتماد. فطالع الدِّيوان بالقضية، واستشهد بدلالات قوانينه الجَلِيَّةِ، في هذا التقليد الذي تهادته المحاضر، وأشاعته المنابر، وسُيِّرَتْ إلى الشَّرْقِ والغرب نُسُخُهُ، وغلَّتِ الأيدي التي تُحدِّث أنفسها أنَّها تَفَسِّخُهُ.

فَصْلٌ

قال العماد: وتوجَّه السُّلْطَان بعد شهر رمضان إلى الإسكندرية على

(١) في الأصل. تصديق حسابه وتصحيح حديثه، والمثبت من (ك).

(٢) في (ك) رحمهما الله.

(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

طريق البحيرة، وخيّم عند السواري، وشاهد الأسوار التي جدّدها، والعمارات التي مهّدها، وأمر بالإتمام والاهتمام. وقال السلطان: نغتنم حياة الشيخ الإمام أبي طاهر بن عَوْف^(١). فحضرنا عنده، وسمعنا عليه «مَوْطَأَ مالك» رضي الله عنه بروايته عن الطُّرْطُوشِي^(٢)، في العَشر الأخير من شَوَّال، وتَمَّ له ولأولاده ولنا به السَّماع، والوالي يومئذٍ بها فخر الدين قراجا^(٣).

قلت^(٤): ووجدتُ للقاضي الفاضل كتاباً كتبه إلى السلطان تهنئةً بهذا السماع، يقول فيه: أدام الله دَوْلَةَ المولى الملك النَّاصر، صلاح الدُّنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، محيي دولة أمير المؤمنين، وأسعده برحلته للعلم وأثابه عليها، وأَوْصَلَ ذخائر الخير إليه وأوصله إليها، وأَوْزَعَ الخَلْقَ شكرًا لنعمته فيه، فإنَّها نعمة لا يوصل إلى شُكرها إلا بيازاعه، وأودع قَلْبَهُ نورَ اليقين، فإنَّه مستقرٌّ لا يودُع فيه إلا ما كان مستنداً إلى إيداعه، والله

(١) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٩٧ من الجزء الثاني.

(٢) هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف، القرشي الأندلسي، أبو بكر، ويعرف بابن أبي رندقة، من فقهاء المالكية الحفاظ، ولد نحو سنة (٤٥١ هـ) بطرطوشة شرقي الأندلس، وصحب أبا الوليد الباجي، وقرأ الأدب على ابن حزم، ثم رحل إلى المشرق سنة (٤٧٦ هـ) فحجَّ، ودخل بغداد والبصرة، ونزل بيت المقدس مدة، ثم استقر في الإسكندرية حتى توفي سنة (٥٢٠ هـ)، وهو صاحب كتاب «سراج الملوك» وهو مطبوع متداول. وكان إماماً عالماً عاملاً زاهداً ورعاً ديناً، متواضعاً متقشفاً متقللاً من الدنيا، راضياً فيها باليسير.

انظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ٢٦٢/٤ - ٢٦٥، و«سير أعلام النبلاء»:

٤٩٠/١٩ - ٤٩٦.

(٣) «سنا البرق الشامي»: ١٨٨.

(٤) هذا التعقيب حتى نهايته ص ٩٢ ساقط من (ك)، وجاء فيها عقيبه: قول العماد:

وعدنا إلى القاهرة في ذي القعدة، وشرع السلطان في الاستعداد لسفر الشام...

قلت: سيرد خبر سفر السلطان إلى الشام ص ١٠٣ من هذا الجزء.

في الله رحلتاه، وفي سبيل الله يوماه، وما منهما إلا أَعَزُّ مُحَبَّل، والحمد لله الذي جعله ذا يومين؛ يوم يَسْفِكُ دَمَ المحابر تحت قلمه، ويوم يَسْفِكُ دَمَ الكافر تحت عِلْمه، ففي الأوَّل يَطْلُبُ حَدِيثَ الْمُصْطَفَى ﷺ، فيجعل أثره عَيْنًا لَا تُسْتَرُ، وفي الثَّانِي يجعل لِنَصْرِهِ شَرِيعَتَهُ هِدَاةً عَلَى الضَّلَالِ، فيجعل عينه أَثَرًا لَا يَظْهَرُ، وقد اسْتَغْرَبَ النَّاسُ هِمَمَ الْعُلَمَاءِ فِي رِحْلَتِهِمْ لِنَقْلِ الْحَدِيثِ وَسَمَاعِهِ، والموالاة في طلب ثقته وانتجاعه، وصَنَّفُوا فِي ذَلِكَ تَصَانِيفَ، قَصَدُوا بِهَا التَّحْرِيزَ لِلْهِمَمِ وَالتَّنْبِيهَ، وَالرَّفْعَ مِنْ أَقْدَارِ أَهْلِهِ وَالتَّنْوِيهَ، فَقَالُوا: رَحَلَ فُلَانٌ لِسَمَاعٍ مُسْنَدِ فُلَانٍ، وَسَارَ زَيْدٌ إِلَى عَمْرٍو عَلَى بُعْدِ الْمَكَانِ، هَذَا، وَصَاحِبُ الرِّحْلَةِ قَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلْعِلْمِ، وَشَغَلَ بِهِ دَهْرَهُ، وَوَقَفَ عَلَيْهِ فِكْرُهُ، فَلَا تَتَجَاذِبُ عَيْنَانِ هِمَّتَهُ الْكِبَائِرُ، فَمَا الْقَوْلُ فِي مَلِكٍ خَوَاطِرُهُ كَأَبْوَابِهِ مَطْرُوقَةٌ، وَأُمُورُ خَلْقِ اللَّهِ كَأُمُورِ دِينِهِ بِهِ مَعْدُوقَةٌ^(١)، إِذْ هَاجَرَ إِلَى بَقِيَّةِ الْخَيْرِ فِي أَضْيَاقِ أَوْقَاتِهِ، وَتَرَكَ لِلْعِلْمِ أَشَدَّ ضَرُورَاتِهِ، وَوَهَبَ لَهُ أَيَّامًا مَعَ أَنَّهُ فِي الْغَزَاةِ يُحَاسِبُ لَهَا نَفْسَهُ عَلَى لِحَظَاتِهِ وَسَاعَاتِهِ، وَمَا يَحْسِبُ الْمَمْلُوكُ أَنَّ كَاتِبَ الْيَمِينِ كَتَبَ لِمَلِكٍ قَطْرَ رِحْلَةٍ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ إِلَّا لِلرَّشِيدِ هَارُونَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، عَلَى أَنَّهُ خَلَطَ زِيَارَةَ نَبِيَّةٍ بِطَلَبِ، وَرَحَلَ بَوْلَدِيَّةً إِلَى مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ لِسَمَاعٍ هَذَا «الْمُوطَأُ»، الَّذِي اتَّفَقَتِ الْهِمَّتَانِ الرَّشِيدِيَّةُ وَالنَّاصِرِيَّةُ عَلَى الرَّغْبَةِ فِي سَمَاعِهِ، وَالرِّحْلَةِ لِانْتِجَاعِهِ. وَقَدْ كَانَ الرَّشِيدُ سَامَ مَالِكًا — رَحِمَهُ اللَّهُ — أَنْ يَجْعَلَ لَهُ وَلَوْلَدِيَّةَ الْأَمِينِ وَالْمَأْمُونِ مَجْلِسًا خَاصًّا لِاسْمَاعِ مُصَنَّفِهِ، فَقَالَ لَهُ مَا مَعْنَاهُ: إِنَّهَا سُنَّةُ ابْنِ عَمِّكَ ﷺ، وَغَيْرُكَ مِنْ سَرَّهَا، وَمِثْلُكَ مِنْ نَشَرَهَا. فَهَذِهِ رِحْلَةُ ثَانِيَةٍ فِي الزَّمَانِ، وَأُولَى فِي الْإِيمَانِ، يَكْتُبُهَا اللَّهُ لِلْمَوْلَى بِقَلَمِ كَاتِبِ الْيَمِينِ،

(١) أي مختصة به، انظر «معجم متن اللغة» ٥٦/٤ وهي كلمة كانت فاشية في استعمال ذلك العصر.

ويقوم فيها مقام الرّشيد، ويقوم عَلَيْهِ^(١) وعُثْمَانُهُ^(٢) مقام وَلَدَيْهِ المأمون والأمين.

وكان أصل «المَوْطَأ» بسماع الرّشيد على مالك رحمة الله عليه في خزانة الكُتُبِ المِصْرِيَّة^(٣)، فإن كان قد حصل بالخزانة النَّاصِرِيَّة فهو بركة عظيمة، ومنقبة كريمة، وذخيرة قديمة، وإلا فليلتَمَس، وكذلك خَطُّ موسى بن جَعْفَر في فُتَيَا المأمون رحمهما الله كان أيضاً فيها، وهو مما يتبرَّك بِمِثْلِهِ، ويُعَلِّمُ به فَضْلُ العلم، لا خلا المولى — أبقاه الله — من فَضْلِهِ.

وقف المملوك على ما بُشِّر به من صُنْعِ المولى وتوفيقه، وصِحَّةِ مزاجه في طريقه، وانقطاع ما كان من دم، واسترواح القلب من كلِّ هَمٍّ، وقد استفتحت هذه الطريق بكلِّ فَالٍ مَبَارَكَةِ الْبُكَرِ، والفأل مأثورة عن سَيِّدِ الْبَشَرِ، فمن ذلك صِحَّةُ جِسْمِهِ، فَلْتَهْنَةِ الصَّحَّةِ، وفُسْحَةُ قلبه دامت له الْفُسْحَةُ، وانقطاع الدم، وطريقه إلى الشَّامِ ينقطع بها الدم، وَيَتَّصِلُ النَّصْرُ له وينتظم السَّلْمُ. وأخرى أنه رحل إلى «المَوْطَأ» رحم الله مالكة، ويرحل فيما يطلب من الشَّامِ إلى «الموطأ»، أسعد الله به ممالكه، الله تعالى يحقق الْخَيْرَ، وَيَصْرِفُ الضَّرِيرَ، ويبارك لمولانا في المقام والسَّير، إن شاء الله.

قلتُ: هكذا يَقَعُ في كتب الفاضل — رحمه الله — كثيراً، وهو أنه يختمها بالأدعية مُتَّصِلَةً بقوله: إن شاء الله. والتعليق بالمشيئة غير لائق بالأدعية، ففي الحديث عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٧٥ من الجزء الثاني.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٢٣٤ من الجزء الثاني.

(٣) انظر عن هذه الخزانة ما تقدم ص ٢١٢، ٤٤٤ من الجزء الثاني:

رسول الله ﷺ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمَ مَسْأَلَتَهُ، فَإِنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، لَا مُكْرَهَ لَهُ»^(١).

فَصْلٌ

في أمورٍ تتعلق بولاية اليمن في هذه السنة

قال العماد: كان الأمير مجد الدين سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ^(٢) نائباً لشمس الدولة أخي السلطان بزييد*، وحَصَّلَ له من أموالها الطَّريف والتَّليد.

ثم ابتاع من السلطان النّاحية المعروفة بالعدويّة^(٣) بمصر لَمَّا عاد إليها،

(١) أخرجه البخاري (٦٣٣٩) (٧٤٧٧) ومسلم (٢٦٧٨) (٨)، (٩).

قال الحافظ في «الفتح»: ١٤٠/١١ «والمراد أن الذي يحتاج إلى التعليق بالمشيئة ما إذا كان المطلوب منه يتأتى إكراهه على الشيء، فيخفف الأمر عليه، ويعلم بأنه لا يطلب منه ذلك الشيء إلا برضاه، وأما الله سبحانه فهو منزّه عن ذلك، فليس للتعليق فائدة.

وقال الداودي: معنى قوله «ليعزم المسألة» أن يجتهد ويلح ولا يقل إن شئت كالمستثني، ولكن دعاء البائس الفقير».

(٢) هو ابن عم أسامة بن منقذ، الشاعر المشهور، ولد سنة (٥٢٦ هـ) بقلعة شيزر، وتوفي سنة (٥٨٩ هـ) وهي سنة وفاة السلطان صلاح الدين. انظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ١٤٤/٤ - ١٤٦، وانظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٧١ من الجزء الثاني. وفي «النجوم الزاهرة»: ٨٩/٦ أنه قبض عليه باليمن، وهو خطأ، وسيرد ص ٩٤، ٩٥ - ٩٦ من هذا الجزء أن الذي قبض عليه باليمن وقتل هو أخوه حطان.

(٣) العدوية: قرية ذات بساتين قرب القاهرة على شاطئ شرق النيل. «معجم البلدان»: ٩٠/٤.

وبقي أخوه حِطَّانُ بَزِيد* والياً عليها، فصنَعَ دعوةً عظيمةً بها، ذكر العماد أنه حضرها هو وغيره من الفضلاء الأعيان، فبينما هم عنده في أسرٍ حالٍ، إذ أحدق بهم الأمير بهاء الدين قراقوش، فقبض على سيف الدولة، واعتُقل بالقصر.

وكان سببه أن أقارب السُلطان وخواصه كثروا عليه عنده أنه استوعب مال^(١) زَبِيد، وأنَّ له كنوزاً لا تبيد، وأشاروا عليه بقبضه، وهو يدافع عنه، إلى أن أكثروا، وقيل فيه^(٢): إن لم تُدركه فات^(٣). فَأَمَرَ به فاعتُقل، فسمح للسُلطان خاصّةً من التَّقد المِصري ثمانين ألف دينار، لم يظهر فيها بيع [دار ولا]^(٤) متاع، ولا استدانة من تُجَّار. وَغَرِمَ لِأَخَوَيْ السُلطان العادل وتاج الملوك^(٥) ما حافظ به على نهج الكرم المَسْلُوك، وخرج مُشْرِفاً مَكْرَماً، مُصَرِّفاً مُحترماً، وزاد السُلطان في تكريمته، ونفَذَ إليه بما قبضه منه خَطَّ يده، بأنَّ المبلغَ دَيْنٌ في ذِمَّتِهِ، ثم باعه أملاكاً بمصر بتقدير ثلاثين ألف دينار، وبذل له كل ما طلب عن إثارة واختيار، وزاد في إقطاعه، وبارك الله له في أشيائه وأشياعه^(٦).

(١) في (ك) و(ب) أموال.

(٢) في (ك) و(ب): له.

(٣) كان سيف الدولة المبارك قد أرسل أتباعه إلى الأسواق كي يشتروا له ما يحتاج إليه من الأطعمة وغيرها من أجل الوليمة، فقبل لصالح الدين: إن ابن منقذ يريد الهرب، وأصحابه يتزودون له، ومتى دخل اليمن أخرجته عن طاعتك، فأرسل لصالح الدين من قبض عليه والناس عنده وحبسه، ولما علم بعد بجلية الأمر أطلقه، وصانعه على ثمانين ألف دينار مصرية كما ذكر العماد، انظر «الكامل» لابن الأثير: ٤٧١/١١.

(٤) ما بين حاصرتين من (ب).

(٥) سترد وفاته ص ١٥٨ من هذا الجزء.

(٦) «سنا البرق الشامي»: ١٨٩ - ١٩١.

قال العماد: وكان هذا الأمير من راحة عقله، وحصافة فضله، ما سُمِعَتْ منه شكوى، ولا حكاية في بلوى، وقُتِلَ أخوه حِطَّانَ بَزِيد*، وأُخِذَ ماله فلم يظهر منه للسلطان كراهة، وكلُّ شَيْمَتِهِ نِزَاهَةٌ ونِبَاهَةٌ^(١).

قال: وكان لما توفي الملك المعظم شمس الدولة^(٢) أشفق السلطان من نَوَّابِهِ باليمن، وذكر ما بين وُلَاتِهَا من الإِخْن، ووصل الخبر بما يجري بين الأمير عثمان بن الزُّنْجَلِي^(٣) والي عَدَنَ، وبين الأمير حِطَّانَ والي زَيْدٍ من الفِتْنِ، فَتَدَبَّ إلى زَيْدٍ عِدَّةً من الأمراء لحفظ البلاد، وإصلاح الأمور التي يُخْشَى عليها من الفساد، ومن جُمِلَتْهُمْ والي مِضْرٍ صارم الدين خُطْبُلاً^(٤)، وبقيت الولاية له بها في غَيْبَتِهِ يقوم بها نَوَّابُهُ، وَيَرْجِعُ إلى رأي أهله أَصْحَابُهُ، فسرعت زَوْجَتُهُ في عمارة دارٍ عظيمة سِنِيَّةٍ.

وذكر العماد أنه حصل له ولغيره من الأعيان بها ضيافةٌ جليلة اتفاقية.

وقال ابن أبي طي: كانت نَفْسُ سيف الإسلام طُغْتِكِينَ^(٥) أخي السلطان تَشْرَبُ إلى اليمن من حيث مات أخوه شمس الدولة، ويشتهي أن يصير إليها، فأمر ابن سَعْدَانَ الحلبِي^(٦) أن يعمل [له]^(٧) قصيدةً يُعْرَضُ فيها بإنفاذ سيف الإسلام إلى اليمن، فعمل القصيدة التي يقول فيها:

(١) «سنا البرق»: ١٩١.

(٢) سلف ذكر وفاته ص ٦٣ من هذا الجزء.

(٣) انظر ص ٢٧١ من الجزء الثاني، وسيرد خبره ص ٩٦ — ٩٧ من هذا الجزء.

(٤) انظر ترجمته في «تاريخ ثغر عدن»: ص ١٠١ — ١٠٢ وفيه تحريف حطان إلى خطاب.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٢٥١ من الجزء الثاني.

(٦) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٨٤ من الجزء الثاني.

(٧) ما بين حاصرتين من (ب).

جَرَّدُ لَهَا السَّيْفَ الصَّقِيلَ فِتْنَةً
شُدَّ بِهِ أَزَرَ الْعُلَا فَإِنَّهُ
الْقَائِلُ الْمُسْمِعُ فِي مَقَالِهِ
بَادِي الْفَوَادِ^(٢) كَيْفَمَا سَيَّرْتَهُ

فَالسَّيْفُ لَا يُذْخَرُ إِلَّا لِلْفِتَنِ
نِعْمَ فَتَى مَنْ شَرَعَ الْجُودَ وَسَنَّ
وَالصَّادِقُ النَّدْبُ^(١) الْأَمِينُ الْمُؤْتَمَنُ
حَنَّ إِلَى دَارِ الْوَعَى ثُمَّتَ أَنَّ

وفيها يقول:

يَا ابْنَ الْكِرَامِ التُّجْبَاءِ وَالَّذِي
لَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنِ الْمُلْكِ فَمَا
قَدْ فَسَدَ الْمُلْكُ وَقَدْ طَالَ الْعِدَى

تَلَقَّفَ الْعَلِيَاءَ فِيهَا وَلَقِنِ
يَخَاطِبُ الْعَلِيَاءَ إِلَّا مَنْ وَمَنْ
وَاقْتَسَمُوا بَعْدَكَ أَمْوَالَ الْيَمَنِ

قال: فلما سمع السُّلْطَانُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ أَذِنَ لِسَيْفِ الْإِسْلَامِ فِي الْمَسِيرِ
إِلَى الْيَمَنِ.

وقال العماد: وفي هذه السنة تَقَرَّرَ مَعَ سَيْفِ الْإِسْلَامِ ظَهِيرُ الدِّينِ
طُغْتَكِينُ بْنُ أَيُّوبَ أَنْ يَمْضِيَ إِلَى بِلَادِ الْيَمَنِ وَزَيْدٌ* وَعَدَنُ، وَأَنْ يَقْطَعَ بِهَا
الْفِتْنَ، وَيَتَوَلَّاهَا، وَيُولِّي وَيَغْزِلَ، وَيُخْسِنَ وَيَعْدِلَ. فَسَارَ بَعْدَ مَسِيرِنَا إِلَى
الشَّامِ، وَجَرَتْ مَمْلَكَتُهُ فِيهَا عَلَى أَحْسَنِ نِظَامٍ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ^(٣).
وَوَصَلَ إِلَى زَيْدٍ*، وَحَطَّ حِطَّانٌ عَنْ رُتْبَتِهِ، وَأَمَّنَّهُ وَطَمَّنَّهُ، ثُمَّ أَذِنَ لَهُ فِي
الْإِنْفِصَالِ إِلَى الشَّامِ، فَجَمَعَ حِطَّانٌ كُلَّ مَالِهِ مِنْ سَبَكٍ وَلَبَدٍ^(٤)، وَمُطَرَفٍ

(١) الندب: الخفيف في الحاجة. «اللسان» (ندب).

(٢) أي باطنه كظاهرة.

(٣) أي ثمانٍ وسبعين وخمسة مئة.

(٤) انظر معناها في حاشيتنا رقم ١ ص ١٤٩ من الجزء الثاني.

وَمُتَلَدٌ^(١)، وَلُجَيْنٌ^(٢) وَعَسْجَدٌ^(٣)، وَيَاقُوتٌ وَزَبَرْجَدٌ، وَأَلَاتٌ وَعُدَدٌ، وَحُصْنٌ^(٤) وَحُجُورٌ^(٥) عَرَابٌ^(٦)، وَمَالٍ اعْتَقَدَهُ^(٧) مِنَ الْيَمَنِ بِغَيْرِ حِسَابٍ. ثُمَّ أَنَاخَ جَمَالَهُ، وَرَحَّلَ عَلَيْهَا أَحْمَالَه، وَقَدَّمَ قُدَّامَه أَثْقَالَه، وَظَنَّ أَنَّهُ نَجَا وَفَازَ، وَرَكِبَ الْأَوْفَازَ، فَرَدَّهُ إِلَيْه لِيُودِّعَه، ثُمَّ يَشِيعُه وَيَرْكَبُ مَعَه، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ اعْتَقَلَه، وَسَيَّرَ وَرَاءَ مَالِه مَنْ أَقْفَلَه، وَإِلَى خَزَائِنِه^(٨) نَقَلَه، ثُمَّ أَنْفَذَه إِلَى بَعْضِ مَعَاقِلِه فَحَبَسَه، ثُمَّ قَتَلَه. وَفِيمَا ذُكِرَ لِلشُّلْطَانِ مِنْ خَبَرِ ذَهَبِه وَمَالِه الدَّاهِبِ، مَا يُعَيِّي بِحَصْرِ تَفَاصِيلِ جُمْلَتِه أَنْتَمَلَ الْحَاسِبُ، أَنَّ نَيْقًا وَسَبْعِينَ غِلَافًا مِنْ غُلْفِ الزَّرْدِ كَانَتْ مَمْلُوءَةً بِالذَّهَبِ الْأَحْمَرِ الْمُتَنَقَّدِ^(٩)، وَقَوْمٌ الْمَأْخُوذُ بِقِيَمَةِ أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ^(١٠).

وَأَمَّا صَاحِبُ عَدَنَ الْأَمِيرُ عَزُّ الدِّينِ عَثْمَانُ بْنُ الزَّنْجِيلِيِّ^(١١)، فَإِنَّهُ لَمَّا

(١) المطرف من المال: المستحدث. والمتلد: القديم. «اللسان» (طرف، تلد).

(٢) اللجين: الفضة، جاء مصغراً. «اللسان» (لجن).

(٣) المسجد: الذهب. «اللسان» (عسجد).

(٤) الحصن جمع، مفردا حصان: الفحل من الخيل. «اللسان» (حصن).

(٥) الحجور جمع، مفردا حجر: الفرس الأثني تتخذ للنسل، لم يدخلوا فيها الهاء لأنه اسم لا يشركها فيه المذكر. «اللسان» (حجر).

(٦) عراب جمع، مفردا عربي، أي أنها خيول عربية، ليس فيها عرق هجين، وهذا الجمع خاص في الخيل. انظر «اللسان» (عرب).

(٧) أي اقتناه. «اللسان» (عقد).

(٨) في (ك) خزائنه.

(٩) في الأصل: المتقد الأحمر، والمثبت من (ك) و(ب). والمتنقد: أي التي تقدَّها الناقد، وميز خالصها، وأخرج الزيف منها. «معجم متن اللغة»: ٥٢٥/٥.

(١٠) انظر «رحلة ابن جبير» ١٢٦، ١٥٣.

(١١) الزنجيلي نسبة إلى زنجيلة: قرية من قرى دمشق، ويقال فيه الزنجاري. وهو أبو عمرو عثمان بن علي، كان أميراً كبيراً، استنابه تورانشاه بن أيوب على عدن سنة (٥٧١ هـ)، وتوفي بدمشق بعد سنة (٥٩٠ هـ) لأنه في هذه السنة أرسله الأفضل =

سمع بسيف الإسلام توجّه^(١) إلى الشام^(٢).

قلت: ولهذا الأمير أوقافٌ وصداقات بمكة واليمن ودمشق، فإليه تُنسبُ المدرسة والرباط المتقابلات بباب العُمرَة بمكة، والمدرسة التي خارج باب توما* بدمشق، رحمه الله.

ومن كتابِ فاضلي عن السلطان إليه: البلادُ لك فيها عدّة سنين، وأنت فيها مؤتمن على مال الله، فأدّه إلى من يجاهدُ به أعداء الله، وينيم به كلمة الله ويحفظ به البيضة^(٣)، ويدبُّ [به]^(٤) عن الملة، ويقاقل به أعداء القبلة، ويضرب بالأسداد^(٥) بين الكفر والإسلام، وينصبُ وجهه بين الهجير والزُمهرير، عاماً في إثر عام، وما نطلب منك الباطل الذي لا يجوز لنا أن

= إلى عمه العادل يستنجد به على أخيه العزيز حين حصاره دمشق، وقد ذكرت بعض المصادر وفاته سنة (٥٨٣ هـ) وهو خطأ بيّن، ودفن بمدرسته التي بناها خارج باب توما وهي المدرسة الزنجيلية أو الزنجارية — وقد أخطأ ابن شداد في «الأعلاق الخطيرة» حين قال: إنها بنيت سنة (٦٢٦ هـ) — وقد شاهد ابن جبير الأمير عثمان في مكة هارباً من اليمن، وذلك سنة (٥٧٩ هـ).

انظر «العقد الثمين» ٣٤/٦ — ٣٥ و«تاريخ ثغر عدن» ١٦٣، وص ٢٧١ من الجزء الثاني وص ٤٢١ من الجزء الرابع من هذا الكتاب. و«الدارس»: ٥٢٦/١، و«رحلة ابن جبير»: ص ١٥٣ و«طبقات فقهاء اليمن» لابن سمرة: ٢٠٤. وقد تحرفت نسبته في بعض المصادر إلى الزنجيلي.

(١) في (ك) و(ب) تجهّز.

(٢) انظر «سنا البرق» ١٩١ — ١٩٢ والنص مسجور بالتحريفات.

(٣) البيضة: أصول القوم ومجتمعهم وموضع سلطانهم، ويقال لجماعة المسلمين: بيضة. «اللسان» (بيض).

(٤) ما بين حاصرتين من (ك).

(٥) الأسداد جمع، مفردا سد، وهو كل بناء شدُّ به موضع، وأيضاً هو كل ما قابلك فسداً ما وراءه. انظر «معجم متن اللغة»: ١٢٦/٣.

نَطْلُبُهُ، ولا لك أن تَدْفَعَهُ، ولا نريد إلا الحقَّ الذي لا يحلُّ لنا أن نتركه،
ولا لك أن تمنعه.

فصل

في باقي حوادث هذه السَّنة

قال العماد: وفي هذه السنة وَصَلَ إلى السُّلْطَان من دمشق العَلَمُ
خطيب المِزَّة، وكان قد زَوَّرَ على السلطان مثلاً يتضمَّن له منالاً، ورفعهُ إلى
عِزِّ الدين فَرُخْشاه، فما خفي تزويره عليه، وهَمَّ بالإيقاع به، فقصد السُّلْطَان
بمصر، وأطلعه على حاله، فما اكرث به، وقال: نُحَقِّق ما زَوَّرْتَ. وأمر أن
يُكْتَبَ له توقيعٌ بضعف ذلك الإدِّرار^(١).

قال: وكان له إمامٌ يصلي به^(٢)، وهو يكتب مثل خطِّه، فأطلق به
أموالاً، وأصلَحَ وأنجح بتزويره لأصدقائه أحوالاً، وما يشكُّ صاحبُ ديوانٍ
ولا متولِّي خزانة في أنَّه صحيح، فلما دام سنين انكشف، وشارف التَّلَفُ،
وجلس إخوة السُّلْطَان وأمرأؤه عنده يغرونه [به]^(٣)، فقلت له بالعجمية سرّاً:
تهبْ للقرآن. فقال: نعم. فنَقَسَ من خِناقِه، وأمر بإطلاقه، وأبقى عليه خَيْرَه
حين استبدل به غيره، وصار بعده للعادل إماماً، وبقي شغله معه مُستداماً^(٤).

(١) «سنا البرق»: ١٩٢ - ١٩٣.

(٢) في الأصل: وكان الإمام يصلي به، والمثبت من (ك) و(ب).

(٣) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٤) «سنا البرق»: ١٩٣ ويأتي في (ك) عقيب هذا الخبر: «وكان السلطان عشيّة

توديعه... قلت: وسيأتي ص ١٠٣.

قال^(١): وفيها غَدَرَ الفرنج، ونقضوا عهدهم، واستولوا على تُجَّارٍ في

٢٧/٢

البحر وغيرهم، وسَهَّلَ الله تعالى بُطْسة* لهم عظيمة من المراكب الفرنجية، مقلعة من بلدٍ لهم يقال له بوليه، تحتوي على ألفين وخمسة مئة نفس من رجال القوم وأبطالهم [وأتباعهم، وهم على قصد زيارة القدس في الساحل، وتكثير حزب الباطل]^(٢)، فألقتهم الرِّيح إلى ثَغْرِ دُمياط، فَفَرَّقَ منهم الشَّطْرُ، وشَمِلَ الباقيين الأُسْرَ، فحصل في الأسر منهم زُهاء ألفٍ وست مئة وست وسبعين نَفْساً، واتفق ذلك أمام الاهتمام بالمسير إلى الشَّام^(٣).

قال ابن أبي طي: وفيها ولد للسلطان الملك المعظم تورانشاه^(٤)، والملك المُحْسِن أحمد^(٥)، بينهما سبعة أيام، واتصل الفَرَحُ بهما أربعة عشر يوماً.

وفيها سار قَرَأقُوش^(٦) إلى إفريقية، فأوْغَلَ في بلادها، وانتهب ما قَدَّرَ عليه، وحارب عسكر ابن عبد المؤمن^(٧) بالقيروان، ثم بلغه أَنَّ إبراهيم السلاح دار احتوى على أَهْلِ قَرَأقُوش وبلده، فَرَجَعَ إليه، فهرب إبراهيم،

(١) هذا الخبر يأتي في (ك) عقيب خبر «وكان السلطان عشية توديعه، انظر ص ١٠٣ - ١٠٤ من هذا الجزء، وهو ما يتفق أيضاً مع إيراد العماد له في «البرق»، انظر «سنا البرق»: ١٩٣ - ١٩٤.

وقد آثرنا هنا متابعة الأصل.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

(٣) «سنا البرق»: ١٩٤.

(٤) انظر ص ٤٧٧ من الجزء الثاني.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٤٧٦ من الجزء الثاني.

(٦) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٦٧ من الجزء الثاني، وانظر ما سلف من أخباره ص ٤١٨ - ٤١٩ من الجزء الثاني أيضاً.

(٧) هو السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن علي، ثالث ملوك دولة الموحدين بمراكش، وسيرد خبر وفاته ص ٢٢٣ من هذا الجزء.

وسار إلى خدمة ابن عبد المؤمن، وملك قراقوش ما كان بيد إبراهيم.

قال ابن القادسي^(١): وفيها عشيّة الخميس، ثامن شعبان، توفي الإمام كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي السّعادات^(٢)، الأنباري النّحوي، وكان فقيهاً نَحْوِيّاً، زاهداً عابداً، خَشِنَ العيش، صَبُوراً على الفقر، وكان يَسْرُدُ الصَّوْمَ، ولا يقبل من أحدٍ شيئاً، وكان يحضّر في نوبة الصّوفية بدار الخلافة المعظّمة في الوقت، فَيُنْفَذُ إليه بالتّشريف والذهب، فيعيّده ولا يقبله، وكان يجتهد به الوزير ابن رئيس الرؤساء^(٣) أن يقبل لولده شيئاً، فما كان يفعل. وكان يفطر على الخبز الخُشْكار^(٤)، ويتنازع برغيف أرزاً وما شاء. وكان بابه مفتوحاً لطالبي العلم، يعلمهم لوجه الله تعالى، وكان إذا أَحْضَرَ أحدهم في الصيف مَرْوَحَةً يَتَرَوَّحُ بها، فإذا خرج يقولُ له: خُذْ مَرْوَحَتَكَ معك. فيجتهد به ذلك أن يجعلها عنده إلى غدٍ، فما يفعل. وصنّف تصانيف كثيرة^(٥)، ودُفِنَ في تربة أبي إسحاق الشّيرازي،

(١) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥١ من هذا الجزء.

(٢) هذا من أوهام ابن القادسي، والصواب: ابن أبي سعيد، وهو المثبت في مصادر ترجمته.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٤٨١ من الجزء الثاني.

(٤) الخشكار: كلمة فارسية تعني: الدقيق الذي لم يطحن طحناً جيداً، ولم ينخل جيداً. انظر «تكملة المعاجم» لدوزي (الترجمة العربية) ١٠٢/٤.

(٥) كان له مئة وثلاثون مصنفًا، سرد كثيراً منها الصفدي في «الوافي بالوفيات»: ٢٤٨/١٨ - ٢٤٩، وانظر «سير أعلام النبلاء»: ١١٤/٢١ - ١١٥، وقد طبع من مصنفاته «أسرار العربية» و«نزهة الألباء» و«الإنصاف في مسائل الخلاف» وغيرها، وهي كتب مشهورة ومتداولة.

رضي الله عنه^(١).

قلت: وفيها توفي بمصر الشاعر ابن الذروري^(٢)، وهو أبو الحسن علي بن يحيى المصري، وسنّه حول الأربعين، وقد تقدّم من شعره في حج الفاضل^(٣)، وفي مدح ابن منقذ^(٤) وغيرهما. ومن ظريف شعره قوله في أحذب:

يا أخي كيف غَيَّرْتَنَا اللَّيَالِي كيف حالت ما بيننا بِالْمَحَالِ^(٥)

(١) انظر ترجمته في «إنباه الرواة»: ١٦٩/٢ - ١٧١. و«مرآة الزمان»: ٢٣٤/٨، و«وفيات الأعيان»: ١٣٩/٣ - ١٤٠، و«سير أعلام النبلاء»: ١١٣/٢١ - ١١٥، و«المختصر المحتاج إليه»: ٢٠٩/٢ - ٢١١، و«فوات الوفيات»: ٢٩٢/٢ - ٢٩٥، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ١٥٥/٧ - ١٥٦، و«بغية الوعاة»: ٨٦/٢ - ٨٧.

(٢) الذروري نسبة إلى ذرواء، قرية بصعيد مصر، وهو شاعر كان مشهوراً زمن صلاح الدين، أورد له العماد مقطفات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١٨٧/١، و«وفيات الأعيان»: ١٤٥/٤، و«فوات الوفيات»: ١١٣/٣ - ١١٧، و«الوافي بالوفيات»: ٣١٢/٢٢ - ٣٢٠ وفيه وفاته سنة (٥٧٩ هـ)، وهو الأرجح، إذ أورد له أبو شامة أشعاراً في مدح حسام الدين لؤلؤ الذي انتصر على الفرنج السالكين بحر الحجاز، وكان ذلك سنة (٥٧٨ هـ) انظر ص ١٣٥ من هذا الجزء. وصفحات متفرقة من «بدائع البدائع» و«تبصير المتنبه»: ٥٧٤/٢، و«توضيح المشتبه»: ٥٤/٤ و«حسن المحاضرة»: ٥٦٥/١ وفيه: علي بن الحسين، وهو خطأ.

قلت: وهذا التعقيب من أبي شامة ساقط من (ك).

(٣) انظر ص ٢٢، ٤٨ من هذا الجزء.

(٤) هو مجد الدين سيف الدولة المبارك بن كامل بن منقذ. انظر ص ٢٧٦ من الجزء الثاني، وانظر مقطعات مما ورد من شعر ابن الذروري ص ٥٥، ٢٤٦ - ٢٤٧ من الجزء الثاني، وسيرد ص ١٣٥ - ١٣٦، ٣٠٠ من هذا الجزء، وص ١٢ من الجزء الرابع.

(٥) المحال: العداوة. «معجم متن اللغة»: ٢٥٥/٥.

حاشَ لله أن أُصافِي خِلاًّ
 زعموا أنني أتيتُ بهجو
 كَذَبُوا إِنَّمَا وَصَفْتُ الَّذِي حُزُّ
 لَا تَظُنُّنَّ حَذْبَةَ^(١) الظَّهِرِ عَيْباً
 وكذلك القِسيُّ مُحَدِّدِيَاتُ
 ودناني^(٢) القُضَاةُ وهي كما تعد
 وإذا ما عَلا السَّنام ففيه
 وأرى الإنحناء في منسر^(٣) الكا
 وأبو الغُصن أنت لا شك فيه
 قد تحلَّيتَ بانحناءٍ فانت الـ
 وتعبَّلتَ حَمَلَ وَزْرِكَ في الظَّهِ
 إِنَّ حَمَلَ الذُّنُوبِ أَهْوَنُ في الذُّنْ
 كَوْنُ اللَّهْ حَذْبَةُ فِيكِ إن شِئْ
 فَأَتَتْ رِبُوَّةٌ عَلَى طَوْدٍ حِلْمٍ

فيراني في وِدِّه ذا اختلالٍ
 فيك نَمَقْتُهُ بِسُمِّ خِلَالٍ
 تَ من التُّبَلِ والسَّنا والكمال
 فهي للحُسْنِ مِنْ صفاتِ الهِلال
 وهي أَنْكِي من الطُّبَى^(٢) والعَوَالِي^(٣)
 لَمْ كَانَتْ موسومةً بِالْجَمَالِ
 لِقُرومٍ^(٥) الْجَمَالِ أي جَمال
 سِرِّ يُلْفَى وَمِخْلَبِ الرُّبَالِ^(٧)
 وَهُوَ رَبُّ الْقَوَامِ والإعتدالِ
 رَاكِعِ الْمُسْتَمِرِّ في كُلِّ حالٍ
 رِ فَاْمُنَا في مَوْقِفِ الْأَهْوَالِ
 يَا عَلَى أَنَّهُ مِنَ الْأَثْقَالِ
 تَ من الْفَضْلِ أَوْ مِنْ الْإِفْضَالِ
 مِنْكَ أَوْ مَوْجَةً بِبَحْرِ نَوَالِ

(١) هي الحذبة: بالتحريك، وسكنت الدال لضرورة الشعر.

(٢) الطبي جمع، مفردا الطبة، وهي طرف السيف وحده. «معجم متن اللغة» ٦٥٧/٣.

(٣) العوالي جمع، مفردا عالية، وهي من الرمح رأسه أو النصف الذي يلي السنان منه، أو السنان نفسه. «معجم متن اللغة»: ١٩٩/٤.

(٤) دناني جمع، مفردا الدنيّة: بفتح الدال وكسرها: قلنسوة محددة الأطراف، كان يلبسها القضاة والأكابر. انظر «معجم متن اللغة»: ٤٥٩/٢.

(٥) القروم جمع، مفردا القرم: وهو الفحل الذين يترك من الركوب والعمل، ويودع للفحلة. «اللسان» (قزم).

(٦) المنسر لسباع الطير بمنزلة المنقار لغيرها. «اللسان» (نسر).

(٧) الرُبَال: من أسماء الأسد. «اللسان» (رأبل).

مَا رَأَتْهَا النِّسَاءُ إِلَّا تَمَنَّتْ لَوْ غَدَتْ حِلْيَةً لِّكُلِّ الرَّجَالِ
عُدَّ إِلَى وَدُنَا الْقَدِيمِ وَلَا تُضَدَّ سِغَ لِقِيلٍ مِنَ الْوُشَاةِ وَقَالَ^(١)

فَصْلٌ

فِي عَوْدِ السُّلْطَانِ مِنَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ إِلَى الشَّامِ^(٢)

قال العماد: وعدنا من الإسكندرية إلى القاهرة في ذي القعدة، وشرع السُّلْطَانُ فِي الاستعداد لسفر الشام، فَجَمَعَ العساكر والسَّلَاحَ، واستصحب نصفَ العَسْكَرِ، وأبقى النُّصْفَ الْآخَرَ لِحِفْظِ^(٣) ثغور مصر، وأمر قراقوش^(٤) بِإِتْمَامِ الْأَسْوَارِ الدَّائِرَةِ عَلَى مِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ.

قال^(٥): «وكان السُّلْطَانُ عَشِيَّةَ تَوْدِيْعِهِ لِأَهْلِ مِصْرَ جَالِسًا فِي سُرَادِقِهِ،

(١) انظر بعض أبيات القصيدة مع اختلاف في بعض ألفاظها في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١٨٧/١ - ١٨٨، وهي مستدركة من كتاب «المغرب» لابن سعيد كما ذكر محققوه. و«فوات الوفيات» ٢٧٢/٤ - ٢٧٣، وذكر أن الأحدب هو رضي الدين بن أبي حصينة، الشاعر المصري، وقال: وهي في غاية التهكم بأحدب، قلت: بل الأرجح عندي أنها في القاضي الفاضل، وكانت له حدة يغطيها بالطيلسان فيما ذكر المقرئ في «خطه» ٣٢١/٣، والقصيدة ليس فيها تهكم، وإنما هي من قصائد الاعتذاريات.

(٢) تقدم هذا الخبر في نسخة (ك) ورقة ٦/أ، وانظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٨٩ من هذا الجزء.

(٣) في الأصل و(ب) يحفظ، والمثبت من (ك).

(٤) هو قراقوش الأسدي. انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٨٤ من الجزء الثاني.

(٥) يأتي هذا الخبر في (ك) عقيب خبر الإمام الذي كان يزور كتب صلاح الدين.. والذي ينتهي بقوله: وبقي شغله معه مستداماً. وانظر حاشيتنا رقم ١ ص ٩٩ من هذا الجزء.

وكلُّ يشُدُّه بيتاً في الوداع، فأخرج أحدُ مؤدِّي أولاده رأسه، وأنشد مظهراً له فضله، ورافعاً به ^(١) محله:

تَمَتَّعَ مِنْ شَمِيمِ عَرَارٍ نَجْدٍ فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَارٍ ^(٢)
فلما سمعه خمدَ نشاطه، وتبدَّل بالانقباضِ انبساطه، ونحن ما بين مُغْضِبٍ ومُغْضٍ، ينظر بعضنا إلى بعض، ولا نقضي العَجَب من مؤدِّب ترك الأدب، فكأنه نطق بما هو كائن في الغيب، فإنه ما عاد بعدها إلى الدَّيَّار المضربة حتى اتصل بنُجج المُنَى في المَنِيَّة ^(٣).

قال: ومن جُملة تسمُّح المعلمين في القولِ ما حكاها لنا شيخُنا أبو محمد بن الخَشَّاب ^(٤) قال: وصلتُ إلى تبريز، فأحضرني يوماً رئيسُها في داره، وأجلس ولده [بين يدي] ^(٥) ليقراً بعض ما تلقنه ^(٦) عليّ، فقلت: فرخُ

(١) في الأصل و(ب) له، والمثبت من (ك).

(٢) البيت للشاعر الصمة بن عبد الله القشيري، وهو شاعر غزل رقيق توفي نحو سنة

(٩٥ هـ)، وهذا البيت هو من أبيات اختارها له أبو تمام في «حماسته»، مطلعها:

أقول لصاحبي والعيس تهوي بنا بين المنيفة فالضممار

تمتع من شميم عرار نجدٍ فما بعد العشية من عرار

انظر تمة الأبيات «بشرح المرزوقي»: ٣/ ١٢٤٠ - ١٢٤٤.

(٣) «سنا البرق»: ١٩٣ - ١٩٤.

(٤) هو عبد الله بن أحمد، من أهل بغداد، كان من أعلم عصره بكلام العرب، وأعرفهم

بعلوم شتى من النحو واللغة والتفسير والحديث والنسب، له مؤلفات كثيرة، وكان

متواضعاً عند العامة، مترفعاً على الملوك والخاصة. قرأ عليه العماد في بغداد، وذكر

وفاته سنة (٥٦٨ هـ) وذكرها ابن الجوزي وابن خلكان سنة (٥٦٧ هـ). وهي الأشبه.

انظر ترجمته ومقطعات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق، المجلد

الأول، الجزء الثالث ص ٥ - ١٨، و«المنتظم»: ١٠/ ٢٣٨، و«معجم الأدباء»

١٢/ ٤٧ - ٥٣، و«وفيات الأعيان»: ٣/ ١٠٢ - ١٠٤.

(٥) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٦) في (ك) ما تلقن.

البَطِّ سابح. فقال معلّمه، وكان حاضراً: نعم، وجَزُو الكَلْبِ نابح. فخجلت من خَطَاءِ خطابهِ، وإذا به على دَأْبِهِ في سُوءِ آدابهِ، ومقصوده أن يذْكَرَ قَرِينَتَهُ، ولا يبالِي بعينه قَرِيرَةً أم سَخِينَةً^(١)، ودَأْبُ أدياءِ أولادِ الملوك — لاجترائهم على أعِزَّةِ أولادهم — الاجتراءُ على الآباءِ، ويُحتمل ما يصدُرُ منهم لِعِزَّةِ الأبناءِ، وإنما يَصْلُحُ لمجالسةِ الملوك من يتحفَّظُ في كلامه، ويتيقَّظُ حتى في منامه^(٢).

ثم دخلت سنة ثمانٍ وسبعين [وخمس مئة]^(٣)

قال العماد: وفي خامس المحرم منها رحل السلطانُ من البركة^(٤) قاصداً إلى الشام، ولم يعدْ بعدها إلى مِصرَ حتى أدركه الحِمَامُ. وأخذ على طريق صَدْر* وأَيْلَة* في المفاوز، فبات بالبُؤَيْبِ^(٥)، ثم كانت منازلُه على الجسرِ ووادي موسى وحثا وصَدْر، وبعد خمس ليالٍ وصل عقبة أَيْلَة، وهناك سمع باجتماع الكُفَّار بالكَرْك*؛ لقصد قطع الطريق، فاحترز بحفظ الأطراف، وجاز بِحِسْمِي، ثم عقبة شتار، ثم القريتين، وأغار^(٦) في تلك الأيام على أطراف بلاد العدو، ثم تجرَّد السلطان في كُماته، وسلك بهم سَمْتَ الكَرْك

(١) سَخِينَة ضد قَرِيرَة. «اللسان» (سخن).

(٢) «سنا البرق»: ١٩٤.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٤) هي بركة الحب. انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٨٥ من الجزء الثاني.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٧١ من هذا الجزء.

(٦) من هنا يبدأ اضطراب في أوراق الأصل، أعدنا بما يتفق مع السياق.

إلى الحسا^(١)، وأمر أخاه تاج الملوك بوري على الناس، وأمره أن يسير بهم
يمنةً منه، ثم اجتمعوا بالسلطان بالأزرق^(٢) بعد أسبوع.

ووصل الخبر بظفر الملك المنصور عز الدين فرخشاہ — قال العماد:
ويلقب أيضاً معز الدين — بما غنمه أيضاً من بلاد العدو؛ وذلك أن الفرنج
لما سمعوا بمسير السلطان من مصر، ومعه خلق من التجار، اجتمعوا بالكرك
للقرب من الطريق، لعلهم ينتهزون فرصة، فيقتطعون من القافلة قطعة.
فخرج فرخشاہ من دمشق، واغتنم خلوة ديارهم، فأغار على بلاد طبرية
وعكا، وفتح دبورية^(٣)، وجاء إلى حبيس جلدك بالسواد، وهو شقيف^(٤)
يشرف على بلاد المسلمين، ففتحه، وأسكنه المسلمين، فبقي عيناً على
الكفار بعدما كان لهم، ورجع بالغنائم والأسرى مظفراً منصوراً، ومعه ألف
أسير، وعشرون ألف رأس من الأنعام. ثم وصل السلطان بصرى*، ودخل
دمشق سابع عشر صفر^(٥).

قال: وفي العشر الأول من ربيع الأول خرج السلطان، وأغار على بلاد
طبرية وبيسان*، والتحم بينهم القتال تحت حصن كوكب*، واستشهد جماعة

(١) سرد العماد أسماء البلدان والمنازل والمناهل ما بين الشام ومصر في قصيدة له،
انظرها ص ٦٩ — ٧١ من هذا الجزء.

(٢) الأزرق: ماء في طريق حاج الشام دون تيماء. «معجم البلدان»: ١٦٨/١.

(٣) دبورية: بلد قرب طبرية من أعمال الأردن. «معجم البلدان»: ٤٣٧/٢.

(٤) الشقيف: كلمة آرامية سريانية، تعني المغارة والكهف، والصخر الشاهق المشرف.

«معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية» ص ٩٧.

(٥) «سنا البرق»: ١٩٥ — ١٩٧.

من المسلمين، ولكن كانت الدائرة على الكافرين، ورجع السلطان بحمد الله ظافراً^(١).

وكتب بالمثال الفاضلي إلى الديوان: كان الخادم طالع بخروجه من مصر طالباً للغزاة المفروضة، والمسافة بين مصر والشام لمن يَرْفُقُ في المسير لا تقصر عن ثلاثين يوماً، فحشد الفرنج، ونزلوا بالكرك* على إزجاف بالمصاف، ولم يَزَلْ الخادم على مداومة الأعمال إلى أوساط الأعمال^(٢)، فَحَلَّ بها وشنَّ الغارة فأبعد، وأذكى النَّارَ فأوقد، وطلبَ الماءَ المحميَّ أَرْزَقَهُ بِأَزْرَقِهِمْ^(٣) فَأُورِدَ، وَسَفَكَ دمَ الخِصْبِ بالنَّارِ، وأخذَ فيها عدلُ السَّيْفِ الجارَ بالجار، وعلمَ أَنَّ الفرنجَ قد تسَلَّلُوا لَوَاذًا، وتعلَّلُوا بالحصون احتجازاً ولياذاً، وأنهم لا يقاتلون إلا في قُرَى محصنة، ولا يقاتلون إلا على نجاةٍ متيقنة، وسرَّحَ الخادم إلى تلك الدَّراري، واستنفر^(٤) لها من كلِّ فِرْقَةٍ منهم^(٥) طائفة، وساروا في طريقٍ على العدو غير خافية، ومنهم غير خائفة، وركب هو وَحِمِيَّةُ الإسلامِ الحامية^(٦)، التي تستنهضُ أرواحَ الكُفْرِ إلى نارِ الله الحامية،

(١) «سنا البرق»: ١٩٧. قلت: وبهذا الخبر تنتهي إحالتنا على «سنا البرق» نشرة النبراي، وسنحيل فيما يأتي على أصله «البرق الشامي» الجزء الخامس تحقيق د. رمضان ششن، المنشور في استانبول (١٩٧٩ م)، وسنرمز له بـ (ش)، وعلى نشرة د. فالح حسين، الصادرة عن مؤسسة شومان في عمان سنة (١٩٨٧ م)، وسنرمز لها بـ (ص). ويبدأ بخبر عزم السلطان على المسير إلى حلب، انظر ص ١١١ من هذا الجزء.

(٢) في (ك) إدامة.

(٣) الأعمال: بالكسر: للفكر، والأعمال — بالفتح — جمع، مفردها عمل، وهي الولاية أو المركز. «المعجم الوسيط»: ٦٣٤ / ٢.

(٤) الأزرق: السنان، جمعها: أسنة، وتسمى زرقاً للونها. انظر «اللسان» (زرق).

(٥) في الأصل: واستفز، والمثبت من (ك).

(٦) من هنا يبدأ اضطراب في أوراق الأصل، أعدناه إلى حاقٍ موضعه.

(٧) الحامية: الجماعة من الجيش التي تحمي البلد. «المعجم الوسيط»: ٢٠٠ / ١.

وسلك البلاد المؤدية أوديتها إلى سيول الشرك الطَّامية، وسيوف الضَّلال الدامية، فجثمو جثوم الكسير^(١)، وجَدَعُوا أنوف الأنف^(٢) جَدَعاً^(٣) قَصَرَ فيه رأي قصير^(٤). وجاز الخادم المسافة المقابلة لهم التي كانت تُجَارُ في يومٍ واحد في أيام، وأورد عليهم طيفَ الخوف غير لابس ثياب الأحلام، ويسَّر الله الوصول، ورقاب غُصْبَة الكُفَر تكاد تتوثب عليها رِقاقُها، وعيون الأعيان منهم قد قَيَّدَها للذُّلِّ إطراقُها^(٥).

وتوجَّه يوم الاثنين سابع شهر ربيع الأوَّل، ونَزَلَ أمام طبرية ليلة الثلاثاء تاسع عشر ربيع الأول، فجاءه الخبر بأنَّ الفرنج رحلوا في ليلٍ ركبوه جَمَلاً، ولَبَسُوهُ سِتْراً دون اللِّقاء مُسْبِلاً، وأصبحت الأطلابُ* الإسلامية طالبة الأُرْدُن، وأشرف عليهم المملوك فَرُخْشاه، وكان على مسيرة الإسلام، فما خرج منهم من أخرج كفاً، ولا تطرَّف منهم من أجال طَرْفاً، ولا [مَنْ] رَكَّض طَرْفاً^(٦)، ولم يَزَل الخادم مقيماً ينادي للخروج الصُّمَّ الذين لا يسمعون الدُّعاء، إلى أن طوى النِّهارُ مِلأَتَهُ، ومَدَّ عليهم كِلَاءَتَهُ^(٧)، فَإِنَّهُ رعى ما بينه

(١) في (ك) الأسير.

(٢) الأنف جمع، مفردُها الأنف، وهو الذي يأنف الضيم. «معجم متن اللغة» ١/ ٢١٤.

(٣) في الأصل: وجَدَعُوا أنوف جذوع الأنف جدعاً. والعبارة مضطربة، والمثبت من (ك).

(٤) قصير هو ابن سعد اللخمي، صاحب جذيمة الأبرش، ومنه المثل: «لا يطاع لقصير أمر»، وهو مثل يضرب في اتهام النصيح. انظر «المستقصى من أمثال العرب»: ٢٧٢/٢ - ٢٧٣، و«تاج العروس» (قصر)، وانظر قصته في «جمهرة الأمثال»: ٢٣٢/١ - ٢٣٦.

(٥) في الأصل: أطواقها، والمثبت من (ك).

(٦) الطَّرْف بالكسر من الخيل: الكريم والعتيق. «اللسان» (طرف)، وما بين حاصرتين من (ك).

(٧) أي حفظه وحراسته. «اللسان» (كلأ).

وبين مناسبة وجوههم وصحائفهم بسواده، ولأنَّ اللَّيْلَ يُدْعَى كافرًا فهداهم
 وخبأهم في فواده، وانبرى لهم من الممالك ذوو سهام، كلُّ رمية منها
 طعنة، وكلُّ أُنَّةٍ من قَوْسها تُجاوبها للْحَيْنِ أَنَّةٌ، فاستخرجوا ضمائر كنائهم،
 وقصدوا بها ضمائر ضغائنهم، فمرَّتْ كأن التوفيق يَقُودُها إلى حيث أَمَّتْ
 فأما ت، وطارت جَرَاداً ترعى زَرْعَ الحياة فَبَتَّتْ وما أبانت، ولم يروا مضاجعَ
 ذوات حَسَكٍ كمضاجع حَسَكُها السَّهَام، ولا ليلة هَمَّ ذات أحلام كليلة حُلْمُها
 يقطُّه الحِمَام، وأصابَتْ خيولهم صوابُها، وتعلَّقت نِصَالُهم بِدُهمها، فكانهم
 في ظُلُمَاتِها كواكِبُها، فلما انشقَّ الصُّبْحُ غَيْظاً من شِقَاق كُفْرهم، شُهِدوا
 نازلين من حِصْنهم الذي كانوا إليه آوين، وطالبي التباعِد عنه إلى حِصْنِ
 الطُّور الذي كانوا إليه ناوين، فساقَتْ إليهم أَطْلَابُ* المَيْسرة صُحْبَةُ المملوك
 فُرُخْشاه. وساق المملوك عمر^(١) من الميمنة طالباً لِحَوْمَةٍ^(٢) القتال، فرأوا
 الخُطَّةَ عليهم متضايقة، وشهادات البلاء إلى فتتهم متناسقة، وأنزل الله النَّصْرَ
 من سمائه على مطيعه في أرضه، ومنح نافلة الموهبة لمن قام في الجهاد
 بِفَرْضِهِ. وتَوَالَتْ من الفرنج حملاتُ أَلْجَاهم إليها الاضطرار لا الاختيار،
 وَثَبَتْ من دنا منهم من المسلمين من الأَطْلَاب، ولقوهم وَهْمُ الأعداء لقاءَ
 الأَحْباب، وتعانقت لغير الوداد فصارت أيديها أَوْشحة، وطارت إلى أقرانها
 فصارت أَرْجُلُ الخيلِ [لها]^(٣) أجنحة، وَصُرِعَتْ للفرنَج أبطالٌ وَخَيْالَةٌ،
 وَتَمَّتِ الحَمْلَةُ الإسلامية على من كان وراءهم من الرِّجَالَةِ، فأخذ القَتْلُ كثيراً
 وقليلاً ترك، وَفَرَّ رُوحُ الكافر من الجَسَد، وعلمت النار أَنَّهُ سلك، وألْجَاهم

(١) هو تقي الدين عمر بن شاهنشاه، أخو فروخشاه، وابن أخي صلاح الدين.

(٢) الحومة من القتال: أشد موضع فيه. «معجم متن اللغة»: ٢٠٧/٢.

(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

البلاء إلى حِصْنٍ يعرف بِعَفْرَبَلَا*، وَسَّعَ الْخَوْفُ مِنْهُ مَا هُوَ ضَيِّقٌ، وتعلَّق بالحياة منهم مَنْ هُوَ بِهِ متعلِّقٌ، ولم تنصرف صدورُ الخيلِ دونَ أَنْ اعتقلتْهم في سِجْنِهِ، وألزمتْهم به فصاروا قُرْطاً في أُذُنِهِ، وكان اليوم من الأيام التي اضطربت فيها نيرانُ الجحيمِ، ارتياحاً لمن قَدِمَها من أزواجِ الكُفَّارِ. وكان قائم الظَّهيرة في الغُورِ قد مَنَعَ من استتمام عَوْدَةِ الْمُغَارِ، ومورد الماء بعيدٌ من غريمه، والرَّيْئُ - ولو أنه من حميم - أَحَبُّ إلى المرء من حميمه، فمالت الجنودُ إلى المناهل متفرِّقة عليها، ومنصرفَةً إليها، وحاقَّةً بها من حوالِها، وأذعنَ الكُفَّارُ بِالْحَضَرِ والتفادي من الإصحارِ، والاعتماد على المطاولة والاضُّجارِ، والاستعصام بما لا يطاق من أنفاس الهجير الحِرَارِ. وبات الخادِمُ والمسلمون على الحِصْنِ المذكور الذي باتوا به نازلين، قد حَقَّقُوا من أحوال اللِّقَاء ما كانوا به جاهلين، وفعل الله سبحانه وتعالى في هذه النَّوْبَةِ ما عَوَّاهُ مُسْفِرَةٌ عن المُرَادِ، ودلائِلُهُ مُحَقِّقَةٌ لقوله تعالى ﴿لَا يَغْرَنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(١) وَأَنَّ الْكُفْرَ مُذْ قَامَ قَائِمُهُ، وَالشَّامُ مَذْ حَلَّهُ ظَالِمُهُ، لم يَعْبُرْ أَحَدٌ من ولاية الأمر هذا الحدَّ إلا على حين غَفْلَةٍ من أهله، ولم يواجه الكُفْرَ وهو مجتمعٌ في خَيْلِهِ فَضْلاً عن رَجْلِهِ، ولم يَهْدِدِ العدوُّ بضرب مصافِّ إلا واستكانت العزائم لتهديده، ولم يُجْمَعْ أمره على اللِّقَاء إلا صرفُهُ عنه الأمر بصرفه بذهبه لا بحديده، فأما الآن فقد أَنَسَ المسلمون بحزبه، وتمرَّنُوا بحربه.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٦.

فصل

في مسير السُّلطان إلى بلاد المشرق مرة ثانية

قال العماد^(١): ثم إنَّ السُّلطان عَزَمَ على المسير إلى حلب، وبلغه أنَّ المَوَاصلة كاتبوا الفرنج، ورَغَّبُوهم في الخروج إلى الثغور، ليشغَلُوا السُّلطانَ عن قصدِهم. فتوجَّه على سَمْتِ بَعْلَبَك، وخَيَّم بالبقاع، وكان قد واعد أسطول مصر أن يتجهَّز إلى بلاد السَّاحل، فبلغه الخبر أنه وصل إلى بيروت، فبادَره السلطان بعسكره جريدة^(٢) قبل أن يفوت، فلما وصل رأى أنَّ أمر بيروت يطول، وكان قد سبى الأسطول منها وسلَب، وظَفَرَ من غنيمتها بما طَلَب، فأغار السُّلطان على تلك البلاد، ورجع، وأعاد فَرُخشاه إلى دمشق، ورحل إلى بعلبك، ومنها إلى حمص، فخرج الفقيه المذهب عبد الله^(٣) بن أسعد بن الدَّهَّان، وله في السُّلطان مدائح، منها قصيدة، أولها:

أَعْلِمْتُ بَعْدَكَ وَقَفْتِي بِالْأَجْرَعِ^(٤) وَرَضِي طُلُوكِ عَنْ دُمُوعِي الْهُمُوعِ^(٥)
مَطَرْتُ غَضِي فِي مَنَزِلِكَ^(٦) فَذَاوِيَا^(٧) فِي أَرْبُعِ^(٧) وَمُؤَجَّجَا فِي أَضْلُعِ

(١) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٠٧ من هذا الجزء.

(٢) الجريدة: خيل لا رجالة فيها. «معجم متن اللغة»: ٥٠٤/١.

(٣) في الأصل: عبيد الله، والمثبت من (ك)، وانظر ص ٤٠٢ - ٤٠٣. في الجزء الأول، وص ٣٥٥ من الجزء الثاني، وص ٥٧ من هذا الجزء.

(٤) الأجرع: المكان الواسع الذي فيه حزونة وخشونة، وهو كثير الذكر في أشعار الجاهلية وصدر الإسلام. «اللسان» (جرع).

(٥) همع الدمع: سال. «اللسان» (همع).

(٦) أي جمر الغضى، ويريد بمنزلها: دارها وقلبه.

(٧) أَرْبُع جمع، مفردها رُبْع، وهو الموطن. «معجم متن اللغة»: ٥٣٥/٢.

هل يعلمُ المتحمِّلونَ لِنُجْعَةٍ^(١)
دَغْنِي وما شاءَ التلذُّذُ والأسى
لا قَلْبَ لي فَأَعْيِ المَلامَ فَإِنِّي
قُلٌّ لِلْبَخِيلَةِ بالسَّلامِ تورُّعاً
وبيديعةِ الحُسْنِ التي في وَجْهها
ما بالُ مُعْتَمِرٍ بِرَبِّعِكَ دائِياً
ومنها:

ووعدتني إنْ عُدْتُ عَوْدَ وِصالنا
هل تَسْمَحِينِ بِبَذْلِ أَيْسَرِ نائلٍ
فَتَقْنِي أَنِّي بِحَبِّكَ مُغْرَمٌ
ومنها:

فَسَقَى الرَّبِيعُ^(٢) الْجَوْنَ^(٣) رَبْعاً طالما
ولو اسْتَطَعْتُ سَقَيْتُهُ سَبَلَ^(٤) الْغِنَى
يَيْدِي فَتَى لو أَنَّ جُودَ يَمِينِهِ
فَإِذَا تَبَسَّمَ قالِ يا جوداً نَدَفِقُ

أَنَّ المَنازِلَ أَخَصَبَتْ مِنْ أَذْمَعِي
وَأَقْصَدَ بِلَوْمِكَ مَنْ يُطِيعُكَ أَوْ يَعِي
أَوْدَعْتُهُ بِالْأَمْسِ عِنْدَ مَوْدَعِي
كَيْفَ اسْتَبَحْتَ دَمِي وَلَمْ تَتَوَرَّعِي
دُونَ الوجوهِ عِنايَةً لِلْمُبْدِعِ
يَقْضِي زِيَارَتَهُ بِغَيْرِ تَمَثُّعِ

هيهات ما أَبْقَى إلى أَنْ تَرْجِعِي
أَنْ اشْتَكِي وَجْدِي إِلَيْكَ وَتَسْمَعِي
ثُمَّ اضْنَعِي ما شِئْتَ بِي أَنْ تَصْنَعِي

أَبْصَرْتُ فِيهِ الْبَذَرَ لَيْلَةً أَرْبَعَ
مِنْ كَفِّ يَوْسُفَ^(٥) بِالْأَذَرِّ الْأَنْفَعِ^(٦)
لِلْغَيْثِ لَمْ يَكُ مُمَسِّكاً عَنْ مَوْضِعِ
فَيْضاً^(٧) وَيَا سُحْبَ النَّدى لَا تُقْلِعِي^(٨)

(١) النجعة: طلب الكلاء. «اللسان» (نجع).

(٢) الربيع: المطر الذي يكون في الربيع. «اللسان» (ربيع).

(٣) الجون من أسماء الأضداد، ويقصد به هنا الأبيض. «اللسان» (جون).

(٤) في الأصل: سيل، والمثبت من (ك). والسبل — بالتحريك — المطر المسبل. «اللسان» (سبل).

(٥) أي صلاح الدين فهو كما هو معروف يوسف بن أيوب.

(٦) الأنفع: أي الذي يروي ويذهب العطش. «اللسان» (نفع)، وفي الأصل: الأنفع، والمثبت من (ك).

(٧) في (ك) فينا.

(٨) أي لا تمسكي. «اللسان» (قلع).

وإذا تَنَمَّرُ^(١) قال يا أرضُ أَرْجُفِي بالصَّاهِلَاتِ ويا جبالُ تَزْغَرِي
وإذا علا في المَجْدِ أعلى غايةٍ قَالَتْ له الهمُّ الجِسامُ تَرْفَعِ
كم وَقَفَةً لَكَ في الوَغَى محمودةٍ أبدأً وكم جُودٍ حميدِ المَوْقِعِ
والنَّاسُ بَعْدَكَ في المكارمِ والنَّدَى^(٢) رجلانِ إما سارقٌ أو مُدَّعي^(٣)

قال: ثم رحل السُّلْطَانُ إلى حماة، واستصحب معه ابنَ أخيه
تقي الدين، فلما قَرُبَ من حلب أقبل مظفر الدين كوكُبري بن علي
كُوجك^(٤)، صاحب حرَّان* حينئذٍ، فاجتمع بالسُّلْطَانِ، وصار^(٥) في خدمته
من جُمْلَةِ الأعوان، وأشار عليه أن يعبر الفرات ويحوز ما وراءها^(٦)، ويترك
حلب إلى ما بعد ذلك لئلا تشغله عن غيرها. فاستصوب السُّلْطَانُ رأيَه وعبر
الفرات^(٧).

وقال القاضي ابن شدَّاد: نزل السُّلْطَانُ على حلب في ثامن عشر
جُمادى الأولى سنة ثمانٍ وسبعين، فأقام ثلاثة أيام، ورحل في الحادي
والعشرين منه يطلب الفرات، واستقرَّ الحال بينه وبين مُظَفَّرَ الدين بن زين

(١) أي غضب. «اللسان» (نمر).

(٢) في (ك) والعلی.

(٣) انظر «البرق الشامي» ٥/ش ٢-٦، ص ١٧-٢٣، وانظر القصيدة في «ديوانه»
ص ٢٥-٣٤ مع اختلاف في بعض ألفاظها.

قال العماد: وهذه القصيدة من أول مدائحه فيه، وإنما مدحه في هذه التوبة
بالحائثة التي سبقت، فاتفق إيرادها على الجملة التي اتفقت.
قلت: انظر ص ٥٧ من هذا الجزء.

(٤) انظر ص ٧٨-٧٩ من هذا الجزء.

(٥) في الأصل: وسار، والمثبت من (ك) و(ب).

(٦) في الأصل: ويجوز إلى ما وراءها، والمثبت من (ك).

(٧) «البرق الشامي» ٥/ش ٦-٧، ص ٢٣-٢٤.

الدين، وكان صاحبَ حَرَآن، وكان قد استوحش من جانب المَوْصِل، وخاف من مجاهد الدين^(١)، فالتجأ إلى السُلطان، وعبر إليه إلى قاطع الفُرات، وقَوَّى عزمه على البلاد، وسَهَّل أمرها عنده، فعبر الفرات، وأخذ الرُّها* والرَّقَّة ونَصِيبين* وسَرُوج*، ثم شَحَنَ على الخابور، وأقطعه^(٢).

وقال ابنُ أبي طي: في أوَّل السنة أراد مظفَّر الدين بن زين الدين — وكان إليه شِحنكية* حلب — الاستيلاء على قلعة حلب، بأن يهجمها، فلم يتمكَّن، وظهر أمرُه، وبعد هذه الواقعة اجتمع الأخوان عِزُّ الدين وعماد الدين على الرَّقَّة، وتحالفا على بساطٍ واحد، وسلَّم عمادُ الدين ما كان بيده^(٣) من سِنجار* وغيرها إلى عِزِّ الدين، وسلَّم عِزُّ الدين إليه حلب، فسار إليها، ودخلها. فخرج مظفر الدِّين عنها، وصار إلى الفُرات، فلما اتصل به قَصْدُ السلطان حلب سار إلى خدمته، واجتمع به على جباب التُّركمان، وأشار على السُلطان بعبور الفرات، والاستيلاء على بلاد الشَّرْق، وتأخير أمر حلب، ففعل. ورحل عن حلب بعد أن أقام عليها ستة أيام، وأقام على تل خالد* ثلاثة أيام، ثم رحل إلى البيرة*، وفيها شهاب الدين محمد بن الياس الأُرْتُقي^(٤)، فنزل إليه، وقَبَّل الأرض بين يديه، وسأله الصُّعود إلى قلعة البيرة، فأجابَه، وقَدَّم له مفاتيح القلعة، فردَّها إليه^(٥)، ووعدَه باستخلاص ما كان صاحب مارِدين* غلبه^(٦) عليه.

(١) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٤٠ من الجزء الثاني.

(٢) «النوادر السلطانية» ٥٦ — ٥٧.

(٣) في (ك) ما كان معه.

(٤) ولي البيرة بعد وفاة أبيه، وذلك سنة (٥٧٠ هـ)، انظر ص ٣٨٩ من الجزء الثاني.

(٥) كان السلطان قد كاتب الملوك أنه من جاءه مستسلماً سُلِّمَت بلاده إليه على أن يكون

من أجناد السلطان وأتباعه، انظر ص ١٢٢ من هذا الجزء.

(٦) في الأصل: ردَّه، والمثبت من (ك) و(ب).

ورحل السُّلطان إلى سَرُوج*، فنزل إليه صاحبُها ابن مالك مستأمنًا، فأعادَه إلى بلدِه، وراسل صاحب ماريدين في ردِّ ما كان تغلَّب عليه من أعمال البيرة*، ففعل. ثم أخذ الرُّها* ثم الرِّقَّة^(١)، ثم سلم الرُّها إلى ابن زين الدِّين، والرِّقَّة إلى صاحب الرُّها، لأنَّه سأل أن يكون في خدمة السُّلطان.

ومن كتابِ فاضلي عن السُّلطان إلى عز الدين فرُّخشاہ يعلمه بالحال، وفي آخره: وَلْتَعَجَلْ بحمل ما هناك من الأموال، فكلما فتحت البلادُ أبوابها، قد فتحت المطاعمُ أفواهها، واستوعبتِ الخزائنُ إخراجاً وإنفاقاً، واستنفدتِ الحواصلُ إعطاءً وإطلاقاً، وقدمنا على بحرٍ لا يسدُّه إلا بحر، وعلى أيدي إن كان بها الغنى ففي أنفُسِها الفقر.

ومن كتابِ آخر إلى العادل: يعلم مقدار الحاجة إلى الإنفاق، وكثرة الخَرْج الذي اشترك فيه أهل الآفاق، وأنَّه متى نَضَبَتِ الموادُ وقفتِ الأمور التي قد شارفتْ نهاياتِها، وتفرقتِ الجموعُ التي تناذرتِ^(٢) الأعداءُ نكاياتها، وما دون تملكِ البلاد إلا الوصول إليها، والتَّزول عليها.

قال العماد: وقال مظفر الدِّين للسُّلطان: ما زلتُ شوقاً إليك في حرَّان حرَّان^(٣)، وإلى الرِّي من وزدٍ خِدمتك ظمآن، وهي لك مبذولة، وبأوليائك

(١) كانت الرقَّة إقطاعاً لقطب الدين ينال بن حسان المنبجي، وكان قد وليها سنة (٥٧١ هـ)، وانظر ص ٤٠٥ من الجزء الثاني، وص ١٢٣ من هذا الجزء.

(٢) تناذر القوم، خوف بعضهم بعضاً. «اللسان» (نذر).

(٣) حران الأولى: بلد في الجزيرة، بينها وبين الرُّها يوم، وقد سلف ص ١١٣ من هذا الجزء أن مظفر الدين كوكبري كان صاحبها حينئذٍ. وحران الثانية: أي شديد العطش، وهي هنا كتابة عن شدة الشوق. انظر «اللسان» (حرر).

من أهل الدين والدنيا مأهولة، والرُّها لا يَعْسُرُ^(١) أمرها، والرَّقة لرقك وبعض حَقِّك، والخابور في انتظار خبرك، ودارا^(٢) دارك، ونَصِيبين* نصيبك، ومُلْكُ المَوْصِل مُوصلك إلى المُلْك، وما هذا أوان الوَنَى، فاذنُ إلينا، وكلُّ بعيدٍ قد دنا.

قال: ووصل البحر^(٣) إلى الفرات، وخيَّم عليها من غربي البيرة*، ومُدَّ الجسرُ، وكانت البيرة قد طمع فيها صاحبُ ماردِين*، واستولى على مواضع من أعمالها، فلما سمع بالسُّلطان تخلَّى عنها، فأعادَ إليها صاحبها شهاب الدين محمد بن إلياس الأُرْتُقي^(٤).

٣١/٢

وكتب السُّلطان بالمثال الفاضلي إلى الديوان عند عبور الفرات كتاباً فائقاً طويلاً، يقول فيه: خَدَمُ الخادِم متواليةٌ إلى الأبواب الشريفة — خَلَدَ الله سُلْطَانَهَا — شارحاً لأحواله، ومعتداً^(٥) بها من صالح^(٦) أعماله، ومتوقفاً من الأجوبة عنها ما يهيء له من أمره رَشْداً، ويفرِّقُ الأعداء إذ كادوا يكونون عليه لِبْداً^(٧)، فَإِنَّ الآراءَ الشريفة لو لم تفصح عنها الإنشاءات وتتضمنها الإجابات والابتداءات، لأفصحت عنها موالاةُ الخادم التي استفتحتِ الدَّوْلَةَ بعقائلِ الفتوح قبل خُطْبَتِها، وردَّتِ الأسماءَ الشريفة إلى أوطانها من المنابر

(١) في الأصل: يعز، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) دارا: مدينة من أعمال الخابور قرب قرقيسياء. «معجم البلدان»: ٤٢٤/٢.

(٣) يعني السلطان صلاح الدين.

(٤) «البرق الشامي» ٥/ش ٦-٧، وص ٢٤-٢٥، وانظر ص ١١٤-١١٥ من هذا الجزء.

(٥) في (ك) معيداً.

(٦) في الأصل: مصالح، والمثبت من (ك).

(٧) أي مجتمعين بعضهم على بعض، واحدها لِبْدَةٌ. «اللسان» (لبد).

بعد طول غزبتها^(١)، فتلك الأعمال كالهجرة، ولكل امرئ ما هاجر إليه^(٢)،
وَبَيْتُهُ الْمَرْءُ^(٣) ثَوْبُهُ، فلا يلبس إلا ما خَلَعْتَهُ النِّبَّةُ عليه.

وكتابُ الخادمِ الآن من البيرة* بعدما قطع الفرات^(٤)، وكان مَنْ
لا تُقَرَّبُ عليه العزائمُ ما هو بعيد، ولا يُلقَى السَّمْعُ وهو شهيد، يظنُّ أنَّ
ساكنَ النَّيلِ يحولُ الفراتُ بينه وبين قَصْده، وأنه يَنْسُو عزيمة رأيه إذا ذَكَرَ
طَوْلَ مُدَّتِهِ وهَوْلَ مَدَّةِ، وكيفما كان هذا المَخْرَجُ المُخْرِجُ فقد أَحَسَّنتُ إلى
الخادمِ إِسَاءَتُهُ إِلَيْهِ، وَقَرَّبَهُ مِنْ مَحَلِّ دَارِ السَّلَامِ بِلِ الْإِسْلَامِ، فما أَكْثَرَ ما قال
السَّلَامُ عليه، واستشرف جَنَانَهُ مِنْ جَنَابِهِ أَمْنًا وَدُغْرًا، أَوْجَبَتْهُمَا المَوَالَاةُ
والمهابة، وطالعت عَيْنُهُ أَنْوَاءَ وَأَنْوَارًا تُنْسَبُ إِلَى بَرَكَاتِهَا كُلِّ سَحَابَةٍ، وكاد
ينزل عن الشُّرُوحِ والأَكْوَارِ^(٥)، ويقبل الثَّرَى لِأَجْلِ شَرَفِ الْجَوَارِ، وتستنفد
غُلَّتُهُ مَاءَ الْفِرَاتِ، لَأَنَّهُ يَمُرُّ بِتِلْكَ الدِّيَارِ، ويقرأ من صفائه صفاء تلك الخواطر
العظيمة الأخطار، ومن عذوبته عذوبة ذلك الإِنْعَامِ، الذي هو أَعْمُ وَأَغْمَرُ
لِلْأَقْطَارِ^(٦) مِنَ الْقَطَارِ^(٧)، وتنور دار الإسلام من منزلته فأدناه النَّظَرُ الْعَالِي،
وَأَسْفَلَتُهُ آمَالُهُ حَوَزَ الْفَوْزِ بِمَا قَرَّبَهُ نَجِيًّا مِنْ قُرْبِهَا وَالْأَمَالُ أَمَالِي، وَاللَّهُ تَعَالَى

(١) يشير إلى فتحه مصر، وأخذها من العبيدين، ثم خطبته للخلفاء العباسيين على منابرهما. انظر ص ٤٦، ١٨٩ وما بعدهما من الجزء الثاني.

(٢) في (ك) ولكل ما هاجر إليه.

(٣) في (ك) المؤمن.

(٤) عبارة: بعدما قطع الفرات، ساقطة من (ك).

(٥) الأكوار جمع، مفردا الكور — بضم الكاف — وهو رحل البعير، أو الرحل بأداته.
«معجم متن اللغة»: ١٢٢/٥ — ١٢٣.

(٦) في الأصل: الأقطار، والمثبت من (ك).

(٧) القطار جمع، مفردا قطر، وهو المطر. «اللسان» (قطر).

يُشَرِّفُ أَرْضاً هُوَ واطِئُهَا، ويرعى سُرُوجاً هُوَ كَالثَّهَا^(١) وَيُسْعِدُ بِهِ أُمَّةً هُوَ بَارِئُهَا^(٢)، طَاعَةً لِمَنْ هُوَ بَارِئُهَا.

ولما تحقَّق الخَادِمُ أَنَّ المَوَاصِلَةَ قَدْ واصلوا الفرنج موَاصِلَةً أَخْلَصُوا فيها الضمائر، ولم يستطيعوا فيها كِتْمَان السَّرَائِر، وَخَصَّمَتْهُمْ خُطُوطُ الأَيْدِي المَتَمَسِّكَةِ بِعِصَمِ الكَوَافِر، وعقدوا معهم عَقْداً شَهِدَهُ مَنْ هُوَ حَاضِرُهُ، وَنَقَلَهُ إِلَى مَنْ سَمِعَهُ مَنْ هُوَ نَازِرُهُ، وَكَانَ عَقْدُهُمْ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً، وَالمُسْتَقَرَّ لَهُمْ فِي كُلِّ سَنَةٍ عَشْرَةَ آلَافِ دِينَارٍ، عَلَى أَنْ تُسَلِّمَ ثُغُورُ المُسْلِمِينَ إِلَى الكُفَّارِ، مِنْهَا: بَانِيَّاسُ* وَشَقِيفُ تَيْرُونُ* وَحَبِيسُ جِلْدِكِ^(٣) وَأَسَارَى الْفَرَنْجِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ بِأَيْدِيهِمْ، وَفِي كُلِّ بَلَدٍ يَسْتَرْجِعُونَهُ مِنَ الْخَادِمِ بِمُسَاعَدَةِ الْفَرَنْجِ. وَلَمَّا تَمَّ لَهُمْ هَذَا الْعَقْدُ، وَحَمَلُوا إِلَى الْفَرَنْجِ ذَلِكَ التَّقْدِ، ظَنُّوا أَنَّ الْحَقَّ يَجَادِلُهُ الْبَاطِلُ فَيَدْحَضُهُ، وَأَنَّ يَدَ الْكُفْرِ تَنْبَسِطُ إِلَى الْإِسْلَامِ فَتَقْبِضُهُ، وَأَنَّ الْخَادِمَ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ إِلَّا بِأَنْ تَكُونَ الْفَرَنْجُ سِلْمًا، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْسِمَ الْعَسَاكِرُ فَيَجْعَلَ بِإِزَاءِ الْفَرَنْجِ قِسْمًا وَبِإِزَائِهِمْ قِسْمًا، وَعَمَلُوا عَلَى هَذَا الْوَهْمِ، وَبَنَوْا عَلَى هَذَا الْحُكْمِ، وَاسْتَنْهَضُوا الْفَرَنْجَ عَلَى تَنَاقُلِ الْخَطْوَةِ، وَاسْتَخْرَجُوهُمْ عَلَى مَا بِهِمْ مِنْ كُلُومٍ^(٤) الْغَزْوَةِ بَعْدَ الْغَزْوَةِ، فَتَحَامَلَتْ أَرْجُلُ الْكُفْرِ عَلَى ظَلْعِهَا^(٥)، وَخَرَجَتْ عَلَى طَمْعِهَا إِلَى قَرْعِهَا^(٦)، وَأَنْفَقَتْ فِي رَجَالِهَا^(٧) مَا لَا حَمْلُوهُ إِلَيْهِمْ

(١) فِي الْأَصْلِ: وَيَرْعَى سُرُوجاً هُوَ مَالِئُهَا، وَيَرْعَى سُرُوجاً هُوَ كَالِثَّهَا، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (ك).

(٢) فِي الْأَصْلِ: بَارِئُهَا، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (ك).

(٣) سَلَفُ ص ١٠٦ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ.

(٤) كَلُومُ جَمْعٌ، مَفْرُودُهَا الْكَلْمُ: الْجَرْحُ. «اللسان» (كَلِم).

(٥) الظَّلْعُ: الْعَرَجُ. «اللسان» (ظَلْع).

(٦) عِبَارَةٌ: إِلَى قَرْعِهَا، سَاقِطَةٌ مِنْ (ك). وَالْقَرْعُ هُوَ الضَّرْبُ، وَمِنْهُ الْقِرَاعُ وَالْمُقَارَعَةُ:

الْمُضَارَبَةُ بِالسَّيْفِ. «اللسان» (قَرْع).

(٧) فِي الْأَصْلِ: رَجَالُهَا، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (ك).

جَمًّا، وَجَرَّتْ إِلَى الْإِسْلَامِ جَيْشًا جَهَّزَهُ مِنْ يَدَّعِي الْإِسْلَامِ لَفْظًا وَفَارِقَهُ حُكْمًا، وَتَوَاعَدَ الْمَوَاصِلَةَ مَعَ الْفَرَنْجِ لِيَطْلُبُوا وِلَايَةَ الْخَادِمِ مِنْ جَانِبٍ، وَيَطْلُبُهَا الْفَرَنْجُ مِنْ جَانِبٍ، وَنَظَرُوا فِيمَا يُوصِلُ الْمَسَاءَةَ إِلَى الْخَادِمِ، وَلَمْ يَنْظُرُوا لِلْإِسْلَامِ فِي الْعَوَاقِبِ، فَوَصَلَ الْمَوَاصِلَةَ إِلَى نَصِيبِينَ*، مُجِدِّينَ مُخْفَلِينَ^(١)، وَحَرَّكُوا الْفَرَنْجَ لِلخُرُوجِ إِلَى الشَّامِ مَتَطَرِّفِينَ^(٢) وَمَتَوَعِّلِينَ، فَلَا جَرَمَ أَنْ أُمَرَاءَ جَانِبِهِمْ^(٣) وَخَوَاصَّ صَاحِبِهِمْ لَمْ يَسْغَهُمُ الْمُرُوقُ مِنَ الدِّينِ، وَلَا الْخُرُوجُ عَنْ زُمرَةِ الْمُوحِدِينَ، فَأَرْضَوْا اللَّهَ بِإِسْخَاطِهِمْ، وَأَشْفَقُوا عَلَى دِينِهِمْ إِشْفَاقًا دَلَّ عَلَى تَحَرُّزِهِمْ لَهُ وَاحْتِيَاطِهِمْ، فَاتَّبَعُوا الْحَقَّ وَسَلَكُوا سَبِيلَهُ، وَرَفَعَ لَهُمُ الْهُدَى مَنَارَهُ، فَاقْتَفَوْا دَلِيلَهُ ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(٤) فَاسْتَعَانَ الْخَادِمُ عَلَيْهِمُ بِاللَّهِ الَّذِي اسْتَعَانُوا عَلَى دِينِهِ بِأَعْدَائِهِ، وَلَمَّا رَأَى أَنَّهُمْ قَدْ أَمَلُوا النَّصْرَ مِنْ أَرْضِهِمْ أَمَلَهُ مِنْ سَمَائِهِ، فَارْتَبَّ الْخَادِمُ فِي رَأْسِ الْمَاءِ بِدَمَشَقٍ بِإِزَاءِ الْفَرَنْجِ الْمَمْلُوكِ فَرُخْشَاهُ ابْنَ أَخِيهِ، وَأَبْقَى عَسْكَرَ الشَّامِ وَحَامِيَّتَهُ فِيهِ، وَاسْتَنْهَضَ أَخَاهُ مِنْ مِصْرَ إِلَى مَا يَلِيهِ مِنْ بِلَادِ الْكُفْرِ، فَنَهَضَ، وَقَامَ لِلْخَادِمِ^(٥) بِمَا أَقَامَهُ لَهُ وَلِلَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ بِمَا فَرَضَ، وَسَارَ الْخَادِمُ بِالْعَسْكَرِ الْمِصْرِيِّ إِلَى هَذَا الْجَانِبِ الَّذِي هُوَ الْآنَ^(٦) فِيهِ، وَكَانَ أَيْسَرُهُ يَكْفِيهِ، وَتَنَاقَلَ فِي الطَّرِيقِ انْتِظَارًا لِأَن يَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا،

(١) أَيِ مُجْتَمِعِينَ مُحْتَشِدِينَ. «اللسان» (حفل).

(٢) فِي الْأَصْلِ: مَتَطَرِّقِينَ، وَالْمُثَبِّتُ مِنْ (ك).

(٣) إِشَارَةٌ إِلَى انْحِيَاظِ مَظْفَرِ الدِّينِ كَوَكْبَرِيِّ إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ. انْظُرْ ص ١١٣ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ.

(٤) سُورَةُ الْمَجَادَلَةِ، آيَةٌ: ٢٢.

(٥) فِي الْأَصْلِ: الْخَادِمُ، وَالْمُثَبِّتُ مِنْ (ك).

(٦) الْآنَ: سَاقِطَةٌ مِنْ (ك).

وَيُفَرِّجُوا عَنِ الْوَلَايَةِ أَيْدِيَ اغْتِصَابِهَا، وَتَعْتَذِرُ إِلَى السَّيْفِ أَلْسِنَةُ تُشْفِقُ عَلَى رِقَابِهَا، فَأَبَوْا إِلَّا الْإِبَاءَ، وَرَأَوْا الْمُلْكَ إِرْثًا مَا ادَّعَوْا فِيهِ تَقْلِيدَ الْخُلَفَاءِ بِلِ الْآبَاءِ.

ولما قَرَّبَ الخادم من الْفَرَاتِ، وَصَلَ إِلَيْهِ صَاحِبُ حَرَّانَ* ابْنُ زَيْنِ الدِّينِ عَلِيِّ كُوجَكِ، مَقْدَمٌ عَسْكَرُهُمْ، وَابْنُ أَمِيرِ مَعْشَرِهِمْ، وَكَذَلِكَ صَاحِبُ سَرُوجَ* وَصَاحِبُ الْبِيرَةِ*، وَكُلٌّ بِيَدِهِ مِفَاتِيحُ بَلَدِهِ، وَأَمَامَهُ أَمَانُ الْخَادِمِ لَهُ، قَدْ اسْتَبَدَّلَهُ مِنْ مَقْلُدِهِ، وَوَرَاءَهُ عَشْكَرُهُ عَلَى كِمَالِ عَدَدِهِ وَعُدَدِهِ، وَتَوَالَتْ كُتُبُ أَمْرَائِهِمُ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ إِقْطَاعَاتِهِمْ خَدَمًا وَمَصَانِعَاتٍ، وَرِعَايَاهُمْ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ أَمْوَالَهُمْ جَنَائِيَاتٍ وَمَقَاطِعَاتٍ، وَمَكُوسًا وَعُشُورًا وَاحْتِكَارَاتٍ، ٣٢/٢ يَرْغَبُونَ إِلَى الْخَادِمِ فِي الْإِنْفَازِ، وَيَحْثُونَهُ فِي الْمَسِيرِ عَلَى الْإِغْذَاذِ^(١)، وَيَشْكُونَ أَنَّهُمْ مَعَ جَوَارِ دَارِ الْخِلَافَةِ الْمُعْظَمَةِ، لَا يُسَلِّكُ فِيهِمْ سُنَّتَهَا، وَلَا يُقْتَنَفَى فِيهِمْ شَرَائِعُهَا وَسُنَّتُهَا، وَنُمِّيَ إِلَى الْخَادِمِ مِنْ تَفَاصِيلِ الْمَغَارِمِ الَّتِي تُلْزِمُ الْفَرِيقَيْنِ، وَيُعْذَلُ بِهَا عَنْ أَقْصَدِ الطَّرِيقَيْنِ، مَا يَرُوعُ السَّامِعُ وَيُسْمَعُ الرَّائِعُ^(٢)، وَيُسَجَّلُ عَلَيْهِمُ بِالْخِلَافِ، وَيَشْهَدُ لَهُمُ بِالْإِنْحِرَافِ، لِأَنَّهُمْ إِنْ ادَّعَوْا تَقْلِيدًا فَقَدْ نَقَضَهُ كَوْنُهُمْ ابْتَدَعُوا وَمَا اتَّبَعُوا، وَنَقَضُوا وَمَا افْتَرَضُوا^(٣)، وَمَثَلُوا بِالْحَقِّ وَمَا امْتَثَلُوا، وَأَمَرُوا بِكَفِّ الْأَيْدِي وَقَدْ بَسَطُوهَا، وَبِأَخْذِ الْأَمْوَالِ مِنْ حِلِّهَا وَقَدْ خَلَطُوهَا، وَبِرِعَايَةِ أُمَّةِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ أَسْخَطُوهَا فِيهَا وَأَسْخَطُوهَا. وَابْنُ الدَّعْوَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ مَنْ رَعَاهَا لَا مَنْ ادَّعَاهَا، وَالْعُهُودُ وَصَايَا وَمَا الْأَوَّلَى بِهَا مَنْ سَمِعَهَا بِلِ مَنْ وَعَاهَا، وَأَيُّ عَهْدٍ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَأَيُّ وَلَايَةٍ

(١) الْإِغْذَاذُ: الْإِسْرَاعُ فِي السَّيْرِ. «اللسان» (غذذ).

(٢) أَيُّ الْمَتْرُوعِ، مِنَ الرُّوْعِ وَهُوَ الْفَزَعُ. «اللسان» (روع).

(٣) عِبَارَةٌ: وَنَقَضُوا وَمَا افْتَرَضُوا، سَاقِطَةٌ مِنْ (ك).

لمأمورٍ بأن يجمع أهلَ الفرقة ففرَّق أهلَ الجماعة، فالجُنْدِي تُوكل الأرضُ باسمه ولا شيء بيديه، والعاميُّ يرفع إلى السماء استغاثة^(١) ما لا يُمهل الله عليه، ولقد تعجَّب الخادم من إسفاف الأنفس الغنية إلا أنها الفقيرة^(٢)، والارتفاق بتلك الطَّعمِ الجليلة وهي على الحقيقة الحقيمة ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ﴾^(٣) الآية.

هذا، إلى طامةٍ أخرى لا تَقَرُّ عليها الجُنُوب، ولا تَدُرُّ عليها الخُلُوب، ولا ينام على سهرٍ بارقها وإن كان الخُلُوب؛ وهو أنَّ الخادم بلغه أنهم كاتبوا جهةً من الجهات التي الدولة منحرفة عنها، وبدلوا الطَّاعة لها وقد أُمرُوا بالامتناع منها، وهذا نصٌّ في الخلاف لا يدخله التأويل، وقولٌ قد أحاط به العلمُ فلا يَخْتَلِجُهُ التَّقْوِيل، وكلُّ صغيرةٍ من هذه الكبائر، وكلُّ واحدٍ من هذا الجمع المتكاثِر، يَنْقُضُ الولاية وَيَجْرَحُ العَدَالَةَ، وَيَسْلُبُ الرُّشْدَ وَيُثَبِّتُ الضَّلَالَةَ، وَيُمْضِي نِيَةَ الولي^(٤) فيما هو له ماضٍ، وَيَبْعَثُ عَزْمَهُ فيقضي ما هو قاضٍ، وَيُسَخِّطُهُ^(٥) وكيف لا يسَخِّطُ والمَوْلى غيرُ راضٍ، ويغيظه بما لا عُذَرَ له لمغتاضٍ منغاض. وما أنهى الخادمُ مما اتصل به الأوائِل والأطراف، وما عَوَّل إلا على ما صَحَّحتَه النَّفْسُ دونَ ما خَيَّلَه الإِرْجاف، وإذ قد ساق الله إلى هذه الولاية حَظَّها من مَعْدِلَةٍ^(٦) كان الزَّمانُ بها طويلاً مَطْلُهُ، وأنشأها

(١) في الأصل: الاستغاثة، والمثبت من (ك).

(٢) في الأصل: فقيرة، والمثبت من (ك).

(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٥، وتتمتها ﴿هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾.

(٤) في الأصل: الوالي، والمثبت من (ك).

(٥) من هنا حتى قوله: ويجلى ضرها. ساقط من (ك).

(٦) المعدلة: العدل. «معجم متن اللغة» ٤٧/٤.

سحابُ إحسانٍ كان بعيداً عليها هَطلُهُ، فقد كُفِيتِ الخواطرُ الشَّريفة ما كانت به على اهتمامها، كما يجب للأمة على إمامها، وإليه بتفويض الله يرجع أمرها، وبيده يُجَلَبُ نَفْعُهَا وَيُجَلَى ضَرْهَا، وقد تجددت للدَّولة الشَّريفة قوةٌ واستظهار، وبَسْطَةٌ واقْتدار، وَسَيْفٌ به يُناضل من يُسيء الجوار، ولسانٌ يجادل به من يريد الدار.

وكان الخادم طالع بوصول الأسطول المِصري إلى الشام الفرنجي، وما فعله في موانيه وسواحلها، وما غنمه^(١) من مراكبه وقوافله^(٢)، وورد كتابٌ من مِصر بأنه كَسَبَ بَطُوسَةً* فرنجية، خرج مَن فيها هارباً من القُسْطَنْطِينِيَّة لفتنة وقعت فيها بين رومها وفرنجهما، فَقُتِلَ منهم خمسون ألف فرنجي، وأُفْلِتَ منهم بَطَسٌ منها هذه البُطُوسَةُ، وفيها رجال أكابر، ومقدَّمون لهم فيها ذكر سائر، وَغَنِمَ المجاهدون منهم ما ملأ أيديهم من سبي وذخائر، وانقلبوا بنعمةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ^(٣)، وحازت القَبْضَةُ من الأسارى ما يزيد على أربع مئة بعد. من دَرَجَ بالقَتْلِ^(٤).

فَضْلٌ

قال العماد: ثم كاتَبَ السُّلْطَان المملوك بالوفود للاتفاق، فَمَنُ جاء مستسلماً سُلِّمَت بلادُه على أن يكون من أجناد السُّلْطَان وأتباعه في جهاد الكُفَّار، فجاء رسولُ صاحبِ حِصْن كَيْفَا* بالاذعان، وهو نور الدين

(١) ما بينهما ساقط من (ك).

(٢) اقتباس من قوله تعالى: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ سورة آل عمران، الآية: ١٧٤.

(٣) في (ك): وحازت القبضة ما يزيد على أربع مئة أسير بعد من درج بالقتل.

محمد بن قرا أرسلان. ثم رحل السلطان من البيرة*، ونزل على الرُّها*، وكان فيها فخر الدين مسعود بن الرُّغفراني^(١)، فأذعن وانقاد، وتسلمها مُظفَّر الدين مضافةً له إلى حرَّان*. ثم وصل السلطان إلى حران، فرَبَّها وانفصل منها إلى الرِّقَّة، وفيها الأمير قُطْب الدِّين ينال بن حَسَّان، فأذعن أيضاً، وسلَّم، ولم يوافق مراعاةً لصاحبه^(٢)، فأصلحها السلطان. ورحل منها إلى مشهد الرُّمَّان، ثم إلى عَرَابان^(٣)، فتسلمها وأصلح من شأنها. وتواصلت أخبار وصول السلطان الخابور^(٤)، وما نَشَرَ من العدل في البلاد التي فتحها؛ ففتحت رأس العين* ودورين وماكِسين* والشَّمسانية* والفُديْن* والمِجدَل* والحُصَيْن*.

قال: وقطعنا نهر الخابور على قَنْطَرَةِ التُّيْنِير* إلى نَصِييين*، فاستعصت قُلْعُتُهَا أياماً، ثم فتحت استسلاماً، وولاهها السلطان حسام الدين أبا الهيجاء السَّمين^(٥)، وولَّى الخابور جمال الدين خُوشترين^(٦). ثم سرنا إلى المَوْصِل، وقطعنا أعمال بين التَّهرين، ثم أعمال البقعة، ثم سرنا إلى بَلَد^(٧)، وأشرفنا على دِجْلَةٍ، وكنا أوردنا خَيْلَنَا في أشهرٍ من تلك السنة نَيْلَ

(١) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٣٥١ من الجزء الثاني.

(٢) انظر ص ٤٠٥ من الجزء الثاني.

(٣) عربان: بلدية بالخابور من أرض الجزيرة «معجم البلدان» ٩٦/٤.

(٤) في الأصل و(ك) بالخابور، وفي (ب) بالخابور، والمثبت من «البرق الشامي»: ٢٩/٥.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٧٠ من الجزء الثاني.

(٦) توفي خُوشترين سنة (٦١٩ هـ) بإربل، وهو الذي عمر المدرسة الشافعية بالقصر في القاهرة. انظر ترجمته في «الوافي بالوفيات»: ٣١٨/١٣.

(٧) بلد: بلدية معروفة من نواحي دُجَيْل. انظر «معجم البلدان»: ٤٨٢/١.

مِصْرَ وَالْفُرَاتِ وَدِجْلَةَ، ثُمَّ صَمَمْنَا عَلَى قَصْدِ الْمَوْصِلِ، فَلَمَّا قَرَبْنَا مِنَ الْوُصُولِ كَبَّرْنَا تَكْبِيرَ مَنْ ظَفَرَ بِالسُّوْلِ، وَتَقَدَّمَ السُّلْطَانُ فِي الْأَمْرَاءِ ذَوِي الْأَرَاءِ، وَدَارَ حَوْلَ الشُّورِ، وَعَيَّنَ لِكُلِّ مُقَدَّمٍ مَقَاماً؛ فَنَزَلَ هُوَ وَرَاءَ الْبَلَدِ، وَتَقَى الدِّينَ مِنْ شَرْقِيَّهِ، وَأَخُوهُ تَاجَ الْمُلُوكِ بُورِي عِنْدَ بَابِ الْعِمَادِيَّةِ، فَحَصَلَتِ الْمَحَاصِرَةُ وَالْمُضَايِقَةُ، وَتَوَلَّى مُجَاهِدَ الدِّينِ قَايِمَاز^(١) حِفْظَ الْبَلَدِ^(٢) بِأَحْسَنِ تَدْبِيرٍ، وَكَاتَبَ الدِّيَّانَ الْعَزِيزَ فِي أَنْ يَشْفَعَ لَهُمْ إِلَى السُّلْطَانِ، فَقَدِمَ فِي ذَلِكَ صَدْرُ الدِّينِ شَيْخُ الشُّيُوخِ^(٣) وَشَهَابُ الدِّينِ بَشِيرٌ فِي الشَّفَاعَةِ، فَرَحَلَ السُّلْطَانُ عَنْهَا فِي شَعْبَانَ، وَقَصَدَ سِنْجَارَ*، وَقَدَّمَ أَمَامَهُ تَقِيَّ الدِّينِ^(٤).

وَقَالَ الْقَاضِي ابْنُ شَدَّادٍ: كَانَ نَزُولُ السُّلْطَانِ عَلَى الْمَوْصِلِ فِي هَذِهِ الدَّفْعَةِ يَوْمَ الْخَمِيسِ حَادِي عَشَرَ^(٥) رَجَبِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ، وَكُنْتُ^(٦) إِذْ ذَاكَ بِالْمَوْصِلِ، فَسَيَّرْتُ رَسُولاً إِلَى بَغْدَادَ قُبِيلَ نَزُولِهِ بِأَيَّامِ قَلَائِلَ، فَسَرَتْ مَسْرَعاً فِي دِجْلَةِ، وَأَتَيْتَ بَغْدَادَ فِي يَوْمَيْنِ وَسَاعَتَيْنِ مِنَ الْيَوْمِ الثَّلَاثِ مُسْتَنْجِداً بِهِمْ، فَلَمْ يَحْصَلْ [مِنْهُمْ]^(٧) سِوَى الْإِنْفَازِ إِلَى شَيْخِ الشُّيُوخِ - وَكَانَ فِي صَحْبَتِهِ رَسُولاً مِنْ جَانِبِهِمْ - بِأَمْرُونِهِ بِالْحَدِيثِ مَعَهُ، وَتَلَطَّفُ الْحَالِ مَعَهُ، وَسَيَّرَ إِلَى بَهْلَوَانَ رَسُولٌ مِنَ الْمَوْصِلِ يَسْتَنْجِدُهُ^(٨)، فَلَمْ يَحْصَلْ مِنْ جَانِبِهِ

(١) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٤٠ من الجزء الثاني.

(٢) في الأصل: البلاد، والمثبت من (ك) و(ب).

(٣) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٥١ من هذا الجزء.

(٤) «البرق الشامي»: ٥/ش ٨ - ٢١، ص ٢٥ - ٤٠.

(٥) في الأصل: ثاني عشر، والمثبت من (ك) و(ب).

(٦) في الأصل: وكتب، والمثبت من (ك) و(ب).

(٧) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٨) العبارة مضطربة في مطبوع «النوادر»، وهي هنا على الجادة.

سوى تَشْرِيطِ كان الدُّخُولُ تحته أخطر من حَرْبِ السُّلْطَانِ .

ثم أقام السُّلْطَانُ على الموصل أياماً، وعلم أنه بلدٌ عظيم لا يتحصَّلُ منه شيءٌ بالمحاصرة على هذا الوجه، ورأى أنَّ طريقَ أَخْذِهِ أَخْذُ قِلاعِهِ وما حوله من البلاد، وإضعافُهُ بطول الزَّمانِ، فرحل عنه، ونزل على سِنْجَارِ* في سادس عشر شعبان، فأقام يحاصرها، وفيها شرف الدين بن قطب الدين وجماعةٌ، واشتدَّ عليه الأمر حتى كان ثاني شهر رمضان، فأخذها عَنَوةً، وخرج شرف الدين وجماعته محترمين محفوظين إلى المَوْصِلِ، وأعطاهما السُّلْطَانُ ابنَ أخيه^(١) تقيَّ الدين، ورحل عنها إلى نَصِيبِينَ^(٢) .

وقال العماد: لما قصد السلطان سنجار*، نزل بارنجان^(٣)، فوجد بها عسكرياً من المَوْصِلِ سائراً إليها، فأحاط به، وأخذ خيلهم وعُدَدَهُم، وردَّهم إلى المَوْصِلِ رجَّالةً، ووصل إلى سِنْجَارِ ومعه رسلُ دار الخلافة، ونور الدين صاحب حصن كَيْفَا*، وكان في سِنْجَارِ شرف الدين أخو صاحب المَوْصِلِ، فامتنع من تسليمها، فحوصر، ورُميت القلعة بالمنجنيق، فانهدم منها ثُلْمَةٌ من السُّور، فوَكَّلَ بها من يحفظها، ودخل شهر رمضان، فكفَّ السلطان عن القتال، ثم جاءه الخبر ليلةً أن الموكلين [بحفظ]^(٤) تلك الثُّلْمَةَ نيام، فأرسل إليهم من أوثَقَهُم، وحملهم إليه، وكان فيهم جماعةٌ من المقدَّمين والأعيان، فلما أصبح صاحب سنجار أذعن وسلَّم، ورحل بأهله وماله، ودخل السُّلْطَانُ

(١) في الأصل: لابن أخيه، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) «النوادر السلطانية»: ٥٧.

(٣) بارنجان: قرية قرب سنجار. «معجم البلدان»: ١/ ٣٢٠.

(٤) في الأصل: الموكلين بتلك الثلثة، والمثبت من (ك) و(ب)، وما بين حاصرتين منهما.

القلعة ورثها، وأمر بعمارته، وولاه الأمير سعد الدين مسعود بن أنر^(١)، وكان السلطان يعتمد عليه، وأخته ابنة معين الدين كانت في حباله السلطان^(٢)، وكان رؤساء سنجار بني يعقوب، فترك الرئاسة فيهم، وولّى القضاء منهم نظام الدين نصر بن المظفر بن محمد بن يعقوب.

ثم رحل السلطان إلى نصيبين*، فأقام بها، لأن الأيام كانت باردة، ومنها ودّع رسل دار الخلافة، وشكا أهل نصيبين من أميرها أبي الهيجاء السمين^(٣)، فاستصحبه السلطان معه، وسار إلى دارا*، وأميرها صمصام الدين بهرام الأرمني، فتلقّى السلطان بأحسن ملقى، فأكرمه وسار إلى حرّان*، وأقام بها للاستراحة، وعاد كلّ إلى بلده، وسار تقي الدين إلى حماة. هذا، والمواصلة في جدّ من جمع الجموع وبُغَاء الغوائل^(٤) للسلطان^(٥).

فصل

في وفاة فرّخشاہ بن شاهنشاه بن أيوب

قال العماد: وفي هذه السنة في جمادى الأولى توفي بدمشق الملك المنصور عزّ الدين فرّخشاہ^(٦)، ووصل خبره إلى السلطان عند عبوره

(١) سلفت وفاة أبيه ص ٢٢٢ من الجزء الأول، وتوفي مسعود سنة (٥٨١ هـ) كما سيرد ص ٢٤٥ من هذا الجزء.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣٤ من الجزء الأول.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٧٠ من الجزء الثاني.

(٤) الغوائل جمع، مفردا الغول: الداهية.

(٥) «البرق الشامي» ٥/ش ٢٢ - ٤٢، ص ٤٠ - ٥٦.

(٦) انظر ترجمته في «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ١١٣ - ١٣٣ و«مرآة =

الفرات، فأقرَّ السلطان ولده الملك الأمجد بهرامشاه على بَعْلَبَك وأعمالها مكان أبيه^(١)، ونفذ شمس الدين بن المقدَّم والياً مكانه على دمشق وأعمالها^(٢).

قال ابن أبي طي: كان فرُّخشاه من أكرم الناس يداً، وأطهرهم أخلاقاً، وأسدِّهم رأياً، وأشجعهم قلباً، ومما يحكى من كرمه أنه دخل الحَمَّام يوماً، فرأى رجلاً قد قعد به الزَّمان، وكان يعرفه من أهل اليسار، وشاهد عليه ثياباً رثةً يبينُ منها بعضُ جسده، فاستدعى بجميع ما يحتاج الرَّجُل إلى لبسه. وببغلة مسرجة وبألف دينار، وقال لبعض غِلَمانه: اجعل هذا كله في موضع ثياب الرجل، وَخُذْ ثيابه، واجعل هذا الغلام والبغلة له. ففعل. فلما تغسَّل الرجل وخرج، رأى موضع ثيابه تلك الثَّياب، فسأل الحَمَّامي عن ثيابه فقال: انبدلت بهذه الثَّياب. فتقدَّم إليه الغلام، وأخبره بجميع ما صنعه عزُّ الدين، وأخبره بأنه قد أجرى عليه معيشة عشرين ديناراً في كلِّ شهر، فلبس الثَّياب وخرج من الحمام وهو من أغنى النَّاس.

قال: وكان فرُّخشاه مُمدِّحاً، مدحه ابن سَعْدان^(٣) بِعِدَّة قصائد، من جُمَلتها التي يقول فيها:

تَخِذَ السَّابِرِيُّ^(٤) لِبْدَاً وَعُوْدَ الزَّ (م) ان نَاباً وَالْهِنْدُوَانِيَّ^(٥) ظَفِراً

= الزمان ٢٣٧/٨، و«وفيات الأعيان» ٤٥٢/٢ - ٤٥٣، و«شفاء القلوب»: ٢٣٢ - ٢٣٤.

(١) انظر ترجمة الملك الأمجد في حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٠٨ من الجزء الرابع.

(٢) «البرق» ٥/٤٢، ٥٦، ص ٥٩، ٧٥.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٨٤ من الجزء الثاني.

(٤) السابري من الثَّياب: الرقاق، وهي من أجود الثَّياب. «اللسان» (سبر).

(٥) هو السيف، نُسب إلى الهند. «اللسان» (هند).

أَعْجَمِي الْأَنْسَابَ قَصَّرَتِ الْأَعْدَاءُ عَنْهُ سَجْعاً وَنَظْماً وَنَثَرًا
هَزَمْتَ كُتُبَهُ الْكَتَائِبَ جَفَلًا وَأَعَادَتْ دُجَى الْحَوَادِثِ فَجْرًا
فَهُوَ كَالْمَازِنِيِّ^(١) عِلْماً وَكَالْأَخْرِحِ^(٢) حِلْماً وَكَالْفَرَزْدَقِ شِعْرًا

قال: وكان فَرُّخْشَاهُ مضافاً إلى شجاعته عالماً مُتَعَفِّناً، كثير الأدب، مطبوع النَّظْمِ والنثر، فمن شعره قوله:

أَنَا فِي أَسْرِ السَّقَامِ مِنْ هَوَى هَذَا الْغُلَامِ
رَشَاءً^(٣) تَرَشُّقُ عَيْنَا هُ فُوَادِي بِسِهَامِ
كَلَّمَا أَرَشَفْنِي فَا ه عَلَى حَرِّ الْأَوَامِ^(٤)
ذُقْتُ مِنْهُ الثَّلَجَ فِي الشَّهْدِ بِدِ الْمَصْفَى فِي الْمُدَامِ^(٥)

٣٤/٢

قلت: ونبغ ابنه الأَمجد أيضاً شاعراً، وكان السُّلْطَانُ كثير الاعتماد على فَرُّخْشَاهُ.

(١) هو إمام العربية، أبو عثمان، بكر بن محمد بن عدي البصري، قال فيه المبرد — وكان تلميذه —: لم يكن أحد بعد سيبويه أعلم بالنحو من المازني، توفي سنة (٢٤٧ هـ) أو (٢٤٨ هـ). انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٢/٢٧٠ — ٢٧٢.

(٢) الأحنف هو ابن قيس بن حُصَيْن التميمي، اسمه الضحاك، وقيل: صخر، وشهراً بالأحنف لأحنف رجله — وهو العوج والميل — كان سيد بني تميم، أسلم في حياة النبي ﷺ ولم يره، ووفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان أحد من يضرب بحلمه المثل، توفي سنة (٦٧ هـ) على الأشهر. انظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ٢/٤٩٩، و«سير أعلام النبلاء»: ٤/٨٦ — ٩٧.

(٣) الرشاء: الظبي إذا قوي وتحرك، ومشى مع أمه. «اللسان» (رشاء).

(٤) الأوام: العطش. «اللسان» (أوم).

(٥) في الأصل:

ذُقْتُ مِنْهُ الشَّهْدَ فِي الثَّلْجِ — جِجِ الْمَصْفَى فِي الْمُدَامِ
والمثبت من (ك) و(ب).

وفي بعض الكُتُبِ الفاضلية عن السُّلطان إليه: وصل كتابه يتضمن خروجَ الفرنج، وما دَبَّرَه من الأحوال، وأعدَّه من مكاييد القتال، ولسنا نستبعد أن يدني الله به كلَّ بعيد من المُرَاد، وأن يقابل^(١) بتدبيره تقلُّبَ الذين كفروا في البلاد، وأن يُجري على يده أوَّل النُّحل^(٢) الذي توعد به آخر صاد^(٣)، وأن يصبَّ به على المشركين سَوَطَ عذاب إنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد.

وقال العماد: وكان عزُّ الدين فَرْخُشاه من أهل الفضل ويُفَضَّل على أهله، ويُغني الكرام عن الابتذال بكرم بذله. ومن أَحَصَّ خواصَّه، وذوي اصطفائه^(٤) واستخلاصه، الصَّدْرُ الكبير العالم تاج الدين أبو اليُمْن الكِندي^(٥)، أوحَدُ عَصْرَه، ونَسِجُ وحِدِه، وقريع دَهْرَه، وعَلَامَةُ زمانه، وحَسَنان إحسانه، ووزير دَسْتَه، ومشير وَقْتَه، وجليس أنسه، ورفيق دَرْسه، وشُعاع شمسِه، وحبيب نفسه.

ولي في هذا الملك قصائد، منها قصيدة هائية موسومة، مدحته بها في أول سنة صَحِبْتُ فيها السُّلطان إلى مصر، وهي سنة اثنتين وسبعين، وعارضها تاجُ الدِّين أبو اليُمْن بكلمةً بديعةً في وزنها وروِّيها وحُسْن زِيَّها، فأما كلمتي، فهي:

(١) في الأصل: يقلل، والمثبت من (ك).

(٢) أُلْمِعْ بذلك إلى أول سورة النحل، وهي قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وهذا وعيد للمشركين.

(٣) أُلْمِعْ بذلك إلى آخر سورة صاد، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾.

(٤) في (ك) أصفيائه.

(٥) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين»، وفيات سنة (٦١٣ هـ).

وهوى أحال غَضَارَةَ^(١) الزَّمنِ البَهي
 عن حَضَرِهَا حَضَرَ البليغِ المَذَرَه
 دانٍ لقلبٍ بالغِرامِ مُوَلَّه
 بل مُتَّهٍ والشَّوْقُ ليس بِمُتَّهٍ
 وأَبَتْ عُقُودُ الودِّ مِنِّي أَنْ تَهِي
 يا مَنْ لِمُشتاقٍ بَيْنَكُم دُهي
 ويَذْكُرُكُم عندَ الكِرامِ تَفْكُهي
 نيا لَقُلْتُ سِواكُم لا أَشْتَهِي (م)
 مَنْ ذا الذي يَبْقَى بَعِيشِ أَرْفَه
 من أين ذُو الحِلْمِ الذي لم يَسْفَه

يَبِّنُ أَمْرَ حلاوةِ العَيْشِ الشَّهي
 وصَبَابَةً لا أَسْتَقِلُّ بِشَرْحِهَا
 أَجَبَّتِي إِنْ غَبْتُ عَنْكُم فَالْهُوى
 أَنُهَي إِلَيْكُم أَنَّ صَبْرِي مُتَّهٍ
 أما عُقُودُ مَدَامِعي فَلَقْدَ وَهَتْ
 ولَقْدَ دُهِيتُ بَيْنَكُم فَاشْتَقْتُكُم
 فِي شَوْقِكُم أَبَدَ الزَّمانِ تَفْكُرِي
 لَوْ قِيلَ لِي ما تَشْتَهِي مِنْ هَذِهِ الدُّ (م)
 ما كان أَرْفَهَ عَيْشَتِي وَالَّذِها
 وَمِنْ السَّفَاهَةِ أَنَّنِي فَارْتَقَكُم

ومنها:

أَحَدٌ إِلَيْها غَيْرُ غِرٍّ أَبْلَه
 مَلَكَتْ قِيادِي حَيْثُ لَمْ أَتَزَه
 تَبَعَ الْهُوى وَأَتَى بما عَنْهُ نُهَي
 فِي مَهْمِهِ أَقْصِرَ وَصَلَتْ مَهْ
 فَلَقَدْ أَنْخَتَ إِلَى ذَرَى فَرُخْشَه
 شَّانَ يَبِّنَ تَكْرُمٍ وَتَكْرَه
 مُجْدٍ وَتَقْوَى عابِدٍ مِثْلَه^(٤)

وعقابِ أَيْلَةٍ* لا يَفَارِقُ^(٢) جِلْقاً
 مَالِي وَمَصْرَ وَلِلْمَطامِعِ إِنَّمَا
 لا تَنْهَنِي يا عاذِلِي فَأَنَا الذي
 قَدْ قُلْتُ لِلْحادِي وَقَدْ نَادَيْتُهُ
 حَتَّامَ جَذْبُكَ لِلزَّمَامِ فَأَرْخِه
 مَتَكْرُمٌ بِالطَّبْعِ لا مَتَكْرَه^(٣)
 إِحْسَانُ ذِي مَجْدٍ وَهَمَّةٌ مُحْسِنِ

(١) في (ك) طلاوة.

(٢) في (ك) ما يفارق.

(٣) في الأصل: متكرماً بالطبع لا متكرهاً، والمثبت من (ك).

(٤) انظر «البرق الشامى»: ٥/ش ٤٣ - ٤٨، وص ٦٠ - ٦٥، و«خريدة القصر» بداية

قسم شعراء الشام: ١١٩ - ١٢٨.

وهي ثلاثة وثمانون بيتاً، والقصيدة التاجية تسعة وأربعون بيتاً، أولها:

هل أنتَ راحمٌ عبْرَة وتولِّه
هَيْهَاتَ يَرْحَمُ قَاتِلٌ مَقْتُولَه
مَنْ بَلَّ مِنْ دَاءِ الْغَرَامِ فَإِنِّي
إِنِّي بُلَيْتُ بِحَبِّ أَغِيدَ سَاحِرِ
أَبْغِي شِفَاءَ تَدْلُهِى مِنْ دَلِّه
يَا مُفْرِداً بِالْحُسْنِ إِنَّكَ مُتَّهِ
قَدْ لَامَ فِيكَ مَعَاشِرٌ أَفَانْتَهِي
أَبْكِي لَدَيْهِ فَإِنْ أَحَسَّ بِلَوْعَةٍ
أَنَا مِنْ مُحَاسِنِهِ وَحَالِي عِنْدِهِ
ضِدَّانٍ قَدْ جُمِعَا بِلَفْظٍ وَاحِدٍ
قُلْتُ: يُقَالُ تَفَكَّهْتُ بِالشَّيْءِ: أَيِ تَمَتَّعْتُ بِهِ، وَتَفَكَّهْتُ: أَيِ تَعَجَّبْتُ،
وَيُقَالُ: تَنْدَمْتُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَظَلَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾^(٢) فَهُوَ فِي تَفَكُّهِ: أَيِ
تَمَتُّعٍ بِالْمَحَاسِنِ، وَفِي تَعَجُّبٍ مِنْ حَالِهِ وَتَنْدَمٍ عَلَيْهَا.

ثم قال:

أَنَا عَبْدٌ مِنْ شَهْدِ الزَّمَانِ بِعَجْزِهِ^(٣)
عَبْدٌ لِعِزِّ الدِّينِ ذِي الشَّرَفِ الَّذِي
عَنْ أَنْ يَجِيءَ لَهُ بَنْدٌ مُشْبِهٍ
ذَلَّ الْمُلُوكَ لِعِزِّهِ فَارْخُشْهُ

(١) أَيِ بِيضَاءٍ، بَضْءٌ. «اللسان» (بره).

(٢) سُورَةُ الْوَاقِعَةِ، الْآيَةُ: ٦٥.

(٣) فِي الْأَصْلِ: بِفَخْرِهِ، وَهُوَ تَصْحِيفٌ، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (ك).

طَابَتْ مَوَارِدُهُ فغَصَّ فِنَاؤُهُ وشدا الحُدَاةَ بِذِكْرِهِ فِي الْمَهْمَةِ^(١)
يَهْدِيكَ كُلُّ مُمْلَكٍ مَتَايِهِ أبدأ بالسنة الرَّعَاعَ مُمَدَّةً^(٢)
لَا يَقْقَهُ التَّجْوَى إِذَا حَدَّثَتْهُ وإذا بدأ^(٣) بِحَدِيثِهِ لَمْ يَقْقَهُ^(٤)
قلت^(٥): وذكر العماد في ديوانه أبياتاً حسنة في مدح^(٦) الشَّيْخِ

تاج الدين أَبِي اليُمْنِ، رَحِمَهُمَا اللَّهُ:
تَذَاكَرَ مِنْ وَرَادٍ مِضَرَ عَصَابَةٍ حديثَ فَتَى طَابَ النَّدِيُّ^(٧) بِذِكْرِهِ
وَقَالُوا رَأَيْنَا فَاضِلًّا ذَا نَبَاهَةٍ أديباً يَفُوقُ الْفَاضِلِينَ بِفَخْرِهِ
يَدِينُ حَبِيبٌ^(٨) وَالْوَلِيدُ^(٩) لِنَظْمِهِ وَيَحْمَدُهُ عَبْدُ الْحَمِيدِ^(١٠) لِنَثْرِهِ
وَلَوْ عَاشَ قُسٌّ^(١١) فِي زَمَانِ بِيَانِهِ لَكَانَ مُشِيداً فِي الْبَيَانِ بِشُكْرِهِ
فَضَائِلُهُ كَالشَّمْسِ نَوْرًا وَلَمْ تَزَلْ مَنَاقِبُهُ فِي الدَّهْرِ أَعْدَادَ زَهْرِهِ
بَيَانٌ هُوَ السَّخَرُ الْحَلَالُ وَإِنَّا نَرَى مُعْجِزاً مِنْ فَضْلِهِ حَلَّ سِخْرِهِ
ذَوُو الْفَضْلِ هُمْ عِنْدَ الْحَقِيقَةِ أَبْحَرُ وَلَكِنَّهُمْ أَضْحَوْا جَدَاوِلَ بَخْرِهِ

(١) المهمة: المفازة، الفلاة. «اللسان» (مه).

(٢) في هامش الأصل و(ك) حاشية: الممدح: الممدوح. قلت: انظر «اللسان» (مده).

(٣) في طبعة وادي النيل: ٣٥/٢: أتى.

(٤) انظر القصيدة في «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ١٢٩ - ١٣٣ و«البرق

الشامي» ٥/ش ٤٨ - ٥٠، ص ٦٥ - ٦٩.

(٥) في الأصل: قال العماد: وذكر... والمثبت من (ك).

(٦) كلمة: مدح، ليست في (ك).

(٧) الندي: مجتمع القوم وأهل المجلس. «اللسان» (ندي).

(٨) هو حبيب بن أوس الطائي، أبو تمام الشاعر.

(٩) هو الوليد بن عبيد، أبو عبادة البحتري الشاعر.

(١٠) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعد الأنباري، الكاتب البليغ، كان يكتب لمروان بن

محمد، آخر خلفاء بني أمية، قتل سنة (١٣٢ هـ). انظر ترجمته في «سير أعلام

النبل» ٥/٤٦٢ - ٤٦٣.

(١١) هو قس بن ساعدة الإيادي، أحد حكماء العرب، ومن كبار خطبائهم في الجاهلية.

يَضُوعُ مَهَبُ الْحَمْدِ مِنْ عَرَفَ عُرْفِهِ^(١) وَتَأْرَجُ^(٢) أَزْجَاءُ الرَّجَاءِ بِنَشْرِهِ^(٣)
فَقُلْتُ لَهُمْ هَذَا الَّذِي تَصِفُونَهُ أَبُو الْيَمَنِ تَاجُ الدِّينِ أَوْحَدُ عَصْرِهِ
قلت^(٤): وبلغني أَنَّ أولَ معرفةٍ فَرُخْشَاهُ [به]^(٥) أَنَّهُ كَانَ فِي مَجْلِسِ
القَاضِي الْفَاضِلِ بِالْقَاهِرَةِ، فَجَاءَ فَرُخْشَاهُ إِلَى الْفَاضِلِ، فَجَرَى ذِكْرُ بَيْتٍ مِنْ
شِعْرِ أَبِي الطَّيِّبِ الْمَتْنَبِيِّ، فَتَكَلَّمَ فِيهِ تَاجُ الدِّينِ بِمَا يَلِيْقُ بِهِ^(٦)، فَأَعْجَبَ
فَرُخْشَاهُ، وَسَأَلَ الْقَاضِي الْفَاضِلَ عَنْهُ، فَقَالَ: هَذَا فَلَانٌ. وَعَرَفَهُ بِفَضْلِهِ، فَلَمَّا
قَامَ فَرُخْشَاهُ مِنْ مَجْلِسِ الْفَاضِلِ أَخَذَ بِيَدِ الشَّيْخِ تَاجِ الدِّينِ، وَخَرَجَ بِهِ، وَلَزِمَهُ
إِلَى أَنْ تَوَفَّى، رَحِمَهُمُ اللَّهُ أَجْمَعِينَ.

فَصْلٌ

فِي أَخْذِ السَّالِكِينَ الْبَحْرَ لِقَصْدِ الْحِجَازِ^(٧)

قال العماد: وفي شَوَّالِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ كَانَتْ نُصْرَةُ الْأُسْطُولِ
الْمُتَوَجِّهِ إِلَى بَحْرِ الْقُلُزُمِ^(٨)، وَالْمُقَدَّمِ فِيهِ الْحَاجِبُ حَسَامُ الدِّينِ لَوْلُو^(٩)،

(١) العرف - بفتح العين - الريح الطيبة. والعُرف - بضم العين - المعروف، وهو
الجود أيضاً. «اللسان» (عرف).

(٢) أَرَجَ الطَّيِّبُ: فَاحَ. «اللسان» (أرج).

(٣) النثر: الريح الطيبة. «اللسان» (نثر).

(٤) هذا التعقيب من أَبِي شَامَةَ سَاقِطٌ مِنْ (ك)، وَسَيَأْتِي فِي تَرْجُمَةِ أَبِي الْيَمَنِ فِي «الْمَذِيلِ
عَلَى الرُّوْضَتَيْنِ». وَفِيَاتُ سَنَةِ (٦١٣ هـ).

(٥) مَا بَيْنَ حَاصِرَتَيْنِ سَاقِطٌ مِنَ الْأَصْلِ، وَالْمَثْبُتُ مِنْ طَبْعَةِ وَادِي النِّيلِ: ٣٥/٢.

(٦) لِأَبِي الْيَمَنِ الْكَنْدِيِّ مِنْ جُمْلَةِ مَوْلَفَاتِهِ شَرْحُ لَدِيَوَانَ الْمَتْنَبِيِّ.

(٧) فِي (ك) فَصْلٌ فِي قِصَّةِ أَخْذِ الْفَرَنْجِ السَّالِكِينَ لِقَصْدِ الْحِجَازِ.

(٨) هُوَ الْبَحْرُ الْأَحْمَرُ.

(٩) سَتَرْدُ تَرْجُمَتِهِ فِي ٤/٤٦٦ - ٤٦٧ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ.

لطلب الفرنج السالكين بَحْرَ الحجاز؛ وذلك أن الإبرنس^(١) صاحب الكرك* لما صَعَبَ عليه ما توالى عليه من نكاية أصحابنا المقيمين بقلعة أَيْلَة*، وهي في وسط البحر، لا سبيل عليها لأهل الكُفْر، أفكر في أسباب احتياله، وفتح أبواب اغتياله، فبنى سُفْنًا، ونقل أخشابها على الجمال إلى السَّاحِل، ثم رَكَّب المراكب، وشحنها بالرجال وآلات القتال، ووقَّف منها مركبين على جزيرة القلعة، فمنع أهلها من استقاء الماء، ومضى الباقون في مراكب نحو عَيْذَاب*، فقطعوا طريق الثُّجَّار، وشرعوا في القتل والنهب والإسار، ثم توجَّهوا إلى أرض الحجاز، فتعذَّر^(٢) على النَّاس وجه الاحتراز، فعَظُمُ البلاء، وأعضل الدَّاء، وأشرف أهل المدينة النَّبوية منهم على خَطَر، ووصل الخبر إلى مِصر وبها العادل أخو السُّلطان، فأمر الحاجب حسام الدين لؤلؤ، فعَمَرَ في بحر القُلُزُم مراكب بالرجال البحرية، ذوي التجربة من أهل النَّخوة للذِّين والحِمِيَّة، وسار إلى أَيْلَة، فظَفَرَ بالمركب الفرنجي عندها، فَحَرَق السفينة وأخذ جُنُدها، ثم عدَّى^(٣) إلى عَيْذَاب*، وشاهد بأهلها العذاب، ودلَّ على مراكب العدو فتبعها، فوقع بها بعد أيام، فأوقَعَ بها وواقعها، وأطلق المأسورين من الثُّجَّار، وردَّ عليهم [كل]^(٤) ما أُخِذَ لهم، ثم صعد إلى البر، فوجد أعراباً قد نزلوا منه شِعَاباً، فركب خَيْلَهُم وراء الهاربين، وكانوا في أرض تلك الطُّرُق ضاربين، فحصرهم في شِعب لا ماء فيه، فأَسَرَهُم بِأَسْرِهِم، وكان ذلك في أشهر الحج، فساق منهم أسيرين إلى مِنى

(١) كان أرناط صاحب الكرك قد حاول قصد الحجاز في السنة الماضية. انظر ص ٨٢ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: وتعذر، والمثبت من (ك) و(ب).

(٣) في الأصل: غدا، والمثبت من (ك) و(ب).

(٤) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

٣٦/٢ كما يساق الهذلي، وعاد إلى القاهرة ومعه الأسارى، فكتب السلطان إليه بضرب رقابهم وقطع أسبابهم، بحيث لا تبقى منهم عين تطرف، ولا أحد يخبر طريق^(١) ذلك البحر أو يعرف^(٢).

قلت: ولأبي الحسن بن الذروري في الحاجب لؤلؤ بسبب هذه الواقعة أشعار^(٣)، منها:

مَرَّ يَوْمٌ مِنَ الزَّمَانِ عَجِيبُ	كَاد يُبْدِي فِيهِ الشُّرُورَ الْجَمَادُ
إِذْ أَتَى الْحَاجِبُ الْأَجَلُ بِأَسْرَى	قَرَنْتَهُمْ فِي ^(٤) طَيْهَا الْأَصْفَادُ
بِجَمَالٍ كَأَنَّهُنَّ جِبَالُ	وَعُلُوجٍ كَأَنَّهُمْ أَطْوَادُ
قُلْتُ بَعْدَ التَّكْبِيرِ لَمَّا تَبَدَّى	هَكَذَا هَكَذَا يَكُونُ الْجِهَادُ
حَبَا لَوْلَوْ يَصِيدُ الْأَعَادِي	وَسِوَاهُ مِنَ اللَّالِي يُصَادُ

ومنها:

قُلْتُ وَقَدْ سَافَرْتَ يَا مَنْ غَدَا	جِهَادُهُ يَغْضُدُ مِنْ حَجَّةِ
إِذْ قِيلَ سَارَ الْحَاجِبُ الْمُرتَجَى	فِي الْبَحْرِ يَارَبَّ السَّمَاءِ نَجَّةِ

(١) في الأصل: بطريق، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) انظر «البرق الشامي» ش ٥٠/٥ - ٥٢، ص ٦٩ - ٧١.

(٣) في هامش الأصل: «حاشية: ما أعرف المؤلف كيف قال: ولا بن الذروري في لؤلؤ بسبب هذه الواقعة أشعار، فإن هذه الواقعة في أواخر سنة ثمان وسبعين، وقد ذكر أن ابن الذروري توفي في سنة سبع وسبعين، والله عز وجل أعلم، وربما تكون هذه الأشعار في غير هذه الواقعة».

قلت: الأرجح في وفاته أنها كانت سنة (٥٧٩ هـ) كما ذكر الصفدي في «الوافي بالوفيات» ٣١٣/٢٢، وقد سكنت بقية مصادر ترجمته عن تحديدها، انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٠١ من هذا الجزء.

(٤) في الأصل و(ك) عن، والمثبت من طبعة وادي النيل ٣٦/٢.

البحرُ لَا يَغْدُو عَلَى لَوْلُو
لأنَّهُ كُوِّنَ مِنْ لُجَّةٍ
ومنها:

يا حَاجِبَ الْمَجْدِ الَّذِي مَالُهُ
وَمَنْ دَعَا لَوْلُوًا عِنْدَمَا
لِلَّهِ مَا تَعْمَلُ مِنْ صَالِحٍ
كَفَيْتَ أَهْلَ الْحَرَمَيْنِ الْعِدَى
ومنها:

لئن كُنْتَ مِنْ ذَا الْبَحْرِ يَالْوَلُو الْعَلَا
وإن لم تكن منه لِأَجْلِ مَذَاقِهِ
نُتِجْتَ فَإِنَّ الْجُودَ فِيكَ وَفِيهِ
فإنَّكَ مِنْ بَحْرِ السَّمَاحِ أَخِيهِ
ومنها:

إنما أَنْتَ لَوْلُوٌ لِلْمَعَالِي جَاءَ مِنْ أَبْحَرِ السَّمَاحِ الْعِذابِ

وكتب السُّلْطَانُ إِلَى الْعَادِلِ مِنْ كَلَامِ الْفَاضِلِ: وَصَلَ كِتَابُهُ الْمَوْرُخَ
بِخَامِسِ ذِي الْقَعْدَةِ الْمُسْفِرِ عَنِ الْمُسْفَرِ مِنَ الْأَخْبَارِ، الْمَتَبَسِّمِ عَنِ الْمَتَبَسِّمِ مِنَ
الْآثَارِ، وَهِيَ نِعْمَةٌ تَضَمَّنَتْ نِعَمًا، وَنُصْرَةٌ جَعَلَتْ الْحَرَمَ حَرَمًا، وَكِفَايَةٌ
مَا كَانَ اللَّهُ لِيُؤَخِّرَ مَعْجَزَةَ نَبِيِّهِ ﷺ بِتَأْخِيرِهَا، وَعَجَبِيَّةٌ مِنْ عَجَائِبِ الْبَحْرِ الَّتِي
تَحْدُثُ عَنْ تَسْيِيرِهَا وَتَسْخِيرِهَا، وَمَا كَانَ الْحَاجِبُ لَوْلُوً فِيهَا إِلَّا سَهْمًا أَصَابَ
وَحُمِدَ مُسَدِّدُهُ، وَسَيِّفًا قَطَعَ وَشُكِرَ مَجْرُدُهُ، وَرَسُولًا عَلَيْهِ الْبَلَاغُ وَإِنْ لَمْ يُجْهَلْ
مَا أَثَرَتْهُ يَدُهُ، وَقَدْ غَبَطْنَاهُ بِأَجْرِ جِهَادِهِ وَنُجْحِ اجْتِهَادِهِ. رَكِبَ^(٢) السَّيْلِينَ بَرًّا

(١) فِي الْأَصْلِ: صَحَّ، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (ك).

(٢) فِي (ك) وَرَكِبَ.

وبحرًا، وامتطى السَّابِقين مركباً وظَهراً، وخطا فأوسع الخطو، وغزا فأنجح الغزو، وحَبَّذا العِنان الذي في هذه الغزوة أُطلق، والمال الذي في هذه الكَرَّة أنفق، وهؤلاء الأسارى فقد ظهروا على عَورة الإسلام وكشفوها، وتطرقوا بلاد القِبلة وتطَوَّفوها، ولو جرى في ذلك سبب - والعياذ بالله - لضاعت الأعدار إلى الله والخلق، وانطلقت الألسُن بالمدَمَّة في الغُرب والشرق، ولا بدَّ من تطهير الأرض من أرجاسهم، والهواء من أنفاسهم، بحيث لا يعود منهم مُخْبِرٌ يدلُّ الكُفَّار على عَورات المسلمين، وإن هذا العدد القليل قد نال ذلك المَنال الجليل، وهذا مَقَامٌ، إن روعي فيه حراسة الطَّاهر، والوفاء للكافر، حَدَثَ الفَتَقُ الذي لا يُمكن في كلِّ الأوقات سَدُّه ورَتْقُه، ولُدَغَ المؤمن مرَّتين والأولى تكفي لمن له في النَّظَر تفقُّه.

وفي كتابٍ آخر إلى العادل أيضاً: ونحن نُهنِّئ المجلس السَّامي بظفره، ولم لا نكمِّله؟ وبِنَصْرِهِ، ولم لا نشكره شكراً نُعجِّلُه^(١)؟ وليس في قَتْلِ هؤلاء الكُفَّار مُرَاجعة، وللشَّرْع في إبقائهم فُسْحَة، ولا في استبقاء واحد منهم مصلحة، ولا في التَّغاضي عنهم عند الله عُدْرٌ مقبول، ولا حُكْمُ اللَّهِ في أمثالهم عند أهل العلم بمشكلي ولا مجهول، فليمضِ العَزْمُ في قتلهم ليتناهى أمثالهم عن فعلهم، وقد كانت عَظيمة ما طُرِقَ الإسلام بمثلها، وقد أتى الله بعدها بلطفية أجراها على يد من رآه من أهلها.

وفي كتابٍ آخر إلى العادل: [و]^(٢) قد تَكَرَّرَ القول في معنى أسارى بحر الحجاز، فلا تَدَّر على الأرض من الكافرين دياراً^(٣)، ولا توردهم بعد

(١) في الأصل: ولم يشكره ويعجله، والمثبت من (ك).

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

(٣) اقتباس من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَاراً﴾ سورة نوح، الآية: ٢٦.

ماء البحر إلا ناراً، فأقلهم إذا بقي جنى الأمر الأصعب، ومتى لم تعجلِ
الرَّاحة منهم وعدَّتِ العاقبة بالأشقَّ الأتعب.

ومن كتابٍ آخر إلى بغداد: وسارتِ المراكبُ الإسلامية طالبةً شوكة
المراكب الحربيَّة المتعرِّضة للمراكب الحجازية واليمينية. وكانت مراكبُ
العدو قد أوغلت في البحر، ودلَّها على عورات الساحلين من العربِ مَنْ
أشبه ركَّابها في الكُفر، فوصلت إلى عِيذاب*، فلم تنل منها مُراداً، غير أنَّ
ما وجدته في طريقها أو في فُرْضة^(١) عِيذاب نالتُ منه، وشعثت وأفسدت
فيه، وعَتَّت^(٢) وتمادت في السَّاحل الحجازي إلى رابع إلى سواحل
الحَوَراء^(٣)، وهناك وقع عليها أصحابنا، وأوقعوا بها أشدَّ إيقاع، وأخذوا
المراكب الفرنجية على حكم البدار والإسراع، وفرَّ فرنجها إلى السَّاحل،
فركب أصحابنا وراءهم خيول العُربان التي وجدوها، وأخذوا الكفار من
شعابٍ وجبالٍ اعتصموا بها وقصدوها، وكُفي المسلمون أشدَّ فسادٍ في
أرضهم، وأقطع قاطع لفرضهم، وانبسطت أمالُهم بقبضهم، وعميت على
الكُفَّار هذه الطريق التي لو كُشِفَ لهم غطاؤها قديماً، ولو أحاطوا بها علماً،
لاشتطَّت نكايتهم، واشتدَّت جنائتهم، وعَزَّ على قدماء ملوك مصر أن
يصرعوا هذه الأقران، ويطفئوا هذه النيران، ويركبوا غوارب اللُّجج^(٤)،

(١) الفُرْضة: محط السفن. «اللسان» (فرض).

(٢) في (ك) وعثت.

(٣) الحوراء: كورة من كور مصر القبلية في آخر حدودها من جهة الحجاز، وهي على

البحر في شرقي القلزم (البحر الأحمر). انظر «معجم البلدان»: ٣١٦/٢.

(٤) أي أعالي الموج. «اللسان» (غرب، لجج).

وَيُرْخِصُوا غَوَالِي الْمُهْجِ، وَيَقْتَنِصُوا هَذَا الطَّائِرَ مِنْ جَوْهٍ الَّذِي لَا يُذْرِكُهُ^(١) لُؤْحُهُ^(٢)، وَيُذْرِكُوا هَذَا الْعَدُوَّ الَّذِي لَا يُذْرِكُ إِلَّا أَنْ يُنْجَدَ عَلَيْهِ مَلَائِكَةُ اللَّهِ وَرُوحُهُ^(٣).

وفي كتابٍ آخرٍ إلى بغداد: كان الفرنج قد ركبوا من الأمر نُكْرًا، وافتَضُوا من البحر بُكْرًا، وعمروا مراكبَ حربيةٍ شحَنوها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد، وضربوا بها سواحلَ اليمن والحجاز، وأثخنوا وأوغلوا في البلاد، واشتَدَّتْ مخافةُ أهل تلك^(٤) الجوانبِ بل أهل القِبْلَةِ لما أَوْمَضَ إليهم من خَلَلِ العواقبِ، وما ظَنَّ المسلمون إلا أنها السَّاعَةُ، وقد نُشِرَ مطوِيُّ أشراطها، والدُّنْيَا قد طُوِيَ منشورٌ بساطها، وانتَظَرَ غَضَبُ اللَّهِ لفناء بيته المُحَرَّمِ، ومقام خليله الأكرم، وتراث أنبيائه الأقدم، وضريح نبيه الأعظم ﷺ، ورجوا أَنْ تَشْهَدَ البصائرُ آيَةً كَايَةِ هذا البيتِ، إذ قصده أصحابُ الفيل، ووكلوا إلى الله الأمر، وكان حَسْبَهُمْ وَنِعَمَ الْوَكِيلُ.

وكان للفرنج مقصدان، أحدهما قلعة أَيْلَةَ* التي هي على فوهة بحر الحجاز ومداخله، والآخر الخوض في هذا البحر الذي تجاورُهُ بلادُهُم من ساحله، وانقسموا فريقين، وسلكوا طريقين، فأما الفريق الذي قصد قلعة أَيْلَةَ، فَإِنَّهُ قَدَّرَ أَنْ يَمْنَعَ أَهْلَهَا مِنْ مَوْزِدِ الْمَاءِ الَّذِي بِهِ قِوَامُ الْحَيَاةِ، وَيَقَاتِلُهُمْ بِنَارِ الْعَطَشِ الْمَشْبُوبِ الشَّبَاةِ، وَأما الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن، فَقَدَّرَ أَنْ يَمْنَعَ طَرِيقَ الْحَاجِّ عَنْ حَاجِّهِ، وَيَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ فَجِّهِ، وَيَأْخُذَ تِجَارَ الْيَمَنِ وَأَكَارِمَ عَدَنَ، وَيَلْمَ بِسِوَا حِلِ الْحِجَازِ، فَيَسْتَبِيحَ — وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ —

(١) في الأصل: لا يدرك، والمثبت من (ك).

(٢) اللُّوح: الهواء. «اللسان» (لوح).

(٣) «البرق الشامي» ٥/ش ٥٣ — ٥٤، ص ٧٢ — ٧٣.

(٤) في (ك) بلد.

المحارم، وَيَهْنِجَ جزيرة العرب بعظيمةٍ دونها العظام.

وكان الأخ سيف الدين بمصر قد عمَّر مراكب، وفرَّقها على الفريقين، وأمرها بأن تطوي وراءهم الشقتين. فأما السائرة إلى قلعة أَيْلَة، فإنها انقضَّت على مُرَاطِي الماء انقضاَضَ الجوارح على بنات الماء، وقذفتها قَذَفَ شُهْبِ السَّمَاءِ مسترقي سَمْعِ الظُّلَماءِ، فأخذت مراكب العدوِّ برمتها، وقتلت أكثر مقاتلتها، إلا^(١) من تعلق بهضبةٍ وما كاد، أو دخل في شِعْبٍ وما عاد، فإنَّ العُرْبَانَ اقْتَصَوْا آثارهم والتزموا إحضارهم^(٢)، فلم يَنْجُ منهم إلا من ينهى عن المُعاودة، ومن قد عَلِمَ أَنَّ أمر السَّاعةِ واحدة.

وأما السائرة إلى بحر الحجاز، فتمادَّت في الساحل الحجازي إلى رابع [إلى]^(٣) سواحل الحَوَراءِ، فأخذت تُجَارَأَ، وأخافت رفاقاً، ودلَّها^(٤) على عَوَرات البلاد مِنَ الأعرابِ مَنْ هو أَشَدُّ كُفْراً ونفاقاً، وهناك وقع عليها أصحابُنا، وأخذت المراكب بأسرها^(٥)، وفرَّ فرنجها بعد إسلام المراكب، وسلکوا في الجبال مهاوي المهالك، ومعاطن المعاطب، وركب أصحابُنا وراءهم خيل العرب، يَشْلُونَهُمْ شَلًّا^(٦)، ويقتنصونهم أَسْراً وقَتْلًا، وما زالوا يتبعونهم خمسةَ أيامٍ خيلاً وَرَجْلاً، ونهاراً وليلاً، حتى لم يتركوا عنهم مُخْبِراً، ولم يُبْقُوا لَهُمْ أَثْراً ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً﴾^(٧) وقُيِّدَ

(١) ما بينهما ساقط من (ك).

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

(٣-٣) ما بينهما ساقط من (ك)، وسترَدَ فيها في سياق الكتاب التالي بعد كلمة: العماثر.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٣ من هذا الجزء.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٧١.

منهم إلى مصر مئة وسبعون^(١) أسراً^(٢).

ومن كتاب آخر: ومن جُملة البشائر الواصلة من مصر عود الأسطول مرة ثانية كاسراً كاسباً، غانماً غالباً بعد نكايته في أهل الجزائر، وإخراب ما وجده فيها من الأعمال والعمائر^(٣)، ومن جملة ما ظَفَرَ به في طريقه بَطْسة* من مراكب الفرنج تحمل أخشاباً منجورة إلى عكا، ومعها نَجَّارون ليبنوا منها شواني*، فأُسِرَ النَجَّارون ومن معهم، وهم نيّف وسبعون. وأما الأخشاب فقد انتفع بها المجاهدون، وكُفِّي شَرُّها المؤمنون، وللخادم في المغرب عسكر قد بلغت أقصى أفريقية فُتُوْحُه، وعاوَدَ به شخصُ الدِّين في تلك البلاد رُوْحُه^(٤).

فَصْلٌ

في باقي حوادث هذه السَّنة

قال العماد: وفي هذه السنة — وهي سنة ثمانٍ وسبعين — أَنْعَمَ السُّلْطَانُ على نور الدين محمد بن قرا أرسلان بأعمال الهيثم، وكانت جاريةً في عمل المَوْصِل، فلما تسَلَّمَهَا جعلها من نصيبه. وقد كان الملك العادل نور الدين محمود بن زَنْكِي — رحمه الله — حين تَوَجَّه إلى الموصل في أوائل سنة ستٍّ وستين عند وفاة أخيه مودود^(٥)، وَعَدَّ ابن قرا أرسلان بقلعة الهيثم، ثم

(١) في الأصل: وسبعين، والمثبت من (ك).

(٢) «البرق الشامي» ٥/ش ٥٤ — ٥٥، ص ٧٣ — ٧٥.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٣ من الصفحة السَّالفة.

(٤) إشارة إلى قراقوش غلام تقي الدين، انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٩٩ من هذا الجزء.

(٥) في الأصل و(ك) ممدود، والمثبت من (ب)، وانظر ص ١٦١ من الجزء الثاني.

سَلَّمَهَا إِلَيْهِ دُونَ أَعْمَالِهَا تَحِلَّةً لِيَمِينِهِ، وَوَفَاءً بِوَعْدِهِ الْكَرِيمِ وَدِينِهِ، وَلَمَّا جَاءَ لِمُسَاعَدَتِنَا فِي هَذَا الْعَامِ خَصَّهُ السُّلْطَانُ عَاجِلًا بِهَذَا الْإِنْعَامِ، ثُمَّ وَهَبَ لَهُ قَلْعَةَ الْجُدَيْدَةِ^(١)؛ وَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ نَصِيبِينَ*، وَوَعْدَهُ بِفَتْحِ أَمْدٍ* لَهُ، فَوَفَّى بِوَعْدِهِ كَمَا سَيَأْتِي^(٢).

قال: وَكَانَ شَاهِ أَرْمَنِ صَاحِبُ خِلَاطٍ* ظَهِيرُ الدِّينِ سَكْمَانُ^(٣)، وَهُوَ خَالَ صَاحِبِ مَارِدِينَ* إِيْلَغَازِي بْنِ أَلْبِي بْنِ تَمْرَتَاشِ^(٤)، وَصَاحِبُ مَارِدِينَ* هَذَا هُوَ ابْنُ خَالَ صَاحِبِ الْمَوْصِلِ عَزِ الدِّينِ مَسْعُودِ بْنِ مَوْدُودِ^(٥) بْنِ زَنْكِي، فَتَفَقَّدَ شَاهِ أَرْمَنِ يَشْفَعُ إِلَى السُّلْطَانِ فِي الْمَوْصِلِ وَسِنْجَارٍ* — وَهُوَ عَلَى سِنْجَارٍ* — وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ سَيْفَ الدِّينِ بَكْتَمُرَ^(٦)، وَهُوَ مِنْ أَعَزِّ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَسْمَعْ السُّلْطَانُ شَفَاعَتَهُ، فَاجْتَمَعَ هُوَ وَصَاحِبُ مَارِدِينَ وَصَاحِبُ الْمَوْصِلِ وَصَاحِبُ أَرْزَنٍ* وَبَذْلَيسٍ* وَغَيْرُهُمْ مِنْ عَسْكَرِ حَلَبٍ، وَجَمَعُوا جُمُوعًا، وَعَزَمُوا عَلَى لِقَاءِ السُّلْطَانِ، وَنَزَلُوا ضَيْعَةً مِنْ أَعْمَالِ مَارِدِينَ يُقَالُ لَهَا حَرَزَمٌ^(٧)، فَجَمَعَ السُّلْطَانُ عَسَاكِرَهُ، وَجَاءَهُ تَقِيُّ الدِّينِ مِنْ حِمَاةٍ إِلَى حَرَّانٍ* فِي خَمْسِ لَيَالٍ، فَسَارُوا إِلَيْهِمْ بَعْدَ الْعِيدِ الْأَكْبَرِ، فَلَمَّا وَصَلَ السُّلْطَانُ رَأْسَ عَيْنٍ*، وَاسْمَعُوا بِمَجِيئِهِ، تَفَرَّقُوا وَافْتَرَقُوا، وَعَادَ الْخِلَاطِيُّ إِلَى خِلَاطِهِ

(١) قلعة الجديدة — بالتصغير — قلعة حصينة، وأعمالها متصلة بأعمال حصن كيفا.

«معجم البلدان»: ١١٥/٢.

(٢) انظر ص ١٤٦ — ١٤٧ من هذا الجزء، و«البرق» ٥/ش ٥٩، ص ٧٧ — ٧٨.

(٣) انظر وفاته ص ٢٣١ من هذا الجزء.

(٤) سترد ترجمته ص ٢٢٢ من هذا الجزء.

(٥) في الأصل: ممدود، والمثبت من (ك) و(ب).

(٦) سترد وفاته ٤/٤١٢ من هذا الكتاب.

(٧) انظر «معجم البلدان»: ٢/٢٤٠.

باختلاطه، ورجع المَوْصلي إلى مَوْصِله لمواصله احتياطه، واعتصم الماردي بحصنه المارد، وهتكوا حرز حَرْزَم للصّادر والوارد، وهاب عسكر حلب العود إليها، ونحن على طريقه، فأذن جمعه بتفريقه، ومضى معظمهم إلى الموصل، فعبر الفرات عند عانة*، ولم يجدوا إعانة، ونسفتهم ريحنا وهم جبال، وذهبوا بقلوب النّساء [وقد جاؤوا]^(١) وهم رجال، ثم نزل السلطان منزلة القوم بحَرْزَم، وفيها قصر لصاحب ماردین كان يتنزه فيه، فأقام فيه تاج الملوك أخو السُّلطان^(٢).

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة نزل قَراقُوش^(٣) على بلد زالوت، وقاتله إلى أن [ملكه و]^(٤) انهزم منه أهلُه، ودخل المدينة ليقضي بها أيام الشّتاء، فأصبح يوماً فإذا حول المدينة عسكر مقداره خمسة آلاف رجل، فقام واقتد أصحابه، فلم يجد إلا جماعةً من البَوّابين والركابدارية*، وباقي النّاس سُكّارى، ورأى أحد البوقية، فأمره أن يضرب بالبوق، وفتح الباب وخرج، فظنّ العسكر أن قراقوش وعسكره قد شعروا بهم، فانهزموا.

قال: ثم إنّه قصد طَرابُلُس، فحاصرها، وضيّق عليها، وكان شيخها عبد المجيد بن مطروح قد راسل قراقوش، وطلب منه الأمان، وسأله أن ينفذ إليه قوماً يقرّر معهم أمر التّسليم. فأنفذ إليه وزيره وثلاثة من وجوه أصحابه، فأخذهم عبد المجيد، وأنزلهم في دارٍ أخلاها لهم، وأمر لهم بجميع ما

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٢) «البرق الشامى»: ٥/ش ٦٢ - ٦٥، ص ٨٠ - ٨٣.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٩٩ من هذا الجزء.

(٤) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

يحتاجون إليه، فلما خلا لهم الليل أخذوا المخادَّ وتصافعوا [بها] ^(١) حتى قطعوها، وقام بعضهم إلى صهريج مملوء ماءً للشرب، فأحدث فيه، فأخبرت الرُّقباءُ عبدَ المجيد بما كان منهم، فأحضر وجوه البلد، وقصَّ عليهم ما كان منهم، وقال: إذا كان هؤلاء خيارهم ^(٢)، فما ظنكم بشرارهم؟! وكان أهل البلد قد أشاروا على عبد المجيد بتسليم البلد، فامتنعوا حينئذٍ. وحضر ابنُ مطروح من الغد إليهم إلى الدار ومعه وجوه البلد، فقال لصاحب ضيافته: لِمَ أحضرتَ لهؤلاء السادة مخادَّ مقطَّعة؟ فقال: ما أحضرتَ لهم ^(٣) إلا مخادَّ جُددًا، ولكن القوم أكلوا طعام الصُوفية الذي لا نعرفه في بلادنا. فاستحيا القوم، وعلموا أنهم قد فطنوا ^(٤) بحالهم، ونزل رجلٌ إلى الصَّهريج فرأى العِدرةَ على وجه الماء، فقال: من فعل هذا؟ فلم يردَّ واحدٌ منهم جواباً، فقال ابن مطروح: يا قوم، ما أدخلناكم إلينا إلا عازمين على تسليم البلد إليكم، وأن نكون لكم رعايا، وقد شاهدنا منكم أفعالاً ما نرضاها، فإن قلتم إن هذه الفعلة من غلماننا وعبيدنا، فما أقبح هذه الأحدثة عن خيار أصحاب هذا الرجل، وإن كان عنده من هو خيرٌ منكم، فَلِمَ بعثكم إلينا؟ هذا طعنٌ في عقله. ثم أمر بإخراجهم، فأخرجوا من المدينة، فلما صاروا إلى قراقوش، وعَلِمَ القِصةَ عَظُمَ عليه الأمر، وأراد الفتك بهم، وعلم أنهم قد فتقوا عليه فتقاً لا يمكنه رتقُه أبداً، وتيقَّن أنه لا يملك البلد أبداً. وأنفذ عبد المجيد إلى قراقوش: إنك لست بقادرٍ على أخذ هذا البلد، لأجل ما نفَّرَ به أصحابك قُلُوبَ أهله، فإن رأيت أن نجعل

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٢) في (ك) و(ب) خيار القوم.

(٣) في (ك) و(ب) ما أحضرتهم، والمثبت من (ب).

(٤) في (ك) و(ب) فطن.

لك جُعالة^(١) نحملها إليك في كل سنة، وترحل عنا، فعلنا. فأجاب إلى ذلك، ورحل عنهم بعد أن احتوى عليهم.

قال: وتوافت إليه الفُرسان من مصر حتى صار في ثماني مئة فارس من الأتراك، وسار من جبل نفوسة إلى قابس في يومين، ثم إلى قصر الرُّوم وغيره من المواضع والقلاع، فهجم ونَهَبَ وغنم وغلب، وخافه أهل تلك النواحي.

فصل في فتح آمِد*

قال العماد: ثم سار السلطان إلى آمِد، ونزل عليها يوم الأربعاء سابع عشر ذي الحِجَّة بعد أن استأذن الخليفة في ذلك، فأذِنَ له، فنصب السلطان عليها المجانيق وضايقهم وطال حصارهم، ثم أخذها في السنة الآتية كما سيأتي^(٢).

٣٩/٢

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمس مئة

قال ابن أبي طي: والسلطان منازل لآمِد*، واشتدَّ قتال العامة بها، فأمر السلطان بكتِّبِ رقاعٍ فيها إبراقٌ وإرعاد، ووعد وإيعاد: إن داموا على القتال ليستأصِلَنَّ شأفتهم، وإن اعتزلوا وسلَّموا البلد ليحسنَّ إليهم، وليضعن ما عليهم من الكُلف والضرائب. وأمر أن تعلَّق تلك الرِّقاع على السُّهام،

(١) في هامش الأصل بخط مغاير: الجعل والجعالة بمعنى، يعنى به ما يؤخذ من واحد في مقابلة التعب برضى الطرفين، خارجاً عن الحقوق الشرعية.

(٢) «البرق الشامي»: ٥/ش ٦٦، ص ٨٤.

وَتُرْمَى إِلَى أَمَدٍ، فَرُمِيَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ كَثِيرٌ، فَكَفُّوا عَنِ الْقِتَالِ، وَأَشَارُوا عَلَى ابْنِ نَيْسَانَ^(١) بِطَلْبِ الْأَمَانِ، فَأَوْمِنَ عَلَى أَنْ يَخْرُجَ بِجَمِيعِ أَمْوَالِهِ دُونَ الذَّخَائِرِ وَالسَّلَاحِ، وَأُمَهْلَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا عَوَّلَ عَلَى نَقْلِ أَمْوَالِهِ قَعَدَ بِهِ أَصْحَابُهُ، فَأَرْسَلَ إِلَى السُّلْطَانِ، فَأَنْفَذَ إِلَيْهِ غِلْمَانًا وَدَوَابَّ، وَضُرِبَتْ لَهُ خِيْمَةٌ بِظَاهِرِ أَمَدٍ، وَجَعَلَ يَنْقُلُ مَا يَقْدِرُ عَلَى نَقْلِهِ مِنَ الْمَالِ وَالْقُمَاشِ وَآلَاتِ الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ مَدَّةَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ بِعَالَمٍ عَظِيمٍ كَانُوا يَزِيدُونَ عَلَى ثَلَاثِ مِثَّةِ إِنْسَانٍ، وَلَمْ يَنْقُلْ عَشْرَ مَا كَانَ لَهُ، وَسُرِقَ مِنْ أَمْوَالِهِ أَكْثَرُ مِمَّا حَصَلَ لَهُ، لِأَنَّهُ مَا أَخْرَجَ أَحَدٌ شَيْئًا إِلَّا وَأَخَذَ نِصْفَهُ أَوْ أَكْثَرَ.

وَكَانَ ابْنُ نَيْسَانَ قَدْ حَصَلَ فِي أَمَدٍ أَشْيَاءٌ كَثِيرَةٌ لَا يُمْكِنُ وَصْفُهَا مِنَ الْأَسْلِحَةِ وَالْأَمْوَالِ وَالْغِلَالِ وَالْكَتَبِ، وَلَمَّا انْقَضَى الْأَجْلُ أَخَذَ مَا حَصَلَ، وَسَارَ قَاصِدًا بِلَادَ الرُّومِ، وَتَسَلَّمَ السُّلْطَانُ مَدِينَةَ أَمَدٍ بِأَمْوَالِهَا وَذَخَائِرِهَا، وَنَصَبَ أَعْلَامَهُ عَلَى سُورِهَا^(٢)، وَذَلِكَ فِي رَابِعِ عَشَرَ مُحَرَّمٍ، وَوَجَدَ فِيهَا مِنَ الْغِلَالِ وَالسَّلَاحِ وَآلَاتِ الْحَصَارِ مِنَ الْمَنَاجِيْقِ* وَاللَّعِبِ وَالْعَرَادَاتِ* أَشْيَاءٌ كَثِيرَةٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَوْجَدَ فِي بَلَدٍ مِثْلِهَا، وَوَجَدَ فِيهَا بَرْجَ مِنْ أَبْرَاجِهَا فِيهِ مِثَّةُ أَلْفِ شَمْعَةٍ، وَبَرْجَ مَمْلُوءٍ نَصُولِ الثُّنَابِ، وَأَشْيَاءٌ يَطُولُ شَرْحُهَا. وَكَانَ فِيهَا خَزَانَةٌ كَتَبَ فِيهَا أَلْفَ أَلْفٍ وَأَرْبَعُونَ أَلْفَ كِتَابٍ، فَوَهَبَ السُّلْطَانُ الْكَتَبَ لِلْقَاضِي الْفَاضِلِ، فَانْتَخَبَ مِنْهَا حَمَلٌ سَبْعِينَ جَمَّازَةً^(٣)، وَيُقَالُ: إِنَّ ابْنَ قَرَا أَرْسَلَ بَاعَ مِنْ ذَخَائِرِ أَمَدٍ وَخَزَائِنِهَا مِمَّا لَا حَاجَةَ لَهُ بِهِ مَدَّةَ سَبْعِ سِنِينَ حَتَّى

(١) كَانَ وَزِيرَ صَاحِبِ أَمَدٍ، مَرَّ ذَكَرَهُ ص ٤٢٠ مِنَ الْجُزْءِ الثَّانِي، وَانْظُرْ ص ١٤٨ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ.

(٢) فِي (ك) وَ(ب) وَنَصَبَتْ أَعْلَامَهُ عَلَى أَسْوَارِهَا.

(٣) الْجَمَّازَةُ: النَّاقَةُ، انْظُرْ «تَاجُ الْعُرُوسِ» (جَمَزَ)، وَفِي «الْمَعْجَمِ الْوَسِيطِ»: ١٣٥/١
مَرْكَبٌ سَرِيعٌ يَتَخَذُهُ النَّاسُ فِي الْمَدَنِ (شَبَّ الْعَجَلَةُ الَّتِي تَجْرُهَا الْخَيْلُ).

امتلات الأرض من ذخائرها. وكان السلطان لما تسلّم آمد وهبها لنور الدين محمد بن قرا أرسلان بما فيها، وكتب له بها وبأعمالها توقيعاً، ووفى له بما وعده به^(١). وقيل للسلطان: إنك وعدته بآمد وما وعدته بما فيها من الأموال والذخائر، وفيها من الذخائر [ما يساوي]^(٢) ثلاثة آلاف ألف دينار. فقال: لا أضنّ عليه بما فيها من الأموال، فإنه قد صار من أتباعنا وأصحابنا. قال: وفي فتح آمد* يقول سعيد الحلبي^(٣) من قصيدة في السلطان^(٤):

رمى آمداً بالصّافنات فأذعنت	له طاعة آكامها ووعورها
فما عزّ ناديتها ولا اعتاص ^(٥) ثغرها	ولا جاش طاميتها ولا ردّ سورها
وأنزلت بالكُره ابن نيسان مخرجاً	كما أنزل الزّباء كرهاً قصيرها
نهذت لها حتى إذا انقاد صعبها	وقرّ على طول الشّمس نفورها
سمّخت بها جوداً لمن ظلّ برّهة	يغاورها طوراً وطوراً يغيرها
وملّكت ما ملّكت منها تخولاً ^(٦)	وكان قليلاً في نذاك كثيرها
وإن بلاداً تجتديك ^(٧) ملوكها	لأجدر أن يرّجو نذاك فقيرها

وقال ابن سعدان الحلبي^(٨) يذكر فتح آمد، يقول:

(١) انظر ص ١٤٢ من هذا الجزء.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٣) هو سعيد بن محمد الحريري، هاجر إلى مصر في الدولة الناصرية الصلاحية، ترجم له العماد في «الخريدة» قسم شعراء الشام: ١٥٣/٢ - ١٥٤، وأورد بعض أشعاره، وسيأتي بعض أبيات هذه القصيدة ص ١٦٩ من هذا الجزء.

(٤) في الأصل: في السلطان يقول: وكلمة يقول زيادة في النص، وقد أثبتنا ما في (ك).

(٥) اعتاص عليه الأمر: اشتدّ والتوى، والثاث عليه فلم يهتد لجهة الصواب فيه. انظر «معجم متن اللغة»: ٢٤٥/٤.

(٦) أي أعطاه إياها تفضلاً. «اللسان» (خول).

(٧) تجتديك: أي تسألك العطية. «اللسان» (جدا).

(٨) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٨٤ من الجزء الثاني.

فيا ساكني الرَّغْناء^(١) من سَفَحِ آمِدٍ أرى عارضاً ينهلُ بالموتِ هاطِلُهُ
لئن غَضِبْتَ يوماً عَلَيْكُمْ عروشها فهذا ابنُ أيوبٍ وهذي معاقِلُهُ
ولو رامها يوماً سِوَاهُ لَقُطِعَتْ أبَاهِرُهُ من دُونِهَا وأبَاجِلُهُ^(٢)

قلت: وقال آخر:

لَوْ عُرِفَتْ آمِدُ مَنْ جَاءَهَا يَخْطُبُ فِي الْإِسْلَامِ تَسْلِيمَهَا
لَصَيَّرَتْ أَعْلَى شَرَارِيفِهَا لِمَنْ عَلَى الْأَرْضِ سَلَالِمَهَا

قال العماد: وأما آمِد فَحَصَلَ فَتَحُهَا يوم الأحد في العَشر الأول من المحرَّم، وكان مدبرُ آمِد ابن نَيْسان^(٣)، فهو رئيسُها والقائم بأمرها، وكان لآمِد أميرٌ قديم يُقال له إيكَلدي من أيام السَّلاطين القدماء، وولده محمود شيخ كبير عنده يطعمه ويسقيه، ويدَّعي أنه من غِلْمَانِه ومُصْطَنعِيه، وأنه يحفظُ البلد له، وأنه لا يغدر به ولا يُؤثر بَدَلَه، وإذا جاء رسولٌ يحضره عند أميره، ويسند ما يدبِّره إلى تدبيره، ويقول: إنه غلام وما معه كلام. وحافظ على سر هذه السَّريرة، وأمن باحتياطه من جَوْرِ الجيرة، بل ما منهم إلا من يخاف مكره، ويحفظ منه وكره، وينكر عُرْفَه ويعرف نُكْرَه.

ولم يزل الحصار عليهم إلى أن أذعنوا للانقياد، وخرجت نساؤهم سَحْراً إلى المخيَّم الفاضلي يطلبن الأمان، فأَمَنَهم السُّلطان على أنهم

٤٠/٢

(١) الرغناء: أنف الجبل المتقدم. «اللسان» (رعن).

(٢) أباجل جمع، مفردا أبجل، وهو عرق في باطن الذراع، وقيل: هو عرق غليظ في الرجل فيما بين العصب والعظم. «اللسان» (بجل).

(٣) في (ب) أبو القاسم علي بن نيسان. قلت: انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٤٦ من هذا الجزء.

يخرجون بعد ثلاث، ويحملون ما قدروا عليه من المال والأثاث، وأعانهم السلطان على نقل الأموال بالدواب والرجال. فلما انقضت مدة الأمان تسلمها السلطان، وسلمها إلى نور الدين بن قرا أرسلان وأعمالها وما فيها. وكان السلطان وعده بها قبل ذلك، فأنجز له الوعد، وقد كان أبوه عاناها مدة وتمناها فما قدر عليها.

ثم وصف العماد ما كان في قلعة آمد* من الذخائر والأموال والحواصل والأمتعة، وأن أصحابها لم يقدروا في تلك الأيام الثلاثة إلا على تحويل ما خف منها، واستغنى المساعدون لهم في تحويلها إليهم^(١).

وكتب الفاضل عن السلطان إلى الديوان ببغداد: وَرَدَ إِلَى الْخَادِمِ التَّقْلِيدِ الشَّرِيفِ بُولَايَةِ آمِدَ، فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ: هَذَا مِفْتَاحُهَا. وَسَمِعَ الْوَصَايَا فَاسْتَضَاءَ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْقَصْدِ وَقَالَ: هَذَا مِصْبَاحُهَا. وَتَنَاوَلَهُ فَمَا ظَنَّهُ إِلَّا كِتَابًا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ فِي قِرْطَاسٍ، وَمَا تَبَيَّنَ إِلَّا نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ، فَسَارَ بِهِ وَلَوْلَا الْعَادَةُ مَا اسْتَصْحَبَ جُنْدِيًّا وَعَوَّلَ عَلَيْهِ، وَلَوْلَا الزَّيْنَةُ^(٢) مَا تَقَلَّدَ هِنْدِيًّا وَطَرَقَ بَابَهُ بِإِقْلِيدِهِ، وَلَوْلَا مَا اسْطَاعَ الْأَوْلِيَاءُ أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقَبًا^(٣)، وَنَاشَدَ الْمُقِيمَ بِتَقْلِيدِهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ بِثَلَاثِ^(٤) رِسَائِلٍ، فَلَوْ كَانَ ذَا سَمْعٍ أَصْغَى، وَلَوْ كَانَ ذَا لُبٍّ لَبَّى. فَلَمَّا انْقَضَتْ ضِيَافَةُ أَيَّامِ النَّذَارَةِ^(٥)، وَاحْتَقَرَّ مَنْ بَامَدَ نَارَ الْحَرْبِ جَاهِلًا أَنْ وَقُودَهَا النَّاسُ

(١) انظر «البرق الشامي» ٥/ش ٧ - ٨١، ص ٨٧ - ٩٦.

(٢) في الأصل و(ب) الرتبة، والمثبت من (ك).

(٣) اقتباس من قوله تعالى في سورة الكهف، الآية ٩٧ ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾.

(٤) في الأصل: بثلاثة، والمثبت من (ك) و(ب).

(٥) أي الإنذار، وهو الإعلام مع التخويف. «معجم متن اللغة»: ٥/٤٣٤.

والحجارة^(١)، عَمَدَ لها في اليوم الرابع فزلزل عُمُدَهَا، وقاتلها فأزال جُنْدَهَا وزَيَّلَ جَلَمَدَهَا، ثم رأى أن الشُّوكَةَ ربما أصابت غير ذات الشُّوكَةَ من جُنْدَهَا، وأن المُسْلِم قد آمنه الله من عذاب الحريق، ولا يأمن أن تحرقه القِسيُّ من السَّهام بِشَرَارِ زَنْدَهَا، فَعَدَلَ إلى منجنيقه، الذي أمَلَّ صاحبُها منه منجى نِيَقِهِ^(٢)، ورأى أنه سَوُطٌ سَطُوتُهُ، يَضْرِبُ الحَجَرَ، وَيُضْرِبُ عن أن يُباشِرَ البَشَرَ، وتلك الأبرجة قد شَمَخَتْ بأنفِها، ونأت بعِطْفِها، وتاهت على وامقِها، وَغَضَّتْ عَيْنَ رَامِقِها، فهي في عقاب لُوح^(٣) الجو كالطَّائر، إلا أن المنجنيق أغرى بها عُقاييه، وَضَعَمَهَا^(٤) بمخاليبه^(٥)، وجثم أمامها يخاصمها، وقام إلى الغير يحاكمها، ويضرب بعصاه الحَجَرَ، فتنبجس من الثُّقوب أعينٌ لا ترسلِ الماءَ، ولكن تروي العطاش إلى منهل المدينة، وتنهل الظَّماء كذلك أياماً حتى محا من الشُّرفات شَنَبَ ثَغْرَها، وتناوبها كَأْسُ فَتَكٍ تبين بهزُّ أبراجها آثارُ سُكْرَها، وَعَلَتِ الأيدي الرَّامية لها، وَغَلَّتِ الأيدي المحامية عنها، فلم يبق على سورها مَنْ يفتح جَفَنًا، وشنَّ المنجنيق عليها غارَتَه إلى أن صارت شَنًّا، وَفُضَّتْ صناديقُ الحجارة المُقْفَلَة، وَفُضَّتْ منها أعضاء الشُّور المتَّصلة، ووجب القتال لثلا يُظَنَّ بالخادم ألا جُنْدَ له إلا جُنْدَ لَه، فأوعز بالتقدُّم إليها، ودخول النَّقابين فيها، فَأُتِخَتْ جراحاً بالثُّقوب، وَهُتِكَ الحجابُ من أضالع البلد، فكاد يوصل إلى ما وراءها من القلوب، وَخُشِيتَ معرَّةُ الجيش في

(١) اقتباس من قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ سورة البقرة، الآية: ٢٤.

(٢) التِّيَق: أرفع موضع في الجبل. «معجم متن اللغة» ٥/٥٧٩.

(٣) اللُّوح: الهواء. «اللسان» (لوح).

(٤) الضغم: العض الشديد. «معجم متن اللغة»: ٣/٥٥٥.

(٥) في الأصل: بمخاليبه، والمثبت من (ك) و(ب).

وقت هَجْمه، وَرُؤِيسِ صاحبها بأنه كشف له الخِذْلان حتى بَصُرَ^(١) على شَكِّه بعِلْمه، فأعادَ الرسولُ مُسْتَكْنَفًا^(٢) بحجب التَّجاة بإرسال ذوات الحجاب وإبرازهن، ومستكفًا ليد القتل بمن لم يكن جوابه غير إحرازه وإحرازهن، ولم يُعارِضْ في نفسه ولا في قومه ولا في أمواله وهي ما هي؛ ذخائر موفِّرة، ومكاسب من أرياح مخسِّرة، كانت الحقوق عنها مذودة^(٣)، والآمال دونها مطرودة. وَغَضَّ الخادم كُلَّ عين عن عَيْنه وَوَرِقَه، وصانَه في مخيَّمه من الفقر صيانتَه في ذات سُوره وَخُنْدِقَه، واستوفى شَرَطَ الوفاء بما أعطاه من مَوْثِقَه.

وهذه آمِد* فهي مدينةٌ ذِكْرُها بين العالم مُتَعالم، وطالما صادَمَ جانبها من تقادم، فرجع مَقْدُوعاً أَنفَه وإن كان فَحْلاً^(٤)، وَقَرَعَهَا فريدُ الهِمَّةِ واستصحب حَفْلاً، ورأى حَجَرها فَقَدَّرَ أَنه لا يُفَكُّ له حَجَر، وسوَادَها فحسب أَنه لا ينسخه فَجَر، وَحِمِيَّةَ أَنفِ أَنفِها فاعتقد أَنه لا يستجيب لِزَجَر، من ملوك كلهم طوى صَدْرَه على الغليل إلى موردها، ووقفَ بها وقوف المُحِبِّ المسائل فلم يَقْزُ بما أَمَلَ من جواب معهدِها^(٥).

ثم ذكر تسليمها إلى ابن قرا أرسلان، ثم قال: ولما رأى صاحب مَيَّافارقين* أَن أخت صاحبتَه قد ابْتَنِي بها، خاف أَن يُجمع له بين الأختين،

(١) في الأصل و(ب) نصر، والمثبت من (ك).

(٢) في الأصل: مستكفًا، وهو تحريف، والمثبت من (ك) و(ب): أي محاطاً. انظر «اللسان» (كنف).

(٣) في الأصل: مذادة، والمثبت من (ك) لتناسب السجعة.

(٤) كان الفحل غير الكريم إذا قُرِبَ من النَّاقَةِ الكريمة لِيَقْعُوَ عليها قَدَع أَنفه: أي ضرب أَنفه بالرمح أو غيره حتى يرتدع وينكف. «اللسان» (قدع).

(٥) «البرق الشامي» ٥/ش ٨٦ - ٨٨، ص ١٠٠ - ١٠٢.

فراسل ببذل الخِدْمَة التي يكون فيها لنور الدين ثاني اثنين^(١).

ثم ذكر اجتماع المواصلَة وشاه أرمن وصاحب ماردين* وصاحب
أرزن* وبذليس، وغيرهم على قَصْدِ الخادم، ونزلوا تحت الجبل، فلما صحَّ
عندهم قَصْدُهُ، ظنُّوا أنه واقعٌ بهم، فأخذوا أَعِنَّةَ الفرار بقوة، وذكروا ما في
لقائه من عوائد كانت عندهم مَخُوفَة وعنده مرجوة، وسار كلُّ فريقٍ على
طريق، مِنِّيَّةِ عدوٍّ وفعلٍ صديق، والخادم يقول مهما أرادت فيه الآراء الشريفة
أناته، ومهما نَوَتْ فيه من إحسانٍ قَرَّبَ عليه ما نواه، فهذه أمد* لما أرسل إليه
مِفْتَاحُهَا وهو التَّقْلِيدُ فَتَحَهَا، وهذه المَوْصلُ لما تأخر عنه المِفْتَاحُ مُنْعَهَا وما
مُنَحَهَا، ولو أُعِينَ به لَعَظَمَتْ على الإسلام عائدته، وظهرت في رفع^(٢) مناره
فائدته، لأنَّ اليد كانت تكون به على عدو الحق واحدة، والهمة لآلات النَّصْر
واجدة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يميِّزَ بين أوليائه، وَيَنْظُرَ أَيُّهُمْ أَبْرُ بأوليائه،
وأشدُّ على أعدائه، وأقومٌ بحقِّه وحقِّ آبائه، وأثبتُ رأياً ورويةً في مواقف
راياته، ومجالس آرائه، وأعظمُ إقداماً على ملحدٍين كلَّهم كان يُنازعه رداء
علائه، وكان السَّابِقُ من ولاة الدولة العَبَّاسية قاصر السَّيف عن أن نسيغ
الغُصَّةَ بمائه، وأَيُّهُمْ أَتْرَكَ للفراس الممهَّد، وأهتَكَ للطَّرَاف^(٣) الممدَّد،
وأهجرُ في سبيل الله لراحِه، وأصبرُ في جهاد عدو الله على مضض جراحِه،
وأسلى عن ريحانة فؤاد، وأكثر ممارسةً لحية واد، فيختار لهذه الأمة التي
جعله الله لها إماماً وأميراً، أسعدَ من أجرى في طاعته ضامراً وملأ بولائه
ضميراً، فمن عدله أن يُولي عليها العَدْلَ الذي يقرُّ عَيْنَهَا، ومن فضله أن

(١) «البرق الشامى» ٥/ش ٨٨، ص ١٠٢.

(٢) في الأصل: وقع، وهو تحريف، والمثبت من (ك).

(٣) في الأصل: للطريق، وهو تحريف، والمثبت من (ك).

لا ينسى الفضل بينها^(١).

وقد ورد ذلك المنشور بآمد* فأورد الميسور، بأن ورد المنشور المُشار إليه بالجزيرة وما وسَّقت، فإنه نورٌ على نور، وما يحسبُ الخادمُ أن كيداً للعدوِّ الكافر أكيد، ولا جهداً لأهل الضلال أجهد، ولا عائدةً بغيط رؤساء أهل الإلحاد أعود، من تفخيم أمر الخادم بمزيد الاستخدام، وإلا فليُنظر، هل يشقُّ على الكُفَّار مزيدُ أحدٍ سواه من ولاة الإسلام، فكلُّ ذي سلطان هو الطَّاعِم الكاسي، المَحْمِيُّ بالمناصل لا الحامي، المَكْفِي لا الكافي، يقضي عُمره وهو لا يشهدُ الطَّعنَ إلا في المِئْدان، ولا يتمثلُ الهام طائراً لولا الكُرة في الصَّولجان، ولا يَشْقَى بسهمه إلا قِرطاشه، ولا يحظى برِفده إلا أكياسه، فأعاد الله بأمر المؤمنين هذا الدِّين إلى معالم حقِّه الأولى، وأطال يد سُلطانهِ الطُّولى، إلى أن تأخذ الأمور مأخذها عدلاً واعتدالاً، وسِلماً و قتالاً، فتعود إلى الإسلام عوائدُ ارتياحه، وأيامُ منصوره وسَفَاحه.

ومن كتابٍ آخر فاضلي عن السُّلطان إلى وزير بغداد: أَصَدَرَ هذه الوسيلة إلى المجلس السَّامي، معوّلاً على كرمه فيما حَمَلْتُهُ من اللُّبانة، مستغنياً بشهرة الحال المتجدِّدة عن الإيابة، فإن آمد* قَصُرَ الأمدُ في الظَّفَر بها، وإنقاذها من المظالم التي [كانت]^(٢) تُلبَسُ نهارها نُقْبَةً غَيْهَبها، وسار إليها ببقية العساكر بعد الذين ساروا إلى الشَّام، وأقاموا قبالة الكُفَّار، بعدة اقتصر عليها أكثرها من عساكر الدِّيار المصرية على بُعد تلك الدِّيار، لِيُظْهَرَ

(١) انظر بعض الفقرات من هذا الإنشاء الفاضلي في «البرق الشامي» ٥/ش ٦٥ - ٦٦،

٨٩، ص ٨٤، ١٠٣.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

لمن نوى المناواة، ويتبين لمن كان على منافاة الملاقة، أن رجالاً^(١) من مضر فتحوا أمِد بعد سنة من اليكار^(٢)، وبعد غزوتين قد طولع بهما في تواريهما إلى الكفار، ففي ذلك ما يغص الحاسد، ويغص الحاقد، ويعلم أن في أولياء الدولة ما ردَّ كلَّ مارد. فلما حلَّ بعقوتها^(٣) أراد أن يُجري الأمر على صوابه، ويلج الأمر من بابه، وأن يُنذر المغتَرَّ ويوقظه، ويعظه بالقول الذي رأى من الرفق. ألا يُغلظه، فبعث إليه أن يهَبَّ من كراهه، ويُعدَّ لضيف التقليد قراه، وينجو بنفسه منجى الذباب^(٤)، ولا يتعرض^(٥) لأن يكون متجى للذباب^(٥)، فإذا عريكته لا تلين إلا بالعراك، وطريدته لا تُصاد إلا بالأشراك^(٦)، فهناك رأى عاجلاً ما هناك، وقوتل حقَّ القتال في يوم واحد، عرف ما بعده من الأيام، ووقع الإشفاق من روعة الحريم وسفك [الدم]^(٧) الحرام، ونصب المنجنيقات، فأرسل عارضها مطره، وفطر السور بقدرة الذي فطره، وخطبَ أمامها خطيبُ خطبه، وأغمد الصَّارم اكتفاءً بضربه، وترَفَّه أهلُ الحرب لِحُسْنِ المناب منه عن حربه، فصار في أقرب الأوقات جبلها كثيباً مهيلاً، وعُفرت الأبرجة وجهاً تريباً، ونظرت القلعة نظراً كليلاً، حتى إذا أمكنت الثُّقوب أن تُؤخذ، وكبد السور أن تُفلد، رأى الذي لا يصبر

(١) في الأصل: وأن رجالاً، والمثبت من (ك).

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٦١ من هذا الجزء.

(٣) العقوة: الساحة، وما حول الدار والمحلة. «اللسان» (عقا).

(٤) هذا كقول الشاعر:

نجا بك لؤمك منجى الذباب حتمه مقاذيره أن يُثالا

انظر «التمثيل والمحاضرة» للثعالبي: ٣٧٥.

(٥ - ٥) ما بينهما ساقط من (ك).

(٦) الشُّرك: حباله الصائد: كل ما ينصب للصيد. انظر «معجم متن اللغة»: ٣/ ٣١٢.

(٧) ما بين حاصرتين من (ك).

على بعضه، واعتذر إليه البناء الذي بناء الأمر إن لم يقضه، فلا بُدَّ من نقضه، وسأل فأجيب إلى الأمان على نفسه، وخرج منها وإنما أخرجه الظلم، وسلم وهو يرى السلامة إما من الحلم وإما من الحلم.

ثم قال: ولولا تقليدُ أمير المؤمنين لما فُتحَ له البابُ الذي قرَّعه، ولا أنزل عليه النَّصْرُ الذي أنزل معه، ولا ساعدَ سيفاً ساعد، ولا نالت يدُ مُدَّت من مِصرٍ فأخذت أمدَ مَنْ بآمد، ولو قُبلت مسألته في تقليد الموصول، لكان ولجها ولو بدلجةً أدلجها، وأخذها ولو بحصاةً نبذها، وهو يتوقَّع في جواب هذا الفتح أن يمدَّ بجيشٍ هو الكلام، ورماح هي الأقلام، ونصرٍ هو وافد الأمر، وترشيده هو فكُّ الحجر، وليس ذلك لوسائل [تقدَّمت] ^(١) من دولة أقامها بعد ميل عُروشها، ولا لدعوةٍ قام فيها بما تصاعرتُ دونه همُّ جيوشها، ولكن لأن هذه الجزيرة الصغيرة منها تنبعث الجريرة الكبيرة، وهي دار الفرقة ومدار الشُّقَّة، ولو انتظمت في السِّلْك، لانتظم جميع عسكر الإسلام في قتال الشُّرك، ولكان الكُفر يُلقَى بيديه، وينقلبُ على عقبه، ويغشاه الإسلام من خلفه ومن بين يديه، ويُغزى من مِصرٍ براً وبحراً، ومن الشَّام سراً وجهراً، ومن الجزيرة مدّاً وجزراً، ويكون خادمه قد وجب أن يتمثَّل بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ ^(٢).

ومن كتابٍ آخر: كتابنا هذا والمدينة قد فُتحت أبوابها، وعُدقت ^(٣) بدولتنا أسبَابها، وتكلَّم لسان عَلمنا في فم قلعتها. وبعد أن لبستها دولتنا، وفينا بموعد خِلعتها، فالحمد لله الذي تتمُّ النعمة ^(٤) بحمده، وينجحُ الأملُ

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) سورة طه، الآية: ٣٧.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٩٠ من هذا الجزء.

(٤) في (ك) النعم.

بقضده ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا، وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾^(١).

قال العماد: ثم دخل السلطان مدينة آمد*، وجلس في دار الإمارة، وحلّف نور الدين بن قرا أرسلان على أنه يُظهرُ بها العدل، ويقمع الجور، ويكون سامعاً مطيعاً للسلطان؛ من معاداة الأعداء، ومصافاة الخلّان، في كلِّ وقتٍ وزمان، وأنه متى استمّده من آمد لقتال الفرنج وجده لذلك يقظان، وإليه عطشان^(٢). ٤٢/٢

قال: وكان هذا نور الدين في خدمة السلطان بنفسه وعسكره منذ عبر الفرات، ثم إن رُسلَ ملوك الأطراف اجتمعت عند السلطان كل يطلب لصاحبه الأمان، وأن يتخذه من جُملة الأعوان؛ منهم صاحب ماردين*، وصاحب ميّافارقين*، وهما قريباً ابن قرا أرسلان، فردّ السلطان كلَّ رسولٍ بسوله، وأجاب إقباله بقبوله^(٣). ثم رحل السلطان من آمد، وعبر الفرات لقصد حلب وولاياتها، فتسلّم في طريقه تل خالد* بالرّغب، ولم يكن منهم بالقرب، فأقرّ أهلها فيها، ثم نزل على عين تاب*، فبادر صاحبها ناصح الدين محمد بن خمارتيكين إلى خدمة السلطان، فأعاده إلى مكانه بالإحسان^(٤).

وقال ابن أبي طي: تسلّم السلطان تل خالد في رابع عشر محرّم،

(١) سورة فاطر، الآية: ٢، وانظر «البرق» ٥/ش ٨٢، ص ٩٧.

(٢) «البرق»: ٥/ش ٩١ - ٩٢، ص ١٠٤ - ١٠٥.

(٣) «البرق»: ٥/ش ٩٧، ص ١٠٩ - ١١٠.

(٤) «البرق»: ٥/ش ١٠٠، ص ١١٢.

وسلمها إلى بدر الدين دُلْدُرُم^(١).

ومن كتابِ فاضلي: نزلنا تل خالد* يوم الثلاثاء ثاني عشر محرّم، وكان قد تقدّمنا الأجلُ تاجُ الملوك إليها، وأناخ عليها، وقابلها وقاتلها، وعالجها ولو شاء لعاجلها، ولما أطلّت عليها^(٢) راياتنا ألقى من فيها بيده، وأنجز النَّصْرَ صادقُ موعده، وأرسلتها حلب مقدّمةً لفتحها، وقد أنعم الله علينا بنعم لا نحصيها تعداداً، ولا نستقصيها اعتداداً، ولا نستوعبها ولو كان النَّهارُ طَرَساً والبحرُ مداداً، ورايتنا المنصورة قد صارت مغناطيس البلاد تجذبُها بطبعها، وسيوفُنا قد صارت مفاتيح الأمصار تفتحها بنصر الله لا بحدّها ولا بقطعها^(٣).

قلتُ: وما أحسن ما قال التَّلَّغْفَرِيُّ^(٤) من قصيدةٍ له في السُّلْطَانِ:

قل للملوكِ تنحَّوا عن ممالككم فقد أتى آخذُ الدُّنْيَا ومُعْطِيهَا

فَصْل

في فتح حلب

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: لما عاد السُّلْطَانُ بدأ بتل خالد، فنزل عليها وقاتلها، وأخذها في ثاني عشر محرّم سنة تسع وسبعين، ثم سار إلى حلب،

(١) أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وقد ذكر أبو شامة في «المذيل على الروضتين» وفاته سنة (٦١١ هـ).

(٢) في الأصل: عليه، والمثبت من (ك).

(٣) «البرق الشامي»: ٥/ش ٩٨ - ٩٩، ص ١١٠ - ١١١.

(٤) هو مظفر بن محمد، موفق الدين، فيلسوف من الشعراء، من أهل تل أعفر من حصون سنجار، توفي سنة (٦٠٢ هـ)، انظر ترجمته في «الغصون الياصرة»: ٥٩ - ٦٥.

فنزل عليها في سادس عشري المحرم، وكان أول نزوله بالميدان الأخضر، وسير المقاتلة يقاتلون، وبياسطون عسكر حلب بياقوسا* وباب الجنان* غُدوة وعشية. وفي يوم نُزوله جُرح^(١) أخوه تاج الملوك. وكان عماد الدين زنكي^(٢) قبل ذلك قد خرج وخرب قلعة عزاز* في تاسع جمادى الآخرة سنة ثمان وسبعين، وخرب حصن كفرلاثا*، وأخذها من بكمش، فإنه كان قد صار مع السلطان، وقاتل تل باشر*، فلم يقدر عليها، وجرت غارات من الفرنج على البلاد بحكم اختلاف العساكر^(٣).

قال: ولما نزل السلطان على حلب استدعى العساكر من الجوانب، فاجتمع خلق كثير، وقاتلها قتالاً شديداً، وتحقق عماد الدين زنكي أنه ليس له به قبل، وكان قد ضرس من اقتراح الأمراء عليه وجبهم، فأشار إلى حسام الدين طمان أن يسفر له مع السلطان في إعادة بلاده، وتسليم حلب إليه، واستقرت القاعدة، ولم يشعر أحد من الرعية ولا من العسكر حتى تم الأمر، ثم أعلمهم، وأذن لهم في تدبير أنفسهم، فأنفذوا عنه وعن الرعية عز الدين جرديك وزين الدين بلک، فبقوا عنده إلى الليل، واستحلفوه على العسكر وعلى أهل البلد، وذلك في سابع عشر صفر، وخرجت العساكر إلى خدمته إلى الميدان الأخضر ومقدمو حلب، وخلع عليهم، وطيب قلوبهم، وأقام عماد الدين بالقلعة يقضي أشغاله وينقل أقمشته وخزائنه إلى يوم الخميس ثالث عشري صفر^(٤).

(١) في الأصل: خرج، وهو تصحيف، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) في الأصل: عماد الدين بن زنكي، وهو خطأ، والمثبت من (ك) و(ب).

(٣) انظر «النوادر السلطانية»: ٥٨ - ٥٩، ولم يسق أبو شامة الأخبار كما وردت، بل قدم فيها وأخر.

(٤) «النوادر السلطانية»: ٥٩.

وفيه توفي تاج الملوك أخو السُّلطان من الجُرح الذي كان أصابه، وشقَّ عليه أمر موته، وجلس للعزاء^(١).

قلت: وكان أصغر أولاد أيوب، ذكر ابن القادسي^(٢) أن مولده سنة ست وخمسين في ذي الحِجَّة، فيكون عمره اثنتين وعشرين سنة وشيئاً، وأنشد له شعراً.

وقال العمادُ الكاتب في كتاب «الخريدة»: إنه لم يبلغ العشرين سنة، وله نظمٌ لطيف، وفهْمٌ شريف^(٣).

ثم قال القاضي أبو المحاسن: وفي ذلك اليوم نزل عماد الدين إلى خدمته وعزَّاه، وسار^(٤) معه بالميدان الأخضر، وتقرَّرت بينهما قواعد، وأنزله عنده بالخيمة، وقَدَّم له تقدمةً سنِّيَّة، وخيلاً جميلة، وخلع على جماعة من أصحابه. وسار عماد الدين من يومه إلى قَرَا حِصَار* سائراً إلى سِنْجَار*، وأقام السلطان بالمخيِّم بعد مسير عماد الدين غير مكترثٍ بأمر حلب ولا مستعظمٍ لشأنها إلى يوم الاثنين سابع عشرين صفر، ثم صَعَدَ في ذلك اليوم قلعة حلب مسروراً منصوراً، وعمل له حسام الدين طُمان دعوةً سنِّيَّة، وكان قد تخلَّف لأخذ ما تخلَّف لعماد الدين من قُماش وغيره^(٥).

وقال العماد: وصل السُّلطان إلى حلب وفيها عماد الدين زَنَكِي بن

(١) «النوادر السلطانية»: ٦٠.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥١ من هذا الجزء.

(٣) «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ١٣٦، وقد ساق في ترجمته ثمت أبيات من شعره.

(٤) في الأصل و(ك) وسير، والمثبت من «النوادر».

(٥) «النوادر السلطانية»: ٦٠.

مودود^(١) الذي كان صاحب سنجار، وقد تحصّن بكثرة الأجناد والعُدَد، وأراد مقابلة السلطان ومقاتلته، وأراد السلطان أن يظفر بها بدون ذلك من القتال وعداوة الرجال، لكن الشّباب وجُهاًل الأصحاب راموا القتال، وأحبُّوا التّزال، وتقدّموا وأقدموا، والسلطان ينهاهم فلا ينتهون، وكان فيهم تاج الملوك^(٢) بوري أخو السلطان، فطعن في فخذة، ثم مات بعد ذلك بأيام بعد فتح البلد. وكان السلطان ذلك اليوم قد صنع وليمةً لعماد الدين زنكي، وكان السلطان أول ما نزل على حلب نزل في صَدْر الميدان الأخضر، وذلك في زمن الرّبيع الأنصر، ثم رحل ونزل على جبل جَوْشَن*، ونهى عن القتال، وقال: نحن هاهنا نستغلُّ البلادَ، وما علينا من الحصن الذي بلغ منه هذا العناد. ونفَّذَ رُسُلَ الترهيب إليهم، ففكَّرَ عماد الدين [زنكي]^(٣) في أمره، ورأى أن الصّواب مصالحةُ السلطان، فنفَّذَ سرّاً إليه حسام الدين طُمان، وصالحه، وحلّفه على أن يُسلِّمَ إليه حلب، ويرد عليه بلدة سنجار. ففعل وزاده الخابور* ونصّيبين* والرّقة وسرّوج*، واشترط عليه إرسال العسكر في الخدمة للغزاة^(٤).

ومن كتبٍ فاضلية: تسلّمنا مدينة حلب وقلعتها بسِلْمٍ وَضَعَتْ به^(٥) الحَرْبُ أوزارها، وبلغت بها الهِمَمُ أوطارها، وعوَّض صاحبُها بما لم يخرج عن اليد، لأنّه مشترط عليه به الخدمة بنفسه وعسكره، ومختلط بالجملة فهو أحدُ الأولياء في مغيبه ومحضره، عوَّض عماد الدين عنها من بلاد الجزيرة

(١) في (ك) ممدود، وهو خطأ.

(٢) في الأصل: الدين، والمثبت من (ك) و(ب).

(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

(٤) «البرق الشامي» ٥/ش ١٠١ - ١١٠، ص ١١٣ - ١٢٠.

(٥) في الأصل: بها، والمثبت من (ك).

سِنَجَار* وَنَصِيبِينَ* وَالخَابُور* وَالرَّقَّةَ وَسَرُوج*، فهو صَرَفٌ بالحقيقة؛ أخذنا فيه الدِّينَارَ وأعطينا^(١) الدِّراهم، ونزلنا عن المبيحات وأخْرَزْنَا العواصم، وسَرَرْنَا أنها انجلت والكافر المحارِبُ، والمُسلمُ المسالِمُ^(٢). واشترطنا على عماد الدِّين الخدمة والمظاهرة، والحضور في مواقف الغزو^(٣) والمُصَابرة، فانتظم الشَّمْلُ الذي كان نثيراً، وأصبح المؤمن بأخيه كثيراً، وزال الشَّغْبُ، وأُخمد اللُّهْبُ، وأتَّصل السَّبَبُ، وأُخذت للغزاة الأهُبُ، ووصلت إلى غايتها هِمَّةُ الطَّلَبِ، والألفة واقعة، والمصلحة جامعة، وأشعة أنوار الاتفاق شائعة^(٤).

فتحنا مدينةَ حلبِ بسِلْمٍ ما كشفت لِحُرْمَتِهَا قِنَاعاً، وتسَلَّمْنَا قلعتها التي ضمنت أن نتسلَّم بعدها بمشيئة الله قِلاعاً، وعُوَّض صاحبها من بلاد الجزيرة ما اشترط عليه به الخدمة في الجهاد بالعدَّة الموفورة، فهي بيدنا بالحقيقة، لأن مرادنا من البلاد رجالُها لا أموالُها، وشوكتها لا زهرتها، ومناظرتها للعدو لا نضرتها، وأن تَعْظُمَ في العدوِّ الكافر نكايتها، لا أن تُعَدَّقَ^(٥) بالولي المسلم ولايتها. والأوامر بحلب نافذة، والرَّايَاتُ بأطراف قلعتها آخذة^(٦).

وجاء أهل المدينة يستبشرون، وقد بلغوا ما كانوا يؤمِّلون، وأمنوا ما كانوا يحذِّرون، وعُوَّض صاحبها ببلادٍ من الجزيرة، على أن تكون

(١) في الأصل: وأعطيناه، والمثبت من (ك).

(٢) في الأصل: والمسلم فهو المسالِم، والمثبت من (ك).

(٣) في (ك) العز، وفي «البرق» العزم.

(٤) انظر «البرق الشامي» ٥/ ١٢١ - ١٢٢، ص ١٢٨ - ١٢٩، ففيه تقديم وتأخير في سياق الكتاب المذكور.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٩٠ من هذا الجزء.

(٦) «البرق» ٥/ ١٢٢ - ١٢٣، ص ١٢٩.

العساكر مجتمعة على الأعداء، مُرَصَّدة للاستدعاء، فالبلاد بأيدينا لنا مغنمها ولغيرنا مغرمها، وفي خدمتنا ما لا نسمح به وهو عسكرها^(١)، وفي يده ما لا نضنُّ به وهو درهمها.

شرطنا على عماد الدين النجدة في أوقاتها، والمظاهرة على العداة عند ملاقاتها، فلم يخرج منا بلدٌ إلا إلينا عاد عسكره، وإنما استتبنا فيه من يحمل عنا مؤنته ويدبره، ويكون عساكره إلى عساكرنا مضافة، ونتمثل قوله سبحانه وتعالى ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾^(٢).

[و]^(٣) نشعر الأمير بما منَّ الله به من فتح مدينة حلب التي هي مفتاح البلاد، وتسلم قلعتها التي هي أحد ما رست به الأرض من الأوتاد، فله الحمد، وأين يقع الحمد من هذه المنة، ونسأل الله الغاية المطلوبة بعد هذه الغاية وهي^(٤) الجنة. وصدرت هذه البُشرى والمواردُ قد أفضت إلى مصادرها، والأحكام في مدينة حلب نافذة في باديتها وحاضرها، وقلعتها قد أناف لواؤنا على أنفها، وقبضت على عقبه بكفها، واعتذرت من لقائه أمس برشفها، ورأينا أن نتشاغل بما بورك لنا فيه من الجهاد، وأن نوسّع المجال فيما يُضيقُ [به]^(٥) تقلُّبُ الذين كفروا في البلاد^(٦).

قلتُ: ولأبي الحسن بن الساعاتي^(٧) في مدح السلطان عند إرادة فتح حلب قصيدة، منها:

(١) في (ك) عسكرنا.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

(٤) في الأصل: فهي، والمثبت من (ك).

(٥) ما بين حاصرتين من طبة وادي النيل: ٤٣/٢.

(٦) «البرق الشامي» ٥/ش ١٢٣، ص ١٣٠.

(٧) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٨ من هذا الجزء.

ما بعد لُفْيَاكَ لِلْعَافِينَ^(١) من أَمَلٍ
فَانْهَضْ إِلَى حَلَبٍ فِي كُلِّ سَابِقَةٍ سُرُوجُهَا قُلْلٌ^(٢) تُغْنِي عَنْ الْقُلْلِ
مَا فَتَحَهَا غَيْرُ إِقْلِيدٍ^(٣) الْمَمَالِكِ وَالذِّ (م) اعْيِ إِلَيْهِ جَمِيعُ الْخَلْقِ وَالْمَلَلِ
وَمَا عَصَتْ مَنَعَةً لَكِنَّهُ غَضَبٌ عَلامَ أَهْمَلْتَهَا إِهْمَالٌ مُبْتَذِلٌ
غَارَتْ وَحَقِّكَ مِنْ جَارَاتِهَا فَشَكَتْ مَا بِالْهَ باقتضاضي غَيْرُ مُحْتَقِلٍ^(٤)

[قلت: وهذا معنى حسن يشير إلى أنها كانت من آخر البلاد الإسلامية
فتحاً على يديه، فلهذا غضبت إذ كان من حقها لجلالة قدرها أن تخطب
أولاً]^(٥).

وللقاضي السعيد ابن سناء الملك^(٦) من قصيدة:

بِدَوْلَةِ التُّرْكِ عَزَتْ مِلَّةٌ^(٧) الْعَرَبِ وَبِابْنِ أَيُوبَ ذَلَّتْ بِنَعَةُ الصُّلْبِ

(١) وتجمع أيضاً على عفاة، مفردا العافي، وهو الضيف، وطالب المعروف. «اللسان»
(عفا).

(٢) القلل جمع، مفردا قُلَّةٌ، وهي من كل شيء أعلاه، ومنه: قلة الجبل. «اللسان»
(قلل).

(٣) الإقليد: المفتاح. «اللسان» (قلد).

(٤) «ديوان ابن السَّاعَاتِي» ٢/ ٣٨٢ - ٣٨٤.

(٥) ما بين حاصرتين من (ك).

(٦) هو أبو القاسم هبة الله بن جعفر بن المعتمد، سناء الملك، شاعر كبير من مصر،
نحو سنة (٥٥٠ هـ)، وتوفي سنة (٦٠٨ هـ) بالقاهرة، له ديوان شعر طبع غير م
وإحالتنا على طبعة دار الكاتب العربي بمصر، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم نصر
انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ٦٤/١ - ١٠٠، و«معجم

الأدباء» ١٩/ ٢٦٥ - ٢٧١، و«وفيات الأعيان» ٦/ ٦١ - ٦٦.

قلت: وقصيدته هذه ساقطة من (ك).

(٧) في النسخ الخطية: دولة، والمثبت من «ديوانه».

إِنَّ العواصم كانت أي عاصمة
 جليسة التَّجَم في أعلى مَرَاتِبِهِ
 وَمَانَعَتْهُ كَمَعَشُوقٍ تَمْنَعُهُ
 فَمَرَّ عَنْهَا بِلا غِيْظٍ وَلَا حَنْقٍ
 تَطْوِي البِلَادَ وَأَهْلِيهَا كِتَابُهُ
 أَرْضُ الْجَزِيرَةِ لَمْ تَظْفَرْ مِمَّا لِكُهَا
 مِمَّا لِكَ لَمْ يُدَبِّرْهَا مُدَبِّرُهَا
 حَتَّى أَتَاهَا صَلاَحُ الدِّينِ فَانْصَلَحَتْ
 وَقَدْ حَوَّاهَا وَأَعْطَى بَعْضُهَا هِبَةً
 وَمُذْ رَأَتْ صَدَّه عَنْ رَبِّهَا حَلْبٌ
 غَارَتْ عَلَيْهِ وَمَدَّتْ كَفًّا مُفْتَقِرٍ
 وَاسْتَعْطَفَتْهُ فَوَافَقَتْهَا عَوَاطِفُهُ
 وَحَلَّ مِنْهَا بِأَفْقٍ غَيْرِ مُنْخَفِضٍ
 فَتَحَ الْفُتُوحَ بِلَا مَيْنٍ وَصَاحِبُهُ

معصومة بتعاليتها عن الرُّتَبِ
 وطالما غابَ عنها وهي لم تَغِبِ
 أحلى من الشَّهْدِ أو أَشْهَى مِنَ الضَّرْبِ^(١)
 وسار عنها بلا حِقْدٍ وَلَا غَضَبٍ
 طَيًّا كَمَا طَوَتِ الْكُتَّابُ لِلْكَتُبِ
 بِمَالِكٍ فَطِنٍ أَوْ سَائِسٍ دَرَبٍ
 إِلَّا بِرَأْيِ خَصِيٍّ أَوْ بِعَقْلِ صَبِيٍّ
 مِنَ الْفَسَادِ كَمَا صَحَّتْ مِنَ الْوَصَبِ^(٢)
 فهو الذي يَهَبُ الدُّنْيَا وَلَمْ يَهَبِ
 وَوَضَلَهُ لِبِلَادِ حُلُوةِ الْخَلْبِ
 مِنْهَا إِلَيْهِ وَأَبَدَتْ وَجْهَ مُكْتَسَبِ
 وَأَكْتَبَ الصُّلْحَ^(٣) إِذْ نَادَتْهُ عَنْ كَتَبِ
 لِلصَّاعِدِينَ وَبُرْجٍ غَيْرِ مُنْقَلَبِ
 مَلِكُ الْمُلُوكِ وَمَوْلَاهَا بِلا كَذِبِ^(٤)

وقال ابنُ أبي طي: وكان كثيرٌ من الشعراء يحرضون السُّلطانَ على فتح
 حلب، منهم أبو الفضل بن حميد الحلبي، له من قصيدة:

يَا ابْنَ أَيُوبَ لَا بَرَحْتَ مَدَى الدَّهْرِ
 حَلَبُ الشَّامِ نَحْوَ مَرَاكٍ وَلَهَى
 رِ رَفِيعَ الْمَكَانِ وَالسُّلْطَانِ
 وَلَهُ الصَّبُّ رِنَعٌ بِالْهَجْرَانِ

(١) الضرب — بالتحريك — العسل الأبيض. «اللسان» (ضرب).

(٢) الوصب: الوجع والمرض. «اللسان» (وصب).

(٣) أكتب: أي دنا. «اللسان» (كتب).

(٤) «ديوانه»: ١/٢ — ٤.

وقال ابن سَعْدَانِ الْحَلْبِيُّ^(١) في قصيدة:

دُونَكَ وَالْحَسَنَاءَ [مِنْ] ^(٢) أُمِّ الْقُرَى	وَبَارِزَهَا الْأَشْهَبَ وَالطَّوْدَ الْأَشْمَ
وَارْكَبْ إِلَى الْعَلْيَاءِ كُلِّ صَعْبَةٍ	أَبَيْتَ لَعْنًا وَخَلَكَ كُلُّ ذِمٍّ
وَارْمِ فَكْلُ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا	لَا صَارِدَ ^(٣) السَّهْمِ وَلَا نَابِي الْحَكَمِ
مُدًّا إِلَى أُخْتِ الشَّهَاءِ ^(٤) زَوْرَةَ	لَا فَرْقٌ يَغْفِيهَا وَلَا نَدَمٌ
فِيهَا لَهَا شَمَاءٌ مُشْمَخِرَةٌ ^(٥)	تَطَارِحُ الْبَرْقَ وَسَاحَاتِ الدَّيَمِ ^(٦)
إِيهِ صَلَاحَ الدَّيْنِ شُدًّا أَزْرَهَا	وَأَعَزَّمْ عَلَيْهَا فَالزَّمَانَ قَدْ عَزَّمْ
وَدُونَكَ الْمُنْعَةَ مِنْ قِبَابِهَا	وَبَابِهَا الْمُغْلَقَ فِي وَجْهِ الْأَمَمِ

قال: وفي آخر يوم السبت ثامن عشر صفر نُشِرَ سَنَجَقُ^(٧) السُّلْطَانِ
الْأَصْفَرِ عَلَى سِوَرِ قَلْعَةِ حَلَبَ، وَضُرِبَتْ لَهُ الْبَشَائِرُ، وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتُ تَخَفَّى
عِمَادُ الدِّينِ، وَخَرَجَ مِنَ الْقَلْعَةِ لَيْلًا إِلَى الْخِيَمِ، وَأَخَذَ فِي إِخْرَاجِ مَا كَانَ لَهُ فِي
الْقَلْعَةِ مِنْ مَالٍ وَسِلَاحٍ وَأَثَاثٍ. وَكَانَ اسْتِنَابُ الْأَمِيرِ حَسَامِ الدِّينِ طِمَانَ فِي
الْقَلْعَةِ حَتَّى تَوَافَى رَسَلُهُ بِتَسْلِيمِ سِنْجَارٍ* وَنَصِيبِينَ* وَالْخَابُورَ* إِلَى نَوَابِهِ،
وَأَعْطَى السُّلْطَانُ طِمَانَ الرَّقَّةَ لَوْسَاطَتِهِ فِي أَمْرِ عِمَادِ الدِّينِ. وَكَانَ السُّلْطَانُ

(١) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٨٤ من الجزء الثاني.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

(٣) أي لا مخطيء الرمي، ومنه: أصرد السهم: أخطأ. «اللسان» (صدر).

(٤) السها: كويكب صغير، خفي الضوء في بنات نعش الكبرى، والناس يمتحنون به
أبصارهم. «اللسان» (سها).

(٥) أي عالية. «اللسان» (شمخر).

(٦) الديم جمع، مفردها ديمة: وهي من المطر الذي لا رعد فيه ولا برق. «اللسان»
(دوم).

(٧) السنجق: كلمة تركية، يراد بها الراية. «معجم متن اللغة» ٢٢١/٣.

شَرَطَ أَنَّهُ مَا يَرِيدُ مِنْ حَلَبَ إِلَّا الْحَجَرُ فَقَطْ، وَأَذِنَ لِعِمَادِ الدِّينِ فِي أَخْذِ جَمِيعِ مَا فِي الْقَلْعَةِ، وَمَا يُمْكِنُهُ حَمْلُهُ، فَلَمْ يَتْرِكْ عِمَادَ الدِّينِ فِيهَا شَيْئاً، وَبَاعَ فِي السُّوقِ كُلِّ مَا لَمْ يَتِمَكَّنْ مِنْ حَمْلِهِ، وَأَطْلَقَ لَهُ [السُّلْطَانُ] ^(١) بَغَالاً وَجَمَالاً وَخَيْلاً بِرَسْمِ حَمَلٍ مَا يَحْتَاجُ إِلَى حَمْلِهِ، وَعَمِلَ لَهُ يَوْمَ الْأَحَدِ تَاسِعَ عَشَرَ صَفراً دَعْوَةً عَظِيمَةً فِي الْمِيدَانِ الْأَخْضَرِ، وَأَحْضَرَهَا جَمِيعُ الْأُمَرَاءِ وَمُقَدِّمِي حَلَبَ.

قَالَ: وَبَيْنَمَا السُّلْطَانُ عَلَى لَذَّتِهِ بِالذَّغْوَةِ، وَالْأَخْذِ وَالْعَطَاءِ، وَالْإِنْعَامِ وَالْحِبَاءِ، إِذْ حَضَرَ إِلَيْهِ مَنْ عَرَفَهُ وَفَاتَهُ أَخِيهِ تَاجَ الْمُلُوكِ بِسَبَبِ الضَّرْبَةِ الَّتِي أَصَابَتْهُ عَلَى حَلَبَ، فَلَمْ يَتَغَيَّرْ لِذَلِكَ وَلَا اضْطَرَبَ، وَلَا انْقَطَعَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَشَاشَةِ وَالْفَرَحِ، وَبَذَلَ الْإِحْسَانَ، وَأَمَرَ بِسِتْرِ ذَلِكَ وَتَوَعَّدَ عَلَيْهِ أَنْ ظَهَرَ، وَكَظَّمَ حُزْنَهُ وَأَخْفَى رَزِيئَتَهُ، وَصَبَرَ عَلَى مُصِيبَتِهِ، وَلَمْ يَزَلْ عَلَى طَلَاقَتِهِ وَبِشَاشَتِهِ إِلَى وَقْتِ الْعَصْرِ، وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتُ انْقَضَتِ الدَّعْوَةُ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ، فَحَيْثُذِ قَامَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَاسْتَرْجَعَ، وَبَكَى عَلَى أَخِيهِ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فُغْسِلَ وَكُفِّنَ، وَصُلِيَ عَلَيْهِ، وَأَمَرَ بِهِ فُدْفِنَ فِي مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ بِظَاهِرِ حَلَبَ، ثُمَّ حَمَلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى دِمَشْقَ، وَدَفَنَهُ بِهَا.

قَالَ: وَكَانَ تَاجَ الْمُلُوكِ شَاباً حَسَنَ الشَّبَابِ، مَلِيحَ الْأَعْطَافِ، عَذْبَ الْعِبَارَةِ، حُلُوَ الْفُكَاةِ، مَلِيحَ الرَّمْيِ بِالْقَوْسِ وَالطَّعْنِ بِالرُّمْحِ، وَكَانَ شَجَاعاً بِاسِلاً مُقْدِماً عَلَى الْأَهْوَالِ، وَكَانَ قَدْ جَمَعَ إِلَى ذَلِكَ الْكَرَمِ وَالتَّفَنُّنِ فِي الْأَدَبِ، وَلَهُ دِيْوَانُ شِعْرِ حَسَنِ مُتَوَسِّطٍ، فَمِنْهُ:

يَا هَذِهِ وَأَمَانِي النَّفْسُ قُرْبُكُمُ يَالَيْتَهَا بَلَغَتْ مِنْكُمْ أَمَانِيهَا
إِنْ كَانَتْ الْعَيْنُ مُذْ فَارَقَتْكُمْ نَظَرَتْ إِلَى سِوَاكُمْ فَخَانَتْنِي ^(٢) أَمَاقِيهَا

(١) مَا بَيْنَ حَاصِرَتَيْنِ مِنْ (ك) وَ(ب).

(٢) فِي الْأَصْلِ: فَخَانَتْهَا، وَالْمَثْبُوتُ مِنْ (ك) وَ(ب).

قال: ولما انتقضت تعزية السلطان بأخيه خلع على النَّاس في اليوم

٤٥/٢

الرَّابِع، وفَرَّق في وجوه الحلبيين الأموال. وفي سادس عشر صفر ورد أصحابُ عماد الدين، وأحضروا إليه العلائم بتسلُّم سِنْجَار* ونَصِيبين* والخابور*، ففي ذلك اليوم سلَّم قلعة حلب، وأنزل منها الأمير طمان وأصحابه، ولما سلَّمها إلى نَوَّاب السُّلْطَان ركب عماد الدين في وجوه أصحابه وأمرائه، وخرج إلى خدمة السُّلْطَان ظاهراً وركب السُّلْطَان إلى لقائه، فاجتمعا عند مشهد الدعاء الذي بظاهر حلب من جهة الشَّمال، فتسالما، ولم يترجَّل أحدُ منهما لصاحبه. ثم جاء بعد عماد الدين وَلَدُهُ قطب الدين، فترجَّل للسُّلْطَان، وترجَّل السلطان له، واعتنقه، وعادا فركبا، وسار هو وأبوه في خدمة السلطان إلى المخيَّم بالميدان الأخضر، فأجلس السُّلْطَانُ عمادَ الدين معه على طَرَّاحته^(١)، وقَدَّم له تقدمةً حسنةً: عشرين بقجة^(٢) صفراء، فيها مئة ثوب من العَتَّابي والأطلس والمعتق والمُمرَّش، وغير ذلك وعشرة جلود قُنْدُس، وخمس خِلَع خاص برسمه ورَسْم ولده، ومئة قَبَاء، ومئة كُمَّة^(٣)، وحِجْرَتَيْن^(٤) عربيتين بأداتهما، وبغلتين مسروجتين، وعشرة أكاديش^(٥)، وخمس قَطَر بغال، وثلاث قطر جمال عربيات، وقطار بُخْت. ولما فرغ السُّلْطَان من عرض الهدية قَدَّم الطعام، فلما أصاب منه عماد الدين نهض للرُّكوب، وخرج السلطان معه وركب لوداعه، وسار معه إلى قريب من بابل^(٦)، وودَّعه، وعادا وسار عماد الدين إلى بلاده.

(١) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٢٥٦ من الجزء الثاني.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١١٦ من الجزء الثاني.

(٣) القلنسوة المدورة. «المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب» لدوزي: ٣١٣.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٩٦ من هذا الجزء.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٣٧ من الجزء الثاني.

(٦) قرية كبيرة بظاهر حلب. «معجم البلدان»: ٣٠٩/١.

قال: وفي يوم الاثنين سابع عشر صفر رَكِبَ السُّلْطَانُ، وَصَعِدَ إِلَى قلعة حلب، وكان صعودُهُ إليها من باب الجبل، وَسَمِعَ وهو صاعد إلى قلعة حلب يقرأ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾^(١) الآية. وقال: والله ما سُرِرْتُ بفتح مدينة كُسُورِي بفتح هذه المدينة، والآن قد تَبَيَّنَتْ أَنِّي أملك البلاد، وَعَلِمْتُ أَن مُلْكِي قد استقرَّ وَثَبَتْ. وقال: صَعِدْتُ يوماً مع نور الدين رحمه الله تعالى إلى هذه القلعة، فسمعتُهُ يقرأ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ الآية.

قال: ولما بلغ السُّلْطَانُ بابَ^(٢) دار عماد الدين قرأ ﴿وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَّوْهَا﴾^(٣) ثم صار إلى المقام، فصلَّى ركعتين، ثم سجد، فأطال السجود، ثم خرج ودار في جميع القلعة، ثم عاد إلى المخيم، وأطلق المكوس والضرائب، وسامح بأموالٍ عظيمة، وجلس للهناء بفتح حلب، وأنشده جماعة من الشعراء، منهم يوسف البراعِي^(٤) له من قصيدة:

شَرُفْتُ بِسَامِي مَجْدِكَ الشَّهْبَاءُ وَتَجَلَّلْتُهَا بِهَجَّةٍ وَضِيَاءُ
أَلَقْتُ إِلَيْكَ قِيَادَهَا وَبَهَا عَلَى كُلِّ الْمُلُوكِ تَرْقُوعٌ وَإِبَاءُ

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

(٢) في الأصل: إلى باب، والمثبت من (ك) و(ب).

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢٧.

(٤) نسبة إلى بزاعا — بضم الباء الموحدة وفتح الزاي، وبعد الألف عين مهملة ثم ألف — وهي قرية كبيرة ما بين حلب ومنبج في نصف الطريق. انظر «وفيات الأعيان» ١٤٥/١. أما ترجمة الشاعر، فلم أهتم إلى مظاهها.

ومنهم سعيد بن محمد الحريري، له من قصيدة تقدّم بعضها^(١):

وَصَبَحَتْ شَهَاءَ الْعَوَاصِمِ مُضِلَّتًا قَوَاضِبَ عَزْمٍ لَا يُقْلُ شَهِيرُهَا
فَأَمْطَتْكَ مِنْهَا غَازِيَا فَيْكَ رَاغِبًا وَعَادَ يَسِيرًا فِي يَدَيْكَ عَسِيرُهَا
وَأَوْطَأَتْ مِنْهَا أَخْمَصِيكَ تَنَوُّفَةً^(٢) يَعْزُّ عَلَى الشَّعْرَى الْعَبُورُ^(٣) عُبُورُهَا
وَرَدَّ إِلَيْهَا رَوْحُ عَذْلِكَ رَوْحَهَا وَكَانَتْ رَمِيمًا لَا يُرْجَى نُشُورُهَا

قال^(٤): وقال والدي أبو طي النَّجَّار من قصيدة:

حَلَبُ شَامَةِ الشَّامِ وَقَدْ زِيدَ لَدَتْ جَلَالاً بِيُوسُفٍ وَجَمَالاً
هِيَ أَسُّ الْفَخَّارِ مَنْ نَالَ أَعْلَا هَا تَعَالَى فَخَامَةً وَتَغَالَا
وَمَحَلُّ الْعِلَاءِ مِنْ حَلٍّ فِيهَا تَاهَ كِبَرًا وَعِزَّةً وَجَلَالَا
مَنْ حَوَّاهَا مَمْلُكًا مَلِكَ الْأَزْ ضِ اقْتَسَارًا سُهُولَةً وَجِبَالَا
فَافْتَرَعَهَا مُهْنًا بِمَحَلٍّ سَمَقَ الْأَنْجُمَ الْوِضَاءَ وَطَالَا

قال: وحَدَّثني جماعة من الحلبيين، منهم الركن ابن جَهْل العَدْل.

قال: كان الفقيه مجد الدين بن جَهْل الشَّافعي الحلبي^(٥) قد وقع إليه «تفسير

(١) انظر ص ١٤٧ من هذا الجزء، وحاشيتنا رقم ٣ في الصفحة نفسها.

(٢) التنوُّف: الأرض الواسعة، البعيدة الأطراف. «القاموس المحيط» (تنف).

(٣) الشعري: كوكب نير، وهما شعريان: العبور التي في الجوزاء، والغميصاء التي في

الذراع، تزعم العرب أنهما أختا سهل. انظر «اللسان» (شعر).

(٤) إلى هنا ينتهي اضطراب الأوراق في الأصل، وقد أشرنا إليه في حاشيتنا رقم ٦

ص ١٠٧ من هذا الجزء.

(٥) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٥٩٦ هـ).

القرآن» لأبي الحكم المغربي^(١)، فوجد فيه عند قوله تعالى ﴿آلَمَ، غُلِبَتْ الرُّومُ﴾^(٢) الآية أن أبا الحكم قال: إن الرُّوم يُغْلَبون في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمس مئة، ويُفتح البيت المقدس، ويصير داراً للإسلام إلى آخر الأبد^(٣). واستدل على ذلك بأشياء ذكرها في كتابه. فلما فتح السلطان حلب كتب إليه المجد بن جهل ورقة تبشّره بفتح البيت المقدس على يديه، ويُعيّن فيه الزّمان الذي يفتحه فيه، وأعطى الورقة للفقيه عيسى، فلما وقف الفقيه عيسى عليها لم يتجاسر على عرضها على السلطان، وحدث بما في الورقة لمحبي الدين بن زكي الدين القاضي الدمشقي، [وكان]^(٤) ابن زكي الدين واثقاً بعقل ابن جهل، وأنه لا يُقدّم على هذا القول حتى يحقّقه ويثّق به، فعمل قصيدة مدّح السلطان بها حين فتح حلب في صفر، وقال فيها:

وَفَتَحْتُمْ حَلَباً بِالسَّيْفِ فِي صَفَرٍ قَضَى لَكُمْ بِافْتِتَاحِ الْقُدْسِ فِي رَجَبٍ

(١) هو عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد، اللخمي الإشبيلي، المعروف بابن برّجان، متصوف، من مشاهير الصالحين، وتفسيره المذكور ما زال مخطوطاً، ولم يكمله، عابوا عليه الإمعان في علم الحرف حتى استعمله في تفسير القرآن، توفي سنة ٥٣٦ هـ) بمراكش.

انظر ترجمته في «التكملة» لابن الأبار: ٦٤٥/٣ - ٦٤٦، و«صلة الصلة» لابن الزبير: ٣١ - ٣٣، و«فوات الوفيات» ٣٢٣/٢، و«الوافي بالوفيات» ٤٢٨/١٨، «لسان الميزان» ١٣/٤ - ١٤، و«طبقات المفسرين» للدّودي: ٣٠٠/١، وانظر أيضاً «وفيات الأعيان»: ٢٣٦/٤ - ٢٣٧، و«الاستقصا» ٧٦/٢. وحاشيتنا رقم ١ ص ٣٩٦ من هذا الجزء.

(٢) سورة الروم، الآيتان: ١، ٢.

(٣) وفي هذه الأيام تغشاها غاشية من اليهود الصهاينة، ستزول إن شاء الله عما قريب، وما ذلك على الله بعزيز.

(٤) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

ولما سمع السُّلْطَانُ ذلكَ تَعَجَّبَ من مِقالته . ثم حِينَ فَتَحَ [السُّلْطَانُ]^(١) البيتَ المُقَدَّسَ خَرَجَ إِلَيْهِ المِجْد بن جَهْبَل مَهْنَأً لَهُ بِفَتْحِهِ ، وَحَدَّثَهُ حَدِيثَ الورقة ، فَتَعَجَّبَ السُّلْطَانُ من قَوْلِهِ ، وَقَالَ : قَدْ سَبَقَ إِلَى ذَلِكَ مُحْيِي الدِّينِ بن زَكِي الدِّينِ ، غَيْرَ أَنِّي أَجْعَلُ لَكَ حَظًّا لَا يَزَاحِمُكَ فِيهِ أَحَدٌ . ثُمَّ جَمَعَ لَهُ مَنْ فِي العِسْكَرِ مِنَ الفُقَهَاءِ وَأَهْلِ الدِّينِ ، ثُمَّ أَدْخَلَهُ إِلَى القُدُسِ ، وَالفَرَنْجِ بَعْدُ مَا خَرَجُوا مِنْهُ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَذْكَرَ دِرْسَاءَ مِنَ الفِقْهِ عَلَى الصَّخْرَةِ . فَدَخَلَ وَذَكَرَ دِرْسَاءَ هُنَاكَ ، وَحَظِّيَ بِمَا لَمْ يَحْظَ بِهِ غَيْرُهُ .

قُلْتُ : وَسَيَاتِي فِي فَتْحِ بَيْتِ المَقْدِسِ فِي فَصْلِ المَنْبَرِ ذِكْرُ مَا قَالَ أَبُو الحَكَمِ فِي «تَفْسِيرِهِ» ، وَغَيْرِهِ مِمَّا يَنَاسِبُهُ ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ^(٢) .

وَقَالَ العِمَادُ : تَمَّ فَتْحُ حَلَبَ فِي صَفَرٍ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ ، وَمَدَحَ القَاضِي مُحْيِي الدِّينِ بن الزَكِي السُّلْطَانُ بِأَبْيَاتٍ ، مِنْهَا :

وَفَتَحَكُمْ حَلَبًا بِالسَّيْفِ فِي صَفَرٍ مُبَشَّرٌ بِفَتْوحِ القُدُسِ فِي رَجَبٍ

فَوَافَقَ فَتْحَ القُدُسِ كَمَا ذَكَرَهُ ، فَكَأَنَّهُ مِنَ الْغَيْبِ ابْتَكْرَهُ .

قَالَ : وَيَشْبَهُ هَذَا أَنَّنِي فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ طَلَبْتُ مِنَ السُّلْطَانِ جَارِيَةً مِنْ سَبِي الْأَسْطُولِ الْمَنْصُورِ فِي الْأَبْيَاتِ ، وَهِيَ :

يُؤْمَلُ المَمْلُوكُ مَمْلُوكَةً	تَبْدَلُ الوَخْشَةُ بِالْأَنْسِ
تُخْرِجُهُ مِنْ لَيْلٍ وَسَوَاسِهِ	بِطَلْعَةِ تُشْرِقُ كَالشَّمْسِ
فَوَخْذَةُ الْعُرْبَةِ قَدْ حَرَكَتْ	سَوَاكِنَ الْبَلْبَالِ وَالْمَسِ

(١) مَا بَيْنَ حَاصِرَتَيْنِ مِنْ (ك) وَ(ب) .

(٢) انْظُرْ ص ٣٩٤ - ٣٩٦ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ .

فَلَا تَدْعُ يَهْدِمُ شَيْطَانُهُ مَا أَحْكَمَ التَّقْوَى مِنَ الْأَسْ
فَوَقَّعَ الْيَوْمَ بِمَطْلُوبِهِ مِمَّا سَبَى الْأُسْطُولُ بِالْأَمْسِ
لَا زِلْتَ وَهَاباً لِمَا حَاذَهُ سَيْفُكَ مِنْ حُورٍ وَمِنْ لُغْسِ
وإِنِّي أَمْلُ مِنْ بَعْدِهَا كِرَائِمِ السَّبْيِ مِنَ الْقُدْسِ

قال: فجاء الأمر على وفق الأمل، فَوَهَبَ لي عام القدس ما أَمَلْتُ^(١).

فصل

فيما جرى بعد فتح حلب

قال ابن أبي طي: كاتب الوالي بحارم* الفرنج واستدعاهم إليه، مُطْمِعاً لهم في الاستيلاء على حارم بشرط أن يعصموه من الملك الناصر، وَعَلِمَ الأجناد بقلعة حارم بما عَزَمَ عليه، فتأمروا بينهم في الْقَبْضِ عليه. وكان هذا الوالي ينزل من القلعة ويصعدُ إليها في أموره وَلَذَّاتِهِ، فاتفق أنه نزل منها لبعض شأنه، فوثبَ أهلُ القلعة لما خرج، وأغلقوا بابها، ونادوا بشعار السلطان. وكان السُّلْطَانُ راسل والي حارم، وبَدَّلَ له في تسليم حارم إليه أشياء كثيرة، منها ولاية بُصْرَى*، وضيعة في دمشق يملكه إياها، ودار العقيقي* التي كان نجم الدين أيوب والد السُّلْطَانِ يسكنها، وَحَمَامِ العقيقي* بدمشق، وثلاثون ألف دينار عَيْناً، ولأخيه عشرة آلاف دينار. فاشتطَّ في السَّوْمِ، وتغالى في العِوَضِ، فأنفذ إليه السلطانُ وتوعَّده وتهدَّده، فكتب الفرنج يطلب نجدتهم، وقيل: إن نقيب القلعة أراد أن تَنْفُقَ سُوْقَهُ عند السلطان، ويحصل منه شيئاً، فكتب السلطان بالعمل على الوالي، فكتب

(١) «البرق الشامي» ٥/ش ١٠٩، ص ١١٩ - ١٢٠.

إليه السلطان بتميم ذلك، ووعد به بأشياء سَكَنَ إليها، وجرى الأمر على ما ذكرناه من إغلاق الباب في وَجْه الوالي. وقيل: إن النقيب وأهل القلعة لما أغلقوا الباب في وجهه شَنَعُوا عليه بمكاتبة الفرنج، ولم يكن فعل ذلك إقامة لعذرهم، وقذفوه بالحجارة، ونادوا بشعار السُلطان. ولما اتصل بالسلطان هذه الأحوال أنفذ تقي الدين إلى حارم لِيَسْلَمَهَا، فامتنع النقيب وأهل القلعة من تسليمها إليه، فرحل السلطان إليها بنفسه جريداً، فلما أشرف عليها نزل إليه النقيب ووجوه القلعين، وسَلَّموها إليه في تاسع عشر صفر. ولما حضروا عند السُلطان حَدَّثُوهُ بكيفية الحال، وكان بدر الدين حسن ابن الدَّاية حاضراً، فقال للسلطان: يا مولانا، لا تلتفت إلى هؤلاء، فإنهم آذوا هذا الوالي، وكذبوا عليه حتى فَوَّتُوهُ ما كان السلطان وَعَدَهُ به، وما قلتُ هذا إلا عن تجربة، فإنني لما كنتُ متولياً لهذه القلعة جرى عليّ من كذبهم في حقّي، وتخرُّصهم^(١) عليّ أموراً كَذْتُ بها أَهْلِكَ مع نور الدين، وهُم كانوا سببَ خروجي من هذه القلعة، وأنا أرى أن السُلطان يُقرِّهم في القلعة على هذه التجربة! فضحك السلطان وأمر لهم بما كان وعدهم به، وَأَفْضَلَ عليهم، وولّى القلعة غيرهم، وقال لابن الدَّاية: إن بين أيدينا أُمْكَنَةٌ نريد أخذها، ومَتَى لم نفِ بما نَعِدُ ونُجْزِلُ العطاء لم يثق بنا أحد.

وبات السُلطان بقلعة حارم* ليلتين، وعاد إلى حلب في ثالث ربيع الأول، فَرَبَّهَا، وقرَّر ولده الظَّاهر سُلطاناً بها، وقرَّر له في كلِّ شهر أربعة آلاف دِرْهم وعشرين كُمَّة^(٢) وقَبَاء، وما يحتاج إليه من الطَّعام وغيره، وجعل

(١) في (ك) وعرضهم.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ١٦٧ من هذا الجزء.

معه والياً سيف الدين أركش^(١) الأسدي، وولّى حسام الدين تميرك^(٢) الخليفة شحنة* حلب، وولّى الديوان ناصح الدين إسماعيل بن العميد الدمشقي ودار الضرب، ف ضرب الدرهم الناصري الذي سكته خاتم سليمان، ونقل الخطابة من بني العديم إلى أبي البركات بن الخطيب هاشم بسفارة القاضي الفاضل، وولى القضاء لمحبي الدين بن زكي الدين الدمشقي، فاستتاب فيه ابن عمته أبا البيان نبأ بن البناي، وولّى الجامع والوقوف لأبي علي بن العجمي.

وقال العماد: كان في قلعة حارم مملوك من ممالك نور الدين [رحمه الله]^(٣) فعصى، وتآبى عن تسليمها، فأخرجه منها أهلها لما اتهموه بمكاتبة الفرنج، وأرسلوا إلى السلطان فتسلمها، ودبر أمرها، وأحكمها^(٤).

وقال ابن شداد: أنفذ إلى حارم* من يتسلمها، ودافعهم الوالي، فأنفذ الأجناد الذين بها يستحلفونه، فوصل خبرهم إليه يوم الثلاثاء ثامن عشرين صفر، فحلف لهم، وسار من وقته إلى حارم، فوصلها تاسع عشرين صفر، فتسلمها، وبات بها ليلتين، وفرّز قواعدها، وولّى فيها إبراهيم بن شرويه، وعاد إلى حلب، فدخلها ثالث ربيع الأول. ثم أعطى العساكر دستوراً، فسار

(١) هكذا رسم ابن أبي طي اسمه، وسيأتي في الصفحة التالية رسمه على المشهور: يا زكوج، وهو الذي قتل الباطني الذي حاول قتل صلاح الدين حين محاصرته عزاز. انظر ص ٤٠٩ من الجزء الثاني.

(٢) انظر قصة خروجه من بغداد ص ٣٩٠ - ٣٩١ من الجزء الثاني.

(٣) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٤) «البرق الشامي» ٥/ش ١١٤ - ١١٥، ص ١٢٣ - ١٢٤.

كلُّ منهم إلى بلده، وأقام يقرّر قواعد حلب ويدبّرُ أمورها^(١).

قال العماد: وَرَجَفَتْ أَنْطَاكِيَّةٌ بَعْدَ ذَلِكَ رُغْبًا، فَأَرْسَلَ صَاحِبُهَا جَمَاعَةً مِنْ أَسَارَى الْمُسْلِمِينَ، وَانْقَادَ، وَسَارَعَ إِلَى أَمَانِ السُّلْطَانِ. وَوَلَّى السُّلْطَانُ الْقَضَاءَ بِحَلَبٍ مُحِبِّي الدِّينِ بْنِ الزُّكِيِّ، فَاسْتَنَابَ فِيهَا زَيْنُ الدِّينِ نُبَأَ بْنَ الْفَضْلِ بْنِ سُلَيْمَانَ الْمَعْرُوفَ بِابْنِ الْبَانِيَّاسِيِّ، وَكَشَفَ السُّلْطَانُ عَنْ حَلَبِ الْمِظَالِمِ، وَأَزَالَ الْمُكُوسَ، وَوَلَّى قَلْعَتَهَا سَيْفَ الدِّينِ يَزْكُوجَ، وَوَلَّى الدِّيَّانَ نَاصِحَ الدِّينِ إِسْمَاعِيلَ بْنَ الْعَمِيدِ، وَجَعَلَ حَلَبَ بِاسْمِ وَلَدِهِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ غَازِيٍّ، وَكَانَ اسْتَصْحَبَهُ مِنْ مِصْرَ عِنْدَ وَصُولِهِ إِلَى الشَّامِ، وَأَقَرَّ عَيْنَ تَابٍ* عَلَى صَاحِبِهَا، وَأَعْطَى تِلَّ خَالِدٍ* وَتِلَّ بَاشِرٍ* بَدْرَ الدِّينِ دُلْدُرْمَ بْنَ بَهَاءِ الدَّوْلَةِ بْنِ يَارُوقَ^(٢)، وَأَعْطَى قَلْعَةَ عَزَّازٍ* عِلْمَ الدِّينِ سُلَيْمَانَ بْنَ جَنْدَرٍ^(٣).

قلت: وفي توقيع إسقاط المكوس عن حلب من كلام الفاضل عن السُّلْطَانِ: وَانْتَهَى إِلَيْنَا أَنَّ بِمَدِينَةِ حَلَبٍ رَسُومًا^(٤) اسْتَمَرَّتْ الْأَيْدِي عَلَى تَنَاوُلِهَا، وَالْأَلْسِنَةُ عَلَى تَدَاوُلِهَا، وَفِيهَا بِالرُّعَاةِ إِرْفَاقٌ، وَبِالرَّعَايَا إِضْرَارٌ، وَلَهَا مَقْدَارٌ إِلَّا عِنْدَ مَنْ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمَقْدَارٍ، مِنْهَا مَا هُوَ عَلَى الْأَثْوَابِ الْمَجْلُوبَةِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ عَلَى الدَّوَابِّ الْمَرْكُوبَةِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي الْمَعَاشِ الْمَطْلُوبَةِ. وَقَدْ رَأَيْنَا بِنِعْمَةِ اللَّهِ [عَلَيْنَا]^(٥) أَنْ نَبْطُلَهَا وَنَضَعَهَا، وَنَعْطِلَهَا وَنَدْعَهَا، وَنَضْرِبَ عَنْهَا فِي أَيَّامِنَا، وَنَضْرِبَ عَلَيْهَا بِأَقْلَامِنَا، وَنَسْلِكَ مَا هُوَ

(١) «النوادر السلطانية» ٦٠.

(٢) في (ك) بهاء الدين ياروق.

(٣) «البرق الشامي» ٥/ش ١١٥ - ١٢٦، ١٢٧ - ١٢٨، ص ١٢٤، ١٣٢،

١٣٣ - ١٣٤.

(٤) في (ك) رشوة.

(٥) ما بين حاصرتين من (ك).

أهدى سبلاً، ونقول ما هو أقوم قِيلاً، ونكره ما كرهه الله، ونحظر ما حَظَرَه الله، ونتاجرُهُ سبحانه، فإنه من ترك لله شيئاً عَوَّضَه الله أمثاله، وأربح متجره في الرَّعِيَّةِ اليوم بما يوضع عنهم من إضرها، ولنا غداً بمشيئة الله بما يرفع^(١) من أجْرِها. فعلى كافة أوليائنا وولاتنا، وأمرائنا، والمتصرِّفين من قبلنا ألا يُهووا إليها يداً، ولا يَرِدُّوا ولو بلغ الظمأ منها مَورِداً، ولا يثقلوا بها ميزان المال فيخِفَّ ميزان الأعمال، ولا يرغبوا في كثير الحرام، فإن الله يُغني عنه بقليل الحلال، وَلْيُعْلَمَ أن ذلك من الأمر المُحَكَّم، والقضاء المُبَرَم، والعزم المُتَمَم.

وفي منشور أهل الرَّقَّة بمثل ذلك: أَشَقَى الأمراء من سَمَن كيسه وَأَهْزَلَ الخلق، وأبعدَهُم من الحقِّ من أخذ الباطل من النَّاسِ وَسَمَّاهُ الحق، ومن تَرَكَ شيئاً عَوَّضَه [الله]^(٢)، ومن أقرض الله [قَرْضاً]^(٣) حسناً وفاه ما أقرضه. ولما انتهى أمرنا إلى فتح الرَّقَّة أشرفنا منها على سُحْتٍ يُوْكَل، وظُلْمٍ مما أمر الله به أن يُقْطَعَ، وأَمَرَ الظَّالِمُونَ أن يوصل، فأوجبنا على أنفسنا وعلى كافة الولاة من قبلنا أن يَضَعُوا هذه الرُّسُوم بِأَسْرِها، ويلقوا الرِّعَايا من بِشائر أيام مُلْكنا بِأَسْرِها، ونُعْتَقَ بلد الرَّقَّة من رِقِّها، ونُثَبِّتُ أَحْكَامَ المَعْدَلَةِ فيها بمحو هذه الرُّسُوم وَمَحَقِّها. وقد أمرنا بأن تُسَدَّ هذه الأبواب وتُعْطَلَ، وتُنْسخ هذه الأسباب وتُبْطَلَ، وتُسْتَمَطَّر سَحَابُ الخُصْبِ بِالْعَدْلِ وتُسْتَنْزَل، ويُعْفَى خَبِرُ هذه الضَّرَائِبِ من الدَّواوين، ويُسامح بها جميعها جميع الأغنياء والمساكين، مسامحةً ماضيةً الأحكام، مستمرةً الأيام، دائمةً الخُلُود، خالدةً

(١) في الأصل: بما لا يرفع، والمثبت من (ك).

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

(٣) ما بين حاصرتين من طبعة وادي النيل: ٤٧/٢.

الدَّوام، تامة البلاغ، بالغة التمام، موصولة على الأحقاب، مسنونة في الأعقاب، ملعوناً من يطمحُ إليها ناظرُهُ، وتتناولُها يده، أو يمسك عنها اليوم على طمع لا يوصله إليه غده.

قال العماد: وورد على السُّلطان، وهو نازلٌ على حلب بشارتان إحداهما: أن الأسطول المِصري غزا في خامس عشر محرّم، ورجع بعد تسعة أيام وقد ظَفَرَ ببطسة* مقلعة من الشّام، فيها ثلاث مئة وخمسة وسبعون عِلْجاً من خِيَالَةٍ وَتَجَّارٍ، والثّانية: أن فرنج الدّاروم* نهضوا، فنَدِرَ^(١) بهم والي الشّرقية، فخرج إليهم، فالتقوا على ماءٍ يُعرف بالعُسَيْلة، فاستولى عليهم المسلمون بعد أن كادوا يَهْلِكُون عطشاً، لأن الفرنج كانوا قد ملكوا الماء، فأرواهم الله بماء السّماء^(٢).

قلتُ: وكتبَ الفاضل عن السلطان إلى بغداد بهاتين البشارتين: بفتح حلب وحارم كتاباً شافياً، أوله: أدام الله أيام الدّيون العزيز، ولا زالت منازل مملكته منازل التّقديس والتّطهير، والوقوف بأقصى المطارح من أبوابه موجباً للتّقديم والتّقدير، والأمة مجموعة الشّملِ بإمامته جمع السّلامة لا جمع التّكسير. الخادمُ ينهي أن الذي يفتّحه من البلاد ويتسلّمه إما بسكون التّغَمُّدِ أو بحركة ما في الأغمد، إنما يعلّؤه طريقاً إلى الاستنفار إلى بلاد الكُفّار، ويحبّسه جناحاً يمكنه به المطار إلى ما يلبسه الكُفّار من الأقطار. وعلى هذه المقدّمة فهو يستفتح بذكر ظَفَرين للإسلام: بري وبحري. شامي ومِصري، أحدهما وهو البحري عَوْدُ أحد الأسطولين اللّذين أغزاهما أخو الخادم

(١) أي علم. «اللسان» (نذر).

(٢) «البرق الشامي» ٥/ش ١٣٨ - ١٣٩، ص ١٤٢ - ١٤٣.

أبو بكر بمصر، وكانت مُدَّة غيبته من حين خروجه إلى وقت عَوْدِهِ إلى دِمِياط تسعة أيام، فظفر ببطسة* مقلعة من الشَّام، فيها ثلاث مئة وخمسة وسبعون عِلْجاً، منهم خيالة ذوو شِكَّة وإِزعة^(١)، وتُجَارُ ذوو ثُرُوة واسعة.

والثَّاني، وهو البرِّي، نهوض فرنج الدَّاروم* إلى أطراف بعيدة، فنذر بهم والي الشَّرقية، فركب إليهم الليل فرساً كما ركبه جملأً، وسروا ثقبلاً وسرئ رملأً، فتوافى الفريقان إلى ماء يُعرَف بالعُسيْلة، سَبَقَ الفِرْنَج إلى موردته، والسَّابِق إلى الماء محاصِرٌ للمسبوق، ووردوا أزرقه فتغضَّب لأزرقهم^(٢)، فظنَّ المؤمن أن الكافر مرزوق. واشتدَّ بالمسلمين العطش، ثم تابوا إلى الفرنج بقوة إنجاد السماء بالماء، فلم ينبُج من الفرنج إلا رجلان، أحدهما الدليل، والثاني الدليل، وعاد المسلمون برؤوس عدوِّهم في رؤوس القنَّا وقد اجتنوا ثمراتها، وبأرواحهم في رؤوس الطُّبى وقد أطفؤوا بمائها جمراتها^(٣).

ثم قال: ويثني الخادم بذكر ما امثله من الأوامر العليَّة، في إغمار سيفٍ مجرَّده من استدعى تجريده، ومُورِّدُهُ من عَرَّضَ له وريده — ثم ذكر تسلُّمه حلب — وأنه لا يُؤثر إلا أن تكون كلمة الله هي العليا لا غَيْرُ، وثغور المسلمين لها الرِّعايا ولا ضَيْر، ولا يختار إلا أن تَغْدُوا جيوش المُسلمين متحاشدة على عدوِّها لا متحاسدة بعتوِّها. ولو أن أمور الحَرْب تصلحها الشَّرْكة لما عَزَّ عليه أن يكون كثير المشاركون، ولا ساءه أن تكون الدُّنيا كثيرة

(١) أي سلاح مانع. «اللسان» (شكك) و«معجم متن اللغة»: ٧٤٨/٥.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٠٧ من هذا الجزء.

(٣) «البرق الشامي» ٥/ش ١٣٦ — ١٣٨، ص ١٤٠ — ١٤٢.

المالكين، وإنما أمور الحرب لا تحتل في التدبير إلا الوخدة، فإذا صحَّ التدبير لم يحتل في اللقاء إلا العدة، فعوض عماد الدين من بلاد الجزيرة سنجار* وخابورها*، ونصيبين* والرقّة وسروج*، على أن المظالم تموت فلا ينشر مقبورها، والعساكر تنشر راية غزوها فلا يطوى منشورها. وأجاب الخادم عماد الدين إلى ما سأل فيه من أن يصلح المواصله مهما استقاموا لعماد الدين، لأنه لم يثق بهم وإن كان لهم أخاً، ولم يطمئن إلى مجاورتهم إلى أن يضرب بينه وبينهم من عنايته برزخاً، فليُكح الآن عذرُ الأجنبي إذا لم يثق، ولتكن هذه مُضحية من عوتب في شكره حُسن الظن فلم يُفق، ومن شرطه على المواصله المعونة بعسكرهم في غزواته، والخروج عن المظالم، فما زاد على أن قال: سالموا مسلماً، وحاربوا كافراً، واسكنوا لتكون الرعية ساكنة، وأظهروا ليكون حزب الله ظاهراً. وهذه المقاصد الثلاثة: الجهاد في سبيل الله، والكف عن مظالم عباد الله، والطاعة لخليفة الله، هي مُراد الخادم من البلاد إذا فتحها، ومغنمه من الدنيا إذا مُنحها، والله العالم أنه لا يقاتل لعيش أئين من عيش، ولا لغضب يملأ العنان من نزق وطيش، ولا يريد إلا هذه الأمور التي قد توسم أنها تلزم، ولا ينوي إلا هذه النية التي هي خير ما يُسطر في الصحيفة ويُرقم.

وكتب الخادم هذه الخدمة بعد أن بات بحلب ليلة، وخرج منها إلى حارم*، وكانت استحفزت مملوكاً لا يملكه دين ولا عقل، غراً ما هذبه نفس ولا أهل، فاعتقد أن يُسلمها إلى صاحب أنطاكية* — يسر الله فتحها — اعتقاداً صريح بفعله، وشهره بكُتبه ورسله، وواطأ على ذلك نَفراً من رجال يعرفون بالشمسية؛ لا يعرفون خالقاً إلا من عرفوه رازقاً، ولا يسجدون إلا لمن يروونه في نهر النهار سابحاً، وفي بحر الظلام غارقاً، فشعر به من فيها

من الأجناد المسلمين، فشرّده ومن تابعه على فعله، وظفّر به المملوك عمر ابن أخيه في ضواحي البلد، فأخذه وأرسله إلى قلعة حلب، وسار الخادم إليها، فتسلّمها، ورثب بها حاميةً ورابطة، ولم يعمل على أنها للعمل طرف بل إنها للعقد واسطة، والخادم كما^(١) طالع بماضيه [الذي]^(٢) حازه الأمس المذكور، يطالع بمستقبله الذي ينجزه بمشيئة الله الغد المشكور، فهو متأهب للخروج نحو الكفار، لا تسأم رايته النصب، ولا جهة سيره الرّفْع، ولا جيشه الجَر^(٣)، ولا يُضغى إلى قول خاطر الراحة المفتد: لا تنفروا في الحر^(٤)، ولا يُجيب دعوة الفراش المُمهّد، ولا يُعرج على الظنّ الممدود، ولا دُمية الطراف^(٥) الممدّد، ولا يعطف على ريحانة فؤاد يفارقه حَوْلًا ويلقاه يوماً، ولا يقيم على زهرة ولد استهل^(٦) فمتى ذكّره الفطر على راحته^(٧) قال: ﴿إني نذرتُ للرّحمن صوماً﴾^(٨).

ومن كتاب آخر أنفذه من نصيبين* سنة ثمانٍ وسبعين إلى بغداد: سبيلُ الخادم أن يُبني ولا يُهدم، ويوفرّ جانبه ولا يُثلم، وأن يُفرّق بينه وبين من يمسون أعنةَ الجياد المسومة ولا يطلقونها، ويكُنزون الذهب والفضّة

٤٩/٢

(١) في الأصل: كلما، والمثبت من (ك).

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

(٣) من هنا يبدأ اضطراب في ترتيب أوراق نسخة (ك) أعدتها إلى حاق موضعها.

(٤) إشارة إلى قوله تعالى على لسان المناققين: ﴿وقالوا: لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون﴾ [التوبة: ٨١].

(٥) في (ك) الطراز.

(٦) في (ك) يستهل.

(٧) في (ك) راحة.

(٨) سورة مريم، الآية: ٢٦.

ولا ينفقونها، فقد عُلِمَ أن الخادمَ بيوتُ أمواله في بيوت رجاله، وأن مواطنَ نُزُوله في مواقف نزاله ومضارب خيامه [لا] ^(١) أَكِنَّةٌ ظلاله. وأنه لا يدّخر من الدنيا إلا شِكَّتَه ^(٢)، ولا ينالُ من العيش إلا مُسْكَّتَه ^(٣)، وعدوُ الإسلام شديدٌ على الإسلام كَلَبُهُ، مضطربٌ على أهله لَهَبُهُ، زَجَلٌ — إذا أصغت أَسْمَاعُ التَّائِثِلِ — لَجَبُهُ ^(٤). ولو أن أحدَ من يدّعي المُلْكَ ميراناً، ويعدُّ البلادَ له ترائاً، دُفِعَ إلى مدافعة هذا العدو الكافر، وإلى منافرة هذا الفريق النافر، لعرفته الأيام ما هو جاهِلُهُ، ولقلّدتَه الحَرْبُ ما هو قاتلُه، ولحمَلتَه الأهوال ما تخور تحته محامِلُهُ.

وفي كتابٍ آخر: وإذا ولّاه أمير المؤمنين ثَغْرًا لم يبت في وسطه وأصبح في طَرْفِهِ، وإذا سوَّغَه بلدًا ^(٥) هَجَرَ في ظلِّ خِيَمِهِ ولم يَقُمْ في ظلِّ غُرْفِهِ، وإذا باتَ باتَ السَّيْفُ له ضجيجاً، وإذا أصبح أصبح ومعتك القتال له ربيعاً، لا كالذين يغبون أبوابَ الخلافة إغباب الاستبداد، ولا يؤامرونها في تصرُّفاتهم مؤامرة الاستعباد، وكأنَّ الدنيا لهم إقطاع لا إيداع، وكأنَّ الإمارة لهم تخليد لا تقليد، وكأنَّ السِّلَاحَ عندهم زينَةٌ لحامله ولا بسه، وكأنَّ مالَ الخلق عندهم وديعة، فلا عُدْرَ عندهم لمانعه ولا لحابسه، وكأنهم في البيوت دُمَى مصوَّرة في لزوم جُدْرها لا في مستحسنات صورها، راضين من

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) الشكّة: السلاح. «معجم متن اللغة»: ٣٥٧/٣.

(٣) المسكّة من الطعام والشراب: ما يمسك الرمق. «معجم متن اللغة»: ٢٩٦/٥.

(٤) الزجل: صوت رفيع عال. واللجب: ارتفاع الأصوات واختلاطها. «اللسان» (زجل، لجب).

(٥) أي تركه له خالصاً. «اللسان» (سوغ).

الدِّينَ بِالْغَزْوَةِ اللَّقِيَّةِ، وَمِنْ إِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ بِمَا يَسْمَعُونَهُ عَلَى الدَّرَجَاتِ
 الخشبية، وَمِنْ جِهَادِ الْخَارَجِينَ عَلَى الدَّوْلَةِ بِاسْتِحْسَانِ الْأَخْبَارِ الْمُهْلِيَّةِ،
 وَمِنْ قِتَالِ الْكُفَّارِ بِأَنَّهُ فَرَضَ كَفَايَةً؛ تَقُومُ بِهِ طَائِفَةٌ فَيَسْقُطُ عَنِ الْآخَرَى فِي
 أَخْرَاهَا، وَمِنْ طَاعَةِ الْخِلَافَةِ بِذِكْرِ اسْمِهَا وَالْخُرُوجِ عَنْ سِيْمَاهَا^(١)،
 فَلَا يَقْنَعُونَ بِأَنَّهُمْ لَا يَجَاهِدُونَ إِلَى أَنْ يَمْنَعُوا مِنْ يَجَاهِدَ عَنْهُمْ وَيُثَاغِرَ، وَبَأَنَّهُمْ
 لَا يُسَاعِدُونَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى أَنْ يُسَاعِدُوا عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمُ الْكَافِرَ، فَقَدْ تَوَالَوْا
 الشَّيْطَانَ تَلِيداً وَطَرِيفاً، وَوُطِنُوا الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ وَطْأً عَنِيفاً، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ
 الْآخِرَةِ جَاءَ اللَّهُ بِهِمْ فِي زُمْرَةِ الشَّيْطَانِ لَفِيفاً^(٢).

وَقَالَ فِي هَذَا الْكِتَابِ: إِنَّ الْمَوَاصِلَ مَا فَرَعُوا^(٣) إِلَى دَارِ الْخِلَافَةِ إِلَّا
 بَعْدَ أَنْ فَرَعُوا^(٤)، وَإِلَّا فَطَالَمَا طَمَعَ أَوَّلُهُمْ كَمَا طَمَعُوا، وَقَدِيمَا دُعُوا إِلَى
 طَاعَتِهَا فَمَا سَمِعُوا، وَسَمِعُوا فَمَا اتَّبَعُوا، حَتَّى إِنْ الْأَوَّلِينَ [مِنْهُمْ]^(٥) عَلَّمُوا
 أَوْلِيَاءَ الدَّوْلَةِ مِنَ الْأَتْرَافِ ضِدَّ مَا جُبِلَتْ أَخْلَاقُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ عَقُوبِهَا، وَسَوَّاهُمْ
 إِضَاعَةَ حَقُوقِ اللَّهِ بِإِضَاعَةِ حَقُوقِهَا، فَأَيْنَ كَانَ التَّعَلُّقُ بِالْأَدَارِ الْعَزِيزَةِ، وَهُمْ
 يُحَاصِرُونَ^(٦) دَارَ السَّلَامِ بِأَحْزَابِهِمْ، وَيَرَامُونَ النَّجَّ الشَّرِيفَ بِنُشَابِهِمْ،
 وَيَمْدُدُونَ مُحَاصِرِيهَا بِالْأَسْلِحَةِ وَالْمَنْجَنِيقَاتِ، وَالْأَزْوَادِ وَالْإِقَامَاتِ، وَيَصَافُونَ
 الْخُلَفَاءَ مَصَافَّةَ الْمَوَاقِفِ، وَيَكْاشِفُونَهُمْ مُكَاشِفَةَ الْمُخَالَفِ، وَيُغْرُونَ دُزْدَارَ*
 تَكْرِيتٍ — وَهِيَ مِنْ أَهْوَنِ بِلَادِ اللَّهِ — بِجُورِ الْجَوَارِ، وَيَجْعَلُونَهَا سَجْنًا

(١) فِي الْأَصْلِ: شِيمَاهَا، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (ك).

(٢) اقْتِبَاسٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ
 الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ١٠٤].

(٣) فَرَعَ إِلَيْهِ: اسْتَغَاثَ بِهِ.

(٤) أَيُّ خَافُوا. «اللسان» (فَرَعَ).

(٥) مَا بَيْنَ حَاصِرَتَيْنِ (ك).

(٦) فِي (ك) مُحَاصِرُونَ.

لممالك الخلافة ذوي الأقدار، ولو تحرّك اليوم متحرّك لكانوا له كِنانة، ولكانت بلادهم له خِزانة، ويرجو الخادم بالمَوْصِل أن تكون المَوْصِل إلى القُدس وسواحله، ومستقرّ الكُفر في القُسطنطينية على بُعد مراحل، وبلاد الكُرَج^(١)، فلو أنّ لهم من الإسلام جِاراً لاستباح الدار، وبلاد أولاد عبد المؤمن، فلو أن لها ماء سيفٍ لأطفأ ما فيها من النَّار، إلى أن تعلو كلمة الله العليا، وتملاًّ الولاية العباسية الدنيا، وتعود الكنائس مساجد، والمذابح المستعبدة معابد، والصليب المرفوع خطباً في المواقد، والتّاقوس الصّهل أخرس اللّهجة في المشاهد. ويضيف إلى الديوان بمشيئة الله ما يجاوز أكنافه، ويمدّ أطرافه مثل تكريت* ودُقُوقا* والبوازيج* وخوزستان* وكِيش* وعُمان*، والذي وقع أعظم من الذي يتوقّع، والذي طلع أكثر من الذي يتطلع، والذي رُئي أَمس أكبر من الذي يُسمع.

قلت: يعني أنّ ما فتحه من البلاد أعظم من هذه التي يرجوها. وأشار بفعل أول المواصلَة إلى ماسبق من فعل زَنكي في حصار بغداد، ومساعدته للسّلاجقة على العادة في ذلك الزّمان^(٢)، والله أعلم.

وفي آخر كتابٍ فاضلي إلى حِطّان بن متقذ باليمن عن السّلطان: فَتَحَ الله علينا ممالك وأضافها، وبلاداً آمنها بنا مما أخافها، وبلّغنا غرائب صُنْع لا نبلّغ أوصافها؛ منها بلاد الشّام بأسرها، ومملكة حلب بجملتها، والمدينة بقلعتها، وبلاد الجزيرة إلى دِجَلَتِها. فمنها ما أُعيد على من اشترط عليه استخدام عسكره في بيكارنا^(٣)، ومنها ما استمرّ في اليد، وولاته من

(١) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٦٧ من الجزء الثاني.

(٢) انظر «الكامل» ١٠/٦٧٨ - ٦٧٩، وص ٢٥٣ من الجزء الثاني.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٦١ من هذا الجزء.

أوليائنا وأنصارنا. ولمَّا لم يبق في البلاد الإسلامية إلا ما هو في يدنا أو في يد مطيع لنا، كان من شُكر هذه النعمة أن نصرف القوة ونُثني العزمة، ونحدِّ الشُّوكة ونلبس الشُّكة للفرنج الملاعين، فننازلهم ونقارعهم، ونخاصمهم إلى الله وننازعهم، فنظهر الأرض المقدَّسة من رجسهم بدمائهم، إلى أن ترقَّ السُّيوف للصخرة الشريفة لما مرَّ بها من قسوة كُفَّهم واعتدائهم. فنحن نرجو أن نكون عين الطائفة من الأمة التي أخبر نبيُّنا صلوات الله عليه أنها لا تزال على الحقِّ ظاهرة، وبثواب الله وعدَّوه ظافرة، والله تعالى يُعيننا على ما يُعيننا، ويلهمنا الاستجابة لدعوته إلى ما يحيينا.

فصل

٥٠/٢

في رجوع السُّلطان إلى دمشق وخروجه منها للغزاة بمخاضة الأزدن

رحل السلطان من حلب، فمرَّ على حماة ثم حمص ثم بعلبك ثم دمشق.

قال القاضي ابنُ شدَّاد: لم يقيم السلطان في حلب إلا إلى يوم السبت الثاني والعشرين من ربيع الآخر، وأنشأ عَزْماً على الغزاة، فخرج في ذلك اليوم إلى الوضيحي مبرِّزاً نحو دمشق، واستنهض العساكر، فخرجوا يتبعونه. ثم رحل في الرابع والعشرين منه إلى حماة، فوصلها، ثم رحل في بقية يومه، ولم يزل يواصل بين المنازل حتى دخل دمشق في ثالث جُمادى الأولى، فأقام بها متأهباً إلى السابع والعشرين منه. ثم برَّز في ذلك اليوم، ونزل على جسر الخشب*، وتبعته العساكر مبرِّزة، وأقام به تسعة أيام، ثم رحل في ثامن جمادى الآخرة حتى أتى الفوّار*، وتعبى فيه للحرب، وسار

حتى نزل القصير*، فبات به، وأصبح على المخاض وعَبَرَ، وسار حتى أتى
بَيْسَانَ، فوجد أهلها قد نزحوا عنها وتركوا ما كان من ثقل الأقمشة والغلال
والأمتعة بها، فنهبها العسكر، وغنموا وأحرقوا ما لم يمكن أخذه.

وسار حتى أتى الجالوت؛ وهي قريةٌ عامرة، وعندها عين جارية،
فخَيَّم بها.

وكان قد قَدَّمَ عز الدين جُرْدِيك وجماعةً من المماليك الثورية،
وجاؤلي مملوك أسد الدين حتى يكشفوا خبر الفرنج، فاتفق أنهم صادفوا
عسكر الكَرَك* والشُّوبَك* سائرين نجدةً للفرنج، فوقع أصحابنا عليهم،
وقتلوا منهم مقتلة عظيمةً، وأسروا منهم زهاء مئة نفر، وعادوا، ولم يُفقد من
المسلمين سوى شخصٍ واحد يدعى بَهْرَام الشَّاووش*، فوصل إليه في بقية
يوم الكسرة، وهو العاشر من جُمادى الآخرة.

وفي حادي عشرة وصل الخبر إلى السلطان أن الفرنج [قد]^(١) اجتمعوا
في صَفُورِيَّة*، ورحلوا إلى الفولة*؛ وهي قرية معروفة، وكان غرضه
المصاف، فلما سمع بذلك تعبى للقتال، وسار للقاء العدو، فالتقوا، وجرى
قتالٌ عظيم، وقتل من العدو جماعةٌ وجُرح جماعة، وهم ينضمُّ بعضهم إلى
بعض، يحمي راجلهم فارسهم، ولم يخرجوا للمصاف، ولم يزالوا سائرين
حتى أتوا العين، فنزلوا عليها، ونزل السلطان حولهم، والقتل^(٢) والجرح
يعمل فيهم ليخرجوا إلى المصاف، وهم لا يخرجون؛ لخوفهم من
المسلمين، فإنهم كانوا في كثرة عظيمة، فرأى السلطان الانتزاع عنهم لعلهم

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٢) في الأصل: القتال، والمثبت من (ك) و(ب).

يرحلون، فيُضْرَبُ معهم مصاف، فرحل نحو الطور سابع عشر جُمادى الآخرة، فنزل تحت الجبل مترقباً رحيْلهم، ليأخذ منهم فُرْصة، فأصبح الفرنج راجعين على أعقابهم ناكسين، فرحل رحمه الله نحوهم، وجرى من رمي الثَّشَاب واستنهاضهم للمصاف أمورٌ عظيمة، فلم يخرجوا، ولم يزل السلطان حولهم حتى نزلوا الفولة راجعين إلى بلادهم، وعاد السلطان منصوراً وقد نال منهم قتلاً وأسرّاً، وخَرَّبَ عَفْرَبَلا* ويَسَّان وزرعين وقرى عِدَّة، فنزل الفَوَّار، وأعطى النَّاسَ دستوراً، فسار من أثر المسير، وأتى هو دمشق يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الآخرة.

قال: فانظر إلى هذه الهمة التي لم يشغلها عن الغزاة أخذ حلب ولا الظفر بها، بل كان غرضه — رحمة الله عليه — الاستعانة بالبلاد على الجهاد، فالله يحسن جزاءه في الآخرة، كما وفَّقه للأعمال المرضية في الدنيا^(١).

وقال العماد: خرج السُّلْطَانُ إلى الغزو، ورابط العدو بعين الجالوت، وعبر المخاضة الحُسَيْنِيَّة^(٢) تاسع جُمادى الآخرة، فوصل إلى بَيْسَانَ وقد أخلأها أهلها، فأطلق النَّاسُ فيها النيران، ونهبوا ما فيها، وكذلك فعلوا بأبراج وقلاع غيرها. وصادفت مقدَّمة العساكر خيلاً ورَجُلًا للفرنج عابرين من نابلس* ومقدَّمهم ابن هنفري*، فقتل منهم وأسر، وتوقَّل^(٣) الباقيون في الجبال، ووصل الخبر بأنَّ الفرنج قد أقبلوا في ألف وخمسة مئة رُوح، ومثله تركبلي^(٤)، وخمسة عشر ألف راجل، فأتاهم المسلمون وذلك على عين

(١) «النوادر السلطانية»: ٦١ — ٦٣.

(٢) قرية، شرقي طبرية. «معجم البلدان»: ١٨/٤.

(٣) وقل: أي صعد في الجبل. «اللسان» (وقل).

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ١٥١ من الجزء الثاني.

الجالوت، فأخذهم الرُّعب، وخاموا^(١) عن الإقدام عليهم، فخذقوا حولهم، وأسندوا ظهورهم إلى الجبل، وأقاموا كذلك خمسة أيام. فلما رأى المسلمون منهم ذلك رجعوا عنهم، فتنفَّس خناقهم، ونكصوا على أعقابهم إلى النَّاصرة، وعاد المسلمون بالغنائم والأسارى، لم يخلَّص العدو منها شيئاً، وذلك يوم الخميس سادس عشر جمادى الآخرة. وقد كانوا مدَّة مقامهم يتخطَّفهم المسلمون من كلِّ جانب، ويرمونهم بالنَّبْل، ويتنظرون أن يحملوا أولاً كما هو عادتهم، فما فعلوا.

وفي كتاب فاضلي عن السُّلطان إلى بغداد: لما كان بتاريخ الثَّامن من جُمادى الآخرة سار الخادم من أدنى المنازل من بلاد الإسلام إلى بلاد الكُفْر، وقد تكاملت جنودُ الإسلام، وتعيَّنت ميامنه ومياسره، وأخذت أهبَّة، وشُحِذت قُضْبُه، وباعوا الله ما اشتراه، ومثَّل لأعينهم ثوابه فكأنَّها تراه، وساروا تحت ليل عَجَاجٍ سَتَرَ السَّائِرُ تحته سُرَّاه، وأصبح الخادم وإياهم بعين الله في سبيله على ماء الأزدن؛ وهو النهر الفاصل بين الإسلام والكُفْر، والمخاضة المضروب منها بسورٍ على ذلك القُطر، فخاض ذلك البحر وذلك النهر، وأمدَّته نُطْفُ الحَديد فإذا الماء يرمي بالشرِّ ويقذف بالجمر، وذلك يوم الخميس ثاني يوم المسير وهو تاسع الشَّهر. ولما جاز المخاضة أخذ البلادَ ضَرْبُ المخاض، وزُلْزِلَتْ أرضُها فهي بالقوم تُرَضُّ أو للقيامة تُرَاض، وأخذت رجال المسلمين^(٢) تنقُصُ الأرضَ من أطرافها، وتَقْلَعُ قِلاعَ الجبال، وتطيِّرُ رؤوسها من أكتافها، فإذا البلادُ قد انهزم أهلها، فألحقها المسلمون

(١) خام عن القتال: جَبَنَ عنه. والخائم: الجبان. «اللسان» (خيم).

(٢) في (ك) الإسلام.

مساكنها في الهزيمة، وعوّلوا فيها على سيوف المعاول، فإذا هي راحلة وكأنها مقيمة، وهذه البلادُ مدن ما كان غرم قَبْلُ منها مُدْنِيًّا، وعماراتُ ما كان أَمْلٌ إليها مفضيًّا، بل طالما كان عنها مغضيًّا، مثل بيسان وعُربَلا* وزرعين وجنين، كلها بلاد مشاهير لها قُرَى مُغَلَّة، وبساتين مُظَلَّة، وأنهار مَقَلَّة، وقلاع مُطَلَّة، وأسوار قد ضُربت على جهاتها وأحاطت بجنبتها، واتخذتها المدن سياجاً على قصباتها، فغنم المسلمون ما فيها من أقوات مُخْتَزِنَةٍ، وشفوا منها حزازات القلوب المضطغنة، وأحرقوا أوعية كُفَرها بالثَّار، وعدَّبوها عذاب أهلها من الكُفَّار، وقتلوا وكان الضَّرام لها دماً، وكتبوا عليها الخراب وكان السَّيْفُ فيها قلماً، فأجلوا عن حماها حُمماً، وتساقطت جُذُرُها فكأنما أسارت فيها النوى لَمَمًا^(١).

ولما كان يوم السبت الحادي عشر ورد الخبرُ بأن عسكر الكافرين قد رَكِبَ من مكان مجتمعه، وزحف بلباسه ومُدَرِّعه، فركب الخادم يَبْوَى المؤمنين مواقف القتال، ومنازل التُّزال، فمن متسرع يطوف عليهم بصفاح ليطاف عليه^(٢) بصحاف، ومن مثبت يمشي إلى الموت مَشْيَ العُرُوس ساعة الزَّفاف، وهنالك منظرٌ ودَّ المؤمنون لو أن أميرهم له ناظر، كما هو به أمر، ولا غَرَو أن يصفه الخادمُ ليسرَّ المخدوم لا ليوصف الخادم، وَمَنْ وَصَفَ ضَرْبَةَ السيف فإنما وصف الضَّارب ولم يصف الصَّارم، ونزل العدو إلى الأرض منحطاً عن سَرْجه، ومنحازاً عن فَجِّه، وسالكاً نهجاً غير نَهْجه، وأحْدَقَ به راجله، وهو زُهاء عشرين ألف راجل، وَرَكَزَ صليبَ صلبوته، فاستوى في العَجْز المحمول والحامل، ونزل محصوراً، وَخَنَدَقَ فكأنما

(١) اللَّمَمُ: الجنون، أو طرف منه. «معجم متن اللغة» ٥/٢١٢.

(٢) في الأصل: عليها، والمثبت من (ك).

أصبح الكافر في حفر ذلك الخندق مقبوراً، وأقام بإزائه خمسة أيام تماسيه الوقائع وتصابعه، وتماشيه الرّوائع وتصافحه، ويفزع فيه إلى الحفير، ويتكرّر إليه في اليوم الواحد النّفير، ويبعث إليه السهم وهو في الحرب السّفير، فيقبل تحيّة الضّرب متردّدة ولا يرُدّها، وتبسّم إليه صفيحة النّصل متودّدة فلا يوّدّها، ويعتهد في استخراجها وقد رأى العزائم ولم يخرج لدعوتها، والمكارم ولم يرحل لبغيّتها.

ومن كتاب آخر إلى وزير بغداد: أثاروا على يوم الكفر ليلة عجاج جعلت ليل من وراءهم من الإسلام سكناً، وصبروا وصابروا فكأنما كان السّيف لهم أليفاً، وكان المُعترَك لهم وطناً، وأخذت في البلاد النّار مأخذها، ونفّذت فيها الغير منافذها، وثُلّت عُروشها وثُلّت عُروشها، وجُليت في مُصَبّغات النّيران عُروشها، وأصبحت تناجي العيون ثواكلها، وتصفّ النّوازل منازلها، دمناً على الأطلال مطلولة، وصرعى بسيوف البلاء مقتولة. وجاء العدو، فأحدث به الأبطال، وتنجزت عادة حملته^(١) فمطلت وما كان خلُقها المطال، فلما كثر الله المسلمين في عيونهم، ورأوا بها ما لم يكونوا يرونه قبلها بظنّوهم، واستمدّوا مغاني الشكوى لتبوح بها ألسنتهم، إذا خلّوا إلى شياطينهم، فأخلدوا إلى الأرض نازلين، وقعدوا عن الحَمَلَة ناكلين، واتقى فارسهم براجله، ورامحهم بنابله، ولاذ سيفهم بجفنه ولا خير في حامله، ولاذ جفنه بإطراقه خوفاً من كخله بسهم قاتله. وأقاموا محصورين لا يستطيعون وزداً ولا صدراً، ولا يجدون متقدماً ولا متأخراً، فما كان للكفر فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً، وعزف النّصل في لحن

(١) في الأصل: حملة، والمثبت من (ك).

السيف، أن الشجاعة والنكول أمران يقذفهما الله في القلوب، فلا يقل الناس كيف.

فصل

في ولاية الملك العادل حلب، وولاية تقي الدين مصر، وغير ذلك

قال العماد: وقد كان العادل نائباً بمصر، فلما فتح السلطان حلب كتب العادل إليه يطلبها منه مع أعمالها، ويدع الديار المصرية، فكتب السلطان إليه أن يوافيه إلى الكرك*، فإنه سائر إلى فتحه، فأشار القاضي الفاضل على السلطان أن يستنيب في الديار المصرية موضع أخيه العادل ابن أخيه تقي الدين، فاستصحبه السلطان معه إلى الكرك في رجب [من] ^(١) هذه السنة، وحاز في طريقه قبل وصوله إليها غنائم، وخيّم على الرّبة ^(٢)، ثم حصر الكرك ورماه بالمجانيق صباحاً ومساءً، وتناوب عليه الأمراء حتى خرج شهر رجب، وما حصل منه الطلب، لكن عظمّت النّكاية في الكفار بأخذ أموالهم وتخريب الديار. ووصل الخبر أن الفرنج قد استجمعوا وتجمّعوا بالموضع المعروف بالواله ^(٣) على قصد المسلمين وخلاص الكرك من أيديهم، ورأى السلطان أن أمر حصره يطول، فعوّل على الرّحيل إلى دمشق، ووصل العادل إلى السلطان وهو بعُد على الكرك، فجهّز تقي الدين إلى

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٢) قرية في طرف الغور بين أرض الأردن والبلقاء. «معجم البلدان»: ٢٦/٣.

(٣) قرية تقع على طريق المسافرين من عمان إلى الكرك، بين مادبا وذيبيان. «البرق»

٥/ص ١٥٤، حاشية رقم ٥.

الديار المصرية والياً عليها، وقَوَّى عَصْدُهُ بصحبة القاضي الفاضل له، وتولَّى العادل حلب وأعمالها، وَمَنَّبَجْ* وجميع قلاعها، وسار إليها في رمضان، ورجع منها إلى دمشق الملك الظَّاهر ونَوَّابُ السلطان^(١).

قلت: وكتب العادلُ إلى الفاضل يستشيرهُ في التعوُّض عن مصر بحلب. فكتب إليه الفاضل كتاباً، فيه:

إِنَّمَا أَنْتَ كَغَيْثٍ مَّاطِرٍ حَيْثَمَا صَرَّفَهُ اللَّهُ أَنْصَرَفَ
والمولى أعلم، وبسياسة الدُّنيا أقوم، وقد تَكَرَّرَ الكتاب النَّاصري إليه بما نَصَّ عليه، وكشف له الغِطاء، وسَنَى له العطاء، وقالت له المخطوبة: هَيْتَ لَكَ^(٢). وأَدَّى إليه مالِكُ الأَمْرِ ما قد ملك، فلا زالت سعادته أَنُورَ مِنْ شمس وأدورَ مِنْ فَلَكٍ، ولا زال رابحاً على الدَّهْرِ إِنْ امْرُؤٌ خَسِرَ، وبقياً إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ.

ومن كتابٍ آخر إليه: أدام الله دولة حامي الحمى، وثبَّت الدولة النَّاصرية التي يقومُ بها ملكان هُمامان هما^(٣)، هذا صلاحٌ يمنعُ فساداً، وهذا سَيْفٌ^(٤) يحقِّقُ دماً.

قال ابن أبي طي: كان السلطان يَعَظُمُ الملك العادل، ويعمل برأيه في

(١) «البرق الشامى» ٥/ش ١٤٩ - ١٥٣، ١٥٤، ١٥٩، ١٦٢ - ١٦٣، ص ١٥٢ - ١٥٤، ١٥٦، ١٦٢ - ١٦٣.

(٢) أي أَقْبَلَ. «اللسان» (هيت).

(٣) في الأصل: هما ما هما، والمثبت من طبعة وادي النيل: ٥٢/٢، وهذا النص ليس في (ك).

(٤) سيف الدين هو لقب الملك العادل أخي صلاح الدين.

جميع أموره، ويتيمّن بمشورته، ولا يُعلم بأنه أشار على السلطان بأمرٍ فخالفه. حدّثني قاضي اليمن جمال الدين، قال: كان السلطان يجمع الأمراء للمشورة، فإن كان العادل حاضراً سمع من رأيه، وإن لم يكن حاضراً لم يقطع أمراً في المهمات حتى يكتبه بجلية الأحوال، ثم يسمع رأيه فيها.

قال: وحدّثني أبي قال: حدّثني جماعة قالوا: كان السلطان ليس له غَنَاء عن العادل ولا عن رأيه، فلما حصل العادل بمصر وبَعُدَ عن السلطان هناك صار السلطان يتكلّف في مكاتبته بالأخبار، ويؤخّرُ الأمور إلى أن يردّ عليه جوابه، فيفوته بذلك كثير من المنافع الحاصلة للدولة وللجهاد. فلما حصر الكرك* في هذه السنة كاتبه بالحضور إليه بعياله وأمواله وجميع أصحابه، ووَلَّى مِصْرَ تقيّ الدين، ولما حصل العادلُ عند السلطان وقع في نفسه أن يعوضه عن ولاية مصر، ثم حار في أي ولاية يولّيه.

قال: وحدّثني علم الدين قيصر الصّلاحي قال: إنما أقَدَمَ السلطانُ العادلَ من مِصْرَ لأجل ولاية حلب، وبذلك كاتبه، ولأجل هذا^(١) خَرَجَ العادل بأمواله وعياله وأثقاله.

قال: وحدّثني غيره، قال: لما حصل العادلُ عند السلطان بأمواله وأثقاله كانت الأموال قد قلّت على السلطان، وقد حصلت عنده عساكر عظيمة، فأحضر العادل ليلاً وقال: أريد أن تقرضني مئة وخمسين ألف دينار إلى الميسور، فقال: السَّمْع والطّاعة. ثم قام، وخرج من عنده، وكتب إليه يقول: أموالي جميعها بين يديك، وأنا مملوكك، وأشتهي أن أحمل هذا

(١) في (ك) و(ب): ولهذا.

المال إلى خدمة السُّلطان، ويكون^(١) عوضاً عنه مدينة حلب وقلعتها. فأجابه السلطان: إني والله ما أقدمتك إلا لأوليّك حلب، وإذ قد اقترحت ذلك، فقد وافق ما عندي. فلما أصبح العادل أنفذ وسأل السلطان أن يكتب له بمدينة حلب كتاباً، ويجعله ككتاب البيع والشري^(٢). فامتنع السلطان وقال: إنما تكون حلب إقطاعاً، والمال عليّ له. فاعتذر العادل إلى السلطان، ولما اجتمعوا قال له السلطان: أظننت أن البلاد تباع، أو ما علمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها، ونحن خزنة للمسلمين، ورعاة للدين، وحرّاس لأموالهم؟ أو ما علمت أن السلطان ملكشاه السلجوقي لما وقف طبرية* على جامع حرّاسان لم يحكم به أحدٌ من القضاة ولا من الفقهاء^(٣)؟ ثم قرّر السلطان ولاية العادل بحلب وأعمالها إلى رغبان* إلى الفرات إلى حماة، وكتب له التوقيع، وقرّر عليه مالاّ يحمله برسم الزردخانا* وخزانة الجهاد، ورجالة من الحلبيين. ورحل السلطان إلى دمشق، واستدعى ولده الظاهر من حلب، فلما حضر أمره بالعود إلى حلب وتسليمها إلى عمّه العادل، ففعل، وعاد إلى دمشق، وسار العادل إلى حلب، فالتقيا بالرّستن*، وباتا فيه. فكانت [مدة]^(٤) ولاية الظاهر بحلب في هذه النوبة نحو ستة أشهر، ولما وصل الظاهر إلى دمشق أقبل على خدمة والده والتقرّب إليه، إلا أن الانكسار

(١) في (ك) و(ب) ويجعل.

(٢) في (ك) والشراء، وكلاهما صحيح.

(٣) في هامش الأصل بخط متأخر: أما قرأ العادل القرآن العظيم ﴿له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾.

قلت: سورة طه، الآية ٦. وقد جاءت في الأصل: والله ما في السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى.

(٤) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

لخروج حلب [من يده]^(١) ظاهر عليه، وهو مع ذلك لا يظهر شيئاً إلا الطاعة لوالده، والانقياد لمرضاته.

حدثني أبي عن مجد الدين بن الخشّاب، قال: حدثني الملك الظاهر قال: لما بلغني أن السلطان أعطى حلب للملك العادل جرى عليّ ما قدّم وما حدّث، وأصابني من الهمّ ما لم أقدر على التّهوض به، ووددت أني لم أكن رأيته، ولا دخلت إليها، لأن قلبي أحبّها وقبلها، وطاب لي هواؤها، ولما فارقتها كنت أحنُّ إليها واشتاقها.

قال: ودخل العادل حلب في رمضان، وخلع على المقدمين والأعيان، وكان قد قدّم بين يديه كاتبه المعروف بالصنيعة ليُسَلِّم حلب وقلعتها من الملك الظاهر، وولّى القلعة صارم الدين بُزْغَش، وولّى الديوان والإقطاعات شجاع الدين بن البيضاوي صَبَّاح دقنه، وولى الإنشاء وما يتعلّق بأمور السر للصنيعة ابن النّحال — وكان نصرانياً ثم أسلم على يد العادل — فولّى ابن النحال [الوظائف]^(٢) لجماعة من النصاري. وفي ذلك يقول الشاعر:

فاق دينُ المسيح في دولة العا دل حتى علا على الأديانِ
ذا أميرٌ وذا وزيرٌ وذا وا لِ وذا مُشرفٌ على الدِّيوانِ

قال: ولم يزل العادل يهذّب أمور حلب إلى سادس عشر ذي القعدة، ثم خرج متوجّهاً إلى دمشق بسبب أن السلطان اجتمع عنده في ذي القعدة

٥٣/٢

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٢) ما بين حاصرتين من طبعة وادي النيل: ٥٢/٢.

عِدَّةُ رسل، منهم: رسل الخليفة، ورسل طُغرُل بن البهلوان، ورسل قزل أخِي البهلوان، ورسل شاه أرمن صاحب خِلاط*، ورسل المواصلة، ورسل عماد الدين صاحب سِنْجار*، ورسل قليج أرسلان صاحب الشمال، فأراد السلطان إحضار العادل لسماع الرِّسائل، ولحضور الأجوبة عنها، ولتقرير أمور الفرنج، ويوم وصلَ العادلُ إلى دمشق أحضره السلطانُ لسماع الرِّسائل، وسمع ما عنده من الأجوبة، ولما قضى أجوبة الرسل ودَّعَ السلطان، وعاد إلى حلب.

قال: ولما بلغ سيِّف الإسلام أن السلطان كتب لتقي الدين عهداً بولاية مصر عَتَبَ لأجل ذلك، فكتب السلطان له عهداً ببلاد اليمن جميعها.

قال: وأقطع السلطان تقي الدين الإسكندرية ودمياط، وجعل لخاصته البحيرة والفيوم وبُوش*، ثم عَوَّضه عن بوش سَمْنُود وحوَف رمسيس، وذكر غير ذلك.

قال العماد: أنعم السُّلطان على تقيِّ الدِّين بالأعمال الفَيَّومية وسائر نواحيها بجميع جهاتها وجواليها^(١)، وزاده القايات وبُوش، وأبقى عليه بالبلاد الشَّامية مدينة حماة وقلعتها وجميع أعمالها. ولما وصل تقيُّ الدِّين إلى مِصر اقتدى بالتدبير الفاضلي، وكان السُّلطان لا يؤثر مفارقتة، فلما لم يجد من توجيه تقي الدين إلى مصر بُدْأً، وكانت فيه حِدَّة لم تكن في العادل احتاج في تقويمه إلى تدبير الأجل الفاضل^(٢).

(١) الجوالي جمع، مفردا جالية، وهي الجزية. انظر «تكملة المعاجم» لدوزي الترجمة العربية: ٣٥٢/٢.

(٢) «البرق الشامى» ٥/ش ١٥٤، ص ١٥٥ - ١٥٦.

قال القاضي ابن شداد: وَقَتْلَ عَلَى الْكَرْكْ* في هذه الكرة شرف الدين بُزْغَشْ الثُّوري شهيداً رحمه الله، ثم رحل السلطان عنها مستصحباً أخاه العادل إلى دمشق، فدخل دمشق في رابع عشري شعبان، وأعطى العادل حلب في ثاني شهر رمضان، فسار في ذلك اليوم نحوها^(١)، فوصلها، وصعد القلعة في يوم الجمعة الثاني والعشرين من رمضان، وكان بها ولد السلطان الملك الظاهر، ومعه سيف الدين يازكُوج يدبّر أمره، وابن العميد في البلد، وكان الظاهر أَحَبَّ^(٢) أولاده إلى قلبه لما قد خَصَّه اللهُ به من الشَّهامة والفِطنة والعقل، وحُسن السَّمت والشَّغف بالملك، وظهور ذلك عليه، وكان من أبرَّ النَّاسِ^(٣) بوالده، وأطوعهم له، ولكن أخذ منه حلب لمصلحة رآها، فخرج من حلب - لما دخلها عمه العادل - هو ويازكُوج سائرين إلى خدمة السُّلطان، فدخل دمشق يوم الاثنين ثامن عشري شَوَّال، فأقام في خدمة والده لا يُظهر له إلا الطَّاعة والانقياد، مع انكسار [في]^(٤) باطنه لا يخفي عن نظر والده.

قال: وفي ذلك الشهر وَرَدْنَا على السُّلطان رُسْلاً من جانب المَوْصل، وَكُنَّا قد ترسَّلْنَا إلى الخليفة النَّاصر لدين الله في إنفاذ شيخ الشيوخ صدر الدين^(٥) رسولاً وشفيعاً إلى السُّلطان، فسيرَه معنا من بغداد، وكان غزير المروءة، عظيم الحُرمة في دولة الخلافة^(٦) وفي سائر البلاد، وكانت

(١) في (ك) و(ب): نحو حلب.

(٢) في (ك) من أحب.

(٣) في (ك) و(ب): وكان أبرَّ الناس بوالده.

(٤) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٥) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٥١، وص ١٢٤ من هذا الجزء.

(٦) في (ك) و(ب) الخليفة.

مكاتبته^(١) عند السُلطان بحيث يتردّد إليه إذا كان عنده في مُعظم الأيام.

قال: وكان الشيخ قد وصل إلى المَوْصل، وسار منها بعد أن سار في صحبته القاضي محيي الدين بن كمال الدين^(٢)، وكان بينهما صحبة من الصُّبا، وكنتُ مع القوم، وسرنا حتى أتينا دمشق، وخرج السلطان إلى لقاء الشيخ ونحن في خدمته، وأقمنا أياماً نراجع في فَصْلِ حال، فلم يتفق^(٣) صَلُح في تلك الدفعة، وخرجنا راجعين إلى المَوْصل، وخرج السلطان إلى وداع الشيخ إلى القصير^(٤)، واجتهدوا في ذلك اليوم أن ينقضي شغل، فلم يتفق. وكان الوقوف من جانب محيي الدين، فإنَّ السلطان اشترط أن يكون صاحب إزِيل* والجزيرة على خيرتهما في الانتماء إليه أو^(٥) إلى صاحب المَوْصل، فقال محيي الدين: لا بُدَّ من ذكرهما في النسخة. فوقف الحال. وكان مسيرنا يوم الخميس سابع ذي الحِجَّة.

قال: وفي تلك الدفعة عَرَضَ عليَّ السُلطان مواضع البهاء الدمشقي^(٦) بمصر على لسان الشيخ، فاعتذرتُ، ولم أفعل، خوفاً من أن يُحالَ توقُّفُ الحالِ عليّ، ومن تلك الدفعة ثبت في نفسه الشريفة مني أمرٌ لم أعرفه إلا بعد خدمتي له. وأقام السُلطان بدمشق ترد عليه الرُّسل من الجوانب، فوصله رسول سِنَجَر شاه صاحب الجزيرة، فاستحلفه لنفسه وانتمى إليه، ورسِل

(١) في الأصل: مكاتبته، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) سترد ترجمته في ٢٣٨/٤ - ٢٣٩ من هذا الكتاب.

(٣) في الأصل: يبق، والمثبت من (ك) و(ب).

(٤) القصير: بالتصغير: منطقة تقع جنوبي غرب حمص، على بعد ٣٢ كيلومتر. وكانت أول منزل لمن يريد حمص من دمشق. انظر «معجم البلدان»: ٣٦٧/٤.

(٥) في الأصل: وإلى، والمثبت من (ك) و(ب).

(٦) كان مدرساً بمصر، وقد توفي في ذلك العام، انظر «وفيات الأعيان»: ٨٨/٧.

إِزْبِل، وحلف لهم وساروا، ووصل إليه أخوه العادل يوم الاثنين رابع ذي الحِجَّة، فأقام عنده. وعيِّد، وعاد إلى حلب^(١).

قال العماد: ووصلت رُسُل صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زَنْكِي، ورسِل صاحب إِزْبِل * زين الدين يوسف بن علي كوجك بن بُكْتِكِين^(٢)، ورسِل صاحبي الحديث^(٣) وتُكْرِت * يشكون من صاحب المَوْصِل، ويطلبون أن يكونوا من أولياء السُّلْطَان الممتنِّين إليه، ففعل السلطان ذلك. وكان أبو سنجر شاه سيف الدين غازي هو صاحب المَوْصِل بعد والده مودود — كما تقدم ذكره^(٤) — فعهد إلى ابنه سِنْجَرشاه بها، فغلبه عليها عَمُّه عز الدين مسعود بن مودود، فبقيت الجزيرة بيد سِنْجَرشاه، وهو تحت يد عمه، وفي قلبه منه ما فيه، وكانت إِزْبِل وأعمالها وما يليها كُلُّها مضافةً إلى الموصل، وصاحب الموصل هو الحاكم على جميعها، فمن ثَمَّ طلب هؤلاء^(٥) الانحياز إلى خدمة السُّلْطَان، فأجابهم^(٦)، وسمع بذلك صاحب الموصل، فاستشفع بدار الخلافة إلى أن أرسل منها شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير إلى السُّلْطَان أن يجدد لصاحب الموصل الأيمان، ويكون له من جُمْلَةِ الأعوان، حَرْباً^(٧) لمن حاربه، سِلْماً لمن سالمه. وجاء رسول صاحب المَوْصِل قاضي القضاة محيي الدين أبو

٥٤/٢

(١) «النوادر السلطانية»: ٦٣ — ٦٥.

(٢) في (ك) زين الدين يوسف بكتكين بن علي كوجك. وهو خطأ.

(٣) يعني حديثه الموصل. انظرها في كشاف الأماكن.

(٤) انظر ص ١٦١ وما بعدها من الجزء الثاني.

(٥) في الأصل: هو، والمثبت من (ك) و(ب).

(٦) في الأصل: فأجابه، والمثبت من (ك) و(ب).

(٧) في الأصل: كلها، وهو تحريف، والمثبت من (ك) و(ب).

حامد محمد بن قاضي القضاة كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشَّهْرُزُوري، وترَفَّع في أداء الرسالة، وأغلظ في الكلام، فألان له السلطان، وقال: أنا أقضي حاجته على ما أَراد، ولكن قد سبق مني يمينٌ لأولئك السلاطين، فأنا أَسْتَنِيهِمْ وَأَرُدُّهُمْ إلى اختيارهم لي أو له. فأبى ذلك، وأراد أن تكون الصَّدَاقَة له دون سائر ذوي الممالك، وأشار إلى أن لهم من ينصرهم من جهة البهلوان ملك العجم. فَعَظُمَ ذلك على السلطان، وكان ذلك محرِّكاً له إلى أن يعود إلى الموصل، ورجعت الرُّسل على ذلك غير ظافرين بطائل.

وكان منزل شيخ الشيوخ بالرباط على المنيع^{*}، ومنزل القاضي محيي الدين في جوسق بستان الخلخال، وشهاب الدين بشير بجوسق المَيْدَان^(١)، وتوفي ولد شيخ الشيوخ بدمشق، وكان في صحبته، فدفنه في المقبرة^(٢) المحاذية للرباط، وحضر عنده السلطان وجماعة الأمراء للعزاء^(٣).

فصل

في باقي حوادث هذه السَّنة

قال العماد: وكانت شتوة هذه السنة كثيرة الأمطار^(٤).

وكثرَت مكاتبات العماد للفاضل، وأورد في بعضها أبياتاً، منها:
عُذْرُ الزَّمانِ بأيِّ وجهٍ يُقبَلُ ومُحِبُّكُمْ بالصَّدِّ فيه يُقتَلُ

(١) أي الميدان الأخضر.

(٢) هي مقبرة الصوفية.

(٣) «البرق الشامي» ٥/ش ١٦٣ - ١٧٠، ص ١٦٣ - ١٦٩.

(٤) «البرق الشامي» ٥/ش ١٧٢، ص ١٧٠.

ما لي سوى إنسان عيني مُسْعِدًا
الدَّهْرُ لَيْلٌ كُلُّهُ فِي نَاضِرِي
خَيْرْتُكُمْ بَيْنَ الْمَنِيَّةِ وَالْمُنَى^(١)
يا غائبين وهم بفكري حُضِرُ
ما لِلسُّلُوْ إِلَى فَوَادِي مَنَهْجٍ^(٢)
لا تَعْدِلُوا عَنِّي فَمَالِي مَعْدِلٌ
كُلُّ الْخَطُوبِ دَفَعْتَهُ بِتَجَلُّدِي
إِنْ لَمْ يَجِدْنِي طَيْفُكُمْ فِي زَوْرَةٍ
لا صَبْرَ لِي لَا قَلْبَ لِي لَا غَمَضَ لِي

بِالدَّمْعِ إِنْسَانٌ عَلَيْهِ أَعْوَلُ
لَا صُبْحَ إِلَّا وَجْهُكَ الْمُتَهَلِّلُ
لَا تَهْجُرُوا فَالْمَوْتُ عِنْدِي أَسْهَلُ
يَا رَاحِلِينَ وَهُمْ بِقَلْبِي نُزِّلُ
مَا لِلصَّبَابَةِ غَيْرَ قَلْبِي مَنَهْلُ
عِنَكُمْ وَلَيْسَ سِوَاكُمْ لِي مَوْثِلُ
إِلَّا التَّفَرُّقَ فَهُوَ خَطْبٌ مُغْضِلُ
فَلَأَنْنِي مِنْهُ أَدَقُّ وَأَنْحَلُ
لَا عِلْمَ لِي بِالْبَيِّنِ مَاذَا أَفْعَلُ^(٣)

قال ابن الأثير: وفي جُمادى الأولى من سنة تسع وسبعين^(٤) قبض
عزُّ الدِّين أتابك على مجاهد الدِّين قايماز، وهو حينئذٍ نائبه في بلاده، واتباع
في ذلك هوى من أراد المصلحة^(٥) لنفسه، ولم ينظر^(٦) في مضرة صاحبه.
وكان الذي أشار به عز الدين محمود زلفندار، وشرف الدين أحمد بن أبي
الخير - الذي كان أبوه صاحب بلد الغراف^(٧) - وهما من أكابر الأمراء،
فلما قبضه كان بيده إزبل* وشهرزور* ودقوقا* وجزيرة ابن عمر*، وكان بها
مُعزُّ الدين سنجرشاه بن سيف الدين صغيراً، والحكم فيها إلى مجاهد الدين،

(١) في «البرق»: والنوى.

(٢) المنهج: الطريق. «اللسان» (نهج).

(٣) «البرق الشامي» ٥/ش ١٨٠ - ١٨١، ص/١٧٧.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٥٤ من الجزء الثاني.

(٥) في الأصل: النفحة، وهو تحريف، والمثبت من (ك) و(ب).

(٦) في الأصل: نصر، وهو تحريف، والمثبت من (ك) و(ب).

(٧) الغراف: قرب واسط، بينها وبين البصرة. «معجم البلدان» ٤/١٩٠.

ولهم أيضاً قلعة العقر^(١)، فحين قُبِضَ امتنع زين الدين يوسف بن زين الدين عليّ بإربل، وكان فيها لا حُكْمَ له مع مجاهد الدين، وامتنع معز الدين بالجزيرة، وأرسل الخليفة الناصر لدين الله عسكرياً حصر دُقُوقاً فملكها، ولم يحصل لعز الدين [من جميع ما كان لمجاهد الدين]^(٢) إلا شَهْرُزُور، وصارت هذه البلاد التي كانت بيده أضرَّ شيء على المَوْصِل، وبقي مقبوضاً [نحو عشرة أشهر، وندم أتابك على قبضه]^(٣)، فأخرجه وأعادته إلى ولاية قلعة المَوْصِل، إلا أن الذي أخذ من البلاد لم يَعُدْ إلى طاعته، وقَبِضَ عَزُّ الدين على من كان أشار عليه بقبض مجاهد الدين.

قال ابن الأثير: وعلى الحقيقة فليس^(٤) على الدُول شيءٌ أضرَّ من إزالة مُدَبِّرٍ لها وإقامة غيره، فإن الأول يكون كالطبيب الحاذق العارف بمزاج الإنسان ومرضه وعلاجه، وما يوافقه ويؤذيه، [ويكون الثاني — وإن كان كافياً — بمنزلة الطبيب الذي لا يعرف مزاج الإنسان، وما يوافقه ويؤذيه]^(٥)، فإلى أن يعرف حاله يفسد أكثر مما ينصلح^(٦).

قال ابنُ القادسي^(٧): وفي هذه السنة في جُمادى الآخرة توفي الأبله

(١) العقر: قلعة حصينة في جبال الموصل من شرقيها، تعرف بعقر الحميدية، وأهلها أكراد. انظر «معجم البلدان»: ١٣٦/٤.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٣) ما بين حاصرتين ليس في النسخ الخطية، والمثبت من مطبوع «الباهر»: ١٨٤.

(٤) في الأصل: ليس، والمثبت من (ك) و(ب).

(٥) ما بين حاصرتين مثبت من (ك) و(ب).

(٦) «الباهر»: ١٨٣ — ١٨٤، و«الكامل»: ٤٩٩/١١ — ٥٠١، ٥٠٤.

(٧) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥١ من هذا الجزء.

الشاعر - وهو من أسماء الأضداد^(١) - واسمه أبو عبد الله محمد بن
بختيار بن عبد الله^(٢)، وكان فصيحاً هجاءً، وله أشعار رقيقة، منها:

زار من أحياء بزورته والدجى في لون طرته
يا لها من زورة قصرت فأماتت طول جفوته^(٣)

ثم دخلت سنة ثمانين [وخمس مئة]^(٤)

قال العماد^(٥): وقد تقوّض البرد، فلما طاب الزمان تجهّز السلطان
بالعساكر المنصورة إلى الكرك* مرّة أخرى، وأرسل إلى تقي الدين، فجاء
بالعساكر المضربة والأجلّ الفاضل، وتتابع العساكر المشرقية والملك
العادل، وجاء نور الدين بن قرا أرسلان صاحب الحصن* وآمد*، وصاحب

٥٥/٢

(١) قال الصفدي في «الوافي بالوفيات»: ٢/٢٤٥: «وإنما قيل له الأبله، لأنه كان في غاية
الذكاء، فسمي الأبله من باب تسمية الشيء بضده، كما قيل للأسود: كافور». قلت:
وشجر الكافور خشبه أبيض هش، وانظر «وفيات الأعيان»: ٤/٤٦٥.
(٢) قال ابن خلكان في «وفيات الأعيان» ٤/٤٦٣: «الشاعر المشهور، أحد المتأخرين
المجيدين، جمع شعره بين الصناعة والرقّة، وله ديوان شعر بأيدي الناس، كثير
الوجود...»

قلت: ما زال ديوانه مخطوطاً لم يحقق.

ومن أبياته السائرة قوله:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيتها
انظر ترجمته في «مرآة الزمان»: ٨/٢٤٢ - ٢٤٣، «الكامل»: ١١/٥٠٣، و«وفيات
الأعيان»: ٤/٤٦٣ - ٤٦٥، «الوافي بالوفيات»: ٢/٢٤٤ - ٢٤٦.
(٣) انظر بعض أبيات القصيدة في «وفيات الأعيان»: ٤/٤٦٣.

(٤) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٥) انتهى ما وصلنا من الجزء الخامس من «البرق الشامي»، وسنحيل من بعد على
مختصره «سنا البرق»، انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٠٧ وحاشيتنا رقم ١ ص ٧٢ من هذا
الجزء.

دارا، وأخو صاحب سنجار، وعسكر ماردين*، فاجتمعت العساكر برأس الماء، وأشفق السلطان على ابن قرا أرسلان من اقتحام المشاق، فأقامه برأس الماء بحوران إلى حين العود، وأمر العادل بالإقامة معه^(١).

وقال القاضي ابن شدّاد: سیر السلطان إلى العساكر يطلبها، فوصل ابن قرا أرسلان نور الدين إلى حلب ثامن عشر صفر، فأكرمه العادل إكراماً عظيماً، وأصعده القلعة، وبأسطه، ورحل معه طالباً دمشق. وكان السلطان قد مَرَضَ أياماً، ثم شفاه الله تعالى، ولمّا بلغه وصولُ ابن قرا أرسلان خرج إلى لقائه — وكان رحمه الله يكارم النَّاسَ مُكْرَمةً عظيمةً — فالتقاء على الجسر بالبقيع في تاسع ربيع الأول، ثم عاد إلى دمشق، وخلف نور الدين واصلاً مع العادل، فتأهب للغزاة، وخرج مبرزاً إلى جسر الخشب، ووصل العادل وابن قرا أرسلان دمشق، فأقاموا بها أياماً، ثم رحلوا يلتحقون بالسلطان، ورحل السلطان من رأس الماء ثاني ربيع الآخر طالباً للكرّك*، فأقام قريباً منها أياماً ينتظر وصول الملك المُظفّر من مصر إلى تاسع عشر الشهر، فوصل تقي الدين، واجتمع به ومعه بيت العادل وخزائنه، فسيرهم إليه، وتقدّم إليه وإلى بقية العساكر بالوصول إليه إلى الكرّك، فتتابعت العساكر إلى خدمته حتى أحدقوا بالكرّك في رابع عشر جمادى الأولى، وركّب المجانيق عليه، وقد التقت العساكر المصيرية والشامية والجزيرية.

ولما بلغ الفرنج ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم إلى الذّبّ عن الكرّك، وكان على المسلمين فيه ضرر عظيم، فإنه كان يقطع عن قصد مصر بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج إلا مع العساكر الجمة، فاهتم السلطان بأمره

(١) «سنا البرق»: ٢٤٠ — ٢٤١.

لتكون الطريق سابلة — وَيَسِّرَ الله ذلك، وله الحمد والمِنَّة، ولكن كان فتحها بعد ذلك — ولما بلغ السلطان خَبْرُ خروج الفرنج تعبَّى للقتال، وأمر العساكر أن تخرج إلى ظهر^(١) الكَرْك، وسيَّر الثَّقَل نحو البلاد، وبقي العسكر جريدةً، ثم سار السلطان يقصد العدو.

وكان الفرنج قد نزلوا بموضع يقال له الواله^(٢)، وسار حتى نزل بالبلقاء* على قرية يقال لها حُسان قُبالة الفرنج في طريقهم، ورحل منها إلى موضع يقال له ماعين، والفرنج مقيمون بالواله إلى السَّادس والعشرين من جُمادى الآخرة، ثم رحلوا قاصدين الكَرْك، فسار بعض العساكر وراءهم، فقاتلوهم إلى آخر النهار. ولما رأى رحمه الله تصميمَ الفرنج على الكَرْك، أمر العسكر أن يدخل الساحل لخلوّه عن العساكر، فهجموا نابلس ونهبوها، وغنموا ما فيها، ولم يبق فيها إلا حصنها، وأخذوا جينين*، والتحقوا بالسلطان برأس الماء^(٣).

قلت: وقد وصف القاضي الفاضل حِصْن الكَرْك في بعض كتبه، فقال: هو شَجَا في الحناجر، وقَذَى في المحاجر، قد أخذ من الآمال بمخنتها، وقَعَدَ بأرصاد العزائم وطُرُقها، وصار ذُبًّا^(٤) للذَّهر في ذلك الفَجِّ، وعُذْرًا لتارك فريضة الله من الحَجِّ، وهو وحصن الشُّوبك — يسر الله الآخر — كبيت الواصف للأسدين:

مَا مَرَّ يَوْمٌ إِلَّا وَعِنْدَهُمَا لَحْمُ رَجَالٍ أَوْ يُؤْلِغَانِ دَمًا

(١) في مطبوع «النوادر»: ظاهر.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ١٩٠ من هذا الجزء.

(٣) «النوادر السلطانية»: ٦٦ — ٦٧.

(٤) في (ك) ذبًّا، وفي الأصل: مهملة، ولعل الأشبه ما أثبتناه.

وفي كتابٍ آخر: وأما الكَرَكُ فكفَّات المنجنيقات عليه^(١) متضافرة، وحجارتُها على مَنْ فيه حاجرة، وقد جُدعت أنوف الأبرجة، وأسبَلَت قناع السَّنائِر وجوهها المتبرِّجة، وكلُّ جوانبها وعرَّة المُرْتَقَى، صَعْبَةُ الْمُخْطَى، والسُّلْطَان يستعذب المشقَّات التي تتفادى منها الهَمَم، ويباشر جمرات الشَّتَاء الكالِح بوجهه المبتسم.

ومن كتابٍ آخر^(٢): وقد جمعت الحجارة في الإسقاط بين رؤوس الأبراج ورؤوس الأعلاج، فرمت الشَّرَافِيف والواقفين عليها لحمايتها، وأرت الفرنج باهتدائها إلى أردائها غاية غوايتها، فما أَخْرَجَ أَحَدٌ مِنْهُمْ رَأْساً إلا دخل في عينه نَصْلٌ، وما هَجَرَ قِرَابَ الإسلامِ سَيْفٌ إلا وله مع رِقَاب الكُفْر عند قَطْعِهَا وَصْلٌ، وما على الحَجَرِ في الإسراف والتبذير حَجَرٌ، ولكلُّ لَيْلَةٍ مِنْ نَقْعِ الحوافر من سنا الأَسِنَّةِ فَجَرٌ، ولقد أَخَذْنَا مِنَ العَدُوِّ بِالْمُخْنَقِ، وشرعنا في طَمِّ الخَنْدَقِ، والحائط واقع والواقعة بهم محيطة، والمدْرَع بالسيف مَفْصَلَةٌ وبالجروح* مخيطة.

ومن كتابٍ آخر: عذاب الله بالحِصْنِ وأهله واقع، ما له من دافع، وإن دَلِيلَ النَّصْرِ قد ظهر وما دونه من مانع، وأما المنجنيقات فقد نكَأت في الأبراج بالهَذَم، وفي الأعلاج بالهَتَكِ، فلم تَبْقَ لَهَا الحِجَارَةُ الطَّائِرَةُ إِلَيْهَا حِجَارَةً قَائِمَةً، وإن لها من إِمطارها عليها لَيْلاً ونهاراً دِيْمَةً دائمة، وأطفنا عليها بِالزَّرْجُونِ^(٣) حتى^(٤) وقعت الأسوار من سُكْرِهَا، وضربنا دونها

(١) في الأصل: عليها، والمثبت من (ك).

(٢) من هنا، حتى آخر ص ٢٠٦، ساقط من (ك).

(٣) الزرجون: الخمرة، فارسي معرَّب. «معجم متن اللغة»: ٢٥/٣.

(٤) في الأصل: قد، والمثبت من طبعة وادي النيل: ٥٥/٢.

الستائر حتى ترنمت لصخرها، وعاطتها كفة المنجنيق عُقار عقرها، فالسُور المقابل للمنجنقات قد انهدمت أبراجه وأبدانه، وانهدت قواعده وأركانه، ولولا الخندق الذي هو وادٍ من الأودية واسع عميق، لما تعدّر إلى الرّحف إليهم والهجم عليهم طريقاً.

ومن كتاب آخر: الحصن الذي نحن حاضروه وحاصروه في حصانة الحصانة، قد هدّت الحجارّة منه ما أحكموه بالحجارة، وغدا عليه بالتخريب ٥٦/٢ ما أعدّوه للعمارة، ففسي المنجنقات ترمي ولا تُرَنَّم سهامها، ويستديم من أعداء الله ومقلهم بالقتل والهَدم انتقامها، فما قابل المنجنقات من الأبراج والأبدان، قد أتى التخريب على ما فيه من العُمران، فلم يبق إلا طمُّ الخندق، والأخذ بعد ذلك من العدو بالمخنق، والقلوب واثقةٌ بحصول الفتح، وقد عَلِمَ كلُّ واحدٍ منا أن متجره قد فاز بالرّبح، فما يُسمع منا بحمدِ الله من أحدٍ ملل ولا ضَجَرَ، ولا تُنفِرُ هذه النّوبة إن شاء الله تعالى إلا عن نصيرٍ وظفر.

قال العماد^(١): ورحل السُّلطان من رأس الماء على طريق الظِّلِيل والزَّرْقَاء*، وَعَمَّانَ والبَلْقَاء، ثم الرّقيم* ويزاء*، والنقوب واللّجون*، ثم أدر، ثم الرُّبّة*، وذلك في بلد مآب، فلما تلاحقتِ العساكر نزل على وادي الكرك، ونصب عليها تسعة مجانيق صفّاً قُدَّام الباب، فهدمت السُّور المقابل لها، ولم يبقَ مانعٌ إلا الخندق الواسع العميق، وهو من الأودية الهائلة، والمهاوي الحائلة، والمهالك الغائرة الغائلة، ولم يكن في الرأي إلا طمُّه، وملؤه بكل ممكنٍ ورَدَمُه، فعَدَّ ذلك من الأمور الصّعب، وتعدّر لحزونة

(١) إلى هنا ينتهي السقط من (ك) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٠٥ من هذا الجزء.

الأرض وتحجّرها حَفَرُ الأسراب^(١)، فأمر السُلطان بضرب اللَّبن وجمَعَ الأخشاب، وبناء الحيطان المقابلة من الرِّبْض إلى الخندق وتسقيفها، وتلفيق ستائرهما وتأليفها، فتمَّت دروباً واسعة لا يَزَحُمُ فيها الجائي الذَّاهِبُ، وتوافدت رجال العسكر وأتباعه، وعِلمَانُه وأشياعه، على نقل ما يُرْمَى في الخندق، وهان طَمُّ الخندق بالدَّبَابَاتِ التي قُدِّمَتْ، والأسراب التي بنيت وأُحْكِمَتْ، فوجد^(٢) النَّاسُ إلى الخندق طريقاً مهيباً فهم يَزْدَحُمُونَ آمِنِينَ من الجِرَاحِ، عاملين بانسراح، والنَّاسُ تحت القلعة على شفير الخندق لا يستشعرون حَذَرًا، ولا يخشون سَهْمًا ولا حَجَرًا، وقد امتلأ الخندق حتى إن أسيراً مقيداً رمى بنفسه إليه، ونجا بعدما توالى من الفرنج رمي الحجارة عليه^(٣).

وفي بعض الكتب العمادية: ولولا الخندق المانع من الإرادة، وأنه ليس من الخنادق المعتادة، بل هو وادٍ من الأودية واسع الأفنية، لَسَهَّلَ المشرع وهجم الموضع، فلم يبق إلا [تدبير]^(٤) طَمُّ الخندق، والأخذ بعد ذلك من العدو بالمخنق، فعملنا دبابات قدَّمناها، وبنينا إلى شفير الخندق ثلاثة أسراب باللِّبن سقفناها وأحكمناها، فصارت منها إلى طَرَفِ الخندق طُرُقٌ آمنة، وشرع النَّاسُ في طَمِّ الخندق منها ونفوسهم مطمئنة، وقلوبهم ساكنة. وكان الشُّروع فيه يوم الخميس سابع جُمادى الأولى، وقد تسنَّى طَمُّه وتهياً^(٥) رَدَّمُه، وتسارع النَّاسُ إليه، وازدحموا عليه، ولم يبق صغيرٌ ولا كبيرٌ

(١) في الأصل: الأتراب، والمثبت من (ك).

(٢) في الأصل هنا اضطراب في ترتيب أوراقه، أعدناها إلى حاق موضعها.

(٣) «سنا البرق»: ٢٤١ — ٢٤٢.

(٤) ما بين حاصرتين من (ك).

(٥) في (ك) وتمشَّى.

إلا وهو مستبشر بالعمل، منتظر لبشرى نُجَح الأمل، وقد تجاسروا حتى ازدحموا تحت القلعة نهاراً كازدحامهم في المصلّى يوم العيد، وليلاً كحضورهم في جامع دمشق ليلة النصف السعيد، وهم بحمد الله من الجراح سالمون، وينصر الله^(١) موقنون عالمون، وإن أبطأ العدو عن النجدة فالنصر سريع، والحِصْنُ وَمَنْ فِيهِ صريع، وقد خَرَقَتِ الحِجَارَةُ حِجَابَهُ، وقطعت بهم أسبابه، وناولته من الأجل كتابه، وحسرت لثام سُورِهِ وحلّت نقابه، فأناف الأبرجة مجدوعة، وثنايا الشُّرُفات مقلوعة، ورؤوس الأبدان محزوزة، وحروف العوامل مهموزة، ويطون الشُّقُوف مبقورة، وأعضاء الأساقف معقورة، ووجوه الجُدُر مسلوخة، وجلود البواشير^(٢) منشورة.

والتَّصَرُّ أَشْهَرُ مِنْ نَارٍ عَلَى عِلْمٍ وَالْحَرْبُ أَقْوَمُ مِنْ سَاقٍ عَلَى قَدَمٍ
قال: وأشرف السُّلطان على أَخْذِهَا، فوصل الخبر أن الفرنج قد تَجَمَّعُوا وَجَاؤُوا مِنْجِدِينَ لِأَهْلِ الْكَرْكِ* ليزحزحوه عن حصارها، فثنى السلطان عِنانَ الْعَزْمِ إِلَيْهِمْ، وكانوا في منزلة الواله، وتلك المواضع ضيقة صعبة المَسْلَكِ، فانظر السلطان أن يخرجوا إلى [أرض]^(٣) الْبَلْقَاءِ، وتقدّم عنهم بأميال، فرجعوا وتفرّقوا ولم يُقْدِمُوا، وعلى قصد الْكَرْكِ عزموا، ولما رأى السُّلطان أن الْفُرْصَةَ مِنَ الْفَتْنَيْنِ فَاتَتْ مَرَّةً عَلَى نَابِلِس*، فأغار وغنم، وفي طريق عَوْدِهِ نَزَلَ عَلَى سَبَسْطِيَّة*، وفيها مشهد زكريا عليه السَّلام، وقد اتخذهُ الْفَرَنْجُ كَنِيسَةً، وأودعوها أمتعة نفيسة، وبها من الْفَرَنْجِ سُكَّانٌ وَأَقْسَاءُ

(١) في الأصل: وبالنصر، والمثبت من (ك).

(٢) مفردها باشورة، ستأتي في كشاف المصطلحات.

(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

ورُهبان، ففدوها بأسارى المسلمين، ولاذوا بالأمان معتصمين، ثم أناخ على جِنين*، فأهبط أوجها وهدم بُرجها، وآب بالنهاب والسبايا والمرباع والصفايا، واجتمع بأصحابه على الفوّار*، وتحدّث بالإنجاد لحوادث الغور* في الغوّار^(١).

فصل

ثم رحل السُلطان إلى دمشق للاجتماع برسل الخلافة شيخ الشيوخ وبشير، وكانوا وصلوا والسلطان محاصر الكرك، فاجتمع بهم وأكرمهم، وكانوا قد مرضوا، ومات جماعة من أصحابهم، وعاد السُلطان شيخ الشيوخ كل يوم ليلة في الرباط بالمُنيع*، واستأذنوا في العود قبل الشفاء، فضاعت الصُدور بصدر ذلك الصّدْر على تلك الحالة، وعجزت تلك العثرة — كما شاء الله — عن الإقالة، ثم استَقَلَّ مودّعاً وداعاً الأبد. وكان حسام الدين طُمان مقدّم عسكر سنجار* مع السُلطان حاضراً في الجهاد، فأذن له في العود، وأمره بمرافقة صدر الدين والرُّسل معه، والرَّفُق بهم في مسيرهم، فساروا على سَمَت الرّجبة*، فاغتنم الأمير طمان بركة تلك الصُّحبة، فأدركت المنيّة شهاب الدين بشيراً بالسُّخنة*، ووصلوا بشيخ الشيوخ إلى الرّجبة، وهناك لقي ربه.

قال: ولقد توفاه الله على الوفاء بعهده، والوفاق لعقده، مشيم الكرم، كريم الشيم، صالح العمل، ناجح الأمل، مفارقاً للدُّنيا في حياته، مقبلاً على الآخرة قبل وفاته، فهو ممن رَفَعَتْ سريره الملائكُ، وَوَضَعَتْ له في عِلِّين

(١) انظر «سنا البرق الشامي» ٢٤٣ — ٢٤٤.

الأرائك، وكانت وفاته في شعبان، بوَّاه الله الجنان^(١).

قلتُ: كان صدر الدين هذا أحد السَّادة، وأبوه^(٢) وجَدُّه من أكابر الأعيان، وشيوخ مشايخ الزَّمان، وهو عبد الرحيم بن إسماعيل بن أبي سَعْد أحمد بن محمد النَّيسابوري، وقد ذكُرَتْ ترجمة والده في «تاريخ دمشق» وألحقها من أخبار جَدِّه مما ذكره أبو سعد السَّمْعاني في «تاريخه».

وقال ابن القادسي^(٣): توفي صدر الدِّين في رجب برحبة مالك بن طَوَّق، ودُفِنَ في قُبَّةٍ إلى جانب قبر الشيخ موفق الدين محمد بن المُتَّقَنَةِ الرَّحْبِيِّ^(٤)، وكان مولده في ذي الحِجَّة سنة ثمانٍ وخمس مئة، وكان شيخاً ماثلاً في العِلْم والدِّين والسَّداد، ثابت الجَنَان في الحوادث المُزَعَّجة، والوقائع الباغية المُجَلَّجلة، سديد البديهة، صافي الفِكرَة، وَجَمَعَ بين نَظْم الشُّعْرِ ونثر التَّرْسُل، وكان يُرْسَلُ إلى الأطراف، ورُتِّبَ في مشيخة الشيوخ* منذ توفي والده في جُمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وخمس مئة، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي، وتولى بعده مشيخة الرِّباط صفى الدين إسماعيل.

ومن شُعره، يعني صدر الدين:

ولم أَخْضَبْ مَشِيبِي وَهُوَ زَيْنٌ لَا يَإِثَارِي جَهَالَاتِ التَّصَابِي

(١) «سنا البرق»: ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٧٨ من الجزء الثاني.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥١ من هذا الجزء.

(٤) هو محمد بن علي بن محمد بن الحسن، أبو عبد الله، فقيه شافعي، له معرفة بالأدب، وهو صاحب الأرجوزة في علم الفرائض، المسماة «بغية الباحث» والمشهورة بالرَّحْبِيَّة، توفي سنة (٥٧٧ هـ) على الأرجح، انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/٢٤١ - ٢٤٢، و«معجم البلدان»: ٣/٣٥ وفيه «ابن المتفنتة» وهو تصحيف، و«طبقات الشافعية» للسبكي ٦/١٥٦ و«طبقات الشافعية» لابن قاضي شُهَبَة ٢/١٩، وفيه وفاته سنة (٥٧٩ هـ).

ولكن كي يراني من أعادي فأزهبه بوثبات الشباب
قلت: ووقفتُ على كتابِ فاضلي إليه جواباً عن كتابِ عتبَ فيه: وقف
على التحيّة الطيبة، والكرامة الصّيبة، والألفاظ العذاب إلا أنها الغضاب،
والنّعيم إلا أنه العذاب، والمسامحة إلا أنها الحساب، والمتشابهات اللواتي
تأولها^(١) أحسن تأويلها، والمحكمات اللّواتي هُنَّ أمهات^(٢) الكتاب، ويكفي
أنه مزج الصّاب بعسله، وأزغف قلمه بما لا يُرغفه الشّجاع من أنوف أسله.
وهذا بابٌ قد آن سده، وسبيلٌ قد وجب صدّه، وعينٌ دهرٌ أصابت هذه
المودّة، وقد آن لها أن تنظرف^(٣) وتنصرف، وبادره^(٤) همٌ قد حان أن
تنكشف وتنكسف، فلا نظر بعدّها للعين التي أصابت، ولا خطرات في أثرها
للخبرة التي رابت، ولا كان للأيام في فضل سيدنا على عبده نصيب، ولا
عدا^(٥) أبداً على شباب الرّضى عنه مشيب، ولا تمكّن من حبيب ودّه إلى
القلب رقيب، ولا ملك رقه غير تلك اليد الكريمة، ولا سمعت حديث
الحوادث تلك المودّة القديمة.

قال العماد: وخرجنا من دمشق في شعبان، وخيّمنا على سّسع*،
ودعا تقيّ الدين فأمره أن يرجع بالعسكر إلى مصر، فسار في منتصف الشّهر،
ثم رجعنا من قرّض الجهاد إلى فرض الصّيام بدمشق، ورجع كلُّ عسكرٍ إلى
مركزه^(٦).

(١) في الأصل: أولها، والمثبت من (ك).

(٢) في (ك) أم.

(٣) في الأصل: تطرف، والمثبت من (ك).

(٤) في (ك) وهم.

(٥) في الأصل: وغدا، والمثبت من (ك).

(٦) «سنا البرق»: ٢٤٦.

ومدح العمادُ تقيَّ الدين في هذه المرأة^(١) بقصيدة ثائية، نحو خمسة
وثمانين بيتاً، أولها:

إذا شِئْتُمَا عن غيرِ قلبي تحدَّثَا
خُذَا شاهِدَيَّ صدقٍ^(٢) على صِحَّةِ الهَوَى
مريضُكُمَا أَشْفَى على اليأسِ سُقْمُهُ
رثى لي عَدُوِّي من جَفَاءِ أَحِبِّي
ومنها:

عهدُكم بعد النَّوى ما تَشَعَّثَ
وَأَمْلِكُ بِالْمَلِكِ الْمُظْفَرِ ظافِراً
مخوفُ الشُّطَا^(٤) صَعْبُ الْإِيَابِ حَسَنُ الشَّنَا
صفا آخر^(٦) العُمَرَيْنِ مِنْ عَمْرِ الَّذِي
هَمَّ أَحَدُتُمَا قَمَعَ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى
غُثَائِي وَغُثِّي أَنْتَ حَامِلُ نَقْصِهِ
ومنها في وَصْفِ الْقَصِيدَةِ:

وقد سَهَّلْتَ وَالْثَاءَ أَوْعَرُ مُرْتَقَى
فلا فَرَقَ عِنْدِي بَيْنَ رَاءٍ وَبَيْنَ ثَا^(٧)

(١) في (ك) الكَرَّة.

(٢) في الأصل: صدقي، والمثبت من (ك).

(٣) في الأصل: ووجداً، والمثبت من (ك).

(٤) في الأصل: خوف السلطان، والمثبت من (ك).

(٥) الثنا: مثل الثناء إلا أنه في الخير خاصة. «اللسان» (نثا).

(٦) في (ك) أحد.

(٧) انظر «سنا البرق الشامي»: ٢٤٥.

فُضِّل

يحتوي على ذِكرِ المفاضلة بين مصر والشَّام
والتعريف بحال زين الدين الواعظ

٥٨/٢

الذي كان صلاح الدين يكاّته بوقائعه، وهو الذي نمَّ على عُمارة
وأصحابه بما كانوا عزموا عليه من قلب الدولة النَّاصريةِ مُضِرَّةً كما سبق^(١).

وسبب^(٢) ذِكره هنا أنه هو الذي شرع في تفضيل مصر بكتاب كتبه إلى
السُّلطان في هذا العام^(٣)، وقد تقدَّم للقاضي الفاضل كلام في تفضيل مصر
وذمَّ الشَّام في أوائل أخبار سنة أربع وسبعين^(٤).

وله من كتابٍ آخر: فدَعُونَا من بَعْلَبَك البلد الأعسر، ومن رأس عينها
الضَّيِّقَةُ المَحْجَرُ، ومن ثَلَجها الذي تَنْفِشُ الجبال بِعَيْنِهِ، ومن بَرَدَها الذي
لا يَشْفَعُ الجَمْرُ عنده إلا بإذنه، وعودوا إلى ما أُتْرِفْتُمْ فيه ومساكِكُمْ، فإنها^(٥)
قد علَّتْها وَخْشَةٌ لِقَطينِها، فسألتُ مطالعُ دُسُوتِها عن أقمار سلاطينِها، واذكروا
النَّيْلَ الذي وفى لكم في هذه السنة بنقصه، وأبى أن يكون مأوه ذخيَرَةٌ لغير
جُودكم الذي أحصاه الله ولم نحصه، واذكروا قُرطِها وماء طوبتها، فقد كاد
يقيم الحُجَّةَ على ثَلَجِ الشَّامِ وَوَحْمِهِ، ويتغلغل بَرْدُهُ فيسري إلى قلب الغليل
وكأنه جارٍ على غير طريق فمه، واذكروا صحة هوائِها وتعصُّبه لأيامكم، حتى
أنعم الله عليكم قبل صحة أجسامنا بصحَّة أجسامكم.

(١) انظر ص ٢٨٢ وما بعدها من الجزء الثاني.

(٢) ما بينهما ساقط من (ك).

(٣) انظر ص ٩ من هذا الجزء.

(٤) في (ك) فإنه.

ومن كتابٍ آخر: وأما أحوالي فإنني لم أزل مُلتائاً منذ دخلتُ دمشق لتغيّرِ مائها وهوائها، وأبنيتها وأبنائها، وأوديتها وأودائها، وقراها وقرنائها. وَمَنْ لي بمصر، فإنني أقنع بما تُنبئهُ أرضُها من بَقْلِها وقثائها، وأبيع بَرْدِي وما عساه بشرية من مائها، وامططي مَتْنَ السَّيْفِ في هَجْرِ سوادها وسودائها، فالطَّلُّ هائل ولا طائل، وما كُنَّا نسمع به من تلك الفضائل متضائل، حتى^(١) إذا جاءه لم يَجِدْهُ شيئاً، فهي بلادٌ تستجدي ولا تجدي، وفِعْلُ المال بها لازم للتعدي^(١).

وقال العماد: هذا زين الدِّين علي بن نجا الواعظ من أهل دمشق، ومن ساكني مصر، وهو ذو لهجة في الوَعْظ فصيحة، وبهجة في الفضل صبيحة، وقَبُولٍ من القلوب، وفصول في فَضْلِ الخطاب للخطوب، وقد تأثت وتأثل، وقِيلَ وأقبل، وأحسن السُّلطان إليه بالأعطيات والاقطاعات وأجمل، وأعطاه وأجزل، وأَتَمَّ له مراده وأكمل. وكان السُّلطان يستشيرهُ، ويروقه تدبيره، ويميل إليه لقديم معرفته وكريم سَجِيَّتِهِ. ووصل منه في هذه السَّنة كتابٌ يُشَوِّقُ إلى مصر ونيلها ونعيمها وسلسيلها، ودار مُلْكها ودارة فلَكها، وبحرها وخليجها، ونَشْرها وأريجها، ومقسَمها ومقياسها، وإيناس ناسها، وقصور مُعَزَّها ومنازل عِزَّها، وجيزتها وجزيرتها، وخيرتها وجيرتها، وبركتها وبركتها، وعُدوتها وعَدَوِيَّتْها، وتعلق القلوب بِقَلْبُوبِها، واستلاب [نفائس]^(٢) النفوس بأسلوبها، وملتقى البحرين، ومُرتقى الهَرَمين، وروضة جَنَّانها، وجَنَّة رِضوانها، ومساجدها وجوامعها، ومشاهدها ومراجعها، ونواظر^(٣) بساينها، ومناظر ميادينها، وساحات سواحلها، وآيات فضائلها،

(١ - ١) ما بينهما ساقط من (ك).

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

(٣) في (ك) نواضر.

ورحاب شوارعها، وحلاب مشارعها، وشروق غربيتها، وغروب شريقيتها،
وطيب طوبتها، ومسار مُسراها^(١)، ومَجْرى فُلْكها ومُرْساهها، وعجائب بُناها
وغرائب مناهها، وبيان عيانها بلسان بَلْسانها، وكياسة أخلاقها، ونفاسة
أغلاقها، وشتاؤها في الفصل ربيع [نضير]^(٢)، وغبارها عبير، وماؤها
كوثري، وترابها عنبري.

ثم وصف العماد غير ذلك، ثم قال: وذكر زين الدين الواعظ في كتابه
ما دَلَّ به على فضيلة تلك الدِّيار من الآيات والأخبار والآداب والآثار، ولو
ظفرتُ به لأوردته بلفظه، وجلوته بوعظه، لكنني فقدته، فَعَرَمْتُ معانيه
وأَحَكَمْتُ مبانيه.

قال: فكتبتُ إلى زين الدين الواعظ في جوابه عن السُّلطان: عَرَفْنَا
طيب الدِّيار المِصْرِيَّة ورِقَّة هوائها، ونحن نسلِّم له المسألة في طيبها وتوفر
نصيبيها، ورقة نسيمها ورائق نسيبها، لكن لا ريب أنَّ الشَّام أفضل، وأنَّ أجر
ساكنه أَجْزَل، وأنَّ القلوب إلى قُبُلِه^(٣) أميل، وأنَّ الزُّلال البارد به أعلَّ
وأنهل، وأنَّ الهواء في صيفه وشتائه أعدل، وأنَّ الزَّهرَ به أَشْبُّ والنبت به
أكهل، وأنَّ الجمال فيه أكمل، والكمال فيه أجمل، وأنَّ القَلْبَ^(٤) به أروح،
والروح به أقبل، ودمشق عقيلته^(٥) الممشوطة، وعُقْلته المنشوطة^(٦)،
وحديقته النَّاضِرَة، وحدثته الناظرة، وهي عينُ إنسانه، بل إنسانُ عينه،

(١) انظر حاشيتنا رقم ٤، ٥ ص ٧١ من هذا الجزء.

(٢) ما بين حاصرتين من طبعة وادي النيل ٥٨/٢.

(٣) القبل: الوجه. «معجم متن اللغة»: ٤٨٧/٤.

(٤) في الأصل: القلوب، والمثبت من (ك).

(٥) العقيلة من النساء: الكريمة المخدرة النفيسة. «معجم متن اللغة»: ١٦٨/٤.

(٦) العقلة: العقدة. ونشطها: عقدها وشدّها. «اللسان» (عقل، نشط).

وصيرفي نقوده [في]^(١) عين نُضاره ولُجينه، فمستامها مستهام، وما على محبها ملام، وما في ربوتها ربية، وفي كل حبة [منها]^(٢) جنبية، ولكل شائب من نورها شبيه، وعلى كل ورقة وزقا، وعلى كل معانقة من قدود البانات عَنقا، وشادياتها على الأعواد تُطري وتطرب، وساجعاتها بالأوراد تُعجم وتُغرب، وكم فيها من جوارٍ ساقيات، وسواقٍ جاريات، وأثمار بلا أثمان، وروح وريحان، وفاكهة ورُمان، وخيرات حسان، وجميع^(٣) ما في سورة الرحمن، ونحن نتلو عليها آلاءها إلى أن يرجع إلينا فتتلو على منكرها ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾^(٤) وقد تمسكنا بالآية والسنة والإجماع، وغنينا بهذه الأدلة عن الاختراع والابتداع، أما أقسم الله تعالى بدمشق في قوله تعالى ﴿والتين والزيتون﴾^(٥) والقسم من الله لها أدل دليل على فضلها المصون، أما قال رسول الله ﷺ: «الشام خيرة الله من أرضه، يسوق الله إليها خيرته من عباده»^(٦). وهذا أوضح بُرهان قاطع على أنه خير بلاده. أما الصحابة رضوان الله عليهم أجمعوا على اختيار السُكنى بالشام، أما فتح دمشق بِكر الإسلام، وما ننكر أن الله تعالى ذكر مِضر وسَمَّاها أرضاً، فما الذكر والتسمية في فضيلة القسم، و[لا]^(٦) الأخبار عنها دليلاً على الكرم، وإنما اكتسبت الفضيلة من الشام بنقل يوسف الصديق إليها عليه أفضل الصلاة والسلام، ثم المقام بالشام أقرب للرباط، وأوجب للنشاط، وأجمع للعساكر

٥٩/٢

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

(٣ - ٣) ما بينهما ليس في (ك).

(٤) سورة التين، الآية: ١.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده»: ١١٠/٤، وأبو داود في «سننه» (٢٤٨٣) من حديث عبد الله بن حوالة، ولفظه: «عليك بالشام فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده».

(٦) ما بين حاصرتين من (ك).

السَّائِرة من سائر الجهات للجهاد، وأين قطوب المقطب^(١) من سناء سَينِر^(٢)، وأين ذُرَى مَنَفٍ المشرف من ذروة الشَّرَف المنيف المنير، وأين الهَرَم الهَرَم من الحرم المحترم، وبينهما فَرْقٌ ما بين الفَرْق والقَدَم، وهل للنَّيل مع طول نيله وطول ذيله واستطالة سيله بَرْدُ بردى في نقع الغليل، ونفع العليل، وما لذاك الكثير طلاوة هذا القليل، وسيل هذا السَّلْسِيل، وإذا فاخرنا بالجامع^(٣) وَقَبَّة النَّسْرِ* ظهر عند ذلك قِصْرُ القَصْرِ، على أن باب الفرديس* في الحقيقة باب النَّصْرِ، وما رأس الطابية كبابِ الجابية، ولو كان لناسها باناس* لم يحتاجوا إلى قياس المقياس، ونحن لا نجفوا الوطن كما جفاه، ولا نأبى فضله كما أباه، وحُبُّ الوطن من الإيمان، ومع هذا فلا ننكر أن مصر إقْلِيمٌ عظيم الشأن، وأن مَغْلَهَا كثير، وماءها غزير، وأن عِدَّها^(٤) نمير، وأن ساكنها ملك أو أمير، ولكن نقول كما قال المجلس السامي الأجلّي الفاضلي — أسماه الله — أن دمشق تصلُح أن تكون بُسْتَاناً لمصر. ولا شك أن أحسن ما في البلاد البُسْتَان. وزين الدين — وفقه الله — قد تعرَّض للشام، فلم يَرِضَ أن يكون المُساوي حتى شرع وعدَّ المُساوي، ولعله

(١) في هامش (ك) حاشية: كذا هو بخطه: المقطب، وكذا تقوله العامة، وإنما هو المقطم، وآخره ميم، كذا يقوله أهل العلم، وهو في صحاح الجوهري. وفي قصيدة المتنبّي الميمية:

واستدّرت بظل المقطُم

وأولها: فراق ومن فارقت غير مذمم.

قلت: استدّرت: نزلت في ذراه، أي في كنفه وناحيته. وانظر «ديوان المتنبّي»:

٢٦٩/٤ (طبعة البرقوق).

(٢) جبل بين حمص وبلبل على الطريق. «معجم البلدان» ٢٦٩/٣.

قلت: هو ما يعرف الآن بجبال القلمون.

(٣) يعني جامع دمشق الكبير (الأموي).

(٤) العد: الماء الدائم الذي له مادة لا انقطاع لها، مثل ماء العين. «اللسان» (عدد).

يرجع إلى الحق، ويعيد سعد إسماعله ووفاقه إلى الأفق، إن شاء الله^(١).

قلتُ: وقد قيل في وصف دمشق شيء كثير من النظم والنثر، واشتمل ما جمعته في أول «تاريخ دمشق» على قطعة حسنة كبيرة من ذلك، وصنّف شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السخاوي^(٢) رحمه الله مقامه تشتمل على المفاخرة بين دمشق ومصر، ووصف كلاً من البلدين بما يليق به، وكان أول ما قدم دمشق يذمّها في مكاتباته إلى مصر نظماً ونثراً؛ حبّاً للوطن. ثم لما استقر فيها قرّرت عينه، وفضّلها في بعض مكاتباته، وقد ذكرت كل ذلك في جزءٍ مستقلٍّ به.

وأما القاضي الفاضل رحمه الله، فقد قال في بعض مكاتباته إلى مصر: ومما أسرُّ به قلبه الكريم أني وصلتُ إلى دمشق المحروسة حين شردَ بردُها، ووردَ ورْدُها، واخضَلَّ نَبْتُها، وحسَنَ نعتها، وصفا ماؤها، وصفا رداؤها، وتغنّت أطيارها، وتبسّمت أزهارها، وافتَرَّ زهر أقحوانها، فحكى ثغور غزلانها، ومالت قُصْب بانها، فانشت ثَنِي وَلدانها، فلما قربتُ من بساينها، ولاح لي فيح^(٣) ميادينها، وتوسطتُ جَنَّة واديها، ورأيتُ ما أبدعه^(٤) الله فيها، سمعت عند ذاك حماماً يُغرّد، وهزاراً يشدو^(٥) ويردّد، وقُمرياً ينوحُ،

(١) «سنا البرق الشامي»: ٢٤٦ - ٢٤٧.

(٢) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٦٤٣ هـ).

(٣) الفيح: خصب الربيع في سعة البلاد. «معجم متن اللغة»: ٤ / ٤٦٤.

(٤) في (ك) ما أودعه.

(٥) في (ك) ينشد.

وَيُبْلَا^(١) بِأَشْجَانِهِ يِيُوح، فَوَقَفْتُ أَنِّي عَلَى بَارِيهَا^(٢)، وَأَكَادُ بِالذَّمْعِ أَبَارِيهَا،
أَسْفَاً عَلَى أَيَّامٍ خَلْتُ بَعْدَمَا خَلْتُ مِنْهَا فِيهَا، فَعِنْدَ ذَلِكَ عَايَنْتُ رُوحِي، وَزَالَ
أَنِّي وَلَوْحِي^(٣).

وَكَانَتِ النَّفْسُ قَدِمَاتٍ بَغُضَّتْهَا فَعِنْدَ ذَلِكَ عَادَتْ رُوحَهَا فِيهَا

قُلْتُ: وَوَصَفَ أَيْضاً دِمَشْقَ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ مَنْ يُزْجَعُ إِلَى قَوْلِهِ، وَيُرْضَى
بِحُكْمِهِ لِفَضْلِهِ وَفَضْلِهِ؛ وَهُوَ الْوَزِيرُ الْعَادِلِيُّ صَفِيُّ الدِّينِ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ
عَلِيٍّ الْمَعْرُوفِ بِابْنِ شُكْرٍ^(٤) فِي كِتَابِ «الْبَصَائِرِ» لَهُ، فَقَالَ: دِمَشْقُ نَزْهَةِ
الْأَبْصَارِ، وَعُرُوسُ الْأَمْصَارِ، وَمَجْرَى الْأَنْهَارِ، وَمَغْرَسُ الْأَشْجَارِ، وَمُعْرَسُ
السُّفَارِ، وَمَعْبَدُ الْأَبْرَارِ، الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ، ظِلُّهَا الْمَمْدُودُ، وَمَقَامُهَا
الْمَحْمُودُ، وَمَاؤُهَا الْمَسْكُوبُ، وَعَيْنُهَا الْمَسْلُوبُ، وَمَحَاسِنُهَا الْمَجْمُوعَةُ،
وَفَضَائِلُهَا الْمَرْوِيَّةُ الْمَسْمُوعَةُ، وَدَرَجَتُهَا الْمَرْفُوعَةُ، وَفَاكِهَتُهَا الْكَثِيرَةُ
لَا مَقْطُوعَةُ وَلَا مَمْنُوعَةُ، وَنَسِيمُهَا الْعَلِيلُ، وَهَجِيرُهَا الْأَصِيلُ، وَمَاؤُهَا
السَّلْسِيلُ. وَقَدْ شَرَفَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِالذِّكْرِ فِي كِتَابِهِ، وَأَوَى إِلَيْهَا مِنْ اخْتَارَ مِنْ
أَنْبِيَائِهِ وَأَحْبَابِهِ، فَقَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْمُبِينِ: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ
وَمَعِينٍ﴾^(٥) وَلَمْ تَزَلْ مَقَرَّ الْبَرَكَاتِ، وَمَعْدِنِ الثُّبُوتِ. وَمَنْزِلُ الرُّسَالَاتِ،
وَمَسْكَنُ أَرْبَابِ الْكَرَامَاتِ، وَوَرَدَ فِي تَفْضِيلِ بَقْعَتِهَا مِنَ الْأَخْبَارِ مَا لَا يَشْكُ فِي

(١) فِي (ك): وَقَمْرِيَا يِنُوحَ وَبِأَشْجَانِهِ يِيُوح.

(٢) فِي الْأَصْلِ: نَازِلَهَا، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (ك).

(٣) فِي (ك): فَعِنْدَ ذَلِكَ تَأَسَفْتُ عَلَى أَيَّامٍ خَلْتُ مِنْهَا فِيهَا، وَعَاشْتُ رُوحِي، وَزَالَ أَنِّي
وَلَوْحِي.

وَفِي هَامِشِهَا: بَيَانٌ: وَنُوحِي. وَاللُّوحُ: الْعَطَشُ.

(٤) تَرْجَمَ لَهُ أَبُو شَامَةَ فِي «الْمَذِيلِ عَلَى الرُّوَضَتَيْنِ»، وَفِيَاتُ سَنَةِ (٦٢٢ هـ).

(٥) سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ، الْآيَةُ: ٥٠.

صحة إسناده، قال رسول الله ﷺ: «الشَّامُ صفوةُ الله من بلاده، فيها خيرةُ الله من عباده»^(١). ونَبَّه في خبرٍ آخر على عظم فضله، فقال: «إن الله تكفل لي بالشَّام وأَهْلِهِ»^(٢) وركب في سُكُنَّها أهلُ الإسلام بقوله عليه السلام: «البركة في الشَّام»^(٣). وذهب بعضُ المفسِّرين من أهل الاجتهاد إلى أنها «إِرمَ ذاتِ العماد، التي لم يُخلَقْ مثلُها في البلاد»^(٤).

قال: ولما أنعم الله تعالى عليَّ بإسكاني في فَنائِها، وتخيري لبنائِها، ونَزَّهني في أفنائِها، وأنسني بإنسانِها، مضيت إلى جامعِها الجامع، وشفعت بإدراكِ البصر منها^(٥) إدراكِ المسامع، فلما وصلت إليه، وحللتُ الحُبَى^(٦) لديه، رأيتُ مرأى صَغَرَ الرواية، ورونقاً حصل من الحسن على النِّهاية، ونوراً يجلو الأبصار، وجمعاً يفضل على جموع الأمصار، وعبادة موصولة على الاستمرار، وقرآنًا يُتلى في آناء الليل وأطراف النَّهار، ومنقطعين إليه قد انفقوا في الاعتكاف به نفائس الأعمار. والبركاتُ تُحَفُّ بجوانبه، والعلومُ تنشر في زواياه ومحاربه، والأحاديث عن رسولِ الله ﷺ تُسَنَدُ وتُرَوَّى، والمصاحفُ بين أيدي التَّالين تُنَشَرُ ولا تُطْوَى، وأعلام البرِّ فيه ظاهرة

٦٠/٢

(١) أخرجه البزار (٢٨٥٢) والحاكم في «المستدرک» ٥٠٩/٤ من حديث ابن عمر، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٧١٨) من حديث أبي أمامة، وانظر ما تقدم ص ٢١٦.

(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٧٣٠٦) من حديث عبد الله بن حوالة.

(٣) أخرج الإمام أحمد في «مسنده» (٥٦٤٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٣٠١) من حديث عبد الله بن عمر، ولفظه: اللهم بارك لنا في شامنا...

(٤) سورة الفجر، الآيتان: ٧ — ٨.

(٥) في الأصل: منه، والمثبت من (ك).

(٦) الحُبَى جمع، مفردُها: الحَبوة: وهو الثوب الذي يحتوي به: «معجم متن اللغة»: ٢٠/٢.

فلا تخفى ولا تُزوى، والخلقُ منقسمون إلى حلقٍ، قد نبذَ أهلها ما وراءهم من العلق. والإسلامُ فيه فاشٍ، والجهل به مُتلاشٍ، وهو مما بناه الأولون لعبادتهم، وجعلوه ذُخْراً لأخرتهم، وما بَرَحَ مَعْبِداً لكل مِلَّةٍ، اتخذته المجوس واليهود والنصارى قبل الإسلام هيكلاً وقِبْلةً، وهو بيتُ المتقين، وسوقُ المتصدِّقين، ليله للمتجهدين، ونهاره للعلماء المجتهدين.

قال: وعاشتُ أهلها وباشرتهم، ثم كاشرتهم وكاشفتهم، فرأيت سادةً أدباء، وعلماء نجباء؛ [و]^(١) رأيتهم يتناظرون في الفقه مناظرة الوالد مع ولده، ويقفون عند كتاب الله فلا يعدلون عن واضح جَدِّه^(٢)، ويفسِّرونه عن عِلْمٍ واستبصار، ويحتاطون في علمهم بصحيح الأخبار، ويتبعون ما وردت به ثقاتُ الآثار. وعامَّتْهم مشغولون بالمعاش، آخذون من زينتهم عند كل مسجد أفضلَ الرِّياش، لا يخوضون في لَغَطٍ ولا إكثار، ولا يجتمعون على فسادٍ نِيَّةٍ في مقيمٍ ولا بعيد الدار.

قال: فأقمتُ منها في أشرف البُلدان التي هي أنموذج الجنان، وعنوان الدَّار التي خازنها رِضْوان، والقلوب فيها عند ذكر الله حاضرة، والثَّقُوسُ بالخير دون الشرِّ^(٣) أَمَرة.

فصل

في باقي حوادث هذه السَّنة

قال العماد: كانت إزبل* وما يجري معها من البلاد والقلاع من

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) الجدد: الطريق لا حذب فيه ولا وعوثة. «معجم متن اللغة»: ٤٨٥/١.

(٣) في (ك) السوء.

ولآيات المَوْصل معدودة، فأراد صاحب إزبل أن ينفرد عنه ويستبدّ بالبلاد، فاعتزى إلى السُّلطان، وكتبه وطلب منه منشوراً ببلاده، فكتبه له، وفيه: إن الله لما مكَّن لنا في الأرض، ووفقنا في إعزاز الحق وإظهاره لأداء الفَرَض، رأينا أن نقدِّم فرض الجهاد في سبيل الله، فنُوضِّحُ سبيله، ونُقْبِلُ على إعلاء الدين وننصر قَبِيلَهُ، وندعو أولياء الله من بلاد الإسلام إلى غزو أعدائه، ونجمعُ كلمتهم في رفع كلمته العليا في أرضه، على استئزال نصره من سمائه، فمن ساعدنا على أداء هذه الفريضة، واقتناء هذه الفضيلة، يَحْظَى من عوارفنا الجزيلة بِحُسْنِ الصَّنِيعَةِ، ونُجِّح الوسيلة، ومن أخلد إلى الأرض واتَّبِع هواه وأعرض عن حَقِّ دينه بالاقبال على باطل دنياء، فإن أناب قبلناه، وإن أَصَرَ على غَوَايته أزلنا يده وعزَّنا.

تفصيل ما كتب في منشوره: إربل وقلعتها وأعمالها، جميع ما قطعه الزَّابِي الكبير، شَهْرُزُور وأعمالها، معاش بيت قفجاق، معاش بيت القرابلي، الدَّشْت والزرزاريَّة^(١).

قال العماد: وفي مستهل جُمادى الآخرة من هذه السنة توفي صاحب ماردين*، وهو قطب الدين إيلغازي بن ألبى بن تمرتاش بن إيلغازي بن أُرْتُق، والأمراء الأُرْتُقية هم الذين رتقوا فتوق الإسلام أولاً، وكانوا يتولون بيت المقدس، وحموه من الفرنج قبل المِصْريين، وإنما أخذه الفرنج سنة اثنتين وتسعين وأربع مئة من المِصْريين، فبقي السَّاحِل كُلُّهُ مع أهل الشُّرْك، فَحَمَتِ الأُرْتُقية ديار بكر* وما والاها، وحلب وأعمالها، وتوارثوا ديار بكر كابرًا عن كابرٍ إلى أن انتهى إلى هذا قُطْبُ الدين أعمال مَيَّافَرِقِينَ*

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ٢٤٩ — ٢٥٠.

وماردين*، فلما مات بقيت على ولده، وله عشر سنين، وانتهى إلى ابن عمه نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سُكَّمان^(١) بن أُرْتُق حصن كيفا* وخرتبرت*، والبلاد التي تناسبها، وأضاف السلطان إليه آمد*. وقد كان قطب الدين أولاً على مصافاة صاحب الموصل لما بينهما من القرابة، ثم أذعن للسلطان، ودخل تحت طاعته^(٢).

قلت: وفي هذه السنة أيضاً توفي خليفة المغرب يوسف بن عبد المؤمن بن علي^(٣)، وولي ابنه يعقوب.

قال القاضي ابن شدَّاد: وبعد عود السلطان من حصار الكرك*، وصل رُسل الخليفة ومعهم الخلع، فلَبِسَهَا السلطان، وأَلْبَسَ أخاه العادل وابن أسد الدين خِلَعاً جاءت لهما، ثم خَلَعَ السلطان خِلعة الخليفة على نور الدين بن قرا أرسلان، وأعطاه دستوراً، فسار إلى بلاده، ووصلت رسل زين الدين بن زين الدين مستصرخاً إلى السلطان، يخبر أن عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا على إزبل* مع مجاهد الدين قايماز، وأنهم نهبوا وأحرقوا، وأنه نُصِرَ عليهم وكسَرهم^(٤).

فلما سمع ذلك سار من دمشق يطلبُ البلاد، وتقدَّم إلى العساكر، فتبعته، وسار على طريق المغار ويوس البقاع إلى بعلبك، ومَرَضَ العماد،

(١) في الأصل و(ك): سليمان، وهو تحريف. والمثبت من «سنا البرق»: ٢٥١، وتكتب أيضاً سقمان. وانظر «معجم الأنساب» لزمايور: ٣٤٦ - ٣٤٧.

(٢) «سنا البرق»: ٢٥٠ - ٢٥١.

(٣) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٩٨/٢١، و«المعجب» للمراكشي ص ٣٠٩ وما بعدها.

(٤) «النوادر السلطانية»: ٦٧.

فانقطع بها، وسار السُّلطان إلى حمص، ثم إلى حماة، فأقام بها إلى أن شُفِيَ العمداء، ولحقه بها. وكان الأجل الفاضل بدمشق، فأرسل الحكيم [الموفق]^(١) بن المطران، واسمه أسعد بن إلياس^(٢) إلى العماد بيلبك لَمَّا سمع بمرضه، فسار من دمشق إلى بعلبك في يوم وليلة، وعمل معه عمل من طبٍّ لمن حَبَّ، فبرىء بعون الله تعالى، فرجع إلى دمشق، فلما استقام مزاجه رحل إلى السُّلطان، فوافقه بحماة^(٣).

ودخلت سنة إحدى وثمانين [وخمس مئة]^(٤)

٦١/٢

قال العماد: والسُّلطان مخيمٌ بظاهر حماة، فسار إلى حلب، وتلقاه أخوه العادل، واجتمعت له بها العساكر، فخرج منها في صفر لقصد المَوْصل، فسار وقطع الفُرات، وأقام العسكر ثلاثة أيام للعبور بها، وكان السُّلطان قد سَيَّر إلى معاقل الفرات وقلاعه، ونواحيه وضياعه، وأمر أهلها بعمارة كل سفينة في الفُرات، وزورق ومَرَكَب، وجمعها من كل مَشْرِقٍ ومغرب. ثم وصل إلى حرَّان*، وفيها مظفر الدين بن زين الدين، وهو أخو زين الدين يوسف صاحب إزبِل*، وقد كان أوَّل من دخل في خدمة السُّلطان أول ما قصد تلك البلاد في المرة الأولى، واقتدى به أخوه وغيره من أصحاب الأطراف في الانتماء إلى السُّلطان، وحضر معه حصار عِدَّة بلادٍ كالمَوْصل وسِنْجار* وأمْد* وحَلَب، وأظهر من المودَّة فوق ما كان في

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) سترد ترجمته ٢٩٣/٤ من هذا الكتاب.

(٣) «سنا البرق»: ٢٥٢.

(٤) ما بين حاصرتين مثبت من (ب).

الحساب، و[هو]^(١) كان كثير الحثّ للسلطان على المسير إلى الموصل هذه المرة برسوله وكتابه، وقال رسوله للسلطان: إن مظفر الدين إذا عبرتم الفرات يستدرك كلّ ما فات، ويقوم بكل ما تحتاج إليه في تلك البلاد من النفقات والغرامات والأزواد، ويُقدّم يوم الوصول إلى حرّان* خمسين ألف دينار، وكتب خطّه بذلك.

فلما وصل السلطان إلى حرّان لم يرَ منه ما التزمه الرسول، فارتاب به، وظنّ أنه مال مع المواصلة، ووشّت الأعداء فيه بذلك، وأن نيّته قد تغيّرت، فحلف للسلطان أنه لم يتغيّر، وأن ما التزمه الرسول لم يكن بأمره، وهو ابن ماهان، فانعزل عنده عن مرتبته وهان، فقبض السلطان على مظفر الدين ليتبيّن أمره، وشاور فيه أصحابه، فأشار بعضهم بإتلافه، وبعضهم باستبقائه واستتلافه، فعفا السلطان عنه على أن يُسلّم قلعتي الرّها* وحرّان، ففعل ذلك وهو مسرور ببقاء نفسه، ثم أُعيدت إليه القلعتان في آخر السنة؛ لما رأى السلطان من حركاته المُستحسنة^(٢).

قال القاضي ابن شدّاد: وسار السلطان حتى أتى حران على طريق البيرة*، والتقاء مظفر الدين بالبيرة في ثاني عشر المحرم، وكان قد وصل إليه عز الدين بن عبد السلام — يعني الموصلي — رسولاً — واسمه^(٣) إبراهيم بن علي بن عبد السلام، ويُكنى بأبي الخليل^(٣) — فلقية بحماة يعتذر مما جرى، فأعطاه دستوراً بعد أن أكرمه، وسار من غير غرض.

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٢) «سنا البرق»: ٢٥٣ — ٢٥٦.

(٣ — ٣) ما بينهما ليس في (ك) و(ب).

قلت: وصحب ابن عبد السلام في هذه السفرة^(١) من الموصل عمر بن محمد المعروف بابن الشحنة^(٢)، فمدح السلطان بقصيدة، أولها:

سلام مشوق قد براه التشوق على الحي من وادي الغضا إذ تفرقوا^(٣)
فلما بلغ من مديحها إلى قوله:

وقالت لي الآمال إن كنت لاحقاً بأبناء أيوب فأنت الموفق
قال له السلطان: لقد وفقت. وأجازه جائزة سنية^(٤).

ثم قال القاضي: وتقدم السلطان إلى سيف الدين المشطوب أن يسير في مقدمة العسكر إلى رأس عين، ووصل السلطان حرّان في الثاني والعشرين من صفر.

وفي السادس والعشرين منه قبض على مظفر الدين لشيء كان جرى منه، وحديث بلغه عنه رسوله ولم يقف عليه، وأنكره، وأخذ منه حرّان* والرّها*، ثم أقام في الاعتقال تأديباً إلى مستهل ربيع الأول، ثم خلع عليه وطيب قلبه، وأعاد عليه قلعة حرّان وبلاده التي كانت بيده، وأعادته إلى قانونه في الاحترام والإكرام، ولم يتخلّف له سوى قلعة الرّها، ووعدّه السلطان بها.

(١) في (ب) أو بعدها.

(٢) هو مهذب الدين، أبو حفص، عمر بن محمد بن علي بن أبي نصر، شاعر مشهور في عصره، توفي سنة (٦٠٦ هـ)، وعدة أبيات قصيدته هذه مئة وثلاثة عشر بيتاً، «وفيات الأعيان»: ٢١١/٧.

(٣) في «وفيات الأعيان»: ٢١١/٧: على جيرة الحي الذين تفرقوا.

(٤) تعقيب أبي شامة هذا ساقط من (ك).

ثم رحل السلطان ثاني ربيع الأول من حرَّان إلى رأس عين، ووصله في ذلك اليوم رسول قليج أرسلان يخبره أن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قَصْدِ السلطان إن لم يَعُدْ عن المَوْصِل ومارِدِين*، وأنهم على عَزْمِ ضَرْبِ المصافِّ معه إن أَصَرَ على ذلك، فرحل السلطان يطلب دُنَيْسِر*، فوصله ثامن ربيع الأول عماد الدين بن قرا أرسلان ومعه عسكر نور الدين، فالتقاهم السلطان واحترمهم، ثم رحل من دُنَيْسِر نحو المَوْصِل حتى نزل بموضع يُعرف بالإسماعيليات قريب الموصل، بحيث يصل من العسكر كل يوم نوبة جريدة تحاصر الموصل، فبلغ عماد الدين بن قرا أرسلان موت أخيه نور الدين، فطلب من السلطان دستوراً طمعاً في ملك أخيه، فأعطاه دستوراً^(١).

وقال العماد: خرج السلطان من حرَّان* في ربيع الأول، فَمَرَّ على رأس عين* ودارا*، فخرج أميرها بأصحابه في الخدمة، وقدم عماد الدين أبو بكر بن قرا أرسلان بعساكر ديار بكر* وأمِدَّ نيابةً عن أخيه نور الدين، فإنه كان مريضاً، ثم رحل إلى نصيبين*، وقَدِمَ صاحب الجزيرة سِنْجَر شاه بن أخي صاحب المَوْصِل، فأكرمه السُّلْطَان، ثم سار من أقرب الطُّرُق من دِجْلَة، وتَنَكَّبَ طريق الدَّوْلَعِيَّة*، فنزل على بَلَدٍ^(٢) آخِرَ ربيع الأول، ثم توجَّه إلى المَوْصِل، وخيَّم على الإسماعيليات. وقَدِمَ على السلطان زين الدين صاحب إزْبِل*، وأول ما بدأ به السلطان يوم نزوله على بلد قِبَل الإسماعيليات إرسال ضياء الدين أبي الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله بن الشَّهْرُزُورِي^(٣) إلى الخليفة بما عَزَمَ عليه من حَصْرِ المَوْصِل، فإن

(١) انظر «النوادر السلطانية»: ٦٧ — ٦٨.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ١٢٣ من هذا الجزء.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥٠ من هذا الجزء.

أهلها يواصلون الأعاجم، وخاطبون لسلطانهم القائم، وناقشوا اسمه في الدنانير والدراهم، وأنهم يتعززون بالبهلولان، ويعجزون إلا عن الطاعة له والاذعان، وأنهم يرسلون إلى الفرنج، ويقوون نفوسهم على قُصْدِ الثُغور، وتفريق الجمهور، وأنه ما جاء طمعاً في استضافة مُلك، ولا استزادة سِلك، ولا قَلْع بيتٍ قديم، ولا قَطْع أصلٍ كريم، وإنما مقصوده الأصلي ومطلوبه الكلِّي رُدُّهم إلى طاعة الإمام ونُصرة الإسلام، وكَشَفُ ما اعتادوه واعتوروه من الظُّلم والظَّلام، وفَطْمُهم عن استحلال الحرام، وقَطْعُهم عن مواصلة الأعجام، والزامهم بما يجب عليهم من حِفْظ الجار وصِلَةِ الأرحام؛ فهذا صاحب الجزيرة، وهو ابن أخي صاحب الموصل، ولي عهد أبيه، لم يَزَعْ فيه ذِمَّة أخيه، وأبعده عما استحقَّه بالارث والتولية، وحرَّمه ما يستوجب من التَّزْيِيَةِ والتَّلبِيَةِ، وأخاف حُرْمَه، وقَطَعَ رَحِمَه، ولو تمكَّن منه لأطاح دمه، ولولا خوفه من جانبه، وتوقُّيه من ديب عقاربه، لما التجأ إلى هذا الجانب، ولما اختار الأجانب على الأقارب. وهذا صاحب إربل جار الموصل، أبوه زين الدين عليّ هو الذي حَفَظَ بيتهم، وخلف في أحيائهم ميتهم، وهذا ولده في جوارهم يشكو جَوْرَهُمْ، وحديث صاحب الحديث* في حادثة لا تخفى، وعَيْنٌ مَنْ بتكرير من مخافتهم وآفتهم لا تكرر^(١).

قلت: وفي بعض الكتب الفاضليَّة عن السُّلطان إلى الدِّيوان: وكان قد تحيَّز إلى الخادم في وَقْتِ حركته صاحبُ تكريت* والحديثه*، وهو يستأذن في استباعهما بحكم التقليد الذي تناول هذا وغيره، ولم يستأذن في ذلك استئذاناً مخصَّصاً إلا لمحلَّهم من جوار دار الخلافة، ولأنهما مما يرى الخادم إضافته إلى ما يجري في خاصِّ الديوان العزيز مع غيرهما، مما يجري

(١) «سنا البرق الشامي»: ٢٥٦ - ٢٥٧.

مجرأهما في القُرب من الجوار، والدخول في ذمام شَرَفِ تلك الدَّار، فإن
أذِنَ له استئناهما في صُلح إن تَمَّ معهم، أو حماهما مع مبايئته إن اختار
المشار إليهم البقاء عليها، وهذا بُرْدُ شَرَفٍ قد أعوزه علمه، وتاج إذا أسلمه
الخط الشَّريف نَظَمَ الفخار منتظمه.

ومن كتاب آخر: وما كُنَّا بشهادة الله في قتال المذكورين إلا كقاطع كَفَّه
ليسلم سائر جسمه، وركاب حَدَّ السَّنان مضطراً في حكمه^(١).

وأصبح العمادُ الرسولَ قصيدةً مدح بها الصَّاحب مجد الدين
أبا الفضائل، أولها:

فيا ضلَّةَ اللاحي إذا ظنَّ أن يَهْدِي	قضى الوجودُ لي أن لا أفيق من الوجودِ
ولكن على هجرانِكُم ليس بالجلدِ	مُحبِّكُم جلدٌ على كلِّ حادثٍ
أبو الفضلِ مجدُّ الدين بالفضلِ والمجدِ	بيغداد حطُّوا رُحْلَكُم ليخصَّكُم
فحاول تعويلاً على مجدِّه المُجدي	رأه الإمام النَّاصر الدين ناصراً

ومنها:

فحطُّ رُكنه والعقد بالشدِّ والشدِّ	إليك صلاحُ الدين ألجأ أمره
وما زال فيه غالبَ الجدِّ والجندِ	مليكٌ على حربِ العدوِّ مُصمِّمٌ
مساورة الأُميال للأعْيُن الرُّمْدِ	تُساوِرُ أفواه الجِراحِ رِماحه
دَمَ الأصفر الرُّوميُّ بالأبيضِ الهندي	يُحلُّ المنايا الحُمَرُ بالكُفْرِ مُجرباً

(١) كتاب الفاضل هذا ليس في (ك).

وما لأمير المؤمنين كيوسف فتى في مرضيه بمُهَجَّتِه يفدي^(١)

قال: وشرع السلطان في إقطاع البلاد، والتوقيع بها على الأجناد، وسير الأمير سيف الدين علي بن أحمد المعروف بالمشطوب الهكاري، ومعه الأمراء من قبيلته، والأكراد من شيعته إلى بلد الهكارية، وجماعة من الأمراء الحميدية إلى العفر* وأعمالها، لاستفتاح قلاعها، واستغلال ضياعها. ونُصِبَ الجسر، ومُلك الأمر، وعبر مُظَفَّر الدين صاحب حرَّان وغيره من الأمراء، وخيموا بالجانب الغربي، وكان الحرَّ إذ ذاك شديداً، فأمر السلطان بالصَّبْر عن القتال إلى أن يطيب الزَّمان. وأهل الموصل في الحصار، وأشير عليه بتحويل دجلة - وكان ماؤها قد قلَّ - بطريق ذكره خبيرٌ بها، زعم أنه يمكن سدَّ دجلة وسكِّرها، وَبَثَّقَ فُرْضَةَ أُخْرَى وكسَّرها، ونقلها وتحويلها إلى دجلة نينوى، وتعطش المَوْصِل إذا الماء عنها انزوى، وعُرض ذلك على رأي الفقيه العالم فخر الدين أبي شجاع ابن الدَّهَّان البغدادي^(٢) - وكان مهندس زمانه، وإنسان عين الفضل وعين إنسانه، وكان منذ عهد قديم سكن المَوْصِل في ظل كبير من أصحاب زين الدين عليّ، ولما سمع بكرم السلطان تقياً بظله، وتعرَّف إلى فضله - فصدَّق المشير بذلك، وقال: هذا ممكن ولا يتعذَّر، ويتيسَّر ولا يتعسَّر^(٣).

٦٣/٢

ومن كتاب عمادي إلى بغداد: وذكر المهندسون أهل الخبرة أنه يسهل تحويل دجلة الموصل عنها، بحيث يبعد مستقى الماء منها، وحيث يضر أهلها إلى تسليمها بغير قتال، ولا حصول ضررٍ في تضيق ولا نزال.

(١) «سنا البرق»: ٢٥٧ - ٢٥٨، وهذه القصيدة لم يذكرها الدكتور ناظم رشيد في «الديوان» الذي جمعه للعماد.

(٢) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٥٩٢ هـ).

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ٢٥٨ - ٢٥٩.

فَصْلٌ

فيما فعل السُّلطان في أمر خِلاط* وميَّافارقين* وغيرهما من البلاد

قال العماد: ثم وصل خبر وفاة شاه أرمن صاحب خِلاط، فتحوَّل إليها العزم، وترجَّح بها الحزم. وكان ورود موته في العشرين من ربيع الآخر، وكان موته في التاسع منه، ولم يُخلف ولداً ولاذا قرابة يكون خلفاً له فيها، ووردت كتب الأولياء من أهل بدليس* وغيرها إلى السُّلطان يخطبونه لها، وهم خائفون من العجم أن يتولَّوها، فاختلف النَّاس على السلطان، فمن مشيرٍ بالإقامة إلى انفصال أمر المَوْصل، ومن مشيرٍ بالمسير إلى بلاد الأرمن، فإن الموصل غير فائتة، ومن قائلٍ بانقسام العسكر في الجهتين، فترجَّح رأي السُّلطان على المسير إليها، فكتب إلى الخليفة يطلب منه كتابَ تقليدٍ ببلاد الأرمن وديار بكر والمَوْصل، فجاءه بعد فتح ميَّافارقين مثالٌ شريف بتقليده النَّظر في أمر ديار بكر، والنظر في مصالح أيتام ملوكها.

ثم رحل السلطان عن المَوْصل في أواخر شهر ربيع الآخر، وقَدَّم في مقدِّمته ناصر الدين محمد بن شيركوه ابن عمه، ومظفر الدين صاحب حَرَّان*، وأمرهما أن يسيرا إلى خِلاط من أقرب الطُّرق، فلما وصلا وجدا سيف الدين بَكْتُمُر من مماليك شاه أرمن قد دخلها وحماها، وتغلَّب عليها، وجاء بهلوان في عساكر الشَّرْق، وهو شمس الدين أبو جعفر محمد بن إيلدكز متولِّي تلك البلاد، فنزل من الجانب الآخر، وكان وزير خِلاط مجد الدين بن الموفق بن رشيق يُظهر للسلطان المودَّة والمناصحة، وهو على خلاف ذلك، وكتب إلى ناصر الدين أن يقيم على القُرب، فهو أشدُّ للإرهاب والرُّعب. ففعل، ولو خلاه لسبق إليها.

وقيل: إن هذا الوزير أنفذ إلى بهلوان، وأمره بالإتيان، وأظهر له المودة والإحسان، ولما تَمَادَى الزمان، وقرب منها البهلوان، راسله بِكُتْمُرٍ، وحمل إليه مع ابنته زوجة شاه أرمن من الأموال التي أودعت المخزن، وَنَدَبَ السُّلْطَانُ إليها الفقيه ضياء الدين عيسى، فدخلها وتخلَّلها، وتأملها، وتكلَّم مع الوزير وشاوره، فأحال الحال على البهلوان، وأنه جاء لِيَتَمَلَّكَ المكان، ولو استعجلتم لَسَهْلَ ما صَعِبَ الآن وهان. ثم جرت مراسلة بين السلطان والبهلوان، وانفصل الأمر كأنه ما كان^(١).

وقال القاضي ابن شدَّاد: وفي ربيع الآخر توفي صاحب خِلاط، وولي بعده غلامٌ له يُدْعَى بِكُتْمُرٍ^(٢) — وهو الذي [كان]^(٣) وصل رسولاً إلى خدمة السلطان بِسِنْجَارٍ* — فعَدَلَ وأحسن إلى أهل خِلاط، وكان متصوِّناً في طريقته، فأطاعه النَّاسُ ومالوا إليه. ولما ملك خِلاط امتدَّت نحوه الأطماع، فسار نحوه البهلوان بن الدكز^(٤)، فلما بَلَغَه ذلك سَيَّر إلى خدمة السلطان من يقرِّرُ معه تسليم خِلاط إليه، واندراجِه في جُمْلَتِه، فطمع السُّلْطَانُ بخِلاط، وارتحل عن المَوْصِل متوجِّهاً نحوها، وسَيَّر إليه الفقيه عيسى وَغَرَسَ الدِّين قليج لتقرير القاعدة وتحريرها، فوصلت الرُّسُلُ وبهلوان وقد قارب البلاد جداً، فخوَّف بهلوان من السلطان، وأشعره أنَّه إن قصده سلَّم البلاد إلى السُّلْطَان. فطلب بهلوان إصلاحه، وزوَّجه بنتٍ لهم وولاً، وأعاد البلاد إليه، واعتذر إلى رُسُلِ السلطان، وعادوا من غير زُبْدَةٍ. وكان السلطان قد

(١) «سنا البرق»: ٢٥٩ — ٢٦١.

(٢) سيرد خبر مقتله في ٤/٤١٢ من هذا الكتاب.

(٣) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٦٨ من هذا الجزء.

نزل على مَيَّافَرِقِينَ*، فحاصرها وقَاتَلَهَا قتالاً عَظِيماً، ونصب عليها مجانيق، وملكها في آخر جُمَادَى الأولى^(١).

قال العماد: واستشعر ملوك ديار بكر من حركة السُلطان، وكان قد مات صاحب مارِدِينَ* كما تقدّم^(٢)، وبقيت الولاية لولده الكبير، وله عَشْرُ سنين، وكان القائم بتدبير مُلكه نظام الدين بن البُقش. ومات أيضاً صاحب آمِد* نور الدين محمد بن قرا أرسلان^(٣) رابع عشر ربيع الأول من هذه السنة، وتولى ابنه قطب الدين سُكَّمان، فاحترزوا من السلطان، وخافوا أن يستردَّ بلاد آمِد منهم، فنَفَذَ السلطان إليهم شمس الدين بن الفَرَّاش^(٤)، ليختبر حالهم في المحاربة والمسالمة، فوجدهم على الطَّاعة مقيمين، وإليه راغبين، ومنه راهبين. ووصل السلطان في جُمَادَى الأولى إلى مَيَّافَرِقِينَ*، وكان قد دخلها من أمراء صاحب ماردين أسد الدين يرنقش، واستعصى فيها على السلطان، فحاصره وقَاتَلَه، ثم رأى أن القتال يطول، فراسل أميرها الأسد، ورَغِبَه في المِوَادعة، ونهاه عن المقاطعة، وكان في المدينة خاتون ابنة قرا أرسلان، وهي زوجة قطب الدين صاحب مارِدِينَ* الذي توفي، فأحال الأسد الأمر على الخاتون، فراسلها السُلطان ورَغِبَها، وضمن لها كل ما تطلبه منه، ووعدا أن يصاهر إليها، فما زال بها وبالأسد حتى لانا، فقرَّر السلطان لها كل ما كان باسمها واسم خُدَّامها، وطلبت حصن الهَتَّاخ^(٥)

(١) «النوادر السلطانية»: ٦٩.

(٢) انظر ص ٢٢٢ من هذا الجزء.

(٣) انظر حاشيتنا ٢ ص ٥٥ من هذا الجزء.

(٤) سترد ترجمته في ٣٤٧/٤ من هذا الكتاب.

(٥) قلعة حصينة في ديار بكر قرب ميافارقين. «معجم البلدان»: ٣٩٢/٥.

ليكون لها عُشًا للأفراخ، وزوّج السلطان ابنه معز الدين إسحاق بإحدى كرائمها، وأبرم العهد، وأحكم العقد، وسارع السلطان إلى بذل كل ما اقترحوه، وفُتحت مِيّافارقين. وأقبل صاحب آمد قطب الدين سُكّمان بن نور الدين على صِغَرِ سِنِّه إلى خدمة السلطان، فأكرمه، وأعادته إلى منصبه، وكان معه وزيره قوامُ الدين أبو محمد عبد الله بن سماقة^(١)، وقُتِلَ غِيْلَةً في رمضان من هذه السنة كما سيأتي^(٢).

ثم سار السلطان لقصد المَوْصل، وولّى تلك الدِّيَار مملوكه حسام الدين سُنْقَرُ الخِلاطي، فنزل السلطان على دِجْلَةٍ بِكَفَرِ زَمَّار^(٣) بقرب الموصل في شعبان، وعزم على أن يشيَّ في ذلك المكان، فخرجت من الموصل نساء أتابكيّات معرّضات للشفاعة، فأكرمهن السُلطان، ووعدهنّ بالإحسان، وقال: قد قبلت شفاعتكن لكن لا بُدَّ من مصلحةٍ تتم، ومصالحةٍ نفعها يعمُّ. واستقرَّ الأمر على أن يكون عماد الدين زَنْكِي صاحب سِنْجار أخو صاحب المَوْصل وسيطاً في البين، وحَكَمًا فيما يعود بمصلحة الجانبين، فإنه كانت شفاعته سابقة، ورأى بهذا الرأي قضاء الحقين، وتعطف وتلطّف لأجلهن وإجلالهن، وأتى من الكرامة بما يليق بأمثالهن. وكن ظننَّ أنّه لا يقيمُ لحرمة قصدهن، ويصَدِّقُ ظنونهن، وأنه يعرف حقوقهن، ويقضي بمكارمه ديونهن، ولا يشتغل بأمرٍ لا يؤذن بمرادهن دونهن. فدخلن البلد متلومات متدّمّات، ويلطف الله لاثذات معتصمات^(٤).

(١) في الأصل: أبو عبد الله محمد بن سماقة، والمثبت من (ك) و(ب)، وسيجيء على الصواب في النسخ الخطية ص ٢٤٦ من هذا الجزء.

(٢) انظر ص ٢٤٦ من هذا الجزء.

(٣) انظر «معجم البلدان»: ٤٦٩/٤.

(٤) انظر «سنا البرق»: ٢٦١ — ٢٦٦.

فصل

في انتظام الصُّلح مع أهل المَوْصل، ومرض السُّلطان المَرَضَة المشهورة بَحْرَان*

قال العماد: وكان السُّلطان لما دخل شهر رمضان داوم قراءة القرآن وحِفْظَه، واشتغل بالصَّيام والتقليل من الطعام، فظهر انزعاجه وتغيَّر مزاجُه، وتعدَّر علاجه، وطال مرضه، وندم على رَدِّ الشَّوافع^(١)، وسيَّر إلى عماد الدين صاحب سِنْجَار* في إنفاذ رسله ليوْعز بكل ما يعود بسؤله. فوصل وزيره^(٢) شمس الدين بن الكافي، وكان من قبل قد سبق القول في تسليم بلاد شَهْرُزُور* وقلاعها وحصونها وضياعها، وكذلك ما وراء الزَّابِين* من البَوَازِيج* والرُّسْتاق، وبلد القِرابِلِيَّة وبنِي قفجاق، فدخل شمس الدين بن الكافي، وشمس الدين قاضي العَسْكَر من جانبنا^(٣) إلى المَوْصل لأخذ العهد على هذا الملتزم، ورحل السُّلطان قبل عيد الفِطْرِ بيوم، وهو من بحر بُحْرانَه في عَوْم، وخيَّمنا على نَصِيبِين* في شَوَّال، ولم نترقب عود الرسول^(٤) بنجاح الأشغال، بل كان الارتحال على الارتجال، ثم استمر الصُّلح، وصُلِحَ الأمر، وخطبَ في جميع بلاد الموصل للسُّلطان بعد قطع خطبة السَّلْجُوقِيَّة، وفي ديار بكر أيضاً والولايات الأَرْزُوقِيَّة، وضُرِبَ باسمه الدِّينار والدِّزْهَم، وانحلَّ الإشْكال وانكشف^(٥) المَبْهَم^(٦).

(١) هن النساء الأتابكيات اللواتي جئن يشفعن عند صلاح الدين، ولم يقبل شفاعتهن. انظر ص ٢٣٤ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: رسوله، والمثبت من (ك) و(ب).

(٣) هو ابن الفَرَّاش، انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٢٣٣ من هذا الجزء.

(٤) في (ك) و(ب) المرسل.

(٥) في الأصل: وكشف، والمثبت من (ك) و(ب).

(٦) «سنا البرق الشامي»: ٢٦٧.

وكتب العماد عن السُّلطان كتاباً إلى أخيه سيف الإسلام باليمن بشرح الحال، وفيه: ونزل لنا صاحب المَوْصل عن جميع ما وراء الزَّاب* من البلاد والقلاع والحصون والضياع [وشهرزور ومعاقلاها وأعمالها، وولاية بني قفجاق، وولاية القربلي والبوازيج وعانة]^(١)، وقرَّرنا عليه المَوْصل وأعمالها على أنه يكون بحكمنا، وينفذ عسكره إلى خدمتنا، وتكون الخطبة والسُّكَّة باسمنا، وأن يطلق المظالم، ولا يرتكب المآثم، وقد خصل لنا من صاحب الموصل ومن جميع من بالجزيرة وديار بكر الطَّاعة والسُّكَّة والخُطبة، وعمَّت الهيبة والرَّهبة، والعزائم إلى الجهاد في سبيل الله نوازع، وقد زالت العوائق وارتفعت الموانع.

قال: ونفَّذ السُّلطان إلى شَهْرُزُور مملوكه مجاهد الدين أياز سربك، فتملأ بها وتملِّك، ونال المقاصد وأدرك، وكان التركمان الإيوانية مستولية بها، فشئت شملها وندب للنظر في تلك الأعمال القاضي شمس الدين بن الفَرَّاش، وأقطع البَوَازيج* لبعض خواصّه المماليك، وسير إلى البلاد نوابه، ورُتب فيها لإقامة سُننِ العَدل والإحسان أصحابه، ووقف ضيعةً بالبوازيج تُعرف ببافيلا على ورثة شيخ الشيوخ ببغداد^(٢).

وقال القاضي ابن شدَّاد: لما أيس السُّلطان من أمر خِلاط*، وعاد إلى المَوْصل، فنزل بعيداً عنها — وهي الدفعة الثالثة — بموضع يقال له كَفَر زَمَّار، وكان الحرُّ شديداً، فأقام مُدَّة، وفي هذه المنزلة أتاه سِنجر شاه من الجزيرة، واجتمع به وأعاده إلى بلده، ومرض السلطان بكُفَر زَمَّار مرضاً

(١) ما بين حاصرتين مثبت من (ك) و(ب).

(٢) «سنا البرق الشامي»: ٢٦٧.

شديداً، خاف من غائلته، فرحل طالب حَرَآن وهو مريض، وكان يتجلَّد، ولم يركب في مَحَقَّة*، ووصل حَرَآن شديد المرض، وبلغ إلى غاية الضَّعْف، وأيس منه، وأرجف بموته، ووصل إليه أخوه العادل من حلب ومعه الأطباء.

قال: وكان سببُ صلحه مع المواصلة أن عَزَّ الدين صاحب المَوْصل سَيَّرني إلى الخليفة يستنجد به، فلم يحصل منه زُبْدَة، وسَيَّر إلى العجم، فلم يحصل منهم زُبْدَة، فلما وصلتُ من بغداد، وأدَّيت جوابَ الرِّسالة، أيس من نجدة، فلما بلغهم مرضُ السُّلطان رأوا ذلك فُرْصة، وعلموا رِقَّة قلبه وسُرعة انقياده في ذلك الوقت، فندبوني لهذا^(١) الأمر، وبهاء الدين الربيب، وفُوَّض إليَّ أمر التُّسَخة، وقالوا: أمضِ ما يصل جهدكم وطاقتكم إليه. فسرنا حتى أتينا العسكر، والنَّاسُ كُلُّهم آيسون من السلطان، وكان وصولنا في أوائل ذي الحِجَّة، فاحترَمنا احتراماً عظيماً، وجَلَسَ لنا — وكان أول جلوسه من مرضه — وحلف في يوم عرفة، وأخذنا منه بين النهرين، أخذها من سِنَجَر شاه وأعطاها المواصلة، وحَلَفْتُهُ يميناً تامَّةً، وحَلَفْتُ أخاه العادل — ومات قدَّس الله روحه وهو على ذلك الصُّلح، لم يتغيَّر عنه — وسرنا عنه وهو بحَرَآن قد تماثل، ووصله خبر موت ابن أسد الدين صاحب حمص، وكانت وفاته يوم عَرَفَة، ونحن في العسكر، وجلس العادل في العزاء.

وفي تلك الأيام كانت وقعة التُّرْكُمان والأكراد، وقُتِلَ بينهم خَلْقٌ عظيم.

وفي هذا الشهر وصل خبر وفاة بهلوان بن الدكر^(٢)، وكانت وفاته في

(١) في الأصل: لذلك، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٦٨ من هذا الجزء.

سَلَخَ ذِي الْحِجَّةِ^(١).

قال العماد: وأقام السلطان على نَصِيْبين* أياماً قلائل، ثم رحل إلى حَرَآن* فألقينا بها عصا النوى، والقلوب بمرض السلطان متخاذلة القوى، متواصلة الجوى، والفضلُ خائف من كساده، آسفٌ على عَتَادِهِ، مُشْفِقٌ من انخفاض قَدْرِهِ وانقراض عَصْرِهِ، والسَّماح يقول: هذا أوان كسوف سمائي، ونضوب مائي، والدِّينُ يُنْذَبُ، والمُلْكُ يصخب، والأيدي إلى الله تعالى مرفوعة، والنِّياتُ بالإخلاص مشفوعة، والكُفرُ في أراجيف، والقَدَرُ في تصاريف، والسُّلْطان كلما زاد ألمه زاد في لُطْفِ الله أَمْلُهُ، وكلَّما بان ضَعْفُهُ قَوِيَ على الله توَكُّلُهُ، وأنا ملازمُهُ ليلاً ونهاراً، سِرّاً وجِهارةً، وهو يُمْلِي عليَّ في كلِّ وقتٍ وصاياه، ويُفَرِّقُ بقلمي على عُفاته عطاياه، ومن جُمْلَةِ ذلك أنَّه اشتدَّت به الحالُ ليلةَ أيس بها منه الأطباء، وغلب القنوط وعُدِمَ الرَّجاءُ، فلما أصبح اجتمع المعتفون والوافدون إلى بابه، والقاصدون المرتجون جَنَى جَنَابِهِ، وضَجُّوا ضَجَّةً ارتجَّت منها الدَّهْماءُ، ولانت لسماعها الصخرة الصَّمَاءُ، فسأل عن ذلك، ف قيل: هؤلاء وفْدُكَ، قد اجتمعوا على بابك، متأسِّفين على مابك. فدعاني وأمرني بكَتَبِ أسمائهم، وتفريق ما اجتمع في خزائنه من الأموال عليهم، وأمسينا وما على الباب سائل، وكُنَّا نَظُنُّ أن ما به من الألم شغل شاغل، فوجد بتلك السَّماحة راحة، واستمرَّ مُدَّةَ استمرار مَرَضِهِ على بَذْلِ جَوْهَر ماله وعَرَضِهِ. وكان خَلْقُهُ أحسن ما كان في حال الصُّحَّةِ، يخاطبنا بسجاياه السهلة السَّمْحَةِ، ولا يخلو مجلسُهُ من أولي فَضْلِ، وذوي نباهة ونُبُل، يتجاذبون بحضرته أطرافَ الفوائد، ويهزُّون لمكارمه أعطاف المحامد، فتارةً في أحكامٍ شرعية ومسائل فقهية، وآونةً في صناعات

(١) «النوادر السلطانية»: ٧٠ - ٧١.

شِعْرِيَّة، وَالْفَاطِ عَرَبِيَّة، وَمَعَانٍ أَدَبِيَّة، وَمَرَّةً فِي أَحَادِيثِ الْأَجْوَادِ وَشِيَمِ
الْأَمْجَادِ، وَدَفْعَةً فِي ذِكْرِ فِضَائِلِ الْجِهَادِ، وَفَرَائِضِ التَّأَهُبِ لَهُ وَالِاسْتِعْدَادِ،
وَيَنْذِرُ أَنَّهُ إِنْ خَلَّصَهُ اللَّهُ مِنْ نُبُوَّةِ هَذِهِ النَّبُوَّةِ، وَأَعْفَاهُ مِنْ كَدَرِ هَذِهِ الْمَرَضَةِ
وَمَرَارَتِهَا بِالْعَافِيَةِ الصَّافِيَةِ الْحُلُوءِ، اشْتَغَلَ بِفَتْحِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَلَوْ بِبَذْلِ
نَفَائِسِ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ، وَأَنَّهُ لَا يَصْرِفُ بَقِيَّةَ عَمْرِهِ إِلَّا فِي قِتَالِ أَعْدَاءِ اللَّهِ،
وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَإِنْجَادِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَالِاقْبَالِ عَلَى قَبِيلِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَتْرَكَ
شِيَمَةَ الْجُودِ، وَالسَّمَاحَةِ بِالْمَوْجُودِ، وَالْوَفَاءَ بِالْعُقُودِ، وَالْمَحَافِظَةَ عَلَى الْعُهُودِ،
وَإِنْجَازَ الْمَوْعُودِ.

قال: وربما اسْتَرْوَحَ فِي بَعْضِ سَاعَاتِ اللَّيْلِ أَوْ النَّهَارِ إِلَى السَّمَاعِ
لِإِشَارَةِ الْأَطْبَاءِ بِهِ لِأَجْلِ التَّفْرِيجِ وَالِإِمْتَاعِ، وَلَقَدْ كَانَ ذَلِكَ الْمَرَضُ تَمَحِيصًا
مِنْ اللَّهِ لِلذُّنُوبِ وَتَنْزِيهَاً، وَتَذَكُّرَةً مُوقِظَةً مِنْ سِنَةِ الْعَفْلَةِ وَتَنْبِيهَاً^(١).

قال: ولما سَمِعَ الْعَادِلُ فِي حَلْبِ بَمْرُضِ أَخِيهِ السُّلْطَانِ، وَوَصُولِهِ إِلَى
حَرَآن*، بَادَرَ بِالْوَصُولِ، وَصَادَفَ وَقْتَ الْقَبُولِ، وَقَامَ بِضَبْطِ الْأُمُورِ، وَسِيَاسَةِ
الْجُمْهُورِ، وَالْجُلُوسِ فِي كُلِّ يَوْمٍ فِي الثُّبُوتِيَّةِ السُّلْطَانِيَّةِ، لِتَوَلِّيِ مَصَالِحِ
الرَّعِيَّةِ، وَإِقَامَةِ وَظِيفَةِ السَّمَاطِ، وَالْعَمَلِ فِي كُلِّ يَوْمٍ بِالِاحْتِيَاظِ، وَالتَّصَدِّيِّ
لِكَشْفِ الْمِظَالِمِ، وَبَيِّتِ الْمَكَارِمِ، وَتَنْفِيذِ مَا يَخْرُجُ مِنَ الْمَرَاسِمِ، وَرَفْعِ كُلِّ
خَرْقٍ، وَرَتْقِ كُلِّ فَتَقٍ، وَحِفْظِ الْمَهَابَةِ، وَالْقِيَامِ عَنِ السُّلْطَانِ فِي كُلِّ مُهِمٍّ
بِحُسْنِ النِّيَابَةِ، وَلَقَدْ نَفَعْنَا حُضُورَهُ، وَرَفَعْنَا تَدْبِيرَهُ، فَقَدْ كُنَّا عَلَى خَوْفٍ مِنْ
إِرْجَافِ يَقْوَى، وَانْتِشَارِ خَبَرِ سُوءٍ لَا يُطْوَى، لَا سِيَّمَا إِذَا خَرَجَ الْأَطْبَاءُ وَقَالُوا:
مَا فِيهِ أَمَلٌ، وَلِكُلِّ عُمُرٍ أَجَلٌ. فَهَنَّاكَ تَرَى النَّاسَ يَسْتَشْعِرُونَ، وَيَبْأَعَادُ مَا يَعْزُّ

(١) «سنا البرق الشامي»: ٢٦٧ — ٢٦٨.

عليهم من أعلاقهم ودوابهم يستظهرون، فزال بحضورِ العادلِ كل مخافة، وسلّم الله برأفته من كل آفة. وكان الملك العزيز عثمان ولد السُلطان مع أبيه، مُقْتَدِ بمعاليه، مقتفٍ لمراضيه، وكان من جُملة وصاياه عند إشفائه، وإرجاء ترجي شفاؤه: إن أدركني المحتوم، ودنا اليوم المعلوم، فقد خلّفت أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً، وكلهم أراه بمرادي في إقامة الجهاد ملياً؛ فعنى بأبي بكر سيف الدين أخاه، وبعمر تقي الدين ابن أخيه، وبعثمان وعلي ولديه الملكين العزيز والأفضل، ورأى عليهما بكفالة سيف الدين وتقي الدين في الشّام ومِصرِ المعوّل.

وأقام العادل إلى أن وَضَحَ المِنْهَاجَ، وَصَحَّ المِزَاجَ^(١)، وطابت القُلُوبُ وغابت الكروب، ثم وصل مع أخيه إلى حلب، وتمّ^(٢) معه إلى حمص ودمشق، وهبَّ له نسيم مصر، فاستجدَّ إلى نَشْرِهِ الشَّقِّ. وسيأتي ذكر مُضِيهِ إلى مِصرَ مع الملك العزيز في سنة اثنتين وثمانين، ووصول الملك الأفضل من مصر وبعده الملك المُظَفَّرُ تقي الدين^(٣).

قال العماد: وكانت صدقاته الرّاتبية دارّة، وبالأبرار^(٤) بارّة، على أن جوده مُستَوْعِبُ الموجود، ولا يتركُ فَضْلاً للوفود، ولما مرض، وعَرَضَ له من الألم ما عَرَضَ، قال لي: اكتب إلى الولاة والثّواب بالديار المِصرِيّة والشّامِيّة أن يتصدّقوا على الفقراء والمساكين من المال المُعَدُّ للحمل بما نصَّ على قَدْرِهِ في التعيين. فلم يبق في الممالك إلا من وصل إليه نصيب، ودعا بالصّالِحَاتِ مِنَ الله لدعائه مجيب. فدفع بالصدّقة البلاء، ورفع للصدّق

٦٦/٢

(١) في الأصل: وضع المزاج وضح المنهاج، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) في الأصل: ثم، والمثبت من (ك) و(ب).

(٣) انظر ص ٢٥٩ وما بعدها من هذا الجزء.

(٤) في الأصل و(ب) بالأبرار، والمثبت من (ك).

الولاء، ونظر الله إلى النيات، وأسنى سناء مِنِّهِ السَّنِيَّاتِ، ومن جُمْلَةِ تلك الصَّدَقَاتِ أنه أمرني أن أكتب إلى نائبه بدمشق الصفي بن القابض أن يتصدَّق بخمسة آلاف دينار صُورِيَّة^(١)، فقلت: ما عنده غير دنانير مِصْرِيَّة، فقال: يتصدَّق بها مِصْرِيَّة خمسة آلاف، لنفوز من الثَّوَاب بأضعاف.

قال: ولما امتدَّ زمانُ مرضه أمر ببناء دارٍ عند سُرَادقه وحمَّام، فُبْنِيَتْ في أربعة خمسة أيام، وكان قد استحضر من دمشق ولديه الصَّغِيرَيْن تُوْرانِشاه ومَلِكْشاه وأمهما، وأسكنهم فيها مُدَّة مقامه، وسماها دار العافية، للبرِّ فيها من سَقَامه، ثم خلاها لمن ينزل بها ضيفاً، وجعلها للآوِينَ إِلَيْهَا وَقَفاً. وبعدها اتصلت المُواصلة بين السُّلْطَان والمُواصلة، وأهدى السلطان لهم هدايا عظيمة، لصاحب المَوْصل ولوالدته ولصاحبته ولابنة نور الدين رحمه الله، وقوِّم ما سَيَّرَه إِلَيْهِمْ بما يري على عشرة آلاف دينار سوى الخيل والطَّيْب، والشَّيْء البديع والغريب، وجرى أمر المُواصلة على السَّدَاد، وتجهَّزوا في النُّصْرَةِ النَّاصِرِيَّة — على ما سيأتي شَرْحُه — إلى الجهاد، وأول بركات الاتفاق فتح البيت المقدَّس وسائر البلاد، وتجدَّدتِ الفتوح، وأنجذت الملائكة والرُّوح، وامْتَحَتْ^(٢) بِالْيُسْرِ العُسْرَةَ، وصَحَّتْ بحطين الكَسْرَةَ، وخصَّ الله السلطان بفضيلة فتح القُدْس، وقضى حاجاته التي كانت في النَّفْس، وسيأتي — إن شاء الله — شَرْحُ كُلِّ فَتْحٍ في موضعه، وكيف أشرق سنا النصر في مَطْلَعِهِ^(٣).

وكتبَ الفاضلُ من دمشق إلى تقي الدين بمصر: إن العافية النَّاصِرِيَّة قد

(١) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٣٢٨ من الجزء الأول.

(٢) أي انتزعت. «اللسان» (متح).

(٣) «سنا البرق الشامي»: ٢٦٩.

استفاضت أخبارها [وفاضت]^(١) أنوارها وآثارها، وولَّت العِلَّةَ - ولله الحمد - وأطفئت نارُها، وانجلى غبارُها، وخمدَ شرارُها، وما كانت إلا فَلَنتَ وفقى الله شرَّها، وعظيمةٌ كُفي الإسلامُ أمرها، ونوبةٌ امتحن الله بها نفوسنا، فرأى أقل ما عندنا^(٢) صبرها، وما كان الله ليضيّع الدعاء وقد أخلصته القلوب، ولا ليقف الإجابة وإن سَدَّت طريقها الذنوب، ولا ليخلف وعْدَ فرَج وقد أيس الصَّاحِب والمصحب.

نعيٌّ زاد فيه الدَّهرُ مِما فأصبح بعد بُؤسائه نعيما
وما صدَقَ النَّذِيرُ به لأنِّي رأيتُ الشمسَ تَطْلُعُ والنُّجومُ
وقد استقبل مولانا السُّلطانُ الملك الناصر العافية غَضَّةً جديدة،
والعزمة ماضيةً جديدة، والنَّشاط إلى الجهاد والجنة مبسوطه^(٣) البساط، وقد
انقضى الحساب، وجُزنا الصُّراط، وعُرضنا نحن على الأحوال التي من
خوفها كاد الجَمَلُ يُلجُ في سُمِّ الخِياط.

ومن كتابٍ [آخر]^(٤): الأحوال بالحَضْرَةِ مستقيمة، والنَّعمة بالعافية
عظيمةٌ عظيمة، والبقية الموهوبة من العُمَرِ النَّاصري كريمة القيمة، عَرَفَ
وعَرَفَ النَّاسُ قَدْرَها، ولزم ولزموا شُكْرَها^(٥)، فسيوف الجهاد قد كادت تهتزُّ
في أعمادها، وخَيْلُ الله قد كادت تنادي أهلها: اركبي لميعاد طرادها،

(١) المثبت بين حاصرتين من طبعة وادي النيل: ٦٦/٢.

(٢) في الأصل: ما عندها، والمثبت من (ك).

(٣) في الأصل: مبسوط، والمثبت من (ك).

(٤) ما بين حاصرتين من (ك).

(٥) في الأصل: وعرف الناس شكرها، ولزم ولزموا قدرها، والمثبت من (ك).

والمسجد الأقصى مبشّر تأنيسه بما استوحش منه من القرآن، وتطهيره مما استولى عليه من رجس الصُّلبان.

فصل

في باقي حوادث هذه السّنة،
ومن توفي فيها من الأعيان

قال العماد: في هذه السنة توفيت الخاتون العصميّة بدمشق في ذي القعدة، وهي عصمة الدين ابنة معين الدين أنر، وكانت في عصمة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله، فلما توفي، وخلفه السلطان بالشّام، في حفظ البلاد ونصرة الإسلام، تزوّج بها في سنة اثنتين وسبعين، وهي من أعفّ النساء، وأعصمهن وأجلهن في الصّيانة، وأحزمهن، مستمسكة من الدين بالعزوة الوثقى، ولها أمرٌ نافذ، ومعروفٌ وصدقاتٌ، ورواتب للفقراء وإدارات، وبنتٌ للفقهاء والصّوفية بدمشق مدرسة^(١) ورباطاً^(٢).

قلتُ: وكلاهما ينسب إليها، فالمدرسة داخل دمشق بمحلة حجر الذهب* قريب الحَمّام الشرکسي، والرباط خارج باب النّصر، راكب على نهر باناس* في أول الشّرف القبلي*. وأما مسجد خاتون في آخر الشرف القبلي من الغرب، فهو منسوب إلى خاتون أخرى قديمة، تقدّم ذكرها^(٣).

(١) هي المدرسة الخاتونية الجوانية، انظرها في كشف الأماكن.

(٢) كان هذا الرباط قرب جامع تنكز، انظر «منادمة الأطلال»: ص ٣٣٣، وانظر «سنا

البرق الشامي»: ٢٧٢، وكشف الأماكن.

(٣) انظر ص ١٢٢ من الجزء الأول.

وهي زُمُرْد بنت جاولي أخت الملك دُقاق لأُمّه، وزَوْج زنكي والد نور الدين، رحمهم الله.

قال العماد: وذلك سوى وقوفها على معتقيها وعوارفها وأياديها، وكان السلطان حينئذٍ بحرَّان* في بحر المرض وبُحرانه، وعنف الألم وعُنْفوانه، فما أخبرناه بوفاتها خوفاً من تزايد عِلَّته، وتوقُّد غِلَّته، وهو يستدعي في كلِّ يوم درجاً، ويكتب إليها كتاباً طويلاً، ويلقي على ضَعْفه من تعب الكتابة والفكر حملاً ثقيلاً، حتى سمع نعي ناصر الدين محمد بن شيركوه ابن عمه، فَنَعِيَتْ إليه الخاتون، وقد تعدَّت عنه إليهما المَنُون، وكانت وفاة ناصر الدين بحمص في تاسع ذي الحِجَّة فجأةً من غير مرض، وأجرى السلطان أسد الدين شيركوه ولده على ما كان لوالده، ومقابلته بأحسن عوائده^(١).

٦٧/٢

قلتُ: وقبر الخاتون المذكورة في التُّربة* المنسوبة إليها^(٢) بسفح جبل قاسيون قبليّ المقبرة الشَّرْكية*.

وأما ناصر الدين فنقلته زوجته ابنة عمّه ستُّ الشام بنت أيوب، فدفنته في مقبرتها بمدرستها بالعُويّنة*، فهو القَبْر الأوسط بين قبرها وقبر أخيها، رحمهم الله^(٣).

وكانت ستُّ الشَّام كثيرةَ المعروف والبر والصَّدقات.

وكتب الفاضلُ إلى تقي الدين: ورد الخبر عشيةَ يوم الأربعاء الحادي

(١) «سنا البرق»: ٢٧٢.

(٢) انظر «التربة الخاتونية» في كشف الأماكن.

(٣) انظر ص ٦٥ من هذا الجزء.

عشر من ذي الحِجَّة من حمص بأنه لما كان عشية يوم الأحد وقت الوقفة انتقل إلى رحمة الله ورضوانه المولى الأجل ناصر الدين محمد بن المولى أسد الدين رحمهما الله بمرضٍ حادٍ أَعْجَلَ من لمح البصر ومَرَدَّ النظر، فإنَّ الله وإنَّا إليه راجعون، وشاهد المملوك كتاباً من ولده أسد الدين شيركوه — أحياء الله — إلى كاتب أبيه رحمه الله يقول في: وكتبته وقد صار في حُفْرته، واستقرَّ في قَبْرِهِ. فنسألُ الله حُسْنَ المَرْجِع، وكفاية هَوْلِ المُطْلَع، والمعونة على ساعة هذا المَصْرَع، ونشكرُ الله ثم نشكره، ونذكره بأحسن ما يذكره به مَنْ يذكره، إذ وقى النَّفس الكريمة العالية الشَّريفة النَّاصرية، وقَدَّم قبلها من لا يَسُرُّه التَّقَدُّم بين يديه، وجعل الله أنفُسنا فداها، فإن تلك نعمة علينا كما هي نعمة عليه، ولا فَرْقَ الله لهذا البيت شَمَلًا، ولا قَضَبَ^(١) له حَبَلًا، وأعظم الله أجر الملك المظفَّر في ابن عمه، وأمتعته ببقاء عَمِّه، وأعادَه من مقابلة مقدور الله بِهِمَّه وهِمَّه^(٢)، فليس إلا التَّسليم لما لا يستطيعُ الخَلْقُ له دَفْعًا، وتفويض أمر هذه الأنفس إليه تعالى، فإنَّ لا نملك لها ضَرًّا ولا نفعًا، ولخوف المملوك أن يلتبس الخبر في مَطَالعه، ويُحَرِّف الكَلِمَ عن مواضعه، عَجَلَ بالإنهاء والإشعار، وسَبَقَ بما لا يسُرُّه السَّبْقُ به من هذه الأخبار.

قال العماد: وفيها في جُمادى الآخرة توفي أخو الخاتون المذكورة سعد الدين مسعود بن أُنْر، ونحن قد فتحنا مَيَّافارقين* بها، ولقد كان من الأكارم الأكابر، ومن ذوي المآثر والمفاخر، وما رأيت أحسنَ منه خُلُقًا، وأزكى عِرْقًا، ولم يزل في الدولتين الثُّورية والصَّلاحية أميراً مقدِّمًا، وعظيمًا مكرمًا، ولسفور فضائله، ووفور فواضله، وجدَّ شهامته وحدَّ صرامته، رغب

(١) قَضَب: قطع. «القاموس المحيط» (قَضَب).

(٢) بِهِمَّه: أي بحزنه. وهِمَّه: أي هواه. «اللسان» (همم).

السُّلْطَانُ — وهو زوج أخته — أن يكون هو أيضاً زوج أخته، فزوّجه بالتي تزوّجها مُظَفَّرُ الدين كُوكُبُري بعده^(١).

قلتُ: وهي ربيعة خاتون بنت أيوب، عمّرت إلى أن توفيت بدمشق بدار أبيها، وهي دار العقيلي* في شهر رمضان سنة ثلاث وأربعين وست مئة، وهي آخر أولاد أيوب لصلبه موتاً، وكان يحترمها الملوك من أولاد أخوتها وأولادهم، ويزورونها في دارها^(٢).

قال: وفيها توفي الأمير عز الدين جاولي، وهو من أكابر الأمراء، وله مواقف حميدة في الهيجاء، ومقامات في الغزاة حقيقة بالثناء، وهو أكبر أمير للأسدية، ولم يزل في الهيجاء يَحْسُنُ بلاؤه، ويصدق غناؤه. ولما عُذْنَا بعد فتح مَيَّافَارِقِينَ* إلى المَوْصل طَرَقَه البلاءُ في طريقه، قَفَزَ بحصانه بعض السُّواقِي، فَعَثَر به، وانكسرت رِجْلُهُ، ثم عملت عليه قدمه، واشتدَّ ألمه، وطال به سَقَمه، وانتقل إلى دمشق، وتوفي بها في آخر هذه السنة أو في سنة اثنتين وثمانين، ولقد فُجِعَ الإسلامُ منه بِذَمِيرٍ مشيح^(٣)، لِذِمَارِ الكُفْرِ مُبِيحٍ^(٤).

قال: وفيها يوم الأربعاء ثامن رمضان قُتِلَ بِأَمْدٍ* وزير ابن قرا أرسلان، وهو قِوَامُ الدين أبو محمد عبد الله بن سماقة، قتلته مماليك مخدومه غِيْلَةً، وتمَحَّلُوا له في مِباغَتته بِالْقَتْلِ حِيْلَةً؛ وذلك أنه كان جالساً في ديوانه

(١) ولابن الساعاتي في مسعود بن أنر مدائح. انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٨ من هذا الجزء. و«ديوان ابن الساعاتي»: ١٩١/٢، وما بعدها، و«سنا البرق»: ٢٧٢ — ٢٧٣، وص ١٢٦ من هذا الجزء.

(٢) ترجم لها أبو شامة في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٦٤٣ هـ).

(٣) الذمر المشيح: يعني الشجاع المجد. «اللسان» (ذمر، شيح).

(٤) الذمار: هو كل ما يلزم حفظه وحياطته وحمايته والدفع عنه. «اللسان» (ذمر). وانظر «سنا البرق»: ٢٧٣.

وإيوانه^(١)، متصدراً بمكانته في مكانه، وعنده الأكابر والأمائل، فدخل عليه واحدٌ منهم، وقال [له]^(٢): الملك يدعوكَ وَحَدَّكَ. فقام، فدخل الدَّهْلِيْزَ، وقد أُغْلِقَ البابُ الذي يصلُ منه إلى الأمير، وأُغْلِقَ وراءه البابُ الآخرَ وقتلوه، ثم أخرجوا الصَّلاحَ من حبسه، وهو أحد الأمراء الأكابر، فقتل أولئك القتالين، وكانوا به واثقين^(٣).

قال: وفيها توفي الفقيه مهذَّبُ الدين عبد الله بن أسعد الموصلي بحمص^(٤)، وكان المدرِّسُ بها، وكان عَلَّامَةً زمانه في عِلْمِهِ، ونَسِيحَ وَحْدِهِ في نَظْمِهِ، وقد أوردتُ من شِعْرِهِ في صَدْرِ الكِتَابِ ما يستدلُّ به على فَضْلِهِ، وأنه ممن عَقِمَ الدَّهْرَ بمثله، واشترتِ كتبه بأعلى الأثمان، ولكم أخرج بَحْرُهُ قلائدَ اللؤلؤ والمرجان^(٥).

قال: وفي هذه السنة ردَّ السُّلْطَانُ قلعتي الرُّها* وحرَّان* إلى مُظَفَّرِ الدين كوكبُوري بن زين الدين لتوقُّرِهِ في الخدمة على حفظ القوانين، وظهر منه كل ما حَقَّقَ به الاستظهار، وأوجب لأمره الإمرار، ورغب في مصاهرة السُّلْطَانِ، وقَلَّده طوقَ الامتنان^(٦).

قال: وكان السُّلْطَانُ قد سكنت نَفْسُهُ بالمقام^(٧)، وأراد أن تكون حركته بعد استكمال السكون، وعنده أولاده الأصاغر، والملك العزيز والملك

(١) إيوانه: ليست في (ك).

(٢) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٣) انظر «سنا البرق»: ٢٧٣ — ٢٧٤.

(٤) انظر ص ٤٠٢ — ٤٠٣ من الجزء الأول.

(٥) انظر «سنا البرق»: ٢٧٤.

(٦) انظر «سنا البرق»: ٢٧٣.

(٧) في الأصل: للمقام، والمثبت من (ك) و(ب).

الظاهر بدمشق، والأفضل بمصر، فلما ورد نعي الخاتون وناصر الدين، وخلاً شَبَلَهُ أَسَدُ الدِّينِ بَعْدَهُ فِي الْعَرِينِ، وَخِيفَ عَلَى بِلَادِهِ لِصِغَرِ أَوْلَادِهِ، وَاحْتِيجَ أَيْضاً إِلَى الْإِحْتِيَاطِ عَلَى مَا فِي خَزَائِنِهِ، وَاسْتِخْرَاجِ دَفَائِنِهِ، وَكَذَلِكَ الْخَاتُونُ خَلَّفَتْ أَمْلَكَاً وَتَرَاثاً، وَأَوْقَافاً وَأَمْتَعَةً وَأَثَافاً، لَمْ يَكُنْ مِنَ الْحَرَكَةِ بُدٌّ، وَقَدَّمَ الْكُتُبَ إِلَى الْبِلَادِ بِمَا صَمَّمْ عَلَيْهِ عَزَمَهُ، وَأَجْرَى بِهِ حُكْمَهُ، وَأَمَرَ بِالْإِسْتِعْدَادِ لَتَرْقُبِ الْإِسْتِدْعَاءِ، وَوَصَّاهُمْ فِي سَائِرِ الْمَقَاصِدِ وَالْأَنْحَاءِ^(١).

وكتب إلى ولد ناصر الدين: قد عَرَفْنَا الْمَصَابِ بِوَالِدِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَأَعْظَمَ^(٢) أَجْرَنَا وَأَجْرَهُ فِيهِ، وَإِنْ مَضَى لِسَبِيلِهِ فَوَلَدْنَا أَسَدَ الدِّينِ — أَحْيَاهُ اللَّهُ — نِعَمَ الْخَلْفِ الصَّالِحِ، وَإِنْ انْتَقَلَ وَالِدُهُ إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ، فَهُوَ فِي مَكَانِهِ الْمُسْتَقَرُّ مِنَ الْمَجْدِ وَالْعِلَاءِ، وَالْوِلَايَاتِ وَالْبِلَادِ وَالْمَعَاوِلِ بَاقِيَةً عَلَيْهِ، مُسَلِّمَةً إِلَيْهِ، مُقَرَّرَةً فِي يَدَيْهِ، وَمَا مَضَى مِنْ وَالِدِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَّا عَيْنُهُ، وَوَلَدْنَا قُرَّةَ الْعَيُونِ، وَبِهِ اسْتَقَرَّارُ السُّكُونِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَرَ بِهِ كَسَرَ الْمَصَابِ، وَالْبَسْنَا وَإِيَّاهُ ثَوْبَ الثَّوَابِ، فَلْيُشْرَحْ وَلَدُنَا صَدْرُهُ، وَلَا يَشْغَلْ سِرُّهُ، وَيُعَرَّفْ خَوَاصُّهُ وَأَصْحَابُهُ، وَوُلَاتُهُ وَنَوَآبُهُ بِحِمَصٍ وَالرَّحْبَةِ* وَغَيْرَهُمَا أَنَّهُمْ بَاقُونَ عَلَى عَادَتِهِمْ.

وكان المندوب إليه القاضي نجم الدين أبو البركات بن الشيخ شرف الدين بن أبي عَصْرُونَ، وَلَمْ يَفَارِقِ الْخِدْمَةَ السُّلْطَانِيَّةَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ.

قال: وفي هذه السنة لما كَتَبْنَا عَلَى مَيَّافَارِقِينَ* وَقَدْ فَتَحْنَاهَا، وَرَدَ لِلسُّلْطَانِ مِثَالُ شَرِيفِ إِمَامِي نَاصِرِي بِتَفْوِضِ وَلايَةِ مَارِدِينَ* وَالْحِصْنِ — وَهُوَ

(١) «سنا البرق»: ٢٧٤ — ٢٧٥.

(٢) فِي الْأَصْلِ وَ(ب) وَعَظَمَ، وَالْمُثَبَّتُ مِنْ (ك).

حصن كيفا* — والعلامة* الشريفة الناصرية في ثاني سطره بالقلم الشريف:
«النَّاصِرُ اللَّهُ»^(١).

قلت: وفيها في جُمادى الأولى توفي الحافظ أبو موسى محمد بن
عمر بن أحمد المديني الأصبهاني، محدِّث مشهور، له تصانيف كثيرة^(٢).

وفي هذه السنة^(٣) توفي بمصر في شعبان الشيخ جمال الدين أبو الفتح
أبو الثناء أبو محمد محمود بن أحمد بن علي بن أحمد بن المحمودي،
المعروف بابن الصَّابوني، ودفن بسارية من القرافة، ومولده ببغداد سنة
خمس مئة — وجدُّ أبيه لأُمِّه شيخ الإسلام أبو عثمان إسماعيل بن
عبد الرحمن الصَّابوني، فيه عُرِفَ بابن الصابوني^(٤) — وكان جدُّه صحب
السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، ونسبته بالمحمودي إليه. ودخل ابن
الصابوني هذا دمشق زمن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي
رحمه الله، واجتمع به، ونزل إلى زيارته، وسأله الإقامة بدمشق، فذكر له أن
قَصْدَه زيارة الإمام الشَّافعي رضي الله عنه بمصر، فجهَّزه وسيَّره صُحْبَة الأمير
نجم الدين أيوب والد صلاح الدين سنة سارَ إلى ولده بمصر^(٥)، وصار بينه
وبينه صحبة أكيدة ومحبة عظيمة، بحيث إنه ما كان يصبر عنه ساعة واحدة،

(١) في الأصل: أقحمت كلمة «الدين» فوق الناصر بخط مغاير، فأصبحت «الناصر
لدين الله» وهو خطأ، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) انظر ترجمته في طبقات علماء الحديث لابن عبد الهادي: ١١٢/٤ — ١١٤،
بتحقيقي، وقد استقصيت هناك مصادر ترجمته.

(٣) من هنا سقط من (ك) ينتهي ص ٢٥١.

(٤) توفي شيخ الإسلام إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني سنة (٤٤٩ هـ). انظر ترجمته
في «سير أعلام النبلاء»: ٤٠/١٨ — ٤٤.

(٥) كان ذلك سنة (٥٦٥ هـ) انظر ص ١٤٨ من الجزء الثاني.

وأقبل عليه . ولما ملك ولده الملك النَّاصر صلاح الدين رحمه الله مصر لم
يَمَكَّنْهُ من العود إلى الشَّام، ووقَّف عليه وقفاً بالديار المِصْرية، وعلى عقبه،
وهو باقٍ بأيديهم إلى الآن .

وقرأتُ بخطَّ صلاح الدين رحمه الله ما كتبه في حَقِّه إلى أخيه الملك
العادل لما كان نائبه بمصر: الأخ الأجل، الملك العادل أدام الله دولته، غير
خافٍ عنه قضية الوقف الذي أوقفه الوالد نجم الدين تغمده الله برحمته
ورضوانه على الشيخ الفقيه ابن الصَّابوني، وأنَّه لما جرى له من المخاصمة
مع الشيخ الفقيه نجم الدين - يعني الخُبوشاني^(١) - ما جرى اقتضت
المصلحة لتسكين الفتنة وقطع الكلام انتقاله إلى موضع غيره، لقطع الفتنة
والخصومة بينهم، بأمرنا إليه، مع بقاء الوقف في تصرفه وتصرف مَنْ عنده
من الفقهاء . والأخ الأجل الملك العادل يتقدَّم بمراعاته وحفظ جانبه وتمكينه
من التصرُّف في الوقف المشار إليه، ومنع من يعترضه فيه بوجهٍ من وجوه
التأويلات، وحسم مادَّة الشكوى منه ممن يتعدَّى عليه، إن شاء الله تعالى .

وقرأت بخط الشيخ عمر المَلَاء المَوْصِلي^(٢) رحمه الله كتاباً كتبه إلى
ابن الصَّابوني هذا بشيراز، يطلب منه فيه الدعاء، ويصف حاله، أوَّلُه: أخوه
عمر بن محمد المَلَاء يقول فيه: وبعد، فالذي يتطلَّع إليه من معرفة أحوالي
فجملتها خير وسلامة، غارق في بحار النعماء، ومغمورٌ في هواطل الآلاء،

(١) سترد ترجمته ٢٩٣/٤ من هذا الكتاب . وقال سبط ابن الجوزي في «مراة الزمان»:
٢٦٥/٨: «وكان الخبوشاني كثير الفتن منذ دخل مصر إلى أن مات، وما زالت الفتن
قائمة بينه وبين الحنابلة وابن الصابوني وزين الدين بن نُجَيَّة، ويكفرونه
ويكفرهم...» .

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٥ من الجزء الأول .

غير أن أيدي البلوى بالنعم^(١) ترفعني تارة إلى مقام الصديقين، وتضعني تارة أخرى إلى مقامات المتخلفين، ومع هذا، فطلب النجاة لا يفتر، والحركة في طلب الفوز لا تسكن، والعمر ينقضي بالعنا والمنى، وما أشبه حالي بحال القائل :

أملُ في يومي إدراك المُنَى حتى إذا وَلَّى تَمَنَّيْتُ غدا
لا وَطَرًا أَقْضِي من الدُّنْيا ولا أَفْعَلُ للأُخْرى فِعَالِ السُّعْدا
والعمر يمضي بين هاتين فلا ضلالة خالصة ولا هُدَى

يا أخي، ما أخبرتك بأحوالي هذه إلا رجاء أن تتحرَّك هِمَّتُك لي بالشفقة والرأفة، فتدعو الله لي بقلبٍ حاضر، منوِّر بنور الشفقة والرحمة ويؤمِّن على دُعائك مَنْ حضر مِنَ السَّادة الأخوان، وتقول: اللهم عبدك الضعيف عمر بن محمد الملاء، يدعوك ويقول:

لا تهنِّي بعد إكرامِكَ لي فشديدٌ عادةٌ منقطعه

وقد توسَّل بنا إليك، نسألك أن تبلغه آماله، وأن تحييه حياة السُّعْدا، وأن تميته موت السُّعْدا، وتحشره في زُمرة السُّعْدا، وأن تجعل خَيْرَ عُمُرِهِ آخره، وخيرَ أعماله خواتيمها، وخيرَ أيامه يوماً يلقاك فيه^(٢).

(١) في طبعة وادي النيل: ٦٨/٢ تحرفت إلى النقم.

(٢) إلى هنا ينتهي السقط من (ك)، انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٢٤٩ من هذا الجزء.
«وانظر ترجمة ابن الصابوني في «سير أعلام النبلاء»: ١٦٣/٢١ - ١٦٤، وحفيده صاحب «تكملة إكمال الإكمال» توفي سنة (٦٨٠ هـ) انظر ترجمته في «طبقات علماء الحديث» لابن عبد الهادي: ٢٤٩/٤ - ٢٥٠، وانظر الدراسة القيمة عن آل ابن الصابوني في مقدمة «التكملة» بقلم العلامة الدكتور مصطفى جواد، رحمه الله.

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين [وخمسة مئة] (١)

قال العماد: فرحل السلطان إلى الشام، وودّع مظفر الدين صاحب حرّان* من الفرات، ورحل صوّب حلب، والعاذل صاحبها على المقدّمة، وقد هياً أسباب التّكرّمة، فوصل حلب في العَشر الأوسط من المحرّم، ثم رتّب العادلُ في حلب نُوابه، وصحب السلطان، فوصلوا حماة، وفيها نائب تقي الدين ناصر الدين منكورس بن ناصح الدين خُمارتَكين، وهو صاحب بوقُبيس، وقد جمع النهضة والأمانة. ثم وصل السلطان إلى حمص، وقرّر أمر المجاهد أسد الدين أبي الحارث شيركوه بن ناصر الدين، وكان عمره إذ ذاك ثلاث عشرة سنة سماه أبوه باسم جدّه ولقّبهُ بلقبه، وكتب له منشوراً بما قرّر عليه من البلاد، وذلك حمص وسَلَمِيّة (٢) وتدمر ووادي بني حُصَيْن والرّحبة* وزليبا. وكتب منشوراً آخر بإسقاط المكوس بالرّحبة، وفيه: وهذا دأب السلطان في جميع البلاد، اقتصر منها على الرّسوم التي يُبيحها الشرع، وهي الخراج والأجور والزّرع.

واعتمد على الأمير الحاجب بدر الدين إبراهيم بن شرويه الهكّاري في ولاية قلعة حمص، ثم نقله إلى قلعة حلب، فبقي والياً بها ستّ سنين، ورتّبهُ العزيز في آخر عهد السلطان بقوص*.

قال: ورتّب السلطان مع أسد الدين بحمص أميراً من الأسدية يعرف بأرسلان بوغا، فقدّمه (٣) على أصحابه، بتولي مصالح بابه، حتى تفرّد الأسدُ

(١) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٢) في الأصل: لم تكتب واضحة، فكتب ناسخ فوقها، وقلعته، وهو خطأ، والمثبت من (ك) و(ب).

(٣) في الأصل و(ب) فقدم، والمثبت من (ك).

بالأمر لسَدَّاده، وبلغ مدى رشاده، ونُعتَ بالملك المجاهد، ونهض بمحامل
المحامد.

قال: وأقمنا بحمص حتى استعرضنا خَزَائِنَ ناصر الدين، وقسمنا
ميراثه، وكانت أخت السلطان الحُسامية زوجة ناصر الدين، وهي مستحقة
الثَّمَن، والباقي بين البنت والابن، وخَلَّفَ عَيْنًا وَوَرَقًا، مجتمعاً ومفترقاً،
ومبلغ^(١) التراث في الملك والعين والأثاث عَظُمَ أن يُقَدَّرَ بمقدار، وأناف
على^(٢) ألف ألف دينار، فما أعاره السلطان طَرَفه، بل تركه على أهل التَّرْكة.

قال: ولما شاع بدمشق خَبَرُ دُنُونَا، احتفل أهلها، واجتمع بالمسارِّ
شَمْلُهَا، وطلعت أعيانها ونبت عيونها، ووافت أبكارها وعُونُهَا، وظهر
مكنونها ومخزونها، وترامت إلينا ثمراتها ومكرماتها سهولها وحُزُونُهَا،
ودخلنا المدينة وزينة الدُّنيا خارجة، وسكينة التُّعْمَى فارجة، ودمشق
كالهَدْيِ^(٣) مزفوفة، وبالهْدَى محفوفة، وبالحُسْنِ موصوفة. وكان النَّاسُ قد
ساءهم خبر المرض، فسرَّهم عِيَانُ السَّلَامَةِ، وأسهرهم الهم للإشفاق
فراجعوا للشِّفاء كَرَى الكرامة، وما أَلَدَّ الرجاءَ بعد الإِبلاس، والثَّراءَ غِبَّ
الإِفلاس، والأمل عقيب الياس، وأنهم ظفروا في حالة الإِيحاش بالإيناس،
وأمنوا بمشاهدة الأنوار السلطانية حنادِسَ^(٤) الوَسْوَاس. واجتمع السُّلطان في
القلعة بأهله، وأقلع المُرْجِفُ عن جهله، وَحَسُنَتِ الأحوال، وأُمنت
الأهوال، وشاهدنا الفَضْلَ والكرم بالمشاهدة الفاضلية الكريمة، وَعُدْنَا إلى

(١) في الأصل: وملك، والمثبت من (ك).

(٢) في الأصل: عن، والمثبت من (ك).

(٣) الهدي: العروس. «معجم متن اللغة»: ٦١٥/٥.

(٤) الحنادس جمع، مفردا حِنْدَس: الظلمة. «القاموس المحيط» (حندي).

عادة السعادة القديمة، واجتمع السلطان به فبَّه أسرارَه، واستزال بصفو رأيه أكداره، ودخل جَنَّتَه وجَنَى ثماره، وزاره مرةً واستزاره، وراجعَه في مصالح دولته [واستشاره]^(١)، وجلس السلطان في دار العدل* لكشف المظالم، وَبَثَّ المكارم، وإحياء المعالم^(٢)، وإقامة مواسم المراسم^(٣).

وقال القاضي ابن شدَّاد: ولما وجد السلطان نشاطاً من مرضه رحل يطلب جهة حلب، وكان وصوله إليها يوم الأحد رابع عشر المحرم، وكان يوماً مشهوداً لشدة فرح النَّاس بعافيته ولقائه، فأقام بها أربعة أيام، ثم رحل في ثامن عشره نحو دمشق، فلقيه أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه بتلَّ السُّلطان^(٤)، ومعه أُخته^(٥)، وقد صحبه خدمة عظيمة وقُرْب زائدة، ومَنَّ عليه بحمص، وأقام أياماً يعتبر تركة أبيه، ثم سار يطلب جهة دمشق، وكان دخوله إليها في ثاني ربيع الأول، وكان يوماً لم يَر مثله فرحاً وسروراً^(٦).

فَصْلٌ

في ذكر ما استأنفه السُّلطان بمصر والشَّام من نَقْل الولايات بين أولاده

قال العماد: وكان السلطان لملازمة أخيه العادل له قد مال إلى رأيه،

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) في الأصل: المعلوم، وقد كتبها ناسخ فوق خط الأصل، وفي (ك) العالم، وفي (ب) العلوم، والمثبت من طبعة وادي النيل: ٦٩/٢، وهو الموافق لما في «سنا البرق الشامي»: ٢٧٨.

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ٢٧٥ — ٢٧٨.

(٤) تحرف في مطبوع «النوادر» إلى قبل السلطان.

(٥) في (ك) أخيه، وهو تصحيف.

(٦) «النوادر السلطانية»: ٧١.

وكان الملك الأفضل نور الدين علي بمصر، وهو ولده الأكبر، وقد بدأ يظهر، وعلى تجويد الخط والأدب وسماع الأحاديث النبوية يتوفر، وقد مالت إليه بمصر جماعة، وله منهم طاعة، وربما نَقَمَ تقي الدين الثائب هناك من أحدِ أمراء، فوقعت منه فيه شفاعه، فكتب يشكو من اختلال أمره، واشتغال سره، وكان في نفس السلطان أن ينقل ولده الملك العزيز عثمان إلى مصر ليكون عزيزها، وليحرز مملكتها ويحوزها، وهو مفكر في طريق تدبيره، ووجه تقريره، حتى بدا له نقل الأفضل إلى الشام، فكتب إليه يتشوقه ويستدعيه بجميع أهله وجماعته، ووالدته وحشمه وأصحابه، فخرج ووصل دمشق يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الأولى، وخرج السلطان لاستقباله، وأنزله بالقلعة في دار رضوان، وكتب إلى تقي الدين أنه قد استقل أمره، وزال عذره. فابتهج بتفرده، وخفي عنه أنه كان في ذمة ولد السلطان وعصمته، وأن تمام حرمة بحرمته^(١).

قال: ولما وصلنا إلى دمشق كان بها من أولاد السلطان الملك الظاهر غازي غياث الدين، فزاره^(٢) عمه العادل وهو صهره، وقد اشتد بمصاهرته ظهره، فقال له: قد نزلت عن حلب لك، وأنا قانع من أخي بإقطاع أين كان، وألزم الخدمة ولا أفارق السلطان، فاطلبها من أبيك إن كانت ترضيك. وجاء إلى السلطان، وقال: هذه حلب مع رغبتني فيها، ومحبتني لتوليها، أرى أن أحد أولادك بها أحق، وهذا ولدنا الملك الظاهر أحب أن أوثره بها. فقال السلطان: المهم الآن تدبير [أمر]^(٣) ولدي الملك العزيز، فإن مصر لا بد أن يكون لي بها ولد أعتمد عليه، وأسند ملكها^(٤) إليه. ورحل إلى الزرقاء*

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ٢٧٨ — ٢٧٩.

(٢) في الأصل و(ك) فزار، والمثبت من (ب).

(٣) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٤) في (ك) ممالكها.

ومعه ولداه العزيز والظاهر وأخوه العادل، فالتمس العادل عَوْضَ حلب بلاداً عَيْنَهَا، ونواحي بمصر بَيْنَهَا. وكان قد مال الملك العزيز إليه لِإِشْفَاقِهِ عَلَيْهِ، فَسَأَلَ أَبَاهُ أَنْ يُسَيِّرَ مَعَهُ الْعَادِلَ، فَإِنَّهُ نِعَمَ الْكَافِي الْكَافِلَ. فَأَعْطَاهُ السُّلْطَانُ بِمِصْرَ الْبِلَادِ الْمَعْرُوفَةَ بِالشَّرْقِيَّةِ، وَاعْتَمَدَ عَلَيْهِ فِي نِيَابَتِهِ فِي سَائِرِ الْمَمَالِكِ الْمِصْرِيَّةِ.

ولما سمع تقي الدين هذا الخبر، نبا ونَفَرَ، وَذَمَّ الْغَيْرَ، وَاسْتَبَدَلَ مِنَ الصَّفْوِ الْكَدَّرَ، وَغَارَ مِنْ تَغْيِيرِ الرَّأْيِ فِيهِ، وَإِذَا تَوَلَّى أَبُو بَكْرٍ فَلَاحِظٌ. فَجَبَرَ إِلَى الْجِيزَةِ مُظْهِراً أَنَّهُ يَمْضِي إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ لِيَمْلِكَهَا، وَكُتِبَ وَسَأَلَ السُّلْطَانُ أَنْ لَا يَمْنَعَهُ مِنْ سُلُوكِ مَسْلِكِهَا، وَسَمَتِ هِمَّتُهُ إِلَى مَمْلَكَةٍ جَدِيدَةٍ، وَأَقَالِيمَ ذَاتِ ظِلَالٍ مَدِيدَةٍ، وَبِلَادٍ وَاسِعَةٍ، وَمَدَنٍ شَاسِعَةٍ.

وَقَدْ كَانَ أَحَدُ مَمَالِيكِهِ الْمَعْرُوفِ بِقَرَاقُوشٍ^(١)، قَدْ جَمَعَ مِنْ قَبْلُ الْجِيُوشِ، وَسَارَ إِلَى بِلَادِ بَرْقَةِ* فَمَلِكَهَا، وَهَدَنَتُهُ الْأَمْنِيَّةُ إِلَى النَّفَاسِ مِنْ بِلَادِ نَفْسَةٍ فَأَدْرَكَهَا، وَتَجَاوَزَ إِلَى إِفْرِيقِيَّةٍ، وَهُوَ يَكْتُبُ أَبْداً إِلَى مَالِكِهِ الْمَلِكِ الْمُظْفَرِّ، يُرَغِّبُهُ فِي تِلْكَ الْمَمْلَكَةِ، وَيَقُولُ: إِنَّ الْبِلَادَ سَائِبَةٌ. فَلَمَّا تَجَدَّدَ لَتَقِي الدِّينَ مَا تَجَدَّدَ، وَتَمَهَّدَ لِعَمِّهِ الْعَادِلَ مَا تَمَهَّدَ، عَادَ^(٢) لَهُ ذِكْرُ الْمَغْرِبِ، فَجَبَرَ بِعَسْكَرِهِ، وَمَالَتْ إِلَيْهِ عَسَاكِرُ مِصْرَ لِبَذْلِهِ، وَقَدَّمَ مَمْلُوكَهُ يُوْزْبَا فِي الْمَقْدَمَةِ.

فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى السُّلْطَانِ خَبِرَ عَزَمَهُ، قَالَ: لَعَمْرِي، إِنْ فَتَحَ الْمَغْرِبَ مُهِمًّا، لَكِنْ فَتَحَ الْبَيْتَ الْمُقَدَّسَ أَهْمًا، وَالْفَائِدَةُ بِهِ أَتَمُّ، وَالْمَصْلَحَةُ مِنْهُ أَخْصَصُ وَأَعَمُّ، وَإِذَا تَوَجَّهَ تَقِي الدِّينَ، وَاسْتَصْحَبَ مَعَهُ رِجَالَنَا الْمَعْرُوفَةَ، ذَهَبَ الْعَمْرُ

(١) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٩٩ من هذا الجزء.

(٢) في النسخ الخطية: عادت، والمثبت من طبعة وادي النيل ٧٠/٢.

في اقتناء الرُّجال، وإذا فتحنا القُدس والسَّاحل، طوينا إلى تلك الممالك المراحل. وعلم لَجَاج تقي الدين في ركوب تلك اللُّجَّة، فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه، وجَهَّز ولده العزيز إلى مصر، وقرَّر له قوص* وأعمالها، وسار ومعه عَمُّه العادل، فدخلوا القاهرة في خامس شهر رمضان.

وأما الملك الظَّاهر فسيَّره السُّلطان إلى حلب، وأنعم عليه بها، وبسائر قلاعها وأقاليمها، وندب معه الحاجب شجاع الدين عيسى بن بلاشو، وعاد السُّلطان، ومعه الأفضل.

وقدم تقي الدين في آخر شعبان، وتلقَّاه السلطان، وخيم على المصري فوق قصر أمِّ حكيم^(١)، فلما قرب ركب إلى موكبه، ورَحَّب به، ودخل دمشق، وعاد إلى ما كان له من البلاد [حماة]^(٢) ومَنبج* والمَعَرَّة* وسائر أعمالها، ثم أضاف إليه مَيَّافَرِقِينَ* وجميع ما في ذلك الإقليم من المعاقل، وكتب إلى مصر باستدعاء رجاله، وإعلامهم بتأخير عَزَمِ المغرب بل إبطاله. فامتلأوا الأمر، وفارقوا إلى الشَّام مصر، سوى مملوكه زين الدين يوزبا، فإنه رَتَّب له عسكرياً إلى المغرب، فمضى واستصحبه، وغلب على بلاد إفريقية، ثم قصده صاحبُ المغرب، فأخذه مأسوراً، ثم أغزاه مع الغُرِّ^(٣) في ثغرٍ من الثغور، فألفاه مشهوراً مشكوراً، فقدَّمه عليهم^(٤).

(١) قصر أم حكيم بمرج الصفر، قرب الكسوة جنوبي دمشق. انظر «معجم البلدان»: ٣٥٥/٤.

(٢) ما بين حاصرتين مستدركة في هامش (ك).

(٣) في الأصل: الغزو، والمثبت من (ك) و(ب).

(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ٢٧٩ - ٢٨١، و«الكامل» لابن الأثير: ٥١٩/١١ - ٥٢٢.

قلتُ: وكتب الفاضل إلى تقي الدين: سببُ هذه الخدمة ما اتَّصل
بالمملوك من تردُّد رسائل مولانا في التماس السفر إلى المغرب والدستور
إليه.

يكفي الزَّمانُ فمالنا نَسْتَعِجِلُ

يا مولانا، ما هذا الواقع الذي وقع، وما هذا الغريم من الهمِّ الذي
ما اندفع، بالأمس ما كان لكم من الدُّنيا إلا البُلغة، واليوم قد وهب الله هذه
النَّعمة، وقد كان الشُّملُ مجموعاً، والهمُّ مقطوعاً ممنوعاً، أفتصبحُ الآن
الدنيا ضيقة علينا وقد وسَّعت؟ والأسباب بنا مقطوعة ولا والله ما انقطعت؟
يا مولانا، إلى أين؟ وما الغاية؟ وهل نحن في ضائقةٍ من عَيْشٍ؟ أو في قِلَّةٍ
من عددٍ؟ أو في عَدَمٍ من بلادٍ؟ أو في شكوى من عَدَمٍ؟ كيف نختارُ على الله
وقد اختار لنا! وكيف ندبِّرُ لأنفسنا وهو دبَّرَ لنا! وكيف نتجعجع الجَدَبَ ونحن
في دار الخِصْب! وكيف نَعْدِلُ إلى حَرْبِ الإسلام المنهِي عنها ونحن في
المدعوِّ إليها من حِزبٍ^(١) أهل الحرب! معاشرَ الخدَّام والجلَّساء، وأرباب
العقول والآراء ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ^(٢) رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾^(٣).

تَعَقَّبِ الرَّأْيَ وَأَنْظُرْ فِي أَوَاخِرِهِ فَطالما اتَّهَمْتَ قَدَمًا أَوَائِلُهُ

لا زال مولانا يُمضي الآراء صائبة، ويلحظها باديةً وعاقبة، ولا خَلَّتْ
منه دار إن خَلَّتْ فهيَّات أن تُعمر، ولا عَدِمَتْه أيام إن لم تَطْلُعْ فيها شَمْسُ
وَجْهِهِ دَخَلَتْ في عِداد اللَّيالي فلم تُذْكَر.

(١) حزب، ساقطة من (ك).

(٢) في الأصل و(ك) فيكم.

(٣) سورة هود، الآية: ٧٨.

وقال القاضي ابن شدّاد: وفي سابع عشر جُمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين وصل الملك الأفضل إلى دمشق، ولم يكن رأى الشّام قبل ذلك، وكان السُّلطان رأى رواح الملك العادل إلى مصر، فإنه كان آنس بأحوالها من الملك المُظفّر، فما زال يفاوضه في ذلك، وهو على حرّان* مريض، وحصل ذلك في نفس العادل، فإنه كان يُحبُّ الدّيار المِصرية. فلما عاد السلطان إلى دمشق، ومَنَّ الله بعافيته، سَير يطلب العادل إلى دمشق، فخرَجَ^(١) من حلب جريدةً، وأقام بدمشق في خدمة السلطان يجري بينهما أحاديث ومراجعات في قواعد تقرر إلى جُمادى الآخرة، فاستقرَّ عَوْدُ العادل إلى مصر، ويسلّم بلاد حلب إلى الملك الظاهر، وسلّم السلطان إليه ولده الملك العزيز، وجعله أتابكه*.

قال: ولقد قال لي الملك العادل: لما استقرّت هذه القاعدة اجتمعتُ بخدمة الملك العزيز والملك الظاهر، وجلست بينهما، وقلت للعزيز: اعلم يا مولاي أن السلطان قد أمرني أن أسير في خدمتك إلى مصر، وأنا أعلم أن المفسدين كثير، وغداً فما يخلو ممن يقول عني ما لا يجوز، ويخوفك مني، فإن كان لك عزم تسمع، فقل لي حتى لا أجيء. فقال: لا أسمع، وكيف يكون ذلك! ثم التفتُ وقلت للملك الظاهر: أنا أعرف أن أخاك ربما سمع في أقوال المُفسدين، وأنا فمالي إلا أنت، وقد قنعتُ منك بمنبج* متى ضاق صَدْرِي من جانبه. فقال: مبارك. وذكر كلَّ خير.

ثم إن السُّلطان سَير ولده الظَّاهر إلى حلب وأعادها إليه، وكان — رحمه الله — يعلم أن حلب هي أَصلُ الملك وجُرْثُومته وقاعدته، ولهذا دأب

(١) في الأصل: فتجهز، والمثبت من (ك) و(ب).

في طلبها ذلك الدأب، ولما حصلت أعرض عما عداها من بلاد الشَّرْق، وقَنَعَ منهم بالطَّاعة والمعونة على الجهاد، فسَلَّمها إليه علماً منه بحذاقته وحَزْمه وحِفْظَه، فسار إليها حتى أتى العين المباركة، وسَيَّر في خدمته سِخْنَةً* حسام الدين بشارة، ووالياً شجاع الدين عيسى بن بلاشو، ونزل يوم الجمعة بالعين المباركة، وخرج النَّاس إلى لقائه بُكْرَةً يوم السبت تاسع جُمادى الآخرة، وصَعِدَ القلعة ضاحي نهاره، وفرِحَ النَّاسُ به فرحاً شديداً، ومدَّ على النَّاس جَنَاحَ عَدْلِهِ، وأفاض عليهم وإيلَ فَضْلِهِ.

وأما الملك العزيز والعاذل فَإِنَّ السُّلْطَانَ قَرَّرَ حالهما، وكتب إلى الملك المُطَفَّر يخبره بمسيرهما إلى مصر، ويأمره بالوصول إلى الشَّام. فشَقَّ ذلك عليه حتى ظهر للنَّاس، وعزم على المسير إلى ديار الغَرْب إلى برقة*، ففَقَّحَ ذلك عليه جماعةٌ من أكابر الدولة، وعَرَفُوهُ أَنَّ عمه السلطان يخرج من يده في الحال، والله يعلم ما يكون منه بعد ذلك، فرأى الحقَّ بعين البصيرة، وأجاب بالسَّمْع والطَّاعة، وسلَّم البلاد، ورحل واصلأ إلى خدمة السُّلْطَانَ، فسار السلطان إلى لقائه، فلقيه بمرَج الصُّفَر*، وفرح بوصوله فرحاً شديداً، وذلك في الثَّالث والعشرين من شعبان، وأعطاه حماة، وسار إليها، وكان عقد بين الظَّاهر وبعض بنات العاذل عَقْدَ نِكَاحٍ، فتمَّ ذلك، ودخل بها يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر رمضان، ودخل الملك الأفضل على زوجته بنت ناصر الدين محمد بن شيركوه في شوال من هذه السَّنَةِ^(١).

ومن كتابِ فاضليٍّ إلى السُّلْطَانَ: الملك العاذل والملك المُطَفَّر

(١) «النوادر السلطانية»: ٧١ - ٧٤.

المذكوران ما هما أخ و[لا]^(١) ابن أخ، بل^(٢) هما ولدان لا يَعْرِفَانِ إِلَّا المولى والدأ ومُنْعَمًا، وكلُّ واحدٍ منهما له عَشْرُ كَثِيرِ الفِراخِ، وبيتٌ كَرَقعة الشُّطرنج فيه صغار وكبار كالبياذق والرِّخاخ، فلا يُقْنَعُ كُلُّ واحدٍ منهما إِلَّا طرف يملكه، وإقليم ينفرد به، فَيَكْبُرُ مولانا في ذلك بما يقتضيه صَدْرُهُ الواسع، وجُوده الذي ما نَظَرَ مثله النَّاطِر ولا سَمِعَ السَّامِع، ولا ينس قول عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: مرو القَرابة^(٣) أن يتزاوروا ولا يتجاوروا. وما على مولانا عجلة في تدبير يُدَبِّرُهُ، ولا في أمرٍ يَبْئُتُهُ. وستبدي لك الأيام ما كنت عارِفًا، وفي غدٍ ما ليس في اليوم، والله أقدارٌ ولها أمد، وقد رزق الله مولانا ذُرِّيَّةً تَوَدُّ لو قَدَّمتْ أنفسها بين يديه، ولو اكتحلت أجفانها بغبارِ قَدَميه، ما فيها من يُشْتَكى منه إِلَّا التَّرَيُّدُ في الطَّلَب، وهو من باب الثقة بكرم المُنعم، ولهم أولاد، والمولى مدَّ الآمالَ لهم، كما قال مولى الأُمَّة [لها]^(٤): «تناكحوا تناسلوا، فإني مكاثِرٌ بكم الأُمم»^(٥)، طالما قال لهم المولى: لِدُوا، وعليَّ تجهيز الإناث وغنى الذكور، وسواء على أفق هذا البيت طلوع الشمس والبُدُور.

قال العماد: ومدحت تقي الدين بقصيدة سينية سِنِيَّة، قطوفها دانية جَنِيَّة، تشتمل على مئة وأربعين بيتاً، أنشدته إياها في ثالث شهر رمضان من هذه السنة بدمشق، وأوردتُ بعضها، ومطلعها:

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٢) في (ك) و(ب) إنما.

(٣) في (ك) و(ب) القرائب.

(٤) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٥) أخرج ابن حبان في «صحيحه» من حديث معقل بن يسار قول النبي ﷺ: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثِر بكم». وإسناده قوي. وانظر تخريجه ثمة.

عَفَا اللَّهُ عَنْكُمْ عَنْ ذَوِي الشَّوْقِ نَفْسُوا
[ومنها] ^(١):

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنِي مِنَ الشَّوْقِ مُوسِرٌ
ظَنَنْتُمْ بَعِينِي أَنَّهَا تَأَلَّفَ الْكَرَى
وَلَيْسَ لِقَلْبِي فِي الشَّرُورِ تَصَرُّفٌ
ومنها:

لَفَتَكَ مُحِيطِيهِ تَيْقُظُ طَرْفِهِ
لَهُ نَاطِرٌ عِنْدَ الْخِلَافِ مُنَاطِرٌ
إِذَا دَرَسَتْ أَلْحَاطُهُ السَّحَرُ أَصْبَحَتْ
وَلَمْ أُنْسِ أَنْسِي بِالْحِمَى رُعِي الْحِمَى
لِحَا اللَّهُ أَبْنَاءَ الزَّمَانِ فَكُلُّهُمْ
وَلَوْ لَا ابْتِسَامَاتُ الْمُظْفَرِ بِالنَّدَى
جَلَّتْ شَمْسٌ لِقِيَاهُ الْحَنَادِسَ بَعْدَمَا
وَصَارَ بِهِ هَذَا الزَّمَانُ جَمِيعُهُ
إِذَا صَالَ فَالْمَغْلُولُ ^(٢) أَلْفٌ مُدَرَّعٌ
وَلَيْسَ بِمَغْبُونٍ عَلَى فَضْلِ رَأْيِهِ
إِذَا أَطْلَقَ الْمَلِكُ الْمُظْفَرُ فِي الْوَعَى
فِدَاكَ مَلُوكٌ لَا يُلَبُّونَ دَاعِيَاً

٧٢ / ٢

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) في الأصل: المغلول، والمثبت من (ك).

تَشْكِي إِلَيْكَ الْغَرْبُ جَوَرَ مُلُوكِهِ
سَيَهْدِي إِلَى الْمَهْدِيَةِ* النَّصْرَ وَالْهُدَى
رَدَدْتَ كِرَادِيسَ الْفِرْنَجِ وَكُلَّهُمْ
وَبَيَّضْتَ وَجْهَ الدِّينِ يَوْمَ لَقَيْتَهُمْ
أَفَادَ دَمُ الْأَنْجَاسِ طَهَرَ سُيُوفَكُمْ^(١)
شَمُوسٌ طُبِّي تَغْدُو لَهَا الْهَامُ سَجْدًا
وَكَمْ كُنْفِي الْإِسْلَامِ سَوْءًا بِمُلْكِكُمْ
وَلَا يَفْتَحُ الْبَيْتَ الْمُقَدَّسَ غَيْرُكُمْ
لَهُمْ كُلَّ يَوْمٍ فِي جِهَادٍ مِثْلِي
إِذَا مَا تَقَيَّ الدِّينَ صَالٍ تَسَاقَطَتْ
وَمَا عَمْرٌ إِلَّا شَيْئُهُ سَمِيهِ

فَأَشْكَيْنَهُ وَالْجَوْرُ بِالْعَدْلِ يُعَكِّسُ
بِهَدْيِكُمْ فِيهَا وَتُونِسُ تُؤَنَسُ
لَدَى الْأَسْرِ فِي غُلِّ الصَّغَارِ مُكَرَّدَسُ
وَأَبْيَضَكُمْ مِنْ أَسْوَدِ الْقَصْرِ أَشْوَسُ
وَمَا تَسْتَفِيدُ الطُّهْرَ لَوْلَا التَّنَجُّسُ
فَلِلَّهِ نَصْرَانِيَّةٌ تَتِمَّجَسُ
كُفَيْتُمْ عَلَى رَغَمِ الْمَعَادِينِ كُلِّ سُو
وَبَيْتِكُمْ مِنْ كُلِّ عَابٍ مُقَدَّسُ
إِذَا نَصَرُوا التَّوْحِيدَ فِيَّ مُخْمَسُ
لَأَقْدَامُهُ مِنْ عُصْبَةِ الشَّرْكَ أَرْوَسُ
شَدِيدٌ عَلَى الْأُلُوءِ ثُبْتُ عَمْرَسُ^(٢)

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: كان المنجّمون في جميع البلاد يحكمون بخراب العالم في هذه السنة [في]^(٣) شعبان عند اجتماع الكواكب الستة في الميزان، بطوفان الرّيح في سائر البُلدان، وخَوْفُوا من ذلك من لا وثوق له باليقين، ولا إحكام له في الدّين، من ملوك الأعاجم والرّوم، وأشعروهم من تأثيرات النّجوم، فشرعوا في حَفْرِ مَغَارَاتٍ فِي التُّخُومِ، وَتَعْمِيقِ بِيُوتٍ فِي الْأَسْرَابِ

(١) في (ك) نفوسكم.

(٢) العمرس: القوي الشديد. «اللسان» (عمرس). وانظر بعض أبياتها في «سنا البرق»:

٢٨٢ مع اختلاف في بعض ألفاظها.

(٣) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

وتوثيقها، وسد منافسها على الرِّيح وقَطَعَ طريقها، ونقلوا إليها الماء والأزواد، وانتقلوا إليها، وانتظروا الميعاد، وكلَّمَا سمعنا بأخبارهم استغربنا في الضَّحك من عقولهم، وسلطاننا متمرِّ من أباطيل المنجِّمين، موقنٌ أن قولهم مبنيٌّ على الكذب والتخمين، فلما كانت الليلة التي عيَّنها المنجمون لمثل ريح عاد، وقد شارفنا الميعاد، ونحن جلوسٌ عند السلطان في فضاء واسع، ونادٍ للشموع الزَّاهرات جامع، وما يتحرَّك لنا نسيم، ولا لسرح الهواء في رعي منابت الأنوار مُسِينٌ، وما رأينا ليلةً مثلها في ركودها وركونها، وهدوُّها وهدونها^(١).

قال ابن القادسي: وحكم أصحابُ النُّجوم أن في الثَّامن والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة تقتزن الكواكب السَّيَّارة الخمسة، والشمس والقمر في بُرج الميزان، ويؤثر ذلك هواءً عظيماً، وخيماً سمومياً. وفي يوم الثلاثاء التاسع والعشرين تهلكُ البلاد، ويحمل الرَّمْل، ونسبوا ذلك إلى الخازمي^(٢)، وقالوا: يكون أشدَّ^(٣) ذلك من ليلة الثلاثاء إلى نصف ليلة الأربعاء، فاستعدَّ لذلك أقوامٌ في البلاد، وجمعوا الكعك، وحفروا السَّراديب، فأهلَّ رجب وما جرى مما قالوا شيء، فخزي أهلُ التنجيم لذلك، ولم يَهْبَ في ذلك اليوم هواء البتة، وكان الزَّمانُ حاراً، واشتدَّ الحرُّ

(١) «سنا البرق» ٢٨٣.

(٢) هو أبو الفضل الخازمي. انظر «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» للقفطي ص ٢٧٨ - ٢٧٩، وجاء في هامش المطبوع: ٧٢/٢. وفي هامش الأصل المنقول منه لعله الخوارزمي. قلت: وهو تحريف كما رأيت.

(٣) في الأصل: يكون ذلك أشد من ليلة. . والمثبت من (ك).

في ذلك اليوم وبعده، ولم يظهر مما قالوا شيء. وعمل الشعراء في ذلك شعراً يَزْرُونَ عليهم في حكمهم، منهم أبو الغنائم محمد بن علي بن المُعَلَّم الهُرْثِي^(١)، وفخر الدين عيسى بن مودود^(٢) دُزْدَار * قلعة تكريت*، وأبو الفتح سبط ابن التَّعاوِيزي^(٣).

قال أبو الغنائم بن المُعَلَّم:

قُلْ لأبي الفضلِ قَوْلَ مُعْتَرِفٍ مَضَى جُمَادَى وجاءنا رَجَبُ
وما جَرَتْ زَعْرَعاً كما حكموا ولا بدا كوكبٌ له ذَنْبُ
كلا ولا أَظْلَمْتَ ذُكَاءً^(٤) ولا أبدت أذى في قرانها الشُّهْبُ
يقضي عليها من ليس يَعْلَمُ ما يُقْضَى عليه هذا هو العَجَبُ
فازم بتقويمك الفُرَاتَ والأَصْدَ طرلابٌ خَيْرٌ من صُفْرِه الخَشْبُ
قد بان كِذْبُ المُنْجِمِينَ وفي أيِّ مقالٍ قالوا فما كَذَبُوا
مدبِّرُ الأمرِ واحدٌ ليس للَسِّ^(م) بَعَّةٌ في كلِّ حادثٍ سَبَبُ
لا المشتري سالمٌ ولا زَحَلٌ باقٍ ولا زُهْرَةٌ ولا قُطْبُ
تبارك الله حَصْحَصَ الحَقُّ وان حجاب التَّمادي وزالتِ الرِّيبُ

-
- (١) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٥٩٢ هـ).
(٢) ولد في حماة، وولي تكريت، وقتله إخوته فيها سنة (٥٨٤ هـ)، وكان له ديوان شعر حسن، ورسائل مطبوعة، ودويبت رقيق. انظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ٤٩٨/٣ - ٥٠٠.
(٣) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٢٦ من هذا الجزء.
(٤) ذكاء: الشمس.

فَلْيُطِيلِ الْمُدَّعُونَ مَا وَضَعُوا فِي كُتُبِهِمْ وَلِتُخَرِّقَ الْكُتُبُ^(١)
وقال عيسى بن مودود:

مَزَّقِ التَّقْوِيمَ وَالزَّيْدَ	سَجَ فَقَدْ بَانَ الْخَفَاءُ
إِنَّمَا التَّقْوِيمَ وَالزَّيْدَ	سَجَ هَبَاءٌ وَهَوَاءُ
قُلْتَ لِلسَّبْعَةِ إِبْرًا	مُ وَمَنْعٌ وَعَطَاءُ
وَمَتَى يَنْزِلْنَ فِي الْمِي	زَان يَسْتَوْلِي الْهَوَاءُ
وَتَثِيرُ الرَّمْلَ حَتَّى	يَمْتَلِي مِنْهُ الْفَضَاءُ
وَيَعُمُّ الْأَرْضَ خَسْفٌ	وَحَرَابٌ وَبَلَاءُ
وَيَصِيرُ الْقَاعُ كَالْقُدِّ	فَ وَكَالطُّودِ الْعَرَاءُ
وَحَكَمْتُمْ فَأَبَى الْحَا	كُمُ إِلَّا مَا يَشَاءُ
مَا أَتَى الشَّرْعُ وَلَا جَا	ءَتْ بِهَذَا الْأَنْبِيَاءُ
فَبَقِيتُمْ ضُحْكَةً تَضُ	حَكُ مِنْهَا الْعُلَمَاءُ
حَسْبُكُمْ خِزْيًا وَعَارًا	مَا يَقُولُ الشُّعْرَاءُ
ثُمَّ مَا أَطْمَعَكُمْ فِي الـ	حُكْمِ إِلَّا الْأُمَرَاءُ
لَيْتَ إِذْ لَمْ يُحْسِنُوا فِي الدِّ (م)	يَنْ ظَنًّا مَا أَسَاؤُوا
فَعَلَى اصْطِرْلَابٍ بَطْلِي	مُوسٍ وَالزَّيْجِ الْعَفَاءُ
وَعَلَيْهِ الْخِزْيُ مَا جَا	دَتْ عَلَى الْأَرْضِ السَّمَاءُ

ولم يذكر شعر سبط [ابن]^(٢) التَّعَاوِيزِي^(٣).

(١) «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» للقفطي: ص ٢٧٨ - ٢٧٩، طبعة الخانجي، ٤٢٧ - ٤٢٨ طبعة ليبسك.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) أبيات سبط ابن التعاويذي، هي:

قالوا القرآن وطوفانُ الهواء له بالشر عن كتبٍ في الأرض طغيان

قال: وفي السَّابع والعشرين من سُؤال توفي أبو محمد عبد الله^(١) بن برِّي بن عبد الجبار التَّحوي، وكان آيةً في النحو، ثقةً عالماً صالحاً، وكان مُبلِّداً في أمر دينه^(٢)، حدَّث عن ابن الحطَّاب^(٣)، ومرشد أبي صادق^(٤) وغيرهما^(٥).

= أما لهم فيه برهان وطائرُك الـ
وكيف تسطو الليالي أو يكون لها
وأنت في كل علوي له أثرٌ
سعادة لو أحاط الخازمي بها
ميمون فيه لدفع الشر برهان
في عصر مثلك إرهاب وعُدوانٌ
مؤثِّرٌ وعلى الطوفان طوفان
لعاد فيما ادعاه وهو خزيانٌ
والقصيدة طويلة، وهي في مدح صلاح الدين، مطلعها:
سقاك سار من الوسمي هتان ولا رقت للغواذي فيك أجفانٌ
انظر «ديوانه» ٤١٢ - ٤١٦.

(١) في الأصل: أبو عبد الله محمد بن بري، والمثبت من (ك).
(٢) في «إنباه الرواة»: ١١١/٢ «وكان يُنسب إلى الغفلة في غير العلوم العربية، حتى ما يقوم بمصالح نفسه، ويحكى عنه حكايات في التغفل أجله عنها وعن ذكر شيء منها».

وفي «طبقات الشافعية» للسبكي: ١٢٣/٧ نقلاً عن الموفق عبد اللطيف البغدادي: «كان ابن بري شيخاً محققاً صحفياً، ساذج الطباع، أبله في أمور الدنيا».
(٣) في الأصل: الخطاب - بالخاء المعجمة - وهو تصنيف، والمثبت من (ك)، وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازي، لم يكن في وقته من يدانيه في علو الإسناد، توفي سنة (٥٢٥ هـ)، انظر ترجمته في «السير»: ٥٨٣/١٩ - ٥٨٤.
(٤) في الأصل و(ك): مرشد بن صادق، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه، وهو مرشد بن يحيى بن القاسم المدني المصري، أبو صادق، توفي سنة (٥١٧ هـ)، انظر ترجمته في «السير»: ٤٧٥/١٩ - ٤٧٦.

(٥) انظر ترجمة ابن بري في «معجم الأدباء»: ٥٦/١٢ - ٥٧، «إنباه الرواة»: ٣١٨/٢، و«التكملة» للمنذري: ٥٨/١ - ٦٠، «وفيات الأعيان»: ١٠٨/٣ - ١٠٩، «إشارة التعيين»: ١٦١، «سير أعلام النبلاء»: ١٣٦/٢١ - ١٣٧، «الوافي بالوفيات»: ٨٠/١٧ - ٨٣، «طبقات الشافعية» للسبكي ١٢١/٧ - ١٢٣، «بغية الوعاة»: ٣٤/٢.

قال العماد: وفي هذه السنة جاء نعي أتابك شمس الدين محمد بن أتابك الدكر^(١) المعروف بالبهلوان^(٢)، وهو الذي كان نَزَلَ على خِلاط* في العام الماضي، وكانت حياته متصلة الجدِّ والجَدَا^(٣)، واضطربت من بعده تلك الممالك، واحتربت أصفهان، وإلى اليوم من سنة أربع وتسعين ما وضعت أوزارها، وتولَّى بعده أخوه قزل أرسلان، فأزال مهابة الملك السَّلجُقي، وسلك السعيد نهج الشَّقِي^(٤) إلى أن ذهب، فاتَّضَعَ المُلك، وانقطع السِّلْك، واتسع الهُلُك، وطمعت خراسان في العراق، وعدمت الإفاقة من الآفاق، وأظلمت مطالع الإِشراق^(٥).

قال: واشتغل السُّلطان في بقية سنة اثنتين وثمانين بدمشق بالصَّيْد والقَنَص، والانتهاز فيه لبوادر الفُرَص، وكان يركب إلى تل راهط* للصَّيْد بالبُرْاة والشَّواهين، مع مماليكه الخواصِّ الميامين، وله شاهين بحري كأنه بحر، إذا حَلَقَ فَشَرَّار، وإن أحرَقَ فجمر، فكم صاد ليوسف يعقوباً^(٦)، وعَقَرَ بإنجاز وعد صيده عُرْقُوباً، فطلبته من السُّلطان، فقال: أنت للقلم والدَّواوين، فما لك وللْبُرْاة والشَّواهين! فقلت: يكون في مُلكي، وكل ما يَقْنِصُهُ يأمر لي

(١) في (ب) ايلدكز، وكلاهما صحيح.

(٢) كان صاحب الجبل والري وأصفهان وأذربيجان وغيرها، ولي سنة (٥٦٨ هـ)، وأخباره مبثوثة في كتب التاريخ، انظر «الكامل» لابن الأثير: ٣٨٨/١١، ٥٢٥ - ٥٢٦، و«وفيات الأعيان»: ٢٠٨/٥، و«معجم الأنساب» لزمايور: ٣٤٩، و«الدول الإسلامية» لستانلي لين بول: ٣٦٥ - ٣٦٦، وانظر ص ٥١، ٢٣٧ - ٢٣٨ من هذا الجزء.

(٣) الجدا: العطية. «اللسان» (جدا).

(٤) في الأصل: ونهج السعيد سلك الشقي، والمثبت من (ك) و(ب).

(٥) «سنا البرق»: ٢٨٣ - ٢٨٤.

(٦) يعقوب: ذكر الحجل والقطا. «معجم متن اللغة» ١٥٧/٤.

به المولى، وهذا أريح لي وأنفع وأولى. فقال: نعم. فلما أصبح سِرَّ لي سبع عشرة قطعة من طَيْرٍ وَحَجَلٍ، وقال: هذا صيدُ شاهينك في طَلْقٍ واحد على عَجَلٍ. فملكْتُ ذلك الشَّاهين خمسَ ستِّ سنين، والسُّلطان يصطادُ به ولي قَنْصُهُ، له مطلعُه ولي مخلصه، فما زال لي على هذا الحقِّ محافظاً، ولهذه التُّكْتة ملاحظاً، إلى أن أودى الجارح، وانقطعت تلك المنايح، فبالله دَرَّه من سُلطانٍ لم ينس ذكر هذه القضية التي أعاد مَرْحُها جدّاً، واعتدَّه لي حقاً مُعَدّاً، فدون حَقَّه على مثله أن يُؤسَفَ، ومن حَقَّنَا بعده أن نتلو ﴿يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ﴾^(١).

قال: ولما دخل شهر رمضان نوَّعَ أقسام الإنعام، واتفق أن بعض الثُّجَّار كانت بضاعته بَقاير^(٢) رقيقة، وما لها نَفَاق، وهي أكثر من مئة قطعة، فحملها إلى الخزانة السُّلْطانية في بضاعات، وقال: خذوها واكتبوا لي بأثمانها في مِصْرٍ على بعض الجهات^(٣). فاشْتَرَيْتُ منه بما كان يرجوه من الرِّبْح. وكان من كرم شَيْمِ السُّلْطان إذا عرف في خزانته موجوداً، أنَّه لا يستطيع تلك الليلة حتى يفرقه جُوداً. فقال لي: قد اجتمعت لنا بَقاير وعمائم، وقد تقاضتني^(٤) بخلعها على أهل الفضل المكارم، فنبداً بأهل الدِّين والتقوى، ونجعل لهم أوفر حَظٍّ من الجَدْوَى^(٥). وكان في الوافدين ومن أهل البلد وعَاطَ، وعلماء وحُفَاط، فيكون كل يوم بكرة نوبةً لمن يتكلَّم

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٤، وانظر «سنا البرق»: ٢٨٦.

(٢) لعل مفردها بَقْيَار: وهي ضرب من العمائم الكبيرة، يعتمرها الوزراء والكتاب والقضاة. انظر «تكملة المعاجم العربية» ٤٠٧/١، و«المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب»: ص ٧٤، وكلاهما لدوزي.

(٣) في الأصل: على مصر في بعض الجهات، والمثبت من (ك) و(ب).

(٤) في «سنا البرق»: تقاضتني نفسي.

(٥) الجدوى: العطية. «اللسان» (جدا).

على المنبر، ويُذَكِّرنا بالحلال والحرام، والبُعْثُ والمَحْشَرُ، ثم يخلع عليهم وعلى القُرَّاء. فاشتغل مُدَّة أسبوعين بالمواعظ، ووضع المنبر في إيوان القلعة، فقلت: بقي إحصاء الفقهاء في المُدَّة الباقية من الشهر، فقال: إنهم يفضي^(١) بهم الخلاف إلى التشاحن والتَّضَاغُن. فقلت: أنا أضمنهم ولا يحضر إلا أوقرهم وأوزنهم^(٢). فاستدلَّ أول يوم برهان الدين مسعود^(٣) مدرس الحنفية في المدرسة المعمورة الثَّورِيَّة*، واعترض عليه العماد الكاتب، وفي اليوم الثاني استدلَّ أكبر مشايخ الحنفية بدر الدين عسكر^(٤)، واعترض عليه قاضي القضاة محيي الدين بن الزكي، فكان السُّلطان يجلس في كل يوم لطائفة، فلما دنا العيد أمر بابتياح العمائم وغيرها، وصرفها إليهم^(٥).

قال القاضي ابن شَدَّاد: وفي شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وثمانين وقعت وقعاتٌ كثيرةٌ بين التركمان والأكراد بأرض نصيبين* وغيرها، وقُتِلَ من الفُتَّين خَلْقٌ عَظِيمٌ. وبلغ السُّلطان أن معين الدين بن معين الدين قد عصى بالراءِؤندان*، فكتب إلى عسكر حلب أن حاصروه. وكان نزولهم عليه في العَشر الأول من^(٦) سنة اثنتين وثمانين، وأعطى برج الرِّصاص لتميرك^(٧) في

(١) في الأصل: يمضي، والمثبت من (ك).

(٢) في (ك) وأنبهم.

(٣) هو مسعود بن شجاع الحنفي، ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٥٩٩ هـ).

(٤) هو عسكر بن خليفة الحموي، أبو الجيوش، كان رئيس الحنفية بدمشق ومن خيارهم. ستاتي ترجمته في ٤٦٩/٤ من هذا الكتاب.

(٥) انظر «سنا البرق»: ٢٨٦ — ٢٨٧.

(٦) في الأصل بياض، ولم يذكر الشهر أيضاً في مطبوع «النوادر».

(٧) هو حسام الدين تميرك، انظر ص ٣٩١ من الجزء الثاني.

بقية ذلك الشهر، وفي ثامن جمادى الأولى وصل معين الدين من الراوندان، وقد سلمها إلى علم الدين سليمان، ثم مضى إلى خدمة السلطان^(١).

قال ابن القادسي: وقدم الحاج في عاشر صفر، فأخبروا أن سيف الإسلام أخا صلاح الدين ملك مكة، وضرب الدنانير فيها باسم أخيه، ومنع من قولهم «حي على خير العمل»، وشرط على العبيد أن لا يؤذوا الحاج. وأخبر الحاج أن قفل باب الكعبة تعسر حتى فتح، ولما فتح مات في الدوسة أربعة وثلاثون شخصاً من بين رجل وامرأة.

قال: ووصل الخبر أن ريعاً هبت بالبصرة، فكسرت نخيلاً كثيراً، وماتت بهائم كثيرة، ووصل الخبر إلى بغداد بقتل البهلوان، وأن القتال وقع هناك، وأحرقت المحال ونُهبت الأموال، واقتتل أهل المذاهب، واحترقت مدارس، وبقي الأمر على ذلك من سابع محرم إلى ربيع الآخر، فأحصوا من القتل أربعة آلاف رجل وسبع عشرة امرأة، بعد أن احترق أطفال في اليهود بالليل، وقام قزل أخو البهلوان فكف الناس، وكان قزل قد رتب شحنة* في أصفهان بعد الفتنة التي وقعت بها ومعه ألف فارس، فما زال يهذب البلد والرساتيق بالقتل والصَّلب، وصادرهم، وأشير على قزل بأن يلزم أهل البلد سبعين ألف دينار، فقال له الشحنة: أهل البلد فقراء. فقال بعض المصالحة لقزل: ما نأخذ إلا من الأغنياء. فوثب عيار فقتل المصلحي، وكان العيار متعلقاً على قاضي البلد، فوكل الشحنة بدار القاضي، فجاء ابن الخجندى إلى دار القاضي، فحسن له إخراج الموكلين بها، وتحالفا على إخراج الشحنة من البلد، وأن يقطعوا خطبة السلطان الذي نصبه^(٢) قزل. ففعل ذلك

(١) انظر «النوادر السلطانية»: ٧١.

(٢) في الأصل: نصب، والمثبت من (ك) و(ب).

في سابع سؤال، ثم كَثُرَ القَتْلُ في البلد، فكل من في قلبه على أحد شر وَثَبَ عليه، فقتله مِنْ رجلٍ أو امرأة، وكان القَتْلُ الكثير في أصحاب ابن الخُجَنْدي، وكان الحريق والنهب وإحراق الدُّور في أصحاب القاضي، وجرى القتال يوم عَرَفة ويوم العيد، ودام، وبطل الناس من المعاش، وَخَرِبَتِ الأسواق، ووقع الغلاء، ومات النَّاسُ من الجوع، وبقي أهل أصفهان على قدم الخَوْفِ، وأخذت ثياب الناس، فلا يتجاسر أحد أن يلبس ثوباً جديداً، والعيَّارون يأخذون أموال الناس مقاواة، وهرب النَّاسُ من أصفهان.

فَصْلٌ

قال العماد: مما قَدَّرَه الله تعالى من أسباب نُصْرَةِ الإسلام وَوَهْنِ الكُفْرِ أن قومص طرابلس^(١) رغب في مصافاة السُّلْطَانِ، والالتجاء إليه، والمساعدة له على أهل مِلَّتِهِ، بسبب أنه كان تزوَّج بالقومصية صاحبة طبرية^(٢)، وكان أخوها الملك المجذوم^(٣) لما هلك أوصى بالْمُلْكِ لابن أخته^(٤) هذه وهو صغير، فتزوَّج القومص أمّه^(٥) وربَّاه، فمات الصَّغير، وانتقل الْمُلْكُ إلى

(١) هو ريموند الثالث. انظره في كشف الأعلام.

(٢) هي ايشيفا بورز، وهي التي تزوجها ريموند الثالث، وهذه ليست بأخت الملك بلدوين الرابع، إذ إن أخته هي سيلا، وهي التي تولت المملكة. ويبدو أن العماد لم يكن على اطلاع دقيق على أحوال الفرنجة، لما سيأتي في الخبر أيضاً من مغالطات. انظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيان: ٦٥٢/٢.

(٣) هو بلدوين الرابع، انظره في كشف الأعلام.

(٤) هو بلدوين الخامس ابن سيلا، وكان طفلاً في السادسة من عمره. انظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيان: ٧١٠/٢، ٧٢١.

(٥) لم يتزوج القومص من سيلا أم بلدوين الخامس، بل الذي تزوجها هو جاي =

أمه. ثم إنها مدّت عينها إلى بعض المقدمين من الغرب فتزوّجته^(١)، وفوضت الملك إليه، فشرّع يطلب حساب البلاد من القومص، فوقع الاختلاف بينهم لذلك^(٢)، فالتجأ القومص إلى ظل السلطان، فصار له من جُملة الأتباع، فقبله السلطان وقوّاه، وشدّ عَضُدَه بإطلاق من كان في الأسر من أصحابه، فقويت مناصحته للمسلمين، حتى كاد لولا خوف أهل ملّته يُسلم، وصار بدولة السلطان وملكه يُقسم، ومال إليه من الفرنج جماعةً، وظهرت له منهم للطماعية طاعة، ودخلت إلى بلادهم من جانبه السرايا، وخرجت بالغنائم والسبايا، وأعطى الدّنيّة في دينه بما استداناه من العطايا، فصار الفرنج يدفعون شرّه، ويحذرون مكره، فتارةً يدارونه، وآونةً يمارونه، وللقومص قومٌ صِدْقٍ يساعدونه في كلِّ حق وباطل، فبُليّ منهم أهل السّاحل بشغل شاغل، وهذا الملك المجذوم هو ابن الملك أماري بن فُلك^(٣)، وهو مُرّي* الذي تقدّم ذكره^(٤)، وتوفي أماري في آخر سنة تسع وستين، سنة مات نور الدين، رحمه الله تعالى، وخلف الملعون هذا الولد المجذوم، فبقي

= لوزنجيان - الملك فيما بعد - وحين مات ابنها من زوجها الأول وليم وكان في التاسعة من عمره، أصبحت ملكة، ففوضت أمر مملكتها لزوجها جاي لوزنجيان. أما ريموند فكان وصياً على بلدوين الخامس، عهد إليه بذلك بلدوين الرابع الملك المجذوم، انظر «تاريخ الحروب الصليبية»: ٦٦٣/٢، ٧١٦، ٧٢١.

(١) تزوجت سيبلا أخت بلدوين الرابع من جاي لوزنجيان قبل اعتلائها عرش مملكة بيت المقدس. انظر «تاريخ الحروب الصليبية» ٦٨٤/٢ - ٦٨٥.

(٢) وقع نزاع شديد بين ريموند الثالث الوصي على العرش، وبين جاي لوزنجيان الملك الجديد لبيت المقدس، وكان ريموند يرى نفسه أحقّ بولاية العرش منه. انظر «تاريخ الحروب الصليبية»: ٧٢١/٢ - ٧٢٦.

(٣) هو أمريك الأول بن فولك انجو. انظره في كشاف الأعلام.

(٤) انظر ص ٦٢ من الجزء الثاني.

بينهم زهاء عشر سنين ملكاً مطاعاً، فلما حضره الموت أوصى لابن أخته بالملك^(١).

قال: وكان إبرنس* الكرك* أزنابط* أغدر الفرنجية وأخبثها، وأفحصها عن الردى والرداءة وأبحثها، وأنقضها للموائيق المحكّمة، والأيمان المبرّمة وأنكثها وأحنثها، ومعه شِرْذِمَةٌ لها شِرٌّ ذِمَّةٌ، وهي من شَرِّ أمة، [وهم]^(٢) على طريق الحجاز، ومن نهج الحج على المجاز، وكُنَّا في كلِّ سنةٍ نغزوه، وبالبوائق نعروه، ويصيبُه منَّا المكروه، فأظهر أنه على الهدنة، وجنحَ للسُّلَم، وأخذ الأمان لبلده وأهله وقومه وروحه، وبقي الأمن له شاملاً، والقفل من مِصر في طريق بلده متواصلاً، وهو يمكس الجائي والذاهب، حتى لاحت له فرصةٌ في الغدر، ففَقَعَ الطَّرِيق، وأخاف السَّبِيل، ووقع في قافلةٍ ثقيلة، معها نَعَمٌ جلييلة، فأخذها بأسرها، وكان معها جماعة من الأجناد، فأوقعهم في الشَّرْكَ، وحملهم إلى الكرك*، وأخذ خَيْلَهُم والعُدَّة، وسامهم الشَّدَّ والشَّدَّة، فأرسلنا إليه، وذمّنا فِعْالَه، وقبحنا احتياله واغتياله، فأبى إلا الإضرار والإضرار، فنذر السُّلْطَانُ دمه، ووفى في إراقة دمه بما التزمه، وذلك في السَّنَةِ الْآتِيَةِ كما سيأتي إن شاء الله تعالى^(٣) — وأقام السُّلْطَانُ بدمشق بقية هذه السنة، وهو في الاستعداد للجهاد، وقد أرسل في طلب العساكر من البلاد المشرقية والمِصْرِيَّة، فانتظمت أموره على أحسن قضيّة^(٤).

(١) انظر «سنا البرق»: ٢٨٨ — ٢٨٩.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٣) انظر ص ٢٨٨ — ٢٨٩ من هذا الجزء.

(٤) انظر «سنا البرق»: ٢٨٩ — ٢٩٠.

ومن كتابِ فاضلي إلى بعض إخوانه: كتبتُ هذه المكاتبة من جسر الخشب ظاهر دمشق، وقد ورد السلطان - أعزَّ الله أنصاره - للغزاة إلى بلاد الكُفر، في عسكرٍ فيه عساكر، وفي جمع البادي فيه كأنه حاضر، وفي حشدٍ يتجاوز أن يحصِّله الناظر، إلى أن لا يُحصِّله الخاطر، وقد نهضت به همَّة لا يُرجى غير الله لإنهاضها، ونجحت به عزيمة، اللّهُ المسؤول في حَسْم عوارض اعتراضها، وباع اللّهُ نفساً يستمتع أهلُ الإسلام بهيئتها، ويذهبُ اللّهُ الشُّركَ بهيئتها، وأرجو أن يتمخَّض عن زُبدةٍ تستريح الأيدي بعدها عن المنخض، وأن يكون الله قد بعث سَفْتَجَةً^(١) نُصرة الإسلام، وسلطانهُ قد نهضَ للقبْض.

ثم دخلت سنة ثلاثٍ وثمانين [وخمسة مئة]^(٢)

وهي سنة كَسْرَةِ حِطِّين، وفَتْحِ السَّاحِل والأرض المقدَّسة للمسلمين.

قال العماد في كتاب «البرق»: وهي السنة الحسنة المُحسنة، والزَّمان الذي تقصَّتْ على انتظار إحسانه الأزمنة، وطُهرَ فيه المكان المقدَّس الذي سَلِمَتْ بسلامته الأمكنة، وخَلَصَتْ بمنحة الله من المحنة الأرضُ المقدَّسة الممتحنة، وكَفَى الله شرَّ الشُّرك، وحكم على دماء الكفرة بالسَّفْك، ونُصِرَتِ الدَّولة النَّاصرية، وخُذِلَت المِلَّة النَّصْرانية، وانتقم التَّوحيد من التَّثْلِيث، وشاع في الدُّنيا بمحاسنِ الأيام الصَّلاحية حُسْنُ الأحاديث^(٣).

(١) السفتجة: فارسية معربة، وهي الحوالة. انظر «معجم متن اللغة»: ١٥٩/٣ - ١٦٠.

(٢) فوقها في الأصل بخط مغاير: كان أولها رابع عشر آذار. وما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٣) في الأصل: الحديث، والمثبت من (ك) و(ب)، و«سنا البرق»: ٢٩١.

ثم ذكر في كتابي «الفتح» و «البرق» ما جملته أن قال: فبرز السُلطان من دمشق يوم السَّبَّت أول المحَرَّم في العسكر العَرَمَرَم، ومضى بأهل الجَنَّة لجهاد أهل جَهَنَّم، فلما وصل إلى رأس الماء، أمر ولده الملك^(١) الأفضل بالإقامة هناك، ليستدني إليه الأمراء الواصلين والأملاك، ويجمع الأعراب^(٢) والأعاجم والأتراك، وسار السُلطانُ إلى بُضْرَى*، وخيَّم على قَصْرِ السَّلَامَةِ، وأقام على ارتقاب اقتراب الحُجَّاج، وكان فيهم حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين، ووالدته أخت السُلطان مع جماعة من الخواص، وقد تقدَّم ذكر غَدْر إبرنس^(٣) الكَرَك*، وهو على طريقي العسكر المِضْرِي والحُجَّاج. ووصل الحاجُّ في آخر صفر، وخلا سِرُّ السُلطان من شُغلهم، ثم سار ونَزَلَ على الكَرَك، وأخاف أهله، وأخذ ما كان حوله، ورعى زَرْعهم، وقَطَعَ أشجارهم وكَرَمهم، ثم سار إلى الشَّوْبَك*، وفعل به مِثْلَ ذلك، ووصل عسكر مِضْر، فتلقَّاه بالقريتين، وفرَّقه على أعمال القلعتين، وأقام على هذه الحالة في ذلك الجانب شهرين، والملك الأفضل ولده مقيمٌ برأس الماء، في جَمْعٍ عظيم من العظماء، وعنده الجحافل الحافلة، والحواصل الحاصلة، والعساكر الكاسرة، والقساور القاسرة، وهو ينتظر أمراً من أبيه، ويكتب إليه ويقتضيه، وانقضى من السنة شهران، وطال بهم انتظارُ السُلطان، فأنهض منهم سَرِيَّةً سَرِيَّةً، وأمرها بالغارة على أعمال طَبَرِيَّة، ورَتَّب على خيل الجزيرة ومن جاء من الشَّرْق وديار بكر مظفر الدِّين كوكُبُرِي صاحب حَرَّان*، وعلى عسكر حلب والبلاد الشَّامِيَّة بدر الدين دُلْدُرْم بن ياروق، وعلى عسكر

(١) الملك، ليست في (ك) و(ب).

(٢) في الأصل: الأعراب. قلت: وصوابها الأعراب. انظر «اللسان» (عرب).

(٣) انظر ص ٢٧٤ من هذا الجزء.

دمشق وبلادها صارم الدين قايماز النّجمي، فساروا مدجّجين، وسروا
مُدْلَجِينَ، وَصَبَّحُوا صَفُورِيَّةً*، وساء صباحُ المُنْذَرِينَ، فخرج إليهم الفرنج
في حَشْدِهِمْ، فَاتَاهُمُ اللهُ النَصْرَ الهَنِي، وَالظَّفَرَ السَّيِّئَ، وَشَفَوْا مِنْهُمْ حَنِينَ
الْحَنَايَا، وَأَدْرَكُوا فِيهِمْ مُتَى الْمَنِيَا، وَفَازُوا وَظَفَرُوا، وَقَتَلُوا وَأَسْرَوْا، وَهَلَكَ
مُقَدَّمُ الْإِسْبَتَارِ*، وَحَصَلَ جَمَاعَةٌ مِنْ فُرْسَانِهِمْ فِي قَبْضَةِ الْإِسَارِ، وَأُفْلِتَ مُقَدَّمُ
الدَّأْوِيَةِ وَلَهُ حُصَااصٌ، وَوَقَعَ الْبَاقُونَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ الْهَلَاكِ خَلَاصٌ،
وَعَادُوا سَالِمِينَ سَالِبِينَ، غَانِمِينَ غَالِبِينَ، فَكَانَتْ هَذِهِ النُّوبَةُ بَاكُورَةَ الْبَرَكَاتِ،
وَمُقَدَّمَةً مَا بَعْدَهَا مِنْ مِيَامِنِ الْحَرَكَاتِ. وَجَاءَتْنَا الْبُشْرَى وَنَحْنُ فِي نَوَاحِي
الْكَرْكِ* وَالشَّوْبِكِ*، فَسَارَ السُّلْطَانُ، وَوَصَلَ السَّيْرَ بِالشَّرَى، وَخَيَّمَ بَعَثْتَرَا*،
وَالْقَدَرُ يَقُولُ لَهُ: تَعِيشُ وَتَرَى. وَقَدْ غُصَّتْ بِخَيْلِ اللهِ الْوَهَادُ وَالذَّرَى، وَامْتَدَّ
الْعَسْكَرُ فَرَاخَ عَرَضًا وَطُولًا، وَمَلَأَ بِالْمَلَأِ حُزُونًا وَسَهُولًا، وَمَا رَأَيْتُ عَسْكَرًا
أَبْرَكَ مِنْهُ وَلَا أَكْبَرَ، وَلَا أَكْرَثَ^(١) لِلْكَفْرِ وَلَا أَكْثَرَ، وَكَانَ يَوْمُ عَرْضِهِ مُذَكَّرًا
بِيَوْمِ الْعَرَضِ، وَمَا شَاهَدَهُ إِلَّا مِنْ تِلَا ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢)
وَعَرْضُ الْعَسْكَرِ فِي اثْنِي عَشَرَ أَلْفَ مَدَجَجٍ، فِي لَيْلِ الْعَجَاجِ مُدْلَجٍ، وَلَمَّا تَمَّ
الْعَرَضُ، وَحُمَّ الْفَرَضُ، وَسَالَتْ بِأَفْلَاكِ السَّمَاءِ الْأَرْضُ، وَتَعَيَّنَ الْجِهَادُ،
وَتَبَيَّنَ الْاجْتِهَادُ^(٣)، ثُمَّ رَتَّبَ السُّلْطَانُ الْعَسْكَرَ أَطْلَابًا*، وَحَزَبَهُ أَحْزَابًا، وَسَارَ
يَوْمَ الْجُمُعَةِ سَابِعَ عَشَرَ رُبْعَ الْآخِرِ، عَازِمًا عَلَى دُخُولِ السَّاحِلِ، فَأَنَاحَ لَيْلَةَ
السَّبْتِ عَلَى خِسْفَيْنِ*، ثُمَّ سَارَ فِي الْأَزْدُنِّ إِلَى ثَغْرِ الْأَقْحَوَانَةِ، وَأَقَامَ هُنَاكَ

(١) مِنْ كَرْتِهِ الْأَمْرَ وَأَكْرَثَهُ: سَاءَ وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، وَبَلَغَ مِنْهُ الْمَشَقَّةُ. وَغَمَهُ وَأَثْقَلَهُ. «اللسان»
(ك.ر.ث).

(٢) سُورَةُ الْفَتْحِ، الْآيَةُ: ٤.

(٣) فِي الْأَصْلِ: وَتَعَيَّنَ الْاجْتِهَادُ وَتَبَيَّنَ الْجِهَادُ، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (ك) وَ(ب).

خمسة أيام، وقد عَيَّن مواقف الأمراء وشِعارهم، وأحاط ببحيرة طبرية بحره المحيط، وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط.

ولما سمع الفرنجُ باجتماع كلمة الإسلام عليهم، وسَير تلك العساكر إليهم، علموا أنه^(١) قد جاءهم ما لا عَهْدَ لهم بمثله، وأن الإيمان كلُّه قد برز إلى الشُّرك كلُّه، فاجتمعوا واصطلحوا وحشدوا وجمعوا وانتخوا، ودخل القومص* معهم^(٢) بعد أن دخل عليه الملك، ورمى بنفسه عليه، وصقُّوا راياتهم بصقُورية، ولووا الألوية، وحشدوا الفارس والرجال، والرَّامح والتَّابل، ورفعوا صليب الصَّلْبوت، فاجتمع إليه عُبَّاد الطاغوت، وضُلال النَّاسوت واللاهوت، ونادوا في نوادي أهل أقاليم أهل الأقاليم، وصَلَّبوا للصَّليب الأعظم بالتعظيم، وما عصاهم من له عصا، وخرجوا عن العَدَّة^(٣) والإحصا، وكانوا عَدَدَ الحَصَى، وصاروا في زُهاء خمسين ألفاً ويزيدون، ويكيدون ما يكيدون، قد توافوا على صعيد^(٤)، ووافوا من قريب وبعيد، وهم هناك مقيمون لا يريمون، والسُّلطان في كلِّ صباح يسير إليهم، ويُسْرِفُ عليهم ويراميهم، وينكي فيهم، ويتعرَّض لهم ليتعرَّضوا له، ويردُّوا عن رقابهم سيوفه، وعن شعابهم سيوله، فربضوا وما نبضوا، وقَعَدُوا وما نهضوا، فلو برَّزوا للمصافِّ لطالت عليهم يدُ الانتصاف. فلما رأى السلطان أنَّهم لا يَبْرَحُونَ، ومن قُرْب صقُورية لا يَنْزَحُونَ، أمر أمراءه أن يقيموا في مقابلتهم، ويدوموا على عَزْمِ مقاتلتهم، ونزل هو في خواصِّه العَبَسِيَّة على

(١) في الأصل: أنهم، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) انظر ص ٢٧٢ من هذا الجزء.

(٣) في الأصل: العدد، والمثبت من (ك) و(ب).

(٤) في (ك) على صعيد واحد.

مدينة طبرية، وعلم أنهم إذا علموا بنزوله عليها بادروا للوصول إليها،
فحينئذ يتمكن من قتالهم، ويجهد في استئصالهم، ثم أحضر الجاندارية*
والتقابين، والخراسانية والحجّارين، وأطاف بسورها، وشرع في تخريب
معمورها، وأخذ النقابون النقب في بُرْجٍ فهذّوه وهدموه، وتسَلَّقوا فيه
وتسلّموه، ودخل الليل وصباح الفَتَح مُسْفَر، وليل الوَيْل على العدوِّ معتكِر،
وامتنعت القلعةُ بمن فيها، من القومِصية [صاحبة طبرية]^(١) وبنيتها.

ولما سمع القومُص بفتح طبرية وأخذ بلده، سَقَطَ في يده، وخرج عن
جلد جَلَدَه، وسمح للفرنج بسَبْدِهِ وَلَبْدِهِ^(٢)، وقال لهم: لا تعودَ بعد اليوم،
ولا بُدُّ لنا من لقاء القَوْم، وإذا أخذت طبرية أخذت البلاد، وذَهَبَت الطراف
والتلاد، وما بقي لي صبر، وما بعد هذا الكَسْر من جَبْر^(٣). وكان الملك قد
حالفه فما خالفه، ووافقه فما نافقه، ورحل بجمعه وأتباعه وشياطينه
وأشياعه، فمادت الأرضُ بحركته، وغامت السماءُ من غَبَرته، ووصل الخبر
بأن الفرنج ركبوا ووثبوا، ففرح السُلطان، وقال: جاءنا ما نريد، ونحن أولوا
بأس شديد، وإذا صَحَّتْ كسرتهم فطبرية وجميع السّاحل ما دونه مانع،
ولا عن فَتَحِه وازع.

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٤٩ من الجزء الثاني.

(٣) ذكرت المصادر الغربية أن رأي ريموند كان في إبقاء الجيش الصليبي في صفورية
حيث يعسكر، وأنه كان يؤثر أن تضع طبرية بكل ماتحويه على أن تضع المملكة،
وذكر أن الجيش الذي يهاجم في حرارة الصيف اللافة لن يكون النصر حليفه.
ولكن الصليبيين لم يلتفتوا إلى رأيه لما كان له من علاقة سابقة بالمسلمين. انظر
«تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٧٣٥/٢.

واستخار الله تعالى وسار، وعَدِمَ القرار، وذلك يوم الخميس ثالث
عشري ربيع الآخر، والفرنج سائرون إلى طبرية بقضهم وقضيضهم، وهم
كالجبال السائرة، والبحار الزآخرة، أمواجها ملتطمة، وأفواجها مُزْدَحمة،
فرتب السُلطان في مقابلتهم أطلابه*، وحصل بعسكره قُدَّامهم، وحجز بينهم
وبين الماء، واليوم قيظ، وللقوم غيظ، وحجز الليل بين الفريقين، وحجرت
الخيل على الطَّريقين، وهيئت دركات النيران، وهنت درجأت الجنان،
وانتظر مالك واستبشر رِضوان، فهي ليلة القَدَر خَيْرٌ من ألف شهر، تنزل فيها
الملائكة والروح، وفي سحرها نُشِرَ الظَّفَر يفوح، وفي صباحها الفُتوح، فما
أبهجنا بتلك الليلة الفاخرة، فقد كُنَّا ممن قال الله تعالى [فيهم]^(١)
﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ نَوَافِلَهُمْ وَالْحَسَنَ نَوَافِلَهُمْ وَالْحُسْنَ نَوَافِلَهُمْ﴾^(٢) وبتنا والجنَّة معروضة،
والسُنَّة مفروضة، والكوثر واقفة سُقَاتُهُ، والخُلْد قاطفة جُنَاتِهِ، والسَّلْسِيل
واضح سبيلُهُ، والاقبال ظاهر قَبِيلُهُ، والظُّهُور قائم دليلُهُ، والله ناصرُ الإسلام
ومدِيلُهُ.

وسَهَرَ السُلطان تلك الليلة حتى عَيَّنَ الجاليشية* من كلِّ طلب*، وملا
جِعَابُهَا وكنائنها بالنِّبال، وكان ما فَرَّقَهُ من النُّشَاب أربع مئة حِمْل، ووقف
سبعين جَمَازة^(٣) في حومة الوغى، يأخذ منها من خَلَّتْ جِعَابُهُ، وفَرَّغَ نُشَابُهُ،
حتى إذا أسفر الصباح خرج الجاليشية* تحرق بنيران النُّصال أهل النَّار،
ورنَّتِ القِسي وعَنَّتِ الأوتار، ذاك، واليوم ذاك، والجيش شاك، وللقِيظ
عليهم فيض، وما للغِيظ منهم غِيض، وقد وَقَدَ الحرَّ، واستَشْرَى الشَّرَّ، ووقع

٧٧/٢

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٨.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ١٤٦ من هذا الجزء.

الكرُّ والفَرْ، والسَّرَابُ طافح، والظَّمأُ لافح، والجؤُ محرق، والجوى مقلق،
ولأولئك الكلاب من اللهب لَهَث، وبالغيث عبث، وفي ظَنِّهم أنهم يَرِدُّون
الماء، فاستَقْبَلَتْهُم جَهَنَّمُ بشارها، واستظْهَرت عليهم الظَّهيرة بنارها، وذلك
في يوم الجمعة، بجموع أهلها المجتمعة، ووراء عسكرنا بحيرة طبرية،
والوَرْدُ عِدَّةٌ^(١) وما منه بُعْد. وقد قطعت على الفرنج طريق الورود^(٢) وبلوا من
العَطَشِ بالنَّارِ ذات الوقود، فوقفوا صابرين مصابرين، مكابرين مضابرين^(٣)،
فَكَلَبُوا على ضَرَاوتهم، وشَرَبُوا ما في إداوتهم، وشَفَّهُوا ما حولهم من موارد
المصانع، واستنزفوا حتى ماء المدامع، وأشرفوا على المصير إلى المصارع،
ودخل الليل وسكن السَّيْلُ، وباتوا حيارى، ومن العطش سُكَارَى، وهم على
شَعَفِ^(٤) البُحيرة بِحَيْرَة، وقَوَّوا أَنفُسهم على الشَّدَّة، واستعدُّوا بالعَزَائِمِ
المحتدَّة، وقالوا: غدا نُصَبُّ عليهم ماء المواضي، ونقاضيهم إلى القواضب
القواضي، فأَحْدَوْا^(٥) عَزَمَ البلاء، وطلبوا البقاء بالتورُّط في الفناء.

وأما عسكرنا فإنها اجترأت، ومن كلِّ ما يعوقُّها برئت، فهذا لسانه
شاحذ، وهذا لعنانه آخذ، وهذا سهم مفوق، وهذا سهم موفق، وهذا مكث
للتكبير، ومنتظر للتكبير، وهذا ناج للسَّعادة، وهذا راج للشَّهادة، فيا الله تلك
من ليلة حُرَّاسها الملائكة، ومن سُحرة أنفاسها ألطاف الله المتدركة،

(١) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٢١٧ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: الورود، والمثبت من (ك) و(ب).

(٣) الضبر: الشديد. «اللسان» (ضبر).

(٤) شعفة كل شيء: أعلاه. «اللسان» (شعف).

(٥) في الأصل و(ب) فأجدوا، والمثبت من (ك).

وَالسُّلْطَانُ - رحمه الله - قد وَثِقَ بنصر الله، فهو يمضي بنفسه على الصُّفوف، ويحضُّهم وَيَعِدُّهم من الله بنصره المألوف، ويغري المئين بالألوف، وهم بمشاهدته إياهم يُجِنُّون ويَجِدُّون، ويصدُّون العدو ويردُّون. وكان للسلطان مملوك اسمه منكورس، حمل في أول النَّاس، وكان حصانهُ قويَّ الرَّاس، فأبعد عن إخوانه، ولم يتابعه أحدٌ من أقرانه، فانفرد به الفرنج، فَأَثَبَتْ في مستنقع الموت رِجْلَهُ، وقاتل إلى أن بلغوا قتله، فلما أخذوا رأسه ظنُّوا أنه أحد أولاد السُّلْطَان، وانتقل الشهيد إلى جوار الرحمن. ولما شاهد المسلمون استشهاده، وجلَّده وجلَّاده، حميت^(١) حميتهم، وخلَصَتْ لله نيتهم، وأصبح الجيش على تعبته، والنَّصر على تليته، وذلك يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر^(٢)، وهو يوم النَّصْرَة، ووقوع الكسرة، وبرَّحَ بالفرنج العَطَشُ، وأبَت عثرُها تنتعش، وكان النسيم من أمامها، والحشيشُ تحت أقدامها، فرمى بعضُ مطوعة المجاهدين النَّارَ في الحشيش، فتأجَّجَ عليهم استعارُها، وتوهَّج أوارها، فبُلُّوا - وهم أهل التَّليث - من الدنيا بثلاثة الأقسام في الاصطلاء والاصطلام، نار الضرام، ونار الأوام، ونار السَّهام، فرجا الفرنج فرجاً، وطلب طلبهم* المُخْرَجَ مَخْرَجاً، فكلما خرجوا جُرحوا، وبرَّحَ بهم حَرُّ الحرب فما يرحوا، وهم ظمءاء، وما لهم [ماء]^(٣) سوى ما بأيديهم من ماء الفِرْنْد ماء، فشوتهم نارُ السَّهام وأشوتهم، وصمَّمت عليهم قلوب القسي القاسية وأصمَّتْهم، وأعجزوا وأزعجوا، وأخرجوا وأخرجوا، وكلما حملوا رُدُّوا وأرذُّوا، وكلما ساروا وشدُّوا أسروا

(١) في الأصل: وحميت، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) في هامش الأصل بخط مغاير: ووافق ذلك بالعشر الأول من تموز.

(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

وَشُدُّوا، وما دَبَّتْ منهم^(١) نملة، ولا ذَبَّتْ عنهم حَمَلَةٌ، واضطرموا واضطربوا، والتهفوا والتهبوا، وناشبههم الشَّابُّ فعادت أسودُّهُمْ قنَافذ، وضايقتهم السَّهام فوسعت فيهم الخَرْقُ النَّافذ، فأَوا إلى جبلِ حِطِّين يعصمهم من طوفان الدَّمار، فأحاطت بحطِّين بوارق البَوار، ورشقتهم الطُّيى، وقرشتهم على الرُّبى، ورشقتهم الحنايا، وقشرتهم المنايا، وقرشتهم البلايا، ورقشتهم الرِّزايا.

ولما أحسَّ القومُص بالكسرة، حَسَرَ عن ذراع الحسرة، واقتالَ من العزيمة، واحتال في الهزيمة، وكان ذلك قبل اضطراب الجَمْع، واضطرام الجَمْر، فخرج بطلبه يطلبُ الخروج، واعوجَّ إلى الوادي وما ودَّ أن يعوج، ومضى كومض البرق، ووسع حُطَى خَرْقه قبل اتساع الخَرْق، وأُفلت في عِدَّة معدودة، ولم يلتفت إلى رَدَّة مردودة، وكان قال لأصحابه: أنا أسبق بالحَمَلَة، وأفصلُهُم من الجُمْلَة. فاجتمع هو ومؤازروه، وجماعةٌ من المقَدِّمين [هم]^(٢) مضافوه^(٣)، وصَحِبَه صاحب صيدا، وباليان بن بارزان، وتأمروا على أنهم يحملون ويبلغون الطعان. فحمل القومُص ومن معه على الجانب الذي فيه الملك المُظفَّر تقي الدين، وهو مُؤَيَّدٌ من الله بالتوفيق والتمكين، ففتح لهم طريقاً، ورمى من أتباعهم فريقاً، فمضوا على رؤوسهم، ونجوا بنفوسهم. ولما عرف الفرنج أن القومُص أخذ بالعزيمة، ونفذ في الهزيمة، وهَنُوا وهانُوا، ثم اشتدُّوا وما لانُوا، وَثَبُّوا على ما كانوا، واستقبلوا واستقبلوا، واستُلِحُّوا وحملوا، ووقعنا عليهم وقوع النَّار في

(١) في (ك): فيهم.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٣) في النسخ الخطية: مضافوه، والصواب ما أثبتناه.

الحلفاء، وصبينا ماء الحديد للإطفاء، فزاد في الإذكاء، فحطوا خيامهم على غارب حطّين، حين رأونا بهم مُحيطين، فأعجلناهم عن ضَرْب الخيام بضرب الهام، ثم استحرّت الحرب، واشتجر الطّعن والضّرب، وأُحيط بالفرنج من حواليتهم، ودارت الدّوائر عليهم، وترجّوا خيراً فترجّلوا عن الخيل، وجرفهم السّيْفُ جَرَفَ السّيل، ومُلِكَ عليهم الصّليب الأعظم، وذاك مُصابُهُم الأعظم. ولما شاهدوا الصّليب سليباً، وركب الرّدى قريباً، أيقنوا بالهلاك، وأُخذوا بالضّرب الدّراك، فما برحوا يُؤسرون ويُقتلون، ويخمدون ويُخملون، وللوثوب يخفّون، وبالجراح يثقلون، ومن مصارع القتل إلى معاصر الأسر ينقلون.

ووصلنا إلى مقدّمهم، وملكهم وإبرنسهم، فتمّ أسر الملك، وإبرنس الكرك*، وأخي الملك جُفري، وأوك صاحب جُبيل، وهنفري بن هنفري، وابن صاحب إسكندرونة، وصاحب مرقية، وأسر من نجا من القتل من الدّاوية* ومقدّمها، ومن الإسمتارية* ومُعظّمها، ومن البارونية [و]^(١) من أخطأه البوار، فأصابه وساءه الإِسار، وأسر الشّيطان وجنوده، ومُلِكَ الملك وكنوده، وجبِر الإسلام بكسرتهم، وقُتلوا وأُسروا بأسرهم، فمن شاهد القتلى قال: ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال: ما هناك قتيل، ومُذ استولى الفرنج على ساحل الشّام ما شَفِيَ للمسلمين كيوم حطين غليل.

فالله عزّ وجل سلّط السّلطان وأقدره على ما أعجز عنه الملوك، وهذاه من التّوفيق لامتثال أمره وإقامة فَرَضِهِ النهج المسلوك، ونظّم له في حُتوف أعدائه والفتوح لأوليائه السّلوك، وخصّه بهذا اليوم الأغرّ، والنّصر الأبرّ، واليُمن الأسرّ، والنّجح الأدّر، ولو لم يكن له إلا فضيلة هذا اليوم، لكان

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

متفرداً على الملوك السَّالفة، فكيف ملوك العَصْرِ في السَّمَوِّ والسَّوْم، غير أن هذه النوبة المباركة كانت للفتح القُدسي مقدّمة، ولمعاقد النَّصْر وقواعده مُبرّمة مُحْكِمة.

ومن عجائب هذه الواقعة، وغرائب هذه الدفعة، أن فارسهم ما دام فَرسُهُ سالمًا لم يدلَّ للصرعة، فإنه من لُبْسِهِ الزَّردي من قرّنه إلى قَدَمه كأنَّه قطعة حديد، ودِرَاك الضَّرْب [والرمي]^(١) إليه غير مفيد، لكنَّ فرسه إذا هلك فُرسٌ ومُلِكٌ، فلم يُغْنَم من خيلهم ودوابِّهم — وكانت ألوفاً — ما هو سالم، وما ترجَّل فارسٌ إلا والطَّعن والرَّمي لمركوبه كالم، وغَنِمنا ما لا يحصر من بيضٍ مكنون، وزَغَفٍ مَوْضُون^(٢)، وبلادٍ وحُصُون، وسهولٍ وحُزُون، وابتذلنا منهم بهذا الفتح كلَّ إقليمٍ مصون، وذلك سوى ما استبيح من مالٍ مخزون، واستُخْرِجَ من كَنْزٍ مدفون. وصَحَّت هذه الكسرة، وتمَّتْ هذه الثُّغرة يوم السبت، وضُرِبَتْ ذِلَّةُ أهل السَّبْتِ على أهل الأحد، وكانوا أسوداً فعادوا من النَقْد^(٣)، فما أفلت من تلك الآلاف إلا آحاد، وما نجا من أولئك الأعداء إلا أعداد، وامتلاً الملا^(٤) بالأسرى والقَتلى، وانجلى الغبار عنهم بالنَّصْر الذي تجلَّى^(٥)، وقِيْدَتِ الأسارى في الجبال واجبة القلوب، وفُرِشَتِ القَتلى في الوهاد والجبال واجبة الجنوب، وحَطَّتْ حِطَّين تلك الجيف عن

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٢) الزغف الموضوع: الدرع المحكمة، الداخلة الحِلَق بعضها في بعض. «اللسان» (زغف، وضم).

(٣) النقد: الصغيرة من الغنم. «اللسان» (نقد).

(٤) الملا: الفلاة.

(٥) في هامش الأصل بخط مغاير متأخر:

سوف ترى سينجلي الغبار هل فرس تحتك أم حمار

مَتْنَهَا، وطاب نَشْرُ النَّصْرِ بِتَنْتِهَا، وَعَبَّرْتُ بِهَا فَأَلْفَيْتُهَا مَحَلَّ الْعَتَبَارِ،
 وشاهدتُ ما فعل أهل الإقبال بأهل الإِدْبَارِ، وعَاينت أَعْيَانَهُمْ خَبَرًا مِنْ
 الْأَخْبَارِ، ورَأَيْتِ الرُّؤُوسَ طَائِرَةً، وَالتُّفُوسَ بَائِرَةً، وَالْعِيُونَ غَائِرَةً، وَالْجُسُومَ
 رَمْسَتَهَا السَّوَافِي، وَالرُّسُومَ دَرَسَتَهَا الْعَوَافِي، وَأَشْلَاءَ الْمَشْلُولِينَ فِي الْمَلْتَقَى
 مَلْقَاةً، بِالْعَرَاءِ عُرَاةً، مُمَزَّقَةً بِالْمَآزِقِ، مَفْصَّلَةً الْمَفَاصِلِ، مَفْرَقَةً الْمَرَافِقِ،
 مُفْلَقَةً الْمَفَارِقِ، مَحْذُوفَةً الرُّقَابِ، مَقْصُوفَةً الْأَصْلَابِ، مَقْطَعَةً الْهَامِ، مُوزَّعَةً
 الْأَقْدَامِ، مَجْدُوعَةً الْآنَافِ، مَنْزُوعَةً الْأَطْرَافِ، مَفْقُوعَةً الْعِيُونَ، مَبْعُوجَةً
 الْبَطُونِ، مُنْصَفَّةً الْأَجْسَادِ، مُقْصَفَةً الْأَعْضَادِ، مَقْلَصَةً الشِّفَاهِ، مُخْلَصَةً الْجَبَاهِ،
 سَائِلَةً الْأَحْدَاقِ، مَائِلَةً الْأَعْنَاقِ، عَدِيمَةً الْأَرْوَاحِ، هَشِيمَةً الْأَشْبَاحِ، كَالْأَحْجَارِ
 بَيْنَ الْأَحْجَارِ، عِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ.

ولما أَبْصَرْتُ خَدُودَهُمْ مَلْصَقَةً بِالثَّرَابِ وَقَدْ قَطَعُوا آرَابًا تَلَوْتُ قَوْلَ اللَّهِ
 تَعَالَى ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾^(١) فَمَا أَطْيَبَ نَفْحَاتِ الظَّفَرِ مِنْ ذَلِكَ
 الْخَبَثِ، وَمَا أَلْهَبَ عَذَابَاتِ الْعَذَابِ فِي تِلْكَ الْجُبْثِ، وَمَا أَحْسَنَ عِمَارَاتِ
 الْقُلُوبِ بِقَبْحِ ذَلِكَ الشَّعْثِ، وَمَا أَجْزَأَ صَلَوَاتِ الْبَشَائِرِ بِوُقُوعِ ذَلِكَ الْحَدَثِ،
 هَذَا حِسَابِ مَنْ قُتِلَ فَقَدْ حُصِرَتِ أَلْسِنَةُ الْأُمَمِ عَنْ حَضْرِهِ وَعَدَّهُ، وَأَمَا مَنْ أُسِرَ
 فَلَمْ تَكْفِ أَطْنَابُ الْخِيَمِ لِقَيْدِهِ وَشِدَّهُ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ فِي حَبْلِ وَاحِدٍ^(٢) ثَلَاثِينَ
 وَأَرْبَعِينَ يَقُودُهُمْ فَارِسٌ، وَفِي بَقْعَةٍ وَاحِدَةٍ مِئَةٌ وَمِثْنَيْنِ يَحْمِيهِمْ حَارِسٌ،
 وَهَنَالِكَ الْعُتَاةُ عُنَاةً، وَالْعُدَاةُ عُرَاةً، وَذُؤُ الْإِسْرَةِ أُسْرَى، وَأُولُو الْأَثَرَةِ
 عَثْرَى، وَالْقَوَامِصُ قَنَائِصُ، وَالْفَوَارِسُ فَرَائِصُ، وَغَوَالِي الْأَرْوَاحِ رَخَائِصُ،
 وَوُجُوهُ الدَّأْوِيَةِ* عَوَابِصُ، وَالرُّؤُوسُ تَحْتَ الْأَخَامِصِ، فَكَمْ أُصِيدَ صَيْدٌ،

(١) سورة النبأ، الآية: ٤٠.

(٢) في الأصل: رَأَيْتِ الْحَبْلَ الْوَاحِدَ. . والمثبت من (ك) و(ب).

وقائد قيّد وقيّد، وملك مملوك، وهاتك مهتوك، وحرّ في الرّق، ومبطل في يد المُحقّ، ولم يُؤسر الملك حتى أخذ صليب الصّلبوت، وأهلك دونه الطّاغوت، وهو الذي إذا نُصب وأقيم ورفع، سجد له كلُّ نصرانيٍّ وركع، وهم يزعمون أنّه من الخشبة التي يزعمون أنه صُلبَ عليها معبودهم، وقد غلّفوه بالذهب الأحمر، وكلّلوه بالذّرّ والجوهر، وأعدّوه ليوم الرّوع المشهود، ولموسم عيدهم الموعود، فإذا أخرجته القسوس، وحملته الرؤوس، تبادروا إليه، وانثالوا عليه، ولا يسع أحدهم عنه التخلّف، ولا يسوغ للمتخلّف عن اتّباعه في نفسه التّصرّف، وأخذُه عندهم أعظم من أسر الملك، وهو أشدُّ مصابٍ لهم في ذلك المُعترَك، فإنَّ الصّليب السّليب ماله عَوْض، ولا لهم في سواه غَرْض، والتّألّه له عليهم مفترض، فهو إلههم وتعفّر له جباههم، وتسبّح له أفواههم، يتغاشون عند إحضاره، ويتعاشون لإبصاره، ويتلاشون لإظهاره، ويتغاضون إذا شاهدوه، ويتواجدون إذا وجدوه، ويبدلون دونه المُهَج، ويطلبون به الفَرَج، بل صاغوا على مثله صُلباناً يعبدونها، ويخشعون لها في بيوتهم ويشهدونها.

فلما أخذ هذا الصّليب عَظْم مصابهم، وَوَهتْ أصلابهم، وكان الجمعُ المكسور عظيماً، والموقف المنصور كريماً، فكأنّهم لما عرفوا إخراج هذا الصّليب، لم يتخلّف أحدٌ عن يومهم العصيب، فهلكوا قتلاً وأسرّاً، ومُلِكوا قَهراً وقَسراً. ولما صَحَّ الكَسْرُ، وقُضِيَ الأمر، وتمكّن النّصر، وسكن البحر، ضربَ السّلطانُ في تلك الحومة دِهليز السّرادق، وتوافت إليه حُماة الحقائق، ونَزَلَ السّلطان وصلّى للشكر وسجد، وجدّد الاستبشار بما وجد، وأحضر^(١)

(١) في الأصل: وأحضروا، والمثبت من (ك) و(ب).

عنده من الأسارى الملك والبرنس، وأجلس الملك بجنبه^(١).

وقال في كتاب «الفتح»: وجلس السلطان لعرض أكابر الأسارى وهم يتهادون في القيود تهادي الشكاري، فَقَدَّمُ بدايةً مَقَدَّمُ الدَّاويةِ* وَعِدَّةٌ كثيرة منهم، ومن الإِسْتارية*، وأحضر الملك كي وأخوه جفري، وأوك صاحب جُبيل، وهنفري، والإبرنس أرناط صاحب الكرك، وهو أوَّل من وقع في الشَّرْك، وكان السُّلطان نَذَرَ دمه، وقال: لأُعَجِّلَن عند وجدانه عَدَمَه.

فلما حضر بين يديه، أجلسه إلى جنب الملك والملك بجنبه، وقرَّعه على غَدْره، وذكَرَه بذنبه، وقال له: كم تَحْلِفُ وتَحْنِثُ، وتعهد وتنكُّثُ، وتُبرِم الميثاق وتَنقُضُ، وتُقْبِلُ على الوفاق ثم تُعْرِضُ، فقال التَّرْجُمان عنه: إنه يقول: قد جَرَتْ بذلك عادةُ الملوك، وما سَلَكْتُ غير السَّنَنِ المسلوك.

وكان الملك يلهث ظمأً، ويميل من سَكْرَةِ الرُّغْبِ مُتَشِيَّاً، فآنسه السلطان وحاوره، وفتناً سورةَ الوجَلِ الذي ساوره، وسكَّن رُغْبَه، وأمَّن قلبه، وأمر له بماءٍ مثلوج فشربه، وأطفأ به لهبه، ثم ناول الملكُ الإبرنسَ القَدَحَ، فاستشفَّه، وبرَّد به لهفه، فقال السُّلطان للملك: لم تأخذ في سقيه مني إذناً، فلا يوجب ذلك له مني أَمْنًا. ثم ركب وخلَّاهما، وبنار الوَهْلِ^(٢) أصلاهما، ولم ينزل إلى أن ضُرِبَ سُرَادقُه، ورُكِزَتْ أعلامُه وبيارقُه، وعادت إلى الحِمَى عن الحومة فيالِقُه.

فلما دخل سُرَادقُه استحضر الإبرنس، فقام إليه، وتلقَّاه بالسَّيْفِ، فحلَّ عاتقه، وحين صُرِعَ أمر برأسه فَقُطِعَ، وجُرَّ برجله قُدَّام الملك حين أخرج،

(١) انظر «الفتح القسي»: ٧٦ — ٨٠.

(٢) الوهل: الفرع. «اللسان» (وهل).

فارتاع الملك وانزعج، فعرف السلطان أنه خامره الفزع، وساوره الهلع، وسامره الجزع، فاستدعاه واستدناه، وأمنه وطمنه، ومكنه من قربه وسكنه، وقال له: ذاك رداءته أزدته، وغدرته كما تراه غادرته، وقد هلك بغيه وبغيه. [ونبا زند حياته ووزدها عن ريه ووريه] (١).

ثم جمع الأسارى المعروفين، وسلمهم إلى والي قلعة دمشق الناصح الغيدي، فقال لهم: أنتم تحت قيدي. وسلمهم إلى أصحابه، فتسلمتهم الأيدي، وأمرهم أن يأخذوا خط الصفي بن القابض في دمشق بوصولهم، ويحتاط عليهم في أغلالهم وكبولهم. ففرق العسكر بمن ضمته أيدي السبي أيدي سبا، وهادتهم الوهاد والزبي.

قال: ولما أصبح السلطان يوم الأحد، استقام على الجدد، وخيم على طبرية، وراسل القومصية، وأخرجها من حصنها بالأمان، ووفى لها وللفرسان بينها بشروط الأمان (٢)، فخرجت بمالها ورجالها، ونسائها ورجالها، وسارت إلى طرابلس بلد زوجها القومص بمالها وحالها. وولى طبرية قايماز النجمي. وكانت طبرية في عهد الفرنج تقاسم على نصف مغل البلاد من الصلت* والبلقاء* وجبل عوف، والحيانية* والسواد*، وتناصف الجولان وما يقربها إلى بلد حوران، فخلصت المناصفات، وصفت الصفاة، وأمنت الآفات (٣)، هذا، والسلطان نازل ظاهر طبرية، وقد طب البرية، وعسكره قد طب البرية.

(١) ما بين حاصرتين من (ك)، وانظر «الفتح»: ٨٠ — ٨١.

(٢) في الأصل و(ب): الأيمان، والمثبت من (ك).

(٣) في الأصل: الأوقات، والمثبت من (ك) و(ب).

فلما أصبح يوم الاثنين بعد الفتح بيومين، طلب الأسارى من الدّاوية والاستبارية، وقال: أنا أظهر الأرض من هذه الجنسين النجسين، فما جرت عادتتهما بالمفاداة، ولا يقلعان عن المعادة، ولا يخدمان في الأسر، وهما أخبثُ أهل الكُفْرِ^(١). فتقدّم بإحضار كل أسير داوي واستباري ليمضي فيه حكم السيف، ورأى البقيا عليهم عَيْنَ الحَيْفِ، ثم علم أن كل من عنده أسير لا يسمح به، وأنه يَضُنُّ بعطبه، فجعل لكل من يأتيه بأسيرٍ منهما من الدّنانير الحُمْر خمسين، فأتوه في الحال بمئتين، فأمر بإعطابهم، وضرب رقابهم، ومحو حسابهم، وكان بحضرته جماعةٌ من المتطوّعة المتورّعة، والمتصوّنة المتصوّفة، والمتعمّمة المتصرّفة، ومن يمتُّ بالزُّهد والمعرفة، فسأل كلّ واحدٍ في قتل واحد، وسلّ سيفه وحسر عن ساعد، والسُّلطان جالس ووجهه باشر، والكُفْر عابس، والعساكر صفوف، والأُمراء في السماطين وقوف، فمنهم من فرى وبرى وشكّر، ومنهم من أبى ونبا وعُذر، ومنهم من يضحك منه، وينوب سواه عنه، وشاهدتُ هناك الضّحوك القتال، ورأيت منه القوّال الفعّال، فكم وعد أنجزه، وحمّد أحرزه، وأجر استدامه بدم أجراه، وبر أعنق إليه بعنق براه. وسير ملك الفرنج وأخاه، وهنصري وصاحب جُبيل ومقدّم الداوية، وجميع أكابرهم المأسورين إلى دمشق، ليودعوا السُّجون، وتستبدل حركاتهم السكون، وتفرّقت العساكر بما حوث أيديهم من السّبي^(٢)، وسبق بهم إلى البلاد الناس، ولم يقع على عددهم القياس، فكتب إلى الصفي بن القابض نائبه بدمشق أن يضرب عُنق من يجد من الدّاوية والاستبارية، فامثل الأمر في إزهاقهم، وضرب أعناقهم، فما قتل إلا من عُرض عليه الإسلام

٨٠/٢

(١) انظر «الفتح»: ٨٦ — ٨٧.

(٢) «الفتح»: ٨٦ — ٨٧.

فَأَبَى أَنْ يُسْلِمَ، وَمَا أَسْلَمَ إِلَّا أَحَادُ حَسَنَ إِسْلَامِهِمْ، وَتَأَكَّدَ بِالذِّينِ غَرَامِهِمْ.

قال العماد: وما زلت أبحث عن سبب نذر السلطان إراقة دم الإبرنس، حتى حدّثني الأمير العزيز عبد العزيز بن شدّاد بن تميم بن المُعزّ بن باديس، وهو ذو البيت الكبير، والحسب الجليل، وكان جدّه صاحبَ إفريقية والقيروان، وكانوا يتوارثون ملكه إلى قريبٍ من هذا الزّمان، ذكر أن الأجل الفاضل حدّثه أن السلطان لما عاد إلى دمشق من حرّان*، بعد المرضة التي صار بها كلّ قلبٍ [عليه]^(١) حرّان، وذلك في سنة اثنتين وثمانين، وهو من عقابيل سقمه لا يفارق الأئين، فقلتُ له ما معناه: قد أيقظك الله، وما يعيدك من هذا السّوء سواه، فانذر أنك إذا أبللت من هذا المرض، تقوم بكل ماله من المُفترَض، وأنك لا تقاتل من المسلمين أحداً أبداً، وتكون في جهاد أعداء الله مجتهداً، وأنك إذا نصرك الله في المعترك، وظفرت بالقومص وابرنس الكرك*، تتقرّب إلى الله بإراقة دمهما، فما يتمّ وجود النّصر إلا بعدَمهما. فأعطاه يده على هذا النّذر، ونجّاه الله ببركة هذا العُذر من الدُّعر، وخلّصه إخلاصه في مرضاة الله، فأبَلَّ من مرضته، واستقلَّ بنهضته، واستقبل السّنة القابلة بسنّة الغزو وفريضته، ثم جرى من مقدّمات الجهاد وتناجها ما جرى، وخيّم السلطان في جموع الإسلام بعشترًا*، وركب يوماً في عسكره، وعزم على نشر القساطل، وطَيّ المراحل، ودخول السّاحل، والقذف بالحقّ على الباطل، فبدأ ببقاء الطلعة المباركة من الأجل الفاضل، فقال له: ليكن نذرك على ذُكرك، واستزد نعمة الله عنده بمزيد شُكرك، ولا تُخطر غير قَمع أهل الكُفر بفكرك، فما أنقذك الله من تلك الورطة، ونعشك من تلك

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

السَّقْطَةُ، إلا ليوفر حظَّك من هذه الغِبطَةِ. فتوكَّل على الله عازماً، وجازَ الأُرْدُنَّ حازماً، وأرعبَ جأشَ الكُفْرِ وكسَرَ جيوشه، وثلَّ عُروشَه، ووقع في الشَّرَكِ إبرنسُ الكَرَكِ*، فوفى بضرب عنقه نَذَرَه. وأما القومص، فإنه أخذ في الملتقى بالهزيمة حِذْرَه، ولما وصل إلى طرابُلُسَ أخافه في مأمنه^(١) القَدْرُ، وَفَجَّاهُ في صَفْوَه الكَدْرُ، وتسَلَّمَه مالِكٌ إلى سَقَرِ^(٢).

فصل

هذا الذي تقدَّم من وَصَفِ كسرة حِطَّين، هو عين ما ذكره عماد الدين، رحمه الله في كتابيه «الفتح» و«البرق» اختصرتهُ منهما وهو مطوَّلُ فيهما، وقد وقفتُ على كلامٍ لغيره في ذلك، فأحببتُ إيرادَه على وجهه لما فيه من شَرْحٍ ما تقدَّم وتقويته، وربما اشتمل على زياداتٍ من فوائدٍ تعلَّقَ بذلك لم يتعرَّضَ لها، أو مخالفةٍ لبعض ما ذكره.

قال القاضي أبو المحاسن بن شدَّاد: لما كان المحرَّم سنة ثلاثٍ وثمانين عَزَمَ السُّلْطَانُ على قصد الكَرَكِ*، فَسَيَّرَ إلى حلب من يستحضر العسكر، وَبَرَّزَ من دمشق في منتصف المحرَّم، فسار حتى نزل بأرض الكَرَكِ، منتظراً لاجتماع العساكر المِصْرِيَّةِ والشَّامِيَّةِ، وأمر العساكر المتواصلة إليه بشنِّ الغارة على ما في طريقهم من البلاد السَّاحِلِيَّةِ، ففعلوا ذلك، وأقام — رحمه الله — بأرض الكَرَكِ، حتى وصل الحاجُّ الشامي إلى الشَّام، وأمنوا

(١) في الأصل: منامه، والمثبت من (ك).

(٢) «سنا البرق» ٢٢٩.

غائلة العدو^(١).

ووصل قفل مصر، ومعه بنت الملك المظفر وما كان له بالديار
المصرية، وتأخرت عنه العساكر الحلبية بسبب اشتغالها بالفرنج بأرض
أنطاكية وبلاد ابن لاون، وذلك أنه كان قد مات ووصى لابن أخيه لاون
بالملك، وكان الملك المظفر بحماة، وبلغ الخبر السلطان، فأمره بالدخول
إلى بلاد العدو، وإخماد نائزته. فوصل تقي الدين حلب، ونزل في دار
العفيف ابن زريق، وانتقل إلى دار طمان، وفي تاسع صفر خرج بعسكر
حلب إلى حارم* ليعلم العدو أن هذا الجانب ليس بمهمل.

وعاد السلطان، فوصل إلى السواد*، ونزل بعشتر* سابع عشر ربيع
الأول، ولقيه ولده الأفضل ومظفر الدين وجميع العساكر، وكان تقدّم إلى
الملك المظفر بمصالحة الجانب الحلي مع الفرنج ليتفرغ البال مع العدو في
جانب واحد، فصالحهم، وتوجّه إلى حماة يطلب خدمة السلطان للغزاة،
فسارت العساكر الشرقية في خدمته، وهم عسكر الموصل مقدّمهم مسعود بن
الزغفراني، وعسكر ماردين* إلى أن أتوا عشتر، فلقاهم السلطان وأكرمهم.

ثم عرض السلطان العساكر منتصف ربيع الآخر على تلّ يُعرف بتل
تسيل، ورثبهم، واندفع قاصداً إلى بلاد العدو في وسط نهار الجمعة، وكان
أبدأ يقصد بوقعات الجمع لاسيما أوقات صلاة الجمعة تبركاً بدعاء الخطباء
على المنابر، فربما كانت أقرب إلى الإجابة.

وبلغه أن الفرنج اجتمعوا في مرج صفورية* بأرض عكا، فقصد

(١) في الأصل: الغدر، والمثبت من (ك) و(ب).

نحوهم للمصافّ معهم، فسار ونزل على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصَّبْرَة*، ورحل من هناك، ونزل على غربي طبرية على سَطْحِ الجبل لتعبئة الحرب، منتظراً أنَّ الفرنج إذا بلغهم ذلك قصدوه، فلم يتحرّكوا من منزلتهم، فنزل جريدةً على طبرية، وترك الأطلاب* على حالها قُبالة وجه العدو، ونازل طبرية، وزحف عليها فهجمها، وأخذها في ساعةٍ من نهار، وامتدّت الأيدي إليها بالنهب والأسر، والحريق والقَتْل، واحتمت القلعة وحدها. فرحل الفرنج وقصدوا طبرية للدَّفْع عنها، فأخبرتِ الطلائعُ الإسلامية الأمراءَ بحركة الفرنج، فسَيَّروا إلى السلطان مَنْ عَرَفَهُ ذلك، فترك على طبرية من يحفظ قلعتها، ولحق^(١) العسكر هو ومن معه، فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها، وحال الليل بين الفئتين، فباتتا على مصافّ شاكين في السَّلاح إلى صبيحة الجمعة، فركب العسكران وتصادما، وذلك بأرض قريةٍ تسمَّى اللُّوبيا*، ولم تزل الحرب إلى أن حال بينهم الظَّلام.

وجرى في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة، والأمور الجسيمة ما لم يُحَكَّ عَمَّن تقدَّم، وبات كلُّ فريق في سلاحه ينتظر خصمه في كلِّ ساعة، وقد أقعده التعب عن النهوض، حتى كان صباح السبت الذي بورك فيه، فطلب كلُّ من الفريقين مقامه، وعلمت كلُّ طائفة أن المكسورة منها مدحورة الجنس، معدومة النفس، وتحقَّق المسلمون أن مِنْ ورائهم الأَرْدُن، ومن بين أيديهم بلادُ القوم، ولا ينجيهم إلا الله.

وكان الله قد قدَّر نصره للمسلمين فيسِّره، وأجراه على وَفْق ما قدَّره،

(١) في الأصل: ولقي، والمثبت من (ك) و(ب).

فحملت الأطلاب* الإسلامية من الجوانب، وحمل القلب وصاحوا صيحة الرجل الواحد، فألقى الله الرُّعب في قلوب الكافرين ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾^(١).

وكان القومص ذكي القوم والمعِيهم، فرأى أمارات الخِذلان قد نزلت بأهل دينه، ولم يشغله ظن محاسنة جنسه عن يقينه، فهرب في أوائل الأمر قبل اشتداده، وأخذ طريقه نحو صور*، وتبعه جماعة من المسلمين، فنجوا وحده، وأمن الإسلام كيده، واحتاط أهل الإسلام بأهل الكُفر والطُغيان من كل جانب، وانهزمت منهم طائفة، فتبعها أبطال المسلمين، فلم يَنْجُ منها واحد، واعتصمت الطائفة الأخرى بتل حطين - وهي قرية عنده، وعندها قبر النبي شُعيب عليه السَّلام - فضايقهم المسلمون على التَّلِّ، وأشعلوا حولهم النَّيران، وقتلهم العَطَشُ، وضاق^(٢) بهم الأمر، حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفاً من القتل، فأُسِرَ مُقَدَّمُوهم، وقُتِلَ الباقون وأُسروا، وكان الواحد منهم العظيم يخلد إلى الأسر خوفاً على نفسه، ولقد حكى لي من أثق بقوله أنه لقي بحوران شخصاً واحداً ومعه طُنْبُ خيمةٍ وفيه نيف وثلاثون أسيراً، يجرُّهم وحده لِيُخِذْلان وَقَعَ عليهم.

وأما القومص الذي هرب، فإنه وصل إلى طرابلس، وأصابه ذات الجنب، فأهلكه الله بها.

وأما مقدَّمو الاسبتارية والدَّاوية، فإن السلطان اختار قَتْلَهُم، فقتلوا عن بكرة أبيهم.

(١) سورة الروم، الآية: ٤٧.

(٢) في (ك) وطال.

وأما البرنز أرناط، فكان السلطان قد نذر أنه إن ظَفَرَ به قتله، وذلك أنه كان عَبَرَ به بالشَّوْبِك قَفْلٌ من الديار المصرية في حالة الصُّلْح، فزَلُّوا عنده بالأمان، فغدر بهم وقتلهم، فناشدوه الله والصُّلْح الذي بينه وبين المسلمين، فقال ما يتضمَّن الاستخفاف بالنبي ﷺ، وقال: قولوا لمحمدكم يخلِّصكم. وبلغ ذلك السلطان، فحملة الدِّين والحمية على أنه نذر إن ظفر به قتله، فلما فتح الله عليه بالنصر والظفر جلس في دِهْلِيز الخيمة، فإنها لم تكن نُصِبَتْ، والنَّاس يتقرَّبون إليه بالأسارى، ويمن وجدوه من المقدَّمين، ونُصِبَتْ الخيمة، وجلس فرحاً مسروراً، شاكراً لما أنعم الله به عليه، ثم استحضر الملك جفري وأخاه، والبرنز أرناط، وناول الملك شربة من جُلَّابٍ بثلج، فشرب منها — وكان على أشدِّ حال من العطش — ثم ناول بعضها البرنز أرناط، فقال السلطان للترجمان: قل للملك، أنت الذي تسقيه، وإلا أنا ماسقيته — وكان على جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب مِنْ مال مَنْ أسره، أَمِنَ، فقصد بذلك الجري على مكارم الأخلاق — ثم أمر بمسيرهم إلى موضع عُيِّنَ لنزولهم، فمضوا وأكلوا شيئاً، ثم عاد واستحضرهم، ولم يبقَ عنده أحد سوى بعض الخدم، فأقعد الملك في الدِّهْلِيز، واستحضر البرنز أرناط، وأوقفه على ما قال، وقال له: ها أنا أنتصر لمحمد^(١) ﷺ، ثم عرض عليه الإسلام، فلم يفعل، ثم سَلَّ التَّمْجاة*، وضربه بها، فَحَلَّ كتفه، وتمَّ عليه من حضر، وعَجَّلَ الله بروحه إلى النَّارِ، فأخذ ورمي على باب الخيمة، فلما رآه الملك قد أُخرج على تلك الصُّورة لم

(١) في هامش (ك) بخط مغاير: ﷺ عدد الرمل والحصي والتراب، ورحم الله الناصر المنتصر له، وأعظم أجره وأجزله.
قلت: آمين آمين يا ربَّ العالمين.

يشك في أنه يثني به، فاستحضره، وطيب قلبه، وقال: لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا فإنه جاوز حدّه، فجري ما جرى.

وبات النَّاسُ تلك الليلة على أتم سرور وأكمل حبور، ترتفع أصواتهم بالحمد لله والشُّكْر له، والتكبير والتهليل، حتى طلع الصُّبْح في يوم الأحد، فنزل رحمه الله على طبرية، وتسلم في بقية ذلك اليوم قلعتها، وأقام بها إلى يوم الثلاثاء^(١).

قلت: وذكر محمد بن القادسي^(٢) في «تاريخه» أنه ورد في هذه السنة كتب إلى بغداد في وصف هذه الواقعة، منها كتاب من عبد الله بن أحمد المقدسي^(٣)، يقول فيه: كتبتُ هذا الكتاب من عَسْقلان يوم الثلاثاء، ثالث عشر جُمادى [الآخرة]^(٤) سنة ثلاثٍ وثمانين وخمس مئة، وفيه:

ولو حمدنا الله عز وجل طول أعمارنا ما وفينا بعُشر معشار نعمته التي أنعم بها علينا من هذا الفتح العظيم، فإنا خرجنا إلى عسكر صلاح الدين، وتلاحق الأجناد حتى جاء النَّاسُ من المَوْصِل وديار بكر* وإربل*، فجمع صلاح الدين الأمراء وقال: هذا اليوم الذي كنتُ أنتظره، وقد جمع الله لنا العساكر، وأنا رجل قد كَبُرْتُ، وما أدري متى أجلي، فاغتنموا هذا اليوم، وقاتلوا الله تعالى لا من أجلي. فاختلفوا في الجواب، وكان رأي أكثرهم لقاء الكُفَّار، فعرض جُنْدَه ورَبَّهَم، وجعل تقي الدين في الميمنة، ومظفر الدين في الميسرة، وكان هو في القلب، وجعل بقية العسكر في الجناحين، ثم

(١) «النوادر السلطانية»: ٧٤ — ٧٩.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥١ من هذا الجزء.

(٣) هو شيخ الإسلام، موفق الدين، ابن قدامة، صاحب كتاب «المغني» في الفقه الحنبلي، ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٦٢٠ هـ).

(٤) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

ساروا على مراتبهم حتى نزلوا الأُفْحوانة*، فتركوا بها أثقالهم، وساروا حتى نزلوا بِكْفَرٍ سَبْت*، فأقاموا يومين ينتظرون أن يبرز لهم الكُفَّار — وكان عسكر الكفار على صَفُورِيَّة* — فلم يبرزوا، فعاد صلاح الدين حتى نزل على طبرية*، فتقدَّم فُرسانه وحُماته ورُماتُه والنَّقَّابون، فدخلوا حتى الحِصْن، فلما تمكَّن النقب منه انهار^(١) من غير وَقُود نار، ودخل المسلمون فانتهبوا يوم الخميس، وأصبحوا في يوم الجمعة، فشرعوا في نَقْبِ القلعة، فلما كان وقتُ الصَّلَاة، جاء الخَبْرُ أن الكُفَّار قد توجَّهوا إلينا، فارتحل صلاحُ الدِّين على صفوفه، فلقِيهم، ثم لم يزلوا يتقدَّمون حتى صار المسلمون محيطين بهم، وصار قَلْبُ المسلمين خلفهم، فتراموا ساعةً، وباتَ كُلُّ فريقٍ على مصافِّهم، ثم أصبحوا، فسار الكُفَّار يقصدون طبرية والمسلمون حولهم يُلْحِثُونَ عليهم بالرَّمي، فاقتلع المسلمون منهم فوارس، وقتلوا خِيَالَةَ ورجَّالَةَ، فانحاز المشركون إلى تل حطين، فزلوا عنده، ونصبوا الخيام، وأقام النَّاسُ حولهم إلى أن انتصف النهار، وهبَّتِ الرِّيحُ، فهجم المسلمون عليهم، فانهزموا لا يلوون على شيءٍ، ولم يفلت منهم إلا نحوٌ من مئتين، وكانوا كما قيل اثنين وثلاثين ألفاً، وقيل: ثلاثة وعشرين ألفاً، لم يتركوا في بلادهم من يقدر على القتال إلا قليلاً. وكان الذي أسر الملك دِرْبَاس الكُرْدِي، وغلَامُ الأمير إبراهيم المِهْراني أسر الإبرنس، وقتلَ صلاح الدين الإبرنس بيده لأنه كان قد غدر، وأخذ قافلةً من طريق مصر.

ثم عاد صلاح الدين إلى طبرية فأخذ قلعتها بالأمان، ثم ضَرَبَ أعناق الأسرى الذين كانوا في العسْكر، وأرسل إلى دمشق فضربت أعناق الذين بها منهم.

(١) في الأصل و(ب): انهال، والمثبت من (ك).

قال: وورد كتاب آخر فيه: هذه الفتوح التي ما سُمعَ بها قطُّ، وهذا ذِكْرُ بعضها مختصراً مع أنه لا يقدر أحدٌ يصف ذلك، لأن الأمر أكبر من ذلك، الذي يبشّر به المسلمون، أنّ مدينة طبرية فُتِحَتْ بالسيف، وأُخذت قلعتها بالأمان، واجتمع عسكر الفرنج جميعهم، والتقوا بالمسلمين عند قبر شعيب النبي ﷺ، وقُتِلَ من الإفرنج ثلاثون ألفاً. وكان عدد الإفرنج ثلاثة وستين ألفاً بين فارس وراجل، وأسر منهم ثلاثون ألفاً، وبلغ ثمن الأسير بدمشق ثلاثة دنائير، واستغنى عسكر الإسلام من الأسرى والأموال والغنائم بحيث لا يقدر أحدٌ يصف ذلك، وما سلّمَ من عسكر الفرنج سوى قومص إطرابلس مع أربعة نفر، وهو مجروحٌ ثلاث جراحات. وأخذ جميع أمراء الفرنج، وكم قد سبي من النساء والأطفال، يباع الرجل وزوجته وأولاده في المناداة ببيعة واحدة، ولقد بيع بحضوري رجل وامرأة وخمسة أولاد؛ ثلاث بنين وابتنان بثمانين ديناراً، وأخذ صليب الصليبوت فعُلّقَ على قنطارية منكساً، ودخل به القاضي ابن أبي عصرون إلى دمشق، وكل يوم يُرى من رؤوس الفرنج مثل البطيخ، وأخذ من البقر والغنم والخيول والبغال ما لم يجيء من يشتريها من كثرة السبي والغنائم.

قال: وفي كتاب آخر: وكان الفرنج خمسة وأربعين ألفاً، فلم يسلم منهم سوى ألف، وقتل الباقون واستأسروهم، وكذلك الملوك.

قلت: وبلغني أن بعض فقراء العسكر وقع بيده أسير، وكان محتاجاً إلى نعل، فباعه بها، فقبل^(١) له في ذلك، فقال: أردت أن يُذكر ذلك، ويقال: بلغ من هوان أسرى الفرنج وكثرتهم أن بيع واحدٌ منهم بنعل، والله الحمد.

(١) في الأصل: فقلت، والمثبت من (ك) و(ب).

وما أحسن ما قال أبو الحسن بن الذَّروِي [المِضْرِي] من قصيدة ^(١) :

شَرَحْتَ صِلَاحَ الدِّينِ بِالسُّمْرِ وَالطُّبِيِّ من المَجْدِ مَعْنَى كَانَ مِنْ قَبْلُ يَغْمُضُ
وما كَادَ جَيْشُ الرُّومِ يُبْرِمُ كَيْدَهُ إِلَى أَنْ سَرَتْ مِنْكَ الْمَهَابَةُ تَنْقُضُ
حَمَيْتَ تُغُورَ الْمُسْلِمِينَ فَأَصْبَحَتْ تُغَوِّراً بِأَمْوَاهِ الْحَدِيدِ تَمْضَمُضُ
أَسْرَتْ مَلُوكَ الْكُفْرِ حَتَّى تَرَكْتَهُ وما فِيهِ عِرْقٌ عَنْ قُوَى النَّفْسِ يَنْضُ

وكان القاضي الفاضل غائباً عن هذه الكسرة بدمشق، فلما بلغته كتب إلى السلطان: ليهن المولى أن الله قد أقام به الدين القيم، وأنه كما قيل: أصبحت مولاي ومولى كل مسلم، وأنه قد أسبغ عليه التعمتين: الباطنة والظاهرة، وأورثه الملوكين: ملك الدنيا وملك الآخرة. كتب المملوك هذه الخدمة، والرؤوس إلى الآن لم تُزَفَّعْ من سُجُودِهَا، والذُمُوعُ لم تُمَسَّحْ من خُدُودِهَا، وكلما فُكِّرَ المملوك أنَّ البَيْعَ تَعَوَّدُ وَهِيَ مَسَاجِدُ، وَالْمَكَانَ الَّذِي كَانَ يُقَالُ فِيهِ: إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ يُقَالُ الْيَوْمَ فِيهِ: إِنَّهُ وَاحِدٌ، جَدَّدَ لِلَّهِ شُكْرًا، تَارَةً يَفِيضُ مِنْ لِسَانِهِ، وَتَارَةً يَفِيضُ مِنْ جَفْنِهِ، وَجَزَى يَوْسُفَ خَيْرًا عَنْ إِخْرَاجِهِ مِنْ سَجْنِهِ، وَالْمَمَالِيكَ يَنْتَظِرُونَ أَمْرَ الْمَوْلَى، فَكُلُّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ الْحَمَامَ بِدَمَشَقَ، قَدْ عَوَّلَ عَلَى دُخُولِ حَمَامٍ طَبْرِيَّةَ.

تلك المكارم لا قعبان من لبن ^(٢) وذلك الفتح لا عمَّان واليمن

وذلك السيف لا سيف ابن ذي يزن

(١) في هامش الأصل: «هذا الشعر في غير هذه الواقعة، فإن ابن الذروي توفي سنة سبع وسبعين وخمس مئة.

قلت: انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٠١ من هذا الجزء، وما بين حاصرتين من (ك).

(٢) هذا الشطر صدر بيت، عجزه:

شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

=

وللألسنة بُعد في هذا الفتح سَبَحٌ طويل، وقَوْلٌ جليل.

وللعماد رحمه الله قصائد يذكر فيها وقعة حِطِّين، لم يذكر منها شيئاً هنا، بل ذكر بعضها عند ذكر فتح نابلس، وبعضها عند ذكر فتح القدس، فنقلتُ منها إلى هذا المكان ما يتعلق به، والباقي يُذكر في مكانه [إن شاء الله] ^(١)، قال:

يا يومَ حِطِّينَ والأبطالَ عابِسَةً	وبالعجاجةَ وجهَ الشمسِ قد عَبَسَا
رأيتُ فيه عظيمَ الكُفرِ مُحْتَقِراً	مُعَفَّراً حَدَّهُ والأنفُ قد تَعَسَا ^(٢)
يا طَهْرَ سَيْفِ بَرَى رأسِ البرنسِ فقد	أصابَ أعظمَ مَنْ بالشُّركِ قد نَجَسَا
وغاصَ إذ طار ذاكَ الرأسُ في دِمِهِ	كأنَّه ضِفْدَعٌ في الماءِ قد غَطَسَا
ما زالَ يَعْطُسُ مَزْكُوماً بِغَدْرَتِهِ	والقَتْلُ تَسْمِيْتُ مَنْ بِالْغَدْرِ قد عَطَسَا
عرى طُباه من الأغْماءِ مُهْرَقَةً	دماً من الشُّركِ رَدَّاهَا به وَكَسَا
مَنْ سَيْفُهُ في دِمَاءِ الْقَوْمِ مُنْغَمِسٌ	من كلِّ مَنْ لَمْ يَزَلْ في الْكُفْرِ مُنْغَمِسَا
أَفْنَاهُمْ قَتْلَهُمْ والأسْرُ فانتكسوا	وَبَيَّتْ كُفْرَهُمْ مِنْ خُبْنِهِمْ كُنْسَا ^(٣)

وقال أيضاً يخاطبُ صلاحَ الدين رحمه الله:

سَحَبَتْ على الأُرْدُنَّ رُدْنًا من القَنَا	رُدْنِيَّةً مُلْدَاً وَخَطِيَّةً مُلْسَا
حَطَطَتْ على حِطِّينَ قَدْرَ مُلُوكِهِمْ	ولم تَبْقَ من أَجْناسِ كُفْرِهِمْ جِنْسَا

= وهو لأبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي من قصيدة طويلة منسوبة له. انظر «الشعر والشعراء»: ٤٦١/١ - ٤٦٢. والقعبان: تشنية قعب: وهو قدح يحلب فيه. وشيبا: مزجا.

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) أي انكَبَّ. «اللسان» (تعس).

(٣) وسيأتي بعضها ص ٣١٦ - ٣١٧، ٣٦٣ - ٣٦٤ من هذا الجزء.

وَنِعَمَ مَجَالُ الْخَيْلِ حِطِينٌ لَمْ تَكُنْ
غَدَاةُ أَسْوَدِ الْحَرْبِ تَعْتَقِلُ الْقَنَا
أَتَوْا شُكْسَ الْأَخْلَاقِ خُشْنًا فَلَيَّتْ
طَرَدَتْهُمْ فِي الْمُلتَقَى وَعَكَسَتْهُمْ
فَكَيْفَ مَكَسَتْ الْمَشْرِكِينَ رُؤُوسَهُمْ
كَسَرَتْهُمْ إِذْ صَحَّ عَزْمُكَ فِيهِمْ
بَوَاقِعُهُ رُجَّتْ بِهَا الْأَرْضُ تَحْتَهُمْ
بَطُونُ ذِئَابِ الْأَرْضِ صَارَتْ قُبُورَهُمْ
وَطَارَتْ عَلَى نَارِ الْمَوَاضِي فَرَّاشُهُمْ
وَقَدْ خَشَعَتْ أَصْوَاتُ أَبْطَالِهَا فَمَا
تُقَادِبُ بَدَأْمَاءِ^(٥) الدَّمَاءِ مَلُوكُهُمْ
سَبَايَا، بِلَادُ اللَّهِ مَمْلُوءَةٌ بِهَا
يُطَافُ بِهَا الْأَسْوَاقُ لَا رَاغِبٌ لَهَا

مَعَارِكُهَا لِلْجُرْدِ ضِرْسًا وَلَا دَهْسًا^(١)
أَسَاوِدُ تَبْغِي مِنْ نُحُورِ الْعِدَى نَهْسًا^(٢)
حُدُودُ الرِّقَاقِ الْخُشْنِ أَخْلَاقُهَا الشُّكْسَا
مُجِيدًا بِحُكْمِ الْعَزْمِ طَرَدَكَ وَالْعَكْسَا
وَدَأْبُكَ فِي الْإِحْسَانِ أَنْ تُطْلِقَ الْمَكْسَا
وَنَكَسَتْهُمْ إِذْ صَارَ سَهْمُهُمْ نَكْسَا
دَمَارًا كَمَا بُسَّتْ جِبَالُهُمْ بَسًّا^(٣)
وَلَمْ تَرْضَ أَرْضٌ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ رَمْسًا^(٤)
ضَلَالًا فَزَادَتْ مِنْ خُمُودِهِمْ قَبْسَا
يَعِي السَّمْعُ إِلَّا مِنْ صَلِيلِ الظُّبَى هَمْسَا
أَسَارَى كَسَفْنَ الْيَمَّ نَطَّتْ^(٦) بِهَا الْقُلْسَا^(٧)
وَقَدْ شَرِيَتْ بَخْسًا وَقَدْ عُرِضَتْ نَخْسَا
لِكَثْرَتِهَا كَمْ كَثْرَةٌ تُوجِبُ الْوَكْسَا^(٨)

-
- (١) الضرس: الأرض الخشنة. والدهس: المكان السهل اللين، ومنه قول دريد بن الصمة
يصف أرضاً: لا حزن ضرس ولا سهل دهس. انظر «اللسان» (دهس، ضرس).
(٢) النهس: القبض على اللحم ونثره. «اللسان» (نهس).
(٣) أي فتت ونسفت، فصارت كاللدقيق. «اللسان» (بسس).
(٤) الرَّمْس: القبر. «اللسان» (رمس).
(٥) الدَّمَاء: البحر. «اللسان» (دأم).
(٦) أي شددت. «اللسان» (نطط).
(٧) القلس: جبل غليظ من جبال السفن. «اللسان» (قلس).
(٨) الوكس: اتضاع الثمن في البيع. «اللسان» (وكس).

شكا يَساً رأسُ البرنس الذي به
حسا دمه ماضي الغرار^(١) لِعَدْرِهِ
فلله ما أهدى يداً فتكت به
نسفت به رأس البرنس بضربة
تبوغ^(٤) في أوداجه دم بغيه
بعثت أمام أمة النار نحوها
ولله نص النصر جاء لنصله
حكي عنق الداوي صل بضربة
أيوم وغى يدعوه أم يوم نائل
وقد طاب ريانا على طبرية

وللشهاب فتان الشاغوري^(١١) من قصيدة سيأتي بعضها^(١٢) في مدح

صلاح الدين رحمه الله :

(١) الغرار : حد السيف. «اللسان» (غرر).

(٢) العهن : الصوف. «اللسان» (عهن).

(٣) البرس : بكسر الباء وضمها. القطن. «اللسان» (برس).

(٤) تبوغ به الدم : هاج به، وذلك حين تظهر حمرة في البدن. «اللسان» (بوغ، بينغ).

(٥) الجبس : الجبان الضعيف اللئيم. «اللسان» (جبس).

(٦) القونس : أعلى البيضة من الحديد. «اللسان» (قنس).

(٧) القنس : الأصل. «اللسان» (قنس).

(٨) طرير الشبا : يعني طرف السيف وحده، وقد حُدِّد، يعني أصبح في غاية الرهافة.

«اللسان» (طرر، شبا).

(٩) من الحس : القتل الذريع المستأصل. «اللسان» (حس).

(١٠) انظر بعض أبيات من القصيدة في «معجم الأدباء» : ٢٤ / ١٩ - ٢٧.

(١١) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٤٥ من الجزء الثاني.

(١٢) انظر ص ٤١٠ من هذا الجزء وص ٣٧ - ٣٨ من الجزء الرابع.

جَاشَتْ جِيوشُ الشُّرْكِ يَوْمَ لَقَيْتَهُمْ
أَوْرَدَتْ أَطْرَافَ الرِّمَاحِ صُدُورَهُمْ
فَهَنَّاكَ لَمْ يَرْ غَيْرُ نَجْمٍ مُقْبِلٍ
فَمَنْ الَّذِي مِنْ جَيْشِهِمْ لَمْ يُخْتَرْمْ
حَتَّى لَقَدْ بَيَّعَتْ عَقَائِلُ أَزْهَقَتْ
سَقَتْ الْمَمَالِيكَ الْكَرَامُ مُلُوكُهُمْ
وَعَجَمَتْ عُودَ صَلِيلِيهِمْ فَكَسَرَتْهُ
أَعْلَى الْأَدَاهِمِ^(٤) مَنْ أَسْرَتْ وَأَرْخَصَتْ
وَجَعَلَتْ شَرْقَ الْأَرْضِ يَخْشُدُ غَرْبَهَا
لَا يَعْدَمُنْكَ الْمُسْلِمُونَ فَكَمْ يَدٍ
أَمْنَتْ سِرْبَهُمْ وَصُنَّتْ حَرِيمَهُمْ
مَا إِنْ رَأَى اللَّهُ إِلَّا أَمْرًا
مُتَوَاضِعًا لِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ
لَمْ تَخْلُ سَمْعًا مِنْ هِنَاءٍ مُهْنَى
وَاسْتَعْظَمَ الْأَخْبَارَ عَنْكَ مَعَاشِرُ
مَضَتْ الْمُلُوكُ وَلَمْ تَكُنْ عَشْرَ الَّذِي

يَتَدَامِرُونَ^(١) عَلَى مُتُونِ الضُّمْرِ
فَوَلَعَنَ فِي عَلَقِ النَّجِيعِ^(٢) الْأَحْمَرِ
فِي إِثْرِ عَفْرِيَّتِ رَجِيمٍ مُذْبِرٍ
وَمَنْ الَّذِي مِنْ جَمْعِهِمْ لَمْ يُؤْسَرْ^(٣)
بِالسَّنْبِي بِالثَّمَنِ الْأَخْسِ الْأَخْفَرِ
كَأَسَا بِهِ سَقَتْ اللَّثِيمِ الْهَنْفَرِي*
وَسِوَاكَ أَلْفَاهِ صَلِيبَ الْمَكْسَرِ
يَنْضُ الصَّوَارِمِ مِنْ نَهَابِ الْعَسْكَرِ
بِكَ فَهُوَ دَاعٍ دَعْوَةَ الْمُسْتَنْصِرِ
أَوَّلَيْتُهُمْ مَعْرُوفَهَا لَمْ يُنْكَرِ
وَدَرَأَتْ عَنْهُمْ قَاصِمَاتِ الْأَظْهَرِ
فِيهِمْ بِمَعْرُوفٍ وَمُنْكَرٍ مُنْكَرِ
وَبِكَ اضْمَحَلَّتْ سَطْوَةُ الْمُتَكَبِّرِ
لِلْمُسْلِمِينَ وَمِنْ سَمَاعٍ مُبْشِرِ
فَاسْتَصْغَرُوا مَا اسْتَعْظَمُوا بِالْمَخْبِرِ
أَوْتِيَتْهُ مِنْ مَنَجَحٍ أَوْ مَفْخَرِ^(٥)

وقال أبو الحسن علي بن السَّاعَاتِي^(٦) فِي فَتْحِ طَبْرِية :

(١) أي يهلكون. دمر القوم دماراً: هلكوا. «اللسان» (دمر).

(٢) النجيع: الدم. «اللسان» (نجع).

(٣) في «الديوان»: قبلاً ومن من جمعهم لم يؤسر.

(٤) الأداهم جمع، مفردهما: أدهم، وهو القيد. «اللسان» (دهم).

(٥) «ديوان فتیان الشاغوري» ١٤٣ - ١٤٧ مع بعض تقديم وتأخير في الأبيات.

(٦) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٨ من هذا الجزء.

جَلَّتْ عَزَمَاتُكَ الْفَتْحَ الْمُيِّنَا
 رَدَدْتَ أَخِيذَةَ^(١) الْإِسْلَامَ لِمَا
 وَهَانَ بِكَ الصَّلِيبُ وَكَانَ قَدَمًا
 يَقَاتِلُ كُلُّ ذِي مُلْكٍ رِيَاءً
 غَدَتْ فِي وَجَنَةِ الْأَيَّامِ خَالًا
 فَيَا لِلَّهِ كَمْ سَرَّتْ قُلُوبًا
 وَمَا طَبْرِيَّةٌ إِلَّا هَدِيٌّ
 حَصَانُ الدَّيْلِ لَمْ تُقْدَفْ بِسُوءٍ
 فَضَضْتَ خِتَامَهَا قَسْرًا وَمَنْ ذَا
 لَقَدْ أَنْكَحَتْهَا صُمَّ الْعَوَالِي
 مَنَالٌ بَدَأَ أَهْلَ الْأَرْضِ طُرًّا
 قَسَتْ حَتَّى رَأَتْ كُفُؤًا فَلَانَتْ
 قَضَيْتَ فَرِيضَةَ الْإِسْلَامِ مِنْهَا
 تَهَزُّ مَعَاظِفَ الْقُدْسِ ابْتِهَاجًا
 فَلَوْ أَنَّ الْجَمَادَ يَطِيقُ نُطْقًا
 جَعَلْتَ صَبَاحَ أَهْلِهَا ظَلَامًا
 تَخَالُ حُمَاةَ حَوَزَتِهَا نِسَاءً
 لِيَبْضِكَ فِي جَمَاجِمِهِمْ غِنَاءٌ
 تَمِيلُ إِلَى الْمُثَقَّفَةِ الْعَوَالِي
 يَكَادُ التَّقَعُّ يُذْهِلُهَا فَلَوْ لَا

فَقَدْ قَرَّتْ عُيُونُ الْمُؤْمِنِينَ
 غَدَا صَرَفُ الْقَضَاءِ بِهَا ضَمِينَا
 يَعُزُّ عَلَى الْعَوَالِي أَنْ يَهُونَا
 وَأَنْتَ تَقَاتِلُ الْأَعْدَاءَ دِينَا
 وَفِي جِنْدِ الْعُلَا عَقْدًا ثَمِينَا
 وَيَا لِلَّهِ كَمْ أَبْكَتْ عُيُونَنَا
 تَرَفَّعُ عَنْ أَكُفِّ اللَّامِسِينَ
 وَسَلَّ عَنْهَا اللَّيَالِي وَالسَّنِينَ
 يَصُدُّ اللَّيْثُ أَنْ يَلِجَ الْعَرِينَا
 فَكَانَ نِتَاجُهَا الْحَرْبَ الزَّبُونَا
 سِوَاكَ وَمَعْقِلُ أَعْيَا الْقُرُونَا
 وَغَايَةُ كُلِّ قَاسٍ أَنْ يَلِينَا
 وَصَدَّقْتَ الْأَمَانِي وَالظُّنُونَا
 وَتَرْضِي عَنْكَ مَكَّةَ وَالْحَجُّونَا
 لَنَادَتْكَ اذْخُلُوهَا آمِنِينَ
 وَأَبْدَلْتَ الزَّيْرَ بِهَا أَنِينَا
 بِمَوْضُوعِ الْحَدِيدِ مُقَنَّعِينَ
 لَذِيذُ عِلْمِ الطَّيْرِ الْحَنِينَا
 فَهَلْ أَمَسَتْ رِمَاحًا أَمْ غُصُونَا
 بُرُوقُ الْقَاضِيَاتِ لِمَا هَدِينَا

(١) الأخيذة: ما اغتصب من شيء فأخذ، ومنه قيل للأسير: أخيد، والأخيذة: المرأة لسبي. «اللسان» (أخذ).

فكم حازت قُدودُ قَنَّاك منها
وغيّداً كالجاذر^(١) أنسات^(٢)
ولما باكرتها منك نَعَمَى
أعدت بها الليالي وهي يَبْضُ
فليس بعدام مرعى خَصِيصاً
فلا عَديمَ الشَّامِ وساكنوه
سُهادُ جُفُونها في كلِّ فَتَحٍ
فألَمَ بالسَّواحِلِ فهي صوَرُ
فَقَلْبُ القُدسِ مسرورٌ ولولا
أدَرَت على الفرنج وقد تلاقَت
ففي يَسانٍ* ذاقوا منك بُؤساً
لقد جاءتهمُ الأحداثُ جَمْعاً
وخانهمُ الزَّمان ولا مَلامَ
لقد جَرَدَت عَزْماً ناصِريّاً
فكنت كيوسف الصّديق حقّاً
لقد أَتَعَبَتَ مَنْ طَلَبَ المعالي

قُدوداً كالقَنَّا لوناً ولينا
كغيد نَدَاكَ أبكاراً وعُوناً^(٣)
بَنانٍ تُفْضِجُ^(٤) الغَيْثَ الهَتُوناً^(٥)
وقد كانت بها الأيامُ جونا^(٦)
أخو سَغَبٍ ولا ماءً مَعِينا
ظَبَى تَشْفِي بها الدَّاءَ الدَّفِينا
سُهادٌ يَمْنَحُ الغُمضَ الجُفُونا
إليك وألْحِقِ الهامَ المُتُونا
سُطاك لكان مكتباً حزيناً
جُموعُهُم عليك رَحَى طَحُونا
وفي صَفْدٍ أَتَوَكَ مُصَفِّدِينا
كأنَّ صروفها كانت كميناً
فلمستَ بِمُبْغِضٍ زَمناً خَوُْونا
يُحَدِّثُ عن سناه طورُسينا
له هَوَتِ الكواكبُ ساجدينَا
وحاول أن يسوس المسلمينَا

(١) الجاذر جمع، مفردا الجوزر: ولد البقرة الوحشية. «اللسان» (جذر).

(٢) أنسات جمع، مفردا أنسة، وهي الطيبة النفس التي تحب قريبك وحديثك. «اللسان» (أنس).

(٣) العون جمع، مفردا: عون، وهي الثيب. «اللسان» (عون).

(٤) أي تسكب. «اللسان» (فضج).

(٥) الهتون: الهطول. «اللسان» (هتن).

(٦) الجون: الأسود.

وإن تك آخراً وخلاك ذمٌ فإن محمداً في الآخِرِينَا^(١)

قال ابن أبي طي: حدّثني والدي حميد النّجّار، قال: كنت بالمَوْصِل في سنة خمس وخمسين وخمسة مئة فزرتُ الشيخ عمر المَلَاء^(٢)، فدخل إليه رجلٌ فقال: أيها الشيخ، رأيت البارحة في النوم كأنني بأرضٍ غريبة لا أعرفها، وكأنّها مملوءة بالخنازير، وكأن رجلاً بيده سيف، وهو يَفْتُلُ الخنازير، والناس ينظرون إليه. فقلتُ لرجلٍ: هذا عيسى ابن مريم، هذا المهدي؟ قال: لا. فقلتُ: مَنْ هذا؟ قال: هذا يوسف. ما زادني على ذلك. قال: فتعجّبت الجماعةُ من هذه الرؤيا، وقالوا: إنه سيقتل النَّصاري رجلٌ يقال له يوسف. وحَدّست الجماعةُ أنه يوسف بن عبد المؤمن، صاحب المغرب، وكان المستنجد بالله قد ولي الخلافة تلك السنة^(٣)، فَحَدّس بعضُ الجماعة عليه، قال: وأنسيت أنا هذه الواقعة، فلما كانت سنة كسرة حطين ذكرتها، وكان يوسفُ الملكُ النَّاصر، رحمه الله.

قال: وحدّثني ظنر^(٤) لي من نساء الحلبيين كانت تداخلُ أُخت السُلطان الملك النَّاصر، قالت: كانت والدّة السلطان تخبر أنّها أُتيت في نومها وهي حامل بالسُلطان، فقليل لها: إن في بطنك سيفاً من سيوف الله تعالى.

(١) «ديوان السّاعاتي»: ٤٠٦/٢ - ٤٠٨، وهي مستدركة فيه من كتابنا.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٥ من الجزء الأول.

(٣) وكان اسم المستنجد يوسف. وقد سلفت ترجمته ص ١٧٧ من الجزء الثاني.

(٤) الظنر: زوج مرضعته. «اللسان» (ظأر).

فَصْلٌ

في فَتْحِ عَكَا وَغَيْرِهَا ^(١)

وهي بالألف الممدودة، ويدلُّ على ذلك أنه يقال في النسبة إليها عكاوي، وقد وجدتُ ذلك في شِعْرِ قديم، ومنهم من يقول عَكَّه بالهاء، ومثل ذلك حِصْنِ عِرْقَه، وبعضهم يقول عِرْقًا بالألف، ونهر ثُورًا، وبعضهم يقول نهر ثوره، بالهاء.

قال القاضي ابن شدَّاد: ثم رحل السلطان طالباً عكَّا، وكان نزوله عليها يوم الأربعاء سَلَخَ ربيع الآخر، وقاتلها بُكْرَة الخميس مستهلَّ جُمادى الأولى، فأخذها، واستنقذ مَنْ كان فيها من الأسارى، وكانوا زهاء أربعة آلاف نفر، واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر، والبضائع والتجائر، فإنها كانت مظنة الثُّجَّار، وتفرَّقت العساكر في بلاد السَّاحل يأخذون الحُصُون والقلاع والأماكن المنيعَة، فأخذوا نابُلُسَ وحيفا وقَيْساريَّةَ * وصَفُورِيَّةَ * والثَّاصِرَة، وكان ذلك لخلو الرِّجال بالقتل والأسر ^(٢).

قال العماد: ورحل السلطان ظَهَرَ يوم الثلاثاء، والتوحيد ظاهر على التلث، والطَّيْبُ قد امتاز من الخبيث، ونزل بأرض لويَّةَ * عَشِيَّةَ، وأعادها بأزهار بنوده وأنوار جنوده روضةً موشية. ثم أصبح سائراً إلى عَكَا ساراً سرَّه، وباراً بأهل الدِّين برَّه، وكان أمير المدينة النبوية — صلوات الله على ساكنها — في موكبه، فكان رسولُ الله ﷺ سَيراً للفقير إلى نُصْرته من يُثْرَى به

(١) في (ك): فصل فيما يسَّر الله تعالى فتحه من البلاد بعد كسرة حطين وفتح طبرية قبل فتح البيت المقدس، فأول ذلك عكا، وهي بالألف الممدودة...
(٢) «النوادر السلطانية»: ٧٩.

من يَتَرَّبِهِ، وهذا الأمير عز الدين أبو فَلَيتَةَ القاسم بن المهتَّ الحُسَينِي، قد وفد في تلك السنة أوان عود الحاج، وهو ذو شَيْبَةٍ تقد كالسَّراج، وما برح مع السُّلطان مأثورَ المآثر، ميمونَ الصُّخبة، مأمونَ المحبة، مباركَ الطَّلعة، مشاركاً في الوقعة، فما تمَّ فتحٌ في تلك السنين إلا بحضوره، ولا أشرق مَطْلَعٌ من النُّصْر إلا بنوره، فرأيتُه في ذلك اليوم للسلطان مسيراً، ورأيت السلطان له مشاوراً محاوراً، وأنا أسير معهما، وقد دنوت منهما ليسمعاني وأسمعهما، ولاحثُ أعلامُ عكا، وكأنَّ بيارق الفرنج المركوزة عليها ألسنة من الخوف تتشكَّى، وكأنَّ عَذَابَاتِ النَّيران^(١) تصاعدت لعذاب أهلها، وقد توافرت عساكر الإسلام إليها من وَغَرها وسهلها. ولما أشرفنا عليها مستظهرين، أيقنَّا بفتحها مستبشرين، فما كان فيها من يحميها، فما صدقنا كيف نملكها ونحويها. وظهر على السور أهلها لأجل الممانعة، والثَّبات على المدافعة، وخَفَقَانُ أَلويتها يُشْعِرُ بقلوبها الخافقة، وأرواح جلدتهم الزَّاهقة. ووقفنا نتأمل طولَها، ونؤمِّلُ حصولها، وخيَّم السلطان بقربها وراء التَّلِّ، وانبثَّت عساكره في الوَعثِ^(٢) والسَّهْل. وبتنا تلك الليلة وقد هزَّتْنا الأطراب، ونقول: متى يجتمع الصباح والأصحاب، فما هَجَدْنَا ولا غَرَاراً، ولا وجدنا من الفَرَح قراراً، والسلطان جالس ونحن عنده، وهو يَحْضُ جُنْدَه، ويقْدَحُ معهم في اقتباس الآراء زَنْدَه، ومنا من يستنجز وعده، ومنا من يستمِيع رِفْدَه، ومنا من يواصله بالدُّعاء، ومنا من يشافهه بالهناء. وأصبح يوم الخميس وركب في خميسه، ووقف كالأسد في عَرِيْسِه^(٣)، ووقفنا بإزاء

(١) في الأصل: النار، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) الوعث: الطريق العسر سلوكه. «القاموس المحيط» (وعث).

(٣) العرْيْسة: الشجر الملتف، وهو مأوى الأسد. «معجم متن اللغة»: ٦٨/٤.

البلد صفوفاً، وأَطلَلْنَا على أَطْلَالِهِ وقوفاً، فخرج أهلُ البلد يطلبون الأمان، ويبدُلون الإِذعان، فأمنهم وخيّرهم بين المُقَام والانتقال، وَوَهَبَ لَهُم عِصْمَةَ الْآنَفُسِ والأموال، وكان في ظَنِّهم أَنه يستبيح دماءهم، ويسبي ذُرِّيَّتَهُمْ ونساءهم، وأمهلهم أياماً حتى ينتقل من يختار الثَّقَلَةَ، فاغتموا تلك المَهْلَةَ، وفتح الباب للخاصَّة، واستغنى بالدخول إلى البلد جماعةٌ من ذوي الخِصَاصَةِ، فإن القوم ما صدَّقوا من الخَوْفِ المُزْعِج، والفرَقِ المَحْرَج، كيف يتركون دورهم^(١) بما فيها وَيَسْلَمُونَ، وعندهم أَنهم إذا نجوا بأنفسهم أَنهم يَغْنَمُونَ. فلما دخل الجُنْدُ، رَكَزَ كُلُّ عَلَى دَارِ رُمَحِهِ، وأسام فيها سَرَحَهُ، فحصلوا على دورٍ أَخلَّها أربابها، وأموالٍ خَلَّها أصحابها، وكنا لأجل الأمان نَهَابُهَا، فطاب لأولئك نِهَابُهَا. وجعل السُّلْطَانُ للفقير عِيسَى الْهَكَارِي كل ما كان للدَّوَايَةِ من منازل وضياع، ومواضع ورباع، فأخذها بما فيها من غِلَالٍ وَمَتَاعٍ، واستخرجوا الدفائن، وولجوا المخازن، وداروا الأماكن، وكذلك ممالك الملك الأفضَل وأصحابه، وولاته ونَوَابِهِ، نبشوا المحارز، وفَتَّشُوا المراكز، واستباحوا الأَهْرَاءَ^(٢)، واجتاحوا الأشياء. وكان السلطان قد فَوَّضَ عِكَاً وضياعها، ومعاقلها وقلاعها^(٣)، إلى ولده الأكبر الملك الأفضَل نور الدين علي.

ثم ذكر العماد أنواع ما استولوا عليه من الأموال، ثم قال: ومن جُمْلَةِ ذلك أَنهم احتاطوا بغير علمي على دارٍ باسمي، فباعوا منها متاعاً بسبع مئة دينار، وأخلوها مما كان فيها من آلاتٍ وأدخار، وقلَّدوني المِثَّةَ في تحصيل

(١) في الأصل: الدور، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) الأَهْرَاءُ جمع، مفردُها الْهَرِي. وهو بيت كبير ضخم يجمع فيه طعام السلطان. «المعجم الوسيط»: ٩٩٤/٢. وانظر «خطط المقرئ» ٢٢٩/٢ (طبعة دار التحرير).

(٣) في الأصل: ومتاعها، والمثبت من (ك) و(ب).

تلك الدار، فإنها كانت من أنفـس العَقَّار، وسلَّموها إلى غلامٍ صديقٍ لي ليصونها، ويقوم بحفظها والذَّبُّ عنها والدِّفاع دونها.

فذكر أَنَّ الغلام انتفع من آلتها بعد خلوها بما قيمته سبعون ديناراً، وأن الأولين نقلوا منها من الذخر أوقاراً.

قال: وإنما وصفتُ هذا لِئُعْلَمَ ما غنموه، والتهبوا على حيازته والتهمـوه، وتصرَّف الملك المظفر تقي الدين في دار السُّكَّر، فأفنى قُودَها^(١)، واستوعب موجودها، ونقل قُدورها وأنقاضها، وحوى جواهرها وأعراضها^(٢).

وقال في كتاب «الفتح»: وخَلَّى سكانُ البلد دورهم، ومخزونهم ومذخورهم، وتركوها لمن أخذها، ونبدوا ما حووه لمن حواها وما نبذها، وافتقر من الفرنج أغنياء، واستغنى من أجنادنا فقراء، ولو دُخِرَت تلك الحواصل، وحُصِّلَت تلك الذخائر، وجُمِعَ لبيت المال ذلك المال المجموع الوافر، لكان عُدَّةً ليوم الشَّدائد، وعُمْدَةً لُنُجَحِ المقاصد. فَرَتَعَتْ في خضرائها بل صفرائها وبيضاها سروح الأطماع، وطال لمستحليها ومستجليها^(٣) الإمتاع بذلك المتاع^(٤).

قال في «البرق»: وقرئ على السُّلطان ليلةً من كتاب «الفتح» ونحن

(١) القنود جمع، مفردها القند والقندة: عصارة قصب السكر يصب في القوالب حتى يجمد، ولا يزال إلى اليوم يعرف بالعراق بهذا المعنى. «معجم متن اللغة»: ٦٥٦/٤.

(٢) انظر «سنا البرق»: ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٣) في مطبوع «الفتح»: ومستحليها.

(٤) «الفتح القسي»: ٨٩ - ٩٠.

بالْقُدْس — نعني هذا المكان — وذلك سنة ثمانٍ وثمانين، فقال السُّلطان:
هذه ربيعة^(١) على ثلاثة، اثنان منهم في جوار الرَّحمة، والآخر باقٍ في مَقَرِّ
العِصمة. يعني بالاثنتين الفقيه عيسى وتقي الدِّين، وبالأخر الباقي ولده
نور الدين.

قال: وَلَعَمْرِي هو كما ذكره، لكن الأفضل ما حصل له لخاصَّه^(٢)، بل
لذوي اختصاصه واستخلاصه. وفتحوا البلد يوم الجمعة مستهل جُمادى
الأولى، فجعنا إلى كنيستها العُظمى، فأزحنا عنها البُؤسُ بالتَّعْمى، وحضر
الأَجَلُ الفاضل فرتَّب بها المنبر والقِبلة، وهي أوَّلُ جمعة أقيمت بالسَّاحل بعد
يوم الفتح، وكان الخطيب والإمام فيها الفقيه جمال الدين عبد اللطيف بن
الشيخ أبي النَّجيب الشُّهْرَوَزْدِي^(٣)، وولاه السُّلطان مناصب الشريعة بَعْكَاءَ،
تولَّى الخطابة والقضاء والحِسبة والوَقْف^(٤).

ومن كتابِ فاضلي^(٥) إلى بغداد بعد فتح عَكَّا يصف كسرة حطين:

(١) الربيعة: القصة يبلغها الرجل، ويرفعها على العامل، وتسميها العامة عندنا في
الشام: عريضة أو استدعاء أو عرض حال. «معجم متن اللغة»: ٦٢١/٢.

(٢) في الأصل: الخاصة، والمثبت من (ك) و(ب).

(٣) ولد ببغداد سنة (٥٣٤ هـ)، وتفقّه على أبيه، ثم سافر إلى خراسان، ودخل ما وراء
النهر، لقي الأئمة وحصل، وعاد إلى بغداد، ثم خرج منها إلى الشام، فوفد على
الناصر صلاح الدين، فولاه قضاء كل بلد افتتحه من السواحل وغيرها، وكان يستنيب
في كل موضع نائباً، ثم رجع إلى بغداد، فأقام بها مدة، ثم سافر إلى إربل، وأقام بها
إلى حين وفاته سنة (٦١٠ هـ). انظر «تاريخ إربل»: ١٧١/١ — ١٧٢، و«التكملة»
للمنذري: ٢٧٦/٢ — ٢٧٧، و«المختصر المحتاج إليه»: ٦٤/٣ و«طبقات الشافعية»
للسبكي: ٣١٢/٨، و«طبقات الشافعية» للإسنوي: ٦٦/٢.

وتقدّمت ترجمة أبيه وأخيه في حاشيتنا رقم ٦ ص ٥٢ من الجزء الأول.

(٤) «سنا البرق»: ٣٠٠ — ٣٠١.

(٥) كتاب القاضي الفاضل وكتاب العماد الآتي بعده جاء في نسخة (ك) على غير هذا =

صَبَّحَ الْخَادِمُ طَبْرِيَّةً، فَاقْتَضَى عُذْرَتَهَا بِالسَّيْفِ، وَهَجَمَ عَلَيْهَا هَجُومَ الطَّيْفِ، وَتَفَرَّقَ أَهْلُهَا بَيْنَ الْأَسْرِ وَالْقَتْلِ، وَعَاجَلَهُمُ الْأَمْرُ فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الْخِدَاعِ وَالْخِتْلِ، وَجَاءَ الْمَلِكُ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ كُفَّارِهِ، وَلَمْ يَشْعُرْ أَنَّ لَيْلَ الْكُفْرِ قَدْ آتَتْ وَقْتُ إِسْفَارِهِ، فَأَضْرَمَ الْخَادِمُ عَلَيْهِمْ نَاراً ذَاتَ شَرَارٍ، أَذْكَرَتْ بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ فِي دَارِ الْقَرَارِ، فَتَرَجَّلَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ عَنْ صَهَوَاتِ الْحَيَادِ، وَتَسَنَّمُوا هَضْبَةً رَجَاءً أَنْ تَنْجِيَهُمْ مِنْ حَرِّ الشُّيُوفِ الْحِدَادِ، وَنَصَبُوا لِلْمَلِكِ خِيَمَةً حُمْرَاءَ، وَضَعُوا عَلَى الشَّرْكَ عِمَادَهَا، وَتَوَلَّتِ الرِّجَالُ حِفْظَ أَطْنَابِهَا فَكَانُوا أَوْتَادَهَا، فَأَخَذَ الْمَلِكُ أَسِيرًا ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾^(١) وَأَسَرَ الْإِبْرَنْسَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - فَحَصَدَ بَذْرَهُ، وَقَتْلَهُ الْخَادِمُ بِيَدِهِ وَوَفَّى بِذَلِكَ نَذْرَهُ، وَأَسَرَ جَمَاعَةً مِنْ مَقْدَمِيِّ دَوْلَتِهِ، وَكُتِبَ ضَلَالَتُهُ، وَكَانَ الْقَتْلَى تَزِيدُ عَلَى أَرْبَعِينَ أَلْفًا، وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنَ الدَّوَاوِيَّةِ، فَلِلَّهِ هُوَ مِنْ يَوْمٍ تَصَاحَبَ فِيهِ الذُّئْبُ وَالنَّسْرُ، وَتَدَاوَلَ فِيهِ الْقَتْلُ وَالْأَسْرُ. أَصْدَرَ الْخَادِمُ هَذِهِ الْخِدْمَةَ مِنْ ثَغْرِ عَكَّا، وَالْإِسْلَامُ قَدْ اتَّسَعَ مَجَالُهُ، وَتَصَرَّفَ أَنْصَارُهُ وَرَجَالُهُ، وَالْكَفْرُ قَدْ ثَبَتَ أَوْجَالُهُ وَدَنَتْ آجَالُهُ.

قال العماد: ومن جُمْلَةِ الْبَشَائِرِ بِكُسْرَةِ حَطِّينَ: وَلَمَّا أُحِيطَ بِالْقَوْمِ آوَى مُلْكِهِمْ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُهُ مِنَ الْعَوْمِ، فَأَسْمَعَهُ السَّيْفُ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ، وَاسْتَوْلَى الْخِذْلَانَ عَلَيْهِمْ بِأَسْرِهِمْ، وَبَرَّدَتْ أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ بِحَرِّ قَتْلِهِمْ وَأَسْرِهِمْ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ بَاقِيَةٌ، وَغَصَّتْ بِقَتْلِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَرْضُ اللَّهِ الْوَاسِعَةِ، وَنَارُ اللَّهِ الْحَامِيَّةَ، فَمَا يَطَأُ مِنْ يَصِلُ إِلَى خِيَمِنَا^(٢) إِلَّا عَلَى رِمَمِهِمُ الْبَالِيَةَ،

= الترتيب، كتاب العماد أولاً، ثم كتاب الفاضل، وهما بعد فصل فتح نابلس الآتي ص ٣١٤، وقد تابعنا ما جاء في الأصل.

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٦.

(٢) في (ك): مخيمنا.

وأُسر الملك وأخوه، وبارونيّته ومقدّموه، ولم يفلت منهم إلا القومص وهو مسلوب، ولا بُدَّ أن ندركه فهو مطلوب. وقد كنا نذرنا ضَرْبَ رَقبة الإبرنس صاحب الكَرْك* الغَدَّار، كافر الكُفَّار، ونشيدة النَّار. فلما رأيناه ضربنا عُنُقَه سريعاً، وسرنا إلى عَكَّا وهي بِيضَةٌ مُلْكُهُمْ، وواسطة سِلْكُهُمْ، ومركزُ دائرة كُفْرِهِمْ، ومجمع جمع بَرِّهِمْ وبَخْرِهِمْ، فتسلَّمناها بالأمان، والصخرة المقدَّسة الآن، بنا تصرخ وتستغيث، وعبادُ الله الصَّالحون قد وَصَلَتْ إِلَيْهِمْ بوعد الله الصَّادق الموارِث، والبشارة بفتح القدس لا تتأخَّر، والهِمُّ بعد هذا الفتح السَّني على ذلك تتوفَّر، والحمد لله الذي تتمَّ الصَّالِحَات بحمده ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾^(١).

فَصْل (٢)

في فَتْحِ نَابُلُس وجُمْلَةٍ مِنَ الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ
بعد فتح عكا وطبرية، وذكر بعض كتب البشائر الشاهدة
لذلك

قال العماد: أقام السلطان أياماً بباب عَكَّا بعد فتح عكا، على التَّل^(٣) مخيماً، وعلى فَتْحِ سائر بلاد السَّاحِلِ مُصَمِّمًا. وكان قد كتب إلى أخيه العادل بمصر بما فتحه الله عليه، فوصل بعسكره، وفتح في طريقه حصن

(١) سورة فاطر، الآية: ٢.

(٢) في (ك) فصل في فتح عدة من البلاد غير ما تقدم، وقد جاء هذا الفصل في (ك) و(ب) عقب خبر تولي الشيخ عبد اللطيف السهروردي مناصب الشريعة بعكا، وقبل كتاب القاضي. انظر ص ٣١٢ من هذا الجزء.
(٣) في الأصل: النيل، والمثبت من (ك) و(ب).

مَجْدَل يابا*، ومدينة يافا* عَنَوَة، فقصده من عسكرنا القُصَاد، ووفد إليه الوُقَاد، وأمره السُّلطان أن يقيم في ذلك الجانب جامعاً للكتائب، ليجتمع به الواصلون من مصر، الآملون معه النُصر.

قال: وتوجّه عِدَّة من الأمراء والعسكرية إلى الناصرة* وقيسارية* والبلاد المجاورة لعكا وطبرية*، ومضى كلُّ فريقٍ في صَوْب، وآبوا بالغنيمة والسَّبي خَيْرَ أَوْب.

قال: فأما القُوْلَة*، فهي قلعة للدَّاوية* حصينة، وفيها ذخائرهم، فلما خرج الدَّاوية منها وقتلوا، لم يبق فيها إلا أتباع وغلمان، فسَلَّموها وجميع ما يجاورها كدُبُورِيَّة* وجِنِين* وزَرَعِين* والطُور*.

وزاد في كتاب «الفتح»: واللَّجُون* ويَّسان* والقَيْمُون*، وجميع ما لعكا وطبرية من الولايات، والزَّيْب* ومَعْلِيَا* والبعنة وإسكندرونة* ومَنَوَات*(١).

قال: وتوجّه مظفر الدين كُوكُبُري إلى الناصرة، فاستباحها، وصَفِرَتْ صَفُورِيَّة* من سُكَّانها، وتوجه بدر الدين دَلْدُرْم وغرس الدين قليج وجماعة من الأمراء إلى قَيْسَارِيَّة* فافتتحوها بالسَّيف، وتسلمت بعدها حيفا وأرُسُوف*، واستولى على تلك الشُّموس والأقمار الكُسُوف والخُسُوف، وحيفا بين عكا وقَيْسَارِيَّة على البحر.

قال: وأما نابُلُس فإن أهل ضياعها ومعظم أهلها كانوا مسلمين، وفي سِلْك الرِّعِيَّة مع الفرنج منتظمين، وهم يجبون كلَّ عام منهم قراراً،

(١) «الفتح القسي» ٩٧ — ٩٨.

ولا يغيّرون لهم شَرعاً ولا شعاراً، فلما عرفوا كسرتهم، وأنهم لا يرجون جبرهم، خافوا من مساكنة المسلمين، ففترّقوا، وكبّسهم أهل الضياع في الدُّور والرباع، وغنموا ما وجدوه من الذّخائر والمتاع، وأوقعوا بضعاثم وضايقوا الحصون على أقويائهم، وطلبها من السُّلطان ابنُ أُخته حسام الدين عمر بن محمد بن لاجين، وهو عزيز عند خاله، مليءٌ بفضله وإفضاله، فأقطعه السُّلطان نابلس وأعمالها، وضياعها ونواحيها وقلاعها، فتوجّه إليها بعسكره، فأول ما أناخ على سَبَسْطِيَّة*، وبها مشهد زكريا عليه السلام، وقد اتخذهُ الأقسَاءُ كنيسةً منذ فارقه الإسلام، وهو متعبّدُهُمُ الْمُعَظَّم، والمشهد المكرّم، وقد حجبوه بالأستار، وحلّوه بالفِضّة والثُّنّار، وعيّنوا له مواسم الزُّوّار، وقَوَمَتُهُ من الرّهّابين فيه مقيمة، ولا يُؤذَن في الزّيارة إلا لمن معه هدية لها قيمة، فدخله وحوى ما فيه، وأبقى ما لا يحسن أن يخلو من مثله المسجد، وفتح للمسلمين أبوابه، وأظهر للمصلّين محرابه. ثم سار إلى نابلس ففتحها بالأمان، واستمال من سُكَّانها من صرف عليه الجِزْيَة بعد زمان، وأجراهم على مالهم من العمارة والبنيان، وبقيت بيده إلى آخر عهده، وعمرت بعدله ورفّده.

قال العماد: وأنشدته يوم فتح القدس قصيدة، أولها:

استوحش القلبُ مُذْ غِبْتُمْ فما أنسا	وأظلمَ اليومُ مذ بَتُّمُ فما شَمَسَا
ما طَبِتْ نَفْساً ولا استحسنْتُ بعدُكُمْ	شيئاً نَفِيساً ولا استعذبتُ لِي نَفْسَا
قلبي وصبري وغمضي والشَّبَابُ وما	ألَفْتُمُ من نشاطي كُلِّهِ خِلْسَا
وكيف يُصْبِحُ أو يُمسي مُحِبُّكُمْ	وشوقُكُمْ يتولاهُ صَبَاحَ مَسَا
عادت معاهدُكُمْ بالجزعِ دارسةً	وإن مَعْهَدُكُمْ في القلبِ ما دَرَسَا
وكنْتُ أَحَدِسُ منكم كُلَّ داهيةٍ	وما دهانا من الهِجْرانِ ما حُدِسَا

لما هدت نارُ شوقي ضيفَ طيفكمُ
ورمتُ تَأنيسه حتى وهبتُ له
أنا الخيالُ نُحولاً فالخيالُ إذا
لَهْفِي على زَمَنِ قَضَيْتُهُ طَرَباً
عسى يعودُ شبابي ناضراً ومتى
وشادنِ يَفِرْسُ الآسَادِ ناظِرُهُ
في العِطْفِ لِينٌ وفي أخلاقِهِ شَوْسٌ^(١)

ومنها:

إن نابِ لَبَسٌ^(٢) مضيئاً لاجئين إلى الـ
يَمِيتُ أعداءه بأسأً ونائلُهُ
مَمَزَّقُ المازق المنسوج عَثِيرُهُ^(٣)
لا زلتَ مستوياً فوق الحصانِ وفي
فَتَى الحسامِ ابنِ لاجئينَ بنا بُلْساً
يُخَيِّي رجاءَ الذي مِنْ نُجْجِه أَيْساً
وقد محا اليوم ليلَ النَّقْعِ فانطمسا
حِصْنِ الحِفاظِ ومن عاداك مُنْتَكِسا^(٤)
وهي طويلة، وقد تقدّمت منها أبيات في وصف كسرة حِطِّين^(٥)،
وسياتي منها أيضاً أبيات عند فتح القدس في مدح السُّلطان صلاح الدين^(٦)،
رحمه الله.

ومن كتابٍ عن السُّلطان إلى سيف الإسلام أخيه: كاتبنا أخانا العادل

(١) الشّوس: الكبر. انظر «اللسان» (شوس).

(٢) اللبس: اختلاط الأمر. «اللسان» (لبس).

(٣) العثير: التراب، العجاج الساطع. «معجم متن اللغة»: ٢٧/٤.

(٤) «سنا البرق»: ٣٠٢ — ٣٠٣.

(٥) انظر ص ٣٠١ من هذا الجزء.

(٦) انظر ص ٣٦٣ — ٣٦٤ من هذا الجزء.

أن يدخل بالعسكر المِضري من ذلك الجانب، فلما بُشِّر بكسر الفرنج، وفتح عكا وطبرية كان قد وصل إلى السّواد*، فجاز العريش* وزار الدّاروم*، وأجفلت قُدّامه البلاد، ووصل إلى يافا، ففتحها عَنوةً، ثم حصر مجدل يابا*، فطلبت منه الأمان.

وقد اشتمل الفَتْحُ على البلاد المعينة، وهي: طبرية*، عكا*، الزّيب*، مَعْلِيَا*، إسكندرونة*، تَبْنِين*، هُونِين*، النّاصرة*، الطّور*، صَقُورِيَّة*، القولة*، جِينِين*، زَرْعِين*، دَبُورِيَّة، عَفْرَبَلَا، بَيْسَان*، سَبَسْطِيَّة*، نابُلُس*، اللّجُون*، أريحا*، سِنَجِل*، البيرة*، يافا، أَرْسُوف*، قَيْسَارِيَّة*، حيفا*، وصرْفَنْد*، صَيْدَا*، بيروت، قلعة أبي الحسن*، جُبَيْل*، مجدل يابا*، جبل الجليل*، مجد حباب، الدّاروم*، غَزّة، عَسْقَلَان*، تل الصّافية*، التل الأحمر، الأطْرُون*، بيت جبريل*، جبل الخليل*، بيت لحم، لُد*، الرّملة*، قَرَتِيَا*، القُدُس، صُوبَا*، هُرْمُز*، سَلْع*، عِفْرَى*، الشَّقِيف*.

٨٩/٢

قال: ولم نذكر ما تخلّلها من القرى والضّباع، والأبراج الحصينة الجارية مجرى الحصون والقلاع، ولكلّ واحدة من البلاد التي ذكرناها أعمال وقرى ومزارع، وأماكن ومواضع، قد جاس المسلمون خلالها، واستوعبوا ثمارها وغلّالها.

قال العماد: ومما أنشأته [في هذا التاريخ]^(١) من شرح الفتوح، وكتبتُ به إلى الديوان، وبدأت بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(٢) الحمد لله على ما أنجز من هذا

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

الوعد، وعلى نُصْرَتِهِ لهذا الدِّينِ الحنيف من قَبْلُ ومن بَعْدُ، وجعل بعد عُسْرِ يُسْرًا، وقد أحدث الله بعد ذلك أمرًا، وهَوْنُ الأمر الذي ما كان الإسلام يستطيع عليه صبرًا، وخُوطب الدين بقوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾^(١) فالأولى في عَصْرِ النبي ﷺ والصَّحابة، والأُخرى هذه التي عَتَقَ فيها من رِقِّ الكآبة، فهو قد أصبح حُرًّا رِيَّانَ الكبد الحرَّى، والزَّمان كهَيْئَتِهِ استدار، والحق بيهجته قد استنار، والكُفْرُ قد رَدَّ ما كان عنده من المُستعار. فالحمد لله الذي أعاد الإسلام جديدًا ثَوْبُهُ بعد أن كان جديذاً^(٢) حَبْلُهُ، مَبِيضًا نَصْرُهُ، مُخَضَّرًا نَصْلُهُ، مُتَسَّعًا فَضْلُهُ، مجتمعا شَمْلُهُ.

والخادمُ يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم، والتَّصرُّ الكريم ما يَشْرَحُ صدور المؤمنين، ويمنح الحبور لكافة المسلمين، ويورد البُشرى بما أنعم الله به من يوم الخميس الثالث والعشرين من [شهر]^(٣) ربيع الآخر إلى يوم الخميس منسلخه، وتلك سبع ليالٍ وثمانية أيام حُسوماً^(٤)، سَخَّرَهَا اللهُ على الكفار ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى، كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾^(٥) وإذا رأيتَ ثَمَّ رأيتَ البلاد على عُروِشِهَا خَاوِيَةٍ^(٦)، ورأيتها إلى الإسلام ضاحكة، كما كانت من الكُفْرِ باكية، فيوم الخميس الأول فُتحت طبرية*، ويوم الجمعة والسبت نزل الفرنج، فَكُسِرُوا الكسرة التي مالهم بعدها^(٧) قائمة، وأَخَذَ اللهُ

(١) سورة طه، الآية: ٣٧.

(٢) الجذيد: المقطوع. الجذ: القطع. «اللسان» (جذذ).

(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

(٤) الأيام الحسوم: الدائمة في الشر خاصة. والحسوم: الشؤم، وأيام حسوم: وضعت بالمصدر: تقطع الخير أو تمنعه، وقيل: المتوالية في الشر. «اللسان» (حسم).

(٥) سورة الحاقة، الآية: ٧.

(٦) في الأصل: خالية، والمثبت من (ك).

(٧) في الأصل: التي بعدها ما لهم قائمة، والمثبت من (ك).

أعداءه بأيدي أوليائه أَخَذَ الْقُرَى وهي ظالمة. وفي يوم الخميس منسلخ الشهر فُتِحَتْ عَكَا بِالْأَمَانِ، وَرُفِعَتْ بِهَا أَعْلَامُ الْإِيمَانِ، وهي أُمُّ الْبِلَادِ، وَأُخِيتْ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. وقد أصدر هذه المطالعة و صليبُ الصَّلْبُوتِ مَأْسُورٌ، وَقَلْبُ مَلِكِ الْكُفْرِ الْأَسِيرِ بِجَيْشِهِ الْمَكْسُورِ مَكْسُورٌ، وَالْحَدِيدُ الْكَافِرِ الَّذِي [كَانَ] ^(١) فِي يَدِ الْكُفْرِ يَضْرِبُ وَجْهَ الْإِسْلَامِ، قَدْ صَارَ حَدِيداً مُسْلِماً يُعَوِّقُ خُطُواتِ الْكُفْرِ عَنِ الْإِقْدَامِ، وَأَنْصَارُ الصَّلِيبِ وَكِبَارُهُ، وَكُلٌّ مِنَ الْمَعْمُودِيَّةِ عُمْدَتُهُ وَالذَّيْرُ دَارُهُ، قَدْ أَحَاطَتْ بِهِ يَدُ الْقَبْضَةِ، وَغَلِقَ رَهْنُهُ ^(٢) فَلَا يَقْبَلُ فِيهِ الْقَنَاظِيرُ الْمَقْنَطَرَةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَطَبْرِيَّةٌ قَدْ رُفِعَتْ أَعْلَامُ الْإِسْلَامِ عَلَيْهَا، وَنَكَصَتْ مِنْ عَكَا مِلَّةُ الْكُفْرِ عَلَى عَقْبَيْهَا، وَعُمِّرَتْ إِلَى أَنْ شَهِدَتْ يَوْمَ الْإِسْلَامِ وَهُوَ خَيْرٌ يَوْمِهَا. وَقَدْ صَارَتْ الْبَيْعُ مَسَاجِدَ يَغْمُرُهَا مِنْ أَمْنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَصَارَتْ الْمَذَابِحُ مَوَاقِفَ لَخُطْبَاءِ الْمَنَابِرِ، وَاهْتَزَّتْ أَرْضُهَا لِمَوْقِفِ الْمُسْلِمِ فِيهَا وَطَالَمَا ارْتَجَّتْ لِمَوْقِفِ الْكَافِرِ. فَأَمَّا الْقَتْلَى وَالْأَسْرَى فَإِنَّهَا تَزِيدُ عَلَى ثَلَاثِينَ أَلْفاً، وَأَمَّا فَرَسَانِ الدَّأْوِيَّةِ * وَالْإِسْبَتَارِ * فَقَدْ أَمْضَى حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ، وَقَطَعَ بِهِمْ سَوْقَ ^(٣) نَارِ الْجَحِيمِ، وَرَحَلَ الرَّاحِلُ مِنْهُمْ إِلَى الشَّقَاءِ الْمَقِيمِ، وَقَتْلَ الْإِبْرَنْسِ كَافِرَ الْكُفَّارِ، وَنَشِيدَةَ النَّارِ، مَنْ يَدُهُ فِي الْإِسْلَامِ كَمَا كَانَتْ يَدُ الْكَلِيمِ.

وَالْبِلَادِ وَالْمَعَاوِلِ الَّتِي فُتِحَتْ: طَبْرِيَّةٌ *، عَكَا *، النَّاصِرَةُ *، صَفُورِيَّةٌ *، قَيْسَارِيَّةٌ *، نَابُلُسٌ *، حَيْفَا *، مَغْلِيَا *، الْفُؤَلَةُ *، الطُّورُ *، الشَّقِيفُ *، وَقِلَاعُ بَيْنَ هَذِهِ كَثِيرَةٌ. وَالْمَلِكُ الْمُظْفَرُّ تَقِي الدِّينِ - ظَفَرَهُ اللَّهُ - مُضَاقٍ لَصُورِ *،

(١) مَا بَيْنَ حَاصِرَتَيْنِ مِنْ (ك).

(٢) انْظُرْ حَاشِيَتَنَا رَقْمَ ٢ ص ١٩ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ.

(٣) فِي (ك) سَيُوفِ.

وَحِصْنِ تَبْنِينَ*، والأخ العادل سيف الدين — نصره الله — قد كُتِبَ بالوصول
بمن عنده من العساكر، وينزل في طريقه على غَزَّة* وَعَسْقَلَانَ*، ويجهز
مراكب الأسطول المنصورة إلى عَكَّا، وما يتأخر النهوضُ إلى القدس، فهذا
هو أَوَانُ فتحه، ولقد دام عليه لَيْلُ الضَّلَالِ، وقد آن [أن] ^(١) يُسْفَرَ فيه الهدى
عن صُبْحِهِ.

فَصْل

فِي فَتْحِ تَبْنِينَ وَصَيْدَا وَبَيْرُوتَ وَجُبَيْلَ وَغَيْرَهَا، وَمَجِيءِ
الْمَرْكِسِ إِلَى صُورَ

قال العماد: أُرْسِلَ السُّلْطَانُ إِلَى تَبْنِينَ* ابْنَ أَخِيهِ تَقِي الدين، فضايقتها،
وكتب إلى السُّلْطَانِ أَنْ يَأْتِيَهُ بِنَفْسِهِ، فوصل إليها في ثلاث مراحل، ونزل
عليها يوم الأحد حادي عشر جُمَادَى الْأُولَى، فراسلوا السلطان، وسألوا
الأمَان، واستمهلوا خمسة أيام لينزلوا بأموالهم، فأْمهلوا، وبذلوا رهائن من
مُقَدَّمِيهِمْ، ووفوا بما بذلوا، وتقرَّبوا بإطلاق الأسارى من المسلمين، فخرج
الأسارى ^(٢) مسرورين، فسرَّ بهم السلطان وسرَّ بهم ^(٣)، وأقرَّهم وقربَّهم،
وكساهم وحباهم، وآتاهم بعد رَدِّهم إلى مغانيهم غناهم، وهذا دأبه في كلِّ
بلدٍ يفتحه، ومثلُك يربحه، أنه يبدأ بالأسارى فيفكُّ قيودها، ويُعيد بعد عدمها
وجودها، فخلَّصَ تلك السنة من الأسر أكثرَ من عشرين ألف أسير، ووقع في
أسره من الكُفَّار مئة ألف، ولما خلَّو القلعة، وأخلوا البُقعة سيَّرههم ومعهم

(١) ما بين حاضرتين من (ك).

(٢) في (ك) و(ب) المأسورون.

(٣) أي أرسلهم سرباً سرباً. «اللسان» (سرب).

من العسكر المنصور، من أوصلهم إلى صور*، وتسلمها يوم الأحد الثامن عشر من جمادى الأولى، وكان شرط عليهم تسليم العدد والدواب والخزائن^(١).

وقال القاضي ابن شدّاد: فتحها السلطان عنوة، وكان بها رجال أبطال شديدون في دينهم، فاحتاجوا إلى معانة شديدة، ونصره الله عليهم، وأسّر من بقي بها بعد القتل، ثم رحل منها إلى مدينة صيدا*، فنزل عليها، ومن الغد تسلمها، وهو يوم الأربعاء الحادي والعشرون^(٢).

٩٠/٢

قال العماد: سَنَحَتْ له صيدا فتصدّى لصيدها، وكانت هِمَّتُهُ في قيدها، وبادرها إشفاقاً من مكر العداة وكيدها. ووصلنا في يومين إلى صيدا، إلى مَنْهَلٍ فَتَحَهَا صَادِقِينَ^(٣)، وعن حِمَى الحقّ دونها لأهل الباطل صَادِقِينَ، ولما نزلنا من الوعر إلى السَّهْلِ، سَهْلٌ مَا تَوَعَّرَ، وصفا من الأمر ما ظَنَّ أنه تَكَدَّرَ، فَصَرَفْنَا الْأَعْيَةَ إلى صَرْفَنْد*، وهي مدينة لطيفة على السَّاحِلِ، مورودة المناهل، ذات بساتين وأشجار، ورياحين وأزهار، فأخذناها وخيَّمْنَا على صَيْدَا، وقد جاءت رُسُلُ صاحبها بمفاتيحها، وقد طلعت الرّاية الصَّفْرَاءُ على أسوارها^(٤)، وأقيمت بها الجمعة والجماعة، واستديمت بها بدل^(٥) العصيان لله الطّاعة. ثم سار في يومه على سَمْتِ بيروت، فنزل عليها يوم الخميس، وضايقها وحاصرها ثمانية أيام، ثم طلبوا الأمان، فأمنهم،

(١) «سنا البرق»: ٣٠٤.

(٢) «النوادر السلطانية»: ٨٠.

(٣) أي عطاش. الصدى: العطش. «القاموس المحيط» (صدي).

(٤) كانت راية صلاح الدين صفراء اللون. انظر ص ٤٥٧ من الجزء الثاني.

(٥) في (ك) بعد.

وتسلّمها يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الأولى.

ومرض العماد، فأملَى كتاب صلح بيروت، ورجع إلى دمشق للمداواة، ثم وجد الشفاء، وعاد إلى السلطان يوم فتح القدس كما سيأتي^(١).

قال: وسلّمت بيروت بحضوري، فكان من سبب إبلالي سروري بفتحها وحُبوري، وخرج منها ومن قلعته الفرنج، وامتلأ بهم إلى صور النّهج، وعاد الإسلام الغريبُ فيها إلى وطنه، وتوطّن الدين بها في مأمّنه، وسكن في مسكنه.

وأما جُبيل*، فإن صاحبها أوك كان في جُملة من نُقِلَ إلى دمشق مع الملك الأسير، فضاق ذُرْعاً بسجنه الذي تعجّل له فيه عذابُ السّعير، فتحدّث مع الصّفي بن القابض في أمره^(٢)، وباح إليه بسرّه، وقال: مالكم في أسري فائدة، ولا غنيمة على فتح جُبيل زائدة، وأنا أسلّمها بشرط سلامتي، فخذوها ولا تقعدوني، فقد قامت قيامتي. فأنهى الصّفيّ حاله، واستصوب ما قاله، فأمر بإحضاره في قيده، والاحتراز من كيده، فوَصِلَ به ونحن على بيروت، فسَلِمَ جُبيل وسَلِمَ، وَرَبِحَ نجاته وَغَنِمَ، ومضى إليها من تولاّها، وانسلّ منها صاحبها وسلاها، وتبعها فتحُ بيروت وتلاها، فانظمت هذه البلاد المتناسقة بالسّاحل في سِلْكٍ من الفتوح مُتّسِق، وأمر من الاستقامة متّفِق. وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجُبيل مسلمين مساكين، لمساكنة الفرنج مُستسلمين، فذاقوا العِزّة بعد الذّلّة، وفاقوا الكثرة بعد القلّة، وصدقت البشائر، وصدحت المنابر، وظهر عَيْبُ البَيْع، وشُهِرَ جَمْعُ الجَمْع، وقُرىء

(١) انظر ص ٣٤٥ - ٣٤٦ من هذا الجزء.

(٢) في (ك) أسره.

القرآن، واستشاط الشيطان، وخرست التواقيس، وبطلت النواميس، ورفع المسلمون رؤوسهم، وعرفوا نفوسهم. وكان كل من استأمن من الكفار يمضي إلى صور محمي الذمار، فصارت صور غش غشهم، ووكركمهم، وملجأ طريدهم، ومنجى شريدهم، وهي التي فر القومص إليها يوم كسرتهم، بل يوم حسرتهم. ولما عرف القومص قرب السلطان منها أخلاها وخلأها، وآوى إلى طرابلس وثواها، فما متع بما ملك، وكان كما قيل:

راح يبغي نجوة من هلاك فهلك^(١)

وتعوضت صور عن القومص بالمركيس، كما يتعوض عن الشيطان بإبليس، فأدرك ذماء^(٢) الكفر بعدما أشفى، وأيقظ روع الروع بعدما أغفى، وضبط صور بمن فيها من مهزومي الفرنج ومنفيها.

وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفر وأغوى شياطينه، وأضرى سراحينه^(٣)، وأخبث ذنابه، وأنجس كلابه، وهو الطاغية الداهية، الذي خلقت له ولأمثاله الهاوية، ولم يكن وصل إلى الساحل^(٤) قبل هذا العام، واتفق وصوله إلى ميناء عكا، وهو بفتحها جاهل، وعمن فيها من المسلمين ذاهل، فعزم على إرساء الشيني* بالمينا، ثم تعجب، وقال: ما نرى أحداً من أهلها يلتقينا! ورأى زي الناس غير الزي الذي يعرفه، فارتاب وارتاع، وحدث عن الدخول توقفه، وبان تنذمه وتأخر تقدّمه، وسأل عن الحال فأخبر

(١) هذا البيت من جملة أبيات في «الحماسة» يروى أنها لأم تأبط شراً، ويقال لأم السليك بن سلكة. انظر «شرح ديوان الحماسة» للتبريزي: ١٩١/٢ (الطبعة البولاقية) والمرزوقي: ٩١٤/٢ - ٩١٨، و«العقد»: ٢٦١/٣.

(٢) الذماء: بقية الروح في المذبوح. «اللسان» (ذمي).

(٣) السرحان: الذئب. «القاموس المحيط» (سرح).

(٤) في الأصل: السلطان، وهو تحريف، والمثبت من (ك) و(ب).

بها، ففكر في النجاة والهواء راكد، والقضاء عنه راقد، فإنه لو خرج إليه مركبٌ لأخذه، ولو وقف له قاصدٌ لوقذه^(١)، فاحتال كيف يخرج بسفينته، ولا يدخل مع فقد سكينته، فسأل عن متولّي البلد، وقال: خذوا لي منه أماناً حتى أدخل، وأرفع ما معي من المتاع وأنقل. فجاء إليه من الأفضل بالأمان، فقال: ما أثق إلا بخط يده، ولا أنزل إلا بعهدته إلى بلده. وهو ينتظر هبوب الرّيح الموافقة، فما زال يردّد الرسل، ويدبّر الحيل حتى وافقته الرّيح فأقلع، وأفلت من الشّرك بعدما وقع، وصار في صور، فزَمّ الأمور، وجراً الكفر بعد خوره، وبصر الشّيطان بعد عماه وعوره، وأرسل رُسُلَه إلى الجزائر وذوي الجرائر، يستعدي ويستدعي، ويستودع ملة الصّليب عبّاده ويسترعي، ويستثير ويستزير، ويستنفر ويستنصر. وثبت في صور ونبت، وجمع إليه من الفرنج من تشّتت، ومافتح بلد بالأمان إلا سار أهله في حفظ السلطان حتى يصيروا بصور، ويأمنوا المحذور، فاجتمع إليها أهل البلاد المفتوحة، بالقلوب المقفلة المغلقة المقروحة، فامتلات وكانت خالية، وانتشأت^(٢) وكانت بالية، وتعلّلت وكانت مُعتلّة، وتعقّدت وكانت مُنحلّة، ولم يحتفل بها فأخّر فتحها، فاستجدت رمقاً بالمهلة، وتصعّبت بعد مقادتها السّهلة، وألهى عن طلبها طلب ما هو أشرف، وهو البيت المقدّس، فإن فتحه من كلّ فتح أنفس، والمركيس في أثناء ذلك يحفر الخندق ويحكمه، ويعقد الموثق ويبرمه، ويجمع المتفرّق وينظّمه^(٣).

(١) الوقذ: شدة الضرب. «اللسان» (وقذ).

(٢) في الأصل: وانتاشت، أي استدركت واستنقذت. «اللسان» (نوش) والمثبت من (ك)

و(ب)، ويعني: تجددت. «المعجم الوسيط»: ٩٢٨/٢.

(٣) «سنا البرق»: ٣٠٦.

فصل

في فتح عسقلان وغزة والداروم وغيرها

قال العماد: لما فرغ السلطان من فتح بيروت وجبيل* ثنى عنانه عائداً على صيدا* وصرفنّد، وجاء إلى صور* ناظراً إليها، وعابراً عليها غير مكتثٍ بأمرها، ولا متحدّث في حصرها، ودلّته الفِرَاسة على أن محاولتها تصعب، ومزاولتها تتعب، وليس بالسّاحل بلد منها أحسن، فعطف الأَعِنَّة إلى ما هو منها أهون. وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدّم الداوية في قيودهما، وشرط معهما، واستوثق منهما أن يطلقهما من الأسر والبليّة، متى تمكّن بإعانتهم من البلاد البقيّة، وعبرَ والعيون صوراً إلى صور*، وما شكّ المركيس أنه بها محصور محصور، فلما أرخى من وثاقه، واتّسع ضيقُ خِناقِه، حلّق في مطار أوطاره، وحرّك لغواته أوتار أوتاره. واجتمع السلطان بأخيه العادل، واتفقا على طيّ المراحل، ونَشَرَ القَسَاطِل، فنزل على عسقلان يوم الأحد سادس عشر جُمادى الآخرة، وشديدها قد لان، فتجلّد من بها على الحصار، وتربّصوا وتصبّروا، فنصب السلطان عليها مجانيق، ورماهم بها، وجسَرَ الثُّقَاب، فَحَسَرَ الثُّقَاب، وباشر الباشورة*، فَرَفَعَ الحِجَاب، واشتدّ القتال، واحتدّ المصال. وراسلهم عند ذلك الملك المأسور، وقال: قد بان عُذْرُكُمْ حين نُقِبَ السُّور. وجرت حالات، وتكرّرت حوالات، وتردّدت رسالات، وقال لهم الملك الأسير: لا تخالفوا ما به أشير، واحفظوا رأسي فهو رأس مالكم، ولا تُخْطِرُوا غيري ببالكم، فإني إذا تَخَلَّصْتُ خَلَّصْتُ، وإذا اسْتَنْقَذْتُ اسْتَنْقَذْتُ. وخرج مقدّمون وشاوروا الملك، ونهجوا في التسليم نهجاً سُلِكَ، وسلّموا عسقلان على خروجهم بأموالهم سالمين، واستوفوا بذلك الميثاق واليمين، وذلك يوم السبت

لانسلاخ جُمادى الآخرة، وخرجوا بنسائهم وأموالهم. وممن استشهد على عسقلان من الأمراء الكُبراء حسام الدين إبراهيم بن حسين المِهْراني، وهو أول أميرٍ افتتح بالشهادة، واختتم بالسَّعادة.

وكان السُّلطان قد أخذ في طريقه إليها الرَّملة*، ويُبْنى* وبيت لحم* والخليل*، وأقام بها حتى تسَلَّم حصون الدَّاوية: غزة* والنطرون* وبيت جبريل*. وكان قد استصحب معه مقدَّم الدَّاوية، وشرَط معه أنه متى سَلَّم معاقلمهم أطلقه^(١)، فسَلَّم هذه المواضع الوثيقة لما أخذ مَوْثِقَه، كذا قال العماد في كتاب «الفتح»^(٢).

وقال في كتاب «البرق»: وما بَرَحَ السُّلطان مقيماً بظاهر عسقلان حتى تسَلَّم المعادل المجاورة لها، والبلاد.

فذكر الدَّاروم*، وغَزَّة*، والرَّملة*، ويُبْنى*، وبيت لحم*، ومشهد الخليل عليه السلام*، ولُد*، وبيت جبريل*، والنطرون^(٣).

قال ابنُ شَدَّاد: ولما فرغ بالُ السُّلطان من هذا الجانب — يعني ناحية بيروت — رأى قصد عسقلان، ولم ير الاشتغال بصور، بعد أن نزل عليها ومارسها، لأن العسكر كان قد تفرَّق في السَّاحل، وذهب كلُّ إنسانٍ يأخذ لنفسه شيئاً، وكانوا قد ضرسوا من القتال، وملازمة الحرب، وكان قد اجتمع في صور — يَسَّر الله فتحها — كلُّ فرنجي بقي في السَّاحل، فرأى قصد عَسقلان لأن أمرها كان أيسر، وتسَلَّم في طريقه مواضع كثيرة كالرَّملة ويُبْنى

(١) في الأصل: أطلقهم، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) «الفتح القسي»: ١١٢ — ١١٤.

(٣) «سنا البرق»: ٣٠٨.

والدَّاروم، فأقام عليها المنجنيقات، وقاتلها قتالاً شديداً، وتسَلَّمها سَلَخ جمادى الآخرة، وأقام عليها إلى أن تسَلَّم أصحابه غَزَّةً وبيت جبرين والنظرون بعد قتال.

قال: وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها من المسلمين خمس وثلاثون سنة، فإن العدو ملكها في السَّابع والعشرين من جُمادى الآخرة سنة ثمانٍ وأربعين وخمس مئة^(١).

وذكر ابنُ القادسي^(٢) نسخةَ كتابِ كتبه السُّلطان إلى بعض أهله، وفيه: انتقلنا إلى الجانب الذي فيه القدس وعسقلان، ففتحنا قلاعَه كُلَّها، وحصونَه جميعها، ومعاقَلَه بجملتها، ومُدَّنَه بأسرها: حيفا*، وقيسارية*، وأرسُوف*، ويافا*، والرَّملة*، ولُد*، وتل الصَّافية*، وبيت جبريل*، والدَّير، والخليل*، ونازلنا عسقلان، وهي المَعْقِلُ المنيع، والحصن الحصين، والتل الرَّفيع، وفيهم من القوة والعُدَّة والعَدَد ما تتقاصر الآمال عن نَيْلِ مثلها، فافتتحناها سِلْماً لتمام أربعة عشر يوماً من يوم نزولنا عليها، ونُصِبَتْ أعلامُ التوحيد على أبراجها وأسوارها، وعُمِرَتْ بالمسلمين، وَخَلَّتْ من مشركيها وكُفَّارها، وكَبَّرَ المؤدِّنون في أقطارها، ولم يبق في السَّاحل من جُبيل إلى أوائل حدود مصر سوى القُدس وصور، والعَزْمُ مصمَّم على قَصْدِ القدس، فالله يسهِّلُه ويُعجِّلُه، فإذا يسَّرَ الله تعالى فَتَحَ القُدسَ مِنَّا إلى صور، والسَّلام. وفي كتابٍ آخر تقدَّم ذِكْرُ بعضه قال: وقد تفرَّق العسكر قومٌ إلى

(١) «النوادر السلطانية»: ٨٠ — ٨١.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥١ من هذا الجزء.

القدس، وابن زين الدين وتقي الدين نازلان على صور، وفتحت هونين* بالسيف، وتبنين* بالسيف، وإسكندرونة* بالسيف.

وفي كتاب آخر: ونزلوا على صور، وكاتبهم ملك بيت المقدس يطلب الأمان، فقال له صلاح الدين: أنا أجيء إليكم. فقال له المنجمون: على نجمك أن تدخل بيت المقدس، وتذهب عين واحدة منك. فقال: قد رضيت بأن أعمى وأخذ البلد.

قال: ولم يمنعه من ذلك إلا فتح صور، وما هي شيء يقف عليه. وقد خطب لأمير المؤمنين الناصر لدين الله على ثلاثين منبراً من بلاد الفرنج.

قال العماد: وفوض السلطان القضاء والحكم والخطابة وجميع الأمور الدينية بمدينة عسقلان وأعمالها إلى جمال الدين أبي محمد عبد الله بن عمر الدمشقي المعروف بقاضي اليمن^(١).

قال: ووصل إلى السلطان من مصر ولده الملك العزيز عثمان، واجتمع به على عسقلان، فقررت عينه بولده، واعتضد بعضده، ووضع يده بتأييد الله في يده. وكان قد استدعى بالأساطيل المنصورة، فوافت كالفتنح^(٢) الكواسر، بالفلك المواخر، وجاءت كأنها أمواج تلاطم أمواجاً، وأفواج

(١) ولد سنة (٥٣٠ هـ) ظناً، وسمع بالإسكندرية من الحافظ السلفي وغيره، وتوجه من دمشق صحبة شمس الدولة تورانشاه إلى اليمن، وأم به في الصلوات، وتقدم عنده، واختص به، وولاه قضاء اليمن، ثم عاد إلى دمشق وحدث بها، توفي بدمشق سنة (٦٢٠ هـ). انظر ترجمته في «التكملة» للمندري: ٩٦/٣، و«تاريخ الإسلام» للذهبي رقم الترجمة (٦٧٤) طبعة مؤسسة الرسالة.

(٢) أي كالأسود الكواسر، يقال: أسد أفتخ: عريض الكف، والفتخ: عرض مخالف الأسد ولين مفاصلها. «اللسان» (فتخ).

تراحم أفواجاً، تدبُّ على البحر عقاربها، وتُخبُّ كقطع الليل سحائبها، .
والحاجب لؤلؤ مقدّمها ومقدامها، وضرغام غابها وهمامها، فطفق يكسر
ويكسب، ويسل ويسلب، ويقطع الطّريق على سفن العدو ومراكبه، ويقف له
في جزائر البحر على مذهبها، وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى^(١).

فَتَحُ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ^(٢) شَرَّفَهُ اللَّهُ تَعَالَى

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: لما تسلَّم السلطانُ عَسْقلان والأماكن التي هي
محيطة بالقدس، شمَّر عن ساق الجدِّ والاجتهاد في قَصْده، واجتمعت إليه
العساكر التي كانت متفرقة في السَّاحل بعد قضاء لُباتنها من النَّهب والغارة،
فسار نحوه معتمداً على الله، مفوضاً أمره إلى الله، منتهزاً فُرصة فتح باب
الخير الذي حُتَّ على انتهازه إذا فُتح بقوله عليه السَّلام: «من فُتح له بابُ
خَيْرٍ فلينتهزه، فإنه لا يُعْلَم متى يُغْلَقُ دونه»^(٣)، وكان نزوله عليه — قدَّس الله
روحه — يوم الأحد الخامس عشر من رجب، فنزل بالجانب الغربي، وكان
مشحوناً بالمقاتلة من الخيالة والرَّجالة، ولقد تحازر أهل الخبرة عدَّة من كان
فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين ألفاً ما عدا النِّساء والصبيان. ثم انتقل
رحمه الله لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي، وكان انتقاله يوم الجمعة
العشرين من رجب، ونصب عليه المنجنقات، وضايقه بالزَّحف والقتال

(١) «الفتح القسي»: ١١٤ — ١١٥.

(٢) في هامش الأصل بخط مغاير: كان ثاني تشرين الأول من الشهور الشمسية، يوم
الجمعة السابع والعشرين من رجب.

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١١٧) وأحمد في «الزهد» (٤٧٢) من حديث
حكيم بن عمير مرسلاً، وأورده المزي في «تهذيب الكمال» ١٧٢/٨ من قول خالد بن
معدان.

وكثرة الرُّمّة، حتى أخذ النَّقَب في السُّور مما يلي وادي جهنّم في قُرْنة شمالية. ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذي لا يندفع، وظهرت لهم أمارات نُصْرَة الحقّ على الباطل، وكان الله قد ألقى في قلوبهم [الرعب]^(١) بما^(٢) جرى على أبطالهم ورجالهم من السَّيِّ والْقَتْل والأسْر، وما جرى على حُصُونهم من الاستيلاء والأخذ، علموا أنهم إلى ما صاروا إليه صائرون، وبالسَّيْف الذي قُتِلَ به إخوانهم يُقْتَلون، فاستكانوا وأُخْلِدوا إلى طلب الأمان، واستقرَّت القاعدة بالمراسلة بين الطَّائِفَتَيْن. وكان تسلُّمه له يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وليلته كانت ليلة المعراج، المنصوص عليها في القرآن المجيد، فانظر إلى هذا الاتِّفَاق العجيب، كيف يسَّر الله عوده إلى أيدي المسلمين في مثل زمان الإِسْرَاءِ بِنَبِيِّهِمْ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم، وهذه علامةٌ قَبُول هذه الطَّاعَة من الله تعالى.

قلتُ^(٣): هذا أحد الأقوال في ليلة المعراج، وفي ذلك اختلافٌ كثير، ذكرناه في مواضع غير هذا، والله أعلم.

ثم قال القاضي: وكان فتوحاً عظيماً شهده من أهل العِلْم خَلَقٌ عظيم، ومن أرباب الخِرَق^(٤) والحِرَق^(٥)؛ وذلك أن النَّاس لما بلغهم ما مَنَّ الله به

(١) ما بين حاصرتين من «النوادر السلطانية».

(٢) في الأصل و(ب) مما، والمثبت من (ك).

(٣) هذا التعقيب ليس في (ك) و(ب).

(٤) يعني الصوفية، والخِرقة التي يلبسونها هي رمز للارتباط بين الشيخ والمريد. انظر «معجم مصطلحات الصوفية» للحفني: ٨٩.

(٥) الحرق: السيوف الماضية، ولعل المراد من أرباب الحرق هم المتطوعة. وفي مطبوع «النوادر» الطرق، وإخالها محرفة.

على يده من فتوح الساحل، شاع قصده للقدس، فقصده العلماء من مصر والشام، بحيث لم يتخلف معروف عن الحضور، وارتفعت الأصوات بالصَّحيج والدُّعاء، والتهليل والتكبير، وخطب فيه، وصُلِّيت فيه الجمعة يوم فتحه، وحُطَّ الصَّليب الذي كان على قُبَّة الصَّخْرة، وكان شكلاً عظيماً، ونصر الله الإسلام نصرَ عزيزٍ مقتدر. وكان قاعدة الصُّلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كلِّ رجلٍ عشرة دنائير، وعن كلِّ امرأة خمسة دنائير، وعن كلِّ صغير ذكر أو أنثى ديناراً واحداً.

قلتُ: كذا قال، وسيأتي في كتاب العماد أن على كلِّ صغير دينارين، وكذا قال: إن الجمعة صُلِّيت ببيت المقدس يوم فتحه، وسيأتي في كتاب العماد التصريح بأنَّ يوم الفتح ضاق عن ذلك، فصُلِّيت في يوم الجمعة الآتي^(١).

ثم قال القاضي: فمن أحضر القطيعة سلِّم بنفسه وإلا أخذ أسيراً، وفرَّج الله عمن كان فيه من أسرى المسلمين، وكانوا خُلُقاً عظيماً زهاء ثلاثة آلاف أسير^(٢)، وأقام عليه رحمة الله يجمع الأموال ويفرِّقها على الأمراء والعلماء، ويوصل من دفع قطيعته منهم إلى مأمنه، وهو صور*.

قال: ولقد بلغني أنه — رحمه الله — رحل عنه ولم يبق معه من ذلك المال شيء، وكان مئتي ألف [دينار]^(٣) وعشرين ألفاً، وكان رحيْلُه عنه يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاثٍ وثمانين [وخمس مئة]^(٤)

(١) تعقيب أبي شامة ليس في (ك). وانظر ص ٣٤١، ٣٤٤ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: نفر، والمثبت من (ك).

(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

(٤) انظر «النوادر السلطانية»: ٨١ — ٨٢، وما بين حاصرتين منه.

فصل

هذا الذي ذكره القاضي في أمر فتح بيت المقدس مختصراً مُجمل، وقد بسطه العماد، فقال: رحل السلطان من عسقلان للقدس طالباً، وبالعزم غالباً، وللتضرُّ مُصاحباً، ولذيل العزِّ ساحباً. والإسلام يخطبُ من القدس عروساً، ويَبْذُل لها في المهرِ نفوساً، ويحمل إليها نُعمى ليحمل عنها بُوسى، ويهدي بِشراً لِيُذهِبَ عُبوساً، ويسمع صرخة الصَّخْرة المستدعية المُستعدية لِأعدائها على أعدائها، وإجابة دعائها وتلبية نداءها، وإطلاع زُهر المصابيح في سماءها، وإعادة الإيمان الغريب منها إلى وطنه، وردّه إلى سكونه وسكنه، وإقصاء الذين أقصاهم الله تعالى بلعنته من الأقصى، وجذب قياد فتحه الذي استعصى، وإسكات الناقوس منه بإنطاق الأذان، وكَفَّ كَفَّ الكُفْر عنه بأيمان الإيمان، وتطهيره من أنجاس تلك الأجناس، وأدناس أدنى النَّاس.

وطار الخبر إلى القدس، فطارَت قلوب من به رُعباً وطاشت، وخَفَقَتْ أفئدتهم خوفاً من جيش الإسلام وجاشت، وتمنَّتِ الفرنج لما شاعت الأخبار أنها ما عاشت، وكان به من مقدّمي الفرنج باليان بن بارزان*، وهو وملكهم في التَّسلُّط سيَّان، والبطرك^(٢) الأعظم وهو الشَّاني العظيم الشَّان، والذين أغفلتهم حياة حِطِّين من الفُرسان الدَّاوية* والاسبتارية* والبارونية*، من ذوي الكُفر والشَّان، وقد حشروا وحشدوا، ونشروا ونشدوا، وحميت

(١) انظر ص ٤١١ من هذا الجزء.

(٢) فوقها في الأصل بخط مغاير: البطريق.

حَمِيَّتُهُمْ، وَأَبَتِ الضَّيِّمَ أَبِيئَهُمْ، وَحَارَتِ غَيْرَتَهُمْ، وَغَارَتِ خَيْرَتَهُمْ، وَتَبَلَّدُوا وَتَلَدَّدُوا، وَقَامُوا وَقَعَدُوا، وَصَوَّبُوا وَصَعَّدُوا، فَاشْتَغَلَ بَالُ بَالِيَانِ، وَاشْتَغَلَ بِالنَّيِّرَانِ، وَخَمَدَتْ نَارُ بَطَرِ الْبَطْرِكِ، وَضَاقَتْ بِالْقَوْمِ مَنَازِلُهُمْ، فَكَأَنَّ كُلَّ دَارٍ مِنْهَا شَرَكٌ لِلْمُشْرِكِ، وَقَامُوا لِلتَّدْبِيرِ فِي مَقَامِ الْإِدْبَارِ، وَتَقَسَّمَتْ أَفْكَارُ الْكُفَّارِ، وَأَيَسَ الْفَرْنَجِ مِنَ الْفَرَجِ، وَأَجْمَعُوا عَلَى بَذْلِ الْمُهْجِ، وَقَالُوا: هَاهُنَا نَظْرُحُ الرُّؤُوسَ، وَنُسَبِكُ الثُّفُوسَ، وَنَسْفِكُ الدِّمَاءَ، وَنَهْلِكُ الدِّهْمَاءَ، وَنَصْبِرُ عَلَى اقْتِرَاحِ الْقُرُوحِ، وَاجْتِرَاحِ الْجُرُوحِ، وَنَسْمَحُ بِالْأَرْوَاحِ شُحًّا بِمَحَلِّ الرُّوحِ، فَهَذِهِ قُمَامَتُنَا^(١)، فِيهَا مَقَامَتُنَا، وَمِنْهَا تَقُومُ قِيَامَتُنَا، وَتَصِيحُ هَامَتُنَا، وَتَصَحُّ نَدَامَتُنَا، وَتَسِيحُ عَلَامَتُنَا، وَتَسُحُّ غَمَامَتُنَا، وَبِهَا غَرَامَتُنَا، وَعَلَيْهَا غَرَامَتُنَا، وَبِإِكْرَامِهَا كِرَامَتُنَا، وَبِسَلَامَتِهَا سَلَامَتُنَا، وَبِاسْتِقَامَتِهَا اسْتِقَامَتُنَا، وَفِي اسْتِدَامَتِهَا اسْتِدَامَتُنَا، وَإِنْ تَخَلَّيْنَا [عَنْهَا]^(٢) لَزِمْتَ لَامَتُنَا، وَوَجِبَتْ مَلَامَتُنَا، فَفِيهَا الْمَصْلَبُ وَالْمَطْلَبُ، وَالْمَذْبَحُ وَالْمَقْرَبُ، وَالْمَجْمَعُ وَالْمَعْبَدُ، وَالْمَهْبِطُ وَالْمَصْعَدُ، وَالْمَرْقَى وَالْمَرْقَبُ، وَالْمَشْرَبُ وَالْمَلْعَبُ، وَالْمَمُوءُ وَالْمُذْهَبُ، وَالْمَطْلَعُ وَالْمَقْطَعُ، وَالْمَرْبَى وَالْمَرْبِعُ، وَالْمُرْخَمُ وَالْمَخْرَمُ، وَالْمُحَلَّلُ وَالْمُحَرَّمُ، وَالصُّورُ وَالْأَشْكَالُ، وَالْأَنْظَارُ وَالْأَمْثَالُ، وَالْأَشْبَاهُ وَالْأَشْبَاحُ، وَالْأَعْمَدَةُ وَالْأَلْوِاحُ، وَالْأَجْسَامُ وَالْأَرْوَاحُ، وَفِيهَا صُورُ الْحَوَارِيِّينَ فِي حَوَارِهِمْ، وَالْأَخْبَارُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَالرَّهَائِينَ فِي صَوَامِعِهِمْ، وَالْأَقْسَاءَ فِي مَجَامِعِهِمْ، وَالسَّحَرَةَ وَحِبَالِهَا، وَالْكُهْنَةَ وَخِيَالِهَا، وَمِثَالَ السَّيِّدَةِ وَالسَّيِّدِ، وَالْهَيْكَلُ وَالْمَوْلِدُ، وَالْمَائِدَةُ وَالْحَوْتُ، وَالْمَنْعُوتُ وَالْمَنْحُوتُ، وَالتَّلْمِيزُ

(١) القمامة من أعظم الكنائس في بيت المقدس. وتسمى أيضاً كنيسة القيامة. انظر «الموسوعة الفلسطينية»: ٦١٥/٣ - ٦١٦، وانظر ص ٤٠١ من هذا الجزء.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

والمعلّم، والمهد والصّبي المتكلّم، وصورة الكبش والحمار، والجنّة والثّار، والنواقيس والنواميس.

قالوا: وفيها صُلبَ المسيح، وقُرّب الذّبيح، وتجسّد اللاهوت، وتألّه النّاسوت، واستقام التركيب، وقام الصّليب، ونزل الثّور، وزال الدّيجور، وازدوجت الطبيعة بالأقنوم، وامتزج الموجود بالمعدوم، وعمدت معمودية المعبود، ومخضت البتول بالمولود، وأضافوا إلى متعبّدهم من هذه الضّلالات ما ضلّوا فيه بالشّبه عن نهج الدلالات، وقالوا: دون مقبرة ربنا^(١) نموت، وعلى خوف فوتها منا نفوت، وعنّها ندافع، وعليها نقارع، ومالنا ألا نقاتل! وكيف لا ننازع ولا ننازل! ولأيّ معنى نتركهم حتى يأخذوا، وندّعهم حتى يستخلصوا ما استخلصناه منهم ويستنقذوا!

وتأهبوا وتباهوا، وما انتهوا بل تناهوا، ونصبوا المجانيق على الأسوار، وسترُوا بظلمات السّتائر وجوه الأنوار، واستشاطت شياطينهم، وسرّحت سراحينهم، وطغت طواغيتهم، وأصلبت مصاليتهم، وهاج هائجهم، وماج مائجهم، وحضّتهم قسوسهم، وحرّضتهم رؤوسهم، وحرّكتهم نفوسهم، وجاءتهم بجوى الشّوء جواسيسهم.

ونصبوا على كلّ نيق^(٢) منجنيقاً، وحفروا في الخندق حفراً عميقاً، وشادوا في كلّ جانب رُكناً وثيقاً، وفرّقوا على كلّ بُرج فريقاً، وجعلوا إلى كلّ طارق بالرّدّى للرّدّ طريقاً، وأعادوا كلّ نهج واسع بما وعّروه وعوّروه به مضيقاً، وتحمل كلّ منهم ما لم يكن له من قبل مطيقاً، وخرج جماعة منهم

(١) في هامش الأصل: «يعني بذلك عيسى ابن مريم عليه السلام».

(٢) النيق: أرفع موضع في الجبل. «القاموس المحيط» (نوق).

على سبيل اليزك^(١)، فأدلجوا ليلاً، واعترضوا عِدَّةً من أصحابنا غارَّةً، على طريق السَّلامة مارَّةً، وكان قد شَدَّ من المقدمة المنصورة أميرٌ تقدَّم، وما تحرَّز ولا تحزَّم، وما ظن أن قُدَّامه من له جرأة الإقدام، ومن يعتقد أن ربحَ كُفْرِهِ خسارةُ الإسلام، وهو الأمير جمال الدين شروين بن حسن الزرزارى، فوقعوا عليه في موضع يُعرف بالقيبات، فاستشهد رحمه الله.

ولما بلغ السُّلطان خبره ساءه وغمَّه.

ثم أقبل بإقبال سلطانه وأبطال شجاعانه، وأقيال أولاده وإخوانه، وأشبال مماليكه وعِلمانه، وكبار^(٢) أمرائه وعِظام أوليائه، وأصبح يسأل عن الأقصى، وطريقه الأدنى، وفريقه الأسنى، ويذكر ما يفتح الله عليه بِحُسْنِ فَتْحِهِ من الحُسْنى، وقال: إنَّ أَسعدنا من الله على إخراج أعدائه من بيته المقدَّس فما أَسعدنا، وأي يد له عندنا إذا أَيْدَنا، وإنه مكث في أيدي الكُفْرِ إحدى وتسعين سنة لم يتقبَّلِ اللّهُ فيه من عابِدٍ حسنة، ودامت هِمَمُ الملوكِ دونه متوسِّنة^(٣)، وخَلَّتِ القرون عنه متخلِّية، وخَلَّتِ الفرنج به متولِّية، فما ادَّخر الله فضيلة فَتَحِهِ إلا لآلِ أيوب، ليجمع لهم بالقَبول القُلوب.

وكيف لا يهتَمُّ بافتتاح^(٤) البيت المقدَّس والمسجد الأقصى، المؤسَّس على التَّقوى، وهو مقامُ الأنبياء، وموقف الأولياء، ومعبد الأتقياء، ومَزَارُ أبدال الأرض وملائكة السَّماء، ومنه المحشر والمنشر، ويتوافد إليه من أولياء الله بعد المَعْشَرِ المَعْشَرِ، وفيه الصَّخرة التي صِيَّنتْ جِدَّةً أبهاجها من

(١) اليزك، كلمة فارسية تعني طلائع الجيش.

(٢) في (ك) و(ب): وكرام.

(٣) أي نائمة. «اللسان» (وسن).

(٤) في الأصل: بفتح، والمثبت من (ك) و(ب).

الإنهاج^(١)، ومنها مِنْهاجِ الْمِعْراج، ولها الْقَبَّةُ السَّمَاءُ التي هي على رأسها كَالثَّاج، وفيه وَمَضَ البارق وَمَضَى الْبُراق، وأضاءت ليلة الإسراء بحلول السَّراج الْمُنير فيه الْآفاق.

ومن أبوابه باب الرَّحْمَةِ، الذي يستوجب داخله إلى الْجَنَّةِ بالدخول الْخُلُود، وفيه كرسي سليمان ومحراب داود، وفيه عين سُلوَان* التي تُمَثِّل لواردها من الكوثر الحوض المورود، وهو أَوَّلُ الْقِبْلَتَيْنِ، وثاني الْبَيْتَيْنِ، وثالث الْحَرَمَيْنِ، وهو أحد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النَّبَوِي أنها تُشَدُّ إِلَيْها الرِّحال^(٢)، وتعتقد الرجاء بها الرِّجال. ولعل الله يعيده بنا إلى أَحْسَنِ صورة، كما شَرَّفَه بذكره مع أَشْرَفِ خَلْقَه في أَوَّلِ سورة، فقال عَزَّ من قائل ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾^(٣) وله فضائل ومناقب لا تُحصى، ومنه كان الإسراء، ولأَرْضِهِ فُتِحَتِ السَّماء، وعنه تُؤَثَّرُ أُنْباءُ الْأَنْبياءِ وآلاءُ الْأَوْلِياءِ، ومشاهد الشُّهداء، وكرامات الْكُرَماءِ، وعلامات الْعُلَماءِ، وفيه مَبَارَكُ الْمَبَارَ، ومسارحُ الْمَسارِ، وصخرتها الطُّولى الْقِبْلَةُ الْأولى، ومنها تعالت الْقَدَمُ النَّبَوِيَّةُ، وتوالت الْبَرَكَةُ الْعُلُويَّةُ، وعندها صَلَّى نَبِينَا ﷺ^(٤) بِالنَّبِيِّينَ، وَصَحِبَ الرُّوحَ الْأَمِينَ، وَصَعِدَ مِنْها إلى أَعْلَى عِلِّيِّينَ، وفيه محراب مريم عليها السَّلَام، الذي قال الله فيه ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾^(٥)، ولنهاره التَّعَبُّدُ، ولليلة الْمَحْيَا، وهو

(١) الْإِنْهَاجُ: الْبَلَى، ومنه: نَهَجَ الثوب، بلي وخلق. «اللسان» (نَهَج).

(٢) يُشِيرُ إِلَى قَوْلِهِ ﷺ فِيمَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٩٩٥) وَمُسْلِمٌ (١٣٩٧) (٥١١) فِي «صَحِيحَيْهِمَا» «لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ، مَسْجِدِي هَذَا، وَمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى».

(٣) سُورَةُ الْإِسْرَاءِ، آيَةُ: ١.

(٤) مَا بَيْنَ حَاضِرَتَيْنِ مِنْ (ك).

(٥) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ، آيَةُ: ٣٧.

الذي أسَّسه داود، وأوصى ببنائه سُلَيْمان، ولأجل إجلاله أنزل الله سبحانه ﴿سُبْحَانَ﴾ وهو الذي افتتحه الفاروق، وافتتحت به سورة من الفرقان.

فما أجَلُّه وأعظمه، وأشرفه وأفخمه، وأعلاه وأجله، [وأسماءه]^(١) وأسناه، وأيمن بركاته وأبرك ميامنه، وأحسن حالاته وأحلى محاسنه، وأزين مباهجه وأبهج مزايئه، وقد أظهر الله طُوله وطُوله بقوله ﴿الذي بارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ وكم فيه من الآيات التي أراها الله نَبِيَّه، وجعل مسموعنا من فضائله مرثية^(٢)، ووصف للسلطان^(٣) من خصائصه ومزايه، ما وثَّق على استعادة آلائه موثيقه وألاياه^(٤)، وأقسم لا يبرح حتى يبرَّ قَسَمُه، ويُزفع بأعلاه عَلمُه، وتخطو^(٥) إلى زيارة موضع القدم النبوية قَدَمُه، ويصني إلى صرخة الصَّخْرة، وسار واثقاً بكمال الثُّصرة^(٦).

فصل

في نزول السُّلطان على البيت المقدَّس وحَضْره وما كان من أمره

قال العماد: نزل السُّلطان على غربي القُدس يوم الأحد خامس عشر

(١) ما بين حاصرتين من «الفتح القسي».

(٢) في الأصل: مروية، والمثبت من (ك).

(٣) في الأصل و(ك) ومطبوع «الفتح» ص ١٢٤: ووصف السلطان. وفي (ب) ووصف إلى السلطان، وهي الأشبه، ومنها أستأنسا ما أثبتناه.

(٤) ألايا جمع، مفردها الألوة: اليمين. «اللسان» (ألا).

(٥) في الأصل: وتخطر، والمثبت من (ك).

(٦) انظر «الفتح القسي»: ١١٦ — ١٢٤، و«سنا البرق»: ٣٠٩ — ٣١٠ وقد لفق أبو شامة ما جاء فيهما.

رجب، وكان في القدس حينئذٍ من الفرنج سئون ألف مقاتل من فارس وراجل، وسائف ونابل، فاستهدفوا للسَّهام، واستوقفوا للحِمَام، وقالوا: كل واحد منا بعشرين، وكل عشرة بمتين^(١)، ودون القيامة تقوم^(٢) القيامة، ولحبّ سلامتها تُقلَى السَّلامة.

وأقام السُّلطان خمسة أيام يدور حول البلد، ويقسّم على حصاره أهل الجَلَد، وأبصر في شماليه أرضاً رضيها للحصار، متّسعة لمجال الأسماع والأبصار، ممكنة للدنو من النقب إن صار من حَيِّر الأنصار. فانتقل إلى المنزل الشمالي يوم الجمعة العشرين من شهر رجب، فما أصبح يوم السبت إلا على منجنقات قد نُصِبَتْ بلا نُصَب، فدام القتالُ والنزال، وفرسانهم في كلِّ يوم يباشرون دون الباشورة*، أمام جموعهم المحصورة المحسورة المحسورة، ويبرزون ويُبارزون، ويطاعنون ويحاجزون، والمطيعون لله عليهم يحملون، ومن دمائهم يَنْهَلُونَ ويُنْهَلُونَ، كما قال الله تعالى فيهم ﴿يَقَاتِلُونَ﴾^(٣) في سبيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ* وممن استشهد مبارزاً، ولم يشهد بينه وبين الجَنَّة حاجزاً، الأمير عز الدين عيسى بن مالك^(٤)، كان أبوه صاحب قلعة جَعْبَر*، فإنه حاز بشهادته في المحشر المفخر، وأكثر ورود الموت إلى أن ورد الكُوثر، وكان في كلِّ يوم يَفْرُسُ فوارس، ويلقى بِبِشْر وجهه وجوه المَنُون العَوَابِس، فاغتمَّ المسلمون من صرعته، وهان عليهم إتلاف المُهَج بعد تلاف مُهَجَتَه، فركبوا أكتاف الرّهَج، حتى وصلوا إلى

(١) في (ك) بمئين.

(٢) في (ك) يوم.

(٣) في النسخ الخطية: يجاهدون، وهو خطأ. سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٤) في النسخ الخطية: بلك، وهو تحريف. وانظر ص ٤١ من الجزء الثاني.

الخنديق فخرقوه، وبدّدوا جمعه^(١) وفرّقوه، والتصقوا بالشّور فنقبوه، وعلّقوه وحشوه وأحرقوه، وصدّقوا وعد الله في القتال لأعدائه فصّدّقوه، ولما عصّتهم الحرب، وقع الشّور واتّسع الثّقْب، فصعّب عليهم الهَيّن وهان لنا الصّعْب، عقدوا ما بينهم مشورة، وقعدوا ما بينهم ضرورة، وقالوا: مالنا إلا الاستئمان، فقد أخذ لنا بخطّه الخِذْلان والحِزْمان. وأخرجوا كبراءهم ليؤخذ لهم الأمان، فأبى السُّلطان إلا قتالهم وتدميرهم واستئصالهم، وقال: ما أخذ القدس إلا كما أخذوه من المسلمين منذ إحدى وتسعين سنة، فإنّهم استباحوا القتل، ولم يتركوا طَرْفاً يستزير سِنّة، فأنا أفني رجالهم قتلاً، وأحوي نساءهم سبيّاً. فبرز ابن بارزان* ليأمن من السُّلطان بمَوثقه، وطلب الأمان لقومه، وتمنّع السُّلطان، وتسامى في سَوْمه، وقال: لا أمن لكم ولا أمان، وما هوانا إلا أن نُديم لكم الهَوان، وغداً نملككم قسراً، ونوسعكم قتلاً وأسراً، ونسفك من الرّجال الدِّماء، ونسلط على الدُّريّة والنِّساء السِّباء. وأبى في تأمينهم إلا الإباء، فتعرّضوا للتضرّع، وخوّفوا عاقبة التسرع، وقالوا: إذا أيسنا من أمانكم، وخفنا من سُلطانكم، وخبنا من إحسانكم، وأيقنّا أنه لا نجاة ولا نجاح، ولا صلح ولا صلاح، ولا سلم ولا سلامة، ولا نعمة ولا كرامة، فإنّا نستقتل فنقاتل قتال الدم والندم، ونقابل الوجود بالعدم، ونلقي أنفسنا على النّار، ولا نُلقي بأيدينا إلى التّهْلُكة والعار، ولا يجرح منا واحد حتى يجرح عشرة، وإنّا نحرق الدُّور، ونخرب القُبّة، ونترك عليكم في سبينا السُّبّة، ونقلع الصّخرة، ونوجدكم عليها الحسرة، وقُبّة الصّخرة نرميها وعين سُلوان* نعميها، والمصانع نخسفها، والمطالع نكسفها، وعندنا من المسلمين خمسة آلاف أسير، ما بين غنيّ وفقير، وكبير وصغير، فنبداً

(١) في الأصل: جمعهم، والمثبت من (ك) و(ب).

بقتلهم، وشتّ شملهم، وأما الأموال، فإنّا نَعْطِيْهَا ولا نُعْطِيْهَا، وأما الذّراري فإنّا نَسَارِعُ إلى إعدامها^(١) ولا نَسْتَبْطِئُهَا، فلا يحصل لكم سبيّ، ولا يُقبل لكم سعي، ولا يسلم عمر ولا عمارة، ولا نُضَار ولا نُضَارَة، ولا نساء ولا صبيان، ولا جماد ولا حيوان، فأَيُّ فائدةٍ لكم في هذا الشُّحِّ، وكلُّ خُسْرِ لكم في هذا الرِّئح، ورُبَّ خيبةٍ جاءت من رجاء التُّجَح، ولا يصلح السوء سوى الصُّلح. فشاور السُّلطان أصحابه، فقيل له: الصُّواب أن نحسبهم أَسَارَانَا، فنبيعهم نفوسهم، ونعمّم بصغار الجزية رؤوسهم، ويدخل في القطيعة رؤوسهم ورئيسهم.

واستقرّ بعد مراودات ومفاوضات وتفويضات، وضراعات من القوم وشفاعات، على قطيعةٍ تُكَمَّلُ بها الغبطة، ويحصل منها الحوطة، اشتروا بها منا أنفسهم وأموالهم، وخلّصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم، على أنه من عجز بعد أربعين يوماً عما لزمه، أو امتنع منه وما سلّمه، ضُرِبَ عليه الرِّق، وثبت في تملكه لنا الحق، وهو عن كلّ رجل عشرة دنانير، وعن كلّ امرأة خمسة دنانير، وعن كل صغيرة أو صغير ديناران، الذكر والأنثى في ذلك سِيَّان، ودخل ابن بارزان* والبطرك* ومقدّمَا الدّاوية* والاستبار* في هذا الضمان، وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء، وقام بالأداء، ولم يَنْكُلْ عن الوفاء، فمن سلّم خرج من بيته آمناً، ولم يعد إليه ساكناً، وسلّموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة، وردّوه بالرغم ردّ الغضب^(٢) لا الوديعة، وكان فيه أكثر من مئة ألف إنسان من

(١) في الأصل: إعدامها، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) في الأصل: وردوه بالرغم والغضب، والمثبت من (ك) و(ب).

رجالٍ ونساء وصبيان، فأغلقت دونهم الأبواب، ورُتِّبَ لعرضهم واستخراج ما يلزمهم الثُّوب، ووُكِّلَ بكلِّ بابٍ أمير ومقدَّم كبير، يحصر الخارجين، ويحصي الوالجين، فمن استخرج منه خرج، ومن لم يَقُمْ بما عليه قعد في الحبس وعَدِمَ الفَرَج، ولو حُفِظَ ذلك المال حَقَّ حفظه، لفاز منه بيت المال بأوفر حَظِّه، لكنَّما تَمَّ التفریط، وعَمَّ التخليط، فكلُّ من رشا مشى، وتَنَكَّبَ الأُمْناء نَهَجَ الرُّشد بالرُّشا، فمنهم من أدلي من السور بالحبال، ومنهم من حُمِلَ مخفياً في الرِّحال، ومنهم من غُيِّرَت لبسته فخرج مخفياً في زِيِّ الجُنْد، ومنهم من وقعت فيه شفاعَةٌ مطاعة لم تقابل بالرَّدِّ، والثقات الأكابر استنابوا أصاغر، فأقاموا في تقصيرهم المعاذر، وقنوا لأنفسهم الذِّخائر، وادَّعى مُظَفَّر الدين كوكبُوري أن منهم جماعة من أرمن الرُّها*، وعددها ألف نسمة، فجعل إليه أمرها، وكذلك صاحب البيرة* ادَّعى بالعدَّة الكثيرة زهاء خمس مئة أرمني ذكر أنهم من بلده، وأن الواصل منهم إلى القُدس لأجل متعبده، وكذلك كل من استوهب عدة استطلقها، وحصل له مرفقها، ثم تولى الملك [العاذل]^(١) استخراجهم، وقوَّم على الأداء منهاجهم، وسهل على السلطان لفرط جوده الاستخراج والإخراج، وتوفر لعامة الناس وخاصَّتهم ببهجة سماحه الابتهاج، وما فينا إلا من فاز بأوفى نصيب، ورعى منه في مرعى خصب.

وكان السُّلطان قد رتَّب عدة دواوين، في كلِّ ديوانٍ منها عدَّة من الثُّوب المضرين، وفيهم من الشَّاميين، فمن أخذ من أحد الدواوين خطأ بالأداء، انطلق مع الطُّلقاء، بعد عرض خطه على مَنْ بالباب من الأُمْناء

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

والوكلاء، فَذَكَرَ لي من لا أَشْكُ في مقالِه أنه كان يحضر في الديوان، ويطلع على حاله، فربما كتبوا خطأ لمن نَقَدَه في كيسهم، وتَلَبَّسَ أمر تلييسهم، فكانوا شركاء بيت المال لا أُمْناءه، وخانوه على ما حصل لكلٍّ من الغنى والنفع وما أضر غناه، ومع ذلك حصل لبيت المال ما يقارب مئة ألف دينار، وبقي من بقي تحت رِقٍّ [و] ^(١) إِسار، ينتظر به انقضاء المُدَّة المضروبة، والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة.

٦/٢

وكانت بالقُدُس ملكة رومية متعبدة مترهبة، في عبادة الصليب متصلة، وعلى مُصابها مُتَلَهِّبة، وفي التمسُّك بِمِلَّتِها متصعبة متعصبة، أنفاسها متصاعدة للحُزن، وعبراتها متحدرة تحذر القطرات من المُزن، ولها حال ومال ومتاع، وأشياء وأشياء وأتباع، فعازت بالسلطان فأعازها، ومنَّ عليها وعلى كل من معها بالإفراج، وأذن في إخراج كلِّ ما لها في الأكياس والأخراج، وأبقى عليها من مصوغات صُلبانها الذهبية المجوهرة ونفائسها، وكرائم خزائنِها، فخرجت بجميع مالها وحالها، ونسائها ورجالها، وأسقاطها وأعدالها، والصناديق بأقفالها، وتبعها من لم يكن من أتباعها، فراحَت فَرَحَى، وإن كانت من شجنها قَرَحَى.

وكذلك خرجت زوجة الملك المأسور كي، وهي ابنة الملك أماري*، وكانت مقيمة في جوار القُدُس مع مالها من الخَوَل والخَدَم والجواري، فاستأذنت في الإلمام بزوجها، وكان بقيده مقيماً في بُرْج نابُلُس* موكلأ به ليوم وَعَدٍ تسريحه، فأذن لها، فخلصت هي ومن تبعها، وأقامت عند زوجها.

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

وكذلك خرجت الإبرنساسة أم هنفري، وهي ابنة فليب وزوجة الإبرنس الذي سُفِكَ دمه يوم حطين، وهي صاحبة الكرك* والشوبك*، وهي بنوآبها محوطة، وبرأيها منوطة، فجاءت سائلة في ولدها العاني، فوعدت أنها إن سمحت بحضنها سمح لها بابنها، ثم أعفيت وأطلقت وعُصمت، واستحضر ابنها هنفري بن هنفري من دمشق إليها، وأقرَّ برؤيته عينيها، وسار معها من الأمراء والأمناء من يتسلَّم منهم تلك المعادل، فخرجت فمضت إلى حصونها لتسلَّمها، فمانعها أهلها ودافعوها، وردُّوها ذليلة خائبة، فسكنت صور، واستودعت السلطان ابنها المأسور، ووعدا بإطلاقه إذا تسلَّم تلك الحصون^(١).

فصل

في ذكر يوم الفتح وبعض كتب البشائر إلى البلاد

قال العماد: تسلَّم المسلمون البلد يوم الجمعة أوان وجوب صلاتها، وطلعت الرآيات النَّاصرية على شُرُفاتها، وأغلقت أبوابها لحفظ ناسها، في طلب القطيعة والتماسها، وضاق وقتُ الفريضة، وتعدَّر أداؤها. وللجمعة مقدِّمات وشروط لم يمكن استيفاؤها، وكان الأقصى لا سيما محرابه مشغولاً بالخنازير والخنا، مملوءاً بما أحدثوا من البناء، مسكوناً ممن كفرَ وغَوَى، وضلَّ وظلم وجنَّى، مغموراً بالنَّجاسات التي حرَّم علينا في تطهيره منها^(٢) الونى، فوقع الاشتغال بالأهم الأنفع، والأتَمُّ الأنجح الأنجع، وهو حفظهم وضبطهم إلى أن يوجد شرطهم، ويؤخذ قسطهم.

(١) انظر «الفتح القسي» ١٢٤ - ١٢٩ و«سنا البرق»: ٣١٠ - ٣١٣.

(٢) في الأصل: منا، والمثبت من (ك).

واتفق فَتَحُ البيت المقدَّس في يومٍ كان في مثل ليلته منه المِغْراج، وتمَّ بما وَضَحَ من مِنْهاج النَّصْرِ الابتهاجُ، وجلس السُّلطان بالمخيم ظاهر القدس للهنا، وللقاء الأكابر والأمراء، والمتصوفة والعلماء، وهو جالسٌ على هيئة التواضع وهيبة الوقار، بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الأبرار، ووجهه بنور البشر سافر، وأمله بعزُّ التُّجج ظافر، وبأبه مفتوح، ورَفْدُه ممنوح، وحجابه مرفوع، وخطابه مسموع، ونشاطه مُقبِل، وبساطه مُقبِل، ومحياه يلوح، وريَّاه يفوح، قد جَلَتْ له حالة الظَّفَر، وكأنَّ دَسْتَه به^(١) هاله القمر، والقراء جلوسٌ يقرؤون ويُرشدون، والشُعراء وقوف يُنشِدون وينشدون، والأعلام تبرز لتنشر، والأقلام تُزبر لتبشِّر، والعيون من فرط المَسَرَّة تدمع، والقلوب للفرح بالنُّصرة تخشع، والألسنة بالابتهاج إلى الله تَضَرَّع، وبُشِّر المسجد الحرام بخلاص المسجد الأقصى، وتلي ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى﴾^(٢) وهُنَّء الحجرُ الأسود بالصَّخْرة البيضاء، ومنزل الوحي بمحلِّ الإسراء، ومقرُّ سيِّد المرسلين وخاتم النبيين بمقرِّ الرُّسل والأنبياء، ومقام إبراهيم بموضع قدم المُصطفى ﷺ وعليهم أجمعين، وأدام أهل الإسلام بشرف بِنْيَتِهِ مستمتعين. وتسامع النَّاس بهذا النَّصْرِ الكريم، والفتْح العظيم، فوفدوا للزيارة من كلِّ فجٍّ عميق، وسلكوا إليه في كلِّ طريق، وأحرموا من البيت المقدَّس إلى البيت العتيق، وتنزَّهوا من زهر كراماته في الرُّوض الأنيق^(٣).

وقد سبق أن العماد كان توجَّه إلى دمشق والسُّلطان على بيروت^(٤)،

(١) في الأصل: من، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٣) «الفتح القسي»: ١٣٠ - ١٣٤.

(٤) انظر ص ٣٢٣ من هذا الجزء.

للألم الذي أَلَمَّ به، فلما سمع بنزول السُّلطان على القُدس أبلَّ من مرضه، وتوجَّه إليه، فوصل يوم السَّبت ثاني يوم الفتح، قال: وطلعت عليه صُبحاً عند طلوع الصُّبح، فاستبشر بقدومي، وخلع على البشير قبل رؤيتي، وكان أصحابه يطالبونه بكتب البشائر ليغربوا بها ويشرقوا، وهو يقول: لهذه القوس بار، ولهذه المأدبة قار^(١).

قال: فكتبتُ في ذلك اليوم سبعين كتاب بشارة، كل كتاب بمعنى بديع وعبرة، فمنها الكتاب إلى الديوان العزيز ببغداد أفتحه بهذه الآية ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾^(٢).

الحمد لله الذي أنجز لعباده الصَّالحين وَعَدَ الاستخلاف، وقهر بأهل التَّوحيد أهل الشُّرك والخلاف، وَخَصَّ سُلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة، ومكَّن دينه المُرتضى، وبَدَّلَ الأَمَن من المخافة، وذخر هذا الفتح الأسنى والنَّصر الأهنى للعصر الإمامي النَّبوي النَّاصري على يد الخادم؛ أخلص أوليائه، وأخصَّ مَنْ اعتزَّاه باعتزائه إليه وانتمائه. وهذا الفتح العظيم والنُّجح الكريم قد انقضى [من]^(٣) الملوك الماضية، والقرون الخالية على حسرةٍ تمنَّيه، وحيرةٍ ترجيه، ووحشة اليأس من تسنيّه، وتقاصرت عنه طوال الهَمِّم، وتخاذلت عن الانتصار له أملاكُ الأُمم، فالحمد لله الذي أعاد القُدس

٩٧/٢

(١) قار من القرى: وهو الضيافة. انظر «معجم متن اللغة»: ٥٥٤/٤. وانظر «سنا البرق»: ٣١٣.
(٢) سورة النور، الآية: ٥٥.
(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

إلى القدس، وأعادته من الرجس، وحقق من فتحه ما كان في النفس، وبدل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس، وجعل عز يومه ماحياً ذل الأمس، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهال والضلال من البطرك والقس، وعبد الصليب ومستقبلي الشمس، وقد أظهر الله على المشركين الضالين جنوده المؤمنين العالمين، وقطع دابر القوم الظالمين، والحمد لله رب العالمين، فكأن الله شرف هذه الأمة، وقال لهم: اعزموا على اقتناء هذه الفضيلة التي بها فضلكم، وحقق في حقهم امثال أمره في قوله الكريم: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾^(١).

وهذا الفتح قد أقدره الله على افتضاضه بالحرب العوان، وجعل ملائكته المسوومة له من أعز [الأنصار وأظهر]^(٢) الأعوان، وأخرج يوم الجمعة من بيته المقدس أهل الأحد، وقمع من كان يقول: إن الله ثالث ثلاثة بمن يقول هو الله أحد. وأعان الله بإنزال الملائكة والروح، وأتى بهذا النصر الممنوح، الذي هو فتح الفتوح، وقد تعالى أن يحيط به وصف البليغ نظماً ونثراً، وعيد الله في البيت المقدس سراً وجهراً، وملكت بلاد الأزدن وفلسطين غوراً ونجداً، وبراً وبحراً، ومثلت إسلاماً، وكانت قد ملئت كفراً، وتقاضى الخادم دين الدين الذي غلق رهنه^(٣) دهرأ، والحمد لله شكراً، حمداً يجدد للإسلام كل يوم نصراً، ويزيد وجوه أهله ببشرى فتوحه بشراً، وأبى الخادم إلا استباحة أموالهم وأرواحهم، وحسم داء اجتراحهم باجتياحهم، وأنه لا بد من تطهير الأرض المقدسة برجس دمائهم، وقتل رجالهم وسبي

(١) سورة المائدة، الآية: ٢١.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩ من هذا الجزء.

ذرائعهم ونسائهم، ولما أيسوا من النجاة، وفتح أبوابها المرتجة من أسبابها المرتجة، خوَّفوا بقتل الأسارى المسلمين، وهم أكثر من ثلاثة آلاف، وأنهم يفسدون جميع ما في البلد من مالٍ وبناء بهدمٍ وإحراقٍ وإتلافٍ، وعُرفَ أنَّ جهلهم يحملهم على كل نكرٍ شنيعٍ، وأنهم تدعوهم فظاظتهم إلى كلِّ ضرٍّ فظيعٍ، وبذلوا إطلاق الأسرى، وشرطوا حمل مال الفدا، وما زالوا يبتهلون ويضُرَّعون، ويدُلُّون ويخشعون، حتى استقرَّ الأمر أنهم يُفادون، وأجيبَت الصخرة المُقدَّسة عند استصراحها، وبركت البركة النَّاهضة إليها في مناخها، وغُسِلَت من أوضارها وأوزارها بعبرات العيون، ورجع اضطرابها إلى السكون، وفُديت بنواظر أهل الإيمان، وصوفحت للوفاء بعهدا المجدد بالإيمان، وذكَرَت في يوم خلاصها من رجب ليلة المِغْراج، وتجلَّى إظلامها بإنارة سنا السَّراج، وأُعِيدَت الكنائس مدارس، وأُضحت بإحياء رميم التوحيد رسوم الكُفْرِ عافيةً دوارس، وزالت ضجرة الصَّخرة، ونعَّشها الله من العثرة، وبُدِّل بالأُنس فيها ما كان من الوحشة والحسرة، فالحمد لله على هذه النُّصرة، والمِنَّة له على هذه المَبَرَّة.

وقد تسلَّمنا مع بيت المقدس جميع المعازل من حَدِّ الدَّاروم* إلى حَدِّ طرابُلُس*، وكل ما كان جارياً في مملكة ملك القدس ونابُلُس*، ولم يبق إلا صور*، فإنها قد تأخَّر انتزاعها، وتقدَّم امتناعها، والفرنج فيها قد ضَرَبَت بآمالها أطماعها، وهي بتأييد الله مستفتحة، والقلوب بتذليل جامحها منسرحة.

ومن كتب آخر: فُتِحَ بيتُ الله المقدَّس الذي عَجَزَ الملوك عن تمنيه فكيف تسنيه! وماتت الأطماع دونه فلم تطمع فيه، فَمَنَّ الله علينا بتذليل صَعْبِهِ، وإعذاب شربه، وتسهيل وَغْرِهِ، وتحصيل فخره، وقضى الملوك في

ليله، وجئنا نحن عند^(١) إسفار فجره. وقد كانت الصخرة مُستَصرخة، ومطايا الكفر بكلاكلها عليها منوَّخة، فأُجيبَت دعوتها، وأُصِيتَ حظوتها، وتناثرت على حَجَرها يواقيتُ الشِّفاه، وقوبلت قِبَلتها بِقُبَلِ الأفواه، ودنا المسجد الأقصى للقاصي والدَّاني، وزال رين العائن وقَرَّت عَيْنُ الرَّاني.

هذا فتحٌ عظيمٌ قدره، جسيمُ فخره، فاضلُ عصره، كاملُ نصره، غَيْرُ منسيٍّ إلى يومِ الحشرِ ذِكْرُه، وقد اقْتَضَى بنا بِكْرُه، واقتَضَى بسيفنا وِثْرُه، وزَهَرَ زَهْرُه، وظَهَرَ قَهْرُه، وهلك الكافر وكُفِرُه، وجاء من نِعَمِ الله ما لَزِمَ على الأبد شُكْرُه.

أبينَا إِلا إِحراقهم بنيران الصَّوارم، وإغراقهم في أمواه الطُّلَى والجماجم، وتسَلَّمنا القدس في يوم كانت في مثل ليلته ليلة المِغْراج، وَحَنَّتِ الصَّخرة حنين جذع المعجزة الأولى في ظلمة ليلها إلى ذلك السَّراج الوَهَّاج، والحمد لله على سلوك ما وَضَحَ من المِناهج، ونضوب ما كان نبع من الأجاج، وخلا بيت الله لقصد الحاج، وصدق الحاج.

مبشرة بما فَضَّلَ الله به عصرنا، وعَجَّلَ به نَصْرنا، ونَظَّمَ به سِلْكنَا، وطَرَّزَ به مُلْكنا، وهو فتحُ بيتِ الله المقدَّس الذي غَلِقَ رَهْنُه^(٢) دَهْرًا، واغْتَضَبَت من الإسلام قَهْرًا، وارتدَّتْ كُفْرًا، وامتدَّتْ به الأيامُ عُمْرًا فَعَمْرًا، وتقاصرت الهِمَمُ عن استفتاحه، وأَصْلَدَ زَنْدُ^(٣) الملوك فيه فَعَجَزُوا عن اقتداحه، ونزلوا بالرَّغْمِ على التماس الكُفْر واقتراحه، واحتملوا لحفظ

(١) في الأصل: عليه، والمثبت من (ك).

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩ من هذا الجزء.

(٣) أصلد الزند، صوت، ولم يور. «القاموس المحيط» (صلد).

مواضعهم نكاية اجترامه واجتراحه، فلا جَرَمَ أعدَّه الله لأيامنا، وذخره لمواسم اعتزامنا، وفتحه بنا إظهاراً لفضيلة هذه الأيام، وإيثاراً لما نحن نؤثره من إعلاء كلمة الإسلام، فأصرخنا الصخرة، وأهدينا إليها النُصرة، ومكناً من [قلبيها]^(١) وإن كان من الحَجَرِ المسرَّة.

وتسلَّمنا القدس يوم الجمعة السَّابع والعشرين من رجب، وقضينا من حَقِّ هذا البيت ما وَجَبَ، وجاء القدُّس إلى القدُّس، وزال الرُّجسُ وذَهَبَ، وتولَّى فيه الإسلام وتولى عنه الكُفر، وعَظُمَ الأجرُ وفَخِمَ الفُخرُ، وطاب النَّشرُ وزاد البِشْرُ، ومُحي الرُّجسُ وثَبَتَ الطُّهْرُ، وهلك المشرك، وذَلَّ البطرُك، وأقصى من المسجد الأقصى السَّاجدُ إلى الشَّمسِ، وتجلَّى الحَقُّ بنوره الكاشف لِلْبَئسِ.

عاد بيت الله المقدَّس إلى طهارته، ونطق منه لسان التقديس بعبارته، وتهلَّل وجه السَّعد بنضارته، وخصَّنا القَدَرُ في إتمام أمره بخطابه وإشارته، وزادت الوجوه بِشْراً ببشارته، وقد أعاد الله إلى الإسلام المسجد الأقصى، ومَلَكنا أَدْنَاهُ وأقصاه، وأسنى دولتنا بما سناه من فتحه وهناه، وعلموا أنهم هالكون، وأنَّا لهم بالقَهْر مالكون، وفي سبيل القَتْلِ والأسْرِ والسَّبي سالكون، فخرجوا يطلبون الأمان، ويبدلون الإذعان، حتى يسلِّموا المكان، فقليل لهم: الآن وقد عَصَيْتُمْ، ورضيتُم بما فيه هلاكهم وأبَيْتُمْ، فَرَوَّعوا بقتل أسارى المسلمين وهم ألوف، وعرفنا أنهم لا يقصِّرون عن^(٢) شَرٍّ، فإن جهلهم معروف. فتضرَّعوا وتشفَّعوا وتعفَّروا في تراب الدُّلِّ ووقعوا، وتقرَّر

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) في (ك): في.

عليهم مال اشتروا به أنفسهم، فترعوا به من الخوف ملبسهم، وسَلَمُوا
الْقُدُسَ، فأعدناه إلى الْقُدُسِ، وطهرناه من الرِّجْسِ، وأجبنا دَعْوَةَ الصَّخْرَةِ،
وغسلنا عنها وَضَرَ الْكُفْرِ بعبرات العبرة.

فُتِحَ بَيْتُ اللَّهِ المقدس، الذي عَلِقَ رَهْنُهُ^(١)، وطال في يد الْكُفْرِ أَسْرُهُ
وَسِجْنُهُ، واستهْلَ بَغْرُ أَيْامِنَا مُزْنُهُ، وأَنَارَ يُمْنُهُ، وعَادَ بِإِحْسَانِنَا حُسْنُهُ، وزال بنا
خَوْفُهُ وزاد أَمْنُهُ، وبقي قريب مئة سنة في يد الكفر مسجوناً، وبرِجْسِ الشَّرْكَ
مشحوناً، حتى أعاد الله بنا رَوْثَقَهُ، وأذهب قَلَقَهُ، وأعدم فَرْقَهُ.

وهذا فَتْحٌ لم يكن منذ عَصَرَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم له نظير، وأُفِقُ
الدِّينَ به منيفٌ منير، وشَرَفُ أَيْامِنَا به كبير، وهو إمام فتوحنا الْمُدْخِرَةَ لَنَا،
وما لها بتأييد الله تأخير.

فُتِحَ الْبَيْتُ الْمُقَدَّسُ الذي لم يخطر تَمَنِّيُّه بخاطر الملوك، وتوَعَّرَ على
عزائمهم نَهْجُ طريقه المسلوك، وحالت دونه قنطاريات* الفرنج وطوارقُها،
وجنت على الإسلام فيه حوادثُ اللَّيَالِي وطوارقُها، حتى دعانا الله لفتحه
فأجبناه، ووعدنا بالفوز فأصْبَنَاهُ، وأوردنا مشرع صفائه فاستعذبناه، وعَرَفْنَا
طِيبَ عَرَفِهِ فاستطْبَنَاهُ، وذخَرْ لعصْرنا هذا الْفَتْحَ^(٢) فاستقبلناه.

رَأَوْا أَحْجَارَ الْمَنْجَنِيقَاتِ قد أَنْزَلَتِْ الْأَسْوَءَ بِالْأَسْوَءِ، وَغَارَتْ الصُّخُورُ
لِلصَّخْرَةِ الْمُبَارَكَةِ فَجَدَّتْ فِي إِنْقَاذِهَا مِنَ الْإِسَارِ، وَهَتَمَتْ ثَنَايَا الْأَبْرَاجِ،
وَأَعْضَلَ بِهَا فِي الْعِلَاجِ دَاءُ الْأَعْلَاجِ، فَعَايَنُوا الْحِمَامَ، وَشَاهَدُوا الْمَوْتَ
الزُّوَامَ.

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩ من هذا الجزء .

(٢) في (ك) الفخر .

أقامت المنجنوقات على حصانته جَدَّ الرَّجْمِ، وواقعت ثنانيا شُرُفاته
بالهَتْم، وتطارت الصخور من نُصْرَةِ الصَّخْرَةِ المباركة، وحَجَرَتْ على حُكْمِ
السُّورِ بِسَفِّهِ الأحجار المتداركة، وحسرت الثُّقُوبُ عن عروسِ البلد نُقْبَ
الأسوار، وانكشفت للعيون انكشاف الأسرار.

نَهَضَتْ لِإِصْرَاحِ الصَّخْرَةِ المقدَّسة الصُّخُور، وطارت من أوكار
المجانيق كأنَّها الصُّقُور، ما أَسَرَ البيت الحرام بِفِكَاكِ أخيه من الأسر، وإجراء
ماء الإسلام فيه لَغَسْلِ أَوْضارِ الكُفْرِ، وإنقاذ الصَّخْرَةِ المباركة ممن قلوبهم
كالْحِجَارَةِ أو أَشَدُّ قَسْوَةً، وإحافها من البهاء والرَّوْنَقِ والعِزِّ الإسلامي كُسُوءَةً،
ولقد غُسِلَتْ من أَدْرَانِ الكُفْرِ وأدناسه، وطُهِرَتْ من أَرْجاسِ أُنْجَاسِهِ، بمياه
العيون التي بها قَذِيتْ، وصُقِلَتْ بِشِفَاهِ المؤمنين وطالما بأيدي الكفر
صَدِيتْ، وأعيد إليها ذِكْرُ اللَّهِ تعالى بعد طول الغُرْبَةِ، وتَذَكَّرَتْ بِصُحْبَةِ
الأولياء ما سَلَفَ لها فِي عَهْدِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم من حُسْنِ الصُّحْبَةِ،
ودنا المسجد الأقصى فأقصى منه السَّاجِدَ للشمس، وسكن العلماءُ والفُقهاءُ
في مواطنِ البَطْرِكِ والقَسْرِ، وأُبدِلَ النَّاقُوسُ بالأَذَانِ، بل الكُفْرُ بالإيمان،
وَصَلَّى مُحْرَابٌ^(١) الإسلام في المحراب الذي أسلم، وقد سَنَى اللهُ تعالى هذا
الفتح الأعظم، والنُّجْحَ الأفخم.

وقد نَدَبَ فلان في الرُّسَالَةِ القُدْسِيَّةِ، والبشارة العُرسِيَّةِ، التي تَمَّ بها
مَأْتَمُ الكُفْرِ وَعُزْسُ الإسلام، وعاد بها المسجد الأقصى إلى مدانة المسجد
الحرام، وتجلَّتْ عروس الصخرة لعيون النَّاظِرِينَ، وفاضَتْ عليها مياه أحداق

(١) المحراب والمحرَّب: الشديد الحرب، الشجاع، ويعني به صلاح الدين. «القاموس
المحيط» (حرب).

الأولياء، فَرَحَضَتْ^(١) عنها أوضاع الكافرين، وكان الإسلام منه غريباً فرجع إلى وطنه، وسكن منه إلى التوطن في مسكنه، وزالت مخاوفه وعاد إلى مأمته، وفاض العُرف من منبعه، وأنار التوحيد من مَطْلَعِه، وعلا سَنَا السُّنَّة، وحلَا جَنَى الْجَنَّة، وخلصت مواضع المُخلصين من أولياء الأُمّة، وخرج البطارقة والقسيسون من مساجد الأئمة، وعادت الكنائس مدارس، وآيات التثليث بها دوارس، ووجوه الايمان باشرة، ووجوه أهل الصليب عوابس، ومحت أيامُن هذه الأيام تلك الليالي الدوامس، وقد أقيمت الجُمع والجماعات، ونُظِّفَتْ بل طُهِرَتْ تلك السّاحات، وصَلَّى في محرابه المِخْرَب^(٢)، ودرّس فيه الخلاف والمذهب، فالحمد لله الذي تسنّى بفضله هذا المطلب، وتيسّر بتأييده الأمر الأصعب.

فصل

قال العماد: وكان المولى الأجل الفاضل متأخراً بدمشق لعارضٍ من الله بشفائه، فمن جملة ما كتب السلطان إليه: أما الفتح فمن جملة بركات همّته، وآثار جذبات عزمته، فإن الله تعالى سهّل ما سجّل أهل الذّهر بأنه صعب، وأهّب نسيَم النّضر إبان يقال ليس له مهَبّ، وخصّنا بهذا الشّرف، وألحقنا في هذه الفضيلة بصالحي السّلف، وقد بُدِّل الكُفرُ بالإيمان، والتّاقوس بالأذان. وجلس العلماء والفقهاء في مجالس الرُّهبان، وفُتِحَتْ بهذا الفتح من بيت الله المقدّس أبواب الجنان، وتراحَمَ الخارجون من البلد

(١) رحضت: أي غسلت. «القاموس المحيط» (رحض).

(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٣٥٢ من هذا الجزء.

من الفرنج والنصارى في دخول أبواب النيران، وصَلَّى محارب الدِّين في المحراب، ورفع الملائكة ما كان تكاثف بأنفاس الكُفْر من الحجاب، وغُسِلَتِ الصَّخْرَةُ المباركة من أوضارها بماء العيون، الفائض الفائق غزارة الأمواه، وَقُبِّلَتِ بالشِّفاه وبوشرت بالأفواه، وَطَهَّرَتِ بأهل العِلْم والحِلْم من أدناس أهل الجهل والسِّفاه.

والحمد لله ثم الحمد لله، وما كان يعوزنا وَيَعُوزُهُ إِلَّا حُضُورُ المجلس السَّامِي أَسْمَاهُ الله، فما لهذا الأمر رُوءاء إِلَّا بِرُوءائِهِ، ولا لِلأُنْسِ لقاء إِلَّا بِأُنْسِ لِقَائِهِ، وكاد يُصَحِّفُ الفَتْحُ لولا صالح دعائه، [وَحُسْنُ] ^(١) آلَاة.

والحمد لله الذي خَصَّنَا بهذه الخاصِّية، وَفَضَّلَنَا بِالثُّبُرةِ الْقُدْسِيَّةِ، وذخر لنا هذا الْبِرَّ الذي عَجَزَ بل قَصَرَ عَنْهُ مَلُوكُ الْبَرِّيَّةِ.

والحمد لله على هذه النُّعْمَةِ السَّنيَّةِ، فما أَشَوْقُنَا وَأَشَوْقُ الْقُدُسِ إِلَى قَدُومِهِ، وما أَظْمَأْنَا وَأَظْمَأَهُ إِلَى خُصُوصِ الرَّيِّ بِهِ وَعُومِهِ، ويا حَظَّ هذا البيت الذي هو أخو البيت الحرام من زيارته، وما آتَقَ رَوْضَهُ وَأَوْفَقَ رِضَاهُ إِذَا فَازَ بِنَظَرِهِ وَنُضَارَتِهِ، ونحن نعرف أَنَّ هِمَّتَهُ الْعَالِيَةَ تَحْدُوهُ، وَأَنَّ دِينَهُ إِلَى إِجَابَةِ دَعْوَتِهِ تَدْعُوهُ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَكْمُلَ صَحَّتُهُ، وَيُنْعِشَ نَهْضَتَهُ، وَيَقْوِيَ قُوَّتُهُ ^(٢)، وما أَقْمَنَّا بِهَذَا الْبَلَدِ إِلَّا لِتَطْهِيرِهِ، وَتَرْتِيبِ أَمْرِهِ وَتَدْبِيرِهِ.

وَمَنْ كُتِبَ أُخَرُ: نصرنا الله بملائكته المسوِّمين، وأوليائه المؤمنين. واستخلصنا بتأييده البلاد وانتزعناها، واقتضضنا بالبيض الذكور من الحَرْبِ

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) في (ك) ينعش قوته، ويقوي نهضته.

العَوَان أَبْكَارَ الْفُتُوحِ وافترعناها، وهذه موهبةٌ مُذهبةٌ، وَمَنْقَبَةٌ لا تبلغ إلى وَصْفِهَا بلاغة موجزة ولا مُسَهِّبة، ونوبة ما للإسلام بعدها نبوة، وحظوة في مذاق أهل التقوى والمغفرة حُلُوة، وبُشْرَى تجلو الوجوه بِبُشْرِهَا، وتضوُّع مَهَابِّ المحابِّ بِبُشْرِهَا، ويُغْرِقُ أَهْلَ الشَّرْقِ والغَرْبِ سِجَالُ غَرْبِهَا، وتَقَرُّ عَيْنُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْبُعْدِ والقُرْبِ بأنوار قُرْبِهَا.

عاد التقديس إلى الأرض التي به وُصِفَتْ، وأحاطت البركة بالبقعة التي بقوله تعالى ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾^(١) عُرِفَتْ، وَظَهَرَتْ الصَّخْرَةُ الْمُقَدَّسَةُ وَطُهِرَتْ، وَزُهِيتْ أَيَّامُنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ وَزَهَرَتْ، وَقُمِعَتْ الطَّائِفَةُ الْبَاغِيَّةُ^(٢) مِنْ أَهْلِ التَّثْلِيثِ بِأَهْلِ التَّوْحِيدِ وَقُهِرَتْ، وَاسْتَبْشَرَ الْمَحْرَابُ وَالْمَنْبَرُ بِخُطْبَتِهِ وَإِمَامِهِ، وَافْتَخَرَ الزَّمَانُ بِعَصْرِ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَيَّامِهِ، وَقَدْ تَمَلَّكْنَا الْبِلَادَ السَّاحِلِيَّةَ وَتَسَلَّمْنَاهَا حِصْنًا حِصْنًا، وَنَقَضْنَا مِنَ الْكُفْرِ رُكْنًا رُكْنًا، وَأَجَلَيْنَا الْكُفَّارَ مِنْهَا فَاجْتَلَيْنَا بِهَا مِنَ الْحَسَنِ حُسْنًا.

فَنَحْ شَرَّفَ اللَّهُ بِهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ، وَجَلَا بِهِ الْعُمَّةَ، وَكَشَفَ الْمُلِمَّةَ، بَلْ شَرَّفْنَا بِفَخْرِهِ، وَأَعَدَّنَا لِدُخْرِهِ، وَخَصَّنَا بِفَضِيلَتِهِ فِي عَصْرِهِ، وَأَجْرَى لَنَا مَا كَانَ قَدْ أَبْطَأَ مِنْ عَادَةِ نَصْرِهِ، وَقَمَعَ بِأَهْلِ دِينِهِ مِنْ عَسَاكِرِنَا أَهْلَ كُفْرِهِ، وَقَامَتْ بَوَاتِرُنَا بِوُتْرِهِ^(٣)، وَغَرَّقَ الْبِلَادَ السَّاحِلِيَّةَ مِنْ دَمِ الْكُفْرِ بِبَحْرِهِ، وَأَصْرَخَتْ الصَّخْرَةُ، وَحَفَّتْ بِهَا التُّصْرَةُ، وَزَالَتْ عَنْهَا الْمَضْرَّةُ، وَعَادَتْ إِلَيْهَا الْمَبْرَّةُ، وَنُعِشَتْ مِنْهَا الْعَثْرَةُ، وَفَاضَتْ لَهَا مِنْ عَيْنِ الْمُؤْمِنِينَ الْعَبْرَةُ، وَزُقَّتْ عُرُوسُهَا الْبَكْرُ مُحَصَّنَةً

(١) سورة الإسراء، الآية: ١.

(٢) فِي (ك) الطاغية.

(٣) بواتر جمع، مفردها باتر وهو السيف القاطع. «اللسان» (بتر). والوتر: القتل.

«اللسان» (وتر).

لم تُقْتَضَ منها العُدْرَة، وحالت العُرَّة^(١) ولاحتِ الغُرَّة، وظهرت من صدف قُبْهَا الدَّرَّة، وصُوفحت آثَارُ القَدَمِ النَّبَوِيَّةِ بالإيمان، وجُدِّدت بعهدِها صَفْقَةُ الإيمان، وبَطَلَ النَّاقُوسُ بِحَقِّ الأَذَانِ، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَانِ لِأَهْلِهَا، وَأُخْرِجَ منها أَهْلُ النِّيرَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى هَذَا الْإِحْسَانِ حَمْدًا مُسْتَمِرًّا عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ.

ومن كتابِ إلى سيف الإسلام باليمن: فَتُحَ بَيْتُ اللَّهِ الْمُقَدَّسِ الَّذِي غَلِقَ نَيْفًا وَتَسْعِينَ سَنَةً مَعَ الْكُفْرِ رَهْنُهُ^(٢)، وَطَالَ فِي أَسْرِهِ سِجْنُهُ، وَاسْتَحْكَمَ وَهْنُهُ، وَقَوِيَ نُكْرُهُ، وَضَعُفَ رُكْنُهُ، وَزَادَ حَزَنُهُ، وَزَالَ حُسْنُهُ، وَأَجْدَبَتْ مِنَ الْهُدَى أَرْضُهُ وَأَخْلَفَ مُزْنُهُ، وَوَاصَلَهُ خَوْفُهُ وَفَارَقَهُ أَمْنُهُ، وَاشْتَغَلَ خَاطِرُ الْإِسْلَامِ بِسَبَبِهِ وَسَاءَ ظَنُّهُ، وَذَكَرَ فِيهِ الْوَاحِدُ الْأَحَدَ الَّذِي تَعَالَى عَنِ الْوَلَدِ أَنَّ الْمَسِيحَ ابْنَهُ، وَرُبَّعَ فِيهِ التَّثْلِيثَ فَعَزَّ صُلَيْبَهُ وَصُلْبَهُ، وَأَفْرَدَ عَنْهُ التَّوْحِيدَ فَكَادَ يَهِي مَتْنُهُ، وَدَرَجَ الْمُلُوكُ الْمُتَقَدِّمُونَ عَلَى تَمَنِّيِ اسْتِنْقَاذِهِ، فَأَبَى الشَّيْطَانُ غَيْرَ اسْتِيلَاةٍ وَاسْتَحْوَاذِهِ، وَكَانَ فِي الْغَيْبِ الْإِلَهِيِّ أَنْ مَعَادِهِ فِي الْآخِرَةِ إِلَى مَعَادِهِ، وَطَنَتْ أَوْطَانُهُ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَرَوَايَةِ الْحَدِيثِ وَذِكْرِ الدُّرُوسِ، وَجُلِّيَتْ الصَّخْرَةُ الْمُقَدَّسَةُ جَلْوَةَ الْعُرُوسِ، وَزَارَهَا شَهْرُ رَمَضَانَ مُضِيفًا لَهَا، نَهَارُ صَوْمِهَا بِالتَّسْبِيحِ، وَلَيْلُ فِطْرِهَا بِالتَّرَاوِيحِ.

ومن كُتُبِ أُخَرَ: الْبَيْتُ الْمُقَدَّسُ صَارَ مُقَدَّسًا، وَأَصْبَحَ لِلْإِسْلَامِ مُعَرَّسًا، وَرَجَعَ أَهْلُ التَّقْوَى إِلَيْهِ فَقَدْ كَانَ بِهَا مُؤَسَّسًا، وَخَرَسَ الْجَرَسُ، وَذَهَبَ الدَّنَسُ، وَبَطَلَ النَّاقُوسُ، وَخَرَجَ الْقُسُوسُ، وَزَالَ الْأَذَى بِالْأَذَانِ، وَصُوفِحَتِ الصَّخْرَةُ الْمُقَدَّسَةُ بِأَيْمَانِ أَهْلِ الْإِيمَانِ، وَمَا صَلَّتْ فِي مُحَرَابِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ

(١) حالت: زالت. والعُرَّة: الجرب، والقذر. «اللسان» (حول، عر).

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩ من هذا الجزء.

الثِّقَاة^(١)، حتى صَلَّتْ في محارِبِ رِقَابِ الْكُفْرِ الْمَشْرِقِيَّاتِ، وما تَمَّ الرِّضَى
بِفَتْحِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى حتى أَقْصَى مِنْهُ من أَقْصَاءِ اللَّهِ عَنْ رِضَاهِ، وما تَبَوَّأَ
الْمُسْلِمُ الْمُصَلِّي فِيهِ مَثْوَاهُ من الْجَنَّةِ حتى تَبَوَّأَ الْكَافِرُ الْمُصَلِّيُ بِالنَّارِ مَثْوَاهُ.

صُوفِحَ مَوْضِعُ الْقَدَمِ الْمُبَارَكَةِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ بِالْأَيْدِي، وَقَالَ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ
أَهْلِ الْإِخْلَاصِ: أَهْلًا بِكُمْ فَمَا أَحْسَنَ الْخِلَاصِ مِنْ وَلايَةِ أَهْلِ التَّعَدِّي، وَعَادَ
الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى لِلْمُصَلِّينَ الْمُقَرَّبِينَ جَنَّةً وَمَنَارًا، بَعْدَ أَنْ كَانَ لِلْمُقَصِّينَ
الْمُضَلِّينَ نَارًا وَدَارًا، وَتَسَلَّمَ مِخْرَبُ^(٢) الْإِسْلَامِ مِخْرَابَهُ، وَأَصْبَحَتْ لِأَلْفِهِ لَمَّا
أَلْفَى أَصْحَابَهُ، وَتَرَجَّحَ الْمَنِيرُ لِتَرْتُّمِ الْخُطِيبِ، وَانْجَبَرَ الدِّينُ بِانْكَسَارِ صُلْبِ
عَابِدِ الصَّلِيبِ السَّلِيبِ.

خَلَا بِالْهِ مِنْ أَمْرِ الْقُدُسِ بِإِعَادَتِهِ إِلَى قُدْسِهِ، وَإِخْلَاطِهِ مِنْ رِجْزِ الشُّرْكِ
وَرِجْسِهِ، وَإِجْلَاءِ دَاوِيَّةَ* وَاسْبِتَارَهُ* وَبَطْرَكَه وَقَسَّهُ، وَتَعْوِيضَهُ مِنْ وَحْشَةِ
الضَّلَالَةِ مِنَ الْهَدْيِ بِأَنْسِهِ، وَرَدَّ الْإِسْلَامَ الْغَرِيبَ إِلَى بَيْتِهِ الْمَقْدَسِ، وَنَفَى
الْكَافِرَ مِنْهُ كَاسِفَ الْبَالِ رَاغِمَ الْمَعْطِيسِ، وَنَصَبَ الْمَنِيرَ بِالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى
لِإِقَامَةِ الْخُطْبَةِ الْإِمَامِيَّةِ، وَرَفَعَ مَا رُفِعَ قَدْرُهُ مِنَ الْأَعْلَامِ الْعَبَّاسِيَّةِ، وَالْإِفْرَاجِ
عَنْ مِحْرَابِهِ بِهَدْمِ مَا بَنَى دُونَهُ مِنْ مَبَانِي الشُّرْكِ، وَكَشَفَ أَسْتَارَ الْكُفْرِ الَّتِي
حَجَبَتْ بِالْهَتِكِ وَالْفَتِكِ، وَإِقَامَةِ الْجُمُعِ فِيهِ وَالْجَمَاعَاتِ، وَإِدَامَةِ أَوْرَادِ
الْعِبَادَاتِ بِهِ وَوُظَائِفِ الطَّاعَاتِ، وَغَسَلَ الصَّخْرَةَ الْمَقْدَّسَةَ بِدَمِ الْكَافِرِ وَدَمْعِ
الْمُؤْمِنِ، وَنَزَعَ لِبَاسَ بَأْسِ الْمَسِيءِ عَنْهَا بِإِفَاضَةِ ثَوْبِ ثَوَابِ الْمُحْسِنِ، وَتَنَزَّاهُ
تِلْكَ الْجَنَّةُ مِنْ دَنَسِ أَهْلِ النَّارِ، وَإِعْلَاءَ مَا كَانَ دَرَسَ مِنْ مَعَالِمِ الْأَبْرَارِ وَمَطَالَعِ
الْأَنْوَارِ.

(١) فِي الْأَصْلِ: أَهْلُ الثِّقَاةِ، وَالْمُثَبَّتِ مِنْ (ك).

(٢) انْظُرْ حَاشِيَتَنَا رَقْمَ ١ ص ٣٥٢ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ.

وقد رجع الإسلام الغريب منه إلى داره، وخرج قَمَرُ الْهُدَى به من سراره، وَذَهَبَتْ ظُلُمُ الضَّلَالَةِ بأنواره، وعادت الأرضُ المقدَّسةُ إلى ما كانت موصوفة به من التقديس، وأُمنَت المخاوف فيها وبها فصارت صباح الشُّرَى ومناخ التَّعْرِيس، وقد أَقْصَى عن المسجد الأقصى الأَقْصَى من الله الأبعدون، وتوفى^(١) إليه الْمُصْطَفُونَ الأقربون والملائكة المقرَّبون، وَخَرَسَ النَّاقُوسُ بِزَجَلٍ^(٢) المسبِّحين، وخرج المفسدون بدخول المُصْلِحِينَ، وقال المحراب لأهله: مرحباً وأهلاً، وشَمِلَ جماعة المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة ما جمع للإسلام فيه شَمَلاً، وَرُفِعَتِ الأعلام العَبَّاسِيَّةُ على منبره، فأخذت من بَرِّهِ أوفى نصيب، وتَلَّتْ بِالْسُنَةِ عَذْبَهَا ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾^(٣) وَغُسِلَتِ الصخرة المباركة بدموع المتقين من دَنَسِ الْمُشْرِكِينَ. وَبَعُدَ أَهْلُ الْأَحَدِ مِنْ قُرْبِهَا بِقُرْبِ الْمُؤَحِّدِينَ، فذكر بها ما كاد يُنْسَى من عَهْدِ الْمِعْرَاجِ النَّبَوِيِّ، وأقامت بدلائلها براهين الإعجاز المحمَّدي.

عاد الإسلام بإسلام البيت المقدس إلى تقديسه، ورجع بُنيانه من التقوى إلى تأسيسه، وزال ناموس ناقوسه، وبَطَلَ بِنَصِّ النَّصْرِ قِيَاسُ قَسِّيَّهِ، وَفُتِحَ بَابُ الرَّحْمَةِ لأهلها، ودخلت فيه الصَّخْرَةُ لِفَضْلِهَا، وباشرت الحياة بها مواضع سجودها، وصافحت أيدي الأولياء آثارَ القدم النَّبَوِيَّةَ بتجديد عهودها، وشَهِدَ مَقَامُ الْمِعْرَاجِ وموطىء بُرَاقِهِ، ورُؤْيُ نُورِ الْإِسْلَامِ وَمَطْلَعُ إِشْرَاقِهِ، ودنا المسجد الأقصى للَرَاعِ وَالسَّاجِدِ، وامتلاً ذلك الفضاء بالأتقياء الأماجد.

(١) في (ك) وتوفد.

(٢) الزجل: رفع الصوت. «اللسان» (زجل).

(٣) سورة الصف، الآية: ١٣.

ومن كتابِ فاضلي إلى بغداد: تَقَلَّصَ ظِلُّ الكافرِ المبسوط، وصَدَقَ الله أهلَ دينه، فلما وقع الشَّرْطُ وقع المشروط، وجاء أمر الله وأنوف أهل الشُّركِ راغمة، وأدلجت السيوفُ والآجالُ نائمة، واستردَّ المسلمونُ ثرائاً كان عنهم أبْقاً، وظفروا يقظَةً بما لم يصدّقوا أنهم يظفرون به طيفاً على النأي طارقاً.

ومنه في وصف نَقَبِ السُّور: فأخلى السُّورُ من السَّيَّارة، والحرب من النَّظَّارة، وأمكن النَّقَّاب أن يُسْفِرَ للحرب النَّقَّاب، وأن يعيد الحَجَرَ إلى سيرته من التُّراب، فتقدَّم إلى الصَّخَرِ فمضغ سَرَدَه بأنياب مِغُوله، وحلَّ عُقْدَه بضربه الأخرق الدَّالَّ على لطافةِ أَنْمُلِه، وأسمع الصَّخرة الشَّريفة حنينه فاستغاثته إلى أن كادت تَرِقُّ لمقتله، وتبرأ بعضُ الحجارة من بعض، وأخذَ الخرابُ^(١) عليها مَوْثِقاً فلن يَبْرَحَ الأَرْض.

ثم قال: واستقرَّت على الأعلى أقدامهم، وخَفَقَتْ على الأقصى أعلامهم، وتلاقت على الصَّخرة قُبُلُهم، وشُفِيت بها وإن كانت صخرةً كما يُشْفَى بالماءِ غُلْمُهم، وملك الإسلامُ خُطَّةً كان عهدُه بها دِمْنَةً سُكَّان، فخدمها الكُفْرُ إلى أن صارت روضةً جِنان، لا جَرَم أن الله أخرجهم منها وأهبطهم، وأرضى أهلَ الحقِّ وأسَخَطَهم. وأوعز الخادمُ بردَّ الأقصى إلى عهدِ المعهود، وأقام له من الأئمة من يوفيه^(٢) ورَدَه المورود. وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شعبان فكادتِ السمواتُ للسَّجُومِ^(٣) يَتَفَطَّرْنَ، والكواكبُ منها للطَّربِ يَنْتَثِرْنَ، ورُفِعَتْ إلى الله كلمةُ التوحيد وكانت طريقُها مسدودة، وطَهَّرَتْ قبورُ الأنبياء وكانت بالنَّجاساتِ مكدودة، وأقيمت الحُمس وكان

(١) في الأصل: الحرب، والمثبت من (ك).

(٢) في الأصل: يوفي، والمثبت من (ك).

(٣) من انسجم الدمع: إذا سال وانصب. «اللسان» (سجم).

التَّالِثُ يُقْعِدُهَا، وَجَهَرَتِ الْأَلْسُنُ بِاللَّهِ أَكْبَرُ وَكَانَ سِحْرُ الْكُفْرِ يَعْقِدُهَا، وَجُهِرَ بِاسْمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي وَطْنِهِ الْأَشْرَفِ مِنَ الْمَنْبَرِ، فَرُحِّبَ بِهِ تَرْحِيبَ مَنْ بُرِّ [بِمَنْ بُرَّ]^(١)، وَخَفَقَ عِلْمَاهُ فِي حِفَافَتِهِ، فَلَوْ طَارَ سُرُوراً لَطَارَ بِجَنَاحِيهِ. وَكَانَ الْخَادِمُ لَا يَسْعَى سَعْيَهُ إِلَّا لِهَذِهِ الْعُظْمَى، وَلَا يُقَاسِي تِلْكَ الْبُؤْسَى إِلَّا رَجَاءَ هَذِهِ النُّعْمَى، وَلَا يُحَارِبُ مَنْ يَسْتَظِلُّهُ إِلَّا لَتَكُونَ الْكَلِمَةُ مَجْمُوعَةً فَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا، وَلِيَفُوزَ بِجَوْهَرِ الْآخِرَةِ لَا بِالْعَرَضِ الْأَدْنَى مِنَ الدُّنْيَا، وَكَانَتِ الْأَلْسُنُ رُبَّمَا سَلَقَتْهُ، فَأَنْضَجَ قُلُوبُهَا بِالْإِحْتِقَارِ، وَكَانَتِ الْخَوَاطِرُ رُبَّمَا غَلَّتْ عَلَيْهِ مَرَاجِلُهَا، فَأُطْفِئَهَا بِالْإِحْتِمَالِ وَالْإِصْطِبَارِ، وَمَنْ طَلَبَ خَطِيراً خَاطَرَ، وَمَنْ رَامَ صِفْقَةً رَابِحَةً جَاسَرَ، وَمَنْ سَمَا لِأَنْ يُجَلِّيَ غَمْرَةً غَامَرَ.

ووصف فيه يوم حِطِّين فقال: وَكَانَ الْيَوْمُ مَشْهُوداً، وَكَانَتِ الْمَلَائِكَةُ لَهُ شُهُوداً، وَكَانَ الصَّلِيبُ^(٢) صَارِخاً وَكَانَ الْإِسْلَامُ مَوْلُوداً، وَأُسِرَ الْمَلِكُ وَبِيَدِهِ أَوْثُقُ وَثَائِقِهِ، وَآكُذُ وَصَلِهِ بِالَّذِينَ وَعَلَائِقِهِ، وَهُوَ صَلِيبُ الصَّلْبُوتِ، وَقَائِدُ أَهْلِ الْجَبْرُوتِ، مَا دُهِمُوا قَطُّ بِأَمْرِ إِلَّا وَقَامَ بَيْنَ دَهْمَائِهِمْ يَحْرُضُهُمْ؛ يَبْسُطُ لَهُمْ بَاعَهُ، وَكَانَ مَذُّ الْيَدَيْنِ فِي هَذِهِ الدَّفْعَةِ وَدَاعَهُ، لَا جَرَمَ أَنَّهُ يَتَهَفَّتُ عَلَى نَارِهِ فَرَأَشُهُمْ، وَيَجْتَمِعُ فِي ظِلِّ ظِلَامِهِ خِشَاشُهُمْ، وَيَقَاتِلُونَ تَحْتَ ذَلِكَ الصَّلِيبِ أَصْلَبَ قِتَالٍ وَأَصْدَقَهُ، وَيَرُونَهُ مِيثَاقاً يَبْنُونَ عَلَيْهِ أَشَدَّ عُقْدٍ وَأَوْثَقَهُ، وَيَعْدُونَهُ سُوراً تَحْفَرُ حَوَافِرُ الْخَيْلِ خَنْدَقَهُ، وَلَمْ^(٣) يُقَلَّتْ مِنْهُمْ مَعْرُوفٌ إِلَّا الْقَوْمُصْ، وَكَانَ — لَعْنَهُ اللَّهُ — مَلِيّاً يَوْمَ الظُّفْرِ بِالْقِتَالِ، وَمَلِيّاً يَوْمَ الْخِذْلَانِ بِالْإِحْتِيَالِ، فَنَجَا وَلَكِنْ كَيْفَ، وَطَارَ خَوْفاً مَنْ أَنْ يَلْحَقَهُ مَنَسْرُ الرُّمْحِ وَجَنَاحِ

(١) مَا بَيْنَ حَاصِرَتَيْنِ مِنْ (ك).

(٢) فِي الْأَصْلِ: الضَّلِيلُ، وَالْمَثْبِتُ مِنْ (ك).

(٣ — ٣) مَا بَيْنَهُمَا سَاقِطٌ مِنْ (ك).

السَّيْفِ، ثم أخذَه الله بعد أيامٍ بيده، وأهلكه لمَوْعِدِهِ، وكان لِعِدَّتِهِمْ فذلك، وانتقل من ملكِ الموت إلى مالك^(١). وبعد الكسرة مرَّ الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الرّاية السوداء صَبْغاً أبيضاً صُنْعاً، الخافقة هي وقلوب أعدائها، العالية هي وعزائم أوليائها^(٢).

فصل

[قال العماد]^(٣): ومن قصائدي التي هنأت بها السلطان بفتح القدس

وهو مخيم عليه:

وَتَعْتَاضُ مِنْ ذِكْرَاكُمُ وَخَشْتِي أَنَسَا	أَطِيبُ بِأَنْفَاسٍ تَطِيبُ لَكُمْ نَفْسَا
غَدَتْ بِلِسَانِ الْحَالِ نَاطِقَةً خُرْسَا	وَأَسْأَلُ عَنْكُمْ عَافِيَاتِ دَوَارِسَ
وَقَدْ كَرَّرْتُ مِنْ دَرَسِ آثَارِهَا دَرْسَا	مَعَاهِدُكُمْ مَا بَالُهَا كَعْمُودِكُمْ
وَمَا جِئْتُكُمْ مِنْ هَجْرِكُمْ خَالَفَ الْحَدْسَا	وَقَدْ كَانَ فِي حَدْسِي لَكُمْ كُلُّ طَارِقِ
وَأَمَّا حَدِيثُ الْغَدْرِ مِنْكُمْ فَلَا يُنْسَى	أَرَى حَدَثَانَ الدَّهْرِ ^(٣) يُنْسَى حَدِيثُهُ
رَسِينُ غَرَامٍ فِي فُؤَادِي لَكُمْ أَرْسَى	تَزُولُ الْجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ وَثَابَتْ
وَقَلْبُ الَّذِي يَهْوَى بِحَمْلِ الْهَوَى أَقْسَى	حَسِبْتُ حَبِيبِي قَاسِيَ الْقَلْبِ وَخَدَهُ
يَطِيبُ بِهَا مَمْلُوكُكُمْ مِنْكُمْ نَفْسَا	أَمَالِكُمْ يَا مَالِكِي الرِّقِّ رِقَّةً
فَمَذْ سِرْتُ عَنْكُمْ مَا سَمِعْتُ لَهُ حَسَا	وَأَنَّ سُرُورِي كُنْتُ أَسْمَعُ حِسَّهُ

(١) انظر كتاب القاضي الفاضل بتمامه في «وفيات الأعيان» ١٨٠/٧ - ١٨٦، مع

اختلاف في بعض ألفاظه، وتقديم وتأخير في بعض فقراته، وانظر «صبح الأعشى»:

٤٩٦/٦ - ٥٠٤، ٢٨٢/٨ - ٢٨٩.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٣) في الأصل: الغدر، والمثبت من (ك) و(ب).

وإنَّ نهاري صارَ ليلاً لبُعْدِكُمْ
 بَكَتْ عَلَى مُسْتَوْدَعَاتِ قُلُوبِكُمْ
 فَلَا تَحْبِسُوا عَنِّي الْجَمِيلَ فَإِنِّي
 رَأَيْتُ صِلَاحَ الدِّينِ أَشْرَفَ مِنْ غَدَا
 وَقِيلَ لَنَا فِي الْأَرْضِ سَبْعَةٌ أَبْخِرِ
 سَجِيَّتَهُ الْحُسْنَى وَشَيْمَتَهُ الرِّضَا
 فَلَا عَدِمَتْ أَيَّامُنَا مِنْهُ مَشْرِقاً
 جَنُودُكَ أَمْلَاكَ السَّمَاءِ وَظَنَّهُمْ
 فَلَا يَسْتَحِقُّ الْقُدُسَ غَيْرُكَ فِي الْوَرَى
 وَمَنْ قَبْلَ فَتَحِ الْقُدُسِ كُنْتَ مَقْدَساً
 وَطَهَّرْتَهُ مِنْ رَجْسِهِمْ بِدَمَائِهِمْ
 نَزَعْتَ لِبَاسَ الْكُفْرِ عَنْ قُدُسِ أَرْضِهَا
 وَعَادَتْ بَيْتَ اللَّهِ أَحْكَامُ دِينِهِ
 وَقَدْ شَاعَ فِي الْآفَاقِ عَنْكَ بَشَارَةٌ
 جَرَى بِالَّذِي تَهْوَى الْقَضَاءُ وَظَاهَرَتْ
 وَكَمْ لِنَبِيِّ أَيُّوبَ عَبْدٌ كَعَتَّيْرٍ
 وَقَدْ طَابَ رِيَانَا عَلَى طَبْرِيرَةٍ

١٠٢/

فَمَا أَبْصَرْتَ عَيْنِي صَبَاحاً وَلَا شَمْساً
 كَمَا قَدْ بَكَتْ قَدْماً عَلَى صَخْرِهَا الْخُنْسَا
 جَعَلْتُ عَلَى حُبِّي لَكُمْ مُهْجَتِي حُبْساً^(١)
 وَأَفْضَلَ مِنْ أَضْحَى وَأَكْرَمَ مِنْ أَمْسَى^(٢)
 وَلَسْنَا نَرَى إِلَّا أَنَامِلَهُ الْخَمْسَا
 وَبَطْشَتَهُ الْكُبْرَى وَعِزَّتُهُ^(٣) الْقَعْسَا
 يُبِيرُ بِمَا يُؤْلِي لِيَا لَيْنَا الدُّمْسَا
 عُدَاتُكَ جَنَّ الْأَرْضِ فِي الْفَتَكِ لَا الْإِنْسَا
 فَأَنْتَ الَّذِي مِنْ دُونِهِمْ فَتَحَ الْقُدْسَا
 فَلَا عَدِمْتَ أَخْلَاقَكَ الطُّهْرَ وَالْقُدْسَا
 فَأَذْهَبْتَ بِالرَّجْسِ الَّذِي ذَهَبَ الرَّجْسَا
 وَالْبَسْتَهَا الدِّينَ الَّذِي كَشَفَ اللَّبْسَا
 فَلَا بِطَرَكَا أَبْقَيْتَ فِيهَا وَلَا قَسَا
 بَأَنَّ أَذَانَ الْقُدُسِ قَدْ بَطَّلَ النَّقْسَا
 مَلَائِكَةُ الرَّحْمَنِ أَجْنَادُكَ الْحُمْسَا^(٤)
 فَإِنْ ذُكِرُوا بِالْبَاسِ لَا يَذْكُرُوا عَبْسَا
 فَيَا طَيْبَهَا مَغْنَى وَيَا حُسْنَهَا مَرْسَى

(١) الْحُبْسُ؛ يَقَعُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَقَفَهُ صَاحِبُهُ تَقَرُّباً لِلَّهِ. «اللسان» (حبس).

(٢) فِي (ك) وَ(ب) أَفْضَلَ مِنْ غَدَا وَأَشْرَفَ مِنْ أَضْحَى.

(٣) فِي الْأَصْلِ: وَعِزَّتُهُ، وَالْمُثَبِّتُ مِنْ (ك) وَ(ب).

(٤) الْحَمْسُ جَمْعٌ، مَفْرُودُهَا أَحْمَسٌ، وَهُوَ الشَّجَاعُ، وَالْمُتَشَدَّدُ عَلَى نَفْسِهِ فِي الدِّينِ.

«اللسان» (حمس).

وَعَكَّا وَمَا عَكَّا فَقَدْ كَانَ فَتَحُهَا
 وَصِيدَا وَيِيرُوتَ وَتَيْنِينَ* كُلُّهَا
 وَيَافَا وَأَزْسُوفَ* وَيُنَيْ* وَغَزَّةُ
 وَفِي عَسْقَلَانَ الْكُفْرُ ذَلَّ بِمَلِكِكُمْ
 وَصَارَ بِصُورٍ عُصْبَةُ يَرْقُبُونَكُمْ
 تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَكَ أَصْبَحْتَ
 وَدَمَّرَ عَلَى الْبَاقِينَ وَاجْتَثَّ أَصْلَهُمْ
 وَلَا يَنْسَ شِرْكَ الشَّرْقِ غَرْبُكَ^(١) مُرُوبًا
 وَإِنْ بِلَادَ الشَّرْقِ مَظْلَمَةٌ فَخُذْ
 وَبَعْدَ الْفَرَنْجِ الْكُرُجُ^(٢) فَاقْصِدْ بِلَادَهُمْ
 أَقَامَتْ بَغَابِ السَّاحِلِينَ أُسُودَكُمْ

لَا جَلَاثِمَهُمْ عَنْ مُذْنِ سَاحِلِهِمْ كُنْسَا
 بِسَيْفِكَ أَلْفَى أَنْفُهُ الرِّغَمَ وَالتَّعْسَا
 تَخَذْتَ بِهَا بَيْنَ الطُّلَى وَالطُّبَى عُرْسَا
 فَمَنْظَرُهُ بَلْ أَمْرُهُ أَرْبَدٌ وَارْجَسَا
 فَلَا تُبْطِنُوا عَنْهَا وَحُسُوهُمْ حَسَا
 كَلَاءَتُهُ دِرْعَاً وَعِصْمَتُهُ تُرْسَا
 فَإِنَّكَ قَدْ صَيَّرْتَ دِينَارَهُمْ فَلْسَا
 بِمَاءِ الطُّلَى مِنْ صَادِيَاتِ الطُّبَى الْخَمْسَا
 خُرَاسَانَ وَالتَّهْرِينَ وَالثُّرُكَ وَالْفُرْسَا
 بِعَزْمِكَ وَامْلَأْ مِنْ دِمَائِهِمُ الرِّسَا^(٣)
 وَقَدْ طَرَدَتْ عَنْهُ ذُنَابَهُمُ الطُّلْسَا^(٤)

وهي طويلة، وقد تقدّم بعضها في ذكر كسرة حطّين^(٥).

وللعماد أيضاً من جُملة القصيدة التي مدَحَ بها حسام الدين بن لاجين،
 وقد تقدّم بعضها^(٦).

قُلْ لِلْمَلِكِ صَلَاحُ الدِّينِ أَكْرَمَ مَنْ
 يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ أَوْ [مَنْ] يَرْكَبُ الْفَرَسَا
 مِنْ بَعْدِ فَتْحِكَ بَيْتَ الْقُدْسِ لَيْسَ سِوَى
 صُورٍ فَإِنْ فَتِحْتَ فَاقْصِدْ طَرَابُلُسَا

(١) الغرب: حدة السيف. «اللسان» (غرب).

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٦٧ من الجزء الثاني.

(٣) الرس: البشر. «اللسان» (رس).

(٤) أورد ياقوت الحموي بعض أبياتها في «معجم الأدباء»: ٢٢/١٩ — ٢٧.

(٥) انظر ص ٣٠١ — ٣٠٣ من هذا الجزء.

(٦) انظر ص ٣٠١، ٣١٦ — ٣١٧ من هذا الجزء.

أَنزَ عَلَى يَوْمِ أَنْطَرَسُوسَ* ذَا لَجَبٍ
وَأَخْلَ سَاحِلَ هَذَا الشَّامِ أَجْمَعَهُ
وَلَا تَدْعُ مِنْهُمْ نَفْسًا وَلَا نَفْسًا
نَزَلَتْ بِالْقُدْسِ فَاسْتَفْتَحَتْهُ وَمَتَى

وَابْعَثْ إِلَى لَيْلِ أَنْطَاكِيَةِ الْعَسَا
مِنَ الْعُدَاةِ وَمَنْ فِي دِينِهِ وَكَسَا
فَلْيَأْخُذُوا نَفْسَهُمْ وَنَفْسًا
تَقْصِدُ طَرَابُلُسًا فَانْزِلْ عَلَى قَدَسَا*

وَمِنْ قَصِيدَةٍ أُخْرَى لَهُ نَفَّذَهَا إِلَى الْخَلِيفَةِ النَّاصِرِ:

أَبَشِرْ بِفَتْحِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أُنَى
مَا كَانَ يَخْطُرُ فِي بَالِ تَصَوُّرِهِ
وَحَامَ عَنْهُ^(١) الْمُلُوكُ الْأَقْدَمُونَ وَقَدْ
وَجَاءَ عَصْرُكَ وَالْأَيَّامُ مُقْبِلَةٌ
نَصْرُ أَعَادَ صَلَاحِ الدِّينِ رَوْقَهُ
قَرَعُ الطُّبَى بِالطُّبَى فِي الْحَرْبِ يُطْرِبُهُ
أَحْيَا الْهُدَى وَأَمَاتَ الشُّرْكَ صَارِمُهُ
بِفَتْحِهِ الْقُدْسَ لِلْإِسْلَامِ قَدْ فُتِحَتْ
فَفِي مُوَافَقَةِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ لَدَى
وَالصَّخْرَةِ الْحَجَرِ الْمَلْثُومِ جَانِبِهِ
نَفَى مِنَ الْقُدْسِ صُلْبَانًا كَمَا نَفَيْتَ

وَصَيْتُهُ فِي جَمِيعِ الْأَرْضِ جَوَابُ
وَأَسْتَضْعِبَ الْفَتْحُ لَمَّا أُغْلِقَ الْبَابُ
مَضَتْ عَلَى النَّاسِ أَحْقَابُ وَأَحْقَابُ^(٢)
فَكَانَ فِيهِ لِفَيْضِ الْكُفْرِ إِنْصَابُ
إِبْجَازُهُ يَبْلِيغُ الْقَوْلِ إِسْنَابُ
لَا قَيْنَةَ صَنَعَ بِاللَّحْنِ مِطْرَابُ
لَقَدْ تَجَلَّى الْهُدَى وَالشُّرْكَ مِنْجَابُ
فِي قَمْعِ طَاغِيَةِ الْإِشْرَاقِ أَبْوَابُ
بَيْتِ الْحَرَامِ لَنَا يَنُوعٌ وَإِعْجَابُ
كِلَاهُمَا لِاعْتِمَارِ الْخَلْقِ مِخْرَابُ
مِنْ بَيْتِ مَكَّةَ أَرْزَاقٌ وَأَنْصَابُ^(٣)

١٠٣/

وَكَثُرَ مَدْحُ الْفُضَلَاءِ لِلسُّلْطَانِ عِنْدَ فَتْحِ الْقُدْسِ، وَقَدْ ذَكَرَ الْعِمَادُ مِنْ
ذَلِكَ جُمْلَةً فِي أَوَاخِرِ كِتَابِ «الْبَرْقِ»، فَرَأَيْتُ تَقْدِيمَ مَا اخْتَرْتَهُ مِنْهَا هُنَا،
وَزِدْتُ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَذْكُرْهُ، فَمِنْ ذَلِكَ قَصِيدَةُ الْحَكِيمِ أَبِي الْفَضْلِ

(١) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٨٣ من هذا الجزء.

(٢) في طبعة وادي النيل: ١٠٢/٢: مضت على الناس من بلواه أحقاب.

(٣) سلف بيتان من هذه القصيدة ص ٥١ من هذا الجزء.

عبد المنعم بن عمر بن حسان الأندلسي الجلياني^(١)، منها:

أبا المظفر أنت المُجْتَبَى لهدى
فلو رآك وقد حُزَّتْ العُلا عمرٌ
ولوراك وأهل القدس في ولّهِ
غداة جزوا التّواصي في قُمامته
دارت بك المِلَّة الحُسنَى فنحن على
وأنت كاسمك صديقٌ وصاحِبُهُ الـ
وفي السُّلالة عثمانٌ يؤيِّده
وكم لديك ذوي قُرْبى رَقُوا شَرَفاً
يُشَبِّه القُبُجُ^(٤) ما بين البُزاة لَقَى
أما رأيتَ معالي يوسفٍ نُسِقَتْ
أضحى لِنُشر الهدى في فَنَحٍ مَنهَجِهِ
واستَقْبَح الرُّجس ممنواً بِمَشْهَدِهِ
لكنْ بأس صلاح الدِّين أذهلهم
تعيًا الجوارحُ والفرسانُ وهو على
يا فاتحَ المَسْجِدِ الأقصى على بُهمٍ^(٦)

أُخْرِى الزَّمانَ على خُبْرٍ بِخُبْرَتِهِ
في قَلَّةِ التَّلِّ قَضَى كُنْهَ عِبرَتِهِ^(٢)
أبو عبيدة فَدَى^(٣) من مَسَرَّتِهِ
وأعولوا بالتَّبَاكِي حَوْلَ صَخْرَتِهِ
عَهْدِ الصَّحابة في استمرارِ مِرَّتِهِ
مَلَكُ المَظْفَرِ سامٍ في مَبَرَّتِهِ
عُلا عليٍّ على إِيثارِ نُصْرَتِهِ
وكم بعيدَ رَأْيِ الزُّلْفَى بِهَجْرَتِهِ
مَلَكُ الفَرَنْجِ أخيداً^(٥) بين عِثْرَتِهِ
حتى رَمَتْ كُلَّ ذِي مُلْكٍ بِحَسْرَتِهِ
وباتَ يطوي العِدَى في سَدِّ ثُغْرَتِهِ
فاستَفْتَحَ القُدسَ محشواً بِزُمَرَتِهِ
بوقعةِ التَّلِّ واستَشْرَى بِسَوْرَتِهِ
بَدَأَ النِّشَاطَ عَشِيّاً مِثْلَ بُكْرَتِهِ
وقانِصَ الجِيشِ لا يُخْصِي بِقَفْرَتِهِ

(١) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٨٠ من الجزء الثاني.

(٢) العبرة: العجب. «معجم متن اللغة»: ١١/٤.

(٣) يعني يقال له: جعلت فداك. «القاموس المحيط» (فدي).

(٤) القُبُج: ويسكن: الحَجَل. «معجم متن اللغة»: ٤/٤٨٠.

(٥) أي: أسيراً. انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٣٠٥ من هذا الجزء.

(٦) البهم جمع، مفردا بهمة: بالضم: الشجاع، وقيل: الفارس الذي لا يُدْرَى من أين

يؤتى له من شدة بأسه، وتأتي أيضاً بمعنى: الجيش. «اللسان» (بهم).

أَبَشِرْ بِمُلْكِكَ كَظَهَرَ الشَّمْسُ مُطْلَعٌ عَلَى الْبَسِيطَةِ فَتَّاحٍ بِشَرَّتِهِ
حَتَّى يَكُونَ لِهَذَا الدِّينِ مَلْحَمَةٌ تَحْكِي الثُّبُوتَ فِي أَيَّامِ فَتْرَتِهِ

قال: وَنَفَّذَ مِنْ مِصْرَ نَجْمُ الدِّينِ يَوْسُفُ بْنُ الْحُسَيْنِ ابْنَ الْمُجَاوِرِ الْوَزِيرِ
الْعَزِيزِيِّ^(١) قَصِيدَةً، وَعَرْضَتْهَا عَلَى السُّلْطَانِ بِالْقُدْسِ، وَفِيهَا ذِكْرُ^(٢) الْإِنْكَلتِيرِ
وَفَتْحِ يَافَا، وَذِكْرِ الْهُدْنَةِ الَّتِي يَأْتِي ذِكْرُهَا فِي آخِرِ الْكِتَابِ^(٣)، فَمِنْهَا وَسِيَّاتِي
الْبَاقِي الْمَخْتَارُ أَيْضًا:

الْوَقْتُ أَضْيَقُ مِنْ سَمَاعِ قَصِيدَةٍ مَوْسُومَةٍ بِصِفَاتِ أَغْيَدِ أَهْيَفِ
الْجِدُّ فِي هَذَا الزَّمَانِ مُبَيَّنٌ وَالْهَزْلُ فِيهِ مَعَ الْغَوَايَةِ مُخْتَفٍ
بِالنَّاصِرِ الْمَهْدِيِّ وَالْهَادِي إِلَى سُبُلِ الْجِهَادِ أَبِي الْمُظَفَّرِ يَوْسُفِ
الْمُسْتَعِينِ بِرَبِّهِ وَالْوَائِقِ إِلَى مَنْصُورِ وَالْمُسْتَظْهِرِ الْبَرِّ الْوَفِيِّ
شُدَّتْ قُوَى أَرْكَانِ مِلَّةِ أَحْمَدٍ وَتَجَمَّلَتْ بِجِهَادِهِ فِي الْمَوْقِفِ
مَلِكٌ إِذَا أَمَّ الْمُلُوكَ جَنَابَهُ لَأَذُوا بِأَكْرَمٍ مِنْ يُؤْمُ وَأَشْرَفِ
وَإِذَا أَتَوْا أَسْرَى إِلَى أَبْوَابِهِ وَقَفُّوا بِأَعْظَمٍ مِنْ يَصُولُ وَأَرْأَفِ
مَوْلَى غَدَا لِلدِّينِ أَكْرَمَ وَالِدِ حَدِبٍ عَلَى أَبْنَائِهِ مُتَرَفِّرِفِ
عَزَلَ الْفَرَنْجَةَ ثُمَّ وَلَّى جَيْشَهُ أَعْظَمَ بِهِ مِنْ صَارِفٍ وَمُصَرِّفِ
قَدْ أَنْصَبَ التَّوْحِيدَ مِنْ تَلْثِيهِمْ وَأَقَامَ فِي الْإِنْجِيلِ حَدَّ الْمُصْحَفِ
مُغَرِّىً بِتَجْرِيحِ الرِّجَالِ لِأَنَّهُ يَرْوِي أَحَادِيثَ الْعَوَالِي الرُّعْفِ
مَلِكٌ لَهُ فِي الْحَرْبِ بَخْرٌ^(٤) تَفَقُّهُ وَلَهُ غَدَاةُ السُّلْمِ زُهْدٌ تَصَوُّفِ

(١) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٩ من هذا الجزء.

(٢) في (ك) منها حديث.

(٣) انظر ص ٣٢٨ من الجزء الرابع.

(٤) في (ك) تخت.

وعليه أنزل في الجهاد مُفَضَّلٌ
عَزَمَ وَحِلْمٌ أَنَسِيَا مَا كَانَ مِنْ
يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي لَطْبَاعِهِ
لِلَّهِ يَوْمَ عَرُوبَةٍ إِذْ أَعْرَبْتَ
سَتَتْ سِيوفُكَ فِي الرُّؤُوسِ خِتَانَةٌ
آفَاتِهِمْ وَافَتْ بِأَخْذِكَ مِنْهُمْ
أَوْ مَا رَأَى الْأَعْلَاجُ حِينَ دَعَوْتَهَا
لَمْ تَسْتَطِعْ عَصِيَانًا أَمْرُكَ بَلْ أَتَتْ
فَاسْتَدْعَ جَارَتَهَا وَثَنٌ بِأُخْتِهَا
مَا لِلسَّوَاحِلِ غَيْرُ بَحْرٍ حَافِظٌ
هَذَا الطَّرَازُ الْأَخْضَرُ اسْتَفْتَحَتْهُ
أَخِيَّتَ دِينَ مُحَمَّدٍ وَأَقَمَتْهُ
وَضَبَطَتْ دِيوَانَ الْجِهَادِ بِعَامِلٍ
وَبِجَهِيذِ الْعَزْمِ الَّذِي لَا يَنْثَنِي

فلذاك يقرؤه بسبعةٍ أَخْرَفَ
عَزَمَ ابْنُ مِرْدَاسٍ وَحِلْمَ الْأَخْنَفِ^(١)
وَسِيوفِهِ خُلُقًا رَضَى وَتَعَشَّفَ
سَاعَاتُهُ عَنْ نَصْرِكَ الْمُتَعَرِّفِ
ذَهَبَتْ بِمَهْجَةٍ كُلِّ عِلْجٍ أَقْلَفِ
يَافَا* فَكُمْ مِنْ حَسْرَةٍ وَتَأْسُفِ
بِلِسَانٍ سَيْقٍ فِي الْكَرْيَةِ مُلْحِفِ
مُنْقَادَةً طَوْعًا وَلَمْ تَتَخَلَّفِ
وَكَذَاكَ حَتَّى الْأَرْبَعِينَ وَتَيْفِ
بِشْبَا سِنَانٍ أَوْ بِصَفْحَةٍ مُرْهَفِ
فَزَهَا بِثَوْبٍ مِنْ عُلاكَ مُسَجَّفِ
وَسَتَرْتَهُ مِنْ بَعْدِ طَوْلٍ تَكْشِفِ
مِنْ عَامِلٍ وَبِمُشْرِفٍ مِنْ مَشْرِفِي^(١)
وَيُنَظِّرُ الرَّأْيَ الَّذِي لَمْ يَطْرِفِ

(١) وردت في (ك) بعد هذا البيت، الأبيات التالية، وستأتي ص ٣٢٨ من الجزء الرابع:
يَا صَاحِبَ قُلِّ لِلْأَنْكَتِيرِ الْكَلْبِ دَعُ
الْقُدْسُ مَا فِيهِ لَسْرُجِكَ مَطْمَعُ
وَالْمَسْجِدُ الْأَقْصَى فَعَنهُ تَقْصُّ مِنْ
وَأَسْتَفْتِ نَفْسَكَ فِيهِ أَخْبْتُ نَاصِحُ
وَأَعْجَبُ لِرُمُوحِ بِالرُّؤُوسِ مُعَمَّمُ
العامل: الرَّمَحُ. والمُشْرِفِي: السَّيْفُ، ينسب إلى المُشَارِفِ، من قَرَى اليمَنَ.
«اللسان» (عمل، شرف).

فَخُذِ الْخَرَاجَ مِنَ الْبَسِيطَةِ كُلِّهَا وَاسْتَأْدِ فَرَضِي جَزِيَّةٍ وَمَوْظَفٍ
 وَأَبْسُطْ لِرَحْمَتِهَا جَنَاحَ تَعَطُّفٍ وَصُدُّوْرها بِكَ عَنْ قَلِيلٍ تَشْتَقِي
 أَنَّ الْإِلَهَ بِمَا تُؤْمَلُّهُ خَفِي يَغْشَى الْكَرْيَهَةَ فَوْقَ كُلِّ مُجَفِّفٍ
 لَا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ مِنْ طَرْفٍ خَفِي تَرْكُوا دِيَارَهُمْ كَقَاعِ صَفْصَفٍ
 اللَّهُ دَرُّ الْمُصْطَفَى وَالْمُصْطَفِي أَنْتَ اضْطَفَيْتَهُمْ لِنُصْرَةِ دِينِنَا

قلتُ: وذكرْتُ بقوله: «هذا الطَّرَازُ الأخضرُ استفتحتَه» حكايةً حسنةً
 لاثقةً بالحالِ حَدَّثَنِي بها شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السَّخَاوِي^(٢)،
 قال: قرأتُ بخطَّ شيخنا أبي الفضائل بن رشيْق بمصر عقيب موته في سنة
 ثلاث وسبعين وخمس مئة، قال: رأى إنسان كأنَّ شخصاً ذا جَهَامَةٍ واقفٌ
 على حائطٍ بجوامع دمشق يسمى النَّسْر، وهو يقول:

مَلِكَ الصَّيَاصِي^(٣) والنَّوَاصِي^(٤) ناصراً لِلدِّينِ بَعْدَ إِيسَاهُ أَنْ يُنْصَرَ
 وَسَيَفْتَحُ الْبَيْتَ الْمُقَدَّسَ بَعْدَمَا يُطَوِّى الطَّرَازُ لَهُ وَيَقْتُلُ قَيْصَرَ

قلتُ: وهذا قبل أن يفتح صلاح الدين البلاد بعشر سنين. وقرأتُ بخطَّ
 بعض أصحابنا، قال: وجدتُ على حاشية كتابٍ يروى عن خطيبٍ كان بالرَّقَّةِ

(١) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» حوادث سنة (٦٤٣ هـ).

(٢) الصياصي: الحصون. «اللسان» (صيص).

(٣) في الأصل: الصواحي، والمثبت من (ك).

أنه رأى من ينشده هذا الشُّعر في النوم سنة إحدى وثلاثين وخمس مئة، فذكر البيتين وهذا قَبْلَ الفتح باثنتين وخمسين سنة، وقبل مَوْلِد صلاح الدين بسنة. والمعنى بالطَّراز بلاد السَّاحل المصطَفَّة على بلاد البحر من الدَّاروم* وِغْزَة* وعَسْقلان* وعكَّا وصيدا وبירות وجُبيل وغير ذلك، ولم يَبْقَ من الطَّراز في أثناء ذلك سوى صور بين صيدا وعكَّا، وهكذا كان الأمر على ما سبق بيانه؛ فتح هذا الطراز أولاً، ثم فُتِحَ البيت المقدَّس، وكُنِيَ بقصر عن الإبرنس الذي قتله بيده، لأنه كان من رؤوس الكُفْر وملوكهم وغلاتهم في معادة الإسلام، والله أعلم.

قال العماد: وكان فخرُ الكُتَّاب أبو علي الحسن بن علي الجُويني^(١) المقيم بمصر من أهل بغداد ينفذُ إلَيَّ قصائده لأعرضها، فرأيتُ أن أثبت له هذه القصيدة في الفتح، وهي مشتملة على ذِكرِ ملوك الإسلام وإهمالهم له تسعين عاماً حتى تجرَّدَ له سُلْطاننا^(٢). فذكر منها:

جُنْدُ السَّمَاءِ لهذا المَلِكِ أَعْوَانُ مَنْ شَكَّ فيهم فهذا الفتحُ بُرْهَانُ
متى رأى النَّاسُ ما نحكيه في زَمَنِ وقد مَضَتْ قَبْلُ أزمان وأزْمَانُ
هذي الفُتُوحُ فتوحُ الأنبياء وما لها سوى الشُّكْرِ بالأفعال أثمانُ

(١) أقام الجويني في حلب أيام زنكي، ومن بعده ابنه نور الدين، ثم سافر إلى مصر في أيام ابن رزَّيك، وتوطن فيها إلى حين وفاته سنة (٥٨٦ هـ)، وكان شاعراً أديباً، وكاتباً مجوداً، ذا خط رائق. انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق. المجلد الثالث، الجزء الثاني ص ٥٨ - ٦٣، و«معجم الأدباء»: ٤٣/٩ - ٤٦، و«التكملة» للمنذري: ٧٩/١، و«بغية الطلب» لابن العديم: ٢٤٦٠/٥ - ٢٤٦٤، و«وفيات الأعيان»: ١٣١/٢ - ١٣٢، و«مجمع الآداب» ج ٤/٤ ق ٣/١٤٣، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٣٣/٢١ - ٢٣٤.

(٢) ثمة تقديم وتأخير في إيراد الأشعار في نسخة (ك)، ولكن التزمنا ترتيب الأصل.

أَضَحَّتْ مَلُوكُ الْفَرَنْجِ الصَّيْدَ فِي يَدِهِ
 كَمْ مِنْ فُحُولٍ مَلُوكٍ غُودِرُوا وَهُمْ
 اسْتَصْرَحَتْ بِمَلِكِشَاهِ طَرَابُلُسُ
 هَذَا وَكَمْ مَلِكٍ مِنْ بَعْدِهِ نَظَرَ الـ
 تَسْعُونَ عَاماً بِلَادُ اللَّهِ تَصْرَحُ وَالـ
 فَالآنَ لَبَّى صِلَاحُ الدِّينِ دَعَوَتَهُمْ
 لِلنَّاصِرِ ادْخَرَتْ هَذِي الْفُتُوحُ وَمَا
 حَبَاهُ ذُو الْعَرْشِ بِالنَّصْرِ الْعَزِيزِ فَقَا
 فِي نِصْفِ شَهْرِ غَدَا لِلشَّرْكِ مُضْطَلِمًا
 يَا بَيْنَ مَسْلَمَةٍ عَنْهَا وَإِخْوَتُهُ
 وَعَدَّ عَمَّا سِوَاهِ فَالْفَرَنْجَةُ لَمْ
 لَوْ أَنَّ ذَا الْفَتْحِ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ لَقَدْ
 يَا قُبْحَ أَوْجُهُ عُبَادِ الصَّلِيبِ وَقَدْ
 خَزَنْتَ عِنْدَ إِلَهِ الْعَرْشِ سَائِرَ مَا
 فَاللَّهُ يُبَيِّقُكَ لِلْإِسْلَامِ تَحْرُسُهُ
 وَهَذِهِ سَنَةٌ أَكْرَمَ بِهَا سَنَةً
 يَا جَامِعًا كَلِمَةً^(٢) الْإِيمَانِ قَامَعَ مَنْ
 إِذَا طَوَى اللَّهُ دِيوَانَ الْعِبَادِ فَمَا

صَيْدًا وَمَا ضَعُفُوا يَوْمًا وَمَا هَانُوا
 خَوْفَ الْفَرَنْجَةِ وَلِدَانُ وَنِسْوَانُ
 فَخَامَ عَنْهَا^(١) وَصُمْتُ مِنْهُ آذَانُ
 لِلْإِسْلَامِ يُطَوَّى وَيُحَوَّى وَهُوَ سَكْرَانُ
 لِلْإِسْلَامِ نُصَّارُهُ صُمٌّ وَعُغْيَانُ
 بِأَمْرِ مَنْ هُوَ لِلْمِغْوَانِ مِغْوَانُ
 سَمَتْ لَهَا هِمَمُ الْأَمْلَاقِ مُذْ كَانُوا
 لَ النَّاسِ دَاوُدُ هَذَا أَمِ سُلَيْمَانُ
 فَطَهَّرَتْ مِنْهُ أَقْطَارُ وَبُلْدَانُ
 بَلْ أَيْنَ وَالِدُهُمْ بَلْ أَيْنَ مَرْوَانُ
 يَبْذُهُمْ مِنْ مَلُوكِ الْأَرْضِ إِنْسَانُ
 تَنَزَّلَتْ فِيهِ آيَاتُ وَقُرْآنُ
 غَدَا يُبْرِقُهَا سُؤْمُ وَخِذْلَانُ
 مَلَكَتُهُ وَمَلُوكُ الْأَرْضِ خَزَانُ
 مَنْ أَنْ يُضَامَ وَيُلْفَى وَهُوَ حَيْرَانُ
 فَالْكُفْرُ فِي سِنَةِ وَالنَّصْرُ يَقْظَانُ
 مَعْبُودُهُ دُونَ رَبِّ الْعَرْشِ صُلْبَانُ
 يُطَوَّى لِأَجْرِ صِلَاحِ الدِّينِ دِيوَانُ

وَاللَّشْرِيفِ النَّسَّابَةِ الْمِصْرِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ أَسْعَدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مَعْمَرِ الْحُسَيْنِيِّ

(١) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٨٣ من هذا الجزء .

(٢) في (ك) كلم .

المعروف بالجَوَّاني^(١)، نقيب الأشراف [بالديار المصرية]^(٢) من قصيدة:

أَتَرَى مَنَاماً مَا بَعَيْنِي أَبْصِرُ الْقُدْسُ يُفْتَحُ وَالْفَرَنْجَةُ تُكْسَرُ
وَقُمَامَةٌ قُمَّتْ مِنَ الرَّجْسِ الَّذِي بِزَوَالِهِ وَزَوَالِهَا يَتَطَهَّرُ
وَمَلِيكُهُمْ فِي الْقَيْدِ مَصْفُودٌ وَلَمْ يَرَ قَبْلَ ذَاكَ لَهُمْ مَلِيكَ يُؤَسَّرُ
قَدْ جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ الَّذِي وَعِدَ الرَّسُولُ فَسَبِّحُوا وَاسْتَغْفِرُوا
فُتِحَ الشَّامُ وَطُهِرَ الْقُدْسُ الَّذِي هُوَ فِي الْقِيَامَةِ لِلْأَنَامِ الْمَحْشَرُ
مَنْ كَانَ هَذَا فَتَحَهُ لِمَحَمَّدٍ مَاذَا يُقَالُ لَهُ وَمَاذَا يُذَكَّرُ
يَا يَوْسُفَ الصَّدِّيقِ أَنْتَ لِفَتْحِهَا فَارَوْقُهَا عُمَرُ الْإِمَامِ الْأَطْهَرُ
وَلَأَنْتَ عَثْمَانُ الشَّرِيعَةِ بَعْدَهُ وَلَأَنْتَ فِي نَصْرِ الثُّبُوءِ حَيْدَرُ
مَلِكٌ غَدَا الْإِسْلَامُ مِنْ عَجَبٍ بِهِ يَخْتَالُ وَالْدُّنْيَا بِهِ^(٣) تَبَخَّثَرُ
نَثَرٌ وَنَظْمٌ طَغْنَةُ وَضِرَابُهُ فَالرُّمْحُ يَنْظِمُ وَالْمِهْنَدُ يَنْثَرُ
حَيْثُ الرَّقَابُ خَوَاضِعٌ حَيْثُ الْعِيُو نُ خَوَاشِعٌ حَيْثُ الْجَبَاهُ تُعْفَرُ
غَارَاتُهُ جُمْعٌ فَإِنْ خَطَبَتْ لَهُ فِيهَا السُّيُوفُ فَكُلُّ هَامٍ مَنِبَرُ
إِذْ لَا تَرَى إِلَّا طُلَى^(٤) بِسَنَابِكٍ تُحْذِي نَعَالاً أَوْ دِمَاءً تُهْدَرُ

(١) أصله من الموصل، وولد بمصر سنة (٥٢٥ هـ) وولي نقابة الأشراف فيها مدة، وله «طبقات الطالبين» و«تاج الأنساب»، وغيرهما، توفي بمصر سنة (٥٨٨ هـ)، انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١١٧ - ١١٩، و«الوافي بالوفيات»: ٢/ ٢٠٢، و«اللسان الميزان» ٥/ ٧٤ - ٧٦، وفيه الجوالي، وهو تصنيف. والجواني نسبة إلى الجوانية قرية قرب المدينة. انظر «معجم البلدان»: ٢/ ١٧٥، و«الأعلام» للزركلي: ٣١/ ٦.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

(٣) في (ك) له.

(٤) الطلَى جمع، مفردا الطلّة: وهي العنق. «اللسان» (طلّي).

وصوافناً تختار أن تطأ الثرى
تمشي على جثث العدى عرجاً ولا
فيصُّدُّها عنه طلى وسنور^(١)
عرج بها لكنها تتعثر

وقال أبو الحسين بن جبير الأندلسي^(٢):

١٠٦/٢

أطلت على أفقك الزاهر
فأبشر فإن رقاب العدى
وعما قريب يحل الردى
وخضب الورى يوم تسقى الثرى
وكم لك من فتكة فيهم
كسرت صليتهم عنوة
وعيرت آثارهم كلها
وأمضيت جدك في غزوهم
وأذبر ملكتهم بالشام
جنودك بالرغب منصوره
فكلهم غرق هالك
ثارت لدين الهدى في العدى
وقمت بنصر إله الورى
وجاهدت مجتهداً صابراً
بيت الملوك على فرشهم
وتؤثر جاهد عيش الجهاد
وتشهر ليلك في حق من
سعود من الفلك الدائر
ثمأ إلى سيفك الباتر
بكندهم* التاكث الغادر
سحائب من دمها الهامر
حككت فتكة الأسد الخادر
فلله درك من كاسر
فليس لها الدهر من جابر
فتعسا لجدهم العائر
وولى كأمسهم الدابر
فناجز متى شئت أو صابر
بتيار عسكرك الذأخر
فأثرك الله من نائر
فسمأك بالملك الناصر
فلله أجرك من صابر
وتزفل في الزرد السابري
على طيب عيشهم الناصر
سيرضيك في جفك الساهر

(١) السنور: جملة السلاح، وخص بعضهم به الدروع. «اللسان» (سنر).

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٢ من هذا الجزء.

فَتَحَّتْ الْمَقْدَسَ مِنْ أَرْضِهِ
وَجُنَّتْ إِلَى قُدْسِهِ الْمُرْتَضَى
وَأَعْلَيْتَ فِيهِ مَنَارَ الْهُدَى
لَكُمْ ذَكَرَ اللَّهُ هَذَا الْفَتْوحِ
وَخَصَّكَ مِنْ بَعْدِ فَارُوقِهِ
مَحَبَّتُكُمْ أَلْقَيْتَ فِي الثُّفُوسِ
فَكَمْ لَهُمْ عِنْدَ ذِكْرِ الْمُلُوكِ
فَعَادَتْ إِلَى وَصْفِهَا الطَّاهِرِ
فَخَلَّصَتْهُ مِنْ يَدِ الْكَافِرِ
وَأَحْيَيْتَ مِنْ رَسْمِهِ الدَّائِرِ
مِنَ الزَّمَنِ الْأَوَّلِ الْغَابِرِ
بِهَا لَاصْطِنَاعَكَ فِي الْآخِرِ
بِذِكْرِ لَكُمْ فِي الْوَرَى طَائِرِ
لِمِثْلِكَ مِنْ مِثْلِ سَائِرِ^(١)

وباقى القصيدة تقدّم في أخبار سنة أربع وسبعين^(٢).

وقال أبو الحسن عليّ بن محمد السّاعاتي :

أَعْيَا وَقَدْ عَايَنْتُمُ الْآيَةَ الْعُظْمَى
وَقَدْ سَاغَ فَتْحُ الْقُدْسِ فِي كُلِّ مَنْطِقٍ
حَبَا مَكَّةَ الْحُسْنَى وَتَنَى بِشَرِبِ
فَلَيْتَ فَتَى الْخُطَّابِ شَاهِدًا فَتَحَهَا
وَمَا كَانَ إِلَّا الدَّاءُ أَعْيَا دَوَاؤُهُ
وَأَصْبَحَ نَعْرُ الدِّينِ جَذْلَانِ بِاسْمَا
سَلَوُ السَّاحِلِ الْمَخْشَى عَنْ سَطَوَاتِهِ
لَايَةً حَالٍ تَذَخَّرُوا النَّشْرَ وَالنَّظْمَا
وَشَاعَ إِلَى أَنْ أَسْمَعَ الْأَسْلَ الصُّمَّا
وَأَطْرَبَ ذِيَاكَ الضَّرِيحَ وَمَا ضَمَّا
فَيَشْهَدُ أَنَّ السَّيْفَ مِنْ يَوْسُفٍ أَصْمَى
وغيرُ الحُسامِ الْعَضْبِ لَا يُحْسِنُ الْحُسْمَا
وَالسَّنَةُ الْأَغْمَادُ تُوسِعُهُ لَثْمَا
فَمَا كَانَ إِلَّا سَاحِلًا صَادَفَ الْيَمَّا^(٣)

وله من قصيدة أخرى في السُّلْطَانِ :

عَصَفَتْ بِهِ رِيحُ الْخُطُوبِ زَعَاذِعَا
فَلَقَيْنَ طُودًا لَا تَخْفُ أَنْاتُهُ

(١) انظر «الذيل والتكملة» للمراكشي ٥/ق ٥٩٨/٢ - ٦٠١.

(٢) انظر ص ١٢ - ١٤ من هذا الجزء.

(٣) «ديوان ابن السّاعاتي» : ٢/٣٨٥ - ٣٨٦.

هو منقذ البيت المقدس بعدما
بيت تأسس بالسكون وإنما
أمشئت الأعداء وهي جحافل
أوتيت عزمًا في الحروب مسدداً
أحسنّت بالبيت العتيق ويثرب
هذي سيوفك مُحرمات دونه
وله من قصيدة أخرى:

هو الفاتح البيت المقدس بعدما
فضيلة فتح كان ثاني خليفة
تحامته سادات الدنيا ومسودها
من القوم مُبديها وأنت مُعيدها^(٢)
وله من قصيدة في بعض أقارب السلطان:

ألسّت من القوم الألي بسيوفهم
ثنوا صخرة البيت المقدس مسجداً^(٣)
وللعماد الكاتب من قصيدة مدح بها الملك الأفضل:

والقدس أغضل داؤه من قبلكم
درج الملوك على تمني فتحه
وأتى زمانكم فأمكن آخراً
ما كان قط ولا يكون كفتحكم
أوجدتُم منه الذي عدم الوري
فوفيتُم بشفاء ذاك المغضل
زمناً وغلتهم به لم تبلل
ما قد تعذر في الزمان الأول
للقدس في الماضي ولا المستقبل
وفعلتُم في الفتح ما لم يفعل

(١) «ديوان ابن الساعاتي»: ٤١٠/٢، وهي مستدركة فيه من كتابنا.

(٢) «ديوانه»: ٤١٠/٢، وهي مستدركة فيه من كتابنا.

(٣) لم أجده في «ديوانه».

أَيْدِي الْمُلُوكِ تَقَاصَرَتْ عَنْ مَفْخَرٍ طُلُتُمْ بِهِ فَبَلُّوا بَعْضُ الْأَنْمَلِ
أَخْيَيْتُمْ شَرَعَ الْكِرَامِ وَلَمْ يَزَلْ نَصْرُ الْمُحَقِّ^(١) بِكُمْ وَقَهْرُ الْمُبْطِلِ

وله من قصيدة في مدح الملك المؤيد [مسعود بن صلاح الدين]^(٢):

وَكَمْ لِبَنِي صِلَاحِ الدِّينِ فِينَا عَلَى الْإِسْلَامِ مِنْ حَقٍّ تَأْكُدُ
وَإِنَّ لَهُمْ عَلَى الْأَمْلَاقِ طُرّاً بِفَتْحِ الْقُدُسِ فَضْلاً لَيْسَ يُجْحَدُ

وله من أخرى في مدح الملك الظاهر غازي:

هُمْ الْمُلُوكُ ذُوو بَأْسٍ وَمَكْرَمَةٍ إِنْ سَالَمُوا أَمِنُوا^(٣) أَوْ حَارَبُوا خِيفُوا
أَغْنَاهُمُ الْقُدْسُ عَنْ قَوْلِ الْوَرَى فِتْحَتْ عَكَاً وَصَيْدَاوِيَرُوتَ وَأَرْسُوفُ
جَيْشُ الْفَرَنْجِ إِذَا لَاقَى سَوَابِقَهُمْ كَأَنَّهُ جَبَلٌ بِالرَّيْحِ مَنْسُوفُ

وَقَرَأْتُ عَلَى شَيْخِنَا أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ السَّخَاوِيِّ^(٤) رَحِمَهُ اللَّهُ
مِنْ جُمْلَةِ قَصِيدَةٍ مَدَحَ بِهَا بَعْضَ وَلَدِ السُّلْطَانِ، أَظَنَّهُ الْمَلِكُ الْمُحْسَنُ
ظَهِيرُ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ صِلَاحِ الدِّينِ، رَحِمَهُمَا اللَّهُ:

مَلِكٌ بِهِ وَأَبِيهِ يَفْتَخِرُ الْعُلَا وَيَقُوقُ فَخْرُهُمَا الشُّهَا وَالْفَرْقَدَا
مَا يُوسِفُ مَمَّنْ يُقَاسُ بِحَاتِمِ أُنِّي وَقَدْ وَهَبَ الْحُصُونُ وَأَصْفَدَا^(٥)
أَوْ أَنْ يُقَالَ كَأَنَّهُ يَوْمَ الْوَعَى وَالرَّوْعِ كَالْأَسَدِ الْهَظُورِ إِذَا عَدَا

(١) في الأصل: المحب، والمثبت من (ك).

(٢) ما بين حاضرتين من (ك).

(٣) في (ك) أملوا.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣٦٨ من هذا الجزء.

(٥) أي أعطاه مالا. «معجم متن اللغة»: ٤٦١/٣.

أَوْ مَنْ يُشَبَّهُ جُودُهُ بِغَمَامَةٍ
 بَلْ مَالِكِ الدُّنْيَا وَمَالِي رَحْبِهَا
 وَمَخْلُصِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ بَعْدَمَا
 وَمَنْ الْمَلُوكِ الصَّيْدَ تَلْقَاهُمْ إِذَا
 وَبِهِ أَتَى الْبَيْتَ الْحَرَامَ وَفُودُهُ
 مِنْ بَعْدِ مَا دَرَسَتْ مَعَالِمُ سُبُلِهِ
 أَوْ مَنْ يُقَالُ لِمِثْلِهِ غَمْرُ الرُّدَا^(١)
 خَيْلًا وَرَجُلًا نَاصِرًا دِينَ الْهُدَى
 رُفِعَ الصَّلِيبَ عَلَى ذُرَاهِ وَمُجَّدًا
 رُفِعَ الشُّرَادِقُ رَاكِعِينَ وَسُجَّدًا
 مِنْ كُلِّ فَجٍّ آمِينَ الْمُرْدَا
 دَهْرًا وَعَزَّ لَخُوفِهَا أَنْ يُقْصَدَا

فصل

في صفة إقامة الجمعة بالأقصى شَرَّفَهُ اللهُ تَعَالَى
 في رابع شعبان ثامن يوم الفتح

وقد وَهَمَ محمد بن القادسي^(٢) في «تاريخه» فيما قرأته بخطه، فإنه
 قال: فَتَحَ صَلَاحُ الدِّينِ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ، وَخَطَبَ عَلَى الْمِنْبَرِ فِيهِ بِنَفْسِهِ، وَصَلَّى
 فِيهِ، وَلَبَسَ خِلْعَةً سُودَاءَ.

ولم يكن السُّلْطَانُ هو الذي باشر الخُطْبَةَ عَلَى مَا سَنَذَرُهُ^(٣)، وقد تقدَّم
 أَنَّ يَوْمَ الْفَتْحِ وَإِنْ كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَّا أَنَّ الْوَقْتَ ضَاقَ عَنْ إِقَامَةِ فَرَضِ صَلَاةِ
 الْجُمُعَةِ فِيهِ^(٤).

قال العماد: لما تسَلَّمَ السُّلْطَانُ الْقُدْسُ أَمَرَ بِإِظْهَارِ الْمُحْرَابِ، وَكَانَ
 الدَّأْوِيَّةُ* قَدْ بَنُوا فِي وَجْهِهِ جِدَارًا، وَتَرَكُوهُ لِلْغَلَّةِ هُرْيَا^(٥)، وَقِيلَ: كَانُوا

(١) هو غمر الرداء: سخيٌّ كثير المعروف. «معجم متن اللغة»: ٣٢٢/٤.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥١ من هذا الجزء.

(٣) انظر ص ٣٧٩ من هذا الجزء.

(٤) انظر ص ٣٤٤ من هذا الجزء.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣١٠ من هذا الجزء.

اتخذوه مستراحاً عُذواناً وبغياً، وكانوا قد بنوا من غربي القبلة داراً واسعة،
وكنيسة رفيعة، فأوعز برفع^(١) ذلك الحجاب، وكشف الثَّقاب عن عروس
المحراب، وهذم ما قُدَّامه من الأبنية، وتنظيف ما حوله من الأبنية، بحيث
يجتمع النَّاس للجمعة في العَرَصَة المَتَّسعة.

وُنُصِبَ المنبر، وأُظْهِرَ المحراب المطهَّر، ونُقِصَ ما أحدثوه بين
السَّواري، وفرشوا تلك البسيطة بالبُسط الرَّفيعة عَوْضَ الحُصْر والبَوَّاري^(٢)،
وعُلِّقَتِ القناديل، وتُلِّيَ التَّنْزِيل، وحُقَّ الحق وبطلت الأباطيل، وتولَّى
الفرقان وعُزِّلَ الإنجيل، وَصُفَّتِ السجادات، وَصَفَّتِ العبادات، وأُقيمت
الصَّلوات، وأُديمت الدَّعوات، وَتَجَلَّتِ البركات، وانجلت الكربات،
وانجابت العَيَّابات، واثابت الهدايات، وتُلِّيَتِ الآيات، وأُعْلِيَتِ الرِّايات.

وَنَطَقَ الأَذان وخَرَسَ النَّاقوس، وَخَضَرَ المؤذِّنون وغاب القُسوس،
وزال العبوس والبوس، وطابت الأنفاس والثَّقوس، وأقبلت السُّعود وأدبرت
الثُّحوس، وعاد الإيمان الغريب منه إلى مَوْطَنه، وَطُلِبَ الفَضْلُ من مَعْدِنِهِ،
وورد القُرَّاء وقُرِئ الأوراد، واجتمع الزُّهَّاد والعُبَّاد، والأبدال والأوتاد،
وعُبِدَ الواحد، ووَحَّدَ العابد، وتوافد الرَّاع والسَّاجد، والخاشع والواجد،
والزَّاهي والزَّاهد، والحاكم والشَّاهد، والجاهد والمجاهد، والقائم والقاعد،
والمتهجد والسَّاهد^(٣)، والزَّائر والوافد.

وَصَدَحَ المنبر، وَصَدَعَ المُذَكِّر، وانبعث المعشر، وَذَكَرَ البعث

(١) في (ك) و(ب) بكشف.

(٢) البواري جمع، مفردها الباري والبارياء، الحصر المنسوج. فارسي معرب، «اللسان»
(بري).

(٣) في (ك) والمتهجد السَّاهد.

والمحشر، وأملَى الحُفَاز، وأبكى^(١) الوعَاز، وتذاكر العُلَماء، وتناظر الفقهاء، وتحدّثت الرّواة، وروى المحدثون، وتحتف الهداة، وهدى المتحنّتون، وأخلص الدّاعون، ودعا المُخلصون، وأخذ بالعزيمة المترخّصون، ولخّص المُفسّرون، وفَسّر الملخّصون، وانتدى الفضلاء، وانتدب الخطباء، وكثّر المترشّحون للخطابة، المتوشّحون بالإصابة، المعروفون بالفصاحة، الموصوفون بالحصافة، فما فيهم إلا من خطب الرُّتبة، ورَتَب الخطبة، وأنشأ معنى شائعاً، ووَشَى لفظاً رائقاً، وسوّى كلاماً بالموضع لا ثِقاً، وروى مبتكراً من البلاغة فائقاً، وفيهم من عَرَضَ علي خُطبته، وطلبَ مني نصيبته، وتمنّى أن ترجّح فضيلته، وتنجح وسيلته، وتسبق منيّه^(٢) فيها أمنيّه، وكلّهم طال إلى الانتهاء بها عُنفه، وسال من الالتهاب عليها عرقه. وما منهم إلا من يتأهّب ويترقّب، ويتوسّل ويتقرّب، وفيهم من يتعرّض ويتضرّع، ويتشوّف ويتشفّع، وكلّ قد لبس وقاره ووقر لباسه، وضربَ في أحماسه أسداسه، ورفع لهذه الرّئاسة راسه، والسُّلطان لا يعين ولا يبين، ولا يخضّ ولا ينص، ومنهم من يقول: ليتني خطبتُ في الجمعة الأولى، وفُزْتُ باليد الطّولى، وإذا ظفرتُ بطالع سَعدي، فما أبالي بمن خَطَبَ بعدي.

فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان أصبح النَّاس يسألون في تعيين الخطيبِ السُّلطان، وامتأل الجامعُ، واحتفلت المجامع، وتوجّستِ الأبصار والمسامع، وفاضت لِرَقّة القلوب المدامع، وراعت لحلية تلك الحالة وبهاء

(١) في (ك) وأسلى.

(٢) في الأصل: بمنيته، والمثبت من (ك).

تلك البهجة الرّوائع، وغُصَّتْ بالسّابقين إليها المواضع، وتوسّمتِ العيون، وتقسّمت الطُّنُون، وقال النَّاسُ: هذا يومٌ كريم، وفَضْلٌ عَمِيم، ومَوْسَمٌ عَظِيمٌ، هذا يومٌ تُجَاب فيه الدَّعَوَات، وتُصَبُّ البركات، وتسال العَبَرَات، وتُقَال العَثَرَات، ويتيقّظ الغافلون، ويتعظّ العاملون. وطوبى لمن عاش، حتى حَضَرَ هذا اليوم الذي فيه انتعش الإسلام وارتاش، وما أَفْضَل هذه الطّائفة الحاضرة، والعُصبة الطّاهرة، والأُمة الظّاهرة، وما أكرم هذه النُّصرة النَّاصِرِيَّة، والأسرة الإِمامِيَّة والدَّولة العبّاسِيَّة، والمملكة الأيوبيَّة، والدَّولة الصّلاحِيَّة، وهل في بلد الإسلام أشرف من هذه الجماعة، التي شَرَفَهَا الله بالتوفيق لهذه الطّاعة.

وتكلّموا فيمن يخطب، ولمن يكون المَنَصِب، وتفاوضوا في التفويض، وتحدّثوا بالتّصريح والتّعريض. والأعلام تُعلّى، والمنبر يُكسى ويُجلّى، والأصوات ترتفع، والجماعات تجتمع، والأفواج تزدحم، والأمواج تلتطم، وللعارفين من الضّجيج ما في عرفات للحجيج، حتى حان الزّوال، وزال الاعتدال، وحِئِل^(١) الدّاعي، وأعجل السّاعي، نصب السُّلطان الخطيب بنصّه، وأبان عن اختياره بعد فحصه، وأوعز إلى القاضي محيي الدين أبي المعالي محمد بن زكي الدين علي القرشي^(٢) بأن يرقى ذلك المَرَقى، وترك جباه الباقيين بتقديمه عَرَقَى، فأعرّضه من عندي أهبّة سوداء من تشريف الخلافة، حتى يكمل له شرف الإفاضة والإضافة، فَرَقَى العود، ولقي السُّعود، واهتزّت أعطاف المنبر، واعتزّت أطراف المعشر.

(١) حِئِل، أي قال: حي على الصلاة، وصحفها محقق «الفتح» إلى «خِئِل» وشرحها بقوله: أي ألبس!!

(٢) أخبره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وقد ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين»، وفيات سنة (٥٩٨ هـ).

وخطَبَ وأنصتوا، ونَطَقَ وسكتوا، وأفصح وأعرب، وأبدع وأغرب، وأعجز وأعجب، وأوجز وأسهب، ووعظ في خطبته، وخطب بموعظته، وأبان عن فضل البيت المقدس وتقديسه، والمسجد الأقصى من أول تأسيسه، وتطهيره بعد تنجيسه، وإخراص ناقوسه، وإخراج قسيسه، ودعا للخليفة والسلطان، وختم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^(١) ونزل وصلى في المحراب، وافتتح بيسم الله الرحمن الرحيم من أم الكتاب، فأَمَّ^(٢) بتلك الأمة، وتمَّ نزول الرِّحمة، وكَمَلَ وصول النُّعمة.

ولما قُضيت الصَّلَاة انتشر النَّاس، واشتهر الإيْناس، وانهقد الإجماع واطرَدَ القياس، وكان قد نُصِبَ للوعظ تجاه القِبْلَة سرير، ليفرعه كبير، فجلس عليه زين الدين أبو الحسن علي بن نجا^(٣)، فذكَر من خاف ومن رجا، ومن سَعِدَ ومن شقي، ومن هلك ومن نجا، وخوَّف بذِي الحِجَّة ذوي الحِجَا، وجلا بنور عِظَاتِهِ من ظَلَم الشُّبُهَات ما دجا، وأتى بكل عِظَةٍ للرَّاقدين موقظة، وللظَّالَمين محفظة، ولأولياء الله مرققة، ولأعداء الله مغلظة.

وَصَحَّ المتباكون، وعَجَّ المتشاكون، ورقَّتِ القلوب، وَحَقَّتْ^(٤) الكُروب، وتصاعدت النعرات، وتحذرت العبرات، وتاب المذنبون، وأتاب المتحوِّبون، وصاح التَّوَّابون، وناح الأَوَّابون، وجرت حالات جلَّتْ، وجلوات حلَّتْ، ودعوات علَّتْ، وضراعات قُبِلَتْ، وفُرِصٌ من الولاية الإلهية انتَهَزَتْ، وحِصَصٌ من العناية الرَّبَّانية أُحْرِزَتْ.

(١) سورة النحل، الآية: ٩٠.

(٢) في (ك) فائتم.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٩١ من الجزء الأول.

(٤) في الأصل: وخفت، والمثبت من (ك).

وصلَّى السُّلْطَانُ فِي قُبَّةِ الصَّخْرَةِ، وَالصُّفُوفِ عَلَى سَعَةِ الصَّخَنِ بِهَا مُتَّصِلَةً، وَالْأَمَّةَ إِلَى اللَّهِ بِدَوَامِ نَصْرِهِ مُبْتَهَلَةً، وَالْوُجُوهَ الْمَوْجَّهَةَ إِلَى الْقِبْلَةِ عَلَيْهِ مُقْبَلَةً، وَالْأَيْدِيَ إِلَى اللَّهِ مَرْفُوعَةً، وَالذَّعْوَاتِ لَهُ مَسْمُوعَةً، ثُمَّ رُتِبَ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى خُطِيباً اسْتَمَرَّتْ خُطْبَتُهُ، وَاسْتَقَرَّتْ نَصْبَتُهُ^(١).

قُلْتُ: هَذِهِ أَلْفَاظُ الْعِمَادِ فِي هَذَا الْفَصْلِ مِنْ كِتَابِ «الْفَتْحِ»، وَذَكَرَهُ فِي كِتَابِ «الْبَرْقِ» بِعِبَارَةٍ أُخْرَى تُشْتَمِلُ عَلَى فَوَائِدَ زَائِدَةٍ، وَفِي تَكَرُّارٍ مَا تَقَدَّمَ أَيْضاً بِغَيْرِ تِلْكَ الْعِبَارَةِ فَائِدَةٍ، فَإِنَّهَا مَعَانٍ جَلِيلَةٌ كَلَّمَا كَرَّرْتُ^(٢) حَلَّتْ.

فصل

قَالَ الْعِمَادُ فِي كِتَابِ «الْبَرْقِ»: لَمَّا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ التَّالِيَةِ لَجُمُعَةِ الْفَتْحِ تَقَدَّمَ السُّلْطَانُ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى بِبَسْطِ الْعِرَاصِ، وَإِخْلَاطِهَا لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ، وَتَنْظِيفِهَا مِنَ الْأَدْنَسِ، وَكَنَسِ مَا فِي أَرْجَائِهَا مِنَ الْأَرْجَاسِ. وَقَدْ كَانَ سَبْقُ أَمْرِهِ مِنْ مَبْدَأِ الْأَمْرِ، بِهَدْمِ مَا هُنَاكَ مِنْ أُنْبِيَةِ الْكُفْرِ، وَإِبْرَازِ الْمُحْرَابِ الْقَدِيمِ، وَإِعَادَةِ مَوْضِعِهِ إِلَى الْوَضْعِ الْكَرِيمِ، فَقَدْ كَانَ الدَّأْوِيَّةُ* بَنَوْا غَرْبِيَّهَ دَاراً وَأَدْخَلُوهُ فِيهَا، وَخَلَطُوهُ بِمَبَانِيهَا، وَاتَّخَذُوا مِنْهُ جَانِباً مُسْتَرَاخاً لِلْأَعْلَالِ، وَجَانِباً هُرِيّاً لِلْغِلَالِ، فَأَمَرَ فِي الْعَاجِلِ بِكَشْفِ قِنَاعِهِ، وَرَفْعِ الْوَضِيعِ مِنْ أَوْضَاعِهِ، وَنَقْلِ مَا وَقَعَ مِنْ أَنْقَاضِهِ، وَنَقْضِ مَا اعْتَوَرَ ذَلِكَ الْجَوْهَرُ النَّفِيسَ مِنْ أَعْرَاضِهِ، حَتَّى طَهَّرَ مَوْضِعَ الْمَنْبَرِ وَالْمُحْرَابِ، وَاسْتَظْهَرَ بِإِزَالَةِ مَا قُدَّامَهُ مِنَ الْحِجَابِ، وَاجْتَمَعَ الْخَلْقُ فِي ذَلِكَ الْأُسْبُوعِ عَلَى تَفْرِيقِ ذَلِكَ الْهَدْمِ

(١) «الفتح القسي»: ١٣٧ - ١٤٠.

(٢) فِي الْأَصْلِ: ذَكَرْتُ، وَالْمُثَبِّتُ مِنْ (ك).

المجموع، وتعاونوا حتى كشفوه، ونظفوه ورشّوه وفرشوه، وكان قد أمر
بأخذ منبر في تلك الأيام، فنجّزوه وركبوه.

ولما أصبحنا يوم الجمعة وجدنا العِلل مُرَاحَة، والهَمَمَ مُرَاحَة،
والخواطر إلى وِرْدِها ملتحاة مرتاحة، وهناك فضلاء بلغاء، وعلماء أتقياء،
وكلُّ منهم قد سبق بِخُطْبَةِ الخُطْبَةِ، وأَمَلُ الفوز بفضيلة تلك الرُّتْبَةِ، وأعدَّ
لذلك المقام مقالاً^(١)، وَنَشِطَ بِشِقْشِقَةٍ فصاحته من قَرَمِ حصافته عِقالاً، حتى
إذا حِينَلَ الدَّاعِي، وتعينَ الفَرَضُ على السَّاعِي، حضر السُّلْطَانُ لِلصَّلَاةِ قُبَّةَ
الصَّخْرَةِ، بادِئَةً على أساريه أسرار سروره بالأَسْرَةِ، وامتلاّت تلك العِراض
والصّحون، واستعبرت للفرح بما يَسِّرُهُ اللهُ العِيونُ، وَأَنَّ لَدَيْنَ اللهِ أَنْ تُقْضَى لَهُ
الدُّيُونُ وَتُفَكَّ الرُّهُونُ، وَوَجَلَّتِ القُلُوبُ، وَخَشَعَتِ الأصْوَاتُ، وَحَسُنَتْ
الظُّنُونُ، وعين السُّلْطَانُ القَاضِي محيي الدين أبا المعالي محمد بن علي
القُرْشِيِّ الزَّكِيِّ بن الزكي للصَّلَاةِ والخطبة، وَفَرَعَ تلك الرُّتْبَةَ، فصَعِدَ وَسَعِدَ،
وَحَمَدَ وَأَحْمَدَ، وَأَدَّتِ المعاني الشَّرِيفَةَ أَلْفَاظَهُ، وَنَبَّهَ الْأَقَاصِي والأَدَانِي
إِيقَاظَهُ، وجلا المسامع، وجلت المَدَامِعُ، وَأَتَى بِالخِطْبَتَيْنِ المفروضتين على
الوَجْهِ المَشْرُوعِ، وَالْمَنْهَجِ المتبوعِ، وَالشَّرْطِ الموضوعِ، وذكر في الفتح
البكر ما اقتضَى به أَبْكَارُ الاستعارات بأبدع البراعات، وأبرع العبارات،
وصدَحَ بالصَّدْقِ، وَنَطَقَ بِالْحَقِّ، وفاز بالسَّبْقِ، وحاز الفضيلة على فُضْلَاءِ
الغَرْبِ والشرْقِ، فهو لنشر المعاني أضْمَ خطيب، له بنشر المعالي أضْمَخَ
طيب، فأين قُسُ في عكاظه من قياس ألفاظه! وأين سَخْبَان من سجعاته!
وابن نُبَاتَه من نباته! ولو عاشا لافتقرا إلى فِقْرِهِ، واحتقرا أعراضهما عند

(١) في الأصل: مقالات، والمثبت من (ك).

جوهره، ودعا لأمير المؤمنين، ثم لسلطان المسلمين، ونزل وقام إماماً أكمل بصلاته الفرض، وأرضى بِسَمْتِ دعواته والطمأنينة في ركعاته وسجدياته أهلَ السَّماء والأرض، وسرَّ السلطان بنصبه ورَفَعِه، وامتلاً صدره حبوراً منه بجلاء بصره وسمعه، فقد أخذت بالأبصار أشعة أنوار الخطبة، في سواد الأهبة، وعَظُمَتْ أخطار المهابة في خواطر المحبة، وكَرُمَتْ سرائرُ الرُّلْفَى إلى الله والقرية.

ثم رتب السلطان بعده خطيباً تستمرُّ إقامته للجمع والجماعات، وتستقرُّ ملازمته لأداء الصَّلوات.

ولما قضيت الصَّلَاة تلك الجمعة، نُصِبَ سريرٌ للوعظ أبقى تلك الأمة المجتمعة، وتقدَّم السلطان إلى زين الدين الواعظ ليفرع السرير، وينفع بعظاته الصَّغير والكبير، وحضر المجلس بمرأى منه ومسمع، فكان أنور مجلس ومجلى وأشرف جمع ومجمع، فحقَّق ورَقَّق، وأشهد وأشهق، وحَلَبَ بعباراته الحُلوة العبرات، وشار العسل بمعسول الإشارات، وبشَّر البشَّر بشارة البشارات، وذكر الفتح وبكارتته، والقُدس وطهارته، والدِّين وجسارته، والكُفر وخسارته، والقدر وإعانتته، والظَّفَر وإبانته، والصَّخرة وإصراخها، والرَّوعة وإفراخها، والنَّار وصراطها، والقيامة وأشراطها، والرَّحمة وبابها من باب الرَّحمة، والجَنَّة وجناها لهذه الزحمة، وما أعدّه الله لهذه الطائفة، وما أنزله من الأمن على القلوب الخائفة، ووصَفَ ببلاغته ما لا يبلغ إليه نُطقُ الألسنة الواصفة، ووصف الجهاد وفرائضه وفضائله، والخير ودلائله، والتُّجج ووسائله، والشَّرع ومسائله، والذنب وغوائله، وإحسان السلطان وفواضله، والبحر وساحله، والدِّين وحقه، والكفر وباطله، وكان يوماً راجحاً، وسَوْماً رابحاً.

فصل

في إيراد ما خُطِبَ به القاضي محيي الدين، رحمه الله

قال العماد: وخطب القاضي محيي الدين بن زكي الدِّين أربع خُطَبٍ. في أربع جُمُع، كلها من إنشائه، وأودعها سرّاً بلاغة عُنيَتْ بإفشائه، وذكرت الخُطبة الأولى، ويد الفصاحة فيها طُولي، افتتاحها بهذه الآيات ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٢) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾^(٣) ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾^(٤) الآية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾^(٥) ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾^(٦) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾^(٧) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٨).

والخطبة: الحمد لله مُعِزُّ الإِسْلَامِ بنصره، ومُذِلُّ الشُّرْكِ بقهره، ومُصَرِّفُ الْأُمُورِ بأمره، ومديمِ النِّعَمِ بشكره، ومستدرجِ الكافرين بمكره،

(١) سورة الأنعام، الآية: ٤٥.

(٢) سورة الفاتحة، الآيات: ٢ - ٤.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١.

(٤) تتمة ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

(٥) سورة الكهف، الآية: ١.

(٦) سورة النمل، الآية: ٥٩.

(٧) سورة سبأ، الآية: ١.

(٨) سورة فاطر، الآية: ١.

الذي قَدَّرَ الأيامَ دُولاً بَعْدَ لِهْ، وَجَعَلَ العاقبةَ للمتقين بَفَضْلِهِ، وَأَفَاءَ على عبادِهِ من ظِلِّهِ، وَأَظْهَرَ دِينَهُ على الدِّينِ كُلِّهِ، القاهرَ فوقَ عبادِهِ فلا يُمانِعُ، والظَّاهِرَ على خَلِيقَتِهِ فلا يُنازِعُ، والأَمْرَ بما يَشَاءُ فلا يُرَاجِعُ، والحاكِمَ بما يَريدُ فلا يُدافِعُ.

أحمدُهُ على إظْفارِهِ وإظْهارِهِ، وإِعْزازِهِ لأوليائِهِ ونَصْرِهِ لَأَنْصارِهِ، وَتَطْهيرِهِ بيْتِهِ المَقْدَسَ من أَدْناسِ الشُّرْكِ وَأَوْضارِهِ، حَمْدَ من اسْتَشْعَرَ الحَمْدَ باطِنُ سِرِّهِ وظاهرُ جِهارِهِ.

وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهْ، الأَحَدَ الصَّمَدَ الَّذِي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهْ كُفُوءاً أَحَدٌ﴾^(١) شَهادَةً من طَهَّرَ بالتَّوْحِيدِ قَلْبُهُ، وَأَرْضَى بِهِ رَبَّهُ.

وأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَافِعَ الشَّكِّ، وداحِضَ الشُّرْكِ، وراحِضَ الْإِفْكِ، الَّذِي أُسْرِيَ بِهِ مِنَ المَسْجِدِ الْحَرَامِ إلى هَذَا المَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَعُرِجَ بِهِ مِنْهُ إلى السَّمَوَاتِ الْعُلَا إلى سِدْرَةِ المُنْتَهَى. عِنْدَها جَنَّةُ المَأْوَى، ما زَاغَ البَصَرُ وما طَغَى^(٢).

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى خَلِيفَتِهِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ السَّابِقِ إلى الْإِيْمَانِ، وَعَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَوَّلَ مَنْ رَفَعَ عَنْ هَذَا الْبَيْتِ شِعارَ

(١) سورة الْإِخْلَاصِ، الآية: ٢ — ٤.

(٢) فِي هَذَا اقْتِباسَ من قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهَى، عِنْدَها جَنَّةُ المَأْوَى، إِذْ يَغْشَى السِدْرَةَ ما يَغْشَى، ما زَاغَ البَصَرُ وما طَغَى﴾ [النَّجْم: ١٤ — ١٧].

الصُّلْبَان، وعلى أمير المؤمنين عُثْمَان [بن عفان]^(١) ذي الثَّورَيْن جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشُّرْك ومكسّر الأوثان، وعلى آلِه وأصحابه والتَّابعين لهم بإحسان.

أيها النَّاس، أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القُصوى، والدَّرَجَة العُلى، لما يَسِّرُه الله على أيديكم من استرداد هذه الضَّالَّة، من الأُمَّة الضَّالَّة، وردّها^(٢) إلى مقرِّها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المُشركين قَريباً من مئة عام، وتطهير هذا البيت الذي أذنَ الله أن يُرْفَعَ وأن يُذكَرَ فيه اسمه^(٣)، وإماطة الشُّرْك عن طُرُقِه بعد أن امتدَّ عليها رُواقُه، واستقرَّ فيها رسمُه، ورَفَعَ قواعده بالتوحيد فإنه بُني عليه، وبالتَّقوى فإنه أُسِّسَ على التقوى من خلفه ومن بين يديه، فهو موطن أبيكم إبراهيم، ومعراج نبيكم محمد عليه السَّلام، وقِبْلَتكم التي كنتم تُصلُّون إليها في ابتداء الإسلام، وهو مقرُّ الأنبياء، ومقصد الأولياء، ومقرُّ الرُّسل، ومهبط الوحي، ومنزَل تنزَّلَ الأمر والنهي، وهو في أرض المحشر وصعيد المنشر، وهو في الأرض المقدَّسة التي ذكرها الله في كتابه المبين، وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله ﷺ بالملائكة المقرَّبين، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحِه؛ عيسى الذي شَرَفَه الله برسالته، وكرَّمَه بنبوَّتِه، ولم يزحزحه عن رُتَبَة عبوديَّتِه، فقال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾^(٤) وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾^(٥).

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٢) في الأصل: مردها، والمثبت من (ك) و(ب).

(٣) اقتباس من قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [سورة النور: ٣٦].

(٤) سورة النساء، الآية: ١٧٢.

(٥) سورة المائدة، الآية: ١٧، ٧٢.

وهو أولُ القِبْلَتَيْنِ، وثاني المسجدين، وثالث الحَرَمَيْنِ، لا تُشَدُّ الرِّحَالُ بعد المسجدين إلا إليه^(١)، ولا تُعَقَّدُ الخناصر بعد المواطنين إلا عليه، ولولا^(٢) أنكم ممن اختاره الله من عباده، واصطفاه من سُكَّانِ بلاده، لما خَصَّكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مُجَارٍ، ولا يباريكم في شَرَفِها مُبَارٍ، فطوبى لكم من جيشٍ ظَهَرَتْ على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية، والفتوح العُمرية، والجيوش العُثمانية، والفتكات العلوية، جَدَّدْتُمْ للإسلام أيامَ القادسية، والوقعات اليرموكية، والمنازلات الخيرية، والهجمات الخالدية، فجزاكم^(٣) الله عن نبيه محمد ﷺ أفضلَ الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مُهَجِّكم في مقارعة الأعداء، وتقبَّلَ منكم ما تقرَّبتم به إليه من مُهْرَاقِ الدِّماء، وأثابكم الجَنَّةَ فهي دار السُّعْداء، فاقدروا — رحمكم الله — هذه النِّعْمَةَ حَقَّ قَدْرِها، وقوموا لله تعالى بواجبِ شُكْرِها، فله النِّعْمَةُ^(٤) عليكم بتخصيصكم بهذه النِّعْمَةِ، وترشيحكم لهذه الخِدْمَةِ، فهذا هو الفَتْحُ الذي فُتِحَتْ له أبوابُ السَّماءِ، وتبَلَّجَتْ بأنواره وجوه الظُّلَماءِ، وابتهج به الملائكةُ المُقَرَّبُونَ، وقرَّ به عَيْناً الأنبياءُ والمرسلون، فماذا عليكم من النِّعْمَةِ بأن جعلكم الجيش الذي يفتح عليه البيت المقدس في آخر الزَّمان، والجُنْدُ الذي تقوم بسيوْفهم بعد فَتْرَةٍ من النُّبُوَّةِ أعلامُ الإيْمَانِ، فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء^(٥)، أكثر من التهاني به بين أهل العَبْرَاءِ، أليس هو البيتُ الذي ذكره الله في كتابه، ونصَّ عليه في خطابه، فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣٣٧ من هذا الجزء.

(٢) في (ك) هذا، ولولا...

(٣) في (ك) و(ب) فجازاكم.

(٤) في «وفيات الأعيان» و«شفاء القلوب»: المنة.

(٥) الخضراء: السماء. «القاموس المحيط» (خضر).

المَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴿١﴾ — الآية؟ أليس هو البيت الذي عَظَّمْتَهُ الْمُلُوكُ، وَأَنْتَ عَلَيْهِ الرُّسُلُ، وَتَلَيْتَ فِيهِ الْكُتُبُ الْأَرْبَعَةَ الْمَنْزَلَةَ مِنْ إِلَهُكُمْ عَزَّ وَجَلَّ؟ أليس هو البيتُ الَّذِي أَمْسَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الشَّمْسَ عَلَى يَوْشَعَ لِأَجَلِهِ أَنْ تَغْرُبَ، وَبَاعَدَ بَيْنَ خَطَوَاتِهَا لِتَيْسَرَ فَتْحُهُ وَيَقْرُبَ؟ أليس هو البيتُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ مُوسَى أَنْ يَأْمُرَ قَوْمَهُ بِاسْتِنْقَاذِهِ فَلَمْ يُجِبْهُ إِلَّا رَجُلَانِ، وَغَضِبَ عَلَيْهِمْ لِأَجَلِهِ، فَأَلْقَاهُمْ فِي النَّارِ عِقَابًا لِلْعِصْيَانِ؟

فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نكَلْتُمْ عَنْهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَقَدْ فَضَّلَهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَوَفَّقَكُمْ لِمَا خُذِلَ فِيهِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِينَ، وَجَمَعَ لِأَجَلِهِ كَلِمَتَكُمْ وَكَانَتْ شَتَّى، وَأَغْنَاكُمْ بِمَا أَمْضَتْهُ «كَانَ» وَ«قَدْ» عَنْ «سَوْفَ» وَ«حَتَّى». فليهنكم أَنَّ اللَّهَ قَدْ ذَكَرَكُمْ بِهِ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَجَعَلَكُمْ — بَعْدَ أَنْ كُنْتُمْ جُنُودًا لِأَهْوِيَتِكُمْ — جُنُودًا، وَشَكَرَكُمْ الْمَلَائِكَةُ الْمَنْزُولُونَ عَلَى مَا أَهْدَيْتُمْ إِلَى هَذَا الْبَيْتِ مِنْ طَيْبِ التَّوْحِيدِ، وَنَشَرَ التَّقْدِيسَ وَالتَّحْمِيدَ، وَمَا أَمَطْتُمْ عَنْ طُرُقِهِمْ فِيهِ مِنْ أَذَى الشُّرْكِ وَالتَّثْلِيثِ، وَالْإِعْتِقَادِ الْفَاجِرِ الْخَبِيثِ، فَالآنَ يَسْتَغْفِرُ لَكُمْ أَمَلَاكُ السَّمَوَاتِ، وَتَصَلِّيُ عَلَيْكُمْ الصَّلَوَاتُ الْمُبَارَكَاتُ.

فاحفظوا — رحمكم الله — هذه الموهبة فيكم، واحرسوا هذه النعمة عندكم، بتقوى الله التي من تَمَسَّكَ بِهَا سَلِمَ، وَمَنْ اعْتَصَمَ بِعُرْوَتِهَا نَجَا وَعُصِمَ، واحذروا من اتِّبَاعِ الْهَوَى، وَمُوَافَقَةِ الرَّدَى، وَرَجُوعِ الْقَهْقَرَى، وَالنُّكُولِ عَنِ الْعِدَى، وَخُدُوا فِي انْتِهَازِ الْفُرْصَةِ، وَإِزَالَةِ مَا بَقِيَ مِنَ الْعُصَّةِ، وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَيَعْبُدُوا اللَّهَ أَنْفُسَكُمْ فِي رِضَاهُ إِذْ جَعَلَكُمْ مِنْ

(١) سورة الإسراء، الآية: ١.

عباده، وإياكم أن يستزلكم الشيطان، وأن يتداخلكم الطُّغيان، فيخيّل لكم أن هذا النَّصْرَ بسيفكم الحِداد، وبخيولكم الجِداد، وبجِلاذكم في مواطن الجِلاذ، لا والله، ﴿ما النَّصْرُ﴾^(١) إلا من عِنْدِ الله إِنَّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ﴾^(٢).

واحدروا عبادَ الله — بعد أن شَرَّفَكم بهذا الفَتْحِ الجليل، والمنح الجزيل، وخصَّكم بهذا الفتح المُبِين، وأعلق أيديكم بحبله المتين — أن تقتربوا كثيراً من مناهيه، وأن تأتوا عظيماً من معاصيه، فتكونوا كالتي نَقَضَتْ غَزْلَهَا من بَعْدِ قُوَّةٍ أنكاثاً^(٣)، والذي آتيناها آياتنا فانسَلَخَ منها فأتبعه الشَّيْطَانُ فكان من الغاوين^(٤)، والجهادَ الجهادَ فهو من أفضل عباداتكم، وأشرف عاداتكم^(٥)، انصروا الله يَنْصُرْكُمْ، اذكروا الله يذكركم، اشكروا الله يزدكم ويشرككم، جُذُّوا في حَسَمِ الدَّاءِ، وقَطِّعْ شَأْفَةَ الأعداء، وتطهيرِ بَقِيَّةِ الأرض التي أغضبتِ اللهَ ورسولَهُ، واقطعوا فروع الكُفْرِ واجتثُّوا أُصولَهُ، فقد نادى الأيام بالثَّارَاتِ الإسلامية، والمِلَّةِ المحمدية.

الله أكبر، فَتَحَ الله وَنَصَرَ، غَلَبَ الله وَقَهَرَ، أَذَلَّ الله من كَفَرَ.

واعلموا — رحمكم الله — أن هذه فُرْصَةٌ فاتتْها، وفريسة فناجزوها، ومهمَّةٌ فأخرجوا لها هِمَمَكُمْ وَبِرَّزُوهَا، وسيروا إليها سرايا عزماتكم

(١) الآية: وما النصر...

(٢) سورة الأنفال، الآية: ١٠.

(٣) اقتباس من قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً﴾ [النحل: ٩٢].

(٤) اقتباس من قوله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾ [الأعراف: ١٧٥].

(٥) في الأصل: والجهاد الجهاد فهو وأشرف عاداتكم أفضل من عباداتكم. والمثبت من (ك).

وَجَهَّزُوهَا، فالأمور بأواخرها، والمكاسب بذخائرها، فقد أظفركم الله بهذا العدو المخدول، وهم مثلكم أو يزيدون، فكيف وقد أضحى في قبالة الواحد منهم منكم عشرون، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾^(١) أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره، والازدجار بزواجه، وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾^(٢).

وتمام الخطبة [والخطبة]^(٣) الثانية قريب مما جرت به العادة، وقال بعد الدعاء للخليفة: اللهم، وأدم سلطان عبدك، الخاضع لهيبتك، الشاكر لنعمتك، الْمُعْتَرِفِ بموهبتك، سيفك القاطع، وشهابك اللامع، والمحامي عن دينك المدافع، والذائب عن حرمك الممانع، السَّيِّدِ الأجل، الملك النَّاصر، جامع كلمة الإيمان، وقامع عبدة الصُّلْبَانِ، صلاح الدُّنْيَا والدِّينِ، سلطان الإسلام والمسلمين، مطهر البيت المقدس، أبي الْمُظَفَّرِ يوسف بن أيوب، محيي دولة أمير المؤمنين.

اللهم عَمِّ بدولته البسيطة، واجعل ملائكتك براياته محيطة، وأحسن عن الدِّينِ الحنيفيَّ جزاءه، واشكر عن المِلَّةِ المحمدية عَزَمَهُ ومضاءه.

اللهم أبقِ للإسلام مُهْجَتَهُ، ووقِّ للإيمان حَوْزَتَهُ، وانشر في المشارق والمغارب دعوته.

اللهم كما فتحت على يَدِهِ البيتَ المقدس بعد أن طُنَّتِ الطُّنُونُ، وابتُلِيَ

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٠.

(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

المؤمنون، فافتح على يده أداني الأرض وأقاصيها، وملِّكْه صياصي الكفرة ونواصيها، فلا تلقاه منهم كتيبة إلا مَرَّقَها، ولا جماعة إلا فَرَّقَها، ولا طائفة بعد طائفةٍ إلا ألحقها بمن سبقها.

اللهم اشكر عن محمد ﷺ سَعْيِهِ، وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونَهْيِهِ، اللهم وأصلحْ به أوساطَ البلاد وأطرافها، وأرجاء الممالك وأكنافها.

اللهم ذَلِّلْ به مَعَاطِسَ الكُفَّارِ، وَأَزْغِمْ به أُنُوفَ الفُجَّارِ، وانشر ذوائب مُلْكِهِ على الأمصار، وابْثُثْ سرايا جنوده في سُبُلِ الأقطار.

اللهم ثَبَّتِ المُلْكَ فيه وفي عَقِبِهِ إلى يوم الدِّينِ، واحفظه في بنيه وبنِي أبيه الملوك الميامين، واشدد عَصْدَهُ ببقائهم، واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم.

اللهم كما أجريت على يده في الإسلام هذه الحَسَنَةَ التي تبقى على الأيام، وتتخلَّد على مَرِّ الشُّهُور والأعوام، فازرُقْهُ المُلْكَ الأبديَّ الذي لا ينفد في دار المَتَّقِينَ، وأجب دُعَاءَهُ في قوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾^(١).

ثم [دعا]^(٢) بما جَرَتْ به العادة^(٣).

(١) سورة النمل، الآية: ١٩.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٣) انظر الخطبة بتمامها في «مفرج الكروب» ٢١٨/٢ - ٢٢٧، و«وفيات الأعيان» ٢٣٠/٤ - ٢٣٦، و«شفاء القلوب»: ١٣٠ - ١٣٨.

فصل في المنبر

قال العماد: لما فتحنا القُدس أمر بتعمير المحراب وترخيمه، وتكميل حُسنه وتتميمه، ووَضَعَ منبرٍ رسمي في أوَّل يومٍ قضى به الفرض، واحتيج بعد ذلك إلى منبر حَسَنِ رائق، بحسنه لائق، وبجماله شائق، وبكَماله فائق، فذكر السلطانُ المنبر الذي أنشأه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله لبيت المقدس قبل فَتْحِهِ بِنَيْفٍ وعشرين سنة، وأودعه له من ذخائره عند الله حَسَنَةً، فأمر أن يكتب إلى حلب ويُطلب، فَحُمِلَ وعُمِلَ على ما أمر به وامتل، فجاء كالرَّؤُضِ النضير، والوَشْيِ الحبير، عديم النَّظير.

وكان من حديث إحدائه، ما ألهم الله نور الدين رحمه الله لارتياح خاطره إليه وانبعائه، وقد أوقع في رُوعه، من الثَّورِ الفائض من يَنْبُوعِ ضلوعه، أَنَّ البيت المقدس بعده سَيُفْتَحُ، وَأَنَّ صدورَ المُسلمين الحَرْجَةِ لأجله سَتُشْرَحُ، وهو من أولياء الله المُلهَمين، وعباده المُحَدِّثين المُكْرَمين، وكان بحلب نَجَّارٌ يعرف بالأختريني من ضيعةٍ تُعرف بأخترين، لم يُلَفَّ له في براعته وصنعتة قرين، فأمره نور الدين بعمل منبر لبيت الله المقدس، وقال له: اجتهد أن تأتي به على النَّعْتِ المُهَنْدَمِ والنَّحْتِ المهندس. فجمع الصُّنَاعَ، وأحسن الإبداع، وأتممه في سنين، واستحقَّ بِحُسْنِ إحسانه التَّحْسِينَ، والنَّاسُ يقولون: هذا أمرٌ مستحيل، وحكم ماله دليل، وذِكْرٌ جميل، وأَجْرٌ جزيل لو كان إليه سبيل، وهيهات أن يعود القدس إلى الإسلام، ويقضي الإصباح فيه على الإظلام، فَإِنَّ الفرنج مستولون مستعلون، ويكثرون على الأيام ولا يقلُّون، أَمَّا ناصفونا على أكثر أعمال حوران، وقابلوا بالكُفْرِ الإِيْمَان! وقد أعجزوا ملوك الإسلام إلى اليوم، فما

أَضْعَبَ وَأَتَعَبَ وَقَمَّ^(١) الْقَوْمَ. ويقول من له قوَّة اليقين، وَعَرَفَ أَنَّ اللَّهَ كَافِلٌ
بِنَصْرِهِ الدِّينَ: اصبروا، فَلَيْسَ هَذِهِ الْأُمَّةُ نَبَأٌ، وَهُوَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرْ عَلَيْهِ مَلَأْ﴾^(٢).

وَلَمْ يَزَلْ لِنُورِ الدِّينِ فِي قَلْبِهِ مِنَ الدِّينِ نُورٌ، وَأَثَرُ تَقْوَاهُ لِلْمُتَّقِينَ مَأْثُورٌ،
أَزْهَدُ الْعِبَادِ، وَأَعْبَدُ الزُّهَّادِ، وَمِنَ الْأَوْلِيَاءِ الْأَبْرَارِ، وَالْأَتَقِيَاءِ الْأَخْيَارِ، وَقَدْ
نَظَرَ بَنُورِ الْفِرَاسَةِ أَنَّ الْفَتْحَ قَرِيبٌ، وَأَنَّ اللَّهَ لِدَعَائِهِ وَلَوْ بَعْدَ وَفَاتِهِ مُجِيبٌ،
وَيَزِيدُهُ قُوَّةَ عَزْمِهِ جِدًّا، وَتَمُدُّهُ بِحَيَاءِ الْحَيَاةِ الرَّبَّانِيَّةِ مَدًّا، قَدْ طَهَّرَهُ اللَّهُ مِنَ
الْعَيْبِ، وَأَطْلَعَهُ عَلَى سِرِّ الْغَيْبِ^(٣)، وَنَزَّهَهُ مِنَ الرَّيْبِ لِنَقَاءِ الْجَيْبِ، وَشَمِلَتْ
الْإِسْلَامَ بَعْدَهُ بِرُكَّتِهِ، وَخُتِمَتْ بِافْتِتَاحِ مُلْكِ صَلَاحِ الدِّينِ مَمْلُكَتُهُ، وَهُوَ الَّذِي
رَبَّاهُ وَلَبَّاهُ، وَأَحَبَّهُ وَحَبَاهُ، وَهُوَ الَّذِي سَنَّ الْفَتْحَ، وَسَنَّى التُّجْحَ.

وَاتَّفَقَ أَنَّ جَامِعَ حَلَبَ فِي الْأَيَّامِ النُّورِيَّةِ احْتَرَقَ، فَاحْتِيجَ إِلَى مَنْبَرٍ
يُنْصَبُ، فَتُنْصَبَ ذَلِكَ الْمَنْبَرُ، وَحَسَنَ الْمَنْظَرُ، وَتَوَلَّى حَيْثُ نَزَّ الْجَارُ عَمَلُ
الْمَحْرَابِ عَلَى الرَّقْمِ، وَشَابَهُ الْمَحْرَابُ الْمَنْبَرُ فِي الرَّسْمِ، وَمَنْ رَأَى حَلَبَ
الْآنَ شَاهِدَ مِنْهُ عَلَى مِثَالِ الْمَنْبَرِ الْقُدْسِيِّ الْإِحْسَانَ.

وَلَمَّا فَتَحَ السُّلْطَانُ الْقُدْسُ تَقَدَّمَ بِحِمْلِهِ، وَصَحَّ بِهِ فِي مَحْرَابِ الْأَقْصَى
اجْتِمَاعُ شَمْلِهِ، وَظَهَرَ سِرُّ الْكِرَامَةِ فِي فَوْزِ الْإِسْلَامِ بِالسَّلَامَةِ، وَتَنَاصَرَتْ
الْأَلْسُنُ بِالْدُّعَاءِ لِنُورِ الدِّينِ بِالرَّحْمَةِ، وَلِصَلَاحِ الدِّينِ بِالنُّصْرَةِ وَالنُّعْمَةِ.

وَقَالَ الْعِمَادُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ كِتَابِ «الْبُرْقِ»: وَكَانَ الْمَلِكُ الْعَادِلُ

(١) الْقَوْمُ: الْقَهْرُ. «اللسان» (وقم).

(٢) سُورَةُ هُودٍ، آيَةُ: ٣٨.

(٣) لَمْ يَطْلُعِ اللَّهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ عَلَى سِرِّ الْغَيْبِ، وَلَكِنَّهُ الْإِيمَانَ بِنَصْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ تَكَامُلِ
أَسْبَابِهِ. وَانْظُرْ تَعْلِيقَ أَبِي شَامَةَ الْآتِي فِي الصَّفْحَةِ التَّالِيَةِ.

نور الدين محمود بن زُنُكي رحمه الله في عهده عَرَفَ بنور فِرَاسته فَتَحَ البيت المقدس من بعده، فَأَمَرَ في حلب باتخاذ منبر للقدس، تَعَبَ النَّجَّارون والصُّنَّاع والمهندسون فيه سنين، وأبدعوا في تركيبه الأحكام والتَّزِين، وأنفق في إبداع محاسنه وإيداء مزاينه أُلُوفاً، وكان لترديد النَّظَر فيه على الأيام أُلُوفاً، وبقي ذلك المنبر بجامع حلب منصوباً، سيفاً في صِوَان الحِفْظ مقروباً، حتى أمر السُّلْطَان في هذا الوقت بالوفاء بالتَّذْر الثُّوري، ونَقَلَ المنبر إلى موضعه القُدسي، فَعُرِفَتْ بذلك كراماتُ نور الدين، التي أشرق نورُها^(١) بعده بسنين، وكان من المحسنين الذين قال الله تعالى فيهم ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢).

قلتُ: وهذا الذي نسبته إلى نور الدين رحمه الله من أنه كرامة من كراماته لائق بمحله ومنزلته من الدِّين، وليس بالبعيد من مثل ذلك. وكان رحمه الله قد بَدَتْ له مخايل ذلك بما تَسَنَّى له من فَتَح البلاد الشَّامية والمِصْرية وقَهَر العدوِّ بين يديه مراراً، وكان فَتَحُ القُدس في هِمَّتِهِ من أول مُلْكِهِ، فإن لم يكن حَصَلَ له مباشرة فقد حصل له تَسْبِيّاً، فإن الفاتحين له رحمهم الله بَنَوْا على ما أَسَّسه لهم من المُلْك والتَّذْبِير، وهم أمراؤه وأتباعه، وأجناده وأشباعه.

ثم يُحْتَمَل أن يكون — رحمه الله — وَقَفَ على ما ذكره أبو الحكم بن بَرَّجان الأندلسي^(٣) في «تفسيره»، فإنه أخبر عن فَتَحِ القُدس في السنة التي فَتَحَ فيها وعمر نور الدين إذ ذاك إحدى عشرة سنة، وقد رأيتُ أنا ذلك في

(١) في (ك) سناها.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٧٠ من هذا الجزء.

كتابه، ذكر في تفسير أول سورة الروم أَنَّ البيتَ المقدَّس استولت عليه الروم عام سَنعٍ وثمانين وأربع مئة^(١)، وأشار [إلى]^(٢) أنه يبقى بأيديهم إلى تمام خمس مئة وثلاث وثمانين سنة، قال: ونحن في عام اثنتين وعشرين وخمس مئة. فلم يستبعد نور الدين رحمه الله لما وَقَفَ عليه أن يمتدَّ عمره إليه، فهيأ أسبابه حتى منبر الخطابة فيه، تَقَرُّباً إلى الله تعالى بما يديه من طاعته ويخفيه.

وهذا الذي ذكره أبو الحكم الأندلسي في «تفسيره» من عجائب ما اتَّفَق لهذه الأمة المرحومة، وقد تكَلَّم عليه شيخنا أبو الحسن علي بن محمد^(٣) في تفسيره الأول، فقال: [وقد]^(٤) وقع في تفسير أبي الحكم الأندلسي في أول سورة الروم إخبارٌ عن فتح البيت المقدس، وأنه يُنَزَعُ من أيدي النصارى سنة ثلاثٍ وثمانين وخمس مئة. قال: وقال لي بعضُ الفقهاء: إنه استخرج ذلك من فاتحة السُّورة. قال: فأخذت السُّورة، وكشفت عن ذلك، فلم أَره أخذ ذلك من الحروف، وإنما أخذه — فيما زعم — من قوله تعالى: ﴿غَلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سَنِينَ﴾^(٥) فبنى الأمر على التَّاريخ كما يفعل المنجِّمون، ثم ذكر أَنَّهُمْ يُغْلِبُونَ في سنة كذا، ويغلبون في سنة كذا على ما تقتضيه دوائر التقدير.

قال: وهذه نَجَامة وافقت إصابة إن صَحَّ أنه قال ذلك قبل وقوعه،

(١) كذا قال، والمعروف أن الصليبيين استولوا عليه سنة (٤٩٢ هـ)، ومكث في أيديهم (٩١) سنة.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٣) هو علم الدين السخاوي. انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣٦٨ من هذا الجزء.

(٤) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٥) سورة الروم، الآيتان: ٢ — ٣.

وكان في كتابه قبل حدوثه^(١)، وليس ذلك بمأخوذٍ من الحروف، ولا هو من قبيل الكرامات أيضاً، فإن الكرامة لا تكتسب بحساب، ولا تفتقر إلى تاريخ، ولذلك لم يوافق الصواب لَمَّا أدار الحساب على القراءة الأخرى الشاذة التي هي بفتح الغين من ﴿غَلَبَتِ الرُّومُ﴾ ويوضح ذلك أنه قال في سورة القدر: لو عَلِمَ الوقت الذي أنزل فيه القرآن لَعِلِمَ الوقت الذي يُرْفَعُ فيه.

فصل

قال العماد: وأما الصخرة المقدسة فإن الفرنج كانوا بنّوا عليها كنيسة، وأعادوا رسومها القديمة دريسة، وستروها بالأبنية، وعوّجوا أوضاعها بزعم التَّسْوِية، وكسوها صُوراً هي أشنع من التَّعْرِية، وملّؤوها بتصاريف التَّصَاوِير، ونَبَتُوا في ترخيمها أشباه الخنازير، وجعلوا المذبح لها مذبحاً، ولم يتركوا فيها للأيدي المُتَبَرِّكة ولا للعيون المُدْرِكَة مَلَمَساً ولا مطمحاً، وقد زَيَّنوها بالصُّور والتماثيل، وعَيَّنُوا بها مواضع الرُّهْبَان ومحطَّ الإنجيل، وكملوا بها

(١) ذكر ابن خلكان أنه وقف على هذا الفصل من تفسير أبي الحكم، فوجده مكتوباً في الحاشية بخط غير خط الأصل، فقال: لا أدري هل كان من أصل الكتاب أم هو ملحق به.

وقد عقب عليه ابنه موسى في كتابه «المختار من وفيات الأعيان»، فقال: وقعت في القاهرة ودمشق على ثلاث نسخ من التفسير المذكور، وهذا الفصل المشار إليه، لكنه مكتوب على الجميع على الحاشية بعد خط الأصل، وأخبرني الشيخ تقي الدين محمد بن زين الدين الشافعي قاضي القضاة بالديار المصرية رحمه الله تعالى أنه رأى هذا الفصل المعين في نسختين على صورة ما ذكرناه، والله أعلم.

قلت: وهذا يرجح أنه مدسوس على الكتاب، وأما الغيب فلا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى. انظر «وفيات الأعيان»: ٢٣٠/٤.

أسباب التعظيم والتبجيل، وأفردوا فيها لموضع القَدَم قُبَّة صغيرة مُذهبة، بأعمدة الرُّخام مُنصَّبة، وقالوا: مَحَلُّ قدم المسيح، وهو مقام التَّقْدِيس والتَّسْبيح. وكان فيها صور الأنعام مُبَيَّنة في الرُّخام، والصَّخْرة المقصودة المَزُورة، بما عليها من الأبنية مستورة، وبتلك الكنيسة المَعْمورة مغمورة.

فأمر السُّلطان بِكَشْفِ نِقَابِها، وَرَفْعِ حجابِها، وَحَسْرِ لثامِها، وَقَشْرِ رُخامِها، [وَمَخِي صورِها]^(١) وَرَخَصَ وَضَرَّها، وَنَقَضَ أبنيتها، وَنَقَلَ حجرَها، وإبرازَها للزَّائرين، وإظهارَها للنَّاظرين، فبانت من الشَّيْن، وبانت للعين، وَحُيِّتَ بِالْقَبْلِ، وَفُدِيتْ بِالْمَقْل، فعادت كما كانت في الزَّمن القديم، وشَهِدَتْ حين شُوهِدَتْ بِحَسَبِها الكريم، وما كان يظهر منها قبل الفَتْح إلا قطعة من تحتها، وقد أَسَاءَ الكُفْرُ في نَحْتِها، وظهرت الآن أَحْسَنَ ظُهور، وَسَفَرَتْ أَيْمَنَ سُفُور، وأشرقتِ القناديل من فَوْقِها نوراً على نور، وَعَمِلَتْ عليها حظيرةٌ من شبابيك حديد، والاعتناء بها إلى كلِّ يوم في مزيد.

قال: وكان الفرنج قد قطعوا من الصَّخْرة قِطْعاً، وحملوا منها إلى قُسْطَنْطِينِيَّة، ونقلوا منها إلى صِقْلِيَّة، وقيل: باعوها بوزنها ذهباً، واتخذوا ذلك مكسباً. ولما طُهِرَتْ ظَهَرَتْ مواضِعُها، وَقُطِّعَتِ القلوبُ لما بانت مقاطِعُها، فهي الآن مُبَرَّزةٌ للعيون بحزِّها، باقية على الأيام بعزِّها، مصونةٌ للإسلام في خِدرِها وحِرْزِها^(٢).

وقال في «البرق»، ولما ظهرت الصَّخْرة وجدناها وقد أبقت لها

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) انظر «الفتح القسي»: ١٤١.

النَّوَابِ حَزُوزًا، وَأَوْدَعَتْ ضَمِيرَهَا مِنْ شَرِّ أَهْلِ الشُّرْكِ^(١) سِرًّا مَرْمُوزًا، فَإِنَّ الْفَرَنْجَ نَقَلُوا إِلَى بِلَادِهِمْ قِطْعًا، وَأَبْدَعُوا فِيهَا بَدْعًا، حَتَّى قِيلَ إِنَّهَا بِيَعْتَ بَوَازِنَهَا ذَهَبًا، وَأَفْضَى الْأَمْرُ بِهَا أَنْ يَكُونَ حَجَرًا مُنْتَهَبًا، فَغَطَّاهَا بَعْضُ مَلُوكِهِمْ إِشْفَاقًا عَلَيْهَا، لَثَلَا تَمْتَدُّ يَدُ ضَمِيرٍ إِلَيْهَا، فَأَبْقَتْ حَزُوزَهَا فِي الْقَلْبِ حَزَازَاتٍ، وَسَارَ حَدِيثُ حَادِثِهَا فِي الْآفَاقِ بِرَوَايَاتٍ وَإِجَازَاتٍ، وَتَوَلَّاهَا بَعْدَ ذَلِكَ الْفَقِيهَ ضِيَاءُ الدِّينِ عَيْسَى، فَصَانَهَا بِشَبَابِيكِ مِنْ حَدِيدٍ، وَثَبَّتَ أَرْكَانَهَا بِكُلِّ تَسْدِيدٍ.

وَقَالَ فِي «الْفَتْحِ»: وَرَتَّبَ السُّلْطَانُ فِي قُبَّةِ الصَّخْرَةِ إِمَامًا حَسَنًا، وَوَقَفَ عَلَيْهِ دَارًا وَأَرْضًا وَيُسْتَانًا، وَحُمِلَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَحْرَابِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى مَصَاحِفُ وَخْتَمَاتُ، وَرِبْعَاتُ مَعْظَمَاتٍ، لَا تَزَالُ بَيْنَ أَيْدِي الزَّائِرِينَ عَلَى كِرَاسِيَّهَا مَرْفُوعَةً، وَعَلَى أَسْرَتِهَا مَوْضُوعَةٌ، وَرَتَّبَ لِهَذِهِ الْقُبَّةِ خَاصَّةً وَلِلْبَيْتِ الْمَقْدَسِ عَامَةً قَوْمَةً مِنَ الْعَارِفِينَ الْعَاكِفِينَ، الْقَائِمِينَ بِالْعِبَادَةِ الْوَاقِفِينَ، فَمَا أَبْهَجَ لَيْلَهَا وَقَدْ حَضَرَتِ الْجُمُوعُ، وَزَهَرَتِ^(٢) الشُّمُوعُ، وَبَانَ الْخَشُوعُ، وَدَانَ الْخَضُوعُ، وَدَرَّتْ مِنَ الْمُتَقِينَ الدُّمُوعُ، وَافْشَعَرَّتْ مِنَ الْعَارِفِينَ الضُّلُوعُ. فَهَنَّاكَ كُلُّ وَلِيٍّ يَعْبُدُ رَبَّهُ وَيُؤْمَلُ بِرَّهَ، وَكُلُّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ لَا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهَ^(٣) وَهَنَّاكَ كُلُّ مَنْ يَحْيِي اللَّيْلَ وَيَقُومُهُ، وَيَسْمُو بِالْحَقِّ وَيَسُومُهُ، وَهَنَّاكَ كُلُّ مَنْ يَخْتِمُ الْقُرْآنَ وَيُرْتِّلُهُ، وَيَطْرُدُ الشَّيْطَانَ وَيَبْطِلُهُ، وَمَنْ عَرَفْتُهُ لِمَعْرِفَتِهِ الْأَسْحَارَ، وَمَنْ أَلْفَتَهُ لَتَهْجُدِهِ الْأَوْرَادُ وَالْأَذْكَارَ، وَمَا أَسْعَدَ نَهَارَهَا

(١) فِي الْأَصْلِ: الدَّهْرُ، وَالْمُثَبِّتُ مِنْ (ك).

(٢) زَهَرَتْ: أَيِ أَضَاءَتْ. «اللسان» (زهر).

(٣) اقْتَبَسَ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ الَّذِي أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٢٦٢٢) (١٣٨) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهَ».

حين تستقبل الملائكة زُوارها، وتلحق الشمس أنوارها، وتحمل القلوبُ إليها أسرارها^(١).

قال: وتنافس ملوكُ بني أيوب فيما يؤثرونه فيها من الآثار الحسنة، وفيما يجمع لهم وُدَّ القلوب وشُكْرَ الألسنة، فما منهم إلا من أجمل وأحسن، وفعل ما أمكن، وجلَّى ويَّن، وحلَّى وزَيَّن، وأتى العادل أبو بكر، بكل صُنْعٍ بِكْرٍ، وتقي الدين عمر، بكلِّ ما عَمَّ وغَمَّر. ومن جملة أفعاله المشكورة، ومكرماته المشهورة، أنه حضر يوماً في قُبَّةِ الصخرة ومعه من ماء الورد أحمال، ولأجل الصَّدقة والرِّفْد مال، فانتَهز فُرْصَةً هذه الفضيلة التي ابتكرها، وتولى بيده كنس تلك السَّاحات والعِرَاص، ثم غسلها بالماء مراراً حتى تطهَّرت، ثم أتبع الماء بماء الورد صَبّاً حتى تعطَّرت، وكذلك طَهَّرَ حيطانها، وغَسَلَ جُدرانها، ثم أتى بمجامر الطَّيب فتبخَّرت وتضوَّعت، ثم فرَّق ذلك المال فيها على ذوي الاستحقاق، وافتخر بأن فاق الكرام بالإنفاق. وجاء الملك الأفضل نور الدين علي، بكل نورٍ جلي، وكَرَمٍ ملي، وبسط بها الصَّنِيعَة، وفرش فيها البُسْطَ الرفيعة، وسيأتي ذكر ما اعتمده من بناء أسوار القُدُس وحَفْرِ خنادقه، وأعجز بما أعجب^(٢) من سوابق معروفه ولواحقه.

وأما الملك العزيز عثمان، فإنه لما عاد إلى مصر ترك خزانة سلاحه بالقُدُس كلها، ولم ير بعد حصولها به نقلها، وكانت أحمالاً بأموال، وأثقالاً كجبال، وذخائر وافية، وعُدداً واقية، وكان من جملة ما شُرط على الفرنج أن يتركوا لنا خيلهم وعُدَّتَهُمْ، فتوفَّر بذلك عُدد البلد، واستغنى به عما يصل من المَدَد^(٣).

(١) «الفتح القسي»: ١٤١ - ١٤٢.

(٢) من هنا اضطراب في ترتيب الأوراق في الأصل، أعدناها إلى حاق موضعها.

(٣) «الفتح القسي»: ١٤٣ - ١٤٤.

قال: وأما محراب داود عليه السَّلام خارج المسجد الأقصى، فإنه في حِصْنٍ عند باب المدينة منيع، وموضع عال رفيع، وهو الحصن الذي يقيم به الوالي، فرتَّب السلطان له إماماً ومؤذنين وقُوماً، وهو مثابة الصَّالحين، ومزار الغادين والرَّائحين، فأحياه وجدَّه، ونهَج لقاصديه جدَّه، وأمر بعمارة جميع المساجد، وصَوَّن المشاهد، وإنجاح المقاصد، وإصفاء الموارد للقاصد والوارد. وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما السلام، وكان ينتابهما فيهما الأنام. وكان الملك العادل نازلاً في كنيسة صهيون، وأجناده^(١) على بابها مخيمون. وفاوض السلطان جلساؤه من العلماء الأبرار، والأتقياء الأخيار، في مدرسة للفقهاء الشَّافعية، ورباطاً للصُّلحاء الصوفية، فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصند حنة^(٢) عند باب أسباط، وعيَّن دار البطرك، وهو بقرب كنيسة قمامة للرباط، ووقف عليهما وقوفاً، وأسدى بذلك إلى الطائفتين معروفاً، وارتاد أيضاً مدارس للطوائف، ليضيفها إلى ما أولاه من العوارف^(٣).

فصل

قال في «البرق»: وشرع الفرنج في إخلاء البيوت، وبيع ما ذخروه من الأثاث والقوت، وأمهلوا حتى باعوا بأرخص الأثمان، وكان خروجها شبيهاً بالمجان، لا سيما ما تعذَّر لثقله نَقْلُهُ وصَعَبَ حَمْلُهُ، وكان كما قال الله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾^(٤) فباعوا ما تهيأ على البيع إخراجه

(١) في الأصل: وأجنادها، والمثبت من (ك).

(٢) هي كنيسة يقال إن فيها قبر حنة أم مريم عليها السلام، ويبدو أن كلمة صند هي تعريب للكلمة الفرنسية Saint بمعنى قديسة. انظر حاشية محقق «الفتح»: ١٤٥.

(٣) «الفتح القسي»: ١٤٥.

(٤) سورة الدخان، الآيات: ٢٥ — ٢٨.

رخيصاً، وأبقوا ما لم يجدوا من تركه محيصاً، وغلبوا على ما في الدور من الماعون والمذخور. وأما الصناديق والأخشاب والرُّخام وما يجري مجراها مما توفّرت منه الأنواع والأقسام، فإنها بقيت بحالها متروكة، ولمن يسكن تلك الأماكن مملوكة.

وكانت قُمامة وهي كنيستهم العُظمى، ومتعبدهم^(١) التي يجتمعون بها للدين^(٢) والدُّنيا، مفروشة بالبسط الرفاع، مكسوة بالشُّتور النسيج والحرير الممزوج من سائر الأنواع، والذي يذكرون أنه قبر عيسى عليه السَّلام، مُحلَّى بصفائح الفِضة والعَيْن، ومصوغات الذهب واللُّجين، مصفح بالثُّنَّار، مثقل من نفائس الحلي بالأوقار، فأعاده البطرك منه عاطلاً، وتركه طلالاً مائلاً، فقلت للسلطان: هؤلاء إنما أخذوا الأمان على أموالهم، فما بال هذا المال وهو بألوفٍ يحملونه في أثقالهم! فقال: هم ما يعرفون هذا التأويل، وينسبون إلينا لما حرَّمناه التحليل، ويقولون: إنهم لم يحفظوا العهد، ولم يلحظوا العقد، ونحن نجريهم على ظاهر الأمان، ونغريهم بذكر محاسن الإيمان. وكانت المهلة أنه من عَجَزَ بعد أربعين يوماً عن أداء ما عليه من القطيعة، ضُربَ عليه الرُّقُّ بحكم [الشريطة ووفق]^(٣) الشريعة. فتولاهم الثُّواب بعد خروجنا من القُدُس، وبقي منهم ممن ضرب عليه الرق [زُهاء]^(٤) خمسة عشر ألفاً في الحبس، ففرَّقهم السلطان، وتناهت بهم البُلدان، وحَصَلَ لي منهم سبايا نِسْوان وصِبيان، وذلك بعد أن وفي ابن بارزان* بالضَّمان،

(١) عادت الأوراق في الأصل إلى ترتيبها، انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣٩٩ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: يجمعون الدين.. والمثبت من (ك).

(٣) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٤) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

وأدَّى ثلاثين ألف دينار، وأخرج من ذكر أنه فقير بحسب الإمكان، وكانوا تقدير ثمانية عشر ألفاً، واعتقد أنه لم يبق فقير، وبقي بعد أدائه على ما ذكرناه كثير.

وأما النَّصارى السَّاكنون بالقدس، فإنهم بذلوا مع القطيعة الجزية ليسكنوا ولا يُزْعجوا، ويؤمنوا ولا يخرجوا، فأقرُّوا بوساطة الفقيه^(١)، وأقرَّ من قسوس النصارى أربعة قوائم لقمامة، وأعفاهم ولم يكلفهم الغرامة، وأقام بمدينة القدس وأعمالها منهم ألوف، فشمروا وعمروا وعرَّشوا وعَرَسوا، فلهم منها مجان وقطوف. وكانت لأمرء الفرنج ومقدَّميهم مجاورة للصخرة، وعند باب الرَّحمة مقبرة وقباب مُعَمَّرة، فعفينا آثارها، ورَحَصْنَا أَوْصَارَهَا.

وقال في «الفتح»: وأمر السُّلطان بإغلاق كنيسة قمامة، وحرَّم على النَّصارى زيارتها ولا إلمامة، وتفاوض النَّاس عنده فيها، فمنهم من أشار بهدم مبانيها، وتعفية آثارها، وتعمية نهج مزارها، وقالوا: إذا هُدمت، ونُبشت المَقْبَرَةُ وعُفِّيت، وحرِّث أرضها، ودُمِّر طولها وعَرْضُها، انقطعت عنها أمداد الزُّوَّار، وانحسمت عن قَصْدِها موادُّ أطماع أهل النَّار، ومهما استمرَّت العمارة، استمرَّت الزِّيَّارة. وقال أكثر النَّاس: لا فائدة في هَدمها وهَدَّها، فإنَّ متعبدهم موضع الصَّليب والقبر لا ما يُشاهد من البناء، ولا ينقطع عنها قَصْدُ أجناس النصرانية ولو نُسِفَتْ أرضُها في السَّماء، ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صَدْر الإسلام أقرَّهم على هذا المكان، ولم يأمر بهدم البُنْيَان^(٢).

(١) هو ضياء الدين عيسى بن محمد الهكاري، انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥٨ من الجزء الثاني.

(٢) «الفتح القسي»: ١٤٥ - ١٤٦.

قال: وأقام السلطان على القدس حتى تسلم ما بقرىها من حصون، واستباح كل ما للكفر بها من مصون، ثم عمّد إلى ما جمعه ففرّقه، وأخرجه في ذوي الاستحقاق وأنفقه، فأكثروا عدّله على بذله، واستكثروا ما فضّه بفضله، فقال: كيف أمنع الحقّ مستحقّه، وهذا الذي أنفقه هو الذي أبقيّه، وإذا قبله المستحقّ فالمنّة له عليّ فيه، فإنه يخلّصني من الأمانة، ويطلقني من وثاقها، فإن الذي في يدي وديعة أحفظها لذوي استحقاقها. وقيل له: لو ذخرت هذا المال للمال. فقال: أملّي قوي من الله الكافل بنجح الآمال. وجمّع الأسراء المطلقين، وكانوا ألفاً من المسلمين، فكساهم وأساهم^(١) وواساهم، وأذهب أساهم^(٢)، فانطلق كلّ منهم إلى وطنه ووطره، ناجياً من ضرّه وضرّره^(٣).

وقال في «البرق»: وسمعتُ الملك العادل يوماً في أثناء حديثه في ناديه، وهو يجري ذكر إفراط السلطان في أياده، يقول: إني توليت استيفاء قطيعة القدس، فأنفذتُ له ليلة سبعين ألف دينار، فجاءني خازنه بكرة وقال: نريد اليوم ما نخرجه في الإنفاق، فما عندنا مما كان بالأمس باق. فنفذت له ثلاثين ألف دينار أخرى في الحال، ففرّقتهَا على رجال الرجاء يدُ التّوال.

فصل

قال العماد: وللحكيم أبي الفضل^(٤) قصائدُ قُديّات طوال، كثيرة الفوائد.

(١) أساهم: أي داوَاهم. «معجم متن اللغة»: ١٧٧/١.

(٢) أي حزنهم. «معجم متن اللغة»: ١٧٧/١.

(٣) «الفتح القسي»: ١٥٠ - ١٥١.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٨٠ من الجزء الثاني.

قلتُ: قد وقفت على بعضها.

وقدَّمَ قبل ذلك أن قال: لم أزل من أوَّل ما ولي الملك الناصر الأمر في مصر أعلم أنَّه مُؤَيَّد بعناية من الله سبحانه، فامتدحته في سنة خمس وستين بقصيدة تنيف على مئة بيت، منها في التبشير:

لَتُظْفَرَنَّ بما لم يَخُوه مَلِكُ أبا المظفَّر حفظاً خَطَّه الأزلُ
دليلُ ذلك آراءُ لك افتركت بالحرِّم والعزم لم يُخصَّص بها الأولُ
وفيها:

قد سادَ إسكندرُ أهلَ الزَّمان معاً في سنِّ عشرين وامتدَّت له الحِيلُ
وافى الثلاثين والأقطارُ أَجمَعُها طَوْعاً له وملوكُ الأرضِ والمِلَلُ^(١)
قال: ومدحته سنة سبع وستين عند قُفُوله من غَزاة غَزَّة بقصيدة، منها:

أبا المظفَّر فاهناً حظُّ مُتَّخَبٍ أُخْرِى الزَّمانَ لدينٍ كادَ يَنْبَرُ
زَهَدَتْ فيما سبى الأملاك منكدراً علماً بِمَلِكٍ نعيمٍ ماله كدُرُ
وطبَّتْ نَفْساً عن الدُّنيا وزُخْرُفُها وجئتَ تَقْدُمُ حيثُ الهولُ والخطرُ

١١٦/٢

قال: ومدحته سنة ثمانٍ وستين بقصيدة تنيف أيضاً على مئة بيت، منها في التبشير:

أرى الرّاية الصَّفراءَ يرمي اصطفاؤها بني أَصْفَرٍ بالرَّاعِفاتِ اللِّهاذِمِ
فتسبى فلسطيناً وتجبى جزائراً وتَمَلِّكُ من يونانَ أَرْضَ الأَساجِمِ^(٢)
وتغنُّوا لها الأملاكُ شَرْقاً ومَغْرِباً بذا حكمت حُدَّاقُ أهلِ الملاحِمِ

(١) هذان البيتان ليسا في (ك).

(٢) في (ك) الأحاسم.

قال: وبعثتُ إليه في غُرَّةِ سنة اثنتين وثمانين وهو على حِمَصٍ بقصيدةٍ
هنأته فيها بالعافية، منها:

فيا مَلِكاً لم يَتَّقَ لِلدِّينِ غَيْرُهُ وَهَتَّ عُمُدُ الْإِسْلَامِ فَاشْدُدْ لَهَا دَعْمَا
فَشُوْمُ فَرِيقِ الشَّرْكِ فِي الشَّامِ طَائِرُ فَقُصِّ جَنَاحِيهِ بِأَقْصَى الْقَوَى قَصْماً
خُصِّصْتَ بِتَمَكِينٍ فَعَمَّ الْعِدَى رَدَى فَلِإِنَّهُمْ يَأْجُوجُ أَفْرَغَ بِهَا رَدْماً
إِذَا صَفِرَتْ مِنْ آلِ الْأَصْفَرِ سَاحَةُ الدِّ حَقَّقْ ضَاهَتْ فَتَحَ أُمُّ الْقُرَى قَدْماً
فَذَا الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَهَيْئَتُكَ الْعُلَى وَعَزَمْتُكَ الْقُضُوى وَرَمَيْتُكَ الْأَصْمَى
فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَهَمَّ وَقَدْ أَتَتْ فَتَوَحَّ كَمَا فَاضَ الْخِصْمُ الَّذِي طَمَأَ
وَأَنْتَ لَمْ تُرِدِ الْفَرَنْجَ بِوَقْعَةٍ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَقْوَى لِئِيَانِهَا هَذَا
وَمَا كُلُّ حِينٍ تُمَكِّنُ الْمَرْءَ فُرْصَةً وَلَا كُلُّ حَالٍ أَمْكَنَتْ تَقْتَضِي غُناً
وَلَيْسَ كَفَتَحِ الْقُدْسِ مُنْيَةً قَادِرٍ وَمَا أَنْ يُلْقَاهَا سَوَى يُوسُفَ حَزْماً

قال: وَأَنشأتُ قصيدةً أخرى في سنة اثنتين وثمانين، وحضرت بها بين
يديه، منها:

الله أكبر أَرْضُ الْقُدْسِ قَدْ صَفِرَتْ مِنْ آلِ الْأَصْفَرِ إِذْ حِينَ بِهِ حَانُوا
أَسْبَاطُ يُوسُفَ مِنْ مِصْرٍ أَتَوْا وَلَهُمْ مِنْ غَيْرِ تِيهِ بِهَا سَلَوَى وَأَمَانُ
لَهُمْ فَلَسْطِينَ إِنْ يُخْرِجُ عُدَاتَهُمْ عَنْهَا وَإِلَّا عَدَتْ بِيضٌ وَخِرْصَانُ
حَتَّى بَنِيَتْ رِتَاجَ الْقُدْسِ مُتَفَرِّجاً وَيَضَعِدُ الصَّخْرَةَ الْغَرَاءَ عُثْمَانُ
وَاسْتَقْبَلَ النَّاصِرُ الْمِخْرَابَ يَغْبُدُ مَنْ [قَدْ] ^(١) تَمَّ مِنْ وَغْدِهِ فَتَحَ وَإِمْكَانُ
وَجَازَ بَعْضُ بَنِيهِ الْبَحْرَ تُجْفِلُ مَنْ غَارَاتِهِ الرُّومُ وَالصُّقْلَابُ وَاللَّانُ
حَتَّى يَوْحِدَ أَهْلُ الشَّرْكِ قَاطِبَةً وَيَرْهَبُ الْقَوْلُ بِالثَّالُوثِ رُهْبَانُ
وَلَا بِنِ أَيْوَبَ فِي الْإِفْرَنْجِ مَلْحَمَةٌ

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

وَمَنْ أَحَقُّ بِمُلْكِ الْأَرْضِ مِنْ مَلِكٍ كَأَنَّهُ مَلِكٌ فِي الْخَلْقِ حَنَانٌ

ثم قال : وأما القصيدة الفتحية الناصرية، فأولها :

فِي بَاطِنِ الْغَيْبِ مَا لَا تُذَكِّرُ الْفِكْرُ مَالِي أَرَى مَلِكَ الْإِفْرَنْجِ فِي قَفْصِ
وَالِاسْتَارِ* إِلَى الدَّوَايَةِ* التَّامُوا وَالتَّنَفُّسُ مَوْلَعَةٌ عُجْبًا بِسِيرَتِهَا
يَا وَقْعَةَ الثَّلِّ مَا أَبْقَيْتِ مِنْ عَجَبِ وَيَا ضُحَى السَّبْتِ مَا لِلْقَوْمِ قَدْ سَبَّوْا
وَيَا ضَرِيحَ شُعَيْبٍ مَالِهِمْ جَثْمُوا حَطُّوا بِحَطِّينَ مُلَاكًا فَيَا عَجَبًا
أَهْوَى إِلَيْهِمْ صِلَاحُ الدِّينِ مُفْتَرِسًا أَمْلَى عَلَيْهِمْ فَصَارُوا وَسَطَ كِفْتِهِ
وَأَنْجَزَ اللَّهُ لِلسُّلْطَانِ مَوْعِدَهُ وَعَايَنَ الْمَلِكُ الْإِبْرَنْسَ فِي دَمِهِ
رَأَى مَلِيكًا مَلُوكُ الْأَرْضِ تَتَبَعُهُ إِذَا بَدَأَ تَبْهَرُ الْأَعْيَانُ هَيْبَتُهُ
تَقْدَمُ الْجِيلُ فِي أُخْرَى الزَّمَانِ بِهِ أَمَا رَأَيْتُمْ فُتُوحَ الْقَادِسِيَّةِ فِي
وَالْحَقِّ يُغْرِسُ وَالطُّغْيَانُ مُنْتَحِبٌ هَذَا الْمَلِكُ الَّذِي بُشِّرَى النَّبِيُّ بِهِ
أَنْسَى مَلَا حِمَّ ذِي الْقَرْنَيْنِ وَاعْتَرَفَتْ أُعَيْنَ إِسْكَندَرُ بِالْخَضِرِ وَهُوَ لَهُ

١١٧/٢

وَصُنْعُ ذِي الْعَرْشِ إِبْدَاعٌ بِلَا سَبَبٍ
 بَيْنَا سَبَايَاهُ تُجَلَّى فِي دِمَشْقٍ إِذَا
 إِزَاءَهُ زُعَمَاءُ السَّاحِلِينَ مَعَاً
 يَتْلُوهُمْ صَلْبُوتٌ سَيِّقٌ مَتَكْسَاً
 وَنَحْنُ فِي ذَا إِذَا طَيْرٌ صَحِيفَتُهُ
 تَغْزُو أَسَاطِيلُنَا مِنْهَا صِقْلِيَّةٌ
 مَنْ ذَا يَقُولُ لَعَلَّ الْقُدْسَ مَنَفْتَحٌ
 أَبُو الْمُظَفَّرِ يَنْوِيهَا فَخُذْ سُفْنَاً
 يَسْبِي فَرَنْجَةً مِنْ أَقْطَارِهَا وَلَهُ
 وَبَعْضُ أَبْنَائِهِ بِالْقُدْسِ مُتَدَبِّ
 بَرَايَةٍ تَخْرِقُ الْأَرْضَ الْكَبِيرَةَ فِي
 قَالُوا أَطَلَّتْ مَدِيحاً فِيهِ قَلْتُ كَمَا

فَلَا تَقُلْ كَيْفَ هَذَا الْحَادِثُ الْخَطَرُ
 مَلِكُ الْفَرَنْجِ مَعَ الْأَتْرَاكِ مُخْتَجِرُ
 مُصَفِّدِينَ بِحَبْلِ الْقَهْرِ قَدْ أُسِرُوا
 وَحَوْلَهُ كُلُّ قِسْنٍ لَهُ زُبُرُ
 بَفَتْحِ عَكَا الَّتِي سُدَّتْ بِهَا الثُّغُرُ
 فَيُذَعَرُ الرُّومُ وَالصُّقْلَابُ وَالْخَزَرُ
 إِلَيْكَ بَلْ سَبْتُ^(١) يَعْقُوبُ لَهُ السَّفَرُ
 مِنْ بَابِ عَكَا إِلَى طَرطُوسٍ تَنْتَشِرُ
 مَعَ الْمَجُوسِ حُرُوبٌ قَذَحُهَا سُعْرُ
 وَبَعْضُهُمْ رُومَةُ الْكِبَرَى لَهُ وَطَرُ
 جَمَعَ تَقُولُ لَهُ الْأَجْسَامُ لَا وَزَرُ
 بَدَأَتْ فَالْصَّبُّ لِلْمَحْبُوبِ مُدَكِّرُ

وَأَمَّا الْقِصَائِدُ الْقُدْسِيَّاتُ الَّتِي لَهُ، فَمِنْهَا الثَّانِيَّةُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا^(٢)،
 وَمِنْهَا الْقُدْسِيَّةُ الْكُبْرَى، عَدَدُهَا مِائَةٌ وَاثْنَانِ وَخَمْسُونَ بَيْتاً، أَوَّلُهَا:

تَصَارِيفُ ذَهَرٍ أَعْرَبْتُ لِمَنْ اهْتَدَى
 لِسُرْعَةٍ فَتَحَ الْقُدْسَ سِرٌّ مُغَيَّبٌ
 أَتَوْا بِحِبَالٍ أَبْرَمْتُ لِأَسَارِنَا
 وَسَامُوا تِجَاراً تَشْتَرِينَا غَوَالِيَاً
 وَبَسْطَةُ أَمْرِ أَعْرَبْتُ مِنْ تَمَرِّدَا
 وَفِي صِرْعَةِ الْإِفْرَنْجِ مُعْتَبَرٌ بَدَا
 فَسَفَنَاهُمْ فِيهَا قَطِينَا^(٣) مُحَدَّدَا^(٤)
 فَبِعْنَاهُمْ بِالرُّخْصِ جَهْرًا عَلَى النَّدَا

(١) فِي الْأَصْلِ: سَيْنَ، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (ك).

(٢) انْظُرْ ص ٣٦٥ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ.

(٣) الْقَطِينُ: الْخَدْمُ وَالْأَتْبَاعُ وَالْمَمَالِكُ. «اللسان» (قَطْن).

(٤) أَيِ مَحْرُومِينَ مَخْذُولِينَ. «اللسان» (حَدَد).

وَجَرُّوا جِيوشاً كَالشَّيُولِ عَلَى الصُّوَى
وَقَالُوا مَلُوكُ الْأَرْضِ طَوْعُ قِيَادِنَا
وَقَدْ أَقْطَعَ الْكُنْدُ الْعِرَاقَ مُوقِعاً
وَأَقْسَمَ أَنْ يَسْقِيَ بِدِجْلَةٍ خَيْلَهُ
فَكَمْ وَائِقٍ خَجَلَانٍ قَهَقَهُ خَضْمُهُ
أَتَى الْكُنْدُ مِنْ بَيْسَانَ^(٢) يَحْمِي قُمَامَةً
فَمَا عَقَدَ الرَّايَاتِ إِلَّا مُحَلَّلاً
وَوَقَعَهُ يَوْمَ التَّلِّ إِذْ قُبِضَتْ بِهِ
عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَلْوَى سُرَادِقُ ذِلَّةٍ
تَرَى الْمِنْسَرَ الذَّبْيُوتِ* يُلْقِي سِلَاحَهُ
يُسَاعُونَ أُسْرَاباً شَرَائِحَ أَخْبَلٍ
فَتَلْقَى نَصَارَى جَلَّتْ فِي مَاتِمِ
أَلَمْ تَرَ لِلْمُلْطَانِ صُدُقَ نَذْرِهِ
وَبَاشِرَهُ بِالْقَتْلِ وَسَطَ خِبَائِهِ
وَضَاقَتْ بِنَفْسِ الْقَوْمِصِ الْأَرْضُ مَهْرَباً
وَمَا طَرَقَ الْأَسْمَاعُ مِنْ عَهْدِ آدَمَ
أَتَوْا وَادِيّاً مَا زَالَ يَنْفِي خِبَائِثاً
بِهِ جَثَمَتْ أَصْحَابُ لَيْكَةِ وَهِيَ فِي

١١٨/٢

فَاضَتْ غَنَاءً فِي الْبَطَاحِ مُبَدِّدَا^(١)
إِذَا الْكُلُّ مِنْهُمْ فِي الْقِيُودِ مُعْبِدَا
فَأُودِعَ سِجْنًا وَسَطَ جِلْقٍ مُؤَصِّدَا
فَمَا وَرَدَ الْأَزْدُنَّ إِلَّا مُصَفِّدَا
وَكَمْ سَابِقٍ عَجَلَانَ فَهَقِرَ مُقَعِّدَا
فَكَانَ تَقْضَى مُلْكُهُ قَبْلُ يَتَبَدِّدَا
وَلَا حَلَّ الرَّايَاتِ إِلَّا مَعْقِدَا
جَبَابِرَةُ الْإِفْرَنْجِ حَيْرَى وَشُرَّدَا
وَمَنْ ذَلَّ مَاتَتْ نَفْسُهُ فَتَقَيَّدَا
وَيَنْسَاقُ مَا بَيْنَ السَّبَايَا مُلْهَدَا^(٣)
كَشَكَّةِ عَصْفُورٍ مِنَ الرِّيشِ جُرَّدَا
يُسِرُّونَهَا إِلَّا شَجَى وَتَنَهَّدَا^(٤)
دَمَ الْغَادِرِ الْإِبْرَنْسِ فَاقْتَيْدَ أَرْبَدَا
وَعَايَنَهُ الْكُنْدُ الْمَلِيكَ فَأُزْعِدَا
فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ الْمَفَاجِئُ مُكَمَّدَا
كَمَلَحْمَةِ التَّلِّ الَّتِي تَلَّتِ الْعِدَى
وَيُضْفِي بِعَقْبَى الدَّارِ طَائِفَةَ الْهُدَى
ذُرَاهُ وَذَا فِيهِ شُعَيْبٌ تَأَيَّدَا

(١) فِي الْأَصْلِ: مَمْدَدَا، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (ك).

(٢) فِي الْأَصْلِ: أَشْبَان، وَفِي (ك) بَيْشَانَ، وَلَعَلَّهَا مَا أَثْبَتَهُ.

(٣) مِنْ لَهْدَةٍ لَهْدَا، أَيْ دَفَعَهُ لِذَلِكَ. «اللسان» (لهد).

(٤) فِي الْأَصْلِ: تَهْدَدَا، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (ك).

أرى الله فيه معجزَ النَّصْرِ مُخْلَصاً
وأعدى جنودَ الرُّعْبِ تَرْدَى عُدَاتُهُ
ومن عجبِ خمسون ألفَ مُقاتِلٍ
وللرَّشيدِ بنِ بَدْرِ التَّابُلُسي (١):

هذا الذي كانت الآمالُ تَنْتَظِرُ
بمثلِ ذا الفَتْحِ لا والله ما حُكِيَتْ
حِينَ به حَانَ هُلُكُ المُشْرِكِينَ فِيا
الآنَ قَرَّتْ جُنُوبٌ فِي مِضْاجِهَا
يا بهجَةَ القُدْسِ إِنْ أَضْحَى بِهِ عِلْمُ الدِّ
يا نورَ مَسْجِدِهِ الأَقْصَى وَقَدْ رُفِعَتْ
شَتَانٌ ما بَيْنَ نَاقُوسِ يُدَانَ بِهِ
اللَّهُ أَكْبَرُ صَوْتُ تَقْشَعِرُّ لَه
يا مالِكِ الأَرْضِ مَهْذَاهَا فَمَا أَحَدٌ
ما اخْضَرَ هَذَا الطَّرَازُ السَّاحِلِي تَرَى
أَضْحَى بَنُو الأَصْفَرِ الأَنْكَاسَ مَوْعِظَةً
صاروا حَدِيثاً وَكَانُوا قَبْلُ حَادِثَةً
سَلَبَتْهُمْ دَوْلَةَ الدُّنْيَا وَعِيشَتَهَا
هَذَا الَّذِي سَلَبَ الإِفْرَنْجَ دَوْلَتَهُمْ

لأمرِ صلاحِ الدِّينِ فِي النَّاسِ مُخْلِداً
وَسَلَّمَ جَمَعَ المُسْلِمِينَ مُجَعِّداً
سَبَّحَتْهُمْ جِيُوشٌ لَيْسَ فِيهَا مِنْ ارْتِداً

فَلْيُوفِ اللَّهُ أَقْواماً بِما نَذَرُوا
فِي سالفِ الدَّهْرِ أَخْبَارٌ وَلا سِيرُ
لِلَّهِ طِيبُ العِشَايا مِنْهُ وَالبُكَرُ
وَنامَ مَنْ لَمْ يَزَلْ حِلْفاً لَهُ السَّهَرُ
لِإِسْلامٍ مِنْ بَعْدِ طَيٍّ وَهُوَ مُتَشَرُّ
بَعْدَ الصَّلِيبِ بِهِ الآياتُ وَالسُّورُ
وَبَيْنَ ذِي مَنْطِقٍ يُضْغِي لَهُ الحَجَرُ
شُمُّ الدُّرَى وَتَكَادُ الأَرْضُ تَنْفَطِرُ
سِوَاكَ مِنْ قائِمٍ لِلْمَهْدِ يَنْتَظَرُ
إِلَّا لَتَغْلُوبَهُ أَعْلَامُكَ الصُّفُرُ
فِيها لِأَعْدائِكَ الآياتُ وَالثُّدُرُ
عَلَى الْوَرَى يَتَّقِيها الْبَدْوُ وَالْحَضَرُ
حَتَّى لَقَدْ ضَجَرَتْ مِنْ وَفْدِهِمْ سَقَرُ
وَمُلْكُهُمْ يا مُلُوكَ الأَرْضِ فاعْتَبَرُوا

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن بدر، لقبه مدلوليه، كان شاعراً محسناً، توفي سنة (٦١٩ هـ) بدمشق، ودفن بباب الصغير. انظر ترجمته في «التكملة» للمندري: ٧٠/٣، و«وفيات الأعيان»: ٢٦٦/٥، و«تاريخ الإسلام» للذهبي، وفيات سنة (٦١٩ هـ) (طبعة مؤسسة الرسالة).

مراكزُ ما اختَطَّأها الخَوْفُ مُذْ مئةٍ عاماً ولا رِنَعَ أَهْلُوها ولا دُعِروا
ولم أَصْرُخْ بِأَسْماءِ البلادِ فقد اسهَبْتُ والقائلُ المنطِيقُ يَخْتَصِرُ
يُغْنِيكَ مُجَمَّلُ قَوْلِي عن مُفْصَّلِهِ في لفظَةِ البَحْرِ معْنَى تحتِ الدَّرَرِ
وهي طويلة، وله من قصيدةٍ أخرى:

ألم بدار النَّاصر الملك الذي في كَفِّهِ للجود سَبْعَةُ أَبْحُرِ
فإذا مَرَزَتْ بِمُلْكِهِ وفتوحه فاسْحَرْ بما يُروى عن الإسْكَندَرِ
وإذا بَصُرَتْ بِجَاشِهِ وجيوشِهِ فاحْتُ الثَّرَابَ على ذُؤابةِ سَنَجَرِ^(١)
كُسِرَتْ على كسرى لعدلك دولةٌ قَصَرَتْ مهابِثُها تطاولَ قَيْصَرِ
[وللشَّهابِ فتيانُ الشَّاغوري من قصيدة^(٢)؛

أَهْدَى صلاحُ الدِّينِ للإسلامِ إذ أَرْدَى قَبِيلَ الكُفْرِ ما لم يُكْفِرِ
رَبُّ الملاحمِ لم يُؤرِّخْ مِثْلَها العُلَماءُ قِدماً في قديمِ الأَعْصِرِ
خُلِعَتْ عليه خِلْعَةُ المُلْكِ التي زِيدَتْ بهاءَ بالطَّرَازِ الأَخْصِرِ
رايائِهِ صُفْراً يَرِدْنَ وتنشي حُمْراً تَمْجُجُ نَجِيعَ آلِ الأَصْفَرِ
لَمْ لَمْ تَدِنْ شَوْسُ الملوِكِ له وقد ملكِ السَّواحِلِ في ثلاثةِ أَشْهُرِ
واستَنْقَذَ البَيْتَ الْمُطَهَّرَ^(٣) عَنوَةً من كُلِّ ذِي نَجِسٍ بِكُلِّ مُطَهَّرِ

١١٩/٢

(١) هو سنجر بن ملكشاه، آخر السلاطين السلاجقة العظام، توفي سنة (٥٥٢ هـ)، انظر الجزء الأول ص ٣٥٩ من هذا الكتاب.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، وقد سردت القصيدة كلها في الأصل على أنها من شعر ابن بدر النابلسي، وفي (ك) انتهت قصيدة ابن بدر حتى البيت الرابع، وهو: كسرت على كسرى.. وهذا البيت عُذٌّ في طبعة وادي النيل ١١٨/٢ من شعر الشاغوري: وهو خطأ، إذ ليس في «ديوانه»، وأما بقية الأبيات فهي من شعره، وقد تقدم بعض أبياتها ص ٣٠٣ - ٣٠٤ من هذا الجزء.

(٣) في «ديوانه» المقدس.

وَأَرَيْتَهُمْ لَمَّا التَقَى الْجَمْعَانِ بِالْ
وَرَدَدَتْ دِينَ اللَّهَ بَعْدَ قَطُوبِهِ
وَأَعَذَتْ مَا أَبْدَاهُ قَبْلَكَ فَاتِحاً
حَتَّى جَمَعْتَ لِمَعْشَرِ الْإِسْلَامِ يَدَ
فَلِصَخْرَةِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ كُفُوَهَا
فَكَأَنَّهُ إِنْسَانٌ عَيْنِي صُورَةٌ
بَيْتِ الْمُقَدَّسِ هَؤُلَ يَوْمِ الْمَحْشَرِ
بِالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى بِوَجْهِ مُسْفِرٍ
عَمُرُو فَأَنْتَ شَرِيكَهُ فِي الْمَتَجَرِّ
مِنَ الصَّخْرَةِ الْعُظْمَى وَبَيْنَ الْمِشْعَرِ^(١)
الْحَجَرِ الْمُفْضَلُ عِنْدَ أَفْضَلِ مَعْشَرٍ
يَلْقَاكَ أَسْوَدُهُ بِمَعْنَى أَنْوَرِ^(٢)

فصل

في حصار صور، وفتح هونين* وغير ذلك

قال العماد: ثم إن السلطان ما زال مقيماً بظاهر القدس، يحقق الآمال ويفرق الأموال، حتى وَرَدَتْ كُتُبُ سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، وكان نائب السلطان لصيدا وبيروت، وهما مجاورتان لصور، فكتب يحرض السلطان على حصار صور، فرحل السلطان عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان، وأخذ صَوْبَ عَكَّا*، وسبقه إليها الأفضل وتقي الدين، وودَّع السلطان ولده العزيز وردَّه إلى مِصْرَ، فكان آخر عهده به. واستصحب السلطان أخاه العادل، فوصلا إلى عَكَّا مستهل رمضان، فأصلح من شأنها، ثم رحل فنزل على صور يوم الجمعة تاسع رمضان، وخيم بإزاء السور بعيداً منه على النَّهْرِ، ومعظم البلد في البحر، وهي مدينة حصينة متوسطة في البحر كأنها سفينة، وكان المركيس الذي في صور قد حَفَرَ لها خندقاً من البحر إلى البحر، وبنى بواشيره*، وأحكم في التَّعْمِيرِ تدبيره، واستظهر بتكثير العَدَدِ

(١) ما بين حاصرتين من طبة وادي النيل: ١١٩/٢.

(٢) انظر «ديوان فتیان الشاغوري»: ١٤١، ١٤٣، مع تقديم وتأخير في بعض الأبيات.

والعدَد، واغتنم اشتغال السُلطان بفتح القدس. فأقام السلطان بتلك المنزلة على صور ثلاثة عشر يوماً، حتى تلاحقت الأمداد، وكثُرَت العدَد وآلات الجهاد، ورُتِبَت المنجنيقات، ثم حَوَّل السُلطان مضاربَهُ إلى تلٍّ قريب من الشُّور يشرف منه، ثم حاصروهم، وقَبِلَ^(١) كُلاً من الملوك بجانب يكفيه، منهم الأفضل والعاقل وتقي الدين، فحاصروهم وضايقوهم. ووصل في تلك الأيام من حلب الملك الظَّاهر غازي ولد السُلطان بعسكره الحلبي، فاستظهر السُلطان به، واستدعى الأسطول المِصري، وكان بعكاً، فجاء منه عشرة شواني*، وكان للفرنج في البحر مراكبٌ وحراريق*، وفيها رُماة الجروح* والزنبوركات* يرمون من دنا من البحر، فلما جاء أسطول السُلطان استطل عليها وأبعدها، فأحاط بهم المسلمون، وقاتلوهم بَرّاً وبحراً، فبينما هم في أحلى ظفر، وأهناً ورِدٍ وصَدَر، إذ ملك الفرنج خمسةً من شواني المسلمين، وأسرُوا مقدَّميها ورئيسها عبد السَّلام المَغْرِبِي، ومتوليهِ بدران الفارس، وألقى جماعةً أنفسهم في البحر، فمن ناجٍ وهالك، وذلك أنهم سهرُوا تلك الليلة بإزاء ميناء صور إلى السَّحَر، ثم غلبهم التَّوَم، فما انتبهوا إلا والفرنج قد ركبتهُم ونكبتهُم، فأصبح المسلمون وقد جموا، وأتاهم من الأمر ما لم يعلموا، ونفَذ السُلطانُ إلى المراكب الباقية أن يسيروا إلى بيروت، وخاف عليها لِقَلَّتْها أن يستوليَ عليها عِبْدَةُ الطَّاغُوت، فنجا منها شيني رئيس جُبَيْل، والباقون نظروا إلى الفرنج وراءهم، فألقوا أنفسهم في الماء، وخرجوا إلى البر على وجوههم.

ثم إن الفرنج بعد هذا طمعت، فخرجت يوماً وقت العصر مستعدة للقتال، فالتقاهم المسلمون، فكانت الدَّائرة على الكافرين، وأسر مقدَّم كبير

(١) أي كَفَّل. «معجم متن اللغة»: ٤٨٦/٤.

لهم، وظَنَّ أنه المَرِكِس، فسَلَّمه السُّلْطَان إلى ولده الظَّاهِر ليحفظه، فضرب عَنْقَه، وكان الليل قد دخل، فلما أصبحوا تَبَيَّنَ لهم أن المَرِكِس بَعْدُ في الحَيَاة، فطال حصاره حتى ضَجَرَ كثير من أُمراء المسلمين، لأنهم رَأَوْا ما لم يَأْلَفُوهُ من تَعَسَّرِ الفَتْح عليهم، فأشاروا على السُّلْطَان بِالرَّحِيل لثَلَا تَفْنِي الرِّجَال، وَتَقِلَّ الْأَمْوَال، وكان البرْدُ قد اشدَّ عليهم، وكان رأي السُّلْطَان وَالْأَتَقِيَاء من الْأُمراء كالفقيه عيسى، وَحُسام الدين طُمان، وَعِز الدين جُرْدِيك الثُّورِي الثَّبَات إلى الْفَتْح لثَلَا يَضِيع ما تَقَدَّمَ من الْأَعْمَال وَإِنْفَاق الْأَمْوَال، وقال السُّلْطَان: قد هَدَمْنَا السُّور، وقاربنا الْأُمُور، فاصبروا تَفْلَحُوا، وصابروا تَفْتَحُوا ولا تَعْجَلُوا. فأظهروا المَوَافَقَة وفي أَنْفُسِهِمْ ما فِيهَا، فلم يَصْدُقُوا الْقِتَالَ، وَتَعَلَّلُوا بِأَنَّ الرِّجَالَ جَرَحَى، وَالْعُلُوفَات قد قَلَّتْ، فلم يَسْعَ السُّلْطَان بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا الرَّحِيلُ، فَأَمَرَ بِنَقْلِ الْأَثْقَال، فَحُمِلَ بَعْضُهَا إِلَى صَيْدَا وَبَيْرُوت، وَأُحْرِقَ الْبَاقِي لثَلَا يَنَالُهُ الْعَدُوُّ، وَرَحَلَ فِي آخِرِ شَوَّال، وهو أولُ يَوْمٍ مِنْ كَانُونِ الْأَوَّل، وسار تَقِيُّ الدِّين إلى دِمَشْقَ على طَرِيقِ هُونَيْن*، واستصحب معه عَسَاكِرَ الشَّرْقِ وَدِيَارِ بَكْرِ وَالْمَوْصِلِ وَالْجَزِيرَةِ وَسِنْجَار* وَمَارِدِين*، وَرَحَلَ السُّلْطَانُ إِلَى عَكَّا، فَوَصَلَهَا فِي ثَلَاثِ مَرَاحِل، لَأَنَّهُ سَلَكَ طَرِيقَ النَّاقُورَةِ*، وهي طَرِيقُ ضَيْقَةٍ مُطَلَّةٍ عَلَى الْبَحْرِ، بِهَا يُضْرَبُ الْمِثْلُ، لَا يَعْبُرُ بِهَا إِلَّا جَمَلُ جَمَلٍ، فَعَبَرَتْ بِهَا الْأَثْقَالُ وَالْأَحْمَالُ فِي أُسْبُوعٍ. وَكَانَ عَيْنَ يَوْمٍ رَحِيلُهُ مِنْ صُورِ أُمراءٍ يَقِيمُونَ عَلَيْهَا أَنْ يَعْرِفُوا عُبُورَ الثَّقَلِ. وَخَيَّمَ السُّلْطَانُ عِنْدَ التَّلِّ، وسار الْعَادِلُ إِلَى مِصْرَ، وَالظَّاهِرُ إِلَى حَلَبَ، وَبَدَرَ الدِّينَ دُلْدُرُمَ الْيَارُوقِي إِلَى بِلَادِهِ.

قال: وفي مُدَّةِ رَحِيلِ السُّلْطَانِ عَنْ صُورِ جَاءَهُ خَبَرُ سَيْفِ الدِّينِ مَحْمُودِ أَخِي عِزِّ الدِّينِ جَاوَلِي أَنَّهُ اسْتَشْهَدَ فِي عَقْرَبَلَا* تَحْتَ حَصَنِ كُوكَب*، كَبَسَهُ

الفرنج فيها ليلاً، وذلك أنه كان قد بقي على السلطان بعدما فتح من بلاد العدو من جُملة أعمال طبرية والغور حصناً صَفَد وكوكب، وكان في صَفَد جمرة الدَّائِيَّة*، وفي كوكب جمرة الاسبتارية*، فاحتاج السلطان في فَتْحهما إلى المَطَاوِلَة، فوَكَّل بصَفَد جماعة يُعرفون بالنَّاصرية مقدَّمهم مسعود الصَّلَتي، ووَكَّل بكوكب هذا الأمير سيف الدين محموداً، فأقام في حِصْن عَفْرَبَلَا، وهو قريبٌ من حصن كوكب، ونَغَص على المقيمين فيه المطعم والمَشْرَب، وضيَّق عليهم المَذْهَب، إلى أن دخل الشَّتَاء، فاخْتَلَّت الحراسة، واعتَلَّت السِّيَاسة، فلما كانت ليلة آخر شَوَّال، وكانت ليلة باردة ماطرة، حرس أصحاب سيف الدين حتى ضَجِرُوا، فغلبهم الثُّعَاس، فما استيقظوا إلا وفرنج كوكب عليهم باركة، فدافعوا عن أنفسهم حتى اسْتُشْهِدُوا، وأخذ الفرنج غنيمة المسلمين، ودخلوا بها كوكب. وكان هذا الأمير محمود ذا دين متين، ومكان من الشُّسْك مكين، وهو يسهر أكثر ليلة متَهَجِّداً، وقد جعل منزله مَسْجِداً، فجمع بين التَهَجُّد والجهاد، وكان كثير الاجتهاد، فاغْتَمَّ السلطان بمصابه، وزاد تَأَلُّماً إلى مابه، وتقدَّم إلى صارم الدين قايماز النُّجَامي أن يُرابط كوكب في خمس مئة فارس، ففعل، ولم يَزَلْ بها إلى أن فتحت كما سيأتي^(١).

قال: وفتحت هُونين* والسُّلْطَان محاصر صور، وكان لما فتح تَبْنين*، قد امتنعت عليه هُونين، فوَكَّل بها من رابطها وضايقها حتى طلبوا الأمان، وجاء خبرها إلى السُّلْطَان وهو على صور، فنَقَذ الأمير بدر الدين دُلْدُرْم ففتحها، وخرج الفرنجُ منها سالمين آمنين. وكان قد بقي أيضاً من عمل صيدا قلعة أبي الحسن*، وشقيف أرنون*، وأقام السُّلْطَان بظاهر عَجَّا ناظراً

(١) انظر ص ٥٢ من الجزء الرابع.

في أمور رَعِيَّتِهِ، ثم دخلها وسكن بالقلعة، وسكن الأفضل بُرْجَ الدَّأْوِيَةِ*،
 وولى عكا عز الدين جُرْدِيكَ، ووقف دار الاسبتار نصفين: نصفاً على
 الفقهاء، ونصفاً على الصُّوفِيَةِ، ووقف دار الأسقف بيمارستاناً، ووقف على
 كُلِّ من ذلك كفايته، وأظهر به عنايته، وسلَّم جميع ذلك إلى قاضيه
 جمال الدين بن الشيخ أبي النَّجِيب^(١)، وهو في ذلك مصيب.

فَصْلٌ

في ورود رُسل التَّهَانِي من الآفاق، وقُدوم الرُّسول العاتب من العراق

قال العماد: ووردت رُسل الآفاق من الرُّوم وخُرَّاسان والعراق، وكلهم
 يهْنِي السُّلْطَان بما أفرده الله به من الفضيلة، وأقدَرُهُ عليه من نُجْح الوسيلة،
 وهو فَتْحُ القُدْس الذي دَرَجَ على حسرته القرون الأولى، وتَقاصَّرَتْ عنه
 أيديهم المتطاولة، وتمكَّنت منه يَدُهُ الطُّولى، فما منهم إلا من يعترفُ بِيُمْنِهِ،
 ويغترف من يَمِّهِ، ويقرُّ بحكم التَّنْزِيل له وينزل على حُكْمِهِ، ويخطب
 صداقته، ويتقرَّب بالوفاء والوفاق، ويتباعد عن الشَّقَاء والشُّقَاق، فمن
 جملتهم رسول صاحب الرِّي*، ورسول المستولي على ممالك هَمَذَانَ
 وأذريجان وأَرَّان*، فما من يومٍ يمضي وشهر ينقضي إلا ويصل منهم
 رسول، ويتَّصل به سول^(٢).

وذكر العماد^(٣) في «البرق» أنه وصل إلى السُّلْطَان وهو بعكاً رسول

(١) سلفت ترجمته في حاشيتنا رقم ٣ ص ٣١٢ من هذا الجزء.

(٢) «الفتح القسي»: ١٨١.

(٣) في (ك) تقديم وتأخير بين هذا الخبر والخبر الذي بعده.

أَتَابَكَ* مظفر الدين قزل أرسلان، وهو عثمان بن أتابك إيلدكز المستولي على بلاد العجم بعد أخيه البهلوان.

ثم ذكر من خِرْفَه^(١) في كرمه شيئاً كثيراً، ثم قال: وهذا كله لا يكون في بحر سُلْطَانِنَا جدولاً، كان السُلْطَان مُذْهَبَ المَذْهَب، ظاهر المَحْفِل والمَوْكِب، قد خَصَّه الله بالصِّدْر الأَرْحَب، والنَّصْر الأَغْلَب، عَزَّمَهُ إلى الجهاد مصروف، وخُلِّقَه بالمعروف معروف، وهُمُّهُ بالسَّامَح مشغوف، ما يفتحُه بالسَّيْف في البلاد، يهبه لمن يَضْرِبُ معه بالسيف في الجهاد، وللخالق تقواه، وللمخلوقين جدواه، وإنما يريد للآخرة دُنْيَاه، فلا جَرَمَ خَتَمَ الله بالحُسْنَى عقباه.

قال: ولم يكن في الملوك السَّالِفَة أمضى منه عَزْماً، وأجدى فَضْلاً، وأعمَّ جدوى، وأكمل جهداً في الجهاد، وأملك جَلْداً على الجِلَاد، فإنه باشر بنفسه الحَرْب، ومارس الصَّعْب، وقذف بالحق حين حَقَّقَه على الباطل فَأَزْهَقَهُ، ولا حَدَّ ولا عَدَّ لما في سبيل الله من نفائس الثُّفُوس والأموال أنفقه، ومن أول هذا العام إلى متناه لم يَجِفَّ لَوْرْدِهِ لِبْدٌ^(٢)، ولم ينضب من وِزْدِهِ عِدٌّ^(٣)، ولم يقرَّ له جَنْب، بل لقي في فَصْلِي القَيْظ والقرَّ، مَضَّ الحَرَّ وَعَضَّ البَرْد، بَحُرَّ وجهه^(٤) الكريم، وقضى حَقَّ الدِّين موفياً^(٥) بصدق غَرَامِهِ حَقَّ الغريم، وكل ما تَمَّ من النَّصْر يوم حِطَّيْن، وفتح القدس وتسلم بلاد السَّاحِل

١٢١/٢

(١) أي من سخائه، والخرق: الكريم المتخرق في الكرم. «معجم متن اللغة»: ٢٦١/٢.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٦٠ من الجزء الثاني.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٢١٧ من هذا الجزء.

(٤) حر الوجه: ما بدا منه. «معجم متن اللغة»: ٦٠/٢.

(٥) في الأصل: موقناً، والمثبت من (ك).

إنما تسنّى بشهرٍ سَنِيهِ في فصل الصَّيْفِ وشهوره، واستظهاره بظهور الإسلام
وشدَّ طُهُوره.

وأنشد العماد للقاضي الفاضل في وُصفِ أسيافه:

ماضياتٌ على الدَّوامِ دوامي هي في النَّصْرِ نَجْدَةُ الإسلامِ
في يمين السُّلْطَانِ إنْ جَرَّدَتْهَا أشبهتها صواعقٌ في غَمَامِ
تَنُثِّرُ الهَامَ كالْحُرُوفِ فما أَشَدَّ بَهَ هَذي السُّيُوفِ بِالْأَقْلَامِ
في محارِبِ حَرْبه اليَبِضُ صَلَّتْ وركوع الطُّبَى سَجُودُ الهَامِ^(١)

وذكر من كلامه في التوسط بين الأصدقاء: ما أدخل بينكم إلا كدخول
المروود في الأجفان يَرُدُّ إليها ما ذهب منها من الثَّور والغَمَض، أو كالنسيم
بين الأغصان يَعْطِفُ بعضها على بعض.

قال العماد: ووصل أخِي تاجُ الدين أبو بكر حامد من دار الخلافة
برسالة في العتبِ على أحداثٍ ثَقَلَتْ، وأحاديثٍ نُقِلَتْ، ووشاياتٍ أثَّرت،
وسِعاياتٍ في السُّلْطَانِ شَعَّتْ، وذلك في شَوَّال، ونحن على حصار صور،
وسببُ ذلك أنه لما تَمَّ الفتح الأكبر، وَخَصَّ وَعَمَّ النُّجْحُ الأَظْهَر، وَقُطِعَ دَابِرُ
المُشْرِكِينَ، وَحَطَّ إِقبالُ المسلمين أوزارَ أَدبارِ الكافرين^(٢) بحطِّين، أمرني
السُّلْطَانُ بإنشاء كتب البشائر إلى الآفاق، وتقديم البُشْرى به إلى العراق،
فقلت: هذا فتحٌ كريم، ومنحٌ من الله عظيم، فلا ينبغي أن يكون مبشِّرُ دار
الخلافة بما أنزله الله علينا من الرَّحْمَةِ والرَّأْفَةِ إلا من هو عندنا أجل وأجلى.
وأعلم وأعلى، وأجمع لفنون الفضائل، وأعرف بأداء الرِّسائل، فلا يُرْفَعُ

(١) هذه الأبيات ليست في «ديوانه» المطبوع.

(٢) في (ك) الكفر.

العظيم إلا بالعظيم الرفيع، فإن الشَّريف يتَّضع شرفه بمقارنة الوضيع. فقال: هذه نُصْرَةٌ مبتكرة، وموهبةٌ مبشَّرة، بدرت وندرت، فنحن نَعَجِّلُ بها بشيراً، ونؤخر للإجلال^(١) كما ذكرت سفيراً.

وكان في الخِدمة شابٌّ بغدادِي من الأجناد، قد هاجر للاسترفاد، وتوجَّه بعد وصوله، ونَبِهَ بعد خُموله، فسأل في البشارة إلى بغداد، وزعم أنَّه يدوام إليها الإغذاذ، وشَفَعَ له جماعةٌ من الأكابر، حتى خُصَّ^(٢) بأشرف البشائر. فقلتُ: هذا لا يحصلُ له وَفَع، ولا يصلُ إليه نَفَع، والواجب أن يسير في مثل هذا الخطيرِ خطير، وفي هذه النُصرة الكبرى كبير.

ثم سار المندوب، وشَغَلَتْ عن إرسال سواه الفتوح^(٣) والحروب، ولما فتح البيت المقدس أرسل بشارته نَجَاب، ونُقِّذَ بها كتاب، ووصل البشير الجُندي فَحَقَّرُوهُ وما وَقَرُّوهُ، فإنَّه كان عندهم بعين فنظروه بتلك العين، وحبوه بما يليق من الرقة والعين، ونَقِمَ على السُّلطان إرسالُ مثله، وتسمَّح المندوب بكلام أُخذ عليه، وبَدَرَتْ منه أحاديثُ نُسبت إليه. وقال في سُكْرِهِ، وحالة نكره، ما نُعْرِضُ عن ذكره، فخيَّلَ ومَوَّه، وتنكَّرَ وتكرَّه، وظَنَّ أن لكلامه أصلاً، ولقَطَعِهِ منا وَضْلاً، وأنْهيت إلى العرض الأشرف مقالاته، وعُلِّمت جهالاته، وَتُجَنِّيَ على السلطان بإرساله، وطُرِّقَ إلى هُداة ما أنكروه من مقال المذكور وضلاله، ووجد الأعداء حينئذٍ إلى السَّعاية طريقاً، وطلبوا لشمل استسعاده بالخدمة تفريقاً، واختلقوا أضاليل، ولَفَّقُوا أباطيل، وقالوا:

(١) في الأصل: الإجلال، والمثبت من (ك).

(٢) في الأصل: حظي، والمثبت من (ك).

(٣) في الأصل: الفتوح، والمثبت من (ك).

هذا يزعم أنه يقلب الدَّولة، ويغلب الصَّولة، وأنه يُنَعَتُ بالملك النَّاصر نَعَتَ الإمام النَّاصر، ويُدِلُّ بمالَهُ من القوَّة والعساكر.

فأشفق الديوان العزيز على السُّلطان من هذه، وبرز الأمر المطاع بإرسال أخي وإنفاذه، وقالوا: هذا تاجُ الدين أخو العماد، يَكْفُلُ لنا في كَشَفِ سرِّ الأمر بالمُراد، فإن أخاه هناك مُطَّلَع على الأسرار، وهو منتظم في سِلْكِ الأولياء الأبرار. وعوَّل عليه الديوان في السَّفارة، ورُدَّ معه جواب البشارة، وكتبت له تذكرة بموجبات مقاصد العُتب، ومكذَّرات موارد القُرب، والمخاطبة فيها وإن كانت حسنة خشنة، والمعاتبة مع شدَّتها للعواطف الإمامية لينة.

فسار الأخ إلى دمشق، وكان قد عاد المندوبُ نادياً عادياً، جاحداً للنَّعمة شاكياً، وقال: أخو العماد قد وصل بكلِّ عُتبٍ وِعَضْبٍ وَلَفْظٍ فَظٍّ، ومعه الملامات المؤلمات. فقلت له: اسكت واصمت. وقلتُ للسُّلطان: سمعاً وطاعة لأمر الدِّيوان، فإن إظهار سرِّ العُتبِ لك من غاية الإحسان. فقال: نِعَمَ ما قلتَ.

ولما قُربَ أخي أصبحتُ لِقْدومه أنتخي، فأمر السُّلطان الأمراء على مراتبهم باستقباله، وتقدَّم لجلالة قدومه بإجلاله، وتلقَّاه الملوك الحاضرون: العادل والمظفر والأفضل والظاهر. ثم ركب وتلقَّاه بنفسه، وخصَّه من تقريبه بأنَّسه، ولم يزل حتى أراه مواضع الحصار، ومصارِعَ الكُفَّار، ثم نزل وأنزله بالقُرب، ثم حضر عنده، وقد أخلى مجلسه لي وله وحده، فأدَّى الأمانة في مشافهته، ووجَّه مقاصده في مواجهته، وأحضر التَّذكرة، وقد جَمَعَتِ المَعْرِفة والنِّكرة، فقرأتها عليه، وكانت في الكُتب غِلْظة، عُدَّت من الكاتب غِلْظة،

وَحِثَلَتْ سَقَطَهُ، وَجَلَبَتْ سُخْطَهُ، وَقَالَ: [إِنَّ^(١)] الْإِمَامَ أَجَلُ أَنْ يَأْمُرَ بِهَذِهِ الْأَلْفَافِ الْفِظَافِ، وَالْأَسْجَاعِ الْغِلَافِ، فَقَدْ أَمَكْنَ إِيدَاعُ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي أَرْقٍ مِنْهَا لَفْظًا وَأَرْقٍ، وَأَوْفَى مِنْهَا فَضْلًا وَأَوْفَقٍ، وَمَعَادَ اللَّهِ أَنْ يُحْبَطَ عَمَلِي، أَوْ يُهْبَطَ أَمَلِي.

وَامْتَعِضْ وَارْتَمِضْ، ثُمَّ أَعْرِضْ عَمَّا عَرَضَ، وَرَجِعْ إِلَى الْاسْتِعْطَافِ وَانْتَجِعْ بَارِقَ الْاسْتِسْعَافِ. وَقَالَ: أَمَا مَا تَمَحَّلَهُ الْأَعْدَاءُ، وَعَدَا بِهِ الْمَتَمَحِّلُونَ، فَمَا عُرِفَ مِنِّي إِلَّا الْاعْتِرَافُ بِالْعَارِفَةِ. وَذَكَرَ السُّلْطَانُ أَيَادِيهِ السَّالِفَةِ فِي الْفَتْوحَاتِ، وَإِقَامَةِ الدَّعْوَةِ الْعَبَّاسِيَةِ بِمِصْرَ وَالْيَمَنِ، وَإِزَالَةِ الْأَدْعِيَاءِ، وَإِبَادَةِ الْأَعْدَاءِ، وَفَتْحَ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ.

قَالَ: وَأَمَّا النَّعْتُ الَّذِي أَنْكَرَ، وَتَبَّهَ عَلَى مَوْضِعِ الْخَطَأِ فِيهِ وَذَكَرَ، فَهَذَا مِنْ عَهْدِ الْإِمَامِ الْمُسْتَضِيِّ، وَالْآنَ كُلُّ مَا يَشْرَفُنِي بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ السُّمَةِ، فَإِنَّهُ اسْمِي الَّذِي هُوَ أَسْمَى وَأَشْرَفُ، وَأَرْفَعُ وَأَعْرِفُ، وَمَا عَزَمِي إِلَّا اسْتِكْمَالَ الْفَتْوحِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَقَطْعَ دَابِرِ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ.

ثُمَّ نَدَبَ مَعَ أَخِي مَنْ سَارَ فِي خِدْمَتِهِ لَزِيَارَةِ الْقُدْسِ، ثُمَّ وَدَّعَهُ وَأَوْدَعَهُ مِنْ شِفَاهِهِ كُلِّ مَا فِي النَّفْسِ، وَظَهَرَتْ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْقَبُولِ آثَارُ الرِّضَى، وَمَضَى مَا مَضَى، وَكَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْأَمْرَاءِ كَالْعَادِلِ وَمُظَفَّرِ الدِّينِ قَدْ نَحَّوهُ لَمَّا قِيلَ فِي حَقِّهِ، وَأَرَادُوا أَنْ يُغْضِبُوهُ فَمَا غَضِبَ، بَلْ غَاضَ غِيْظَهُ وَنَضَبَ، وَتَلَقَّى ذَلِكَ بِصَدْرِ رَحِيبٍ، وَلَفْظٍ مُصِيبٍ^(٢).

(١) مَا بَيْنَ حَاصِرَتَيْنِ مِنْ (ك).

(٢) «الْفَتْحُ الْقَسِي»: ١٨٣ - ١٨٨.

قلت^(١): ووقفتُ على كتابِ كتبه الصَّاحِبِ قِوَامِ الدين بن زيادة من الدِّيوان العزيز ببغداد إلى السُّلطان صلاح الدين، وكان قوام الدين يومئذٍ أستاذ الدَّارِ العزیزة يقول فيه: لولا مكانُ صلاح الدين من الخِدمة، والشُّحُّ به، والمنافسةُ فيه لما جُوهَر بالعتاب، ولا رُفِعَ دونه هذا الحِجاب، بل كان يُتْرَكُ معه الأمرُ على اختلاله، ويُدْمَلُ الجُرْحُ على اعتلاله، وقد ذكرتُ الأسباب التي أخذها الدِّيوان العزيز عليه، واستغرب وقوعها من كماله لِئُرْعِيها سَمْعَهُ الكريم، ويستوري فيها رأيه الأصيل، وينصف في استماعها والإجابة عنها، غير عائِجٍ على الجدَل، ولا مُؤَتِّمٍ بالمرء المذمومين عَقْلاً وشرعاً، بل يحملُ قولِي هذا على سبيل المباحضة والانتصاح، وصدَّقَ النِّيَّةَ في رَأْبِ الثَّأْيِ^(٢) والإصلاح، فَإِنَّ إِبْجَارَ الدَّوَاءِ الْمُقَرَّرَ لَا يَتُّهَمُ فِيهِ الطَّبِيبُ المجتَلِبُ للعافية.

ثم ذكر من تلك الأمور: أن من انتفى من العراق بسببٍ من الأسباب لجأ إلى صلاح الدين، فوجد عنده الإقبال عليه، وكان الأدبُ يوجب إبعاد من أبعد عنه، وتقريب من قرَّبه إليه.

ثم قال: وإنَّ مما أضحك نَفَرَ الاستعبار، ما انتهى عن العوام وأشباه الأنعام وطغَامِ الشَّامِ من الخَوْضِ في المذاهب، والانتهاء في التشنيع إلى اختلاق كلِّ قَوْلٍ كاذب، ومنها ما جرى من سَيْفِ الإسلام بالحجاز من إزعاج الحُجَّاج، وإرهاج تلك الفِجَاج، والإقدام على مناسك الله وشعائره، وإيقاد سَعِيرِ الفتنة فيها ونوائره، واحتذاء السَّيِّرة القاسطة، وإحياء بدع القَرَامِطة، ما

(١) هذا التعقيب ساقط من (ك).

(٢) الثَّأْيُ: الإفساد. يقال: رَأْبَ الثَّأْيُ: أي أصلح. «معجم متن اللغة»: ٤٢٢/١.

نفر منه كلُّ طَبْعٍ، وَمَجَّهَ كلَّ سَمْعٍ، فكيف جاز لصلاح الدين أن يرخي عِنان أخيه فيما يقرضُ سوابقه وأواخيه، ومنها ما قضى الناس منه العَجَبَ، وفُورِقَ فيه الحَزْمُ والأدب، وهو ما أوجب التَّلَقُّبَ باللقب الذي استأثر به أمير المؤمنين.

ثم قال: وقد ساوق زمان الدَّولة العَبَّاسية — ثَبَّها الله — خوارج دَوَّخُوا البلاد، وأسرفوا في العناد، وجاسوا خلال الدِّيَارِ، وأخافوا المسالك، واستضاموا الممالك، واقتحموا من الشَّقَّاقِ أَشَقَّ المِهَالِكِ، فما انتهى أحدهم فيما احتقب وارتكب إلى المشاركة في اللَّقْبِ، ومن الحكم الذائعة في وجيز الكلام: الذي يصلح للمولى على العبد حَرَامٌ. ومنها مكاتبة كلِّ طرف يتأخم أعمال الدِّيوان من مواطن التركمان والأكراد، ومراسلتهم ومهاداتهم وقرع أسماعهم، بما يعود باستزلال أقدامهم، وفَلَّ عزائمهم، وهم لا يعرفون إلا أنهم رعيةٌ للعراق، وَخَوْلٌ للدِّيوان، يرثون الطَّاعة خالفاً عن سالف.

ثم قال في آخر الكتاب: وهذا كلُّه لا أقوله إنكاراً لجلال مقامات صلاح الدين، ومشاهير مواقف جهاده في سبيل المؤمنين، فإنه — أدام الله علوه — رجلٌ وَقْتُهُ، ونسيجٌ وَخْدُهُ، والمُرَبِّي على من سَلَفَ من صنائع الدَّولة على من يأتي بعده، وهو الوليُّ المخلص الذي عهد فوفى، واستكفي فكفى، وطب فشفى، فكيف يجوزُ له بسعاده أن يهَجِّن مساعيه الغرَّ المُحَجَّلَةَ، ويخرج من مكانته المَكْرَمَةِ المُبَجَّلَةَ، وتبطل حقوقه الثابتة المُسَجَّلَةَ.

ثم قال: فقد علم كلُّ من نَظَرَ في التَّوَارِيخِ والآثارِ، ونَصَحَتَهُ بصيرته في التَّبَصُّرِ والاعتبارِ، أن هذا البيت العظيم ما زال يَرَفَعُ الأقدارَ الخاملة، فينزون عليه بَطَرًا، فيغارُ الله له منتصراً، ويعقبه عليهم إظفاراً وظفراً، كدأب

آل طولون، وآل سامان، وآل بويه، وآل سَلْجُوق، وقرونًا بين ذلك كثيرًا^(١)، فمن الذي زلزلوه فثبت، ومن الذي حصدوه فنبت، وأي نارٍ أوقدوها فما خَبَتْ.

ثم قال في آخره: اللهم، هل بَلَغْتُ؟ وللرأي الصِّلَاحي علوه، إن شاء الله تعالى.

وذكر ابنُ القادسي^(٢) أن الجُندي الذي أرسله صلاح الدين بالبيعة يُعرف بالرَّشيد بن البُوشَنجي. قال: وكان صبيًا، كثير الإِدبار، مشمَّرًا في دروب بغداد، ثم توجَّه إلى الشَّام هارِبًا من الفقر، فحين وصل إلى بغداد رسولًا قامت القيامة برسالته^(٣)، وكتبَ إلى صلاح الدين بالإنكار عليه، وقيل له: ما كان في أصحابك أَمِيرٌ من هذا تُرْسِلُهُ^(٤) إلى الدِّيوان! فاعتذر صلاح الدين، ووصلت كتبه بالاعتذار، وقُبِلَ عَذْرُهُ. وأما ابنُ البُوشَنجي، فإنه حين وصوله إلى الشَّام أكثر الكلام عند صلاح الدين، فأنكر ذلك عليه، فلما مضى الأسبوع جاءته نُشابة ذَبَحَتْهُ.

فَصْل

في باقي حوادث سنة ثلاثٍ وثمانين

ففيها قُتِلَ الأمير شمس الدين بن المقْدَم، وهو محمد بن عبد الملك يوم عرفة بها.

(١) اقتباس من قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثُمودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقرونًا بين ذلك كثيرًا﴾ سورة الفرقان، الآية: ٣٨.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥١ من هذا الجزء.

(٣) في (ك) بمرسلته.

(٤) في (ك) تنقله..

قال العماد: وكان السلطان لما فرَغ من فتح القُدُس ودنا موسم الحجّ، قال الموفقون: نُحرِمُ من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، ونفوز بالحج مع إدراك فضيلة فُتِح البيت المقدّس في هذا العام، فالحجّ والجهاد رُكنا الإسلام. فاجتمع جمعٌ جمٌّ من أهل ديار بكر والجزيرة والشّام، وسار بهم الأمير شمس الدين بن المقدّم، شيخ أمراء الإسلام الكرام، فودّعه السلطان على كُرّه من مفارقتة، واستمهله ليحج في السنة الأخرى على مرافقته. فقال ما معناه: إن العمر قد فرغ، والأمد^(١) قد بلغ، والشَّيب قد أنذر، والفرض قد أعذر، فأغنتم فرصة الإمكان قبل أن يتعذّر. فمضى والسَّعادة تقوده، والشَّهادةُ تروده، حتى وصل إلى عَرَقات، وما عرف الآفات، وشاع وصوله، وراع قَبُوله، وضربت طُبوله، وسالت سيولُه، وجالت خيولُه، وضربت خيامه، وخَفَقَت أعلامُه، فلما أصبحوا نَقَرَت على العادة نَقَارَاتُه، ونَعَرَت^(٢) بوقَاتُه، فغاض ذلك أمير الحاج العراقي، فركب إليه في أحزابه، فأوقع به وبأصحابه، وأبلاهم بجراحه ونهايه، وجرى حُكْمُ الله الذي كان [ضَرْبُ]^(٣) الطَّبْلِ أوكَدَ أسبابه، وقُتِلَ جماعةٌ من حاجّ الشّام، وجُرحوا، وهتكت أَسَارُهُمْ وافتضحوا. ونقل أميرُ الحاج طاشتِكِين^(٤) شمسَ الدِّين بن المقدّم إلى خيمته وهو مجروح، وفيه رُوح، وحمله معه إلى مِنَى، ففُضِيَ ودُفِنَ بالمَعْلَى، وتَمَّ ذلك بقضاء الله وقَدَره، في تقلُّب حوادث الدَّهر وغيرِه، وارتاع أميرُ الحاج بما اجترمه، وكيف لم يراقب الله وأَحَلَّ

(١) في الأصل: والأمر، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) نعت: صاحت. «القاموس المحيط» (نعر).

(٣) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٤) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٦٠٢ هـ).

حَرَمَهُ، وكيف عدا على الحاجِّ العائذ بالله وسَفَكَ دمه، فكتب محضراً على ما اقترحه؛ بعُذْره فيما اجترحه، وألزم أعيان الحاجِّ من سائر البلاد، بوضع خُطوطهم على ما عيَّنه من المُراد، فكتبوا مُكرهين غيرَ مُشتهين. وكان عذره أنه أنكر عليه ضَرْبُ الطَّبْلِ فأبى. فلما انتهت [تلك]^(١) الحالة إلى الخليفة أنكرها إنكاراً شديداً، ونسبها إلى طَيْشٍ طاشْتِكِينَ، ولم يجد له رأياً سديداً، فلا جَرَمَ، انضع عنده قَدْرُهُ، واتضح له وَزْرُهُ، وهى أمره، وذخرها له حتى نَكَبَهُ بها بعد سنين وَحَبَسَهُ^(٢) وأطال سِجْنَهُ، ثم عفا عنه بعد مُدَّةٍ مديدة، وشِدَّةٍ شديدة، وولاه حَرْبَ بلاد خوزستان وخَرَّاجها، وولَّى إمارة الحاجِّ غيره. ولما وصل إلى السلطان خَبَرُ استشهادِ ابنِ المُقَدَّم وجماعته، لآمه على تَرْكِ الحزم وإضاعته، فاحتسبه عند الله غازياً شهيداً، ساعياً إلى الجَنَّةِ بقدمه سعيداً، وأقام ابنه عِزُّ الدين إبراهيم في بلاده مقامه، وأَقَرَّ عليه إنعامه^(٣).

وقال محمد بن القادسي في «تاريخه»، ونقلته من خَطِّه: أراد أميرُ الحاجِّ بالشَّام، وهو ابنُ المُقَدَّم، أن يرفع علماً على الجَبَلِ بالموقف، فمنعه أميرُ الحاجِّ طاشْتِكِينَ، وَجَرَتْ بينهما مراجعات أفضت إلى الخصومة بين حاجِّ العراق وحاجِّ الشَّام، ونهب البعض للبعض، وَجَرَتْ جراحات، فَجُرِحَ ابنُ المُقَدَّم، ولم تُغَيَّرِ العادةُ في ذلك [وأفاض الناس]^(٤)، ومات ابنُ المُقَدَّم بِمِنَى في اليوم الثاني، ووصلت النَّجَابة من مكة، فأخبروا بما جرى من

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٢) في الأصل: وحبسه بها، والمثبت من (ك) و(ب).

(٣) انظر «الفتح القسي»: ١٨٨ - ١٨٩.

(٤) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

أصحاب ابن المقدم، وقد شهد الشهود بذلك من الحجاج، فقرأ ذلك
بجامع القصر الشريف.

قال: وفي ثاني سؤال من هذه السنة توفي أبو الفتح محمد بن
عبيد الله بن عبد الله، سبط ابن التعاويذي^(١) الشاعر، وكان كاتباً بديوان
المقاطعات، وخدم بيت ابن رئيس الرؤساء، وأضر في آخر عمره، ومولده
عاشر رجب^(٢) سنة تسع عشرة وخمس مئة.

قال: وفي خامس رمضان توفي الفقيه الحنبلي أبو الفتح نصر بن
فثيان بن مطر، المعروف بابن المنّي^(٣)، وكان فقيهاً زاهداً صالحاً عالماً،
مولده سنة إحدى وخمس مئة، وتفق عليه جماعة من أئمة الحنابلة كالحافظ

(١) يقال لمن يكتب التعاويذ والرقى: تعاويذي، ولعل أبا جده كان يرقى ويكتب
لتعاويذ، وانظر ترجمته في «معجم الأدباء»: ٢٣٥/١٨ - ٢٤٩، و«المختصر
المحتاج إليه» ٦٦/١، والمنذري في «التكملة»: ١٠٣/١ - ١٠٤، و«وفيات
الأعيان»: ٤٦٦/٤ - ٤٧٣، «سير أعلام النبلاء»: ١٧٥/٢١ - ١٧٦، «العبر»
للذهبي: ٢٥٣/٤، «الوافي بالوفيات»: ١١/٤ - ١٦، و«نكت الهميان»:
٢٥٩ - ٢٦٣، «البداية والنهاية»: ٢٢٩/١٢، «النجوم الزاهرة»: ١٠٥/٦ - ١٠٦،
«شذرات الذهب»: ٢٨١/٤ - ٢٨٢،

قلت: وافق أبا شامة في ذكر سنة وفاته ابن كثير، وابن تغري بردي. والباقون
ذكروا وفاته سنة (٥٨٤ هـ).

(٢) في الأصل: رجب. والمثبت من (ك) و(ب).

(٣) انظر ترجمته في «التكملة» للمنذري: ٧٠/١ - ٧١، و«المختصر المحتاج إليه»:
٢١٢/٣، «سير أعلام النبلاء»: ١٣٧/٢١ - ١٣٨، «العبر» للذهبي: ٢٥١/٤،
و«البداية والنهاية»: ٣٢٩/١٢، «ذيل طبقات الحنابلة»: ٣٥٨/١ - ٣٦٥،
و«النجوم الزاهرة»: ١٠٦/٦، و«شذرات الذهب»: ٢٧٦/٤ - ٢٧٨.

عبد الغني بن عبد الواحد بن سرور، وأخيه إبراهيم، والشيخ الموفق
عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، ومحمد بن خَلَف بن راجح، والنَّاصح
عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهَّاب، وعبد الرَّزَّاق بن الشيخ عبد القادر
الجَيْلي، وغيرهم.

[تجز الجزء الثالث من كتاب الروضتين

ويليه الجزء الرابع

ويبدأ بحوادث سنة ٥٨٤ هـ].

المحتوى

حوادث سنة أربع وسبعين وخمس مئة	٥
امتناع ابن المقدم عن المجيء إلى دمشق خوفاً من انتزاع بعلبك منه ..	٥
مسير السلطان صلاح الدين إلى حمص وعزمه على الجهاد	٥
كتب من القاضي الفاضل إلى السلطان صلاح الدين	٦
فصل/ ذكر ما أسقطه السلطان صلاح الدين من	
مكس مكة عن الحاج	٩
وفاة الحكيم مهذب الدين علي بن عيسى المعروف بابن النقاش	١٤
وفاة الأمير نجم الدين بن مصال بمصر	١٥
إغارة طائفة من الإفرنج على حماة وانهزامهم	١٥
رحيل صلاح الدين إلى بعلبك ثم دمشق	١٦
رضا ابن المقدم بالتزول عن بعلبك، وأخذه حصن بعيرين	
وأعماله وغيرها بدلاً عنها	١٦
فصل/ في حوادث متفرقة	١٦
وفاة متولي المقياس بمصر، ونبذة عن المقياس وتاريخه	١٧
وقوع القحط والغلاء والوباء في العراق ومصر وديار بكر	
والجزيرة والشام، وغير ذلك من البلاد	١٨
فصل/ في عمارة بيت الأحزان ووقعة الهنفري	١٩
فصل/ سفر القاضي الفاضل إلى الحج	٢١
فصل/ فيما فعل صلاح الدين مع الفرنج من تخريب غلاتهم	
في بانياس وبيروت وصيدا	٢٦

إغارة إبرنس أنطاكية على شيزر، وغدر قومص أطرابلس

- ٢٧ بجماعة من التركمان بعد الأمان
- ٢٧ حوادث سنة خمس وسبعين وخمس مئة
- ٢٧ وقعة مرج عيون مع الفرنج وانهزامهم
- ٣١ مسير تقي الدين عمر إلى رعبان، وانهزام قليج أرسلان منه
- غزو الأساطيل الإسلامية ودخولها سواحل البلاد
- ٣٥ الرومية والإفرنجية
- ٣٦ فصل/ في تخريب حصن بيت الأحزان
- ٤٦ فصل/ في باقي حوادث هذه السنة
- ٤٦ حجة القاضي الفاضل الثانية
- ٤٨ ختان الملك العزيز أبي الفتح عثمان بن صلاح الدين
- ٥٠ وفاة الملك المنصور حسن بن صلاح الدين
- ٥٠ إغارة عز الدين فرخشاه على صفد
- ٥٠ وفاة الخليفة المستضيء بالله وولاية ابنه الناصر لدين الله
- ٥٢ القبض على صاحب المخزن ظهير الدين بن العطار وقتله
- توجه شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن إسماعيل إلى
- ٥٣ البهلوان شحنة همذان من أجل الخطبة للخليفة
- ٥٣ اشتداد الغلاء والوباء في بغداد
- ٥٣ وقوع زلزلة في إربل
- ٥٤ خروج قراقوش غلام تقي الدين إلى طرابلس الغرب
- حوادث سنة ست وسبعين وخمس مئة
- ٥٤ وفاة الحافظ أبي طاهر السلفي
- ٥٤ الهدنة بين صلاح الدين والفرنج

توجه صلاح الدين إلى بلد الروم وإصلاحه بين نور الدين	
محمد بن قرا أرسلان وعز الدين قليج أرسلان بن مسعود	٥٥
دخول صلاح الدين بلاد الأرمن وهدم قلعة المانقير	٥٥
الصلح بين صلاح الدين والأرمن	٥٦
عودة صلاح الدين إلى دمشق	٥٦
فصل/ وفاة صاحب الموصل سيف الدين غازي بن	
مودود بن زنكي وولاية أخيه عز الدين مسعود	٦٠
فصل/ في وفاة شمس الدولة بن أيوب أخي السلطان	
الأكبر وقدم رسل الديوان بالتفويض إلى السلطان ما طلبه	٦٣
فصل/ في رجوع السلطان إلى مصر مرة ثانية	٦٧
تعريب العماد كتاب كيمياء السعادة للغزالي	٧١
وفاة المعتمد إبراهيم صاحب العماد الكاتب	٧١
سفر قراقوش غلام تقي الدين إلى قابس ومحاصرته جملة قلاع	٧٢
حوادث سنة سبع وسبعين وخمس مئة	٧٣
سماع صلاح الدين الأحاديث النبوية بقراءة الإمام تاج الدين	
البندهي في القاهرة	٧٣
فصل/ في ذكر وفاة الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين،	
وما تم في بلاده بعده، وذلك بحلب	٧٥
وصية الملك الصالح لابن عمه عز الدين بولاية حلب وقدمه إليها	٧٧
كتاب صلاح الدين إلى بغداد	
يستعدي فيه الخليفة على ولاية الأمر بحلب والموصل	٨٣
فصل/ في توجه السلطان إلى الإسكندرية وسماعه هناك موطأ	
مالك من الإمام أبي طاهر بن عوف بروايته عن الطرطوشي	٨٩

٩٢	فصل/ في أمور تتعلق بولاية اليمن
	قبض صلاح الدين على سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ
٩٣	لوشاية بلغته وإفراج السلطان عنه
	اضطراب أمور اليمن بعد وفاة الملك المعظم شمس الدولة
٩٤	تورانشاه أخي صلاح الدين
٩٥	ولاية سيف الإسلام طغتكين أخي صلاح الدين اليمن
٩٥	مقتل حطان بن منقذ والي زبيد
٩٦	فرار عز الدين عثمان بن الزنجيلي صاحب عدن إلى الشام
٩٨	فصل/ في باقي حوادث هذه السنة
	وصول خطيب المزة إلى السلطان من دمشق وكان قد زور
٩٨	كتاباً عن السلطان
٩٩	نقض الفرنج للهدنة مع صلاح الدين
٩٩	ولادة الملك المعظم تورانشاه بن صلاح الدين
٩٩	ولادة الملك المحسن أحمد بن صلاح الدين
	مسير قراقوش غلام تقي الدين إلى إفريقية ومحاربه عسكر
٩٩	الموحدين بالقيروان
	وفاة كمال الدين أبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي
١٠٠	سعيد الأنباري النحوي
١٠١	وفاة الشاعر أبي الحسن علي بن يحيى المصري المعروف بابن الذروي
١٠٣	فصل/ في عود السلطان من الديار المصرية إلى الشام
	حوادث سنة ثمانٍ وسبعين وخمس مئة
١٠٥	رحيل السلطان عن مصر قاصداً الشام

- إغارة عز الدين فرخشاه على بلاد طبرية وعكا وفتح دبورية،
وحبس جلدك، ورجوعه بالغنائم والأسرى ١٠٦
- إغارة السلطان على بلاد طبرية ويسان ١٠٦
- فصل/ في مسير السلطان إلى بلاد المشرق مرة ثانية ١١١
- توجه السلطان نحو بعلبك وتخيمه بالبقاع ومهاجمة بيروت
بالأسطول ثم عوده إلى بعلبك ثم حمص ١١١
- مسير السلطان إلى حماة ١١٣
- التحاق مظفر الدين كوكبري بالسلطان عند اقترابه من حلب
ومصيره من جملة أتباعه ١١٣
- اقتراح مظفر الدين على السلطان عبور الفرات، وفتح ما وراءه
من البلاد وترك حلب ١١٣
- رحيل السلطان إلى بلاد الشرق بعد إقامته على حلب
ستة أيام ١١٤
- إقامة السلطان بتل خالد ثلاثة أيام ثم رحيله إلى البيرة ١١٥
- كتاب السلطان إلى الخليفة في بغداد شارحاً لأحواله
وموضحاً موقفه من حكام الموصل ١١٦
- إغارة الأسطول المصري على موانئ الفرنجة ١٢٢
- الاستيلاء على بطسة فرنجية ١٢٢
- مكاتبة السلطان ملوك المشرق للقدوم عليه للاتفاق على أن
من جاء منهم مستسلماً سلمت بلاده إليه على أن يكون من
أجناد السلطان وأتباعه ١٢٢
- مجيء رسول صاحب حصن كيفا بالإذعان ١٢٢

رحيل السلطان من البيرة ونزوله على الرها، وولاية	
مظفر الدين كوكبري لها مضافة له إلى حران	١٢٣
وصول السلطان إلى حران، وانفصاله عنها إلى الرقة	
وأخذها من صاحبها قطب الدين ينال بن حسان	١٢٣
فتح السلطان الخابور	١٢٣
نزول السلطان على نصيبين وتوليها لحسام الدين أبي	
الهيحاء السمين	١٢٣
تولية جمال الدين خوشترين الخابور	١٢٣
محاصرة السلطان الموصل	١٢٣
مكاتبة حكام الموصل للخليفة في أن يشفع لهم إلى السلطان	١٢٤
رحيل السلطان عن الموصل وقصده سنجار	١٢٤
محاصرة السلطان سنجار وفتحها وتولية ابن أخيه تقي الدين لها	١٢٥
تولية الأمير سعد الدين مسعود بن أنر قلعة سنجار	١٢٦
رحيل السلطان إلى نصيبين وإقامته بها، وعزل أبي الهيحاء	
عنها ثم مسيره إلى دارا، ثم إقامته في حران للاستراحة	١٢٦
فصل/ في وفاة فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب	١٢٦
فصل/ في أخذ السالكين البحر لقصد الحجاز وهو في إغارة	
الفرنج على سواحل الحجاز وانهزامهم	١٣٣
إغارة الأسطول المصري على الفرنج وعوده غانماً	١٤١
فصل/ في باقي حوادث هذه السنة	١٤١
إنعام السلطان على نور الدين محمد بن قرا أرسلان بأعمال	
الهيثم وكانت تابعة للموصل	١٤١
اجتماع ملوك خلاط وماردين والموصل وأرزن وبدليس وغيرهم	

- من عسكر حلب وعزمهم على لقاء السلطان وهو في حران،
 ١٤٢ وتفرقهم من بعد حين علموا بتوجه السلطان نحوهم
 نزول قراقوش غلام تقي الدين على بلد زالوت وتملكه ثم قصده
 ١٤٣ طرابلس وحصارها ثم رحيله عنها بعد مصالحتها
 ١٤٥ مسير قراقوش إلى قابس وقصر الروم وغيرها من النواحي
 ١٤٥ فصل/ في مسير السلطان إلى آمد وحصارها
 ١٤٥ حوادث سنة تسع وسبعين وخمس مئة
 ١٤٥ فتح السلطان آمد وولاية نور الدين محمد بن قرا أرسلان لها
 إعطاء السلطان خزانة كتب آمد - وكان فيها ألف ألف وأربعون ألف
 ١٤٦ كتاب - للقاضي الفاضل
 طلب صاحب ماردين وصاحب ميا فارقين الأمان من صلاح الدين
 وإجابة السلطان لهم ١٥٦
 ١٥٦ رحيل السلطان من آمد قاصداً حلب
 ١٥٦ تسلم السلطان تل خالد وتولية بدر الدين دلدرم له
 فصل/ في فتح حلب
 تسليم عماد الدين زنكي حلب على أن يعوض عنها بسنجار ونصيبين
 والخابور والرقعة وسروج ويتعهد عماد الدين بإرسال العسكر للغزاة . ١٥٧
 ١٥٨ وفاة تاج الملوك أخي السلطان من جرح أصابه
 ١٦٥ ولاية حسام الدين طمان الرقة
 ١٧٢ فصل/ فيما جرى بعد فتح حلب
 ١٧٢ مكاتبة والي حارم للفرننج يطلب نجدتهم
 ١٧٣ تسلم صلاح الدين حارم
 ١٧٣ ولاية الملك الظاهر بن صلاح الدين حلب

١٧٥	هدنة صلاح الدين مع أنطاكية
١٧٥	إسقاط صلاح الدين المكوس عن حلب والرقّة
١٧٧	غزو الأسطول المصري الساحل الفرنجي وظفره ببطسة مقلعة من الشام
١٧٧	خروج والي الشرقية لقتال فرنج الداروم وكسرهم
	كتاب صلاح الدين إلى الخلافة في بغداد داعياً إلى الوحدة الإسلامية
١٧٩	لمواجهة الفرنج
	فصل/ في رجوع السلطان إلى دمشق وخروجه منها للغزاة
١٨٤	بمخاضة الأردن
١٨٥	مهاجمة فرنج الكرك والشوبك وكسرهم
	اجتماع الفرنج في صفورية، واستعداد صلاح الدين للقائهم ثم رجوع
١٨٦	الفرنج إلى بلادهم ناكسين
١٨٦	رجوع السلطان إلى دمشق
١٩٠	فصل/ في ولاية الملك العادل حلب، وولاية تقي الدين مصر
	مجيء القاضي ابن شداد مع وفد الموصل لإبرام الصلح مع
١٩٦	صلاح الدين وعوده دون الاتفاق على ذلك
	مجيء رسل صاحب الجزيرة وصاحب إربل وصاحب الحديثة وتكرت
١٩٨	يشكون من صاحب الموصل ويطلبون أن يكونوا مع السلطان
١٩٩	فصل/ في باقي حوادث هذه السنة
٢٠٠	قبض عز الدين صاحب الموصل على مجاهد الدين قايماز
٢٠١	وفاة الشاعر أبي عبد الله محمد بن بختيار المعروف بالأبله
٢٠٢	حوادث سنة ثمانين وخمس مئة
٢٠٢	حصار السلطان للكرك
٢٠٣	مسير الفرنج نحو الكرك لفك الحصار
	تراجع السلطان عن الكرك وإقامته برأس الماء

٢٠٤	وإرسال العسكر لمهاجمة نابلس وجنين
٢٠٩	رجوع السلطان إلى دمشق للاجتماع برسل الخلافة
	وفاة صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل شيخ الشيوخ
٢٠٩	بالرحبة منصراً من دمشق إلى بغداد
	فصل/ يحتوي على ذكر المفاضلة بين مصر والشام والتعريف بحال
٢١٣	زين الدين الواعظ
٢١٩	وصف دمشق للوزير صفى الدين بن شكر
٢٢١	فصل/ في باقي حوادث هذه السنة
٢٢٢	كتاب صلاح الدين إلى صاحب إربل منشوراً ببلاده
٢٢٢	وفاة قطب الدين إيلغازي بن ألبى بن تمر تاش صاحب ماردين
	وفاة خليفة المغرب يوسف بن عبد المؤمن بن علي
٢٢٣	وولاية ابنه يعقوب من بعده
	مسير صلاح الدين نحو إربل لإنقاذ صاحبها من هجوم عسكر
٢٢٣	الموصل وعسكر قزل عليه
٢٢٤	حوادث سنة إحدى وثمانين وخمسة مئة
٢٢٤	وصول السلطان إلى حلب، وخروجه منها قاصداً الموصل
	نزول السلطان على حران وارتياحه من مظفر الدين كوكبري
٢٢٤	لشيء بلغه عنه
	قبض السلطان على مظفر الدين ليتبين أمره وأخذه
٢٢٥	قلعتي الرها وحران منه، ثم عفو السلطان عنه
٢٢٧	خروج السلطان من حران نحو الموصل وحصاره لها
	إرسال صلاح الدين رسولاً إلى الخليفة يخبره بما عزم
٢٢٧	عليه من حصار الموصل

فصل/ فيما فعل السلطان في أمر خلاط وميافارقين وغيرهما

من البلاد ٢٣١

مسير السلطان إلى خلاط بعد وصول خبر وفاة صاحبها

شاه أرمن ٢٣١

استيلاء سيف الدين بكتمر غلام شاه أرمن على خلاط ٢٣٢

فتح السلطان ميافارقين ٢٣٣

عودة السلطان إلى الموصل لحصارها ٢٣٤

فصل/ في انتظام الصلح مع أهل الموصل، ومرض السلطان

المرضة المشهورة بحران ٢٣٥

فصل/ في باقي حوادث هذه السنة، ومن توفي فيها

من الأعيان ٢٤٣

وفاة الخاتون عصمة الدين ابنة معين الدين أنر ٢٤٣

وفاة ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص ٢٤٤

وفاة سعد الدين مسعود بن أنر ٢٤٥

وفاة عز الدين جاولي الأسدي ٢٤٦

مقتل قوام الدين أبي محمد عبد الله بن سماقة وزير صاحب آمد ٢٤٦

وفاة الشاعر الفقيه مهذب الدين عبد الله بن أسعد

الموصلية المعروف بابن الدّهان ٢٤٧

رد السلطان قلعتي الرها وحران إلى مظفر الدين كوكبري ٢٤٧

ورود تفويض من الخليفة بولاية صلاح الدين ماردين وحصن كيفا ... ٢٤٨

وفاة الحافظ أبي موسى محمد بن عمر المديني ٢٤٩

وفاة الشيخ جمال الدين أبي الفتح محمود بن أحمد المعروف

بابن الصابوني ٢٤٩

٢٥٢	حوادث سنة اثنتين وثمانين وخمسة مئة
٢٥٢	عودة السلطان إلى دمشق
	فصل/ في ذكر ما استأنفه السلطان بمصر والشام من نقل
٢٥٤	الولايات بين أولاده
٢٥٤	نقل الملك الأفضل إلى الشام من مصر
٢٥٥	تعيين العزيز بن صلاح الدين بمصر
٢٥٦	عزم تقي الدين على غزو المغرب
٢٥٧	قدوم تقي الدين من مصر إلى الشام بأمر من السلطان
٢٥٧	وصول العادل والعزيز إلى مصر
٢٥٧	مسير الملك الظاهر إلى حلب
٢٥٧	غزو زين الدين يوزبا مملوك تقي الدين المغرب
٢٦٠	زواج الملك الظاهر بن صلاح الدين من ابنة عمه العادل
	زواج الملك الأفضل بن صلاح الدين من ابنة ناصر الدين
٢٦٠	محمد بن شيركوه
٢٦٣	فصل/ في باقي حوادث هذه السنة
	تخرص المنجمين في جميع البلاد بخراب العالم في هذه السنة وخزيهم
٢٦٣	في ذلك
٢٦٧	وفاة أبي محمد عبد الله بن بري بن عبد الجبار النحوي
٢٦٨	وفاة شمس الدين محمد بن أتابك الدكر المعروف بالبهلولان
٢٧٠	القتال بين التركمان والأكراد بأرض نصيبين
٢٧٠	عصيان معين الدين بالرواندان ومحاصرة عسكر حلب له
٢٧٠	ولاية علم الدين سليمان بن جندر الرواندان
٢٧١	وصول معين الدين إلى السلطان

٢٧١	استيلاء سيف الإسلام طغتكين أخي صلاح الدين على مكة
٢٧١	الفتنة في أصبهان بعد وفاة البهلولان
	فصل/ في الخلف الواقع بين قومص طرابلس وملك
٢٧٢	بيت المقدس ومصافة قومص طرابلس للسلطان
٢٧٤	نقض إبرنس الكرك أرناط للهدنة مع صلاح الدين
	حوادث سنة ثلاث وثمانين وخمس مئة وهي سنة كسرة
٢٧٥	حطين وفتح الساحل والأرض المقدسة للمسلمين
	مسير السلطان للغزاة ووقعة حطين المباركة من رواية
٢٧٦	العماد الكاتب
٢٨٨	مقتل أرناط صاحب الكرك بعد أسره
٢٩٢	فصل/ وصف معركة حطين من رواية ابن شداد وغيره
٣٠٨	فصل/ في فتح عكا
	فصل/ في فتح نابلس وجملة من البلاد الساحلية بعد فتح
٣١٤	عكا وطبرية، وذكر بعض كتب البشائر الشاهدة لذلك
	فصل/ في فتح تبين وصيدا وبيروت وجبيل وغيرها
٣٢١	ومجيء المراكيس إلى صور
٣٢٦	فصل/ في فتح عسقلان وغزة والداروم وغيرها
٣٣٠	فتح البيت المقدس شرفه الله تعالى
	فصل/ في نزول السلطان على البيت المقدس وحصره
٣٣٨	وما كان من أمره
٣٤٤	فصل/ في ذكر يوم الفتح وبعض كتب البشائر إلى البلاد
	فصل/ في كتب السلطان إلى القاضي الفاضل يبشره بالفتح
٣٥٣	وكان القاضي مريضاً بدمشق

- فصل/ في قصائد مدح بها السلطان عند فتح البيت المقدس ٣٦١
- فصل/ في صفة إقامة الجمعة بالأقصى — شرفه الله تعالى — في
- رابع شعبان ثامن يوم الفتح ٣٧٦
- فصل/ في إيراد ما خطب به القاضي محيي الدين رحمه الله ٣٨٤
- فصل/ في المنبر الذي وضع في المسجد الأقصى ٣٩٢
- فصل/ في الصخرة المقدسة وإزالة ما بني عليها ٣٩٦
- فصل/ في خروج الفرنج من بيت المقدس بعد فتحه ٤٠٠
- فصل/ قصائد قدسيات للحكيم أبي الفضل عبد المنعم بن
- عمر الجلياني وغيره ٤٠٣
- فصل/ في حصار صور وفتح هونين ٤١١
- استشهاد محمود أخي عز الدين جاولي في عفرلا ٤١٤
- فصل/ في ورود رسل التهاني من الآفاق وقدوم الرسول
- العائب من العراق ٤١٥
- وصول أبي بكر حامد أخي العماد الكاتب من دار الخلافة
- برسالة عتب إلى السلطان لإرساله البشارة في فتح البيت
- المقدس مع جندي خامل ٤١٧
- فصل/ في باقي حوادث سنة ثلاث وثمانين
- مقتل شمس الدين بن المقدم في عرفة ٤٢٣
- وفاة الشاعر أبي الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله
- سبط ابن التعاويذي ٤٢٦
- وفاة الفقيه الحنبلي أبي الفتح نصر بن فتيان بن مطر
- المعروف بابن المنى ٤٢٦